الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

صور من حياة الصحابة

دار الأدب الإسلامي
للنشر والتوزيع

صور من حياة الصحابة

عنوان الكتاب: صور من حياة الصحابة (١ - ٨)

المؤلف: الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

اعتنى به: يمان بن عبد الرحمن الباشا

الغلاف والخطوط: منير الشعراني

الإعداد الفني والتنضيد الضوئي: دار الأدب الإسلامي

الطبعة الأولى: ٣ / ١ / ٢٠٠٦ م

رقم الإيداع: ١٥٢٥ / ٢٠٠٦

I.S.B.N.: 977-5827-12-4

ILH

Islamic Literature House

For Pub. & Dish

ص. ب.: ٨١ - بريد بانوراما ١١٨١١ القاهرة

جمهورية مصر العربية

هاتف وناسوخ: ٥١٤٧٦٢٦ (٢) ٢٠ +

خلوي: ٥١٠٥٥٧٧ (١٠) ٢٠ +

P.O.Box: 81 - Panorama 11811

Cairo - Egypt

Tel.&Fax: +20(2)5147626

Mob.: +20(10)5105577

E.Mail: ilhonline@yahoo.com

Website: www.ilhonline.com

كلمة النّاشر

الحمد للّه ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ سيد المرسلين وخاتم النّبيين، وآله وأصحابه الّذين اتبعوه واقتدوا به قولًا وفعلًا وعدلًا وإحسانًا، وبعدُ...

فإنّ هٰذا الكتابَ بطبعته الشّرعيّة الجديدةِ؛ جُمعت به الكتبُ السّبعة الّتي سبق نشرها متضمنةً إضافاتٍ، وتنقيحاتٍ، تركها المؤلف ـ رحمه اللّٰه ـ مضافًا إليها الكتاب الثّامن من تلك السّلسلة؛ والّذي ينشر للمرّة الأولىٰ...

كما عملنا علىٰ إحلال صور جديدة للصّحابة محل ما سبق نشره من الصّحابيات، بعد أن أفردنا لهنّ كتاب مستقل يحمل اسم «صور من حياة الصّحابيات»... راجين العلي القدير أن يعيننا علىٰ إصدار بقية ما تركه المؤلف ـ رحمه اللّٰه ـ من صورٍ جديدةٍ لحياة صحابة الرّسول الكريم ﷺ، وبشكل متتابع إن شاء اللّٰه.

ونزولًا عند رغبة القرآء الكرام؛ ألحقنا بعد هٰذه الكلمة تعريفًا موجزًا بصاحب الكتاب ـ رحمه اللّٰه ـ.

ولا يفوتنا أن ننبهَ القارئَ الكريمَ إلىٰ أنّنا أصحاب الحقّ الوحيدون لنشر، وطبع، وتوزيع جميع كتب الدّكتور عبد الرّحمٰن رأفت الباشا ـ رحمه اللّٰه ـ، ونبرأ إلىٰ اللّٰهِ تعالىٰ مما يظهر في السّوق من طبعات لا علم لنا بها...

ونُذَكِّر بأنّ علماء مجمع الفقه الإسلامي التّابع لمنظمة المؤتمر الإسلاميّ قد

أجمعوا في قرارهم رقم (٥) د ١٩٨٨/٩/٥م أنّ :

« حقوق التّأليف والاختراع أو الابتكار مصونة شرعًا ، ولأصحابها حق التّصرف فيها ، ولا يجوز الاعتداء عليها » .

وإنّنا علىٰ ثقة تامة بأنّ القارئَ الكريمَ يملكُ البصيرةَ الّتي تميّز الغثّ من السّمين ، وتوازنُ بين الأصيل وما هو غير أصيل .

سائلين اللّٰه تعالىٰ أن يغنيّنا بحلاله عن حرامه ، وبطاعته عن معصيته ، وبفضله عمّن سواه ...

وحسبنا اللّٰه ونعم الوكيل ... وهو الهادي إلىٰ سواء السّبيل .

النـاشــــر

نبذة عن المؤلّف

● ولد الدّكتور عبد الرّحمٰن رأفت الباشا عام ١٩٢٠م في بلدة « أريحا » شمال « سوريّة » ، وتلقىٰ دراسته الابتدائيّة فيها ، ثمّ تخرج في المدرسة « الخسرويّة » بحلب ؛ وهي أقدم مدرسة شرعيّة رسميّة في « سوريّة » ... أمّا دراسته الجامعيّة ؛ فتلقاها في « القاهرة » ؛ حيث نال الشّهادة العاليّة لكليّة أصول الدّين في الأزهر المعمور ، وشهادة اللّيسانس أيضًا في الأدب العربيّ من كليّة الآداب بجامعة فؤاد الأوّل ، ثمّ درجتي الماجستير والدّكتوراه من هٰذه الجامعة الّتي أُطْلِقَ عليها فيما بعد اسم جامعة القاهرة .

● اشتغل ـ رحمه اللّٰه ـ مدرسًا فمفتشًا ، ثمّ كبيرًا لمفتشي اللّغة العربيّة في « سوريّة » ، ثمّ مديرًا لدار الكتب الظّاهريّة المنبثقة عن المجمع العلميّ العربيّ في « دمشق » ، وأستاذًا محاضرًا في كليّة الآداب في جامعة دمشق .

● ثمّ انتقل إلىٰ « المملكة العربيّة السّعوديّة » للتّدريس في كليّة اللّغة العربيّة بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة [الرّئاسة العامّة للكليّات والمعاهد العلميّة سابقًا] سنة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م ؛ وقد شغل منصب رئيس قسم البلاغة والنّقد ومنهج الأدب الإسلاميّ ، وكان عضوًا في المجلس العلميّ في الجامعة منذ أن وُجِدَ ، وعُهِدَ إليه بلجنة البحث والنّشر في الجامعة ذاتها ، ولقد أسهم ـ رحمه اللّٰه ـ إسهامًا كبيرًا في تطوير مناهج الدّراسة ، وإقرار مادّة البحوث في كليّة اللّغة العربيّة ؛ الّتي امتدّ عمله بها إلىٰ ثلاثين عامًا .

* * *

لقد أمضىٰ الدّكتور عبد الرّحمٰن رأفت الباشا حياته العلميّة والعمليّة منذ بدايتها مكافحًا ومنافحًا عن لغة القرآن ... داعيًا إلىٰ فنّ أدبيّ لا يكتفي بجمال التّعبير و إبداع التّصوير ؛ و إنّما يُشترط فيه أن يكون ممتعًا هادفًا نافعًا في وقتٍ معًا ... فنّ أدبي إسلاميّ يلتزم أمام إله متّصف بصفات الكمال كلّها ، منزّه عن صفات النّقص جميعها ...

ويكون بسماته هٰذه مغايرًا للتّيارات الأدبيّة الأخرىٰ الّتي تلتزم أمام النّفوس البشريّة الأمّارة بالسّوء .

ومع أنّه ـ رحمه الله ـ لم يكن هو أوّل من دعا إلىٰ إيجاد هٰذا الأدب ، فقد سبقه إلىٰ ذلك كثير من المفكرين ، وهو ـ رحمه الله ـ يعترف بذلك ويقر بالفضل لأهله ...

لٰكنّه استطاع أن يجعل أماني أولئك العلماء حقيقة واقعة ...

فقد سعىٰ ـ رحمه الله ـ لإيجاد عمل موسوعي يخدم الأدب الإسلاميّ ويكون له بمثابة الخلفيّة التّاريخيّة ، والقاعدة الصّلبة الّتي ينهض عليها بناؤه ؛ ليساعد الدّارسين في معرفة هٰذا الأدب ودراسة خصائصه ورصد موضوعاته ... ومن هنا ظهرت فكرة « **موسوعة أدب الدّعوة الإسلاميّة** » الّتي تبنتها كليّة اللّغة العربيّة بالرّياض ، والّتي تمّت تحت إشرافه وتوجيهه ـ رحمه الله ـ حيث كانت نتاج مادة البحث لطلبة السّنة النّهائيّة بكليّة اللّغة العربيّة ، وصدر منها ستة أسفار :

١ - شعر الدّعوة الإسلاميّة « في عصر النّبوة والخلفاء الرّاشدين » .
إعداد عبد اللّٰه حامد الحامد . « ١٣٩١هـ - ١٩٧١م » .

٢ - شعر الدّعوة الإسلاميّة « في العصر الأمويّ » .
إعداد عبد العزيز محمّد الزّير ، ومحمّد بن عبد اللّٰه الأطرم . « ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م » .

٣ - شعر الدّعوة الإسلاميّة « في العصر العباسيّ الأوّل » .
إعداد عبد اللّٰه عبد الرّحمٰن الجعيثن . « ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م » .

٤ - شعر الدّعوة الإسلاميّة « في العصر العباسيّ الثّاني » .
إعداد عائض بنية الرّداديّ . « ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م » .

٥ - شعر الدّعوة الإسلاميّة « في العصر العباسيّ الثّالث » .
إعداد محمّد بن عليّ الصّامل ، وعبد اللّٰه بن صالح العرينيّ . « ١٤٠١هـ - ١٩٨١م » .

هٰذا في مجال الشّعر ، أمّا في مجال النّثر ، فقد صدرت « القَصص الإسلاميّة في

عهد النّبوة والخلفاء الرّاشدين » في مجلّدين اثنين كبيرين ؛ أربىٰ عدد صفحاتهما علىٰ الألف ... إعداد أحمد بن حافظ الحكميّ . « ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م » .

وقد كان لصدور هٰذه الأسفار من الموسوعة ؛ أثر ملموس في تغيير بعض المُسَلَّمَات الأدبيّة الخاطئة عن الشّعر الإسلاميّ ، ولا سيما في عصر النّبوة والخلفاء الرّاشدين ... فلقد كتبت الدّكتورة عائشة عبد الرّحمٰن « بنت الشّاطئ » مقالًا نُشر بالأهرام في عدد يوم الجمعة الواقع في ١٩٧٥/٧/١١م بعنوان : « الإسلام والشّعر والمستوىٰ الفني لشعر الصّحابة » ، وذلك بمناسبة الرّسالة الّتي أعدّها تحت إشرافها الأستاذ محمّد الرّاوندي ؛ المحاضر بدار الحديث الحسنيّة بالرّباط بعنوان : « الصّحابة الشّعراء » ، حيث نقلت فيها فِقرًا من مقدّمة الجزء الأوّل من موسوعة أدب الدّعوة الإسلاميّة في عصر النّبوة والخلفاء الرّاشدين ، وقررت أنّ الجهود الجديّة قلبت المُسَلَّمات الأدبيّة السّابقة قلبًا ؛ إذ كان الدّارسون - وهي منهم - يقيمون أحكامهم علىٰ حصر شعراء الدّعوة بما لا يزيد عن أصابع اليدين عددًا .

كما كان لهٰذه الأسفار أيضًا أثر كبير في إعداد الدّراسات الجامعيّة حول هٰذا الأدب ؛ حيث سُجّلت في جامعات الأزهر ، والقاهرة ، وبغداد ، والرّباط طائفة مِنَ البحوث حول هٰذا الأدب ؛ لنيل درجتي الماجستير والدّكتوراه .

* * *

هٰذا ، وقد عمل الدّكتور الباشا - رحمه اللّٰه - علىٰ توسيع نطاق التّعريف بهٰذا الأدب اليتيم - كما كان يُطْلِق عليه في بعض المناسبات - وذلك من خلال برنامج إذاعيّ سُجّلت حلقته الأولىٰ في شهر ربيع الآخر عام ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م وبثّته إذاعة « الرّياض » ، وقد أربىٰ عدد حلقاته علىٰ (٢٤٠) تحت اسم :

« مع أدب الدّعوة الإسلاميّة » .

* * *

وقد قام وحده - رحمه اللّٰه - برسم منهج إسلاميّ في الأدب والنّقد ، وعمل علىٰ إرساء قواعده ، وتبنّت جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة هٰذه الفكرة الرّائدة ، وأوسعت لها في المحاضرات الجامعيّة ... حتىٰ قُيِّض لمادّة منهج الأدب الإسلاميّ أن تقف علىٰ أرض صُلبة قويّة ، وأُنشئ علىٰ أثرها أوّل قسم خاص بها في العالم

الإسلاميّ ... وقد عبّر عن ذلك سماحة الشّيخ أبو الحسن النّدوي في التّقديم الّذي كتبه لكتاب « نحو مذهب إسلاميّ في الأدب والنّقد » حيث قال :

« كان الدّكتور عبد الرّحمٰن ممّن يتّصف بالعمل والتّطبيق ، فلم يستجب لهٰذه الفكرة استجابة فكريّة فحسب ، بل سَبَق إلىٰ تنفيذها وتجسيدها خلال تدريسه بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة ، و إشرافه علىٰ البحوث الأدبيّة ، ثمّ تطوّرت آماله إلىٰ تأسيس رابطة تُعْنَىٰ بهٰذا الموضوع ، وعَقَدَ ندوات حول الموضوع ، والتفَّ حوله أساتذة وكتّاب كان بينهم وبينه انسجام فكري ، وتحوّلت هٰذه الفكرة إلىٰ منظّمة عالميّة » .

لقد مرّ إنشاء هٰذه المنظّمة الّتي دعيت برابطة الأدب الإسلاميّ العالميّة بمراحل عديدة ؛ كان أهمّها ذلك الاجتماع الّذي عُقد في منزل الدّكتور الباشا في مدينة « الرّياض » عام ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م والّذي ضم لفيفًا من العلماء ؛ في طليعتهم سماحة الشّيخ أبو الحسن النّدوي ، وفي هٰذا الاجتماع وُضعت الخطوط العريضة لعقد ندوة عالميّة ؛ تَلُم شَعْث الأدباء في مشرق العالم الإسلاميّ ومغربه ... وهو موضوع شغل بال الدّكتور الباشا ـ رحمه اللّٰه ـ منذ أمد طويل .

ثمّ كانت النّدوة العالميّة للأدب الإسلاميّ في « لِكْنُو » في شهر جمادى الآخرة عام ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ، حيث دُعي إلىٰ هٰذه النّدوة عدد كبير من رجالات العالم الإسلاميّ المهتمين بالأدب ، وقد انتخب سماحة الشّيخ أبو الحسن النّدوي رئيسًا للرّابطة ؛ كما انتخب الدّكتور الباشا نائبًا لرئيسها ، وعضوًا في مجلس الأمناء ، ورئيسًا لمكتب البلاد العربيّة ...

كما شارك ـ الدّكتور الباشا ـ أيضًا في العديد من النّدوات والمؤتمرات ، وناقش وأشرف علىٰ عدد من رسائل الماجستير والدّكتوراه .

* * *

تُوُفّي ـ رحمه اللّٰه ـ في يوم الجمعة ١٤٠٦/١١/١٢هـ الموافق ١٩٨٦/٧/١٨م إثر مرض عضال في مدينة « اسطنبول » بتركيا ، وسُجّي جثمانه بمقبرة « الفاتح » هناك ؛ حيث يرقد كثير من الصّحابة والتّابعين الّذين أحبهم في حياته وجاورهم في مدفنه .

سائلين العليّ القدير أن يصحبهم في جنّات الخلد أيضًا .

يمان بن عبد الرّحمٰن الباشا

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ إنِّي أَحببتُ صَحابَةَ نَبيِّكَ محمدٍ صَلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ أَصْدَقَ الحُبِّ وأَعْمَقَه، فَهَبْني يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ لأيٍّ منهم، فإنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي ما أَحْبَبْتُهُمْ إلَّا فيكَ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمين.

الكتاب الأول

أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الأَنْصَارِيُّ

« اللّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالًا وَوَلَدًا ، وَبَارِكْ لَهُ »

[مِنْ دُعَاءِ الرَّسُولِ ﷺ لَهُ]

كَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فِي عُمُرِ الْوَرْدِ حِينَ لَقَّنَتْهُ أُمُّهُ « الْغُمَيْصَاءُ »[١] الشَّهَادَتَيْنِ ، وَأَتْرَعَتْ[٢] فُؤَادَهُ الْغَضَّ بِحُبِّ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ ...

فَشُغِفَ أَنَسٌ بِهِ حُبًّا عَلَى السَّمَاعِ .

وَلَا غَرْوَ ، فَالْأُذُنُ تَعْشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانًا ...

وَكَمْ تَمَنَّى الْغُلَامُ الصَّغِيرُ أَنْ يَمْضِيَ إِلَى نَبِيِّهِ فِي مَكَّةَ ، أَوْ يَفِدَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ عَلَيْهِمْ فِي « يَثْرِبَ » لِيَسْعَدَ بِرُؤْيَاهُ ، وَيَهْنَأَ بِلُقْيَاهُ .

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَى ذَلِكَ طَوِيلُ وَقْتٍ حَتَّى سَرَى فِي « يَثْرِبَ » الْمَحْظُوظَةِ الْمَغْبُوطَةِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَصَاحِبَهُ الصِّدِّيقَ فِي طَرِيقِهِمَا إِلَيْهَا ... فَغَمَرَتِ[٣] الْبَهْجَةُ كُلَّ بَيْتٍ ، وَمَلَأَتِ الْفَرْحَةُ كُلَّ قَلْبٍ ...

وَتَعَلَّقَتِ الْعُيُونُ وَالْقُلُوبُ بِالطَّرِيقِ الْمَيْمُونِ[٤] الَّذِي يَحْمِلُ خُطَا النَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبِهِ إِلَى « يَثْرِبَ » .

* * *

(١) قيل في اسمها الرُّمَيْصَاء والغُمَيْصَاء والأرجح أنهما وصف لها، انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

(٢) أَتْرَعَ : ملأ .

(٣) غَمَرَتْ : غطت وعلت وملأت .

(٤) الْمَيْمُون : المبارك .

وَأَخَذَ الْفِتْيَانُ يُشِيعُونَ مَعَ إِشْرَاقَةِ كُلِّ صَبَاحٍ :

أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ جَاءَ ...

فَكَانَ يَسْعَىٰ إِلَيْهِ أَنَسٌ مَعَ السَّاعِينَ مِنَ الْأَوْلَادِ الصِّغَارِ ؛ لَكِنَّهُ لَا يَرَىٰ شَيْئًا فَيَعُودُ كَئِيبًا مَحْزُونًا .

* * *

وَفِي ذَاتِ صَبَاحٍ شَذِيٍّ[1] الْأَنْدَاءِ ، نَضِيرِ الرُّوَاءِ ، هَتَفَ رِجَالٌ فِي « يَثْرِبَ » : إِنَّ مُحَمَّدًا وَصَاحِبَهُ غَدَوَا قَرِيبَيْنِ مِنَ الْمَدِينَةِ .

فَطَفِقَ الرِّجَالُ يَتَّجِهُونَ نَحْوَ الطَّرِيقِ الْمَيْمُونِ الَّذِي يَحْمِلُ إِلَيْهِمْ نَبِيَّ الْهُدَىٰ وَالْخَيْرِ ...

وَمَضَوْا يَتَسَابَقُونَ إِلَيْهِ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ ، تَتَخَلَّلُهُمْ أَسْرَابٌ[2] مِنْ صِغَارِ الْفِتْيَانِ تُزَغْرِدُ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ فَرْحَةٌ تَغْمُرُ قُلُوبَهُمُ الصَّغِيرَةَ ، وَتُتْرِعُ أَفْئِدَتَهُمُ الْفَتِيَّةَ ...

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ الصِّبْيَةِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ .

* * *

أَقْبَلَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَعَ صَاحِبِهِ الصِّدِّيقِ ، وَمَضَيَا بَيْنَ أَظْهُرِ الْجُمُوعِ الزَّاخِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ وَالْوِلْدَانِ ...

أَمَّا النِّسْوَةُ الْمُخَدَّرَاتُ[3] ، وَالصَّبَايَا الصَّغِيرَاتُ فَقَدْ عَلَوْنَ سُطُوحَ الْمَنَازِلِ ، وَجَعَلْنَ يَتَرَاءَيْنَ[4] الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَيَقُلْنَ :

---

(١) شَذِيّ : مطيب بالمسك .

(٢) تتخلّلهم أسْرابٌ : تتداخل بينهم ، والأسراب : مفردها سرب وهي جماعة من الطّير .

(٣) المُخدَّرات : المستقرات في خدورهن أي بيوتهن .

(٤) الترائي : الرؤية من بُعد .

أَيُّهُمْ هُوَ ؟! ... أَيُّهُمْ هُوَ ؟! .

فَكَانَ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ يَوْمًا مَشْهُودًا ...

ظَلَّ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ يَذْكُرُهُ حَتَّىٰ نَيَّفَ عَلَىٰ الْمِائَةِ مِنْ عُمُرِهِ .

* * *

مَا كَادَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ يَسْتَقِرُّ بِالْمَدِينَةِ ؛ حَتَّىٰ جَاءَتْهُ « الْغُمَيْصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ » أُمُّ أَنَسٍ ، وَكَانَ مَعَهَا غُلَامُهَا الصَّغِيرُ ، وَهُوَ يَسْعَىٰ بَيْنَ يَدَيْهَا ، وَذُؤَابَتَاهُ(١) تَنُوسَانِ(٢) عَلَىٰ جَبِينِهِ ...

ثُمَّ حَيَّتِ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَتْ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ... لَمْ يَبْقَ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَقَدْ أَتْحَفَكَ بِتُحْفَةٍ ، وَإِنِّي لَا أَجِدُ مَا أُتْحِفُكَ بِهِ غَيْرَ ابْنِي هَٰذَا ...

فَخُذْهُ ، فَلْيَخْدِمْكَ مَا شِئْتَ ...

فَهَشَّ النَّبِيُّ ﷺ لِلْفَتَىٰ الصَّغِيرِ وَبَشَّ(٣) ، وَمَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَمَسَّ ذُؤَابَتَهُ بِأَنَامِلِهِ النَّدِيَّةِ ، وَضَمَّهُ إِلَىٰ أَهْلِهِ .

* * *

كَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَوْ « أُنَيْسٌ » - كَمَا كَانُوا يُنَادُونَهُ تَدْلِيلًا - فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ يَوْمَ سَعِدَ بِخِدْمَةِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَظَلَّ يَعِيشُ فِي كَنَفِهِ وَرِعَايَتِهِ إِلَىٰ أَنْ لَحِقَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ(٤) .

فَكَانَتْ مُدَّةُ صُحْبَتِهِ لَهُ عَشْرَ سَنَوَاتٍ كَامِلَاتٍ ، نَهَلَ(٥) فِيهَا مِنْ هَدْيِهِ

(١) الذُّؤَابَة : الشَّعر المضفور من شعر الرَّأس.
(٢) تَنُوسَان : تتحركان وتتذبذبان متدليتين .
(٣) هَشَّ وبَشَّ : فرح به وأقبل عليه بوجه طلق .
(٤) لَحِقَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ : توفي .
(٥) نَهَل : شرب أول الشُّرب .

مَا زَكَّىٰ بِهِ نَفْسَهُ ، وَوَعَىٰ مِنْ حَدِيثِهِ مَا مَلأَ بِهِ صَدْرَهُ ، وَعَرَفَ مِنْ أَحْوَالِهِ وَأَخْبَارِهِ وَأَسْرَارِهِ وَشَمَائِلِهِ(١) مَا لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ سِوَاهُ .

* * *

وَقَدْ لَقِيَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ مِنْ كَرِيمِ مُعَامَلَةِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَظْفَرْ بِهِ وَلَدٌ مِنْ وَالِدٍ ...

وَذَاقَ مِنْ نَبِيلِ شَمَائِلِهِ ، وَجَلِيلِ خَصَائِلِهِ مَا تَغْبِطُهُ عَلَيْهِ الدُّنْيَا .

فَلْنَتْرُكْ لِأَنَسٍ الْحَدِيثَ عَنْ بَعْضِ الصُّوَرِ الْوَضَّاءَةِ مِنْ هَٰذِهِ الْمُعَامَلَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي لَقِيَهَا فِي رِحَابِ النَّبِيِّ السَّمْحِ(٢) الْكَرِيمِ ﷺ ، فَهُوَ بِهَا أَدْرَىٰ ، وَعَلَىٰ وَصْفِهَا أَقْوَىٰ ...

قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا ، وَأَرْحَبِهِمْ(٣) صَدْرًا ، وَأَوْفَرِهِمْ حَنَانًا ...

فَقَدْ أَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ فَخَرَجْتُ ، وَقَصَدْتُ صِبْيَانًا يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ لِأَلْعَبَ مَعَهُمْ وَلَمْ أَذْهَبْ إِلَىٰ مَا أَمَرَنِي بِهِ ، فَلَمَّا صِرْتُ(٤) إِلَيْهِمْ شَعَرْتُ بِإِنْسَانٍ يَقِفُ خَلْفِي ، وَيَأْخُذُ بِثَوْبِي ...

فَالْتَفَتُّ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبْتَسِمُ وَيَقُولُ :

(يَا أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ ؟) .

فَارْتَبَكْتُ وَقُلْتُ : نَعَمْ ...

إِنِّي ذَاهِبٌ الْآنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

---

(١) شَمَائِلِه : خصاله الحميدة .
(٢) السَّمْح : الجواد المعطاء اللّين .
(٣) أَرْحَبهم صَدْرًا : أوسعهم صدرًا وأطولهم أناة .
(٤) صِرْتُ إِلَيْهِم : انتهيت إليهم .

وَاللَّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ صَنَعْتَهُ...

وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لِمَ تَرَكْتَهُ؟!.

* * *

وَكَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِذَا نَادَى أَنَسًا صَغَّرَهُ[1] تَحَبُّبًا وَتَدْلِيلًا؛ فَتَارَةً يُنَادِيهِ يَا أُنَيْسُ، وَأُخْرَى يَا بُنَيَّ.

وَكَانَ يُغْدِقُ عَلَيْهِ مِنْ نَصَائِحِهِ وَمَوَاعِظِهِ مَا مَلَأَ قَلْبَهُ وَمَلَكَ لُبَّهُ.

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ لَهُ:

(يَا بُنَيَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ وَلَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ...

يَا بُنَيَّ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي...

وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ...

يَا بُنَيَّ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ).

* * *

عَاشَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَيِّفًا[2] وَثَمَانِينَ عَامًا؛ مَلَأَ خِلَالَهَا الصُّدُورَ عِلْمًا مِنْ عِلْمِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ، وَأَتْرَعَ فِيهَا الْعُقُولَ فِقْهًا مِنْ فِقْهِ النُّبُوَّةِ...

وَأَحْيَا فِيهَا الْقُلُوبَ بِمَا بَثَّهُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ[3] مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا أَذَاعَهُ فِي النَّاسِ مِنْ شَرِيفِ أَقْوَالِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ وَجَلِيلِ أَفْعَالِهِ.

---

(١) صَغَّرَه: استعمل في تسميته صيغة التصغير. (٢) نَيِّفًا: زيادةً عَلَى.

(٣) التَّابعون: هم الرّعيل الأوّل بعد صَحابة النّبي ﷺ، وقد قسمهم علماء الحديث إِلَى طبقات، أولهم من لحِقَ العشرةَ المبشرين بالجنة، وآخرهم من لَقِيَ صغار الصَّحَابة أو من تأخرت وفاتهم... انظر كتاب «صور من حياة التّابعين» للمؤلف، النّاشر دار الأدب الإسلامي.

وَقَدْ غَدَا أَنَسٌ عَلَىٰ طُولِ هَٰذَا الْعُمُرِ الْمَدِيدِ مَرْجِعًا لِلْمُسْلِمِينَ، يَفْزَعُونَ إِلَيْهِ كُلَّمَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ، وَيُعَوِّلُونَ[1] عَلَيْهِ كُلَّمَا اسْتَغْلَقَ[2] عَلَىٰ أَفْهَامِهِمْ حُكْمٌ.

مِنْ ذَلِكَ، أَنَّ بَعْضَ الْمُمَارِينَ فِي الدِّينِ جَعَلُوا يَتَكَلَّمُونَ فِي ثُبُوتِ حَوْضِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَسَأَلُوهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ:

مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ أَعِيشَ حَتَّىٰ أَرَىٰ أَمْثَالَكُمْ يَتَمَارَوْنَ[3] فِي الْحَوْضِ، لَقَدْ تَرَكْتُ عَجَائِزَ خَلْفِي مَا تُصَلِّي وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا سَأَلَتِ اللَّهَ أَنْ يَسْقِيَهَا مِنْ حَوْضِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

* * *

وَلَقَدْ ظَلَّ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ يَعِيشُ مَعَ ذِكْرَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ...

فَكَانَ شَدِيدَ الْبَهْجَةِ بِيَوْمِ لِقَائِهِ، سَخِيَّ الدَّمْعَةِ عَلَىٰ يَوْمِ فِرَاقِهِ، كَثِيرَ التَّرْدِيدِ لِكَلَامِهِ...

حَرِيصًا عَلَىٰ مُتَابَعَتِهِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، يُحِبُّ مَا أَحَبَّ، وَيَكْرَهُ مَا كَرِهَ، وَكَانَ أَكْثَرَ مَا يَذْكُرُهُ مِنْ أَيَّامِهِ يَوْمَانِ:

يَوْمُ لِقَائِهِ مَعَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَيَوْمُ مُفَارَقَتِهِ لَهُ آخِرَ مَرَّةٍ.

فَإِذَا ذَكَرَ الْيَوْمَ الْأَوَّلَ سَعِدَ بِهِ وَانْتَشَىٰ[4]، وَإِذَا خَطَرَ لَهُ الْيَوْمُ الثَّانِي انْتَحَبَ وَبَكَىٰ، وَأَبْكَىٰ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ النَّاسِ.

وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَ دَخَلَ عَلَيْنَا، وَرَأَيْتُهُ يَوْمَ قُبِضَ مِنَّا، فَلَمْ أَرَ يَوْمَيْنِ يُشْبِهَانِهِمَا.

---

(1) يُعَوِّلُونَ: يعتمدون.
(2) اسْتَغْلَقَ: أشكل عليهم وغمض.
(3) يتمارون: يتنازعون.
(4) انْتَشَىٰ: كأنه شم رائحةً طيبةً.

فَفِي يَوْمِ دُخُولِهِ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ ...

وَفِي الْيَوْمِ الَّذِي أَوْشَكَ فِيهِ أَنْ يَمْضِيَ إِلَىٰ جِوَارِ رَبِّهِ أَظْلَمَ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ ...

وَكَانَ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَيْهِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ حِينَ كُشِفَتِ السِّتَارَةُ عَنْ حُجْرَتِهِ ، فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ كَأَنَّهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ ، وَكَانَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ وُقُوفًا خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، وَقَدْ كَادُوا أَنْ يَضْطَرِبُوا ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ أَنِ اثْبُتُوا .

ثُمَّ تُوُفِّيَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي آخِرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَمَا نَظَرْنَا مَنْظَرًا كَانَ أَعْجَبَ إِلَيْنَا مِنْ وَجْهِهِ - ﷺ - حِينَ وَارَيْنَاهُ تُرَابَهُ .

* * *

وَلَقَدْ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ...

وَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ لَهُ :

(اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالًا وَوَلَدًا ، وَبَارِكْ لَهُ) ...

وَقَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دُعَاءَ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَكَانَ أَنَسٌ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ مَالًا ، وَأَوْفَرَهُمْ ذُرِّيَّةً ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ رَأَىٰ مِنْ أَوْلَادِهِ وَحَفَدَتِهِ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ الْمِائَةِ .

وَقَدْ بَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِي عُمُرِهِ حَتَّىٰ عَاشَ قَرْنًا كَامِلًا ...

وَفَوْقَهُ ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ .

وَكَانَ أَنَسٌ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ شَدِيدَ الرَّجَاءِ لِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ فَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ :

إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَىٰ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَأَقُولَ لَهُ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ هَٰذَا خُوَيْدِمُكَ أُنَيْسٌ .

* * *

وَلَمَّا مَرِضَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ مَرَضَ الْمَوْتِ قَالَ لِأَهْلِهِ :

لَقِّنُونِي : لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ .

ثُمَّ ظَلَّ يَقُولُهَا حَتَّىٰ مَاتَ .

وَقَدْ أَوْصَىٰ بِعُصَيَّةٍ صَغِيرَةٍ كَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنْ تُدْفَنَ مَعَهُ ، فَوُضِعَتْ بَيْنَ جَنْبِهِ وَقَمِيصِهِ .

* * *

هَنِيئًا لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ عَلَىٰ مَا أَسْبَغَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ .

فَقَدْ عَاشَ فِي كَنَفِ[1] الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ عَشْرَ سَنَوَاتٍ كَامِلَاتٍ ...

وَكَانَ ثَالِثَ اثْنَيْنِ فِي رِوَايَةِ حَدِيثِهِ هُمَا أَبُو هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ...

وَجَزَاهُ اللَّهُ هُوَ وَأُمَّهُ الْغُمَيْصَاءَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ (*) .

---

(١) فِي كَنَفِ الرَّسُولِ : فِي رعايته وحرزه .

(*) للاستزادة من أخبار أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ انظر :
١ - الإصابة : ١/٧١ أو « الترجمة » ٢٧٧.
٢ الاستيعاب « على هامش الإصابة » : ١/ ٧١.
٣ - تهذيب التهذيب : ١/ ٣٧٦.
٤ - الجمع بين رجال الصحيحين : ١/ ٣٥.
٥ - أسد الغابة : ١/ ٢٥٨.
٦ - صفة الصفوة : ١/ ٢٩٨.
٧ - المعارف : ١٣٣.
٨ - العبر : ١/ ١٠٧.
٩ - سيرة بطل : ١٠٧.
١٠- تاريخ الإسلام للذهبي : ٣/ ٣٢٩.
١١- ابن عساكر : ٣/ ١٣٩.
١٢- الجرح والتعديل : ق١ج ١/ ٢٨٦.

سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ الْجُمَحِيُّ

« سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ رَجُلٌ اشْتَرَىٰ الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا
وَآثَرَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ عَلَىٰ سِوَاهُمَا »

[الْمُؤَرِّخُونَ]

كَانَ الْفَتَىٰ سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ الْجُمَحِيُّ ، وَاحِدًا مِنَ الْآلَافِ الْمُؤَلَّفَةِ ، الَّذِينَ خَرَجُوا إِلَىٰ مِنْطَقَةِ « التَّنْعِيمِ » فِي ظَاهِرِ مَكَّةَ بِدَعْوَةٍ مِنْ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ ، لِيَشْهَدُوا مَصْرَعَ « خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ » أَحَدِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ بَعْدَ أَنْ ظَفِرُوا بِهِ غَدْرًا .

وَقَدْ مَكَّنَهُ شَبَابُهُ الْمَوْفُورُ وَفُتُوَّتُهُ الْمُتَدَفِّقَةُ مِنْ أَنْ يُزَاحِمَ النَّاسَ بِالْمَنَاكِبِ ، حَتَّىٰ حَاذَىٰ شُيُوخَ قُرَيْشٍ مِنْ أَمْثَالِ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ ، وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ ، وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ يَتَصَدَّرُونَ الْمَوْكِبَ .

وَقَدْ أَتَاحَ لَهُ ذَلِكَ أَنْ يَرَىٰ أَسِيرَ قُرَيْشٍ مُكَبَّلًا[1] بِقُيُودِهِ ، وَأَكُفُّ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالشُّبَّانِ تَدْفَعُهُ إِلَىٰ سَاحَةِ الْمَوْتِ دَفْعًا ، لِيَنْتَقِمُوا مِنْ مُحَمَّدٍ فِي شَخْصِهِ ، وَلِيَثْأَرُوا لِقَتْلَاهُمْ فِي « بَدْرٍ » بِقَتْلِهِ .

* * *

وَلَمَّا وَصَلَتْ هَذِهِ الْجُمُوعُ الْحَاشِدَةُ بِأَسِيرِهَا إِلَىٰ الْمَكَانِ الْمُعَدِّ لِقَتْلِهِ ، وَقَفَ الْفَتَىٰ سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ الْجُمَحِيُّ بِقَامَتِهِ الْمَمْدُودَةِ يُطِلُّ عَلَىٰ خُبَيْبٍ ، وَهُوَ يُقَدَّمُ إِلَىٰ خَشَبَةِ الصَّلْبِ ، وَسَمِعَ صَوْتَهُ الثَّابِتَ الْهَادِئَ مِنْ خِلَالِ صِيَاحِ النِّسْوَةِ وَالصِّبْيَانِ وَهُوَ يَقُولُ :

إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَتْرُكُونِي أَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ مَصْرَعِي فَافْعَلُوا ...

(١) المكبل : المقيد .

ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَسْتَقْبِلُ الْكَعْبَةَ، وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، يَا لِحُسْنِهِمَا وَيَا لِتَمَامِهِمَا ... ثُمَّ رَآهُ يُقْبِلُ عَلَىٰ زُعَمَاءِ الْقَوْمِ وَيَقُولُ: وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي أَطَلْتُ الصَّلَاةَ جَزَعًا[1] مِنَ الْمَوْتِ؛ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الصَّلَاةِ ...

ثُمَّ شَهِدَ قَوْمَهُ بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ وَهُمْ يُمَثِّلُونَ[2] بِخُبَيْبٍ حَيًّا، فَيَقْطَعُونَ مِنْ جَسَدِهِ الْقِطْعَةَ تِلْوَ[3] الْقِطْعَةِ وَهُمْ يَقُولُونَ لَهُ: أَتُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ مَكَانَكَ وَأَنْتَ نَاجٍ؟[4].

فَيَقُولُ - وَالدِّمَاءُ تَنْزِفُ مِنْهُ -: وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ آمِنًا وَادِعًا فِي أَهْلِي وَوَلَدِي، وَأَنَّ مُحَمَّدًا يُوخَزُ بِشَوْكَةٍ ... فَيُلَوِّحُ النَّاسُ بِأَيْدِيهِمْ فِي الْفَضَاءِ، وَيَتَعَالَىٰ صِيَاحُهُمْ: أَنِ اقْتُلُوهُ ... اقْتُلُوهُ ...

ثُمَّ أَبْصَرَ سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ خُبَيْبًا يَرْفَعُ بَصَرَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ مِنْ فَوْقِ خَشَبَةِ الصَّلْبِ وَيَقُولُ:

«اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ[5] عَدَدًا وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا[6] وَلَا تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا».

ثُمَّ لَفَظَ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ، وَبِهِ مَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ إِحْصَاءَهُ مِنْ ضَرَبَاتِ السُّيُوفِ وَطَعَنَاتِ الرِّمَاحِ.

* * *

عَادَتْ قُرَيْشٌ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَنَسِيَتْ فِي زَحْمَةِ الْأَحْدَاثِ الْجِسَامِ خُبَيْبًا وَمَصْرَعَهُ. لَكِنَّ الْفَتَىٰ الْيَافِعَ[7] سَعِيدَ بْنَ عَامِرٍ الْجُمَحِيَّ لَمْ يَغِبْ خُبَيْبٌ عَنْ خَاطِرِهِ لَحْظَةً.

---

(١) جزعًا: خوفًا وهلعًا.
(٢) التمثيل به: تقطيع أجزاء من بدنه.
(٣) تلو القطعة: بعد القطعة.
(٤) ويقال أن هذا السؤال قد وجه إلى زيد بن الدثنة، انظر شرح المواهب للعلامة الزرقاني: ٢/ ٧٢، وشرح بهجة المحافل وبغية الأماثل: ١/ ٢٢٠.
(٥) أحصهم عددًا: انتقم منهم واحدًا بعد واحد ولا تترك منهم أحدًا.
(٦) واقتلهم بددًا: اقتلهم قتل إبادة.
(٧) اليافع: الذي قارب البلوغ.

كَانَ يَرَاهُ فِي حُلُمِهِ إِذَا نَامَ ، وَيَرَاهُ بِخَيَالِهِ وَهُوَ مُسْتَيْقِظٌ ، وَيَمْثُلُ أَمَامَهُ وَهُوَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْهِ الْهَادِئَتَيْنِ الْمُطْمَئِنَّتَيْنِ أَمَامَ خَشَبَةِ الصَّلْبِ ، وَيَسْمَعُ رَنِينَ صَوْتِهِ فِي أُذُنَيْهِ وَهُوَ يَدْعُو عَلَىٰ قُرَيْشٍ ، فَيَخْشَىٰ أَنْ تَصْعَقَهُ صَاعِقَةٌ ؛ أَوْ تَخِرَّ عَلَيْهِ صَخْرَةٌ مِنَ السَّمَاءِ .

ثُمَّ إِنَّ خُبَيْبًا عَلَّمَ سَعِيدًا مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ قَبْلُ ...

عَلَّمَهُ أَنَّ الْحَيَاةَ الْحَقَّةَ عَقِيدَةٌ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِ الْعَقِيدَةِ حَتَّىٰ الْمَوْتِ .

وَعَلَّمَهُ أَيْضًا أَنَّ الْإِيمَانَ الرَّاسِخَ يَفْعَلُ الْأَعَاجِيبَ ، وَيَصْنَعُ الْمُعْجِزَاتِ .

وَعَلَّمَهُ أَمْرًا آخَرَ ، هُوَ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يُحِبُّهُ أَصْحَابُهُ كُلَّ هَٰذَا الْحُبِّ إِنَّمَا هُوَ نَبِيٌّ مُؤَيَّدٌ مِنَ السَّمَاءِ .

عِنْدَ ذَلِكَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ ، فَقَامَ فِي مَلَإٍ[1] مِنَ النَّاسِ ، وَأَعْلَنَ بَرَاءَتَهُ مِنْ آثَامِ قُرَيْشٍ وَأَوْزَارِهَا ، وَخَلْعَهُ لِأَصْنَامِهَا وَأَوْثَانِهَا وَدُخُولَهُ فِي دِينِ اللَّهِ .

* * *

هَاجَرَ سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، وَلَزِمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَشَهِدَ مَعَهُ « خَيْبَرَ » وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْغَزَوَاتِ .

وَلَمَّا انْتَقَلَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ إِلَىٰ جِوَارِ رَبِّهِ وَهُوَ رَاضٍ عَنْهُ ، ظَلَّ مِنْ بَعْدِهِ سَيْفًا مَسْلُولًا فِي أَيْدِي خَلِيفَتَيْهِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وَعَاشَ مَثَلًا فَرِيدًا فَذًّا لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي اشْتَرَىٰ الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا ، وَآثَرَ[2] مَرْضَاةَ اللَّهِ وَثَوَابَهُ عَلَىٰ سَائِرِ رَغَبَاتِ النَّفْسِ ، وَشَهَوَاتِ الْجَسَدِ .

* * *

وَكَانَ خَلِيفَتَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَعْرِفَانِ لِسَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ صِدْقَهُ وَتَقْوَاهُ ،

(١) ملإ من النّاس : جموع من النّاس .
(٢) آثر : اختار وفضل .

وَيَسْتَمِعَانِ إِلَىٰ نُصْحِهِ، وَيُصِيخَانِ[١] إِلَىٰ قَوْلِهِ.

دَخَلَ عَلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي أَوَّلِ خِلَافَتِهِ فَقَالَ:

يَا عُمَرُ، أُوصِيكَ أَنْ تَخْشَىٰ اللَّهَ فِي النَّاسِ، وَلَا تَخْشَىٰ النَّاسَ فِي اللَّهِ، وَأَلَّا يُخَالِفَ قَوْلُكَ فِعْلَكَ، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا صَدَّقَهُ الْفِعْلُ...

يَا عُمَرُ: أَقِمْ وَجْهَكَ[٢] لِمَنْ وَلَّاكَ اللَّهُ أَمْرَهُ مِنْ بَعِيدِ الْمُسْلِمِينَ وَقَرِيبِهِمْ، وَأَحِبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ، وَاكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ، وَخُضِ الْغَمَرَاتِ إِلَىٰ الْحَقِّ وَلَا تَخَفْ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ.

فَقَالَ عُمَرُ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَٰلِكَ يَا سَعِيدُ؟!.

فَقَالَ: يَسْتَطِيعُهُ رَجُلٌ مِثْلُكَ مِمَّنْ وَلَّاهُمُ اللَّهُ أَمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَحَدٌ.

* * *

عِنْدَ ذَٰلِكَ دَعَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ سَعِيدًا إِلَىٰ مُؤَازَرَتِهِ[٣] وَقَالَ:

يَا سَعِيدُ إِنَّا مُوَلُّوكَ عَلَىٰ أَهْلِ «حِمْصَ»، فَقَالَ:

يَا عُمَرُ نَشَدْتُكَ[٤] اللَّهَ أَلَّا تَفْتِنِّي[٥].

فَغَضِبَ عُمَرُ وَقَالَ:

وَيْحَكُمْ... وَضَعْتُمْ هَٰذَا الْأَمْرَ[٦] فِي عُنُقِي ثُمَّ تَخَلَّيْتُمْ عَنِّي!!...

وَاللَّهِ لَا أَدَعُكَ، ثُمَّ وَلَّاهُ عَلَىٰ «حِمْصَ» وَقَالَ: أَلَا نَفْرِضُ لَكَ رِزْقًا؟.

قَالَ: وَمَا أَفْعَلُ بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟! فَإِنَّ عَطَائِي[٧] مِنْ بَيْتِ الْمَالِ يَزِيدُ

(١) يصيخان: ينصتان ويستمعان باهتمام.
(٢) أقم وجهك لفلان: أدِم النظر في أمره.
(٣) مُؤَازَرَتِهِ: مساعدته ومعاونته، وأن يصنع معه ما يصنع الوزير لمن استوزره.
(٤) نشدتك الله: أستحلفك بالله.
(٥) تفتني: تُضِلّني وتستميلني إِلَى الدُّنيا.
(٦) الأمر: المراد به هنا الخلافة.
(٧) عطائي: حقي في بيت المال.

عَنْ حَاجَتِي ، ثُمَّ مَضَىٰ إِلَىٰ « حِمْصَ » .

* * *

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ وَفَدَ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُ مَنْ يَثِقُ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ « حِمْصَ » ، فَقَالَ لَهُمْ : اكْتُبُوا لِي أَسْمَاءَ فُقَرَائِكُمْ حَتَّىٰ أَسُدَّ حَاجَتَهُمْ .

فَرَفَعُوا كِتَابًا فَإِذَا فِيهِ : فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، وَسَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ .

فَقَالَ : وَمَنْ سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ ؟! .

فَقَالُوا : أَمِيرُنَا .

قَالَ : أَمِيرُكُمْ فَقِيرٌ ؟! .

قَالُوا : نَعَمْ ، وَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَتَمُرُّ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ الطِّوَالُ وَلَا يُوقَدُ فِي بَيْتِهِ نَارٌ .

فَبَكَىٰ عُمَرُ حَتَّىٰ بَلَّلَتْ دُمُوعُهُ لِحْيَتَهُ ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَىٰ أَلْفِ دِينَارٍ فَجَعَلَهَا فِي صُرَّةٍ وَقَالَ : اقْرَؤُوا عَلَيْهِ السَّلَامَ مِنِّي ، وَقُولُوا لَهُ : بَعَثَ إِلَيْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِهَٰذَا الْمَالِ لِتَسْتَعِينَ بِهِ عَلَىٰ قَضَاءِ حَاجَاتِكَ .

* * *

جَاءَ الْوَفْدُ لِسَعِيدٍ بِالصُّرَّةِ فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ دَنَانِيرُ ، فَجَعَلَ يُبْعِدُهَا عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ - كَأَنَّمَا نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةٌ أَوْ حَلَّ بِسَاحَتِهِ خَطْبٌ - فَهَبَّتْ زَوْجَتُهُ مَذْعُورَةً وَقَالَتْ :

مَا شَأْنُكَ يَا سَعِيدُ ؟! ... أَمَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟! .

قَالَ : بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَٰلِكَ .

قَالَتْ : أَأُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ فِي وَقْعَةٍ ؟! .

قَالَ : بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَٰلِكَ .

قَالَتْ : وَمَا أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ؟! .

قَالَ : دَخَلَتْ عَلَيَّ الدُّنْيَا لِتُفْسِدَ آخِرَتِي ، وَحَلَّتِ الْفِتْنَةُ فِي بَيْتِي .

قَالَتْ : تَخَلَّصْ مِنْهَا - وَهِيَ لَا تَدْرِي مِنْ أَمْرِ الدَّنَانِيرِ شَيْئًا - .

قَالَ : أَوَتُعِينِينَنِي عَلَىٰ ذَلِكِ ؟ .

قَالَتْ : نَعَمْ .

فَأَخَذَ الدَّنَانِيرَ فَجَعَلَهَا فِي صُرَرٍ ثُمَّ وَزَّعَهَا عَلَىٰ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ ذَلِكَ طَوِيلُ وَقْتٍ ؛ حَتَّىٰ أَتَىٰ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دِيَارَ الشَّامِ يَتَفَقَّدُ أَحْوَالَهَا ، فَلَمَّا نَزَلَ « بِحِمْصَ » - وَكَانَتْ تُدْعَىٰ « الْكُوَيْفَةَ » وَهُوَ تَصْغِيرٌ « لِلْكُوفَةِ » وَتَشْبِيهٌ « لِحِمْصَ » بِهَا لِكَثْرَةِ شَكْوَىٰ أَهْلِهَا مِنْ عُمَّالِهِمْ وَوُلَاتِهِمْ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ أَهْلُ « الْكُوفَةِ » - فَلَمَّا نَزَلَ بِهَا لَقِيَهُ أَهْلُهَا لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ فَقَالَ : كَيْفَ وَجَدْتُمْ أَمِيرَكُمْ ؟ ...

فَشَكَوْهُ إِلَيْهِ وَذَكَرُوا أَرْبَعًا مِنْ أَفْعَالِهِ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ .

قَالَ عُمَرُ : فَجَمَعْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، وَدَعَوْتُ اللَّهَ أَلَّا يُخَيِّبَ ظَنِّيَ فِيهِ ؛ فَقَدْ كُنْتُ عَظِيمَ الثِّقَةِ بِهِ ... فَلَمَّا أَصْبَحُوا عِنْدِي هُمْ وَأَمِيرُهُمْ ، قُلْتُ :

مَا تَشْكُونَ مِنْ أَمِيرِكُمْ ؟ .

قَالُوا : لَا يَخْرُجُ إِلَيْنَا حَتَّىٰ يَتَعَالَى النَّهَارُ .

فَقُلْتُ : وَمَا تَقُولُ فِي ذَلِكَ يَا سَعِيدُ ؟ .

فَسَكَتَ قَلِيلًا ، ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ ذَلِكَ ، أَمَا وَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَهْلِي خَادِمٌ ، فَأَقُومُ فِي كُلِّ صَبَاحٍ فَأَعْجِنُ لَهُمْ عَجِينَهُمْ ،

ثُمَّ أَتَرَيَّثُ قَلِيلًا حَتَّىٰ يَخْتَمِرَ، ثُمَّ أَخْبِزُهُ لَهُمْ، ثُمَّ أَتَوَضَّأُ وَأَخْرُجُ لِلنَّاسِ.

قَالَ عُمَرُ: فَقُلْتُ لَهُمْ: وَمَا تَشْكُونَ مِنْهُ أَيْضًا ؟.

قَالُوا: إِنَّهُ لَا يُجِيبُ أَحَدًا بِلَيْلٍ.

قُلْتُ: وَمَا تَقُولُ فِي ذَٰلِكَ يَا سَعِيدُ ؟.

قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ أُعْلِنَ هَٰذَا أَيْضًا ... فَأَنَا قَدْ جَعَلْتُ النَّهَارَ لَهُمْ، وَاللَّيْلَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قُلْتُ: وَمَا تَشْكُونَ مِنْهُ أَيْضًا ؟.

قَالُوا: إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْنَا يَوْمًا فِي الشَّهْرِ.

قُلْتُ: وَمَا هَٰذَا يَا سَعِيدُ ؟.

قَالَ: لَيْسَ لِي خَادِمٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَيْسَ عِنْدِي ثِيَابٌ غَيْرُ الَّتِي عَلَيَّ، فَأَنَا أَغْسِلُهَا فِي الشَّهْرِ مَرَّةً وَأَنْتَظِرُهَا حَتَّىٰ تَجِفَّ، ثُمَّ أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ فِي آخِرِ النَّهَارِ. ثُمَّ قُلْتُ: وَمَا تَشْكُونَ مِنْهُ أَيْضًا ؟.

قَالُوا: تُصِيبُهُ مِنْ حِينٍ إِلَىٰ آخَرَ غَشْيَةٌ[1] فَيَغِيبُ عَمَّنْ فِي مَجْلِسِهِ.

فَقُلْتُ: وَمَا هَٰذَا يَا سَعِيدُ ؟!.

فَقَالَ: شَهِدْتُ مَصْرَعَ خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ وَأَنَا مُشْرِكٌ، وَرَأَيْتُ قُرَيْشًا تُقَطِّعُ جَسَدَهُ وَهِيَ تَقُولُ لَهُ: أَتُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ مَكَانَكَ ؟.

فَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ آمِنًا فِي أَهْلِي وَوَلَدِي، وَأَنَّ مُحَمَّدًا تَشُوكُهُ شَوْكَةٌ ... وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا ذَكَرْتُ ذَٰلِكَ الْيَوْمَ وَكَيْفَ أَنِّي تَرَكْتُ نُصْرَتَهُ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لِي ... وَأَصَابَتْنِي تِلْكَ الْغَشْيَةُ.

(١) تصيبه غشية: يغشى عليه أو يغمى عليه، فلا يدري شيئًا مما حوله.

عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ عُمَرُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُخَيِّبْ ظَنِّي بِهِ .

ثُمَّ بَعَثَ لَهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَىٰ حَاجَتِهِ .

فَلَمَّا رَأَتْهَا زَوْجَتُهُ قَالَتْ لَهُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَغْنَانَا عَنْ خِدْمَتِكَ ، اِشْتَرِ لَنَا مَؤُنَةً ، وَاستَأْجِرْ لَنَا خَادِمًا .

فَقَالَ لَهَا : وَهَلْ لَكِ فِيمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ ؟ .

قَالَتْ : وَمَا ذَاكَ ؟! .

قَالَ : نَدْفَعُهَا إِلَىٰ مَنْ يَأْتِينَا بِهَا ، وَنَحْنُ أَحْوَجُ مَا نَكُونُ إِلَيْهَا .

قَالَتْ : وَمَا ذَاكَ ؟! .

قَالَ : نُقْرِضُهَا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .

قَالَتْ : نَعَمْ ، وَجُزِيتَ خَيْرًا .

فَمَا غَادَرَ مَجلِسَهُ الَّذِي هُوَ فِيهِ حَتَّىٰ جَعَلَ الدَّنَانِيرَ فِي صُرَرٍ ، وَقَالَ لِوَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهِ : انْطَلِقْ بِهَا إِلَىٰ أَرْمَلَةِ فُلَانٍ ، وَ إِلَىٰ أَيْتَامِ فُلَانٍ ، وَ إِلَىٰ مَسَاكِينِ آلِ فُلَانٍ ، وَ إِلَىٰ مُعْوِزِي[1] آلِ فُلَانٍ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ الْجُمَحِيِّ فَقَدْ كَانَ مِنَ الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ[2] عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَتْ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[3](*) .

(١) معوزي آل فلان : الفقراء من آل فلان . (٢) يؤثرون : يفضلون . (٣) الخصاصة : شِدَّة الْفَقْر .

(*) للاستزادة من أخبار سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ الْجُمَحِيِّ انظر :

١ - تهذيب التهذيب : ٤/ ٥١.
٢ - ابن عساكر: ٦/١٤٥ ـ ١٤٧.
٣ - صفة الصفوة: ١/ ٢٧٣.
٤ - حلية الأولياء: ١/ ٢٤٤.
٥ - تاريخ الإسلام: ٢/ ٣٥.
٦ - الإصابة: ٢/٤٨ أو «الترجمة» ٣٢٧٠.
٧ - نسب قريش: ٣٩٩.

الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ

« اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ آيَةً تُعِينُهُ عَلَىٰ مَا يَنْوِي مِنَ الْخَيْرِ »

[مِنْ دُعَاءِ الرَّسُولِ ﷺ لَهُ]

الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ سَيِّدُ قَبِيلَةِ « دَوْسٍ » فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ الْمَرْمُوقِينَ ، وَوَاحِدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْمُرُوءَاتِ الْمَعْدُودِينَ ...

لَا تَنْزِلُ لَهُ قِدْرٌ عَنْ نَارٍ ، وَلَا يُوصَدُ لَهُ بَابٌ أَمَامَ طَارِقٍ ...

يُطْعِمُ الْجَائِعَ ، وَيُؤَمِّنُ الْخَائِفَ ، وَيُجِيرُ الْمُسْتَجِيرَ .

وَهُوَ إِلَىٰ ذَلِكَ أَدِيبٌ أَرِيبٌ لَبِيبٌ[1] ، وَشَاعِرٌ مُرْهَفُ الْحِسِّ رَقِيقُ الشُّعُورِ بَصِيرٌ بِحُلْوِ الْبَيَانِ وَمُرِّهِ ... حَيْثُ تَفْعَلُ فِيهِ الْكَلِمَةُ فِعْلَ السِّحْرِ .

* * *

غَادَرَ الطُّفَيْلُ مَنَازِلَ قَوْمِهِ فِي « تِهَامَةَ »[2] مُتَوَجِّهًا إِلَىٰ مَكَّةَ ، وَرَحَىٰ الصِّرَاعِ دَائِرَةٌ بَيْنَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَكُفَّارِ قُرَيْشٍ ، كُلٌّ يُرِيدُ أَنْ يَكْسِبَ لِنَفْسِهِ الْأَنْصَارَ ، وَيَجْتَذِبَ لِحِزْبِهِ الْأَعْوَانَ ...

فَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَدْعُو لِرَبِّهِ وَسِلَاحُهُ الْإِيمَانُ وَالْحَقُّ .

وَكُفَّارُ قُرَيْشٍ يُقَاوِمُونَ دَعْوَتَهُ بِكُلِّ سِلَاحٍ ، وَيَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْهُ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ . وَوَجَدَ الطُّفَيْلُ نَفْسَهُ يَدْخُلُ فِي هَٰذِهِ الْمَعْرَكَةِ عَلَىٰ غَيْرِ أُهْبَةٍ[3] ، وَيَخُوضُ غِمَارَهَا عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ ...

فَهُوَ لَمْ يَقْدَمْ إِلَىٰ مَكَّةَ لِهَٰذَا الْغَرَضِ ، وَلَا خَطَرَ لَهُ أَمْرُ مُحَمَّدٍ وَقُرَيْشٍ قَبْلَ

---

(١) أريب لبيب : ذكي فطن .

(٢) تهامة : السّهل السّاحلي في جزيرة العرب المحاذي للبحر الأحمر . (٣) علَى غير أهبة : علَى غير استعداد .

ذَلِكَ عَلَىٰ بَالٍ . وَمِنْ هُنَا كَانَتْ لِلطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرٍو الدَّوْسِيِّ مَعَ هَـٰذَا الصِّرَاعِ حِكَايَةٌ لَا تُنْسَىٰ ؛ فَلْنَسْتَمِعْ إِلَيْهَا ، فَإِنَّهَا مِنْ غَرَائِبِ الْقِصَصِ .

* * *

حَدَّثَ الطُّفَيْلُ قَالَ :

قَدِمْتُ مَكَّةَ ، فَمَا إِنْ رَآنِي سَادَةُ قُرَيْشٍ ؛ حَتَّىٰ أَقْبَلُوا عَلَيَّ فَرَحَّبُوا بِي أَكْرَمَ تَرْحِيبٍ ، وَأَنْزَلُونِي فِيهِمْ أَعَزَّ مَنْزِلٍ .

ثُمَّ اجْتَمَعَ إِلَيَّ سَادَتُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ وَقَالُوا : يَا طُفَيْلُ ، إِنَّكَ قَدْ قَدِمْتَ بِلَادَنَا ، وَهَـٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ قَدْ أَفْسَدَ أَمْرَنَا وَمَزَّقَ شَمْلَنَا ، وَشَتَّتَ جَمَاعَتَنَا ، وَنَحْنُ إِنَّمَا نَخْشَىٰ أَنْ يَحِلَّ بِكَ وَبِزَعَامَتِكَ فِي قَوْمِكَ مَا قَدْ حَلَّ بِنَا ، فَلَا تُكَلِّمِ الرَّجُلَ ، وَلَا تَسْمَعَنَّ مِنْهُ شَيْئًا ؛ فَإِنَّ لَهُ قَوْلًا كَالسِّحْرِ : يُفَرِّقُ بَيْنَ الْوَلَدِ وَأَبِيهِ ، وَبَيْنَ الْأَخِ وَأَخِيهِ ، وَبَيْنَ الزَّوْجَةِ وَزَوْجِهَا . قَالَ الطُّفَيْلُ :

فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا بِي يَقُصُّونَ عَلَيَّ مِنْ غَرَائِبِ أَخْبَارِهِ ، وَيُخَوِّفُونَنِي عَلَىٰ نَفْسِي وَقَوْمِي بِعَجَائِبِ أَفْعَالِهِ ، حَتَّىٰ أَجْمَعْتُ أَمْرِي[1] عَلَىٰ أَلَّا أَقْتَرِبَ مِنْهُ ، وَأَلَّا أُكَلِّمَهُ أَوْ أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا .

وَلَمَّا غَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ لِلطَّوَافِ بِالْكَعْبَةِ ، وَالتَّبَرُّكِ بِأَصْنَامِهَا الَّتِي كُنَّا إِلَيْهَا نَحُجُّ وَإِيَّاهَا نُعَظِّمُ ، حَشَوْتُ فِي أُذُنَيَّ قُطْنًا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُلَامِسَ سَمْعِي شَيْءٌ مِنْ قَوْلِ مُحَمَّدٍ .

لَكِنَّنِي مَا إِنْ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ حَتَّىٰ وَجَدْتُهُ قَائِمًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ صَلَاةً غَيْرَ صَلَاتِنَا ، وَيَتَعَبَّدُ عِبَادَةً غَيْرَ عِبَادَتِنَا ، فَأَسَرَنِي مَنْظَرُهُ ، وَهَزَّتْنِي عِبَادَتُهُ ، وَوَجَدْتُ نَفْسِي أَدْنُو مِنْهُ ، شَيْئًا فَشَيْئًا عَلَىٰ غَيْرِ قَصْدٍ مِنِّي حَتَّىٰ أَصْبَحْتُ قَرِيبًا مِنْهُ ... وَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ سَمْعِي بَعْضٌ مِمَّا يَقُولُ ، فَسَمِعْتُ كَلَامًا

(١) أجمعت أمري : عزمت وصممت .

حَسَنًا ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

ثَكِلَتْكَ[1] أُمُّكَ يَا طُفَيْلُ ... إِنَّكَ لَرَجُلٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ ، وَمَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ الْحَسَنُ مِنَ الْقَبِيحِ ، فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَسْمَعَ مِنَ الرَّجُلِ مَا يَقُولُ ...

فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ حَسَنًا قَبِلْتَهُ ، وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا تَرَكْتَهُ .

* * *

قَالَ الطُّفَيْلُ : ثُمَّ مَكَثْتُ حَتَّىٰ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ بَيْتِهِ ، فَتَبِعْتُهُ حَتَّىٰ إِذَا دَخَلَ دَارَهُ دَخَلْتُ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ :

يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ قَالُوا لِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا ، فَوَاللَّهِ مَا بَرِحُوا يُخَوِّفُونَنِي مِنْ أَمْرِكَ حَتَّىٰ سَدَدْتُ أُذُنَيَّ بِقُطْنٍ لِئَلَّا أَسْمَعَ قَوْلَكَ ، ثُمَّ أَبَىٰ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسْمِعَنِي شَيْئًا مِنْهُ ، فَوَجَدْتُهُ حَسَنًا ... فَاعْرِضْ عَلَيَّ أَمْرَكَ ...

فَعَرَضَ عَلَيَّ أَمْرَهُ ، وَقَرَأَ لِي سُورَةَ الْإِخْلَاصِ وَالْفَلَقِ ، فَوَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ قَوْلًا أَحْسَنَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَلَا رَأَيْتُ أَمْرًا أَعْدَلَ مِنْ أَمْرِهِ ... عِنْدَ ذَلِكَ بَسَطْتُ يَدِي لَهُ ، وَشَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَدَخَلْتُ فِي الْإِسْلَامِ .

* * *

قَالَ الطُّفَيْلُ : ثُمَّ أَقَمْتُ فِي مَكَّةَ زَمَنًا تَعَلَّمْتُ فِيهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ وَحَفِظْتُ فِيهِ مَا تَيَسَّرَ لِي مِنَ الْقُرْآنِ ، وَلَمَّا عَزَمْتُ عَلَىٰ الْعَوْدَةِ إِلَىٰ قَوْمِي قُلْتُ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي امْرُؤٌ مُطَاعٌ فِي عَشِيرَتِي ، وَأَنَا رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ وَدَاعِيهِمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي آيَةً تَكُونُ لِي عَوْنًا فِيمَا أَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : (اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ آيَةً) . فَخَرَجْتُ إِلَىٰ قَوْمِي حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُ فِي مَوْضِعٍ مُشْرِفٍ عَلَىٰ مَنَازِلِهِمْ ؛ وَقَعَ نُورٌ فِيمَا بَيْنَ عَيْنَيَّ مِثْلُ الْمِصْبَاحِ ، فَقُلْتُ :

---

(١) ثكلتك أُمُّك : فقدتك أُمُّك بالموت .

اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ فِي غَيْرِ وَجْهِي ، فَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّهَا عُقُوبَةٌ وَقَعَتْ فِي وَجْهِي لِمُفَارَقَةِ دِينِهِمْ ... فَتَحَوَّلَ النُّورُ فَوَقَعَ فِي رَأْسِ سَوْطِي[1]، فَجَعَلَ النَّاسُ يَتَرَاءَوْنَ ذَلِكَ النُّورَ فِي سَوْطِي كَالْقِنْدِيلِ[2] الْمُعَلَّقِ ، وَأَنَا أَهْبِطُ إِلَيْهِمْ مِنَ الثَّنِيَّةِ[3] فَلَمَّا نَزَلْتُ ، أَتَانِي أَبِي ـ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا ـ فَقُلْتُ :

إِلَيْكَ عَنِّي يَا أَبَتِ ، فَلَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّي .

قَالَ : وَلِمَ يَا بُنَيَّ ؟! ... قُلْتُ :

لَقَدْ أَسْلَمْتُ ، وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ .

قَالَ : أَيْ بُنَيَّ ، دِينِي دِينُكَ ، فَقُلْتُ :

اذْهَبْ وَاغْتَسِلْ وَطَهِّرْ ثِيَابَكَ ، ثُمَّ تَعَالَ حَتَّىٰ أُعَلِّمَكَ مَا عُلِّمْتُ .

فَذَهَبَ فَاغْتَسَلَ وَطَهَّرَ ثِيَابَهُ ، ثُمَّ جَاءَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ .

ثُمَّ جَاءَتْ زَوْجَتِي ، فَقُلْتُ : إِلَيْكِ عَنِّي فَلَسْتُ مِنْكِ وَلَسْتِ مِنِّي .

قَالَتْ : وَلِمَ ؟! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، فَقُلْتُ :

فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكِ الْإِسْلَامُ ، فَقَدْ أَسْلَمْتُ ، وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ .

قَالَتْ : فَدِينِي دِينُكَ ، قُلْتُ :

فَاذْهَبِي فَتَطَهَّرِي مِنْ مَاءِ « ذِي الشَّرَىٰ »[4].

فَقَالَتْ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، أَتَخْشَىٰ عَلَىٰ الصِّبْيَةِ شَيْئًا مِنْ « ذِي الشَّرَىٰ » ؟! ، فَقُلْتُ : تَبًّا لَكِ وَلِذِي الشَّرَىٰ ... قُلْتُ لَكِ : اذْهَبِي وَاغْتَسِلِي هُنَاكَ بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ ، وَأَنَا ضَامِنٌ لَكِ أَلَّا يَفْعَلَ هَذَا الْحَجَرُ الْأَصَمُّ شَيْئًا .

---

(١) السَّوْط : ما يضربُ به من جِلْدٍ مضفورٍ ونحوه.
(٢) القنديل : المصباح.
(٣) الثَّنية : العَقبة وهي الفرجة بين جبلين.
(٤) ذُو الشَّرَىٰ : صَنَمٌ لِدَوْسٍ حَوْلَهُ مَاءٌ يَهْبِطُ مِنَ الْجَبَلِ.

فَذَهَبَتْ فَاغْتَسَلَتْ، ثُمَّ جَاءَتْ ؛ فَعَرَضْتُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَتْ.

ثُمَّ دَعَوْتُ « دَوْسًا » فَأَبْطَؤُوا[1] عَلَيَّ إِلَّا أَبَا هُرَيْرَةَ[2] فَقَدْ كَانَ أَسْرَعَ النَّاسِ إِسْلَامًا.

* * *

قَالَ الطُّفَيْلُ: فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، وَمَعِي أَبُو هُرَيْرَةَ...

فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (مَا وَرَاءَكَ يَا طُفَيْلُ ؟).

فَقُلْتُ: قُلُوبٌ عَلَيْهَا أَكِنَّةٌ[3] وَكُفْرٌ شَدِيدٌ...

لَقَدْ غَلَبَ عَلَىٰ « دَوْسٍ » الْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ...

فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّىٰ وَرَفَعَ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهُ كَذَلِكَ خِفْتُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَىٰ قَوْمِي فَيَهْلِكُوا...

فَقُلْتُ: وَاقَوْمَاهُ... لَكِنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ جَعَلَ يَقُولُ:

(اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا... اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا... اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا).

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الطُّفَيْلِ وَقَالَ:

(ارْجِعْ إِلَىٰ قَوْمِكَ وَارْفُقْ بِهِمْ وَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ).

* * *

قَالَ الطُّفَيْلُ: فَلَمْ أَزَلْ بِأَرْضِ « دَوْسٍ » أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ حَتَّىٰ هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَمَضَتْ بَدْرٌ، وَأُحُدٌ، وَالْخَنْدَقُ، فَقَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَعِي ثَمَانُونَ بَيْتًا مِنْ « دَوْسٍ » أَسْلَمُوا وَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ ؛ فَسُرَّ بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَسْهَمَ[4] لَنَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَنَائِمِ « خَيْبَرَ »[5] فَقُلْنَا:

---

(١) أبطؤوا علي: تأخروا ولم يسارعوا إلى إجابة الدّعوة.

(٢) أبو هُرَيْرَةَ: انظره ص ٤٧٥.

(٣) أَكِنَّةٌ: ستورٌ تمنعها من رؤية الْحَقّ.

(٤) أسهم لنا: أعطانا سهمًا.

(٥) خَيْبَرَ: واحَةٌ في الحجاز كان يسكنها الْيهودُ.

يَا رَسُولَ اللَّهِ : اجْعَلْنَا مَيْمَنَتَكَ[١] فِي كُلِّ غَزْوَةٍ تَغْزُوهَا ، وَاجْعَلْ شِعَارَنَا : « مَبْرُورٌ » .

قَالَ الطُّفَيْلُ :

ثُمَّ لَمْ أَزَلْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ابْعَثْنِي إِلَىٰ « ذِي الْكَفَّيْنِ » صَنَمِ عَمْرِو بْنِ حَمَمَةَ حَتَّىٰ أُحْرِقَهُ ... فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ فَسَارَ إِلَىٰ الصَّنَمِ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ قَوْمِهِ .

فَلَمَّا بَلَغَهُ ، وَهَمَّ بِإِحْرَاقِهِ اجْتَمَعَ حَوْلَهُ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ وَالْأَطْفَالُ يَتَرَبَّصُونَ[٢] بِهِ الشَّرَّ ، وَيَنْتَظِرُونَ أَنْ تَصْعَقَهُ صَاعِقَةٌ إِنْ هُوَ نَالَ « ذَا الْكَفَّيْنِ » بِضُرٍّ . لَكِنَّ الطُّفَيْلَ أَقْبَلَ عَلَىٰ الصَّنَمِ عَلَىٰ مَشْهَدٍ مِنْ عُبَّادِهِ ... وَجَعَلَ يُضْرِمُ النَّارَ فِي فُؤَادِهِ ... وَهُوَ يَرْتَجِزُ :

يَا ذَا الْكَفَيْنِ لَسْتُ مِنْ عُبَّادِكَا
مِيلَادُنَا أَقْدَمُ مِنْ مِيلَادِكَا
إِنِّي حَشَوْتُ النَّارَ فِي فُؤَادِكَا

وَمَا إِنِ الْتَهَمَتِ النَّارُ الصَّنَمَ حَتَّىٰ الْتَهَمَتْ مَعَهَا مَا تَبَقَّىٰ مِنَ الشِّرْكِ فِي قَبِيلَةِ « دَوْسٍ » ؛ فَأَسْلَمَ الْقَوْمُ جَمِيعًا وَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ .

* * *

ظَلَّ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ مُلَازِمًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، حَتَّىٰ قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ جِوَارِ رَبِّهِ .

وَلَمَّا آلَتِ الْخِلَافَةُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَىٰ صَاحِبِهِ الصِّدِّيقِ ، وَضَعَ الطُّفَيْلُ نَفْسَهُ وَسَيْفَهُ وَوَلَدَهُ فِي طَاعَةِ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

(١) ميمنتك : جناح جيشك الأيمن.

(٢) يتربصون به الشر : ينتظرون أن يُصيبه الشرُّ.

وَلَمَّا نَشِبَتْ حُرُوبُ الرِّدَّةِ نَفَرَ[1] الطُّفَيْلُ فِي طَلِيعَةِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ لِحَرْبِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، وَمَعَهُ ابْنُهُ عَمْرٌو... وَفِيمَا هُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ «الْيَمَامَةِ» رَأَىٰ رُؤْيَا، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا فَعَبِّرُوهَا لِي.

فَقَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ؟.

قَالَ: رَأَيْتُ أَنَّ رَأْسِي قَدْ حُلِقَ، وَأَنَّ طَائِرًا خَرَجَ مِنْ فَمِي، وَأَنَّ امْرَأَةً أَدْخَلَتْنِي فِي بَطْنِهَا، وَأَنَّ ابْنِي عَمْرًا جَعَلَ يَطْلُبُنِي حَثِيثًا لَكِنَّهُ حِيلَ[2] بَيْنِي وَبَيْنَهُ.

فَقَالُوا: خَيْرًا...

فَقَالَ: أَمَّا أَنَا - وَاللَّهِ - لَقَدْ أَوَّلْتُهَا:

أَمَّا حَلْقُ رَأْسِي فَذَلِكَ أَنَّهُ يُقْطَعُ...

وَأَمَّا الطَّائِرُ الَّذِي خَرَجَ مِنْ فَمِي فَهُوَ رُوحِي...

وَأَمَّا الْمَرْأَةُ الَّتِي أَدْخَلَتْنِي فِي بَطْنِهَا فَهِيَ الْأَرْضُ تُحْفَرُ لِي فَأُدْفَنُ فِي جَوْفِهَا... وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أُقْتَلَ شَهِيدًا...

وَأَمَّا طَلَبُ ابْنِي لِي فَهُوَ يَعْنِي أَنَّهُ يَطْلُبُ الشَّهَادَةَ الَّتِي سَأَحْظَىٰ بِهَا - إِذَا أَذِنَ اللَّهُ - لَكِنَّهُ يُدْرِكُهَا فِيمَا بَعْدُ.

* * *

وَفِي مَعْرَكَةِ «الْيَمَامَةِ» أَبْلَىٰ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ أَعْظَمَ الْبَلَاءِ، حَتَّىٰ خَرَّ صَرِيعًا شَهِيدًا عَلَىٰ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ.

وَأَمَّا ابْنُهُ عَمْرٌو فَمَا زَالَ يُقَاتِلُ حَتَّىٰ أَثْخَنَتْهُ[3] الْجِرَاحُ وَقُطِعَتْ كَفُّهُ الْيُمْنَىٰ

---

(١) نَفَرَ: خرج للقتال.
(٢) حِيلَ بيني وبينه: وُضِعَ حائلٌ بيني وبينه فلم يدخل معي.
(٣) أثخنته الجراح: أضعفته وأوهَنَت قواه.

فَعَادَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ مُخَلِّفًا عَلَىٰ أَرْضِ « الْيَمَامَةِ » أَبَاهُ وَيَدَهُ .

* * *

وَفِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، دَخَلَ عَلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الطُّفَيْلِ ، فَأُتِيَ لِلْفَارُوقِ بِطَعَامٍ ، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عِنْدَهُ ، فَدَعَا الْقَوْمَ إِلَىٰ طَعَامِهِ ، فَتَنَحَّىٰ عَمْرٌو عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ الْفَارُوقُ :

مَا لَكَ ؟! ... لَعَلَّكَ تَأَخَّرْتَ عَنِ الطَّعَامِ خَجَلًا مِنْ يَدِكَ .

قَالَ : أَجَلْ[1] يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

قَالَ : وَاللَّهِ لَا أَذُوقُ هَـٰذَا الطَّعَامَ حَتَّىٰ تَخْلِطَهُ بِيَدِكَ الْمَقْطُوعَةِ ...

وَاللَّهِ مَا فِي الْقَوْمِ أَحَدٌ بَعْضُهُ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْتَ ، [يُرِيدُ بِذَلِكَ يَدَهُ] .

* * *

ظَلَّ حُلْمُ الشَّهَادَةِ يَلُوحُ[2] لِعَمْرٍو ، مُنْذُ فَارَقَ أَبَاهُ ، فَلَمَّا كَانَتْ مَعْرَكَةُ « الْيَرْمُوكِ »[3] بَادَرَ إِلَيْهَا عَمْرٌو مَعَ الْمُبَادِرِينَ ، وَمَا زَالَ يُقَاتِلُ حَتَّىٰ أَدْرَكَ الشَّهَادَةَ الَّتِي مَنَّاهُ بِهَا أَبُوهُ .

* * *

رَحِمَ اللَّهُ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ ؛ فَهُوَ الشَّهِيدُ وَأَبُو الشَّهِيدِ (*) .

---

(١) أجل : نعم .
(٢) يلوح : يتراءى .
(٣) معركة اليرموك : إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ وقعت في السنة الخامسة عشرة للهجرة وانتصر فيها المسلمون على الروم نصرًا كبيرًا .

(*) للاستزادة من أخبار الطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرٍو الدَّوْسِيِّ انظر :
١ – الإصابة : ٢/٢٢٥ أو « الترجمة » ٤٢٥٤.
٢ – الاستيعاب « على هامش الإصابة » : ٢/ ٢٣٠.
٣ – أسد الغابة : ٣/٥٤ - ٥٥.
٤ – صفة الصفوة : ١/٢٤٥ - ٢٤٦.
٥ – سير أعلام النبلاء : ١/٢٤٨ - ٢٥٠.
٦ – مختصر تاريخ دمشق : ٧/٥٩ - ٦٤.
٧ – البداية والنهاية : ٦/ ٣٣٧.
٨ – شهداء الإسلام : ١٣٨ - ١٤٣.
٩ – سيرة بطل لمحمد زيدان نشرته الدار السعودية عام ١٣٨٦هـ.

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ

« حَقٌّ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُقَبِّلَ رَأْسَ عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ ، وَأَنَا أَبْدَأُ بِذَلِكَ »
[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

بَطَلُ قِصَّتِنَا هَٰذِهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ يُدْعَىٰ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ السَّهْمِيَّ .

لَقَدْ كَانَ فِي وُسْعِ التَّارِيخِ أَنْ يَمُرَّ بِهَٰذَا الرَّجُلِ كَمَا مَرَّ بِمَلَايِينِ الْعَرَبِ مِنْ قَبْلِهِ دُونَ أَنْ يَأْبَهَ لَهُمْ ، أَوْ يَخْطُرُوا لَهُ عَلَىٰ بَالٍ .

لَكِنَّ الْإِسْلَامَ الْعَظِيمَ أَتَاحَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ أَنْ يَلْقَىٰ سَيِّدَيِ الدُّنْيَا فِي زَمَانِهِ : كِسْرَىٰ مَلِكَ « الْفُرْسِ » ، وَقَيْصَرَ عَظِيمَ « الرُّومِ » ...

وَأَنْ تَكُونَ لَهُ مَعَ كُلٍّ مِنْهُمَا قِصَّةٌ مَا تَزَالُ تَعِيهَا ذَاكِرَةُ الدَّهْرِ ، وَيَرْوِيهَا لِسَانُ التَّارِيخِ .

* * *

أَمَّا قِصَّتُهُ مَعَ كِسْرَىٰ مَلِكِ « الْفُرْسِ » فَكَانَتْ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ لِلْهِجْرَةِ حِينَ عَزَمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِهِ بِكُتُبٍ إِلَىٰ مُلُوكِ الْأَعَاجِمِ يَدْعُوهُمْ فِيهَا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ .

وَلَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُقَدِّرُ خُطُورَةَ هَٰذِهِ الْمُهِمَّةِ ...

فَهَؤُلَاءِ الرُّسُلُ سَيَذْهَبُونَ إِلَىٰ بِلَادٍ نَائِيَةٍ لَا عَهْدَ لَهُمْ بِهَا مِنْ قَبْلُ ...

وَهُمْ يَجْهَلُونَ لُغَاتِ تِلْكَ الْبِلَادِ وَلَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا عَنْ أَمْزِجَةِ مُلُوكِهَا ...

ثُمَّ إِنَّهُمْ سَيَدْعُونَ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكَ إِلَىٰ تَرْكِ أَدْيَانِهِمْ ، وَمُفَارَقَةِ عِزِّهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ ، وَالدُّخُولِ فِي دِينِ قَوْمٍ كَانُوا إِلَىٰ الْأَمْسِ الْقَرِيبِ مِنْ بَعْضِ أَتْبَاعِهِمْ ... إِنَّهَا رِحْلَةٌ خَطِرَةٌ ، الذَّاهِبُ فِيهَا مَفْقُودٌ ، وَالْعَائِدُ مِنْهَا مَوْلُودٌ .

لِذَا جَمَعَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَصْحَابَهُ، وَقَامَ فِيهِمْ خَطِيبًا: فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ:

(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَ بَعْضَكُمْ إِلَىٰ مُلُوكِ الْأَعَاجِمِ، فَلَا تَخْتَلِفُوا عَلَيَّ كَمَا اخْتَلَفَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ).

فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نُؤَدِّي عَنْكَ مَا تُرِيدُ فَابْعَثْنَا حَيْثُ شِئْتَ.

* * *

انْتَدَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سِتَّةً مِنَ الصَّحَابَةِ لِيَحْمِلُوا كُتُبَهُ إِلَىٰ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، وَكَانَ أَحَدَ هَؤُلَاءِ السِّتَّةِ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ، فَقَدِ اخْتِيرَ لِحَمْلِ رِسَالَةِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَىٰ « كِسْرَىٰ » مَلِكِ « الْفُرْسِ ».

* * *

جَهَّزَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ رَاحِلَتَهُ، وَوَدَّعَ صَاحِبَتَهُ[١] وَوَلَدَهُ، وَمَضَىٰ إِلَىٰ غَايَتِهِ تَرْفَعُهُ النِّجَادُ[٢] وَتَحُطُّهُ الْوِهَادُ[٣]؛ وَحِيدًا فَرِيدًا لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا اللَّهُ، حَتَّىٰ بَلَغَ دِيَارَ « فَارِسَ »، فَاسْتَأْذَنَ بِالدُّخُولِ عَلَىٰ مَلِكِهَا، وَأَخْطَرَ الْحَاشِيَةَ[٤] بِالرِّسَالَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا لَهُ.

عِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ « كِسْرَىٰ » بِإِيوَانِهِ[٥] فَزُيِّنَ، وَدَعَا عُظَمَاءَ « فَارِسَ » لِحُضُورِ مَجْلِسِهِ فَحَضَرُوا، ثُمَّ أَذِنَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ.

* * *

دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ عَلَىٰ سَيِّدِ « فَارِسَ » مُشْتَمِلًا شَمْلَتَهُ[٦] الرَّقِيقَةَ، مُرْتَدِيًا عَبَاءَتَهُ الصَّفِيقَةَ[٧]، عَلَيْهِ بَسَاطَةُ الْأَعْرَابِ ...

---

(١) صاحبته: زوجته.
(٢) النّجاد: الأماكن العالية.
(٣) الوهاد: الأماكن المنخفضة.
(٤) حاشية الملك: أعوانه.
(٥) الإيوان: القصر.
(٦) الشّملة: كساء يلف علَى الجسم لفًا.
(٧) الصّفيقة: الغليظة النّسج.

لَكِنَّهُ كَانَ عَالِيَ الْهَامَةِ[١]، مَشْدُودَ الْقَامَةِ، تَتَأَجَّجُ بَيْنَ جَوانِحِهِ[٢] عِزَّةُ الْإِسْلَامِ، وَتَتَوَقَّدُ فِي فُؤَادِهِ كِبْرِيَاءُ الْإِيمَانِ.

فَمَا إِنْ رَآهُ « كِسْرَىٰ » مُقْبِلًا حَتَّىٰ أَوْمَأَ إِلَىٰ أَحَدِ رِجَالِهِ بِأَنْ يَأْخُذَ الْكِتَابَ مِنْ يَدِهِ فَقَالَ: لَا، إِنَّمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَدْفَعَهُ لَكَ يَدًا بِيَدٍ وَأَنَا لَا أُخَالِفُ أَمْرًا لِرَسُولِ اللَّهِ. فَقَالَ « كِسْرَىٰ » لِرِجَالِهِ: اتْرُكُوهُ يَدْنُو مِنِّي، فَدَنَا مِنْ « كِسْرَىٰ » حَتَّىٰ نَاوَلَهُ الْكِتَابَ بِيَدِهِ.

ثُمَّ دَعَا « كِسْرَىٰ » كَاتِبًا عَرَبِيًّا مِنْ أَهْلِ « الْحِيرَةِ »[٣]، وَأَمَرَهُ أَنْ يَفُضَّ[٤] الْكِتَابَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنْ يَقْرَأَهُ عَلَيْهِ فَإِذَا فِيهِ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَىٰ كِسْرَىٰ عَظِيمِ فَارِسَ، سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ) ...

فَمَا إِنْ سَمِعَ « كِسْرَىٰ » مِنَ الرِّسَالَةِ هَٰذَا الْمِقْدَارَ حَتَّىٰ اشْتَعَلَتْ نَارُ الْغَضَبِ فِي صَدْرِهِ؛ فَاحْمَرَّ وَجْهُهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ[٥] لِأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَدَأَ بِنَفْسِهِ... فَجَذَبَ الرِّسَالَةَ مِنْ يَدِ كَاتِبِهِ وَجَعَلَ يُمَزِّقُهَا دُونَ أَنْ يَعْلَمَ مَا فِيهَا وَهُوَ يَصِيحُ: أَيَكْتُبُ لِي بِهَٰذَا، وَهُوَ عَبْدِي؟!! ...

ثُمَّ أَمَرَ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ مَجْلِسِهِ، فَأُخْرِجَ.

* * *

خَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ مِنْ مَجْلِسِ « كِسْرَىٰ »، وَهُوَ لَا يَدْرِي مَا يَفْعَلُ اللَّهُ لَهُ... أَيُقْتَلُ أَمْ يُتْرَكُ حُرًّا طَلِيقًا؟.

لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أُبَالِي عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ أَكُونُ بَعْدَ أَنْ أَدَّيْتُ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... وَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ وَانْطَلَقَ.

---

(١) الهامة: الرأس.
(٢) الجوانح: الأضلاع.
(٣) الحيرة: منطقة في العراق بين النجف والكوفة.
(٤) فض الكتاب: فتحه.
(٥) الأوداج: جمع ودج، وهو عرق في العنق ينتفخ عند الغضب.

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ « كِسْرَىٰ » الْغَضَبُ ، أَمَرَ بِأَنْ يُدْخَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ ؛ فَلَمْ يُوجَدْ ... فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَقِفُوا لَهُ عَلَىٰ أَثَرٍ ... فَطَلَبُوهُ فِي الطَّرِيقِ إِلَىٰ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فَوَجَدُوهُ قَدْ سَبَقَ .

فَلَمَّا قَدِمَ عَبْدُ اللَّهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ « كِسْرَىٰ » وَتَمْزِيقِهِ الْكِتَابَ ، فَمَا زَادَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ أَنْ قَالَ :

(مَزَّقَ اللَّهُ مُلْكَهُ) .

* * *

أَمَّا « كِسْرَىٰ » فَقَدْ كَتَبَ إِلَىٰ « بَاذَانَ » نَائِبِهِ عَلَىٰ « الْيَمَنِ » : أَنِ ابْعَثْ إِلَىٰ هَٰذَا الرَّجُلِ الَّذِي ظَهَرَ بِالْحِجَازِ رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ(١) مِنْ عِنْدِكَ ، وَمُرْهُمَا أَنْ يَأْتِيَانِي بِهِ ... فَبَعَثَ « بَاذَانُ » رَجُلَيْنِ مِنْ خِيرَةِ رِجَالِهِ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَحَمَّلَهُمَا رِسَالَةً لَهُ ، يَأْمُرُهُ فِيهَا بِأَنْ يَنْصَرِفَ مَعَهُمَا إِلَىٰ لِقَاءِ « كِسْرَىٰ » دُونَ إِبْطَاءٍ ...

وَطَلَبَ إِلَىٰ الرَّجُلَيْنِ أَنْ يَقِفَا عَلَىٰ خَبَرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَنْ يَسْتَقْصِيَا أَمْرَهُ ، وَأَنْ يَأْتِيَاهُ بِمَا يَقِفَانِ عَلَيْهِ مِنْ مَعْلُومَاتٍ .

* * *

خَرَجَ الرَّجُلَانِ يُغِذَّانِ السَّيْرَ(٢) حَتَّىٰ بَلَغَا « الطَّائِفَ » فَوَجَدَا رِجَالًا تُجَّارًا مِنْ قُرَيْشٍ ، فَسَأَلَاهُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَقَالُوا :

هُوَ فِي « يَثْرِبَ » ... ثُمَّ مَضَىٰ التُّجَّارُ إِلَىٰ مَكَّةَ فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ ، وَجَعَلُوا يُهَنِّئُونَ قُرَيْشًا وَيَقُولُونَ :

قَرُّوا عَيْنًا(٣)؛ فَإِنَّ « كِسْرَىٰ » تَصَدَّىٰ لِمُحَمَّدٍ وَكَفَاكُمْ شَرَّهُ .

أَمَّا الرَّجُلَانِ فَيَمَّمَا(٤) وَجْهَيْهِمَا شَطْرَ(٥) الْمَدِينَةِ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَاهَا لَقِيَا النَّبِيَّ

(١) جلدين : قويين.
(٢) يُغِذَّان السَّيْرَ: يواصلانه بسرعة.
(٣) قروا عينًا : أي افرحوا واستبشروا.
(٤) يَمَّما وجهيهما : أتجها.
(٥) شطر : ناحية.

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَدَفَعَا إِلَيْهِ رِسَالَةَ « بَاذَانَ » وَقَالَا لَهُ : إِنَّ مَلِكَ الْمُلُوكِ « كِسْرَىٰ » كَتَبَ إِلَىٰ مَلِكِنَا « بَاذَانَ » أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْكَ مَنْ يَأْتِيهِ بِكَ ... وَقَدْ أَتَيْنَاكَ لِتَنْطَلِقَ مَعَنَا إِلَيْهِ ، فَإِنْ أَجَبْتَنَا كَلَّمْنَا « كِسْرَىٰ » بِمَا يَنْفَعُكَ وَيَكُفُّ أَذَاهُ عَنْكَ ، وَإِنْ أَبَيْتَ ؛ فَهُوَ مَنْ قَدْ عَلِمْتَ سَطْوَتَهُ[١] وَبَطْشَهُ وَقُدْرَتَهُ عَلَىٰ إِهْلَاكِكَ وَإِهْلَاكِ قَوْمِكَ .

فَتَبَسَّمَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ لَهُمَا :

(ارْجِعَا إِلَىٰ رِحَالِكُمَا الْيَوْمَ وَائْتِيَا غَدًا) .

فَلَمَّا غَدَوَا عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي ، قَالَا لَهُ : هَلْ أَعْدَدْتَ نَفْسَكَ لِلْمُضِيِّ مَعَنَا إِلَىٰ لِقَاءِ « كِسْرَىٰ » ؟ .

فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ : (لَنْ تَلْقِيَا « كِسْرَىٰ » بَعْدَ الْيَوْمِ ... فَلَقَدْ قَتَلَهُ اللَّهُ ؛ حَيْثُ سَلَّطَ عَلَيْهِ ابْنَهُ « شِيرَوَيْهِ » فِي لَيْلَةِ كَذَا ... مِنْ شَهْرِ كَذَا ...) .

فَحَدَّقَا فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَبَدَتِ الدَّهْشَةُ عَلَىٰ وَجْهَيْهِمَا ، وَقَالَا :

أَتَدْرِي مَا تَقُولُ ؟! ... أَنَكْتُبُ بِذَلِكَ « لِبَاذَانَ » ؟! .

قَالَ : (نَعَمْ ، وَقُولَا لَهُ : إِنَّ دِينِي سَيَبْلُغُ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مُلْكُ « كِسْرَىٰ » ، وَإِنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ أَعْطَيْتُكَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ ، وَمَلَّكْتُكَ عَلَىٰ قَوْمِكَ) .

* * *

خَرَجَ الرَّجُلَانِ مِنْ عِنْدِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَقَدِمَا عَلَىٰ « بَاذَانَ » وَأَخْبَرَاهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ : لَئِنْ كَانَ مَا قَالَهُ مُحَمَّدٌ حَقًّا فَهُوَ نَبِيٌّ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَسَنَرَىٰ فِيهِ رَأْيًا ... فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَدِمَ عَلَىٰ « بَاذَانَ » كِتَابُ « شِيرَوَيْهِ » وَفِيهِ يَقُولُ : أَمَّا بَعْدُ ... فَقَدْ قَتَلْتُ « كِسْرَىٰ » ، وَلَمْ أَقْتُلْهُ إِلَّا انْتِقَامًا لِقَوْمِنَا ، فَقَدِ

(١) سطوته : قوّته وبأسه .

اسْتَحَلَّ قَتْلَ أَشْرَافِهِمْ وَسَبْيَ نِسَائِهِمْ وَانْتِهَابَ أَمْوَالِهِمْ ، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَٰذَا فَخُذْ لِيَ الطَّاعَةَ مِمَّنْ عِنْدَكَ .

فَمَا إِنْ قَرَأَ « بَاذَانُ » كِتَابَ « شِيرَوَيْهِ » حَتَّىٰ طَرَحَهُ جَانِبًا وَأَعْلَنَ دُخُولَهُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَسْلَمَ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ « الْفُرْسِ » فِي بِلَادِ « الْيَمَنِ » .

* * *

هَٰذِهِ قِصَّةُ لِقَاءِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ « لِكِسْرَىٰ » مَلِكِ الْفُرْسِ .

فَمَا قِصَّةُ لِقَائِهِ « لِقَيْصَرَ » عَظِيمِ الرُّومِ ؟ .

لَقَدْ كَانَ لِقَاؤُهُ « لِقَيْصَرَ » فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانَتْ لَهُ مَعَهُ قِصَّةٌ مِنْ رَوَائِعِ الْقِصَصِ ...

فَفِي السَّنَةِ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ بَعَثَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ جَيْشًا لِحَرْبِ الرُّومِ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ ... وَكَانَ « قَيْصَرُ » عَظِيمُ الرُّومِ قَدْ تَنَاهَتْ(١) إِلَيْهِ أَخْبَارُ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا يَتَحَلَّوْنَ(٢) بِهِ مِنْ صِدْقِ الْإِيمَانِ ، وَرُسُوخِ الْعَقِيدَةِ ، وَاسْتِرْخَاصِ النَّفْسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

فَأَمَرَ رِجَالَهُ ـ إِذَا ظَفِرُوا بِأَسِيرٍ مِنْ أَسْرَىٰ الْمُسْلِمِينَ ـ أَنْ يُبْقُوا عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَأْتُوهُ بِهِ حَيًّا ... وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الرُّومِ ؛ فَحَمَلُوهُ إِلَىٰ مَلِيكِهِمْ وَقَالُوا : إِنَّ هَٰذَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ السَّابِقِينَ إِلَىٰ دِينِهِ قَدْ وَقَعَ أَسِيرًا فِي أَيْدِينَا ؛ فَأَتَيْنَاكَ بِهِ .

* * *

نَظَرَ مَلِكُ الرُّومِ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ طَوِيلًا ثُمَّ بَادَرَهُ قَائِلًا :

إِنِّي أَعْرِضُ عَلَيْكَ أَمْرًا .

قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ .

---

(١) تناهَتْ إِلَيه : بلغته.		(٢) يتحلَّون به : يتَّصِفون به .

فَقَالَ : أَعْرِضُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَنَصَّرَ ...

فَإِنْ فَعَلْتَ ؛ خَلَّيْتُ سَبِيلَكَ ، وَأَكْرَمْتُ مَثْوَاكَ .

فَقَالَ الأَسِيرُ فِي أَنَفَةٍ وَحَزْمٍ : هَيْهَاتَ ...

إِنَّ الْمَوْتَ لأَحَبُّ إِلَيَّ أَلْفَ مَرَّةٍ مِمَّا تَدْعُونِي إِلَيْهِ .

فَقَالَ « قَيْصَرُ » : إِنِّي لأَرَاكَ رَجُلًا شَهْمًا ... فَإِنْ أَجَبْتَنِي إِلَىٰ مَا أَعْرِضُهُ عَلَيْكَ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمْرِي وَقَاسَمْتُكَ سُلْطَانِي .

فَتَبَسَّمَ الأَسِيرُ الْمُكَبَّلُ(١) بِقُيُودِهِ وَقَالَ : وَاللَّهِ لَوْ أَعْطَيْتَنِي جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ ، وَجَمِيعَ مَا مَلَكَتْهُ الْعَرَبُ عَلَىٰ أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ طَرْفَةَ عَيْنٍ(٢) مَا فَعَلْتُ .

قَالَ : إِذَنْ أَقْتُلُكَ .

قَالَ : أَنْتَ وَمَا تُرِيدُ ...

ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَصُلِبَ ، وَقَالَ لِقَنَّاصَتِهِ ـ بِالرُّومِيَّةِ ـ : ارْمُوهُ قَرِيبًا مِنْ يَدَيْهِ ، وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ التَّنَصُّرَ فَأَبَىٰ .

فَقَالَ : ارْمُوهُ قَرِيبًا مِنْ رِجْلَيْهِ ، وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ مُفَارَقَةَ دِينِهِ فَأَبَىٰ .

عِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَكُفُّوا عَنْهُ ، وَطَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُنْزِلُوهُ عَنْ خَشَبَةِ الصَّلْبِ ، ثُمَّ دَعَا بِقِدْرٍ عَظِيمَةٍ فَصُبَّ فِيهَا الزَّيْتُ ، وَرُفِعَتْ عَلَىٰ النَّارِ حَتَّىٰ غَلَتْ ثُمَّ دَعَا بِأَسِيرَيْنِ مِنْ أَسَارَىٰ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَمَرَ بِأَحَدِهِمَا أَنْ يُلْقَىٰ فِيهَا فَأُلْقِيَ ، فَإِذَا لَحْمُهُ يَتَفَتَّتُ ... وَإِذَا عِظَامُهُ تَبْدُو عَارِيَةً ... ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ وَدَعَاهُ إِلَىٰ النَّصْرَانِيَّةِ ، فَكَانَ أَشَدَّ إِبَاءً لَهَا مِنْ قَبْلُ .

فَلَمَّا يَئِسَ مِنْهُ ؛ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُلْقَىٰ فِي الْقِدْرِ الَّتِي أُلْقِيَ فِيهَا صَاحِبَاهُ فَلَمَّا ذُهِبَ بِهِ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ ، فَقَالَ رِجَالُ « قَيْصَرَ » لِمَلِكِهِمْ : إِنَّهُ قَدْ بَكَىٰ ... فَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ

(١) الْمكبَّل : الْمقيَّد .

(٢) طرفة عين : بمقدار ما تَطرِف الْعين .

جَزِعَ ، وَقَالَ : رُدُّوهُ إِلَيَّ ... فَلَمَّا مَثُلَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَرَضَ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ فَأَبَاهَا .

فَقَالَ : وَيْحَكَ ، فَمَا الَّذِي أَبْكَاكَ إِذَنْ ؟! .

قَالَ : أَبْكَانِي أَنِّي قُلْتُ فِي نَفْسِي : تُلْقَىٰ الآنَ فِي هَٰذِهِ الْقِدْرِ ، فَتَذْهَبُ نَفْسُكَ ، وَقَدْ كُنْتُ أَشْتَهِي أَنْ يَكُونَ لِي بِعَدَدِ مَا فِي جَسَدِي مِنْ شَعْرٍ أَنْفُسٌ ؛ فَتُلْقَىٰ كُلُّهَا فِي هَٰذَا الْقِدْرِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فَقَالَ الطَّاغِيَةُ : هَلْ لَكَ أَنْ تُقَبِّلَ رَأْسِي وَأُخَلِّيَ عَنْكَ ؟ .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ : وَعَنْ جَمِيعِ أَسَارَىٰ الْمُسْلِمِينَ أَيْضًا ؟ .

قَالَ : وَعَنْ جَمِيعِ أَسَارَىٰ الْمُسْلِمِينَ أَيْضًا .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ :

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : عَدُوٌّ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ ، أُقَبِّلُ رَأْسَهُ فَيُخَلِّي عَنِّي وَعَنْ أَسَارَىٰ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا ، لَا ضَيْرَ فِي ذَٰلِكَ عَلَيَّ .

ثُمَّ دَنَا مِنْهُ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ ، فَأَمَرَ مَلِكُ الرُّومِ أَنْ يَجْمَعُوا لَهُ أَسَارَىٰ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ يَدْفَعُوهُمْ إِلَيْهِ ، فَدُفِعُوا لَهُ .

* * *

قَدِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ عَلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُ ؛ فَسُرَّ بِهِ الْفَارُوقُ أَعْظَمَ السُّرُورِ ، وَلَمَّا نَظَرَ إِلَىٰ الْأَسْرَىٰ قَالَ :

حَقٌّ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُقَبِّلَ رَأْسَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ ...

وَأَنَا أَبْدَأُ بِذَلِكَ ... ثُمَّ قَامَ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار عبد اللَّهِ بن حُذَافَةَ انظر:

١ - الإصابة : ٢/٢٩٦ أو « الترجمة » ٤٦٢٢.
٢ - السيرة النبوية لابن هشام « تحقيق السقا » : انظر الفهارس.
٣ - حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوي : « انظر الفهارس في الجزء الرابع ».
٤ - تهذيب التهذيب : ٥/١٨٥.
٥ - إمتاع الأسماع : ١/٣٠٨، ٤٤٤.
٦ - حسن الصحابة : ٣٠٥.
٧ - المحبر : ٧٧.
٨ - تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/٨٨.

عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ

«لَقَدْ غَدَا عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ بَعْضِ أَبْنَائِي»

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

عَادَ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ الْجُمَحِيُّ مِنْ «بَدْرٍ» نَاجِيًا بِنَفْسِهِ، لَكِنَّهُ خَلَّفَ وَرَاءَهُ ابْنَهُ «وَهْبًا» أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ كَانَ عُمَيْرٌ يَخْشَىٰ أَنْ يَأْخُذَ الْمُسْلِمُونَ الْفَتَىٰ بِجَرِيرَةِ[1] أَبِيهِ، وَأَنْ يَسُومُوهُ سُوءَ الْعَذَابِ جَزَاءَ مَا كَانَ يُنْزِلُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْأَذَىٰ، وَلِقَاءَ مَا كَانَ يُلْحِقُ بِأَصْحَابِهِ مِنَ النَّكَالِ[2].

* * *

وَفِي ذَاتِ ضُحًى تَوَجَّهَ عُمَيْرٌ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ لِلطَّوَافِ بِالْكَعْبَةِ وَالتَّبَرُّكِ بِأَصْنَامِهَا، فَوَجَدَ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ[3] جَالِسًا إِلَىٰ جَانِبِ الْحِجْرِ[4]، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ: عِمْ صَبَاحًا[5] يَا سَيِّدَ قُرَيْشٍ.

فَقَالَ صَفْوَانُ: عِمْ صَبَاحًا يَا أَبَا وَهْبٍ، اِجْلِسْ نَتَحَدَّثْ سَاعَةً؛ فَإِنَّمَا يُقَطَّعُ الْوَقْتُ بِالْحَدِيثِ.

فَجَلَسَ عُمَيْرٌ بِإِزَاءِ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَطَفِقَ الرَّجُلَانِ يَتَذَاكَرَانِ «بَدْرًا»، وَمُصَابَهَا الْعَظِيمَ، وَيُعَدِّدَانِ الْأَسْرَىٰ الَّذِينَ وَقَعُوا فِي أَيْدِي مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ،

---

(١) بجريرة أبيه: بذنب أبيه.

(٢) النَّكال: الضَّربُ الشَّديدُ الذي يجعل المرءَ عِبرةً لغيره.

(٣) صَفْوان بن أُميّة بن خلف الجمحي القُرشي: وكنيته أبو وهب أسلم بعد الفتح، وكان شهمًا جوادًا من أشراف قُرَيْش وكان من المؤلفة قلوبهم، شهد معركة اليرموك ومات بمكة سنة ٤١هـ.

(٤) الحجر: أي حجر إسماعيل عليه السَّلام من الكعبة، وهو ما حواه الحطيم المدار بالبيت، وقد اقتصرت قُرَيْش في بنيان الكعبة عنه لنفاد المال الحلال في بيوتهم.

(٥) عِمْ صَبَاحًا: تحية العرب في الجاهلية.

وَيَتَفَجَّعَانِ[1] عَلَىٰ عُظَمَاءِ قُرَيْشٍ مِمَّنْ قَتَلَتْهُمْ سُيُوفُ الْمُسْلِمِينَ وَغَيَّبَهُمُ «الْقَلِيبُ»[2] فِي أَعْمَاقِهِ ... فَتَنَهَّدَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ وَقَالَ :

لَيْسَ - وَاللَّهِ - فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ بَعْدَهُمْ .

فَقَالَ عُمَيْرٌ : صَدَقْتَ وَاللَّهِ ... ثُمَّ سَكَتَ قَلِيلًا ، وَقَالَ :

وَرَبِّ الْكَعْبَةِ لَوْلَا دُيُونٌ عَلَيَّ لَيْسَ عِنْدِي مَا أَقْضِيهَا بِهِ ، وَعِيَالٌ أَخْشَىٰ عَلَيْهِمُ الضَّيَاعَ مِنْ بَعْدِي ، لَمَضَيْتُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ وَقَتَلْتُهُ ، وَحَسَمْتُ أَمْرَهُ ، وَكَفَفْتُ شَرَّهُ ... ثُمَّ أَتْبَعَ يَقُولُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ : وَإِنَّ فِي وُجُودِ ابْنِي وَهْبٍ لَدَيْهِمْ مَا يَجْعَلُ ذَهَابِي إِلَىٰ «يَثْرِبَ» أَمْرًا لَا يُثِيرُ الشُّبُهَاتِ .

* * *

اغْتَنَمَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ كَلَامَ عُمَيْرِ بْنِ وَهْبٍ ؛ وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُفَوِّتَ هَٰذِهِ الْفُرْصَةَ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ : يَا عُمَيْرُ ، اجْعَلْ دَيْنَكَ كُلَّهُ عَلَيَّ ، فَأَنَا أَقْضِيهِ عَنْكَ مَهْمَا بَلَغَ ... وَأَمَّا عِيَالُكَ فَسَأَضُمُّهُمْ إِلَىٰ عِيَالِي مَا امْتَدَّتْ بِي وَبِهِمُ الْحَيَاةُ ...

وَإِنَّ فِي مَالِي مِنَ الْكَثْرَةِ مَا يَسَعُهُمْ جَمِيعًا ، وَيَكْفُلُ لَهُمُ الْعَيْشَ الرَّغِيدَ .

فَقَالَ عُمَيْرٌ : إِذَنْ ، اكْتُمْ حَدِيثَنَا هَٰذَا وَلَا تُطْلِعْ عَلَيْهِ أَحَدًا .

فَقَالَ صَفْوَانُ : لَكَ ذَٰلِكَ .

* * *

قَامَ عُمَيْرٌ مِنَ الْمَسْجِدِ وَنِيرَانُ الْحِقْدِ تَتَأَجَّجُ[3] فِي فُؤَادِهِ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَطَفِقَ يُعِدُّ الْعُدَّةَ لِإِنْفَاذِ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ ، فَمَا كَانَ يَخْشَىٰ ارْتِيَابَ أَحَدٍ فِي سَفَرِهِ ؛ ذَٰلِكَ لِأَنَّ ذَوِي الْأَسْرَىٰ مِنَ الْقُرَشِيِّينَ كَانُوا يَتَرَدَّدُونَ عَلَىٰ «يَثْرِبَ» سَعْيًا وَرَاءَ افْتِدَاءِ أَسْرَاهُمْ .

* * *

(١) يتفجّعان : يظهران الوجع مما أصابهما .
(٢) القليب : بئر دُفن فيه قتلى المشركين يوم بدر .   (٣) تتأجّج : تشتعل وتضطرم .

أَمَرَ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ بِسَيْفِهِ فَشُحِذَ وَسُقِيَ سُمًّا ...

وَدَعَا بِرَاحِلَتِهِ فَأُعِدَّتْ وَقُدِّمَتْ لَهُ ؛ فَامْتَطَىٰ مَتْنَهَا[١] ...

وَيَمَّمَ وَجهَهُ شَطْرَ الْمَدِينَةِ ، وَمِلْءُ بُرْدَيْهِ الضَّغِينَةُ[٢] وَالشَّرُّ .

بَلَغَ عُمَيْرٌ الْمَدِينَةَ وَمَضَىٰ نَحْوَ الْمَسْجِدِ يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا غَدَا قَرِيبًا مِنْ بَابِهِ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ وَنَزَلَ عَنْهَا .

* * *

كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إِذْ ذَاكَ ـ جَالِسًا مَعَ بَعْضِ الصَّحَابَةِ قَرِيبًا مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ ، يَتَذَاكَرُونَ « بَدْرًا » وَمَا خَلَّفَتْهُ وَرَاءَهَا مِنْ أَسْرَىٰ قُرَيْشٍ وَقَتْلَاهُمْ ، وَيَسْتَعِيدُونَ صُوَرَ بُطُولَاتِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَيَذْكُرُونَ مَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّصْرِ ، وَمَا أَرَاهُمْ فِي عَدُوِّهِمْ مِنَ النِّكَايَةِ[٣] وَالْخِذْلَانِ ... فَحَانَتْ مِنْ عُمَرَ الْتِفَاتَةٌ ؛ فَرَأَىٰ عُمَيْرَ بْنَ وَهْبٍ يَنْزِلُ عَنْ رَاحِلَتِهِ ، وَيَمْضِي نَحْوَ الْمَسْجِدِ مُتَوَشِّحًا[٤] سَيْفَهُ ، فَهَبَّ مَذْعُورًا وَقَالَ :

هَٰذَا الْكَلْبُ عَدُوُّ اللَّهِ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ ... وَاللَّهِ مَا جَاءَ إِلَّا لِشَرٍّ ، لَقَدْ أَلَّبَ[٥] الْمُشْرِكِينَ عَلَيْنَا فِي مَكَّةَ ، وَكَانَ عَيْنًا[٦] لَهُمْ عَلَيْنَا قُبَيْلَ « بَدْرٍ » ...

ثُمَّ قَالَ لِجُلَسَائِهِ : امْضُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكُونُوا حَوْلَهُ ، وَاحْذَرُوا أَنْ يَغْدُرَ بِهِ هَٰذَا الْخَبِيثُ الْمَاكِرُ .

ثُمَّ بَادَرَ عُمَرُ إِلَىٰ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَٰذَا عَدُوُّ اللَّهِ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ قَدْ جَاءَ مُتَوَشِّحًا سَيْفَهُ ، وَمَا أَظُنُّهُ إِلَّا يُرِيدُ شَرًّا .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (أَدْخِلْهُ عَلَيَّ) .

---

(١) امتطى متنها : ركب ظهرها .
(٢) الضغينة : الحقد والكره .
(٣) النكاية : القهر والإصابة بالقتل والجرح .
(٤) متوشحًا سيفه : متقلدًا سيفه .
(٥) ألّب : أثار .
(٦) عينًا : جاسوسًا .

فَأَقْبَلَ الْفَارُوقُ عَلَىٰ عُمَيْرِ بْنِ وَهْبٍ وَأَخَذَ بِتَلَابِيبِهِ[1]، وَطَوَّقَ عُنُقَهُ بِحِمَالَةِ[2] سَيْفِهِ، وَمَضَىٰ بِهِ نَحْوَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْحَالِ؛ قَالَ لِعُمَرَ: (أَطْلِقْهُ يَا عُمَرُ)، فَأَطْلَقَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: (اسْتَأْخِرْ عَنْهُ)، فَتَأَخَّرَ عَنْهُ.

ثُمَّ تَوَجَّهَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَىٰ عُمَيْرِ بْنِ وَهْبٍ وَقَالَ: (ادْنُ يَا عُمَيْرُ)، فَدَنَا وَقَالَ: أَنْعِمْ صَبَاحًا [وَهِيَ تَحِيَّةُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ].

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَقَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِتَحِيَّةٍ خَيْرٍ مِنْ تَحِيَّتِكَ يَا عُمَيْرُ... لَقَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِالسَّلَامِ، وَهُوَ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ).

فَقَالَ عُمَيْرٌ: وَاللَّهِ مَا أَنْتَ بِبَعِيدٍ عَنْ تَحِيَّتِنَا، وَإِنَّكَ بِهَا لَحَدِيثُ عَهْدٍ.

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(وَمَا الَّذِي جَاءَ بِكَ يَا عُمَيْرُ؟!).

قَالَ: جِئْتُ أَرْجُو فَكَاكَ هَـٰذَا الْأَسِيرِ الَّذِي فِي أَيْدِيكُمْ، فَأَحْسِنُوا إِلَيَّ فِيهِ.

قَالَ: (فَمَا بَالُ[3] السَّيْفِ الَّذِي فِي عُنُقِكَ؟!).

قَالَ عُمَيْرٌ: قَبَّحَهَا اللَّهُ مِنْ سُيُوفٍ...

وَهَلْ أَغْنَتْ عَنَّا شَيْئًا يَوْمَ «بَدْرٍ»؟!!.

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: (أُصْدُقْنِي، مَا الَّذِي جِئْتَ لَهُ يَا عُمَيْرُ؟).

قَالَ: مَا جِئْتُ إِلَّا لِذَاكَ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (بَلْ قَعَدْتَ أَنْتَ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ عِنْدَ الْحِجْرِ، فَتَذَاكَرْتُمَا أَصْحَابَ «الْقَلِيبِ» مِنْ صَرْعَىٰ قُرَيْشٍ ثُمَّ قُلْتَ: لَوْلَا دَيْنٌ عَلَيَّ

---

(١) أخذ بتلابيبه: أمسكه من طوق ثوبه مسكة متمكّن.

(٢) حمالة السيف: ما يعلق به.

(٣) ما بال السيف: ما خبر السيف.

وَعِيَالٌ عِنْدِي لَخَرَجْتُ حَتَّىٰ أَقْتُلَ مُحَمَّدًا ... فَتَحَمَّلَ لَكَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ دَيْنَكَ وَعِيَالَكَ عَلَىٰ أَنْ تَقْتُلَنِي ... وَاللَّهُ حَائِلٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ) .

فَذَهِلَ عُمَيْرٌ لَحْظَةً ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ قَالَ : أَشْهَدُ أَنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .

ثُمَّ أَرْدَفَ(١) يَقُولُ : لَقَدْ كُنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ نُكَذِّبُكَ بِمَا كُنْتَ تَأْتِينَا بِهِ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَمَا يَنْزِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْوَحْيِ ، لَكِنَّ خَبَرِي مَعَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ إِلَّا أَنَا وَهُوَ ... وَوَاللَّهِ لَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّهُ مَا أَتَاكَ بِهِ إِلَّا اللَّهُ ...

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَاقَنِي إِلَيْكَ سَوْقًا ، لِيَهْدِيَنِي إِلَىٰ الْإِسْلَامِ ...

ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَسْلَمَ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ : (فَقِّهُوا أَخَاكُمْ فِي دِينِهِ ، وَعَلِّمُوهُ الْقُرْآنَ ، وَأَطْلِقُوا أَسِيرَهُ) .

* * *

فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِ عُمَيْرِ بْنِ وَهْبٍ أَشَدَّ الْفَرَحِ ؛ حَتَّىٰ إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَخِنْزِيرٌ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ عُمَيْرِ بْنِ وَهْبٍ حِينَ قَدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ الْيَوْمَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَعْضِ أَبْنَائِي .

* * *

وَفِيمَا كَانَ عُمَيْرٌ يُزَكِّي(٢) نَفْسَهُ بِتَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ ، وَيُتْرِعُ(٣) فُؤَادَهُ بِنُورِ الْقُرْآنِ ، وَيَحْيَا أَرْوَعَ أَيَّامِ حَيَاتِهِ وَأَغْنَاهَا ، مِمَّا أَنْسَاهُ مَكَّةَ وَمَنْ فِي مَكَّةَ .

كَانَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ يُمَنِّي نَفْسَهُ الْأَمَانِيَّ ، وَيَمُرُّ بِأَنْدِيَةِ قُرَيْشٍ فَيَقُولُ : أَبْشِرُوا بِنَبَإٍ عَظِيمٍ يَأْتِيكُمْ قَرِيبًا فَيُنْسِيكُمْ وَقْعَةَ « بَدْرٍ » .

* * *

ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا طَالَ الِانْتِظَارُ عَلَىٰ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ ، أَخَذَ الْقَلَقُ يَتَسَرَّبُ إِلَىٰ نَفْسِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّىٰ غَدَا يَتَقَلَّبُ عَلَىٰ أَحَرَّ مِنَ الْجَمْرِ ، وَطَفِقَ يُسَائِلُ الرُّكْبَانَ

---

(١) أَرْدَفَ : أَتْبَعَ . (٢) يزكي نفسه : يطهرها . (٣) يترع فؤاده : يملأ قلبه .

عَنْ عُمَيْرِ بْنِ وَهْبٍ فَلَا يَجِدُ عِنْدَ أَحَدٍ جَوَابًا يَشْفِيهِ ...

إِلَىٰ أَنْ جَاءَهُ رَاكِبٌ فَقَالَ : إِنَّ عُمَيْرًا قَدْ أَسْلَمَ ...

فَنَزَلَ عَلَيْهِ الْخَبَرُ نُزُولَ الصَّاعِقَةِ ... إِذْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ وَهْبٍ لَا يُسْلِمُ وَلَوْ أَسْلَمَ جَمِيعُ مَنْ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ .

* * *

أَمَّا عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ فَإِنَّهُ مَا كَادَ يَتَفَقَّهُ فِي دِينِهِ ، وَيَحْفَظُ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ كَلَامِ رَبِّهِ ، حَتَّىٰ جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَقَدْ غَبَرَ[1] عَلَيَّ زَمَانٌ وَأَنَا دَائِبٌ عَلَىٰ إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ ، شَدِيدُ الْأَذَىٰ لِمَنْ كَانَ عَلَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ تَأْذَنَ لِي بِأَنْ أَقْدَمَ عَلَىٰ مَكَّةَ لِأَدْعُوَ قُرَيْشًا إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِنْ قَبِلُوا مِنِّي فَنِعْمَ مَا فَعَلُوا ، وَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِّي آذَيْتُهُمْ فِي دِينِهِمْ كَمَا كُنْتُ أُوذِي أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَأَذِنَ لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَوَافَىٰ[2] مَكَّةَ ، وَأَتَىٰ بَيْتَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَقَالَ : يَا صَفْوَانُ ، إِنَّكَ لَسَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ مَكَّةَ ، وَعَاقِلٌ مِنْ عُقَلَاءِ قُرَيْشٍ ، أَفَتَرَىٰ أَنَّ هَٰذَا الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَحْجَارِ وَالذَّبْحِ لَهَا يَصِحُّ فِي الْعَقْلِ أَنْ يَكُونَ دِينًا ؟! ...

أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

* * *

ثُمَّ طَفِقَ عُمَيْرٌ يَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ فِي مَكَّةَ ، حَتَّىٰ أَسْلَمَ عَلَىٰ يَدَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ .

أَجْزَلَ اللَّهُ مَثُوبَةَ عُمَيْرِ بْنِ وَهْبٍ ، وَنَوَّرَ لَهُ فِي قَبْرِهِ (*) .

---

(١) غَبَرَ : مَضَىٰ .

(٢) وافىٰ : أتىٰ .

(*) للاستزادة من أخبار عُمَيْر بن وَهْب انظر :

١ – حياة الصّحابة : « الفهارس في الجزء الرابع » .

٢ – السّيرة لابن هشام بتحقيق السّقا : « انظر الفهارس » .

٣ – الإصابة : ٣/٣٦ أو « الترجمة » ٦٠٥٨ .

٤ – طبقات ابن سعد : ٤/١٤٦ .

الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ الأَنْصَارِيُّ

« لَا تُوَلُّوا الْبَرَاءَ جَيْشًا مِنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ
مَخَافَةَ أَنْ يُهْلِكَ جُنْدَهُ بِإِقْدَامِهِ »

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

كَانَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ[1] ضَئِيلَ الْجِسْمِ مَعْرُوقَ[2] الْعَظْمِ تَقْتَحِمُهُ[3] عَيْنُ رَائِيهِ ثُمَّ تَزْوَرُّ[4] عَنْهُ ازْوِرَارًا.

وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ، قَتَلَ مِائَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ مُبَارَزَةً وَحْدَهُ، عَدَا عَنِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ فِي غِمَارِ الْمَعَارِكِ مَعَ الْمُحَارِبِينَ.

إِنَّهُ الْكَمِيُّ الْبَاسِلُ الْمِقْدَامُ الَّذِي كَتَبَ الْفَارُوقُ بِشَأْنِهِ إِلَى عُمَّالِهِ فِي الْآفَاقِ: أَلَّا يُوَلُّوهُ عَلَى جَيْشٍ مِنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ، خَوْفًا مِنْ أَنْ يُهْلِكَهُمْ بِإِقْدَامِهِ.

إِنَّهُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ، أَخُو أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[5] خَادِمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَلَوْ رُحْتُ أَسْتَقْصِي لَكَ أَخْبَارَ بُطُولَاتِ الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ، لَطَالَ الْكَلَامُ وَضَاقَ الْمَقَامُ؛ لِذَا رَأَيْتُ أَنْ أَعْرِضَ لَكَ قِصَّةً وَاحِدَةً مِنْ قِصَصِ بُطُولَاتِهِ، وَهِيَ تُنْبِيكَ[6] عَمَّا عَدَاهَا.

* * *

تَبْدَأُ هَذِهِ الْقِصَّةُ مُنْذُ السَّاعَاتِ الْأُولَى لِوَفَاةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ وَالْتِحَاقِهِ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى، حَيْثُ طَفِقَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ تَخْرُجُ مِنْ دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، كَمَا

---

(1) أشعث أغبر: متلبّد الشعر أغبر الجسم.
(2) معروق العظم: مهزول الجسد، قليل اللحم.
(3) تقتحمه: تنظر إليه بصعوبة.
(4) تزورّ عنه: تميل عنه وتنحرف.
(5) أنس بن مالك الأنصاري: انظره ص ١٣.
(6) تنبيك: تخبرك.

دَخَلَتْ فِي هَٰذَا الدِّينِ أَفْوَاجًا ، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ ، إِلَّا أَهْلُ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالطَّائِفِ ، وَجَمَاعَاتٌ مُتَفَرِّقَةٌ هُنَا وَهُنَاكَ مِمَّنْ ثَبَّتَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَلَىٰ الْإِيمَانِ .

* * *

صَمَدَ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، لِهَٰذِهِ الْفِتْنَةِ الْمُدَمِّرَةِ الْعَمْيَاءِ ، صُمُودَ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ ، وَجَهَّزَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَحَدَ عَشَرَ جَيْشًا ، وَعَقَدَ لِقَادَةِ هَٰذِهِ الْجُيُوشِ أَحَدَ عَشَرَ لِوَاءً ، وَدَفَعَ بِهِمْ فِي أَرْجَاءِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ لِيُعِيدُوا الْمُرْتَدِّينَ إِلَىٰ سَبِيلِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ ، وَلِيَحْمِلُوا الْمُنْحَرِفِينَ عَلَىٰ الْجَادَّةِ[١] بِحَدِّ السَّيْفِ .

وَكَانَ أَقْوَىٰ الْمُرْتَدِّينَ بَأْسًا وَأَكْثَرَهُمْ عَدَدًا ؛ بَنُو « حَنِيفَةَ » أَصْحَابُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ . فَقَدِ اجْتَمَعَ لِمُسَيْلِمَةَ مِنْ قَوْمِهِ وَحُلَفَائِهِمْ أَرْبَعُونَ أَلْفًا مِنْ أَشِدَّاءِ الْمُحَارِبِينَ .

وَكَانَ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ قَدِ اتَّبَعُوهُ عَصَبِيَّةً[٢] لَهُ ، لَا إِيمَانًا بِهِ ، فَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ كَذَّابٌ ، وَمُحَمَّدًا صَادِقٌ ...

لَكِنَّ كَذَّابَ رَبِيعَةَ[٣] أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ صَادِقِ مُضَرَ[٤].

* * *

هَزَمَ مُسَيْلِمَةُ أَوَّلَ جَيْشٍ خَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ[٥] وَرَدَّهُ عَلَىٰ أَعْقَابِهِ .

فَأَرْسَلَ لَهُ الصِّدِّيقُ جَيْشًا ثَانِيًا بِقِيَادَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، حَشَدَ فِيهِ وُجُوهَ الصَّحَابَةِ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ ، وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ ، وَنَفَرٌ مِنْ كُمَاةِ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

(١) الجادَّة : الصِّراط المستقيم الَّذي هو الإسلام.
(٢) العصبيَّة : شدَّة ارتباط المرء بعُصْبَتِهِ أو جماعته ونصرتها في الحق والباطل.
(٣) ربيعة : قبيلة كبيرة من قبائل العرب ينتمي إليها مُسَيْلِمَةُ.
(٤) مضر : قبيلة رسول الله ﷺ.
(٥) عكرمة بن أبي جهل : انظره ص ١١٥.

الْتَقَىٰ الْجَيْشَانِ عَلَىٰ أَرْضِ «الْيَمَامَةِ» فِي «نَجْدٍ»، فَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ، حَتَّىٰ رَجَحَتْ كَفَّةُ مُسَيْلِمَةَ وَأَصْحَابِهِ، وَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ تَحْتَ أَقْدَامِ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ، وَطَفِقُوا يَتَرَاجَعُونَ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ، حَتَّىٰ اقْتَحَمَ أَصْحَابُ مُسَيْلِمَةَ فُسْطَاطَ[١] خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَاقْتَلَعُوهُ مِنْ أُصُولِهِ، وَكَادُوا يَقْتُلُونَ زَوْجَتَهُ لَوْلَا أَنْ أَجَارَهَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ.

عِنْدَ ذَلِكَ شَعَرَ الْمُسْلِمُونَ بِالْخَطَرِ الدَّاهِمِ[٢]، وَأَدْرَكُوا أَنَّهُمْ إِنْ يُهْزَمُوا أَمَامَ مُسَيْلِمَةَ فَلَنْ تَقُومَ لِلْإِسْلَامِ قَائِمَةٌ بَعْدَ الْيَوْمِ، وَلَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ. وَهَبَّ خَالِدٌ إِلَىٰ جَيْشِهِ، فَأَعَادَ تَنْظِيمَهُ، حَيْثُ مَيَّزَ الْمُهَاجِرِينَ عَنِ الْأَنْصَارِ، وَمَيَّزَ أَبْنَاءَ الْبَوَادِي عَنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ.

وَجَمَعَ أَبْنَاءَ كُلِّ أَبٍ تَحْتَ رَايَةِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، لِيُعْرَفَ بَلَاءُ كُلِّ فَرِيقٍ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَلِيُعْلَمَ مِنْ أَيْنَ يُؤْتَىٰ[٣] الْمُسْلِمُونَ.

* * *

وَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ رَحَىٰ مَعْرَكَةٍ ضَرُوسٍ[٤] لَمْ تَعْرِفْ حُرُوبُ الْمُسْلِمِينَ لَهَا نَظِيرًا مِنْ قَبْلُ، وَثَبَتَ قَوْمُ مُسَيْلِمَةَ فِي سَاحَاتِ الْوَغَىٰ ثَبَاتَ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَلَمْ يَأْبَهُوا[٥] لِكَثْرَةِ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ... وَأَبْدَىٰ الْمُسْلِمُونَ مِنْ خَوَارِقِ الْبُطُولَاتِ مَا لَوْ جُمِعَ لَكَانَ مَلْحَمَةً[٦] مِنْ رَوَائِعِ الْمَلَاحِمِ.

فَهَذَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ[٧] حَامِلُ لِوَاءِ الْأَنْصَارِ يَتَحَنَّطُ وَيَتَكَفَّنُ وَيَحْفِرُ لِنَفْسِهِ حُفْرَةً فِي الْأَرْضِ، فَيَنْزِلُ فِيهَا إِلَىٰ نِصْفِ سَاقَيْهِ، وَيَبْقَىٰ ثَابِتًا فِي مَوْقِفِهِ، يُجَالِدُ عَنْ رَايَةِ قَوْمِهِ حَتَّىٰ خَرَّ صَرِيعًا شَهِيدًا.

---

(١) الفسطاط: الخيمة الكبيرة.
(٢) الخطر الدّاهم: الخطر الشّديد المفاجئ.
(٣) يُؤْتَىٰ المسلمون: من أين يصابون.
(٤) معركة ضروس: معركة شديدة مهلكة.
(٥) لم يأبهوا: لم يهتموا ولم يلتفتوا.
(٦) الملحمة: عمل شعري كبير ينظم في وصف الحروب وجيوشها وأبطالها.
(٧) ثابت بن قيس: انظره ص ٤٥٩.

وَهَٰذَا زَيْدُ بْنُ الْخَطَّابِ أَخُو عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُنَادِي فِي الْمُسْلِمِينَ : أَيُّهَا النَّاسُ عَضُّوا عَلَىٰ أَضْرَاسِكُمْ ، وَاضْرِبُوا فِي عَدُوِّكُمْ وَامْضُوا قُدُمًا ... أَيُّهَا النَّاسُ ، وَاللَّهِ لَا أَتَكَلَّمُ بَعْدَ هَٰذِهِ الْكَلِمَةِ أَبَدًا حَتَّىٰ يُهْزَمَ مُسَيْلِمَةُ أَوْ أَلْقَىٰ اللَّهَ ، فَأُدْلِيَ إِلَيْهِ بِحُجَّتِي ...

ثُمَّ كَرَّ عَلَىٰ الْقَوْمِ فَمَا زَالَ يُقَاتِلُ حَتَّىٰ قُتِلَ .

وَهَٰذَا سَالِمٌ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ(١) يَحْمِلُ رَايَةَ الْمُهَاجِرِينَ ؛ فَيَخْشَىٰ عَلَيْهِ قَوْمُهُ أَنْ يَضْعُفَ أَوْ يَتَزَعْزَعَ ، فَقَالُوا لَهُ : إِنَّا لَنَخْشَىٰ أَنْ نُؤْتَىٰ مِنْ قِبَلِكَ ، فَقَالَ :

إِنْ أُتِيتُمْ مِنْ قِبَلِي فَبِئْسَ حَامِلُ الْقُرْآنِ أَكُونُ ...

ثُمَّ كَرَّ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللَّهِ كَرَّةً بَاسِلَةً ، حَتَّىٰ أُصِيبَ .

وَلَكِنَّ بُطُولَاتِ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا تَتَضَاءَلُ أَمَامَ بُطُولَةِ الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

ذَلِكَ أَنَّ خَالِدًا حِينَ رَأَىٰ وَطِيسَ(٢) الْمَعْرَكَةِ يَحْمَىٰ وَيَشْتَدُّ ، الْتَفَتَ إِلَىٰ الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ وَقَالَ : إِلَيْهِمْ يَا فَتَىٰ الْأَنْصَارِ ... فَالْتَفَتَ الْبَرَاءُ إِلَىٰ قَوْمِهِ وَقَالَ :

يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَا يُفَكِّرَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِالرُّجُوعِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ؛ فَلَا مَدِينَةَ لَكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ ... وَإِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ ... ثُمَّ الْجَنَّةُ ...

ثُمَّ حَمَلَ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ وَحَمَلُوا مَعَهُ ، وَانْبَرَىٰ يَشُقُّ الصُّفُوفَ ، وَيُعْمِلُ السَّيْفَ فِي رِقَابِ أَعْدَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ زُلْزِلَتْ أَقْدَامُ مُسَيْلِمَةَ وَأَصْحَابِهِ ، فَلَجَأُوا إِلَىٰ الْحَدِيقَةِ الَّتِي عُرِفَتْ فِي التَّارِيخِ بَعْدَ ذَلِكَ بِاسْمِ « حَدِيقَةِ الْمَوْتِ » ؛ لِكَثْرَةِ مَنْ قُتِلَ فِيهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

* * *

(١) سالم مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَة : انظره ص ٥٢٧.
(٢) الوطيس : التنور ، ويقال حمىٰ الوطيس أي اتقدت نيران الحرب واشتدّت .

كَانَتْ « حَدِيقَةُ الْمَوْتِ » هَـٰذِهِ رَحْبَةَ الأَرْجَاءِ سَامِقَةَ[1] الْجُدْرَانِ ، فَأَغْلَقَ مُسَيْلِمَةُ وَالآلافُ الْمُؤَلَّفَةُ مِنْ جُنْدِهِ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَهَا ، وَتَحَصَّنُوا بِعَالِي جُدْرَانِهَا ، وَجَعَلُوا يُمْطِرُونَ الْمُسْلِمِينَ بِنِبَالِهِمْ مِنْ دَاخِلِهَا فَتَتَسَاقَطُ عَلَيْهِمْ تَسَاقُطَ الْمَطَرِ .

عِنْدَ ذَٰلِكَ تَقَدَّمَ مِغْوَارُ الْمُسْلِمِينَ الْبَاسِلُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ وَقَالَ :

يَا قَوْمُ ، ضَعُونِي عَلَىٰ تُرْسٍ ، وَارْفَعُوا التُّرْسَ عَلَىٰ الرِّمَاحِ ، ثُمَّ اقْذِفُونِي إِلَىٰ الْحَدِيقَةِ قَرِيبًا مِنْ بَابِهَا ، فَإِمَّا أَنْ أُسْتَشْهَدَ ، وَإِمَّا أَنْ أَفْتَحَ لَكُمُ الْبَابَ .

* * *

وَفِي لَمْحِ الْبَصَرِ جَلَسَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ عَلَىٰ تُرْسٍ ؛ فَقَدْ كَانَ ضَئِيلَ الْجِسْمِ نَحِيلَهُ ، وَرَفَعَتْهُ عَشَرَاتُ الرِّمَاحِ فَأَلْقَتْهُ فِي « حَدِيقَةِ الْمَوْتِ » بَيْنَ الآلافِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنْ جُنْدِ مُسَيْلِمَةَ ، فَنَزَلَ عَلَيْهِمْ نُزُولَ الصَّاعِقَةِ ، وَمَا زَالَ يُجَالِدُهُمْ أَمَامَ بَابِ الْحَدِيقَةِ ، وَيُعْمِلُ فِي رِقَابِهِمُ السَّيْفَ حَتَّىٰ قَتَلَ عَشَرَةً مِنْهُمْ وَفَتَحَ الْبَابَ ، وَبِهِ بِضْعٌ[2] وَثَمَانُونَ جِرَاحَةً مِنْ بَيْنِ رَمْيَةٍ بِسَهْمٍ أَوْ ضَرْبَةٍ بِسَيْفٍ ...

فَتَدَفَّقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ « حَدِيقَةِ الْمَوْتِ » ، مِنْ حِيطَانِهَا وَأَبْوَابِهَا وَأَعْمَلُوا السُّيُوفَ فِي رِقَابِ الْمُرْتَدِّينَ اللَّائِذِينَ[3] بِجُدْرَانِهَا ، حَتَّىٰ قَتَلُوا مِنْهُمْ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا وَوَصَلُوا إِلَىٰ مُسَيْلِمَةَ فَأَرْدَوْهُ صَرِيعًا .

* * *

حُمِلَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ إِلَىٰ رَحْلِهِ لِيُدَاوَىٰ فِيهِ ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ شَهْرًا يُعَالِجُهُ مِنْ جِرَاحِهِ حَتَّىٰ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالشِّفَاءِ ، وَكَتَبَ لِجُنْدِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ يَدَيْهِ النَّصْرَ .

* * *

ظَلَّ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ الأَنْصَارِيُّ يَتُوقُ إِلَىٰ الشَّهَادَةِ الَّتِي فَاتَتْهُ يَوْمَ « حَدِيقَةِ الْمَوْتِ » ...

---

(١) سامقة الجدران : عالية الجدران . (٢) الْبِضْعُ : من الثلاثة إلى التسعة . (٣) اللائذين : المحتمين .

وَطَفِقَ يَخُوضُ الْمَعَارِكَ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَىٰ شَوْقًا إِلَىٰ تَحْقِيقِ أُمْنِيَتِهِ الْكُبْرَىٰ، وَحَنِينًا إِلَىٰ اللَّحَاقِ بِنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ ﷺ، حَتَّىٰ كَانَ يَوْمُ فَتْحِ «تُسْتَر»(١) مِنْ بِلَادِ «فَارِسٍ»، فَقَدْ تَحَصَّنَ «الْفُرْسُ» فِي إِحْدَىٰ الْقِلَاعِ الْمُمَرَّدَةِ(٢)، فَحَاصَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ وَأَحَاطُوا بِهِمْ إِحَاطَةَ السِّوَارِ بِالْمِعْصَمِ.

فَلَمَّا طَالَ الْحِصَارُ وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ عَلَىٰ «الْفُرْسِ»، جَعَلُوا يُدَلُّونَ مِنْ فَوْقِ أَسْوَارِ الْقَلْعَةِ سَلَاسِلَ مِنْ حَدِيدٍ، عُلِّقَتْ بِهَا كَلَالِيبُ مِنْ فُولَاذٍ حُمِّيَتْ بِالنَّارِ حَتَّىٰ غَدَتْ أَشَدَّ تَوَهُّجًا مِنَ الْجَمْرِ؛ فَكَانَتْ تَنْشَبُ(٣) فِي أَجْسَادِ الْمُسْلِمِينَ وَتَعْلَقُ بِهَا، فَيَرْفَعُونَهُمْ إِلَيْهِمْ إِمَّا مَوْتَىٰ وَإِمَّا عَلَىٰ وَشْكِ الْمَوْتِ.

فَعَلِقَ كُلَّابٌ مِنْهَا بِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - أَخِي الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ - فَمَا إِنْ رَآهُ الْبَرَاءُ حَتَّىٰ وَثَبَ عَلَىٰ جِدَارِ الْحِصْنِ، وَأَمْسَكَ بِالسِّلْسِلَةِ الَّتِي تَحْمِلُ أَخَاهُ، وَجَعَلَ يُعَالِجُ الْكُلَّابَ لِيُخْرِجَهُ مِنْ جَسَدِهِ؛ فَأَخَذَتْ يَدُهُ تَحْتَرِقُ وَتُدَخِّنُ، فَلَمْ يَأْبَهْ لَهَا حَتَّىٰ أَنْقَذَ أَخَاهُ، وَهَبَطَ إِلَىٰ الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ غَدَتْ يَدُهُ عِظَامًا لَيْسَ عَلَيْهَا لَحْمٌ.

وَفِي هَٰذِهِ الْمَعْرَكَةِ دَعَا الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ؛ فَأَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ، حَيْثُ خَرَّ صَرِيعًا شَهِيدًا مُغْتَبِطًا بِلِقَاءِ اللَّهِ.

* * *

نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَرَضِيَ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ (*).

---

(١) تُسْتَر: أعظم مدينة بخوزستان اليوم.
(٢) القلاع الممرّدة: الحصون الملساء المرتفعة.
(٣) تنشب: تغرز وتعلق.

(*) للاستزادة من أخبار البَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ انظر:
١ - الإصابة: ١/١٤٣ أو «الترجمة» ٦٢٠.
٢ - الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ١/١٣٧.
٣ - الطبقات الكبرىٰ: ٣/٤٤١ و٧/١٧، ١٢١.
٤ - تاريخ الطبري: «انظر الفهارس في العاشر».
٥ - الكامل في التاريخ: «انظر الفهارس».
٦ - السيرة النبوية لابن هشام: «انظر الفهارس».
٧ - حياة الصحابة: «انظر الفهارس في الرابع».
٨ - قادة فتح فارس لشيت خطاب.

ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ

« يَضْرِبُ الْحِصَارَ الِاقْتِصَادِيَّ عَلَىٰ قُرَيْشٍ »

فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ لِلْهِجْرَةِ عَزَمَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَىٰ أَنْ يُوَسِّعَ نِطَاقَ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ اللَّهِ ، فَكَتَبَ ثَمَانِيَةَ كُتُبٍ إِلَىٰ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، وَبَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ يَدْعُوهُمْ فِيهَا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ .

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ كَاتَبَهُمْ « ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ الْحَنَفِيُّ » .

وَلَا غَرْوَ[1]، فَثُمَامَةُ قَيْلٌ[2] مِنْ أَقْيَالِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ...

وَسَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ بَنِي « حَنِيفَةَ » الْمَرْمُوقِينَ ...

وَمَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ « الْيَمَامَةِ » الَّذِينَ لَا يُعْصَىٰ لَهُمْ أَمْرٌ .

* * *

تَلَقَّىٰ ثُمَامَةُ رِسَالَةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالزِّرَايَةِ[3] وَالْإِعْرَاضِ .

وَأَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ؛ فَأَصَمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ سَمَاعِ دَعْوَةِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ ...

ثُمَّ إِنَّهُ رَكِبَهُ شَيْطَانُهُ فَأَغْرَاهُ بِقَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَأْدِ دَعْوَتِهِ مَعَهُ ، فَدَأَبَ يَتَحَيَّنُ الْفُرَصَ لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّىٰ أَصَابَ مِنْهُ غِرَّةً[4]، وَكَادَتْ تَتِمُّ الْجَرِيمَةُ الشَّنْعَاءُ لَوْلَا أَنَّ أَحَدَ أَعْمَامِ « ثُمَامَةَ » ثَنَاهُ عَنْ عَزْمِهِ فِي آخِرِ لَحْظَةٍ ، فَنَجَّىٰ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ مِنْ شَرِّهِ .

---

(١) لَا غَرْوَ : لَا عجب .

(٢) الْقيل : الملك والرئيس ، سمي بذلك لأنه إذا قال قولًا نفذ .

(٣) الزِّراية : الاحتقار .

(٤) الْغِرَّة : الْغفلة .

لَكِنَّ ثُمَامَةَ إِذَا كَانَ قَدْ كَفَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُفَّ عَنْ أَصْحَابِهِ ، حَيْثُ جَعَلَ يَتَرَبَّصُ(١) بِهِمْ ، حَتَّىٰ ظَفِرَ بِعَدَدٍ مِنْهُمْ وَقَتَلَهُمْ شَرَّ قِتْلَةٍ ؛ فَأَهْدَرَ(٢) النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَمَهُ ، وَأَعْلَنَ ذَلِكَ فِي أَصْحَابِهِ .

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ ذَلِكَ طَوِيلُ وَقْتٍ حَتَّىٰ عَزَمَ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ عَلَىٰ أَدَاءِ الْعُمْرَةِ ، فَانْطَلَقَ مِنْ أَرْضِ « الْيَمَامَةِ » مُوَلِّيًا وَجْهَهُ شَطْرَ مَكَّةَ ، وَهُوَ يُمَنِّي نَفْسَهُ بِالطَّوَافِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ وَالذَّبْحِ لِأَصْنَامِهَا .

* * *

وَبَيْنَا كَانَ ثُمَامَةُ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةٌ لَمْ تَقَعْ لَهُ فِي حُسْبَانٍ .

ذَلِكَ أَنَّ سَرِيَّةً مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، كَانَتْ تَجُوسُ(٣) خِلَالَ الدِّيَارِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَطْرُقَ الْمَدِينَةَ طَارِقٌ ، أَوْ يُرِيدَهَا مُعْتَدٍ بِشَرٍّ .

فَأَسَرَتِ السَّرِيَّةُ ثُمَامَةَ - وَهِيَ لَا تَعْرِفُهُ - ، وَأَتَتْ بِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، وَشَدَّتْهُ إِلَىٰ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ ، مُنْتَظِرَةً أَنْ يَقِفَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ بِنَفْسِهِ عَلَىٰ شَأْنِ الْأَسِيرِ ، وَأَنْ يَأْمُرَ فِيهِ بِأَمْرِهِ .

وَلَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ ، وَهَمَّ بِالدُّخُولِ فِيهِ رَأَىٰ ثُمَامَةَ مَرْبُوطًا فِي السَّارِيَةِ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(أَتَدْرُونَ مَنْ أَخَذْتُمْ ؟) .

فَقَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

---

(١) يتربص بهم : ينتظر فرصة ليلحق بهم شرًا.
(٢) أهدر دمه : أباح دمه .
(٣) تجوسُ : تدور وتتنقَّل .

فَقَالَ : (هَٰذَا ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ الْحَنَفِيُّ ، فَأَحْسِنُوا أَسَارَهُ[1]) ...

ثُمَّ رَجَعَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَقَالَ : (اجْمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ مِنْ طَعَامٍ وَابْعَثُوا بِهِ إِلَىٰ ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ) ...

ثُمَّ أَمَرَ بِنَاقَتِهِ أَنْ تُحْلَبَ لَهُ فِي الْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ ، وَأَنْ يُقَدَّمَ إِلَيْهِ لَبَنُهَا ...

وَقَدْ تَمَّ ذَٰلِكَ كُلُّهُ قَبْلَ أَنْ يَلْقَاهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَوْ يُكَلِّمَهُ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقْبَلَ عَلَىٰ ثُمَامَةَ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَدْرِجَهُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَقَالَ :

(مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟) .

فَقَالَ : عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ ... فَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ[2] ... وَإِنْ تُنْعِمْ[3] تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ ... وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ ؛ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ .

فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَوْمَيْنِ عَلَىٰ حَالِهِ ، يُؤْتَىٰ لَهُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَيُحْمَلُ إِلَيْهِ لَبَنُ النَّاقَةِ ثُمَّ جَاءَهُ ، فَقَالَ :

(مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟) .

قَالَ : لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا مَا قُلْتُ لَكَ مِنْ قَبْلُ ... فَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ ... وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ ... وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ ؛ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ .

فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ الْيَوْمُ التَّالِي جَاءَهُ فَقَالَ :

(مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟) .

---

(١) أحسنوا أساره : أحسنوا معاملته .

(٢) ذا دم : صاحب دم ، أي رجلاً أراق منكم دمًا .   (٣) تُنْعِم : أي تنعم بالعفو .

فَقَالَ : عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ ... إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ ... وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ ... وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ أَعْطَيْتُكَ مِنْهُ مَا تَشَاءُ .

فَالْتَفَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ وَقَالَ :

(أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ) ...

فَفَكُّوا وِثَاقَهُ وَأَطْلَقُوهُ .

* * *

غَادَرَ ثُمَامَةُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَمَضَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ نَخْلًا فِي حَوَاشِي[1] الْمَدِينَةِ - قَرِيبًا مِنَ « الْبَقِيعِ »[2] - فِيهِ مَاءٌ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ عِنْدَهُ ، وَتَطَهَّرَ مِنْ مَائِهِ فَأَحْسَنَ طُهُورَهُ ، ثُمَّ عَادَ أَدْرَاجَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ .

فَمَا إِنْ بَلَغَهُ حَتَّىٰ وَقَفَ عَلَىٰ مَلَإٍ[3] مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ :

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ :

يَا مُحَمَّدُ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ ... وَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ ...

وَوَاللَّهِ مَا كَانَ دِينٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ ؛ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ ...

وَوَاللَّهِ مَا كَانَ بَلَدٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ ؛ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ ...

(١) حواشي المدينة : أطراف المدينة .
(٢) البقيع : بقعة في أطراف المدينة كانت كثيرة الشجر ثم أصبحت مقبرة دُفِنَ فيها كثيرٌ من الصحابة .
(٣) مَلأ : جماعة .

ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا :

لَقَدْ كُنْتُ أَصَبْتُ فِي أَصْحَابِكَ دَمًا[1] فَمَا الَّذِي تُوجِبُهُ عَلَيَّ ؟ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (لَا تَثْرِيبَ[2] عَلَيْكَ يَا ثُمَامَةُ ... فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ[3] مَا قَبْلَهُ) ...

وَبَشَّرَهُ بِالْخَيْرِ الَّذِي كَتَبَهُ اللَّهُ لَهُ بِإِسْلَامِهِ .

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ ثُمَامَةَ وَقَالَ :

وَاللَّهِ لَأُصِيبَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَضْعَافَ مَا أَصَبْتُ مِنْ أَصْحَابِكَ ، وَلَأَضَعَنَّ نَفْسِي وَسَيْفِي وَمَنْ مَعِي فِي نُصْرَتِكَ وَنُصْرَةِ دِينِكَ .

ثُمَّ قَالَ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ ؛ فَمَاذَا تَرَىٰ أَنْ أَفْعَلَ ؟ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (امْضِ لِأَدَاءِ عُمْرَتِكَ وَلَكِنْ عَلَىٰ شِرْعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) ... وَعَلَّمَهُ مَا يَقُومُ بِهِ مِنَ الْمَنَاسِكِ .

* * *

مَضَىٰ ثُمَامَةُ إِلَىٰ غَايَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَطْنَ مَكَّةَ ، وَقَفَ يُجَلْجِلُ بِصَوْتِهِ الْعَالِي قَائِلًا :

« لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ...

لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ...

إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ ...

لَا شَرِيكَ لَكَ » ...

(١) أصبت في أصحابك دمًا : قتلت منهم رجالًا .
(٢) لا تثريب عليك : لا لوم عليك . (٣) يجُبُّ ما قبله : يقطع ما قبله ويمحوه .

فَكَانَ أَوَّلَ مُسْلِمٍ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ دَخَلَ مَكَّةَ مُلَبِّيًا .

* * *

سَمِعَتْ قُرَيْشٌ صَوْتَ التَّلْبِيَةِ فَهَبَّتْ مُغْضَبَةً مَذْعُورَةً ، وَاسْتَلَّتِ السُّيُوفَ مِنْ أَغْمَادِهَا ، وَاتَّجَهَتْ نَحْوَ الصَّوْتِ لِتَبْطِشَ بِهَٰذَا الَّذِي اقْتَحَمَ عَلَيْهَا عَرِينَهَا .

وَلَمَّا أَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَىٰ ثُمَامَةَ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالتَّلْبِيَةِ ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِكِبْرِيَاءٍ ؛ فَهَمَّ فَتًى مِنْ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ أَنْ يُرْدِيَهُ[1] بِسَهْمٍ ، فَأَخَذُوا عَلَىٰ يَدَيْهِ[2] وَقَالُوا :

وَيْحَكَ أَتَعْلَمُ مَنْ هَٰذَا ؟! ...

إِنَّهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ مَلِكُ « الْيَمَامَةِ » ...

وَاللَّهِ إِنْ أَصَبْتُمُوهُ بِسُوءٍ قَطَعَ قَوْمُهُ عَنَّا الْمِيرَةَ[3] وَأَمَاتُونَا جُوعًا .

ثُمَّ أَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَىٰ ثُمَامَةَ بَعْدَ أَنْ أَعَادُوا السُّيُوفَ إِلَىٰ أَغْمَادِهَا وَقَالُوا :

مَا بِكَ يَا ثُمَامَةُ ؟!! ...

أَصَبَوْتَ وَتَرَكْتَ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ ؟!! .

فَقَالَ : مَا صَبَوْتُ وَلَٰكِنِّي اتَّبَعْتُ خَيْرَ دِينٍ ... اتَّبَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ .

ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ :

أُقْسِمُ بِرَبِّ هَٰذَا الْبَيْتِ ، إِنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ بَعْدَ عَوْدَتِي إِلَىٰ « الْيَمَامَةِ » حَبَّةٌ مِنْ قَمْحِهَا أَوْ شَيْءٌ مِنْ خَيْرَاتِهَا حَتَّىٰ تَتَّبِعُوا مُحَمَّدًا عَنْ آخِرِكُمْ ...

* * *

اعْتَمَرَ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ عَلَىٰ مَرْأًى مِنْ قُرَيْشٍ كَمَا أَمَرَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَمِرَ ...

---

(١) يُرْدِيه : يقتله .
(٢) فأخذوا عَلَىٰ يديه : منعوه .
(٣) الْمِيرَة : المؤونة .

وَذَبَحَ تَقَرُّبًا لِلَّهِ لَا لِلْأَنْصَابِ[1] وَالْأَصْنَامِ ، وَمَضَىٰ إِلَىٰ بِلَادِهِ فَأَمَرَ قَوْمَهُ أَنْ يَحْبِسُوا الْمِيرَةَ عَنْ قُرَيْشٍ ؛ فَصَدَعُوا بِأَمْرِهِ وَاسْتَجَابُوا لَهُ ، وَحَبَسُوا خَيْرَاتِهِمْ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ .

* * *

أَخَذَ الْحِصَارُ الَّذِي فَرَضَهُ ثُمَامَةُ عَلَىٰ قُرَيْشٍ يَشْتَدُّ شَيْئًا فَشَيْئًا ، فَارْتَفَعَتِ الْأَسْعَارُ ، وَفَشَا[2] الْجُوعُ فِي النَّاسِ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْكَرْبُ ، حَتَّىٰ خَافُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ مِنْ أَنْ يَهْلَكُوا جُوعًا .

عِنْدَ ذَٰلِكَ كَتَبُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُونَ :

إِنَّ عَهْدَنَا بِكَ أَنَّكَ تَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحُضُّ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ...

وَهَا أَنْتَ قَدْ قَطَعْتَ أَرْحَامَنَا ؛ فَقَتَلْتَ الْآبَاءَ بِالسَّيْفِ ، وَأَمَتَّ الْأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ .

وَإِنَّ ثُمَامَةَ بْنَ أُثَالٍ قَدْ قَطَعَ عَنَّا مِيرَتَنَا وَأَضَرَّ بِنَا ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَكْتُبَ إِلَيْهِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْنَا بِمَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَافْعَلْ .

فَكَتَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ ثُمَامَةَ بِأَنْ يُطْلِقَ لَهُمْ مِيرَتَهُمْ ، فَأَطْلَقَهَا .

* * *

ظَلَّ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ - مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ - وَفِيًّا لِدِينِهِ ، حَافِظًا لِعَهْدِ نَبِيِّهِ ، فَلَمَّا الْتَحَقَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ ، وَطَفِقَ الْعَرَبُ يَخْرُجُونَ مِنْ دِينِ اللَّهِ زُرَافَاتٍ[3] وَوِحْدَانًا ، وَقَامَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ فِي بَنِي « حَنِيفَةَ » يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِهِ ، وَقَفَ ثُمَامَةُ فِي وَجْهِهِ ، وَقَالَ لِقَوْمِهِ :

يَا بَنِي « حَنِيفَةَ » إِيَّاكُمْ وَهَٰذَا الْأَمْرَ الْمُظْلِمَ الَّذِي لَا نُورَ فِيهِ ...

(١) الأنصاب : ما عُبد من دون اللّٰه من تماثيل ونحوها . (٢) فشا الجوع : انْتَشَرَ . (٣) زرافات : جماعات .

إِنَّهُ وَاللَّهِ لَشَقَاءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ مَنْ أَخَذَ بِهِ مِنْكُمْ ، وَبَلَاءٌ عَلَىٰ مَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِهِ .

ثُمَّ قَالَ : يَا بَنِي « حَنِيفَةَ » إِنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ نَبِيَّانِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ...

وَإِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ، وَلَا نَبِيَّ يُشْرَكُ مَعَهُ .

ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِمْ :

﴿ حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾[1].

ثُمَّ قَالَ :

أَيْنَ كَلَامُ اللَّهِ هَٰذَا مِنْ قَوْلِ مُسَيْلِمَةَ : « يَا ضِفْدَعُ نِقِّي مَا تَنِقِّينَ ، لَا الشَّرَابَ تَمْنَعِينَ ، وَلَا الْمَاءَ تُكَدِّرِينَ » .

ثُمَّ انْحَازَ بِمَنْ بَقِيَ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَمَضَىٰ يُقَاتِلُ الْمُرْتَدِّينَ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِعْلَاءً لِكَلِمَتِهِ فِي الْأَرْضِ .

جَزَى اللَّهُ ثُمَامَةَ بْنَ أُثَالٍ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ...

وَأَكْرَمَهُ بِالْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ (*) .

(١) سورة غافر : من الآية ١ ـ ٣.

(*) للاستزادة من أخبار ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ انظر:
١ - الإصابة : ١/٢٠٣ أو « الترجمة » ٩٦١.
٢ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ١/٢٠٣.
٣ - السيرة النبوية لابن هشام بتحقيق السقا : « انظر الفهارس ».
٤ - الأعلام للزركلي ومراجعه : ٢/٨٦.
٥ - أسد الغابة : ١/٢٤٦.

أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ

خَالِدُ بْنُ زَيْدٍ النَّجَّارِيُّ

« يُدْفَنُ تَحْتَ أَسْوَارِ الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ »

هَٰذَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ يُدْعَىٰ خَالِدَ بْنَ زَيْدِ بْنِ كُلَيْبٍ ، مِنْ بَنِي « النَّجَّارِ » .

أَمَّا كُنْيَتُهُ فَأَبُو أَيُّوبَ ، وَأَمَّا نِسْبَتُهُ فَإِلَىٰ الْأَنْصَارِ .

وَمَنْ مِنَّا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَعْرِفُ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ ؟! .

فَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ فِي الْخَافِقَيْنِ(١) ذِكْرَهُ ، وَأَعْلَىٰ فِي الْأَنَامِ(٢) قَدْرَهُ حِينَ اخْتَارَ بَيْتَهُ مِنْ دُونِ بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا لِيَنْزِلَ فِيهِ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ لَمَّا حَلَّ فِي الْمَدِينَةِ مُهَاجِرًا ، وَحَسْبُهُ(٣) بِذَٰلِكَ فَخْرًا .

وَلِنُزُولِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي بَيْتِ أَبِي أَيُّوبَ قِصَّةٌ يَحْلُو تَرْدَادُهَا وَيَلَذُّ تَكْرَارُهَا .

ذَٰلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ بَلَغَ الْمَدِينَةَ تَلَقَّتْهُ أَفْئِدَةُ أَهْلِهَا بِأَكْرَمِ مَا يُتَلَقَّىٰ بِهِ وَافِدٌ ...

وَتَطَلَّعَتْ إِلَيْهِ عُيُونُهُمْ تَبُثُّهُ شَوْقَ الْحَبِيبِ إِلَىٰ حَبِيبِهِ ...

وَفَتَحُوا لَهُ قُلُوبَهُمْ لِيَحُلَّ مِنْهَا فِي السُّوَيْدَاءِ(٤) ...

---

(١) في الخافقين : في الشرق والغرب .

(٢) الأنام : الْخَلْقُ .

(٣) حسْبه : يكفيه .

(٤) في السويداء : في أعماق القلوب .

وَأَشْرَعُوا[1] لَهُ أَبْوَابَ بُيُوتِهِمْ لِيَنْزِلَ فِيهَا أَعَزَّ مَنْزِلٍ .

لَكِنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، قَضَىٰ فِي « قُبَاءَ »[2] مِنْ ضَوَاحِي الْمَدِينَةِ أَيَّامًا أَرْبَعَةً ، بَنَىٰ خِلَالَهَا مَسْجِدَهُ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ مَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ .

ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا رَاكِبًا نَاقَتَهُ ، فَوَقَفَ سَادَاتُ « يَثْرِبَ »[3] فِي طَرِيقِهَا ، كُلٌّ يُرِيدُ أَنْ يَظْفَرَ بِشَرَفِ نُزُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِهِ ...

وَكَانُوا يَعْتَرِضُونَ النَّاقَةَ سَيِّدًا إِثْرَ سَيِّدٍ ، وَيَقُولُونَ :

أَقِمْ عِنْدَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ وَالْمَنَعَةِ[4].

فَيَقُولُ لَهُمْ : (دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ) .

وَتَظَلُّ النَّاقَةُ تَمْضِي إِلَىٰ غَايَتِهَا تَتْبَعُهَا الْعُيُونُ ، وَتَحُفُّ بِهَا الْقُلُوبُ ...

فَإِذَا جَازَتْ مَنْزِلًا حَزِنَ أَهْلُهُ وَأَصَابَهُمُ الْيَأْسُ ، بَيْنَمَا يُشْرِقُ الْأَمَلُ فِي نُفُوسِ مَنْ يَلِيهِمْ .

وَمَا زَالَتِ النَّاقَةُ عَلَىٰ حَالِهَا هَٰذِهِ ، وَالنَّاسُ يَمْضُونَ فِي إِثْرِهَا ، وَهُمْ يَتَلَهَّفُونَ شَوْقًا لِمَعْرِفَةِ السَّعِيدِ الْمَحْظُوظِ ؛ حَتَّىٰ بَلَغَتْ سَاحَةً خَلَاءً أَمَامَ بَيْتِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ، وَبَرَكَتْ فِيهَا ...

لَكِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَنْزِلْ عَنْهَا ...

فَمَا لَبِثَتْ أَنْ وَثَبَتْ وَانْطَلَقَتْ تَمْشِي ، وَالرَّسُولُ ﷺ مُرْخٍ لَهَا زِمَامَهَا[5] ، ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنْ عَادَتْ أَدْرَاجَهَا وَبَرَكَتْ فِي مَبْرَكِهَا الْأَوَّلِ .

---

(١) أشرعوا : فتحوا .

(٢) قُباء : قرية تبعد عن المدينة نحو ميلين .

(٣) يثرب : المدينة المنورة .

(٤) المنعة : القوّة التي تمنع من يريده بسوء .

(٥) زمامها : أي رسن الناقة ، الحبل الذي تقاد به .

عِنْدَ ذَٰلِكَ غَمَرَتِ الْفَرْحَةُ فُؤَادَ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ، وَبَادَرَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُرَحِّبُ بِهِ ، وَحَمَلَ مَتَاعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَكَأَنَّمَا يَحْمِلُ كُنُوزَ الدُّنْيَا كُلَّهَا ، وَمَضَىٰ بِهِ إِلَىٰ بَيْتِهِ .

* * *

كَانَ مَنْزِلُ أَبِي أَيُّوبَ يَتَأَلَّفُ مِنْ طَبَقَةٍ فَوْقَهَا عُلِّيَّةٌ ، فَأَخْلَىٰ الْعُلِّيَّةَ مِنْ مَتَاعِهِ وَمَتَاعِ أَهْلِهِ لِيَنْزِلَ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ...

لَكِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آثَرَ[1] عَلَيْهَا الطَّبَقَةَ السُّفْلَىٰ ، فَامْتَثَلَ أَبُو أَيُّوبَ لِأَمْرِهِ ، وَأَنْزَلَهُ حَيْثُ أَحَبَّ .

وَلَمَّا أَقْبَلَ اللَّيْلُ ، وَأَوَىٰ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَىٰ فِرَاشِهِ ، صَعِدَ أَبُو أَيُّوبَ وَزَوْجُهُ إِلَىٰ الْعُلِّيَّةِ ، وَمَا إِنْ أَغْلَقَا عَلَيْهِمَا بَابَهَا حَتَّىٰ الْتَفَتَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَىٰ زَوْجَتِهِ وَقَالَ :

وَيْحَكِ[2] ، مَاذَا صَنَعْنَا ؟! ...

أَيَكُونُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَسْفَلَ ، وَنَحْنُ أَعْلَىٰ مِنْهُ ؟! ...

أَنَمْشِي فَوْقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟! ...

أَنَصِيرُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْوَحْيِ ؟! إِنَّا إِذَنْ لَهَالِكُونَ .

وَسُقِطَ[3] فِي أَيْدِي الزَّوْجَيْنِ وَهُمَا لَا يَدْرِيَانِ مَا يَفْعَلَانِ .

وَلَمْ تَسْكُنْ نَفْسَاهُمَا بَعْضَ السُّكُونِ إِلَّا حِينَ انْحَازَا إِلَىٰ جَانِبِ الْعُلِّيَّةِ الَّذِي لَا يَقَعُ فَوْقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَالْتَزَمَاهُ لَا يَبْرَحَانِهِ إِلَّا مَاشِيَيْنِ عَلَىٰ الْأَطْرَافِ مُتَبَاعِدَيْنِ عَنِ الْوَسَطِ .

---

(١) آثر : فضل .

(٢) ويحك : ويلك .

(٣) سُقِط في أيدي الزوجين : تحيرا وندما ، وركبهما الهم .

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو أَيُّوبَ ؛ قَالَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

وَاللَّهِ مَا أُغْمِضَ لَنَا جَفْنٌ فِي هَاذِهِ اللَّيْلَةِ ، لَا أَنَا وَلَا أُمُّ أَيُّوبَ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (وَمِمَّ ذَاكَ يَا أَبَا أَيُّوبَ ؟!) .

قَالَ : ذَكَرْتُ أَنِّي عَلَىٰ ظَهْرِ بَيْتٍ أَنْتَ تَحْتَهُ ، وَأَنِّي إِذَا تَحَرَّكْتُ تَنَاثَرَ عَلَيْكَ الْغُبَارُ فَآذَاكَ ، ثُمَّ أَنِّي غَدَوْتُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْوَحْيِ .

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(هَوِّنْ عَلَيْكَ يَا أَبَا أَيُّوبَ ، إِنَّهُ أَرْفَقُ بِنَا أَنْ نَكُونَ فِي السُّفْلِ ؛ لِكَثْرَةِ مَنْ يَغْشَانَا[1] مِنَ النَّاسِ) .

* * *

قَالَ أَبُو أَيُّوبَ :

فَامْتَثَلْتُ لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ أَنْ كَانَتْ لَيْلَةٌ بَارِدَةٌ فَانْكَسَرَتْ لَنَا جَرَّةٌ وَأُرِيقَ مَاؤُهَا فِي الْعُلِّيَّةِ ، فَقُمْتُ إِلَى الْمَاءِ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ ، وَلَيْسَ لَدَيْنَا إِلَّا قَطِيفَةٌ[2] كُنَّا نَتَّخِذُهَا لِحَافًا ، وَجَعَلْنَا نُنَشِّفُ بِهَا الْمَاءَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ غَدَوْتُ عَلَى الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ :

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَكُونَ فَوْقَكَ ، وَأَنْ تَكُونَ أَسْفَلَ مِنِّي ...

ثُمَّ قَصَصْتُ عَلَيْهِ خَبَرَ الْجَرَّةِ ، فَاسْتَجَابَ لِي ، وَصَعِدَ إِلَى الْعُلِّيَّةِ ، وَنَزَلْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ إِلَى السُّفْلِ .

* * *

(١) من يغشانا : من يزورنا ويلم بنا .

(٢) قطيفة : قطعة من المخمل .

أَقَامَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي بَيْتِ أَبِي أَيُّوبَ نَحْوًا مِنْ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ، حَتَّىٰ تَمَّ بِنَاءُ مَسْجِدِهِ فِي الْأَرْضِ الْخَلَاءِ الَّتِي بَرَكَتْ فِيهَا النَّاقَةُ، فَانْتَقَلَ إِلَىٰ الْحُجُرَاتِ الَّتِي أُقِيمَتْ حَوْلَ الْمَسْجِدِ لَهُ وَلِأَزْوَاجِهِ، فَغَدَا جَارًا لِأَبِي أَيُّوبَ، أَكْرِمْ بِهِمَا مِنْ مُتَجَاوِرَيْنِ.

* * *

أَحَبَّ أَبُو أَيُّوبَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حُبًّا مَلَكَ عَلَيْهِ قَلْبَهُ وَلُبَّهُ، وَأَحَبَّ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ أَبَا أَيُّوبَ حُبًّا أَزَالَ الْكُلْفَةَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَجَعَلَهُ يَنْظُرُ إِلَىٰ بَيْتِ أَبِي أَيُّوبَ كَأَنَّهُ بَيْتُهُ.

* * *

حَدَّثَ ابْنُ عَبَّاسٍ[1] قَالَ:

خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْهَاجِرَةِ[2] إِلَىٰ الْمَسْجِدِ فَرَآهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ:

يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَخْرَجَكَ هَٰذِهِ السَّاعَةَ ؟!.

قَالَ: مَا أَخْرَجَنِي إِلَّا مَا أَجِدُ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ.

فَقَالَ عُمَرُ: وَأَنَا وَاللَّهِ مَا أَخْرَجَنِي غَيْرُ ذَٰلِكَ.

فَبَيْنَمَا هُمَا كَذَٰلِكَ؛ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

(مَا أَخْرَجَكُمَا هَٰذِهِ السَّاعَةَ ؟!).

قَالَا: وَاللَّهِ مَا أَخْرَجَنَا إِلَّا مَا نَجِدُهُ فِي بُطُونِنَا مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَأَنَا ـ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ـ مَا أَخْرَجَنِي غَيْرُ ذَٰلِكَ ... قُومَا مَعِي).

---

(١) عبد اللّٰه بن عباس: انظره ص ١٧٣.   (٢) الهاجرة: نصف النهار في شدة القيظ.

فَانْطَلَقُوا فَأَتَوْا بَابَ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانَ أَبُو أَيُّوبَ يَدَّخِرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلَّ يَوْمٍ طَعَامًا ، فَإِذَا أَبْطَأَ عَنْهُ وَلَمْ يَأْتِ إِلَيْهِ فِي حِينِهِ أَطْعَمَهُ لِأَهْلِهِ .

فَلَمَّا بَلَغُوا الْبَابَ خَرَجَتْ إِلَيْهِمْ أُمُّ أَيُّوبَ ، وَقَالَتْ :

مَرْحَبًا بِنَبِيِّ اللَّهِ وَبِمَنْ مَعَهُ .

فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(أَيْنَ أَبُو أَيُّوبَ ؟) ...

فَسَمِعَ أَبُو أَيُّوبَ صَوْتَ النَّبِيِّ ﷺ ـ وَكَانَ يَعْمَلُ فِي نَخْلٍ قَرِيبٍ لَهُ ـ فَأَقْبَلَ يُسْرِعُ ، وَهُوَ يَقُولُ :

مَرْحَبًا بِرَسُولِ اللَّهِ وَبِمَنْ مَعَهُ ، ثُمَّ أَتْبَعَ قَائِلًا :

يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَيْسَ هَذَا بِالْوَقْتِ الَّذِي كُنْتَ تَجِيءُ فِيهِ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (صَدَقْتَ) ، ثُمَّ انْطَلَقَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَى نَخِيلِهِ فَقَطَعَ مِنْهُ عِذْقًا[١] فِيهِ تَمْرٌ وَرُطَبٌ وَبُسْرٌ[٢] .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (مَا أَرَدْتُ أَنْ تَقْطَعَ هَذَا ، أَلَا جَنَيْتَ لَنَا مِنْ تَمْرِهِ ؟) .

قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْبَبْتُ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ تَمْرِهِ وَرُطَبِهِ وَبُسْرِهِ ، وَلَأَذْبَحَنَّ لَكَ أَيْضًا .

قَالَ : (إِنْ ذَبَحْتَ فَلَا تَذْبَحَنَّ ذَاتَ لَبَنٍ) .

---

(١) العذق : غصن له شعب .

(٢) الرطب : ما نضج من تمر النخل ، والبسر : ما لم يكتمل نضجه .

فَأَخَذَ أَبُو أَيُّوبَ جِدْيًا فَذَبَحَهُ ، ثُمَّ قَالَ لِامْرَأَتِهِ : اعْجِنِي وَاخْبِزِي لَنَا ، وَأَنْتِ أَعْلَمُ بِالْخَبْزِ ، ثُمَّ أَخَذَ نِصْفَ الْجَدْيِ فَطَبَخَهُ ، وَعَمَدَ إِلَىٰ نِصْفِهِ الثَّانِي فَشَوَاهُ ، فَلَمَّا نَضِجَ الطَّعَامُ وَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ، أَخَذَ الرَّسُولُ قِطْعَةً مِنَ الْجَدْيِ وَوَضَعَهَا فِي رَغِيفٍ ، وَقَالَ :

(يَا أَبَا أَيُّوبَ ، بَادِرْ[1] بِهَـٰذِهِ الْقِطْعَةِ إِلَىٰ فَاطِمَةَ[2]، فَإِنَّهَا لَمْ تُصِبْ مِثْلَ هَـٰذَا مُنْذُ أَيَّامٍ) .

فَلَمَّا أَكَلُوا وَشَبِعُوا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

(خُبْزٌ ، وَلَحْمٌ ، وَتَمْرٌ ، وَبُسْرٌ ، وَرُطَبٌ !!!) ...

وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ ثُمَّ قَالَ : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ هَـٰذَا هُوَ النَّعِيمُ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِذَا أَصَبْتُمْ[3] مِثْلَ هَـٰذَا فَضَرَبْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ فِيهِ فَقُولُوا :

بِسْمِ اللَّهِ ، فَإِذَا شَبِعْتُمْ فَقُولُوا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ أَشْبَعَنَا وَأَنْعَمَ عَلَيْنَا فَأَفْضَلَ) .

ثُمَّ نَهَضَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَقَالَ لِأَبِي أَيُّوبَ :

(ائْتِنَا غَدًا) .

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَصْنَعُ لَهُ أَحَدٌ مَعْرُوفًا إِلَّا أَحَبَّ أَنْ يُجَازِيَهُ عَلَيْهِ ؛ لَكِنَّ أَبَا أَيُّوبَ لَمْ يَسْمَعْ ذَلِكَ .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ :

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ غَدًا يَا أَبَا أَيُّوبَ .

---

(١) بادر : عجل .

(٢) فاطمة الزهراء : انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

(٣) أصبتم : نلتم .

فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ : سَمْعًا وَطَاعَةً لِرَسُولِ اللَّهِ .

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ ذَهَبَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَىٰ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَأَعْطَاهُ وَلِيدَةً[1] كَانَتْ تَخْدِمُهُ ، وَقَالَ لَهُ :

(اسْتَوْصِ بِهَا خَيْرًا - يَا أَبَا أَيُّوبَ - فَإِنَّا لَمْ نَرَ مِنْهَا إِلَّا خَيْرًا مَا دَامَتْ عِنْدَنَا) .

* * *

عَادَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَىٰ بَيْتِهِ وَمَعَهُ الْوَلِيدَةُ ؛ فَلَمَّا رَأَتْهَا أُمُّ أَيُّوبَ :

قَالَتْ : لِمَنْ هَٰذِهِ يَا أَبَا أَيُّوبَ ؟! .

قَالَ : لَنَا ... مَنَحَنَا إِيَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

فَقَالَتْ : أَعْظِمْ بِهِ مِنْ مَانِحٍ ؛ وَأَكْرِمْ بِهَا مِنْ مِنْحَةٍ .

فَقَالَ : وَقَدْ أَوْصَانَا بِهَا خَيْرًا .

فَقَالَتْ : وَكَيْفَ نَصْنَعُ بِهَا حَتَّىٰ نُنَفِّذَ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَجِدُ لِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِهَا خَيْرًا مِنْ أَنْ أُعْتِقَهَا .

فَقَالَتْ : هُدِيتَ إِلَىٰ الصَّوَابِ ، فَأَنْتَ مُوَفَّقٌ ... ثُمَّ أَعْتَقَهَا .

* * *

هَٰذِهِ بَعْضُ صُوَرِ حَيَاةِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ فِي سِلْمِهِ ، فَلَوْ أُتِيحَ لَكَ أَنْ تَقِفَ عَلَىٰ بَعْضِ صُوَرِ حَيَاتِهِ فِي حَرْبِهِ لَرَأَيْتَ عَجَبًا ...

فَقَدْ عَاشَ أَبُو أَيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طُولَ حَيَاتِهِ غَازِيًا حَتَّىٰ قِيلَ :

(١) وَلِيدَة : جارية صغيرة.

إِنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزْوَةٍ غَزَاهَا الْمُسْلِمُونَ مُنْذُ عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ زَمَنِ مُعَاوِيَةَ ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ مُنْشَغِلًا عَنْهَا بِأُخْرَىٰ .

وَكَانَتْ آخِرُ غَزَوَاتِهِ حِينَ جَهَّزَ مُعَاوِيَةُ جَيْشًا بِقِيَادَةِ ابْنِهِ « يَزِيدَ » ، لِفَتْحِ « الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ » ، وَكَانَ أَبُو أَيُّوبَ آنَذَاكَ شَيْخًا طَاعِنًا فِي السِّنِّ يَحْبُو نَحْوَ الثَّمَانِينَ مِنْ عُمُرِهِ ؛ فَلَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَنْضَوِيَ[1] تَحْتَ لِوَاءِ « يَزِيدَ » ، وَأَنْ يَمْخُرَ عُبَابَ[2] الْبَحْرِ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

لَكِنَّهُ لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ عَلَىٰ مُنَازَلَةِ الْعَدُوِّ حَتَّىٰ مَرِضَ أَبُو أَيُّوبَ مَرَضًا أَقْعَدَهُ عَنْ مُوَاصَلَةِ الْقِتَالِ ، فَجَاءَ « يَزِيدُ » لِيَعُودَهُ وَسَأَلَهُ :

أَلَكَ مِنْ حَاجَةٍ يَا أَبَا أَيُّوبَ ؟ .

فَقَالَ : اِقْرَأْ عَنِّي السَّلَامَ عَلَىٰ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقُلْ لَهُمْ :

يُوصِيكُمْ أَبُو أَيُّوبَ أَنْ تُوغِلُوا[3] فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ إِلَىٰ أَبْعَدِ غَايَةٍ ، وَأَنْ تَحْمِلُوهُ مَعَكُمْ ، وَأَنْ تَدْفِنُوهُ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ عِنْدَ أَسْوَارِ « الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ » ...

وَلَفَظَ أَنْفَاسَهُ الطَّاهِرَةَ .

* * *

اسْتَجَابَ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ لِرَغْبَةِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَرُّوا عَلَىٰ جُنْدِ الْعَدُوِّ الْكَرَّةَ بَعْدَ الْكَرَّةِ ، حَتَّىٰ بَلَغُوا أَسْوَارَ « الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ » وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَبَا أَيُّوبَ مَعَهُمْ ...

وَهُنَاكَ حَفَرُوا لَهُ قَبْرًا وَوَارَوْهُ فِيهِ .

* * *

(١) ينضوي : ينضم إلى الجيش .
(٢) يمخر عُباب البحر : يشق أمواج البحر .
(٣) التوغل : البعد والتعمق .

رَحِمَ اللَّهُ أَبَا أَيُّوبَ الأَنْصَارِيَّ، فَقَدْ أَبَىٰ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ عَلَىٰ ظُهُورِ الْجِيَادِ الصَّافِنَاتِ[1] غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...

وَسِنُّهُ تُقَارِبُ الثَّمَانِينَ (*)...

---

(١) الجياد الصّافنات: الجياد التي تقف على ثلاث وترفع الرابعة، وهي صفة من صفات الجياد الكريمة.

(*) للاستزادة من أخبار أبي أيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ انظر:

١ - الإصابة: ١/٤٠٥ أو «الترجمة» ٢١٦٣.
٢ - خلاصة تذهيب تهذيب الكمال: ١٠٠ - ١٠١.
٣ - تاريخ الإسلام للذهبي: ٢/٣٢٧ - ٣٢٨.
٤ - ابن خياط: ٨٩، ١٤٠، ١٩٠، ٣٠٣.
٥ - دائرة المعارف الإسلامية: ١/٣٠٩ - ٣١٠.
٦ - الجمع بين رجال الصّحيحين: ١/١١٨ - ١١٩.
٧ - من أبطالنا الذين صنعوا التاريخ «لأبي الفتوح التونسي»: ١٠٥ - ١١٠.
٨ - الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ١/٤٠٣.
٩ - الطّبقات الكبرىٰ: ٣/٤٨٤ - ٤٨٥.
١٠- صفة الصّفوة: ١/١٨٦ - ١٨٧.
١١- الجرح والتّعديل: ج ١ ق ٢/ ١٣١.
١٢- العبر: ١/ ٥٦.
١٣- أسْدُ الغابة: ٥/١٤٣ - ١٤٤.
١٤- تهذيب التّهذيب: ٣/٩٠ - ٩١.
١٥- تقريب التّهذيب: ١/ ٢١٣.
١٦- شذرات الذّهب: ١/ ٥٧.
١٧- تجريد أسماء الصّحابة: ١/ ١٦١.
١٨- سلسلة أعلام المسلمين «رقم ٤٤».
١٩- الأعلام: ٢/ ٣٣٦.

عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ

« شَيْخٌ عَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَطَأَ بِعَرَجَتِهِ الْجَنَّةَ »

عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ زَعِيمٌ مِنْ زُعَمَاءِ « يَثْرِبَ »(١) فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَسَيِّدُ بَنِي « سَلَمَةَ » الْمُسَوَّدُ ، وَوَاحِدٌ مِنْ أَجْوَادِ الْمَدِينَةِ وَذَوِي الْمُرُوءَاتِ فِيهَا ...

وَقَدْ كَانَ مِنْ شَأْنِ الْأَشْرَافِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَتَّخِذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ صَنَمًا لِنَفْسِهِ فِي بَيْتِهِ ؛ لِيَتَبَرَّكَ بِهِ عِنْدَ الْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ ... وَلِيَذْبَحَ لَهُ فِي الْمَوَاسِمِ ... وَلِيَلْجَأَ إِلَيْهِ فِي الْمُلِمَّاتِ !!! .

وَكَانَ صَنَمُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ يُدْعَىٰ « مَنَاةَ » ، وَقَدِ اتَّخَذَهُ مِنْ نَفِيسِ الْخَشَبِ ... وَكَانَ شَدِيدَ الْإِسْرَافِ فِي رِعَايَتِهِ ، وَالْعِنَايَةِ بِهِ وَتَضْمِيخِهِ(٢) بِنَفَائِسِ الطِّيبِ .

* * *

كَانَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ قَدْ جَاوَزَ السِّتِّينَ مِنْ عُمُرِهِ حِينَ بَدَأَتْ أَشِعَّةُ الْإِيمَانِ تَغْمُرُ بُيُوتَ « يَثْرِبَ » بَيْتًا فَبَيْتًا عَلَىٰ يَدِ الْمُبَشِّرِ الْأَوَّلِ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ، فَآمَنَ عَلَىٰ يَدَيْهِ أَوْلَادُهُ الثَّلَاثَةُ : مُعَوِّذٌ ، وَمُعَاذٌ ، وَخَلَّادٌ ، وَتِرْبٌ(٣) لَهُمْ يُدْعَىٰ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ(٤) ...

وَآمَنَتْ مَعَ أَبْنَائِهِ الثَّلَاثَةِ أُمُّهُمْ هِنْدُ ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مِنْ أَمْرِ إِيمَانِهِمْ شَيْئًا .

* * *

(١) يثرب : المدينة المنورة .

(٢) ضمخ الشّيء بالطّيب : دهنه به .

(٣) ترب الرّجل : لدته وأصحابه ، ولدَة الرّجل : من ولد معه في زمن واحد .

(٤) مُعاذ بن جبَل : انظره ص ٤٩٣ .

رَأَتْ هِنْدُ زَوْجَةُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ ، أَنَّ « يَثْرِبَ » غَلَبَ عَلَىٰ أَهْلِهَا الْإِسْلَامُ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ السَّادَةِ الْأَشْرَافِ أَحَدٌ عَلَىٰ الشِّرْكِ سِوَىٰ زَوْجِهَا وَنَفَرٍ قَلِيلٍ مَعَهُ ... وَكَانَتْ تُحِبُّهُ وَتُجِلُّهُ ، وَتُشْفِقُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَمُوتَ عَلَىٰ الْكُفْرِ ، فَيَصِيرَ إِلَىٰ النَّارِ .

وَكَانَ هُوَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَخْشَىٰ عَلَىٰ أَبْنَائِهِ أَنْ يَرْتَدُّوا عَنْ دِينِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ ، وَأَنْ يَتَّبِعُوا هَـٰذَا الدَّاعِيَةَ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ ، الَّذِي اسْتَطَاعَ فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ أَنْ يُحَوِّلَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ دِينِهِمْ ، وَأَنْ يُدْخِلَهُمْ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ .

فَقَالَ لِزَوْجَتِهِ : يَا هِنْدُ ، احْذَرِي أَنْ يَلْتَقِيَ أَوْلَادُكِ بِهَـٰذَا الرَّجُلِ [يَعْنِي مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ] حَتَّىٰ نَرَىٰ رَأْيَنَا فِيهِ .

فَقَالَتْ : سَمْعًا وَطَاعَةً ، وَلَكِنْ هَلْ لَكَ أَنْ تَسْمَعَ مِنِ ابْنِكَ مُعَاذٍ مَا يَرْوِيهِ عَنْ هَـٰذَا الرَّجُلِ ؟ .

فَقَالَ : وَيْحَكِ[1] ، وَهَلْ صَبَأَ[2] مُعَاذٌ عَنْ دِينِهِ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ ؟ .

فَأَشْفَقَتِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ عَلَىٰ الشَّيْخِ وَقَالَتْ :

كَلَّا ، وَلَكِنَّهُ حَضَرَ بَعْضَ مَجَالِسِ هَـٰذَا الدَّاعِيَةِ ، وَحَفِظَ شَيْئًا مِمَّا يَقُولُهُ .

فَقَالَ : ادْعُوهُ إِلَيَّ ... فَلَمَّا حَضَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ : أَسْمِعْنِي شَيْئًا مِمَّا يَقُولُهُ هَـٰذَا الرَّجُلُ ، فَقَالَ : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾[3] .

فَقَالَ : مَا أَحْسَنَ هَـٰذَا الْكَلَامَ وَمَا أَجْمَلَهُ ؟! أَوَ كُلُّ كَلَامِهِ مِثْلُ هَـٰذَا ؟! .

---

(١) ويحك : الويل والهلاك ، وكثيرًا ما تستعمل للترحم والتوجع .
(٢) صبأ عن دينه : رجع عن دينه .
(٣) سورة الفاتحة .

فَقَالَ مُعَاذٌ : وَأَحْسَنُ مِنْ هَٰذَا يَا أَبَتَاهُ ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تُبَايِعَهُ ، فَقَوْمُكَ جَمِيعًا قَدْ بَايَعُوهُ ... سَكَتَ الشَّيْخُ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ :

لَسْتُ فَاعِلًا حَتَّىٰ أَسْتَشِيرَ « مَنَاةَ » فَأَنْظُرَ مَا يَقُولُ . فَقَالَ لَهُ الْفَتَىٰ :

وَمَا عَسَىٰ أَنْ يَقُولَ « مَنَاةُ » يَا أَبَتَاهُ ، وَهُوَ خَشَبٌ أَصَمُّ لَا يَعْقِلُ وَلَا يَنْطِقُ .

فَقَالَ الشَّيْخُ - فِي حِدَّةٍ - : قُلْتُ لَكَ : لَنْ أَقْطَعَ أَمْرًا دُونَهُ[١].

* * *

ثُمَّ قَامَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ إِلَىٰ « مَنَاةَ » - وَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُكَلِّمُوهُ جَعَلُوا خَلْفَهُ امْرَأَةً عَجُوزًا ، فَتُجِيبُ عَنْهُ بِمَا يُلْهِمُهَا إِيَّاهُ - فِي زَعْمِهِمْ - ، ثُمَّ وَقَفَ أَمَامَهُ بِقَامَتِهِ الْمَمْدُودَةِ ، وَاعْتَمَدَ عَلَىٰ رِجْلِهِ الصَّحِيحَةِ ، فَقَدْ كَانَتِ الْأُخْرَىٰ عَرْجَاءَ شَدِيدَةَ الْعَرَجِ ، فَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ أَطْيَبَ الثَّنَاءِ ، ثُمَّ قَالَ :

يَا « مَنَاةُ » لَا رَيْبَ أَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ بِأَنَّ هَٰذَا الدَّاعِيَةَ الَّذِي وَفَدَ عَلَيْنَا مِنْ مَكَّةَ لَا يُرِيدُ أَحَدًا بِسُوءٍ سِوَاكَ ... وَأَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ لِيَنْهَانَا عَنْ عِبَادَتِكَ ...

وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ أُبَايِعَهُ - عَلَىٰ الرَّغْمِ مِمَّا سَمِعْتُهُ مِنْ جَمِيلِ قَوْلِهِ - حَتَّىٰ أَسْتَشِيرَكَ ، فَأَشِرْ عَلَيَّ ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ « مَنَاةُ » بِشَيْءٍ .

فَقَالَ : لَعَلَّكَ قَدْ غَضِبْتَ ... وَأَنَا لَمْ أَصْنَعْ شَيْئًا يُؤْذِيكَ بَعْدُ ...

وَلَكِنْ لَا بَأْسَ ، فَسَأَتْرُكُكَ أَيَّامًا حَتَّىٰ يَسْكُتَ عَنْكَ الْغَضَبُ .

* * *

كَانَ أَبْنَاءُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ يَعْرِفُونَ مَدَىٰ تَعَلُّقِ أَبِيهِمْ بِصَنَمِهِ « مَنَاةَ » ، وَكَيْفَ أَنَّهُ غَدَا مَعَ الزَّمَنِ قِطْعَةً مِنْهُ ، وَلَكِنَّهُمْ أَدْرَكُوا أَنَّهُ بَدَأَتْ تَتَزَعْزَعُ مَكَانَتُهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْتَزِعُوهُ مِنْ نَفْسِهِ انْتِزَاعًا ، فَذَلِكَ سَبِيلُهُ إِلَىٰ الْإِيمَانِ .

* * *

أَدْلَجَ[٢] أَبْنَاءُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ مَعَ صَدِيقِهِمْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ إِلَىٰ « مَنَاةَ »

---

(١) لن أقطع أمرًا دونه : لن أحسم أمرًا بدون الرجوع إليه . (٢) أدلج : سار ليلًا .

فِي اللَّيْلِ ، وَحَمَلُوهُ مِنْ مَكَانِهِ ، وَذَهَبُوا بِهِ إِلَىٰ حُفْرَةٍ لِبَنِي « سَلَمَةَ » يَرْمُونَ فِيهَا أَقْذَارَهُمْ ، وَطَرَحُوهُ هُنَاكَ ، وَعَادُوا إِلَىٰ بُيُوتِهِمْ دُونَ أَنْ يَعْلَمَ بِهِمْ أَحَدٌ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ عَمْرٌو دَلَفَ[1] إِلَىٰ صَنَمِهِ لِتَحِيَّتِهِ ، فَلَمْ يَجِدْهُ فَقَالَ : وَيْلَكُمْ ، مَنْ عَدَا عَلَىٰ إِلَـٰهِنَا هَـٰذِهِ اللَّيْلَةَ ؟! ... فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ .

فَطَفِقَ[2] يَبْحَثُ عَنْهُ فِي دَاخِلِ الْبَيْتِ وَخَارِجِهِ ، وَهُوَ يُرْغِي وَيُزْبِدُ[3] وَيَتَهَدَّدُ وَيَتَوَعَّدُ حَتَّىٰ وَجَدَهُ مُنَكَّسًا عَلَىٰ رَأْسِهِ فِي الْحُفْرَةِ ، فَغَسَلَهُ ، وَطَهَّرَهُ وَطَيَّبَهُ ، وَأَعَادَهُ إِلَىٰ مَكَانِهِ وَقَالَ لَهُ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ مَنْ فَعَلَ بِكَ هَـٰذَا لَأَخْزَيْتُهُ .

فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةُ عَدَا الْفِتْيَةُ عَلَىٰ « مَنَاةَ » فَفَعَلُوا فِيهِ مِثْلَ فِعْلِهِمْ بِالْأَمْسِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الشَّيْخُ الْتَمَسَهُ[4] فَوَجَدَهُ فِي الْحُفْرَةِ مُلَطَّخًا بِالْأَقْذَارِ ، فَأَخَذَهُ وَغَسَلَهُ وَطَيَّبَهُ ، وَأَعَادَهُ إِلَىٰ مَكَانِهِ .

وَمَا زَالَ الْفِتْيَةُ يَفْعَلُونَ بِالصَّنَمِ مِثْلَ ذَلِكَ كُلَّ يَوْمٍ ، فَلَمَّا ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ؛ رَاحَ إِلَيْهِ قَبْلَ مَنَامِهِ ، وَأَخَذَ سَيْفَهُ فَعَلَّقَهُ بِرَأْسِهِ وَقَالَ لَهُ :

يَا « مَنَاةُ » ، إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ مَنْ يَصْنَعُ بِكَ هَـٰذَا الَّذِي تَرَىٰ ، فَإِنْ كَانَ فِيكَ خَيْرٌ فَادْفَعِ الشَّرَّ عَنْ نَفْسِكَ ، وَهَـٰذَا السَّيْفُ مَعَكَ ... ثُمَّ أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ .

فَمَا إِنِ اسْتَيْقَنَ الْفِتْيَةُ مِنْ أَنَّ الشَّيْخَ قَدْ غَطَّ فِي نَوْمِهِ حَتَّىٰ هَبُّوا إِلَىٰ الصَّنَمِ ؛ فَأَخَذُوا السَّيْفَ مِنْ عُنُقِهِ وذَهَبُوا بِهِ خَارِجَ الْمَنْزِلِ ، وَقَرَنُوهُ[5] إِلَىٰ كَلْبٍ مَيِّتٍ بِحَبْلٍ ، وَأَلْقَوْا بِهِمَا فِي بِئْرٍ لِبَنِي « سَلَمَةَ » تَسِيلُ إِلَيْهَا الْأَقْذَارُ وَتَتَجَمَّعُ فِيهَا .

فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ الشَّيْخُ وَلَمْ يَجِدِ الصَّنَمَ خَرَجَ يَلْتَمِسُهُ ؛ فَوَجَدَهُ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي الْبِئْرِ ، مَقْرُونًا إِلَىٰ كَلْبٍ مَيِّتٍ ، وَقَدْ سُلِبَ مِنْهُ السَّيْفُ ، فَلَمْ يُخْرِجْهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ مِنَ الْحُفْرَةِ ، وَإِنَّمَا تَرَكَهُ حَيْثُ أَلْقَوْهُ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

---

(١) دلف : مَشَىٰ فِي هدوءٍ .
(٢) طفق يبحث : أخذ يبحث .
(٣) يرغي ويزبد : كناية عن شِدَّة الغضب وهيجان النفس .
(٤) ألتمسه : بحث عنه وطلبه .
(٥) قرنوه إلى كلب : ربطوه معه .

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ إِلَهًا لَمْ تَكُنْ أَنْتَ وَكَلْبٌ وَسْطَ بِئْرٍ فِي قَرَنْ

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ دَخَلَ فِي دِينِ اللَّهِ .

* * *

تَذَوَّقَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ مِنْ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ ، مَا جَعَلَهُ يَعَضُّ بَنَانَ النَّدَمِ عَلَىٰ كُلِّ لَحْظَةٍ قَضَاهَا فِي الشِّرْكِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى الدِّينِ الْجَدِيدِ بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ ، وَوَضَعَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَوَلَدَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

* * *

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ كَانَتْ « أُحُدٌ » ، فَرَأَىٰ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ أَبْنَاءَهُ الثَّلَاثَةَ يَتَجَهَّزُونَ لِلِقَاءِ أَعْدَاءِ اللَّهِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ غَادِينَ رَائِحِينَ كَأُسْدِ الشَّرَىٰ[1] وَهُمْ يَتَوَهَّجُونَ شَوْقًا إِلَىٰ نَيْلِ الشَّهَادَةِ وَالْفَوْزِ بِمَرْضَاةِ اللَّهِ ، فَأَثَارَ الْمَوْقِفُ حَمِيَّتَهُ ، وَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَغْدُوَ مَعَهُمْ إِلَى الْجِهَادِ تَحْتَ رَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

لَكِنَّ الْفِتْيَةَ أَجْمَعُوا عَلَىٰ مَنْعِ أَبِيهِمْ مِمَّا عَزَمَ عَلَيْهِ ... فَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ طَاعِنٌ فِي السِّنِّ ، وَهُوَ إِلَىٰ ذَٰلِكَ أَعْرَجُ شَدِيدُ الْعَرَجِ ، وَقَدْ عَذَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَنْ عَذَرَهُمْ ، فَقَالُوا لَهُ :

يَا أَبَانَا إِنَّ اللَّهَ عَذَرَكَ ، فَعَلَامَ تُكَلِّفُ نَفْسَكَ مَا أَعْفَاكَ اللَّهُ مِنْهُ ؟! .

فَغَضِبَ الشَّيْخُ مِنْ قَوْلِهِمْ أَشَدَّ الْغَضَبِ ، وَانْطَلَقَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَشْكُوهُمْ فَقَالَ :

يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، إِنَّ أَبْنَائِي هَؤُلَاءِ يُرِيدُونَ أَنْ يَحْبِسُونِي عَنْ هَٰذَا الْخَيْرِ وَهُمْ يَتَذَرَّعُونَ[2] بِأَنِّي أَعْرَجُ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَطَأَ بِعَرْجَتِي هَٰذِهِ الْجَنَّةَ .

فَقَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَبْنَائِهِ : (دَعُوهُ ؛ لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَرْزُقُهُ الشَّهَادَةَ) ... فَخَلَّوْا عَنْهُ إِذْعَانًا لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

وَمَا إِنْ أَزِفَ[3] وَقْتُ الْخُرُوجِ ، حَتَّىٰ وَدَّعَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ زَوْجَتَهُ

(١) أُسْدُ الشَّرَىٰ : أُسْدُ الْغَابِ . (٢) يتذرعون : يحتجون . (٣) أزف : حان .

وَدَاعَ مُفَارِقٍ لَا يَعُودُ ... ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَىٰ الْقِبْلَةِ وَرَفَعَ كَفَّيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَقَالَ :

اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي الشَّهَادَةَ وَلَا تَرُدَّنِي إِلَىٰ أَهْلِي خَائِبًا .

ثُمَّ انْطَلَقَ يُحِيطُ بِهِ أَبْنَاؤُهُ الثَّلَاثَةُ ، وَجُمُوعٌ كَبِيرَةٌ مِنْ قَوْمِهِ بَنِي « سَلِمَةَ » .

وَلَمَّا حَمِيَ وَطِيسُ[1] الْمَعْرَكَةِ ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، شُوهِدَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ يَمْضِي فِي الرَّعِيلِ[2] الْأَوَّلِ ، وَيَثِبُ عَلَىٰ رِجْلِهِ الصَّحِيحَةِ وَثْبًا وَهُوَ يَقُولُ : إِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلَىٰ الْجَنَّةِ ، إِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلَىٰ الْجَنَّةِ ... وَكَانَ وَرَاءَهُ ابْنُهُ « خَلَّادٌ » .

وَمَا زَالَ الشَّيْخُ وَفَتَاهُ يُجَالِدَانِ[3] عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ خَرَّا صَرِيعَيْنِ شَهِيدَيْنِ عَلَىٰ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ ، لَيْسَ بَيْنَ الِابْنِ وَأَبِيهِ إِلَّا لَحَظَاتٌ .

* * *

وَمَا إِنْ وَضَعَتِ الْمَعْرَكَةُ أَوْزَارَهَا[4] حَتَّىٰ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ شُهَدَاءِ أُحُدٍ لِيُوَارِيَهُمْ تُرَابَهُمْ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : (خَلُّوهُمْ بِدِمَائِهِمْ وَجِرَاحِهِمْ ، فَأَنَا الشَّهِيدُ عَلَيْهِمْ) . ثُمَّ قَالَ : (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُكْلَمُ[5] فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسِيلُ دَمًا ، اللَّوْنُ كَلَوْنِ الزَّعْفَرَانِ ، وَالرِّيحُ كَرِيحِ الْمِسْكِ) .

ثُمَّ قَالَ : (ادْفِنُوا عَمْرَو بْنَ الْجَمُوحِ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ؛ فَقَدْ كَانَا مُتَحَابَّيْنِ مُتَصَافِيَيْنِ فِي الدُّنْيَا) .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ وَأَصْحَابِهِ مِنْ شُهَدَاءِ « أُحُدٍ » ، وَنَوَّرَ لَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ (*) .

---

(١) الْوَطِيسُ : التنور ، ووطيس الْمعركة نارُها .
(٢) الرَّعِيل الأول : الْفوج الأول .
(٣) المجالدة : المضاربة بالسيف .
(٤) وضعت الْمعركة أوزارها : توقفت وانتهت .
(٥) يُكْلَم : يجرح .

(*) للاستزادة من أخبار عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ انظر :
١ – الإصابة : ٢/٥٢٩ أو « الترجمة » ٥٧٩٧ .   ٢ – صفة الصَّفوة : ١/ ٢٦٥ .

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ

« أَوَّلُ مَنْ دُعِيَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ »

الصَّحَابِيُّ الَّذِي نَسُوقُ عَنْهُ الْحَدِيثَ ـ الْآنَ ـ وَثِيقُ الصِّلَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَوَاحِدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْأَوَّلِيَّاتِ فِي الْإِسْلَامِ .

فَهُوَ ابْنُ عَمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ذَلِكَ لِأَنَّ أُمَّهُ أُمَيْمَةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ كَانَتْ عَمَّةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَهُوَ صِهْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ أُخْتَهُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ كَانَتْ زَوْجَةَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ ، وَإِحْدَىٰ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عُقِدَ لَهُ لِوَاءٌ فِي الْإِسْلَامِ ...

وَهُوَ بَعْدَ ذَلِكَ أَوَّلُ مَنْ دُعِيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ الْأَسَدِيُّ .

* * *

أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ ، قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَارَ « الْأَرْقَمِ » ، فَكَانَ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ .

وَلَمَّا أَذِنَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، فِرَارًا بِدِينِهِمْ مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ ، كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ ثَانِيَ الْمُهَاجِرِينَ إِذْ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَىٰ هَٰذَا الْفَضْلِ إِلَّا أَبُو سَلَمَةَ[1].

---

(١) أبو سلمة : هو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزومي القرشي من السابقين إلى الإسلام وكان أخا للنبي ﷺ من الرضاعة وقد تزوج أم سلمة ثم صارت بعده إلى رسول الله ﷺ ، مات بالمدينة بعد الرجوع من بدر ... انظر أم سلمة في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

عَلَىٰ أَنَّ الْهِجْرَةَ إِلَىٰ اللَّهِ، وَمُفَارَقَةَ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ فِي سَبِيلِهِ، لَمْ تَكُنْ أَمْرًا جَدِيدًا عَلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ، فَقَدْ هَاجَرَ هُوَ وَبَعْضُ ذَوِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَىٰ «الْحَبَشَةِ».

لَكِنَّ هِجْرَتَهُ هَٰذِهِ الْمَرَّةَ كَانَتْ أَشْمَلَ وَأَوْسَعَ، فَقَدْ هَاجَرَ مَعَهُ أَهْلُهُ وَذَوُوهُ، وَسَائِرُ بَنِي أَبِيهِ رِجَالًا وَنِسَاءً، وَشِيبًا وَشُبَّانًا، وَصِبْيَةً وَصَبِيَّاتٍ، فَقَدْ كَانَ بَيْتُهُ بَيْتَ إِسْلَامٍ، وَقَبِيلُهُ قَبِيلَ إِيمَانٍ.

فَمَا إِنْ فَصَلُوا[1] عَنْ مَكَّةَ حَتَّىٰ بَدَتْ دِيَارُهُمْ حَزِينَةً كَئِيبَةً، وَغَدَتْ خَوَاءً خَلَاءً كَأَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَنِيسٌ مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ يَسْمُرْ فِي رُبُوعِهَا سَامِرٌ.

وَلَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ عَلَىٰ هِجْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ حَتَّىٰ خَرَجَ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ يَطُوفُونَ فِي أَحْيَاءِ مَكَّةَ؛ لِمَعْرِفَةِ مَنْ رَحَلَ عَنْهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، وَكَانَ فِيهِمْ أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ.

فَنَظَرَ عُتْبَةُ إِلَىٰ مَنَازِلِ بَنِي جَحْشٍ تَتَنَاوَحُ فِيهَا الرِّيَاحُ السَّافِيَاتُ[2] وَتَخْفِقُ[3] أَبْوَابُهَا خَفْقًا وَقَالَ:

أَصْبَحَتْ دِيَارُ بَنِي جَحْشٍ خَلَاءً تَبْكِي أَهْلَهَا...

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَمَنْ هَؤُلَاءِ حَتَّىٰ تَبْكِيَهُمُ الدِّيَارُ؟!!.

ثُمَّ وَضَعَ أَبُو جَهْلٍ يَدَهُ عَلَىٰ دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ، فَقَدْ كَانَتْ أَجْمَلَ هَٰذِهِ الدُّورِ وَأَغْنَاهَا، وَجَعَلَ يَتَصَرَّفُ فِيهَا وَفِي مَتَاعِهَا كَمَا يَتَصَرَّفُ الْمَالِكُ فِي مُلْكِهِ.

فَلَمَّا بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ مَا صَنَعَ أَبُو جَهْلٍ بِدَارِهِ، ذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

---

(١) فصلوا عن مكّة: خرجوا عن مكّة. (٢) السافيات: الّتي تثير التراب. (٣) تخفق: تقرع.

(أَلَا تَرْضَىٰ يَا عَبْدَ اللَّهِ ، أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ بِهَا دَارًا فِي الْجَنَّةِ ؟) .

قَالَ : بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

قَالَ : (فَذَلِكَ لَكَ) .

فَطَابَتْ نَفْسُ عَبْدِ اللَّهِ وَقَرَّتْ عَيْنُهُ .

* * *

مَا كَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ يَسْتَقِرُّ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ مَا تَكَبَّدَهُ مِنْ نَصَبٍ[١] فِي هِجْرَتَيْهِ الْأُولَىٰ وَالثَّانِيَةِ ...

وَمَا كَادَ يَذُوقُ شَيْئًا مِنْ طَعْمِ الرَّاحَةِ فِي كَنَفِ الْأَنْصَارِ ؛ بَعْدَ مَا نَالَهُ مِنْ أَذًى عَلَىٰ يَدِ قُرَيْشٍ ، حَتَّىٰ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِأَقْسَىٰ امْتِحَانٍ عَرَفَهُ فِي حَيَاتِهِ ، وَأَنْ يُعَانِيَ أَعْنَفَ تَجْرِبَةٍ لَقِيَهَا مُنْذُ أَسْلَمَ .

فَلْنُرْهِفِ السَّمْعَ لِقِصَّةِ تِلْكَ التَّجْرِبَةِ الْقَاسِيَةِ الْمُرَّةِ ...

* * *

انْتَدَبَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ثَمَانِيَةً مِنْ أَصْحَابِهِ لِلْقِيَامِ بِأَوَّلِ عَمَلٍ عَسْكَرِيٍّ فِي الْإِسْلَامِ ، فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ[٢] وَقَالَ : (لَأُؤَمِّرَنَّ عَلَيْكُمْ أَصْبَرَكُمْ عَلَىٰ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ) ، ثُمَّ عَقَدَ لِوَاءَهُمْ[٣] لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ ؛ فَكَانَ أَوَّلَ أَمِيرٍ أُمِّرَ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[٤] .

* * *

حَدَّدَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ وِجْهَتَهُ ، وَأَعْطَاهُ كِتَابًا ، وَأَمَرَهُ أَلَّا يَنْظُرَ فِيهِ إِلَّا بَعْدَ مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ .

---

(١) تكبده من نصب : قلمه من تعب وجهد .

(٢) سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص : انظره ص ٢٨١ .

(٣) عقد لواءهم : أمَّر عَلَيْهِم .

(٤) وروي أن أول لواء عقد في الإِسْلَام كان لحمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه وقيل غير ذلك .

فَلَمَّا انْقَضَىٰ عَلَىٰ مَسِيرَةِ السَّرِيَّةِ يَوْمَانِ نَظَرَ عَبْدُ اللَّهِ فِي الْكِتَابِ فَإِذَا فِيهِ :

(إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَٰذَا فَامْضِ حَتَّىٰ تَنْزِلَ « نَخْلَةَ » بَيْنَ الطَّائِفِ وَمَكَّةَ ، فَتَرَصَّدْ بِهَا قُرَيْشًا ، وَقِفْ لَنَا عَلَىٰ أَخْبَارِهِمْ ...) .

وَمَا إِنْ أَتَمَّ عَبْدُ اللَّهِ الْكِتَابَ حَتَّىٰ قَالَ : سَمْعًا وَطَاعَةً لِنَبِيِّ اللَّهِ ...

ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ :

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَنِي أَنْ أَمْضِيَ إِلَىٰ « نَخْلَةَ » لِأَرْصُدَ قُرَيْشًا حَتَّىٰ آتِيَهُ بِأَخْبَارِهِمْ ، وَقَدْ نَهَانِي عَنْ أَنْ أَسْتَكْرِهَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَلَىٰ الْمُضِيِّ مَعِي ، فَمَنْ كَانَ يُرِيدُ الشَّهَادَةَ وَيَرْغَبُ فِيهَا فَلْيَصْحَبْنِي ، وَمَنْ كَرِهَ ذَٰلِكَ فَلْيَرْجِعْ غَيْرَ مَذْمُومٍ .

فَقَالَ الْقَوْمُ :

سَمْعًا وَطَاعَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، إِنَّمَا نَمْضِي مَعَكَ حَيْثُ أَمَرَكَ نَبِيُّ اللَّهِ .

ثُمَّ سَارَ الْقَوْمُ حَتَّىٰ بَلَغُوا « نَخْلَةَ » وَطَفِقُوا يَجُوسُونَ(١) خِلَالَ الدُّرُوبِ لِيَتَرَصَّدُوا أَخْبَارَ قُرَيْشٍ .

وَفِيمَا هُمْ كَذَٰلِكَ أَبْصَرُوا عَنْ بُعْدٍ قَافِلَةً لِقُرَيْشٍ فِيهَا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ هُمْ عَمْرُو ابْنُ الْحَضْرَمِيِّ ، وَالْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَأَخُوهُ الْمُغِيرَةُ ، وَمَعَهُمْ تِجَارَةٌ لِقُرَيْشٍ فِيهَا جُلُودٌ وَزَبِيبٌ وَنَحْوُهَا مِمَّا كَانَتْ تَتَّجِرُ بِهِ قُرَيْشٌ .

عِنْدَ ذَٰلِكَ أَخَذَ الصَّحَابَةُ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَكَانَ الْيَوْمُ آخِرَ يَوْمٍ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ(٢) ، فَقَالُوا :

إِنْ قَتَلْنَاهُمْ فَإِنَّمَا نَقْتُلُهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَفِي ذَٰلِكَ مَا فِيهِ مِنْ إِهْدَارِ

(١) يجوسون : يدورون ويبحثون .
(٢) الأشهر الحُرُم : ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرّم ، ورجب ، وكانت العرب تحرّم فيها القتال .

حُرْمَةِ هَذَا الشَّهْرِ وَالتَّعَرُّضِ لِسُخْطِ الْعَرَبِ جَمِيعًا ...

وَإِنْ أَمْهَلْنَاهُمْ حَتَّىٰ يَنْقَضِيَ هَذَا الْيَوْمُ دَخَلُوا فِي أَرْضِ الْحَرَمِ(١) ... وَأَصْبَحُوا فِي مَأْمَنٍ مِنَّا .

وَمَا زَالُوا يَتَشَاوَرُونَ حَتَّىٰ أَجْمَعُوا رَأْيَهُمْ عَلَىٰ الْوُثُوبِ عَلَيْهِمْ وَقَتْلِهِمْ وَأَخْذِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ غَنِيمَةً ... وَفِي لَحَظَاتٍ قَتَلُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ(٢) وأَسَرُوا اثْنَيْنِ(٣)، وَفَرَّ الرَّابِعُ مِنْ أَيْدِيهِمْ .

* * *

اسْتَاقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وَصَحْبُهُ الأَسِيرَيْنِ وَالْعِيرَ مُتَوَجِّهِينَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَقَفَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوهُ اسْتَنْكَرَهُ أَشَدَّ الاِسْتِنْكَارِ ، وَقَالَ لَهُمْ :

(وَاللَّهِ مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ ، وَ إِنَّمَا أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَقِفُوا عَلَىٰ أَخْبَارِ قُرَيْشٍ ، وَأَنْ تَرْصُدُوا حَرَكَتَهَا) ...

وَأَوْقَفَ الأَسِيرَيْنِ حَتَّىٰ يَنْظُرَ فِي أَمْرِهِمَا ... وَأَعْرَضَ عَنِ الْعِيرِ فَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا شَيْئًا .

عِنْدَ ذَلِكَ سُقِطَ فِي أَيْدِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُمْ هَلَكُوا بِمُخَالَفَتِهِمْ لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَزَادَ عَلَيْهِمُ الأَمْرَ ضِيقًا أَنَّ إِخْوَانَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ طَفِقُوا يُكْثِرُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّوْمِ ، وَيَزْوَرُّونَ(٤) عَنْهُمْ كُلَّمَا مَرُّوا بِهِمْ وَيَقُولُونَ :

---

(١) دخلوا في أرض الحَرَم : أي أصبح قتالهم محرّمًا علينا بسبب دخولهم في أرض الحَرَم المكيّ .

(٢) هو عمرو بن الحضرمي .

(٣) أحدهما الحكم بن كيسان مولىٰ هشام بن المغيرة والد أبي جهل ، أسلم وحسن إسلامه واستشهد في بئر معونة .

(٤) يَزْوَرُّونَ : ينحرفون عن طريقهم لئلا يكلموهم .

خَالَفُوا أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَقَدِ ازْدَادُوا حَرَجًا عَلَىٰ حَرَجٍ حِينَ عَلِمُوا أَنَّ قُرَيْشًا اتَّخَذَتْ مِنْ هَٰذِهِ الْحَادِثَةِ ذَرِيعَةً[1] لِلنَّيْلِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالتَّشْهِيرِ بِهِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ ؛ فَكَانَتْ تَقُولُ :

إِنَّ مُحَمَّدًا قَدِ اسْتَحَلَّ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ؛ فَسَفَكَ فِيهِ الدَّمَ ، وَأَخَذَ الْمَالَ ، وَأَسَرَ الرِّجَالَ ...

فَلَا تَسَلْ عَنْ مَبْلَغِ حُزْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ وَأَصْحَابِهِ عَلَىٰ مَا فَرَطَ[2] مِنْهُمْ ، وَلَا عَنْ خَجْلَتِهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا أَوْقَعُوهُ فِيهِ مِنَ الْحَرَجِ .

* * *

وَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْكَرْبُ ، وَثَقُلَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ ، جَاءَهُمُ الْبَشِيرُ يُبَشِّرُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ رَضِيَ عَنْ صَنِيعِهِمْ ، وَأَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ فِي ذَٰلِكَ قُرْآنًا ...

فَلَا تَسَلْ عَنْ مَدَىٰ فَرْحَتِهِمْ ، وَقَدْ طَفِقَ النَّاسُ يُقْبِلُونَ عَلَيْهِمْ مُعَانِقِينَ مُبَشِّرِينَ مُهَنِّئِينَ ؛ وَهُمْ يَتْلُونَ مَا نَزَلَ فِي عَمَلِهِمْ مِنْ قُرْآنٍ مَجِيدٍ .

فَلَقَدْ نَزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُ اللَّهِ عَلَتْ كَلِمَتُهُ :

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾[3].

* * *

(١) الذَّرِيعة : الوسيلة .

(٢) فَرَط منهم : وقع منهم .

(٣) سورة البقرة : آية ٢١٧.

فَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ طَابَتْ نَفْسُ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَأَخَذَ الْعِيرَ وَفَدَىٰ الْأَسِيرَيْنِ ، وَرَضِيَ عَنْ صَنِيعِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ وَأَصْحَابِهِ ؛ إِذْ كَانَتْ غَزْوَتُهُمْ هَٰذِهِ حَدَثًا كَبِيرًا فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَغَنِيمَتُهَا أَوَّلُ غَنِيمَةٍ أُخِذَتْ فِي الْإِسْلَامِ ...

وَقَتِيلُهَا أَوَّلُ مُشْرِكٍ أَرَاقَ الْمُسْلِمُونَ دَمَهُ ...

وَأَسِيرَاهَا أَوَّلُ أَسِيرَيْنِ وَقَعَا فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ...

وَرَايَتُهَا أَوَّلُ رَايَةٍ عَقَدَتْهَا يَدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ...

وَأَمِيرُهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ أَوَّلُ مَنْ دُعِيَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

ثُمَّ كَانَتْ « بَدْرٌ » فَأَبْلَىٰ فِيهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ مِنْ كَرِيمِ الْبَلَاءِ مَا يَلِيقُ بِإِيمَانِهِ .

* * *

ثُمَّ جَاءَتْ « أُحُدٌ » فَكَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ وَصَاحِبِهِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ مَعَهَا قِصَّةٌ لَا تُنْسَىٰ ، فَلْنَتْرُكِ الْكَلَامَ لِسَعْدٍ لِيَرْوِيَ لَنَا قِصَّتَهُ وَقِصَّةَ صَاحِبِهِ .

قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ :

لَمَّا كَانَتْ « أُحُدٌ » لَقِيَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وَقَالَ : أَلَا تَدْعُو اللَّهَ ؟ فَقُلْتُ : بَلَىٰ .

فَخَلَوْنَا فِي نَاحِيَةٍ فَدَعَوتُ فَقُلْتُ :

يَا رَبِّ إِذَا لَقِيتُ الْعَدُوَّ فَلَقِّنِي رَجُلًا شَدِيدًا بَأْسُهُ ، شَدِيدًا حَرْدُهُ[١]، أُقَاتِلُهُ

(١) حَرْدُه : غضبه وثَوْرَتُه .

وَيُقَاتِلُنِي ، ثُمَّ ارْزُقْنِي الظَّفَرَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ أَقْتُلَهُ وَآخُذَ سَلَبَهُ[1]، فَأَمَّنَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ عَلَىٰ دُعَائِي ، ثُمَّ قَالَ :

اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي رَجُلًا شَدِيدًا حَرْدُهُ ، شَدِيدًا بَأْسُهُ ، أُقَاتِلُهُ فِيكَ وَيُقَاتِلُنِي ، ثُمَّ يَأْخُذُنِي فَيَجْدَعُ أَنْفِي وَأُذُنِي ، فَإِذَا لَقِيتُكَ غَدًا قُلْتَ :

فِيمَ جُدِعَ أَنْفُكَ وَأُذُنُكَ ؟ ...

فَأَقُولُ : فِيكَ وَفِي رَسُولِكَ ، فَتَقُولُ :

صَدَقْتَ ...

قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ :

لَقَدْ كَانَتْ دَعْوَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ خَيْرًا مِنْ دَعْوَتِي ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ آخِرَ النَّهَارِ ، وَقَدْ قُتِلَ وَمُثِّلَ بِهِ ، وَإِنَّ أَنْفَهُ وَأُذُنَهُ لَمُعَلَّقَانِ عَلَىٰ شَجَرَةٍ بِخَيْطٍ .

* * *

اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ ، فَأَكْرَمَهُ بِالشَّهَادَةِ كَمَا أَكْرَمَ بِهَا خَالَهُ سَيِّدَ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .

فَوَارَاهُمَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مَعًا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ ، وَدُمُوعُهُ الطَّاهِرَةُ تُرَوِّي ثَرَاهُمَا الْمُضَمَّخَ بِطُيُوبِ الشَّهَادَةِ (*) .

---

(١) سَلَب القتيل : ما يؤخذ منه من سلاح ومتاع .

(*) للاستزادة من أخبار عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ انظر :
١ - الإصابة : ٢٨٦/٢ أو « الترجمة » ٤٥٨٣.
٢ - إمتاع الأسماع : ١/ ٥٥.
٣ - حلية الأولياء : ١٠٨/١.
٤ - حسن الصحابة : ٣٠٠.
٥ - مجموعة الوثائق السياسية : ٨.

أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ

عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْجَرَّاحِ

«لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ ، وَأَمِينُ هَـٰذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ»

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

كَانَ وَضِيءَ الْوَجْهِ ، بَهِيَّ الطَّلْعَةِ ، نَحِيلَ الْجِسْمِ ، طَوِيلَ الْقَامَةِ ، خَفِيفَ الْعَارِضَيْنِ ... تَرْتَاحُ الْعَيْنُ لِمَرْآهُ ، وَتَأْنَسُ النَّفْسُ لِلُقْيَاهُ ، وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ الْفُؤَادُ .

وَكَانَ إِلَىٰ ذَلِكَ رَقِيقَ الْحَاشِيَةِ ، جَمَّ[1] التَّوَاضُعِ ، شَدِيدَ الْحَيَاءِ ؛ لَكِنَّهُ كَانَ إِذَا حَزَبَ[2] الْأَمْرُ وَجَدَّ الْجِدُّ يَغْدُو كَأَنَّهُ اللَّيْثُ عَادِيًا .

فَهُوَ يُشْبِهُ نَصْلَ السَّيْفِ رَوْنَقًا وَبَهَاءً ، وَيَحْكِيهِ[3] حِدَّةً وَمَضَاءً .

ذَلِكُمْ هُوَ أَمِينُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ، عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَرَّاحِ الْفِهْرِيُّ الْقُرَشِيُّ ، الْمُكَنَّىٰ بِأَبِي عُبَيْدَةَ .

نَعَتَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ : ثَلاثَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَصْبَحُ النَّاسِ وُجُوهًا ، وَأَحْسَنُهَا أَخْلاقًا ، وَأَثْبَتُهَا حَيَاءً ، إِنْ حَدَّثُوكَ لَمْ يَكْذِبُوكَ[4] ، وَإِنْ حَدَّثْتَهُمْ لَمْ يُكَذِّبُوكَ :

أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ[5] ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ .

* * *

كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ ، فَقَدْ أَسْلَمَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي لِإِسْلَامِ أَبِي بَكْرٍ ، وَكَانَ إِسْلَامُهُ عَلَىٰ يَدَيِ الصِّدِّيقِ نَفْسِهِ ، فَمَضَىٰ بِهِ

---

(١) جم التواضع : كثير التواضع .
(٢) حزب الأمر : اشتد الأمر .
(٣) يحكيه : يماثله .
(٤) لم يَكْذِبوك : لم يكذبوا عليك .
(٥) عثمان بن عفان : انظره ص ٥٣٥ .

وَبِعَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْفٍ(١) وَبِعُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ(٢) وَبِالْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَأَعْلَنُوا بَيْنَ يَدَيْهِ كَلِمَةَ الْحَقِّ، فَكَانُوا الْقَوَاعِدَ الْأُولَىٰ الَّتِي أُقِيمَ عَلَيْهَا صَرْحُ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ.

* * *

عَاشَ أَبُو عُبَيْدَةَ تَجْرِبَةَ الْمُسْلِمِينَ الْقَاسِيَةَ فِي مَكَّةَ مُنْذُ بِدَايَتِهَا إِلَىٰ نِهَايَتِهَا، وَعَانَىٰ مَعَ الْمُسْلِمِينَ السَّابِقِينَ مِنْ عُنْفِهَا وَضَرَاوَتِهَا، وَآلَامِهَا وَأَحْزَانِهَا مَا لَمْ يُعَانِهِ أَتْبَاعُ دِينٍ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ؛ فَثَبَتَ لِلِابْتِلَاءِ(٣)، وَصَدَقَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ.

لَكِنَّ مِحْنَةَ أَبِي عُبَيْدَةَ يَوْمَ «بَدْرٍ» فَاقَتْ فِي عُنْفِهَا حُسْبَانَ الْحَاسِبِينَ وَتَجَاوَزَتْ خَيَالَ الْمُتَخَيِّلِينَ.

* * *

انْطَلَقَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَوْمَ «بَدْرٍ» يَصُولُ بَيْنَ الصُّفُوفِ صَوْلَةَ مَنْ لَا يَهَابُ الرَّدَىٰ، فَهَابَهُ الْمُشْرِكُونَ، وَيَجُولُ جَوْلَةَ مَنْ لَا يَحْذَرُ الْمَوْتَ، فَحَذِرَهُ فُرْسَانُ قُرَيْشٍ وَجَعَلُوا يَتَنَحَّوْنَ عَنْهُ كُلَّمَا وَاجَهُوهُ...

لَكِنَّ رَجُلًا وَاحِدًا مِنْهُمْ جَعَلَ يَبْرُزُ لِأَبِي عُبَيْدَةَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَتَحَرَّفُ(٤) عَنْ طَرِيقِهِ وَيَتَحَاشَىٰ(٥) لِقَاءَهُ.

وَلَجَّ الرَّجُلُ فِي الْهُجُومِ، وَأَكْثَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنَ التَّنَحِّي، وَسَدَّ الرَّجُلُ عَلَىٰ أَبِي عُبَيْدَةَ الْمَسَالِكَ، وَوَقَفَ حَائِلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ.

(١) عبد الرحمن بن عوف: انظره ص ٢٤٩.

(٢) عثمان بن مظعون: كان من حكماء العرب في الجاهلية شهد بدرًا ومات سنة ٢هـ، وكان أوّل من مات بالمدينة من المهاجرين، وأوّل من دفن بالبقيع.

(٣) الابتلاء: الاختبار.

(٤) يتحرف عن طريقه: يتنحىٰ عن طريقه.

(٥) يتحاشىٰ لقاءه: يتجنب لقاءه ويتوقاه.

فَلَمَّا ضَاقَ بِهِ ذَرْعًا[1] ضَرَبَ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً فَلَقَتْ هَامَتَهُ فَلْقَتَيْنِ؛ فَخَرَّ الرَّجُلُ صَرِيعًا بَيْنَ يَدَيْهِ.

لَا تُحَاوِلْ ـ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ ـ أَنْ تُخَمِّنَ مَنْ يَكُونُ الرَّجُلُ الصَّرِيعُ ...

أَمَا قُلْتُ لَكَ: إِنَّ عُنْفَ التَّجْرِبَةِ فَاقَ حُسْبَانَ الْحَاسِبِينَ، وَجَاوَزَ خَيَالَ الْمُتَخَيِّلِينَ؟ ...

وَلَقَدْ يَتَصَدَّعُ رَأْسُكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الرَّجُلَ الصَّرِيعَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْجَرَّاحِ وَالِدُ أَبِي عُبَيْدَةَ.

* * *

لَمْ يَقْتُلْ أَبُو عُبَيْدَةَ أَبَاهُ، وَإِنَّمَا قَتَلَ الشِّرْكَ فِي شَخْصِ أَبِيهِ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي شَأْنِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَشَأْنِ أَبِيهِ قُرْآنًا فَقَالَ ـ عَلَتْ كَلِمَتُهُ ـ:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ، وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

* * *

لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَجِيبًا مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَقَدْ بَلَغَ مِنْ قُوَّةِ إِيمَانِهِ بِاللَّهِ وَنُصْحِهِ لِدِينِهِ، وَالْأَمَانَةِ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مَبْلَغًا طَمَحَتْ إِلَيْهِ نُفُوسٌ كَبِيرَةٌ عِنْدَ اللَّهِ.

حَدَّثَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: قَدِمَ وَفْدٌ مِنَ النَّصَارَى عَلَى رَسُولِ

---

(١) ضاق به ذرعًا: لم يستطع الصبر عليه.

(٢) سورة المجادلة: آية ٢٢.

اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : يَا أَبَا الْقَاسِمِ ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ تَرْضَاهُ لَنَا لِيَحْكُمَ بَيْنَنَا فِي أَشْيَاءَ مِنْ أَمْوَالِنَا اخْتَلَفْنَا فِيهَا ، فَإِنَّكُمْ عِنْدَنَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَرْضِيُّونَ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (ائْتُونِي الْعَشِيَّةَ أَبْعَثْ مَعَكُمُ الْقَوِيَّ الْأَمِينَ) .

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ :

فَرُحْتُ إِلَىٰ صَلَاةِ الظُّهْرِ مُبَكِّرًا ، وَإِنِّي مَا أَحْبَبْتُ الْإِمَارَةَ حُبِّي إِيَّاهَا يَوْمَئِذٍ رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ صَاحِبَ هَٰذَا النَّعْتِ ...

فَلَمَّا صَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ ، جَعَلَ يَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ ، فَجَعَلْتُ أَتَطَاوَلُ لَهُ لِيَرَانِي ، فَلَمْ يَزَلْ يُقَلِّبُ بَصَرَهُ فِينَا حَتَّىٰ رَأَىٰ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ ، فَدَعَاهُ فَقَالَ :

(اخْرُجْ مَعَهُمْ فَاقْضِ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) ...

فَقُلْتُ : ذَهَبَ بِهَا أَبُو عُبَيْدَةَ .

* * *

وَلَمْ يَكُنْ أَبُو عُبَيْدَةَ أَمِينًا فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَجْمَعُ الْقُوَّةَ إِلَىٰ الْأَمَانَةِ ، وَقَدْ بَرَزَتْ هَٰذِهِ الْقُوَّةُ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْطِنٍ :

بَرَزَتْ يَوْمَ بَعَثَ الرَّسُولُ ﷺ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ لِيَتَلَقَّوْا عِيرًا(١) لِقُرَيْشٍ ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَعَنْهُ ، وَزَوَّدَهُمْ جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَهُمْ غَيْرَهُ ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِي الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِهِ كُلَّ يَوْمٍ تَمْرَةً ، فَيَمُصُّهَا الْوَاحِدُ مِنْهُمْ كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ ضَرْعَ أُمِّهِ ، ثُمَّ يَشْرَبُ عَلَيْهَا مَاءً ؛ فَكَانَتْ تَكْفِيهِ يَوْمَهُ إِلَىٰ اللَّيْلِ .

* * *

(١) عيرًا : قافلةً .

وَفِي يَوْمِ «أُحُدٍ» حِينَ هُزِمَ الْمُسْلِمُونَ وَطَفِقَ صَائِحُ الْمُشْرِكِينَ يُنَادِي:

دُلُّونِي عَلَىٰ مُحَمَّدٍ... دُلُّونِي عَلَىٰ مُحَمَّدٍ... كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَحَدَ النَّفَرِ[١] الْعَشَرَةَ الَّذِين أَحَاطُوا بِالرَّسُولِ ﷺ لِيَذُودُوا[٢] عَنْهُ بِصُدُورِهِمْ رِمَاحَ الْمُشْرِكِينَ.

فَلَمَّا انْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ قَدْ كُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ[٣] وَشُجَّ جَبِينُهُ، وَغَارَتْ فِي وَجْنَتِهِ حَلْقَتَانِ مِنْ حَلَقِ دِرْعِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الصِّدِّيقُ يُرِيدُ انْتِزَاعَهُمَا مِنْ وَجْنَتِهِ فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ:

أُقْسِمُ عَلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَ ذَٰلِكَ لِي، فَتَرَكَهُ، فَخَشِيَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِنِ اقْتَلَعَهُمَا بِيَدِهِ أَنْ يُؤْلِمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَعَضَّ عَلَىٰ أُولَاهُمَا بِثَنِيَّتِهِ[٤] عَضًّا قَوِيًّا مُحْكَمًا فَاسْتَخْرَجَهَا وَوَقَعَتْ ثَنِيَّتُهُ...

ثُمَّ عَضَّ عَلَىٰ الْأُخْرَىٰ بِثَنِيَّتِهِ الثَّانِيَةِ فَاقْتَلَعَهَا فَسَقَطَتْ ثَنِيَّتُهُ الثَّانِيَةُ...

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: «فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ هَتَمًا[٥]».

* * *

لَقَدْ شَهِدَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا مُنْذُ صَحِبَهُ إِلَىٰ أَنْ وَافَاهُ الْيَقِينُ[٦].

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ السَّقِيفَةِ[٧]، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي عُبَيْدَةَ:

ابْسُطْ يَدَكَ أُبَايِعْكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

(إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَنْتَ أَمِينُ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ).

---

(١) النّفر: الجماعة.

(٢) ليذودوا عنه: ليدفعوا عنه.

(٣) الرّباعية: السّن التي بين الثّنية والنّاب.

(٤) الثّنية: وجمعها ثنايا، وهي أسنان مقدم الفم.

(٥) الأهتم: من انكسرت ثنيتاه.

(٦) وافاه اليقين: جاءه الموت.

(٧) يوم السّقيفة: المراد به يوم بيعة أبي بكر رضي الله عنه، فقد تمت بيعته في سقيفة بني ساعدة.

فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ :

مَا كُنْتُ لِأَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ رَجُلٍ أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَؤُمَّنَا فِي الصَّلَاةِ فَأَمَّنَا حَتَّىٰ مَاتَ .

ثُمَّ بُويِعَ بَعْدَ ذَٰلِكَ لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ خَيْرَ نَصِيحٍ لَهُ فِي الْحَقِّ ، وَأَكْرَمَ مِعْوَانٍ لَهُ عَلَىٰ الْخَيْرِ .

ثُمَّ عَهِدَ أَبُو بَكْرٍ بِالْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ إِلَىٰ الْفَارُوقِ ، فَدَانَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ بِالطَّاعَةِ ، وَلَمْ يَعْصِهِ فِي أَمْرٍ ، إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً .

فَهَلْ تَدْرِي مَا الْأَمْرُ الَّذِي عَصَىٰ فِيهِ أَبُو عُبَيْدَةَ أَمْرَ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ ؟! .

لَقَدْ وَقَعَ ذَٰلِكَ حِينَ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي بِلَادِ الشَّامِ يَقُودُ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ نَصْرٍ إِلَىٰ نَصْرٍ حَتَّىٰ فَتَحَ اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ الدِّيَارَ الشَّامِيَّةَ كُلَّهَا ...

فَبَلَغَ الْفُرَاتَ شَرْقًا وَآسْيَا الصُّغْرَىٰ شَمَالًا .

عِنْدَ ذَٰلِكَ دَهَمَ بِلَادَ الشَّامِ طَاعُونٌ مَا عَرَفَ النَّاسُ مِثْلَهُ قَطُّ ؛ فَجَعَلَ يَحْصُدُ النَّاسَ حَصْدًا ...

فَمَا كَانَ مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَّا أَنْ وَجَّهَ رَسُولًا إِلَىٰ أَبِي عُبَيْدَةَ بِرِسَالَةٍ يَقُولُ فِيهَا :

إِنِّي بَدَتْ[1] لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ لَا غِنَىٰ لِي عَنْكَ فِيهَا ، فَإِنْ أَتَاكَ كِتَابِي لَيْلًا فَإِنِّي أَعْزِمُ عَلَيْكَ[2] أَلَّا تُصْبِحَ حَتَّىٰ تَرْكَبَ إِلَيَّ ، وَإِنْ أَتَاكَ نَهَارًا فَإِنِّي أَعْزِمُ عَلَيْكَ أَلَّا تُمْسِيَ حَتَّىٰ تَرْكَبَ إِلَيَّ .

---

(١) بَدَتْ : ظَهَرَتْ .

(٢) أعزم عليك : أطلب منك بإلحاح وقوة ، وأقسم عليك .

فَلَمَّا أَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ كِتَابَ الْفَارُوقِ قَالَ :

قَدْ عَلِمْتُ حَاجَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيَّ ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَبْقِيَ مَنْ لَيْسَ بِبَاقٍ ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ حَاجَتَكَ إِلَيَّ ، وَإِنِّي فِي جُنْدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَجِدُ بِنَفْسِي رَغْبَةً عَنِ الَّذِي يُصِيبُهُمْ(١) ...

وَلَا أُرِيدُ فِرَاقَهُمْ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللَّهُ فِيَّ وَفِيهِمْ أَمْرَهُ ...

فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَٰذَا فَحَلِّلْنِي مِنْ عَزْمِكَ ، وَائْذَنْ لِي بِالْبَقَاءِ .

فَلَمَّا قَرَأَ عُمَرُ الْكِتَابَ بَكَىٰ حَتَّىٰ فَاضَتْ عَيْنَاهُ ، فَقَالَ لَهُ مَنْ عِنْدَهُ ـ لِشِدَّةِ مَا رَأَوْهُ مِنْ بُكَائِهِ ـ :

أَمَاتَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ : لَا ، وَلَكِنَّ الْمَوْتَ مِنْهُ قَرِيبٌ .

وَلَمْ يَكْذِبْ ظَنُّ الْفَارُوقِ ، إِذْ مَا لَبِثَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنْ أُصِيبَ بِالطَّاعُونِ ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَوْصَىٰ جُنْدَهُ فَقَالَ :

إِنِّي مُوصِيكُمْ بِوَصِيَّةٍ إِنْ قَبِلْتُمُوهَا لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ :

أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَصُومُوا شَهْرَ رَمَضَانَ ، وَتَصَدَّقُوا ، وَحُجُّوا وَاعْتَمِرُوا ، وَتَوَاصَوْا ، وَانْصَحُوا لِأُمَرَائِكُمْ وَلَا تَغُشُّوهُمْ ...

وَلَا تُلْهِكُمُ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الْمَرْءَ لَوْ عُمِّرَ أَلْفَ حَوْلٍ مَا كَانَ لَهُ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَصِيرَ إِلَىٰ مَصْرَعِي هَٰذَا الَّذِي تَرَوْنَ ...

---

(١) لا أجد بنفسي رغبة عن الذي يصيبهم : أي لا أرغب في أن أحفظ نفسي مما يصيبهم .

إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَىٰ بَنِي آدَمَ فَهُمْ مَيِّتُونَ ، وَأَكْيَسُهُمْ[1] أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ ، وَأَعْمَلُهُمْ لِيَوْمِ مَعَادِهِ ...

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ[2] وَقَالَ : يَا مُعَاذُ ، صَلِّ[3] بِالنَّاسِ .

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ فَاضَتْ رُوحُهُ الطَّاهِرَةُ ، فَقَامَ مُعَاذٌ وَقَالَ :

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّكُمْ قَدْ فُجِعْتُمْ بِرَجُلٍ ـ وَاللَّهِ ـ مَا أَعْلَمُ أَنِّي رَأَيْتُ رَجُلًا أَبَرَّ صَدْرًا ، وَلَا أَبْعَدَ غَائِلَةً[4] وَلَا أَشَدَّ حُبًّا لِلْعَاقِبَةِ ، وَلَا أَنْصَحَ لِلْعَامَّةِ مِنْهُ ، فَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِ يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ (*) .

---

(١) أكيسهم : أحسنهم عقلًا وفهمًا للأمور.
(٢) معاذ بن جبل : انظره ص ٤٩٣.
(٣) صَلِّ بالنّاس : كن إمامًا لهم.
(٤) الغائلة : وجمعها الغوائل وهي الشّر والحقد الباطن.

(*) للاستزادة من أخبار أبي عُبَيْدَةَ بن الجَرّاحِ انظر :

١ – طبقات ابن سعد : « انظر الفهارس ».
٢ – الإصابة : ٢/٢٥٢ أو « الترجمة » ٤٤٠٠.
٣ – الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٣/ ٢.
٤ – حلية الأولياء : ١/ ١٠٠.
٥ – البدء والتّاريخ : ٥/ ٨٧.
٦ – ابن عساكر : ٧/ ١٥٧.
٧ – صفة الصّفوة : ١/ ١٤٢.
٨ – أشهر مشاهير الإسلام : ٥٠٤.
٩ – تاريخ الخميس : ٢/ ٢٤٤.
١٠– الرّياض النّضرة : ٣٠٧.

عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ مَسْعُودٍ

أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ

« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا نَزَلَ ،
فَلْيَقْرَأْهُ عَلَىٰ قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ »

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

كَانَ يَوْمَئِذٍ غُلَامًا يَافِعًا لَمْ يُجَاوِزِ الْحُلُمَ ، وَكَانَ يَسْرَحُ فِي شِعَابِ[1] مَكَّةَ بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ ، وَمَعَهُ غَنَمٌ يَرْعَاهَا لِسَيِّدٍ مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ هُوَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ[2].

كَانَ النَّاسُ يُنَادُونَهُ : « ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ » أَمَّا اسْمُهُ فَهُوَ عَبْدُ اللّٰهِ ، وَأَمَّا اسْمُ أَبِيهِ « فَمَسْعُودٌ » .

* * *

كَانَ الْغُلَامُ يَسْمَعُ بِأَخْبَارِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي ظَهَرَ فِي قَوْمِهِ فَلَا يَأْبَهُ[3] لَهَا لِصِغَرِ سِنِّهِ مِنْ جِهَةٍ ، وَلِبُعْدِهِ عَنِ الْمُجْتَمَعِ الْمَكِّيِّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ ، فَقَدْ دَأَبَ عَلَىٰ أَنْ يَخْرُجَ بِغَنَمِ عُقْبَةَ مُنْذُ الْبُكُورِ ثُمَّ لَا يَعُودُ بِهَا إِلَّا إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ أَبْصَرَ الْغُلَامُ الْمَكِّيُّ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ مَسْعُودٍ كَهْلَيْنِ عَلَيْهِمَا الْوَقَارُ يَتَّجِهَانِ نَحْوَهُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَقَدْ أَخَذَ الْجُهْدُ مِنْهُمَا كُلَّ مَأْخَذٍ[4]، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمَا الظَّمَأُ حَتَّىٰ جَفَّتْ مِنْهُمَا الشِّفَاهُ وَالْحُلُوقُ .

---

(١) شِعاب : جمع شِعْب وهو الطّريق في الجبل.
(٢) هو عقبة بن أبان بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس من كبار قُرَيْش في الجاهلية كنيته أبو الوليد وكنية أبيه أبو معيط وبها اشتهر ، كان شديد الأذىٰ للرّسول ﷺ والمسلمين قُتِل بعد بَدْر .
(٣) لا يأبه لها : لا يهتم بها .
(٤) أخذ الجهد منهما كلّ مأخذ : أصابهما التعب الشّديد .

فَلَمَّا وَقَفَا عَلَيْهِ، سَلَّمَا وَقَالَا :

يَا غُلَامُ، احْلِبْ لَنَا مِنْ هَٰذِهِ الشِّيَاهِ مَا نُطْفِئُ بِهِ ظَمَأَنَا، وَنَبُلُّ عُرُوقَنَا.

فَقَالَ الْغُلَامُ : لَا أَفْعَلُ ؛ فَالْغَنَمُ لَيْسَتْ لِي، وَأَنَا عَلَيْهَا مُؤْتَمَنٌ...

فَلَمْ يُنْكِرِ الرَّجُلَانِ قَوْلَهُ، وَبَدَا عَلَىٰ وَجْهَيْهِمَا الرِّضَا عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ أَحَدُهُمَا :

دُلَّنِي عَلَىٰ شَاةٍ لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا فَحْلٌ[1]، فَأَشَارَ الْغُلَامُ إِلَىٰ شَاةٍ صَغِيرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ، فَتَقَدَّمَ مِنْهَا الرَّجُلُ وَاعْتَقَلَهَا، وَجَعَلَ يَمْسَحُ ضَرْعَهَا[2] بِيَدِهِ وَهُوَ يَذْكُرُ عَلَيْهَا اسْمَ اللَّهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْغُلَامُ فِي دَهْشَةٍ ؛ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

وَمَتَىٰ كَانَتِ الشِّيَاهُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي لَمْ تَنْزُ عَلَيْهَا الْفُحُولُ تُدِرُّ لَبَنًا ؟! .

لَكِنَّ ضَرْعَ الشَّاةِ مَا لَبِثَ أَنِ انْتَفَخَ، وَطَفِقَ اللَّبَنُ يَنْبَثِقُ مِنْهُ ثَرًّا[3] غَزِيرًا.

فَأَخَذَ الرَّجُلُ الْآخَرُ حَجَرًا مُجَوَّفًا مِنَ الْأَرْضِ، وَمَلَأَهُ بِاللَّبَنِ، وَشَرِبَ مِنْهُ هُوَ وَصَاحِبُهُ، ثُمَّ سَقَيَانِي مَعَهُمَا، وَأَنَا لَا أَكَادُ أُصَدِّقُ مَا أَرَىٰ...

فَلَمَّا ارْتَوَيْنَا، قَالَ الرَّجُلُ الْمُبَارَكُ لِضَرْعِ الشَّاةِ :

انْقَبِضْ... فَمَا زَالَ يَنْقَبِضُ حَتَّىٰ عَادَ إِلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ.

عِنْدَ ذَٰلِكَ قُلْتُ لِلرَّجُلِ الْمُبَارَكِ :

عَلِّمْنِي مِنْ هَٰذَا الْقَوْلِ الَّذِي قُلْتَهُ.

فَقَالَ لِي : إِنَّكَ غُلَامٌ مُعَلَّمٌ.

* * *

(١) الفحل : الذَّكر، والمراد به هنا ذكر الغنم.

(٢) ضرعها : ثديها.

(٣) ثرًّا : كثيرًا وفيرًا.

كَانَتْ هَـٰذِهِ بِدَايَةَ قِصَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مَعَ الْإِسْلَامِ ...

إِذْ لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ الْمُبَارَكُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ إِلَّا الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَقَدْ نَفَرَا[١] فِي ذَٰلِكَ الْيَوْمِ إِلَىٰ شِعَابِ مَكَّةَ، لِفَرْطِ مَا أَرْهَقَتْهُمَا[٢] قُرَيْشٌ، وَلِشِدَّةِ مَا أَنْزَلَتْ بِهِمَا مِنْ بَلَاءٍ.

* * *

وَكَمَا أَحَبَّ الْغُلَامُ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ﷺ وَصَاحِبَهُ، وَتَعَلَّقَ بِهِمَا، فَقَدْ أُعْجِبَ الرَّسُولُ ﷺ وَصَاحِبُهُ بِالْغُلَامِ وَأَكْبَرَا أَمَانَتَهُ وَحَزْمَهُ؛ وَتَوَسَّمَا[٣] فِيهِ الْخَيْرَ.

* * *

لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ حَتَّىٰ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَخْدِمَهُ؛ فَوَضَعَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي خِدْمَتِهِ.

وَمُنْذُ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ انْتَقَلَ الْغُلَامُ الْمَحْظُوظُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ مِنْ رِعَايَةِ الْغَنَمِ إِلَىٰ خِدْمَةِ سَيِّدِ الْخَلْقِ وَالْأُمَمِ.

* * *

لَزِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مُلَازَمَةَ الظِّلِّ لِصَاحِبِهِ، فَكَانَ يُرَافِقُهُ فِي حِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ، وَيُصَاحِبُهُ دَاخِلَ بَيْتِهِ وَخَارِجَهُ ...

إِذْ كَانَ يُوقِظُهُ إِذَا نَامَ، وَيَسْتُرُهُ إِذَا اغْتَسَلَ، وَيُلْبِسُهُ نَعْلَيْهِ إِذَا أَرَادَ الْخُرُوجَ، وَيَخْلَعُهُمَا مِنْ قَدَمَيْهِ إِذَا هَمَّ بِالدُّخُولِ، وَيَحْمِلُ لَهُ عَصَاهُ وَسِوَاكَهُ، وَيَلِجُ الْحُجْرَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ حُجْرَتِهِ ...

---

(١) نفرا: خرجا.

(٢) أرهقتهما: آذتهما وأتعبتهما.

(٣) توسما فيه الخير: تفرسا فيه الخير وترقباه منه.

بَلْ إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَذِنَ لَهُ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ مَتَىٰ شَاءَ، وَالْوُقُوفِ عَلَىٰ سِرِّهِ مِنْ غَيْرِ تَحَرُّجٍ وَلَا تَأَثُّمٍ، حَتَّىٰ دُعِيَ «بِصَاحِبِ سِرِّ» رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

* * *

رُبِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاهْتَدَىٰ بِهَدْيِهِ، وَتَخَلَّقَ بِشَمَائِلِهِ[1]، وَتَابَعَهُ فِي كُلِّ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِهِ، حَتَّىٰ قِيلَ عَنْهُ:

إِنَّهُ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَدْيًا وَسَمْتًا[2].

* * *

وَتَعَلَّمَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي مَدْرَسَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكَانَ مِنْ أَقْرَإِ الصَّحَابَةِ لِلْقُرْآنِ، وَأَفْقَهِهِمْ لِمَعَانِيهِ، وَأَعْلَمِهِمْ بِشَرْعِ اللَّهِ.

وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ حِكَايَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي أَقْبَلَ عَلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَهُوَ وَاقِفٌ «بِعَرَفَةَ»، فَقَالَ لَهُ:

جِئْتُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - مِنَ «الْكُوفَةِ» وَتَرَكْتُ بِهَا رَجُلًا يُمْلِي الْمَصَاحِفَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ؛ فَغَضِبَ عُمَرُ غَضَبًا قَلَّمَا غَضِبَ مِثْلَهُ، وَانْتَفَخَ حَتَّىٰ كَادَ يَمْلَأُ مَا بَيْنَ شُعْبَتَيِ[3] الرَّحْلِ وَقَالَ:

مَنْ هُوَ وَيْحَكَ[4]؟! ...

قَالَ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ.

فَمَا زَالَ يَنْطَفِئُ وَيُسَرَّىٰ عَنْهُ حَتَّىٰ عَادَ إِلَىٰ حَالِهِ، ثُمَّ قَالَ:

(١) تخلق بشمائله: تخلق بأخلاقه واتصف بصفاته.
(٢) السّمت: الهيئة والخلق.
(٣) شعبتا الرحل: مقدمته ومؤخرته.
(٤) ويحك: ويلك.

وَيْحَكَ ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَنَّهُ بَقِيَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْهُ ، وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ ذَلِكَ .

وَاسْتَأْنَفَ عُمَرُ كَلَامَهُ فَقَالَ :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْمَرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ ، وَيَتَفَاوَضَانِ[1] فِي أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكُنْتُ مَعَهُمَا ، ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَرَجْنَا مَعَهُ ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي بِالْمَسْجِدِ لَمْ نَتَبَيَّنْهُ[2]... فَوَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا وَقَالَ :

(مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا نَزَلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ) ...

ثُمَّ جَلَسَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ يَدْعُو فَجَعَلَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ لَهُ :

(سَلْ تُعْطَهْ ... سَلْ تُعْطَهْ) ...

ثُمَّ أَتْبَعَ عُمَرُ يَقُولُ :

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : وَاللَّهِ لَأَغْدُوَنَّ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَلَأُبَشِّرَنَّهُ بِتَأْمِينِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى دُعَائِهِ ، فَغَدَوْتُ عَلَيْهِ فَبَشَّرْتُهُ ، فَوَجَدْتُ أَبَا بَكْرٍ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ ؛ فَبَشَّرَهُ ...

وَلَا وَاللَّهِ مَا سَابَقْتُ أَبَا بَكْرٍ إِلَى خَيْرٍ قَطُّ إِلَّا سَبَقَنِي إِلَيْهِ .

* * *

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ عِلْمِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ بِكِتَابِ اللَّهِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ :

وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، مَا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ

(١) يتفاوضان : يتذاكران ويتحدثان .

(٢) لم نتبينه : لم نعرفه .

وَأَعْلَمُ فِيمَا نَزَلَتْ ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تَنَالُهُ الْمَطِيُّ[1] لَأَتَيْتُهُ .

* * *

لَمْ يَكُنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ مُبَالِغًا فِيمَا قَالَهُ عَنْ نَفْسِهِ ، فَهَٰذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَلْقَىٰ رَكْبًا[2] فِي سَفَرٍ مِنْ أَسْفَارِهِ ، وَاللَّيْلُ مُخَيِّمٌ يَحْجُبُ الرَّكْبَ بِظَلَامِهِ .

وَكَانَ فِي الرَّكْبِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، فَأَمَرَ عُمَرُ رَجُلًا أَنْ يُنَادِيَهُمْ :

مِنْ أَيْنَ الْقَوْمُ ؟ ... فَأَجَابَهُ عَبْدُ اللَّهِ : مِنَ الْفَجِّ الْعَمِيقِ[3].

فَقَالَ عُمَرُ : أَيْنَ تُرِيدُونَ ؟ .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : الْبَيْتَ الْعَتِيقَ .

فَقَالَ عُمَرُ : إِنَّ فِيهِمْ عَالِمًا ... وَأَمَرَ رَجُلًا فَنَادَاهُمْ :

أَيُّ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ ؟ .

فَأَجَابَهُ عَبْدُ اللَّهِ :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[4].

قَالَ : نَادِهِمْ أَيُّ الْقُرْآنِ أَحْكَمُ ؟ .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾[5].

فَقَالَ عُمَرُ : نَادِهِمْ أَيُّ الْقُرْآنِ أَجْمَعُ ؟ .

---

(١) تناله المطي : أي يمكن الوصول إليه .
(٢) رَكبًا : قافلة .
(٣) الفَجّ العَميق : الوادي العميق .
(٤) سورة البقرة : آية ٢٥٥ .
(٥) سورة النحل : آية ٩٠ .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾(١).

فَقَالَ عُمَرُ : نَادِهِمْ أَيُّ الْقُرْآنِ أَخْوَفُ(٢)؟ .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾(٣).

فَقَالَ عُمَرُ : نَادِهِمْ أَيُّ الْقُرْآنِ أَرْجَى(٤)؟ .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(٥).

فَقَالَ عُمَرُ : نَادِهِمْ ، أَفِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ؟! .

قَالُوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ .

* * *

وَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ قَارِئًا عَالِمًا عَابِدًا زَاهِدًا فَحَسْبُ ؛ وَإِنَّمَا كَانَ ـ مَعَ ذَلِكَ ـ قَوِيًّا حَازِمًا مُجَاهِدًا مِقْدَامًا إِذَا جَدَّ الْجِدُّ .

فَحَسْبُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مُسْلِمٍ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

فَقَدِ اجْتَمَعَ يَوْمًا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَكَّةَ ، ـ وَكَانُوا قِلَّةً مُسْتَضْعَفِينَ ـ فَقَالُوا :

---

(١) سورة الزلزلة : ٧ ـ ٨.
(٢) أَخْوَفُ : يعني ما الآية التي تبعث الخوف من الله في قلب المؤمن.
(٣) سورة النساء : آية ١٢٣.
(٤) أَرْجَىٰ : يعني ما الآية التي تبعث في القلوب الرجاء في الرحمة والمغفرة.
(٥) سورة الزمر : آية ٥٣.

وَاللَّهِ مَا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ هَٰذَا الْقُرْآنَ يُجْهَرُ لَهَا بِهِ قَطُّ ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمْ إِيَّاهُ ؟! .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : أَنَا أُسْمِعُهُمْ إِيَّاهُ .

فَقَالُوا : إِنَّا نَخْشَاهُمْ عَلَيْكَ ، إِنَّمَا نُرِيدُ رَجُلًا لَهُ عَشِيرَةٌ ، تَحْمِيهِ وَتَمْنَعُهُ مِنْهُمْ إِذَا أَرَادُوهُ بِشَرٍّ .

فَقَالَ : دَعُونِي فَإِنَّ اللَّهَ سَيَمْنَعُنِي وَيَحْمِينِي ...

ثُمَّ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ حَتَّىٰ أَتَىٰ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ فِي الضُّحَىٰ ، وَقُرَيْشٌ جُلُوسٌ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، فَوَقَفَ عِنْدَ الْمَقَامِ وَقَرَأَ :

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ـ رَافِعًا بِهَا صَوْتَهُ ـ **الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾**(١)...

وَمَضَىٰ يَقْرَؤُهَا ، فَتَأَمَّلَتْهُ قُرَيْشٌ وَقَالَتْ : مَاذَا قَالَ ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ ؟! ...

تَبًّا لَهُ(٢)... إِنَّهُ يَتْلُو بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ...

وَقَامُوا إِلَيْهِ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ وَجْهَهُ وَهُوَ يَقْرَأُ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَ ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ وَالدَّمُ يَسِيلُ مِنْهُ ، فَقَالُوا لَهُ :

هَٰذَا الَّذِي خَشِينَا عَلَيْكَ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا كَانَ أَعْدَاءُ اللَّهِ أَهْوَنَ فِي عَيْنِي مِنْهُمُ الْآنَ ، وَإِنْ شِئْتُمْ لَأُغَادِيَنَّهُمْ(٣) بِمِثْلِهَا غَدًا ، قَالُوا :

---

(١) سورة الرحمن : آية ١ ـ ٤.

(٢) تبًا له : هلاكًا له.

(٣) لأغادينهم : لأخرجنّ لهم في صباح اليوم التالي.

لَا ، حَسْبُكَ[1] لَقَدْ أَسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ .

* * *

عَاشَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ إِلَىٰ زَمَنِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَ الْمَوْتِ جَاءَهُ عُثْمَانُ عَائِدًا ، فَقَالَ لَهُ :

مَا تَشْتَكِي ؟ .

قَالَ : ذُنُوبِي .

قَالَ : فَمَا تَشْتَهِي ؟ .

قَالَ : رَحْمَةَ رَبِّي .

قَالَ : أَلَا آمُرُ لَكَ بِعَطَائِكَ الَّذِي امْتَنَعْتَ عَنْ أَخْذِهِ مُنْذُ سِنِينَ ؟! .

قَالَ : لَا حَاجَةَ لِي بِهِ .

قَالَ : يَكُونُ لِبَنَاتِكَ مِنْ بَعْدِكَ .

قَالَ : أَتَخْشَىٰ عَلَىٰ بَنَاتِي الْفَقْرَ ؟ .

إِنِّي أَمَرْتُهُنَّ أَنْ يَقْرَأْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ ...

وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

(مَنْ قَرَأَ الْوَاقِعَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ[3] أَبَدًا) .

* * *

وَلَمَّا أَقْبَلَ اللَّيْلُ ؛ لَحِقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ ، وَلِسَانُهُ رَطْبٌ بِذِكْرِ اللَّهِ ، نَدِيٌّ بِآيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ .

---

(١) حسبك : يكفيك .

(٢) عُثْمَان بْن عَفَّان : انظره في ص ٥٣٥.

(٣) الفاقة : الفقر والحاجة .

فَصَلَّى عَلَيْهِ جُمُوعٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فِيهِمُ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ...
ثُمَّ دُفِنَ فِي الْبَقِيعِ ، يَرْحَمُهُ اللَّهُ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ انظر :
١ - الإصابة : ٢/٣٦٨ أو «الترجمة» ٤٩٥٤.
٢ - الاستيعاب «بهامش الإصابة» : ٢/٣١٦.
٣ - تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/١٠٠ - ١٠٤.
٤ - تذكرة الحفاظ : ١/١٢ - ١٥.
٥ - البداية والنهاية : ٧/١٦٢ - ١٦٣.
٦ - طبقات الشعراني : ٢٩ - ٣٠.
٧ - شذرات الذهب : ١/٣٨ - ٣٩.
٨ - أسد الغابة : ٣/٣٨٤ - ٣٩٠.
٩ - سير أعلام النبلاء : ١/٤٦١ - ٥٠٠.
١٠- صفة الصفوة : ١/١٥٤ - ١٦٦.
١١- مسند الإمام أحمد : ٥/ ٢١٠.
١٢- دلائل النبوة : ٢٧٣.

سَلْمَانُ الفَارِسِيّ

« لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ »

[قَالَهَا الرَّسُولُ ﷺ وَكَانَ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَىٰ سَلْمَانَ]

قِصَّتُنَا هَـٰذِهِ هِيَ قِصَّةُ السَّاعِي وَرَاءَ الْحَقِيقَةِ ، الْبَاحِثِ عَنِ اللَّهِ ...

قِصَّةُ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

فَلْنَتْرُكْ لِسَلْمَانَ نَفْسِهِ الْمَجَالَ لِيَرْوِيَ لَنَا أَحْدَاثَ قِصَّتِهِ ...

فَشُعُورُهُ بِهَا أَعْمَقُ ، وَرِوَايَتُهُ لَهَا أَدَقُّ وَأَصْدَقُ ...

قَالَ سَلْمَانُ :

كُنْتُ فَتًى فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ « أَصْبَهَانَ »[١]، مِنْ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا : « جَيَّانَ » .

وَكَانَ أَبِي « دُهْقَانَ »[٢] الْقَرْيَةِ ، وَأَغْنَىٰ أَهْلِهَا غِنًى ، وَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً .

وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ مُنْذُ وُلِدْتُ ، ثُمَّ مَا زَالَ حُبُّهُ لِي يَشْتَدُّ وَيَزْدَادُ عَلَىٰ الْأَيَّامِ حَتَّىٰ حَبَسَنِي فِي الْبَيْتِ خَشْيَةً عَلَيَّ ؛ كَمَا تُحْبَسُ الْفَتَيَاتُ .

وَقَدِ اجْتَهَدْتُ فِي « الْمَجُوسِيَّةِ »[٣]، حَتَّىٰ غَدَوْتُ قَيِّمَ النَّارِ الَّتِي كُنَّا نَعْبُدُهَا ، وَأُنِيطَ[٤] بِي أَمْرُ إِضْرَامِهَا حَتَّىٰ لَا تَخْبُوَ سَاعَةً فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ...

وَكَانَ لِأَبِي ضَيْعَةٌ عَظِيمَةٌ تَدِرُّ عَلَيْنَا غَلَّةً كَبِيرَةً ، وَكَانَ أَبِي يَقُومُ[٥] عَلَيْهَا ، وَيَجْنِي غَلَّتَهَا .

---

(١) أصبهان أو أصفهان : مدينة بوسط إيران ، بين طهران وشيراز .

(٢) دهقان القرية : رئيسها .

(٣) المجوسيّة : دِينٌ يعبدُ أصحابُه النّارَ أو الشّمس .

(٤) أنيط بي : أُوكل إليّ.

(٥) يقوم عليها : يُشرفُ عليها ويُعْنَىٰ بها .

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ شَغَلَهُ عَنِ الذَّهَابِ إِلَىٰ الْقَرْيَةِ شَاغِلٌ ، فَقَالَ :

يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ عَنِ الضَّيْعَةِ بِمَا تَرَىٰ ، فَاذْهَبْ إِلَيْهَا وَتَوَلَّ الْيَوْمَ عَنِّي شَأْنَهَا ، فَخَرَجْتُ أَقْصِدُ ضَيْعَتَنَا ، وَفِيمَا أَنَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ مَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَىٰ ؛ فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ فَلَفَتَ ذَلِكَ انْتِبَاهِي .

* * *

لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ النَّصَارَىٰ أَوْ أَمْرِ غَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ الْأَدْيَانِ لِطُولِ مَا حَجَبَنِي أَبِي عَنِ النَّاسِ فِي بَيْتِنَا ، فَلَمَّا سَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ لِأَنْظُرَ مَا يَصْنَعُونَ .

فَلَمَّا تَأَمَّلْتُهُمْ أَعْجَبَتْنِي صَلَاتُهُمْ ، وَرَغِبْتُ فِي دِينِهِمْ وَقُلْتُ :

وَاللَّهِ هَٰذَا خَيْرٌ مِنَ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُهُمْ حَتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، وَلَمْ أَذْهَبْ إِلَىٰ ضَيْعَةِ أَبِي ، ثُمَّ إِنِّي سَأَلْتُهُمْ :

أَيْنَ أَصْلُ هَٰذَا الدِّينِ ؟ .

قَالُوا : فِي بِلَادِ الشَّامِ .

وَلَمَّا أَقْبَلَ اللَّيْلُ عُدْتُ إِلَىٰ بَيْتِنَا فَتَلَقَّانِي أَبِي يَسْأَلُنِي عَمَّا صَنَعْتُ ، فَقُلْتُ :

يَا أَبَتِ إِنِّي مَرَرْتُ بِأُنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي كَنِيسَةٍ لَهُمْ فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ ، وَمَا زِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ ...

فَذُعِرَ أَبِي مِمَّا صَنَعْتُ وَقَالَ : أَيْ بُنَيَّ لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ ... دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ .

قُلْتُ : كَلَّا ـ وَاللَّهِ ـ إِنَّ دِينَهُمْ لَخَيْرٌ مِنْ دِينِنَا ، فَخَافَ أَبِي مِمَّا أَقُولُ ، وَخَشِيَ أَنْ أَرْتَدَّ عَنْ دِينِي ، وَحَبَسَنِي بِالْبَيْتِ ، وَوَضَعَ قَيْدًا فِي رِجْلَيَّ .

* * *

وَلَمَّا أُتِيحَتْ لِيَ الْفُرْصَةُ بَعَثْتُ إِلَى النَّصَارَىٰ أَقُولُ لَهُمْ :

إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ يُرِيدُ الذَّهَابَ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ فَأَعْلِمُونِي .

فَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ قَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مُتَّجِهٌ إِلَىٰ الشَّامِ ، فَأَخْبَرُونِي بِهِ فَاحْتَلْتُ عَلَىٰ قَيْدِي حَتَّىٰ حَلَلْتُهُ ، وَخَرَجْتُ مَعَهُمْ مُتَخَفِّيًا حَتَّىٰ بَلَغْنَا بِلَادَ الشَّامِ . . .

فَلَمَّا نَزَلْنَا فِيهَا ، قُلْتُ : مَنْ أَفْضَلُ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ هَٰذَا الدِّينِ ؟ .

قَالُوا : الْأُسْقُفُ[١] رَاعِي الْكَنِيسَةِ ، فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ :

إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي النَّصْرَانِيَّةِ ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَلْزَمَكَ وَأَخْدِمَكَ وَأَتَعَلَّمَ مِنْكَ وَأُصَلِّيَ مَعَكَ .

فَقَالَ : ادْخُلْ ، فَدَخَلْتُ عِنْدَهُ وَجَعَلْتُ أَخْدِمُهُ .

ثُمَّ مَا لَبِثْتُ أَنْ عَرَفْتُ أَنَّ الرَّجُلَ رَجُلُ سُوءٍ ؛ فَقَدْ كَانَ يَأْمُرُ أَتْبَاعَهُ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ بِثَوَابِهَا ، فَإِذَا أَعْطَوْهُ مِنْهَا شَيْئًا لِيُنْفِقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ مِنْهُ شَيْئًا ؛ حَتَّىٰ جَمَعَ سَبْعَ قِلَالٍ[٢] مِنَ الذَّهَبِ .

فَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ مِنْهُ ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ مَاتَ فَاجْتَمَعَتِ النَّصَارَىٰ لِدَفْنِهِ ، فَقُلْتُ لَهُمْ :

إِنَّ صَاحِبَكُمْ كَانَ رَجُلَ سُوءٍ يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُكُمْ فِيهَا ، فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا .

قَالُوا : مِنْ أَيْنَ عَرَفْتَ ذَٰلِكَ ؟! .

---

(١) الأُسقف : مرتبة من مراتب رجال الدِّين عند النَّصارىٰ فوق القسيس ودون المطران .
(٢) القلال : جمع قلة وهي الجرة العظيمة .

قُلْتُ : أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ كَنْزِهِ .

قَالُوا : نَعَمْ دُلَّنَا عَلَيْهِ ، فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةً ذَهَبًا وَفِضَّةً ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا :

وَاللَّهِ لَا نَدْفِنُهُ ، ثُمَّ صَلَبُوهُ وَرَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ .

ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ حَتَّىٰ نَصَّبُوا رَجُلًا آخَرَ مَكَانَهُ ، فَلَزِمْتُهُ ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَزْهَدَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا أَرْغَبَ مِنْهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَا أَدْأَبَ مِنْهُ عَلَىٰ الْعِبَادَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا جَمًّا[1]، وَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَانًا ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ :

يَا فُلَانُ إِلَىٰ مَنْ تُوصِي بِي ، وَمَعَ مَنْ تَنْصَحُنِي أَنْ أَكُونَ مِنْ بَعْدِكَ ؟ .

فَقَالَ : أَيْ بُنَيَّ ، لَا أَعْلَمُ أَحَدًا عَلَىٰ مَا كُنْتُ عَلَيْهِ إِلَّا رَجُلًا « بِالْمَوْصِلِ »[2] هُوَ فُلَانٌ لَمْ يُحَرِّفْ وَلَمْ يُبَدِّلْ فَالْحَقْ بِهِ .

فَلَمَّا مَاتَ صَاحِبِي لَحِقْتُ بِالرَّجُلِ فِي « الْمَوْصِلِ » ، فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَيْهِ قَصَصْتُ عَلَيْهِ خَبَرِي وَقُلْتُ لَهُ :

إِنَّ فُلَانًا أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ مُسْتَمْسِكٌ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ، فَقَالَ :

أَقِمْ عِنْدِي ... فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ فَوَجَدْتُهُ عَلَىٰ خَيْرِ حَالٍ .

ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ :

يَا فُلَانُ لَقَدْ جَاءَكَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا تَرَىٰ وَأَنْتَ تَعْلَمُ مِنْ أَمْرِي مَا تَعْلَمُ ، فَإِلَىٰ مَنْ تُوصِي بِي ؟ ... وَمَنْ تَأْمُرُنِي بِاللَّحَاقِ بِهِ ؟ .

---

(١) حُبًّا جَمًّا : حُبًّا كَثِيرًا .

(٢) الموصل : مدينة قديمة علىٰ نهر دجلة بالعراق .

فَقَالَ : أَيْ بُنَيَّ ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَنَّ رَجُلًا عَلَىٰ مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ إِلَّا رَجُلًا « بِنَصِيبِينَ »[١] وَهُوَ فُلَانٌ فَالْحَقْ بِهِ .

فَلَمَّا غُيِّبَ الرَّجُلُ فِي لَحْدِهِ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ « نَصِيبِينَ » وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي وَمَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبِي ، فَقَالَ لِي :

أَقِمْ عِنْدَنَا ... فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ فَوَجَدْتُهُ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ صَاحِبَاهُ مِنَ الْخَيْرِ ، فَوَاللَّهِ مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ :

لَقَدْ عَرَفْتَ مِنْ أَمْرِي مَا عَرَفْتَ ؛ فَإِلَىٰ مَنْ تُوصِي بِي ؟ .

فَقَالَ : أَيْ بُنَيَّ ، وَاللَّهِ إِنِّي مَا أَعْلَمُ أَحَدًا بَقِيَ عَلَىٰ أَمْرِنَا إِلَّا رَجُلًا « بِعَمُّورِيَّةَ »[٢] هُوَ فُلَانٌ ، فَالْحَقْ بِهِ ، فَلَحِقْتُ بِهِ وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي ، فَقَالَ :

أَقِمْ عِنْدِي ... فَأَقَمْتُ عِنْدَ رَجُلٍ كَانَ ـ وَاللَّهِ ـ عَلَىٰ هَدْيِ أَصْحَابِهِ ، وَقَدِ اكْتَسَبْتُ وَأَنَا عِنْدَهُ بَقَرَاتٍ وَغُنَيْمَةً .

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ مَا نَزَلَ بِأَصْحَابِهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ :

إِنَّكَ تَعْلَمُ مِنْ أَمْرِي مَا تَعْلَمُ ؛ فَإِلَىٰ مَنْ تُوصِي بِي ؟ ... وَمَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَفْعَلَ ؟ .

فَقَالَ : يَا بُنَيَّ ـ وَاللَّهِ ـ مَا أَعْلَمُ أَنَّ هُنَاكَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَقِيَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ مُسْتَمْسِكًا بِمَا كُنَّا عَلَيْهِ ...

وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظَلَّ[٣] زَمَانٌ يَخْرُجُ فِيهِ بِأَرْضِ الْعَرَبِ نَبِيٌّ يُبْعَثُ بِدِينِ

---

(١) نصيبين : مدينة علىٰ طريق القوافل من الموصل إلىٰ الشام ، وتبعد عن الموصل ستة أيام .
(٢) عمورية : انظر وقعة عمورية في كتاب « حدث في رمضان » للمؤلف .
(٣) أظلّ : أي دنا وقرب .

إِبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ يُهَاجِرُ مِنْ أَرْضِهِ إِلَىٰ أَرْضٍ ذَاتِ نَخْلٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ[1]، وَلَهُ عَلَامَاتٌ لَا تَخْفَىٰ ...

فَهُوَ يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ ...

وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ فَافْعَلْ .

ثُمَّ وَافَاهُ الْأَجَلُ ؛ فَمَكَثْتُ بَعْدَهُ « بِعَمُّورِيَّةَ » زَمَنًا إِلَىٰ أَنْ مَرَّ بِهَا نَفَرٌ مِنْ تُجَّارِ الْعَرَبِ مِنْ قَبِيلَةِ « كَلْبٍ » .

فَقُلْتُ لَهُمْ : إِنْ حَمَلْتُمُونِي مَعَكُمْ إِلَىٰ أَرْضِ الْعَرَبِ أَعْطَيْتُكُمْ بَقَرَاتِي هَٰذِهِ وَغُنَيْمَتِي ، فَقَالُوا :

نَعَمْ نَحْمِلُكَ ، فَأَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا وَحَمَلُونِي مَعَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغْنَا « وَادِي الْقُرَىٰ »[2] غَدَرُوا بِي وَبَاعُونِي لِرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ ، فَالْتَحَقْتُ بِخِدْمَتِهِ ...

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ زَارَهُ ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنْ بَنِي « قُرَيْظَةَ » فَاشْتَرَانِي مِنْهُ ، وَنَقَلَنِي مَعَهُ إِلَىٰ « يَثْرِبَ » فَرَأَيْتُ النَّخْلَ الَّذِي ذَكَرَهُ لِي صَاحِبِي « بِعَمُّورِيَّةَ » ، وَعَرَفْتُ الْمَدِينَةَ بِالْوَصْفِ الَّذِي نَعَتَهَا بِهِ ، فَأَقَمْتُ بِهَا مَعَهُ .

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَئِذٍ يَدْعُو قَوْمَهُ فِي مَكَّةَ ، لَكِنَّنِي لَمْ أَسْمَعْ لَهُ بِذِكْرٍ لِانْشِغَالِي بِمَا يُوجِبُهُ عَلَيَّ الرِّقُّ .

* * *

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ هَاجَرَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَىٰ « يَثْرِبَ » ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ نَخْلَةٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهَا بَعْضَ الْعَمَلِ ، وَسَيِّدِي جَالِسٌ تَحْتَهَا إِذْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمٍّ لَهُ وَقَالَ لَهُ :

(١) الحرة : أرض ذات حجارة سود نخرة .
(٢) وادي القرىٰ : واد بين المدينة والشام ، وهو أقرب إلىٰ المدينة .

قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي « قَيْلَةَ »[1]، وَاللَّهِ إِنَّهُمُ الْآنَ لَمُجْتَمِعُونَ « بِقُبَاءَ »[2]، عَلَىٰ رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمُ الْيَوْمَ مِنْ مَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ .

فَمَا إِنْ سَمِعْتُ مَقَالَتَهُ حَتَّىٰ مَسَّنِي مَا يُشْبِهُ الْحُمَّىٰ ، وَاضْطَرَبْتُ اضْطِرَابًا شَدِيدًا حَتَّىٰ خَشِيتُ أَنْ أَسْقُطَ عَلَىٰ سَيِّدِي ، وَبَادَرْتُ إِلَىٰ النُّزُولِ عَنِ النَّخْلَةِ ، وَجَعَلْتُ أَقُولُ لِلرَّجُلِ :

مَاذَا تَقُولُ ؟! أَعِدْ عَلَيَّ الْخَبَرَ ... فَغَضِبَ سَيِّدِي وَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً ، وَقَالَ لِي :

مَا لَكَ وَلِهَٰذَا ؟! عُدْ إِلَىٰ مَا كُنْتَ فِيهِ مِنْ عَمَلِكَ .

* * *

وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ أَخَذْتُ شَيْئًا مِنْ تَمْرٍ كُنْتُ جَمَعْتُهُ ، وَتَوَجَّهْتُ بِهِ إِلَىٰ حَيْثُ يَنْزِلُ الرَّسُولُ ﷺ ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ لَهُ :

إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ ، وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُو حَاجَةٍ ، وَهَٰذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ ، ثُمَّ قَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(كُلُوا) ... وَأَمْسَكَ يَدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : هَٰذِهِ وَاحِدَةٌ .

ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَأَخَذْتُ أَجْمَعُ بَعْضَ التَّمْرِ ، فَلَمَّا تَحَوَّلَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ « قُبَاءَ » إِلَىٰ الْمَدِينَةِ جِئْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ :

إِنِّي رَأَيْتُكَ لَا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَهَٰذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا ... فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ .

---

(١) بنو قيلة : الأوس والخزرج .

(٢) قباء : اسم بئر قرب المدينة .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : هَذِهِ الثَّانِيَةُ ...

ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ « بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ »[1] حَيْثُ كَانَ يُوَارِي أَحَدَ أَصْحَابِهِ ، فَرَأَيْتُهُ جَالِسًا وَعَلَيْهِ شَمْلَتَانِ[2]، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلَىٰ ظَهْرِهِ لَعَلِّي أَرَىٰ الْخَاتِمَ الَّذِي وَصَفَهُ لِي صَاحِبِي فِي « عَمُّورِيَّةَ » .

فَلَمَّا رَآنِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْظُرُ إِلَىٰ ظَهْرِهِ عَرَفَ غَرَضِي ؛ فَأَلْقَىٰ رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ ، فَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ الْخَاتِمَ ، فَعَرَفْتُهُ فَانْكَبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِي .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَا خَبَرُكَ ؟!) .

فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّتِي ؛ فَأُعْجِبَ بِهَا ، وَسَرَّهُ أَنْ يَسْمَعَهَا أَصْحَابُهُ مِنِّي ، فَأَسْمَعْتُهُمْ إِيَّاهَا ، فَعَجِبُوا مِنْهَا أَشَدَّ الْعَجَبِ ، وَسُرُّوا بِهَا أَعْظَمَ السُّرُورِ.

* * *

فَسَلَامٌ عَلَىٰ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ يَوْمَ قَامَ يَبْحَثُ عَنِ الْحَقِّ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

وَسَلَامٌ عَلَىٰ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ يَوْمَ عَرَفَ الْحَقَّ فَآمَنَ بِهِ أَوْثَقَ الْإِيمَانِ .

وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ مَاتَ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (*) .

---

(١) بقيع الغرقد : مكان في المدينة المنورة ، جُعِل مدفنًا .
(٢) الشَّملة : الكساء الغليظ ، ويشتمل به : يلتحف به .

(*) للاستزادة من أخبار سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ انظر :
١ - الإصابة : ٦٢/٢ أو « الترجمة » ٣٣٥٧ .
٢ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٢/ ٥٦ .
٣ - الجرح والتعديل : ق١ ج ٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .
٤ - الجمع بين رجال الصحيحين : ١/ ١٩٣ .
٥ - سير أعلام النبلاء : ٣٦٢/١ - ٤٠٥ .
٦ - تاريخ الإسلام للذهبي : ١٥٨/٢ - ١٦٣ .
٧ - أسد الغابة : ٣٢٨/٢ - ٣٣٢ .
٨ - طبقات الشعراني : ٣٠ - ٣١ .
٩ - صفة الصفوة : ٢١٠/١ - ٢٢٥ .
١٠- شذرات الذهب : ١/ ٤٤ .
١١- تقريب التهذيب : ١/ ٣١٥ .
١٢- تهذيب التهذيب : ١٣٧/٤ - ١٣٩

عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ

« سَيَأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا ، فَلَا تَسُبُّوا أَبَاهُ ؛
فَإِنَّ سَبَّ الْمَيِّتِ يُؤْذِي الْحَيَّ وَلَا يَبْلُغُ الْمَيِّتَ »

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

« مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ »

[مِنْ تَحِيَّةِ النَّبِيِّ لِعِكْرِمَةَ]

كَانَ فِي أَوَاخِرِ الْعِقْدِ الثَّالِثِ مِنْ عُمُرِهِ ، يَوْمَ صَدَعَ[1] نَبِيُّ الرَّحْمَةِ بِدَعْوَةِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ .

وَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ قُرَيْشٍ حَسَبًا ، وَأَكْثَرِهِمْ مَالًا وَأَعَزِّهِمْ نَسَبًا .

وَكَانَ جَدِيرًا بِهِ أَنْ يُسْلِمَ كَمَا أَسْلَمَ نُظَرَاؤُهُ ، مِنْ أَمْثَالِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ[2] ، وَمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَبْنَاءِ الْبُيُوتَاتِ الْمَرْمُوقَةِ فِي مَكَّةَ لَوْلَا أَبُوهُ .

فَمَنْ يَكُونُ هَٰذَا الْأَبُ يَا تُرَىٰ ؟ .

إِنَّهُ جَبَّارُ مَكَّةَ الْأَكْبَرُ ، وَزَعِيمُ الشِّرْكِ الْأَوَّلُ ، وَصَاحِبُ النَّكَالِ[3] الَّذِي امْتَحَنَ اللَّهُ بِبَطْشِهِ إِيمَانَ الْمُؤْمِنِينَ فَثَبَتُوا ...

وَاخْتَبَرَ بِكَيْدِهِ صِدْقَ الْمُوقِنِينَ فَصَدَقُوا ...

إِنَّهُ أَبُو جَهْلٍ[4] ، وَكَفَىٰ ...

---

(١) صدع : جهر .
(٢) سعد بن أبي وقاص : انظره ص ٢٨١ .
(٣) النكال : العذاب الشديد .
(٤) أبو جهل : انظر مصرع أبي جهل في كتاب « حدث في رمضان » للمؤلف .

هَٰذَا أَبُوهُ ، أَمَّا هُوَ فَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ الْمَخْزُومِيُّ ، أَحَدُ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ الْمَعْدُودِينَ وَأَبْرَزُ فُرْسَانِهَا الْمَرْمُوقِينَ .

* * *

وَجَدَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ نَفْسَهُ مَدْفُوعًا بِحُكْمِ زَعَامَةِ أَبِيهِ إِلَىٰ مُنَاوَأَةِ[(١)] مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ فَعَادَىٰ الرَّسُولَ ﷺ أَشَدَّ الْعِدَاءِ ، وَآذَىٰ أَصْحَابَهُ أَفْدَحَ الْإِيذَاءِ ، وَصَبَّ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنَ النَّكَالِ مَا قَرَّتْ بِهِ عَيْنُ أَبِيهِ[(٢)] .

وَلَمَّا قَادَ أَبُوهُ مَعْرَكَةَ الشِّرْكِ يَوْمَ « بَدْرٍ » ، وَأَقْسَمَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ[(٣)] أَلَّا يَعُودَ إِلَىٰ مَكَّةَ إِلَّا إِذَا هَزَمَ مُحَمَّدًا ، نَزَلَ بِبَدْرٍ وَأَقَامَ عَلَيْهَا ثَلَاثًا يَنْحَرُ الْجَزُورَ ، وَيَشْرَبُ الْخُمُورَ ، وَتَعْزِفُ لَهُ الْقِيَانُ بِالْمَعَازِفِ ...

لَمَّا قَادَ أَبُو جَهْلٍ هَٰذِهِ الْمَعْرَكَةَ كَانَ ابْنُهُ عِكْرِمَةُ عَضُدَهُ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا .

وَلَكِنَّ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ لَمْ يُلَبِّيَا نِدَاءَ أَبِي جَهْلٍ لِأَنَّهُمَا لَا يَسْمَعَانِ ...

وَلَمْ يَنْصُرَاهُ فِي مَعْرَكَتِهِ لِأَنَّهُمَا عَاجِزَانِ ...

فَخَرَّ صَرِيعًا دُونَ « بَدْرٍ » ، وَرَآهُ ابْنُهُ عِكْرِمَةُ بِعَيْنَيْهِ ، وَرِمَاحُ الْمُسْلِمِينَ تَنْهَلُ[(٤)] مِنْ دَمِهِ ، وَسَمِعَهُ بِأُذُنَيْهِ وَهُوَ يُطْلِقُ آخِرَ صَرْخَةٍ انْفَرَجَتْ عَنْهَا شَفَتَاهُ .

* * *

عَادَ عِكْرِمَةُ إِلَىٰ مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ خَلَّفَ جُثَّةَ سَيِّدِ قُرَيْشٍ فِي « بَدْرٍ » ؛ فَقَدْ أَعْجَزَتْهُ الْهَزِيمَةُ عَنْ أَنْ يَظْفَرَ بِهَا لِيَدْفِنَهَا فِي مَكَّةَ ، وَأَرْغَمَهُ الْفِرَارُ عَلَىٰ تَرْكِهَا

---

(١) الْمناوأة : الْمعاداة .

(٢) قرت عين الرّجل : يعني أنه سر وفرح .

(٣) اللّات والْعزىٰ : صنمان لقُرَيْش .

(٤) تنهل من دمه : تشرب من دمه .

لِلْمُسْلِمِينَ ؛ فَأَلْقَوْهَا فِي « الْقَلِيبِ »(١) مَعَ الْعَشَرَاتِ مِنْ قَتْلَىٰ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَهَالُوا عَلَيْهَا الرِّمَالَ .

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَصْبَحَ لِعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ مَعَ الْإِسْلَامِ شَأْنٌ آخَرُ ...

فَقَدْ كَانَ يُعَادِيهِ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ حَمِيَّةً لِأَبِيهِ ؛ فَأَصْبَحَ يُعَادِيهِ الْيَوْمَ ثَأْرًا لَهُ .

وَمِنْ هُنَا انْبَرَىٰ عِكْرِمَةُ وَنَفَرٌ مِمَّنْ قُتِلَ آبَاؤُهُمْ فِي « بَدْرٍ » ، يُؤَرِّثُونَ(٢) نَارَ الْعَدَاوَةِ فِي صُدُورِ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَيُضْرِمُونَ جَذْوَةَ(٣) الثَّأْرِ فِي قُلُوبِ الْمَوْتُورِينَ(٤) مِنْ قُرَيْشٍ ، حَتَّىٰ كَانَتْ وَقْعَةُ « أُحُدٍ » .

* * *

خَرَجَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ إِلَىٰ « أُحُدٍ » ، وَأَخْرَجَ مَعَهُ زَوْجَهُ أُمَّ حَكِيمٍ لِتَقِفَ مَعَ النِّسْوَةِ الْمَوْتُورَاتِ فِي « بَدْرٍ » وَرَاءَ الصُّفُوفِ ، وَتَضْرِبَ مَعَهُنَّ عَلَىٰ الدُّفُوفِ تَحْرِيضًا لِقُرَيْشٍ عَلَىٰ الْقِتَالِ ، وَتَثْبِيتًا لِفُرْسَانِهَا إِذَا حَدَّثَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ بِالْفِرَارِ .

* * *

وَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ مَيْمَنَةِ فُرْسَانِهَا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَعَلَىٰ مَيْسَرَتِهِمْ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ ، وَأَبْلَىٰ الْفَارِسَانِ الْمُشْرِكَانِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بَلَاءً رَجَّحَ كَفَّةَ قُرَيْشٍ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَحَقَّقَ لِلْمُشْرِكِينَ النَّصْرَ الْكَبِيرَ ؛ مِمَّا جَعَلَ أَبَا سُفْيَانَ يَقُولُ :

هَٰذَا بِيَوْمِ بَدْرٍ .

* * *

وَفِي يَوْمِ « الْخَنْدَقِ » ، حَاصَرَ الْمُشْرِكُونَ الْمَدِينَةَ أَيَّامًا طَوِيلَةً فَنَفِدَ صَبْرُ

---

(١) القليب : بئر أُلقيت فيها جثث المشركين من قتلىٰ بدر.

(٢) يؤرثون : يوقدون .

(٣) الجذوة : الجمرة الملتهبة .

(٤) الموتور : من قُتل له قتيل فلم يأخذ بثأره .

عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ، وَضَاقَ ذَرْعًا[1] بِالْحِصَارِ، فَنَظَرَ إِلَىٰ مَكَانٍ ضَيِّقٍ مِنَ الْخَنْدَقِ، وَأَقْحَمَ[2] جَوَادَهُ فِيهِ فَاجْتَازَهُ، ثُمَّ اجْتَازَهُ وَرَاءَهُ بِضْعَةُ نَفَرٍ فِي أَجْرَإِ مُغَامَرَةٍ ذَهَبَ ضَحِيَّتَهَا عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ الْعَامِرِيُّ[3]...

أَمَّا هُوَ فَلَمْ يُنَجِّهِ إِلَّا الْفِرَارُ.

* * *

وَفِي يَوْمِ الْفَتْحِ رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنْ لَا قِبَلَ لَهَا بِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، فَأَزْمَعَتْ[4] عَلَىٰ أَنْ تُخَلِّيَ لَهُ السَّبِيلَ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَقَدْ أَعَانَهَا عَلَىٰ اتِّخَاذِ قَرَارِهَا هَٰذَا مَا عَرَفَتْهُ مِنْ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَرَ قُوَّادَهُ أَلَّا يُقَاتِلُوا إِلَّا مَنْ قَاتَلَهُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ.

* * *

لَكِنَّ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ وَنَفَرًا مَعَهُ خَرَجُوا عَلَىٰ إِجْمَاعِ قُرَيْشٍ، وَتَصَدَّوْا لِلْجَيْشِ الْكَبِيرِ، فَهَزَمَهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي مَعْرَكَةٍ صَغِيرَةٍ قُتِلَ فِيهَا مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، وَلَاذَ بِالْفِرَارِ مَنْ أَمْكَنَهُ الْفِرَارُ، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْفَارِّينَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ.

* * *

عِنْدَ ذَٰلِكَ أُسْقِطَ[5] فِي يَدِ عِكْرِمَةَ...

فَمَكَّةُ نَبَتْ[6] بِهِ بَعْدَ أَنْ خَضَعَتْ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَفَا عَمَّا سَلَفَ مِنْ قُرَيْشٍ تِجَاهَهُ...

لَكِنَّهُ اسْتَثْنَىٰ مِنْهُمْ نَفَرًا سَمَّاهُمْ، وَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ وَإِنْ وُجِدُوا تَحْتَ أَسْتَارِ الْكَعْبَةِ.

---

(١) ضاق ذرعًا بالحصار: لم يستطع الصبر عليه وأصابه منه ضيق.

(٢) أقحم جواده: أدخله بعنف.

(٣) عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ الْعَامِرِيُّ الْقُرَشِي. من الفرسان المشهورين في الجاهلية، وبعد أن اقتحم الخندق بارزه عليّ بن أبي طالب وقتله.

(٤) أزمعت: قررت. (٥) أُسقط في يد عِكْرِمَة: تحير وندم. (٦) نَبَتْ به: لم يبق له فيها قرار.

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ؛ لِذَا تَسَلَّلَ مُتَخَفِّيًا مِنْ مَكَّةَ ، وَيَمَّمَ وَجْهَهُ شَطْرَ[1] « الْيَمَنِ » ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَلَاذٌ[2] إِلَّا هُنَاكَ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ مَضَتْ أُمُّ حَكِيمٍ زَوْجُ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ ، وَهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ[3] إِلَىٰ مَنْزِلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَمَعَهُمَا عَشْرُ نِسْوَةٍ لِيُبَايِعْنَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَدَخَلْنَ عَلَيْهِ ، وَعِنْدَهُ اثْنَتَانِ مِنْ أَزْوَاجِهِ وَابْنَتُهُ فَاطِمَةُ[4] وَنِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَتَكَلَّمَتْ هِنْدُ وَهِيَ مُتَنَقِّبَةٌ[5] وَقَالَتْ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ الدِّينَ الَّذِي اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ ، وَإِنِّي لَأَسْأَلُكَ أَنْ تَمَسَّنِي رَحِمُكَ بِخَيْرٍ[6]، فَإِنِّي امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ مُصَدِّقَةٌ ...

ثُمَّ كَشَفَتْ عَنْ وَجْهِهَا وَقَالَتْ :

هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ لَهَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (مَرْحَبًا بِكِ) .

فَقَالَتْ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ بَيْتٌ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَذِلَّ مِنْ بَيْتِكَ ، وَلَقَدْ أَصْبَحْتُ وَمَا عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ بَيْتٌ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَعِزَّ مِنْ بَيْتِكَ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (وَزِيَادَةً أَيْضًا) .

ثُمَّ قَامَتْ أُمُّ حَكِيمٍ زَوْجُ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ فَأَسْلَمَتْ وَقَالَتْ :

---

(١) يمم وجهه شطر اليمن : اتجه نحو اليمن .
(٢) ملاذ : ملجأ .
(٣) هند بنت عُتْبة : زوج أبي سُفْيان ، وهي أم معاوية رضي الله عنه .
(٤) فاطمة الزهراء : انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .
(٥) متنقبة : أي واضعة النقاب علىٰ وجهها خجلاً من رسول الله ﷺ لتمثيلها بعمه حمزة بن عبد المطلب يوم أُحد .
(٦) أن تمسني رحمك بخير : أن تُحسن معاملتي لما بيني وبينك من قرابة .

يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ هَرَبَ مِنْكَ عِكْرِمَةُ إِلَىٰ «الْيَمَنِ» خَوْفًا مِنْ أَنْ تَقْتُلَهُ فَأَمِّنْهُ أَمَّنَكَ اللَّهُ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(هُوَ آمِنٌ).

فَخَرَجَتْ مِنْ سَاعَتِهَا فِي طَلَبِهِ، وَمَعَهَا غُلَامٌ لَهَا رُومِيٌّ، فَلَمَّا أَوْغَلَا فِي الطَّرِيقِ رَاوَدَهَا الْغُلَامُ عَنْ نَفْسِهَا، فَجَعَلَتْ تُمَنِّيهِ وَتُمَاطِلُهُ حَتَّىٰ قَدِمَتْ عَلَىٰ حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ فَاسْتَعَانَتْهُمْ عَلَيْهِ فَأَوْثَقُوهُ وَتَرَكُوهُ عِنْدَهُمْ.

وَمَضَتْ هِيَ إِلَىٰ سَبِيلِهَا حَتَّىٰ أَدْرَكَتْ عِكْرِمَةَ عِنْدَ سَاحِلِ الْبَحْرِ فِي مِنْطَقَةِ «تِهَامَةَ»(١)، وَهُوَ يُفَاوِضُ نُوتِيًّا(٢) مُسْلِمًا عَلَىٰ نَقْلِهِ، وَالنُّوتِيُّ يَقُولُ لَهُ:

أَخْلِصْ حَتَّىٰ أَنْقُلَكَ.

فَقَالَ لَهُ عِكْرِمَةُ: وَكَيْفَ أُخْلِصُ؟.

قَالَ: تَقُولُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

فَقَالَ عِكْرِمَةُ: مَا هَرَبْتُ إِلَّا مِنْ هَٰذَا.

وَفِيمَا هُمَا كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَتْ أُمُّ حَكِيمٍ عَلَىٰ عِكْرِمَةَ وَقَالَتْ:

يَا ابْنَ عَمِّ، جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ أَوْصَلِ النَّاسِ، وَأَبَرِّ النَّاسِ، وَخَيْرِ النَّاسِ...

مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ...

وَقَدِ اسْتَأْمَنْتُ لَكَ مِنْهُ فَأَمَّنَكَ فَلَا تُهْلِكْ نَفْسَكَ، فَقَالَ:

أَنْتِ كَلَّمْتِيهِ؟.

قَالَتْ: نَعَمْ، أَنَا كَلَّمْتُهُ فَأَمَّنَكَ...

---

(١) تهامة: هو السهل الساحلي للجزيرة العربية المحاذي للبحر الأحمر، بينه وبين سلسلة جبال السراة.
(٢) النوتي: البحار.

وَمَا زَالَتْ بِهِ تُؤَمِّنُهُ وَتُطَمْئِنُهُ حَتَّىٰ عَادَ مَعَهَا .

ثُمَّ حَدَّثَتْهُ حَدِيثَ غُلَامِهِمَا الرُّومِيِّ فَمَرَّ بِهِ وَقَتَلَهُ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ .

وَفِيمَا هُمَا فِي مَنْزِلٍ نَزَلَا بِهِ فِي الطَّرِيقِ أَرَادَ عِكْرِمَةُ أَن يَخْلُوَ بِزَوْجِهِ ، فَأَبَتْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبَاءِ وَقَالَتْ :

إِنِّي مُسْلِمَةٌ وَأَنْتَ مُشْرِكٌ ...

فَتَمَلَّكَهُ الْعَجَبُ وَقَالَ : إِنَّ أَمْرًا يَحُولُ دُونَكِ وَدُونَ الْخَلْوَةِ بِي لَأَمْرٌ كَبِيرٌ .

فَلَمَّا دَنَا عِكْرِمَةُ مِنْ مَكَّةَ ، قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ :

(سَيَأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا ، فَلَا تَسُبُّوا أَبَاهُ ؛ فَإِنَّ سَبَّ الْمَيِّتِ يُؤْذِي الْحَيَّ وَلَا يَبْلُغُ الْمَيِّتَ) .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ وَصَلَ عِكْرِمَةُ وَزَوْجُهُ إِلَىٰ حَيْثُ يَجْلِسُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَثَبَ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ رِدَاءٍ[1] فَرَحًا بِهِ ... وَلَمَّا جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ عِكْرِمَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ :

يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّ أُمَّ حَكِيمٍ أَخْبَرَتْنِي أَنَّكَ أَمَّنْتَنِي ...

فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (صَدَقَتْ ، فَأَنْتَ آمِنٌ) .

فَقَالَ عِكْرِمَةُ : إِلَامَ تَدْعُو يَا مُحَمَّدُ ؟ .

قَالَ : (أَدْعُوكَ إِلَىٰ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَأَنْ تُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ...) حَتَّىٰ عَدَّ أَرْكَانَ الْإِسْلَامِ كُلَّهَا .

فَقَالَ عِكْرِمَةُ : وَاللَّهِ مَا دَعَوْتَ إِلَّا إِلَىٰ حَقٍّ ، وَمَا أَمَرْتَ إِلَّا بِخَيْرٍ .

ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ :

---

(١) الرِّداء : ما يلبس أعلى الإزار .

قَدْ كُنْتَ فِينَا ـ وَاللَّهِ ـ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوَ إِلَىٰ مَا دَعَوْتَ إِلَيْهِ وَأَنْتَ أَصْدَقُنَا حَدِيثًا وَأَبَرُّنَا بِرًّا . . .

ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ وَقَالَ : إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، ثُمَّ قَالَ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي خَيْرَ شَيْءٍ أَقُولُهُ .

فَقَالَ : (تَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) .

فَقَالَ عِكْرِمَةُ : ثُمَّ مَاذَا ؟ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (تَقُولُ : أُشْهِدُ اللَّهَ ، وَأُشْهِدُ مَنْ حَضَرَ أَنِّي مُسْلِمٌ مُجَاهِدٌ مُهَاجِرٌ) . . . فَقَالَ عِكْرِمَةُ ذَلِكَ .

عِنْدَ هَذَا قَالَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : (الْيَوْمَ لَا تَسْأَلُنِي شَيْئًا أُعْطِيهِ أَحَدًا إِلَّا أَعْطَيْتُكَ إِيَّاهُ) ، فَقَالَ عِكْرِمَةُ :

إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لِي كُلَّ عَدَاوَةٍ عَادَيْتُكَهَا ، أَوْ مَسِيرٍ أَوْضَعْتُ فِيهِ ، أَوْ مَقَامٍ لَقِيتُكَ فِيهِ ، أَوْ كَلَامٍ قُلْتُهُ فِي وَجْهِكَ أَوْ غَيْبَتِكَ .

فَقَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ كُلَّ عَدَاوَةٍ عَادَانِيهَا ، وَكُلَّ مَسِيرٍ سَارَ فِيهِ إِلَىٰ مَوْضِعٍ يُرِيدُ بِهِ إِطْفَاءَ نُورِكَ ، وَاغْفِرْ لَهُ مَا نَالَ مِنْ عِرْضِي فِي وَجْهِي أَوْ أَنَا غَائِبٌ عَنْهُ) .

فَتَهَلَّلَ وَجْهُ عِكْرِمَةَ بِشْرًا وَقَالَ :

أَمَّا وَاللَّهِ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَا أَدَعُ نَفَقَةً أَنْفَقْتُهَا فِي صَدٍّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا أَنْفَقْتُ ضِعْفَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا قِتَالًا قَاتَلْتُهُ صَدًّا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا قَاتَلْتُ ضِعْفَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ انْضَمَّ إِلَىٰ مَوْكِبِ الدَّعْوَةِ فَارِسٌ بَاسِلٌ فِي سَاحَاتِ الْقِتَالِ، عَبَّادٌ قَوَّامٌ قَرَّاءٌ لِكِتَابِ اللَّهِ فِي الْمَسَاجِدِ؛ فَقَدْ كَانَ يَضَعُ الْمُصْحَفَ عَلَىٰ وَجْهِهِ وَيَقُولُ:

كِتَابُ رَبِّي ... كَلَامُ رَبِّي ... وَهُوَ يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.

* * *

بَرَّ عِكْرِمَةُ بِمَا قَطَعَهُ لِلرَّسُولِ ﷺ مِنْ عَهْدٍ، فَمَا خَاضَ الْمُسْلِمُونَ مَعْرَكَةً بَعْدَ إِسْلَامِهِ إِلَّا وَخَاضَهَا مَعَهُمْ، وَلَا خَرَجُوا فِي بَعْثٍ إِلَّا كَانَ طَلِيعَتَهُمْ.

وَفِي يَوْمِ «الْيَرْمُوكِ» أَقْبَلَ عِكْرِمَةُ عَلَىٰ الْقِتَالِ إِقْبَالَ الظَّامِئِ عَلَىٰ الْمَاءِ الْبَارِدِ فِي الْيَوْمِ الْقَائِظِ.

وَلَمَّا اشْتَدَّ الْكَرْبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فِي أَحَدِ الْمَوَاقِفِ، نَزَلَ عَنْ جَوَادِهِ وَكَسَرَ غِمْدَ سَيْفِهِ، وَأَوْغَلَ[1] فِي صُفُوفِ الرُّومِ، فَبَادَرَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَقَالَ:

لَا تَفْعَلْ يَا عِكْرِمَةُ؛ فَإِنَّ قَتْلَكَ سَيَكُونُ شَدِيدًا عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ.

فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي[2] يَا خَالِدُ... فَلَقَدْ كَانَ لَكَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَابِقَةٌ، أَمَّا أَنَا وَأَبِي فَقَدْ كُنَّا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ، فَدَعْنِي أُكَفِّرْ عَمَّا سَلَفَ مِنِّي، ثُمَّ قَالَ:

لَقَدْ قَاتَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَأَفِرُّ مِنَ الرُّومِ الْيَوْمَ؟! ...

إِنَّ هَٰذَا لَنْ يَكُونَ أَبَدًا.

ثُمَّ نَادَىٰ فِي الْمُسْلِمِينَ:

مَنْ يُبَايِعُ عَلَىٰ الْمَوْتِ؟ فَبَايَعَهُ عَمُّهُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وَضِرَارُ بْنُ

(١) أوغل في صفوف الرّوم: دخل بعيدًا في صفوفهم. (٢) إليك عني: دعني واتركني.

الْأَزْوَرِ فِي أَرْبَعِمِائَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَاتَلُوا دُونَ فُسْطَاطِ[1] خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَشَدَّ الْقِتَالِ، وَذَادُوا عَنْهُ أَكْرَمَ الذَّوْدِ.

وَلَمَّا انْجَلَتْ مَعْرَكَةُ «الْيَرْمُوكِ» عَنْ ذَلِكَ النَّصْرِ الْمُؤَزَّرِ[2] لِلْمُسْلِمِينَ؛ كَانَ يَتَمَدَّدُ عَلَى أَرْضِ «الْيَرْمُوكِ» ثَلَاثَةُ مُجَاهِدِينَ أَثْخَنَتْهُمُ[3] الْجِرَاحُ هُمْ:

الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ[4]، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، فَدَعَا الْحَارِثُ بِمَاءٍ لِيَشْرَبَهُ فَلَمَّا قُدِّمَ لَهُ نَظَرَ إِلَيْهِ عِكْرِمَةُ ... فَقَالَ:

ادْفَعُوهُ إِلَيْهِ ...

فَلَمَّا قَرَّبُوهُ مِنْهُ نَظَرَ إِلَيْهِ عَيَّاشٌ ... فَقَالَ:

ادْفَعُوهُ إِلَيْهِ. فَلَمَّا دَنَوْا مِنْ عَيَّاشٍ وَجَدُوهُ قَدْ قَضَى نَحْبَهُ[5] ...

فَلَمَّا عَادُوا إِلَى صَاحِبَيْهِ وَجَدُوهُمَا قَدْ لَحِقَا بِهِ.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ...

وَسَقَاهُمْ مِنْ حَوْضِ الْكَوْثَرِ شَرْبَةً لَا يَظْمَأُونَ بَعْدَهَا ...

وَحَبَاهُمْ خَضْرَاءَ الْفِرْدَوْسِ يَرْتَعُونَ فِيهَا أَبَدًا ... (*).

---

(١) الفسطاط: بيت من شعر، والمراد به مكان قيادة الجيش.
(٢) النصر المؤزر: النصر القوي العظيم.
(٣) أثخنتهم الجراح: أضعفتهم وأوهنت قواهم.
(٤) عيّاش بن أبي ربيعة: واسمه عمرو بن المغيرة المخزومي القرشي ابن عم خالد بن الوليد وكان من السابقين الأولين وهاجر الهجرتين إلّا أن أبا جهل خدعه فأعاده إلى مكة وحبسه ثم أُنقذ من حبسه.
(٥) قضى نحبه: فارق الحياة.

(*) للاستزادة من أخبار عِكْرِمَة بن أبي جهل انظر:
١ - الإصابة: ٢/٤٩٦ أو «الترجمة» ٥٦٣٨.
٢ - تهذيب الأسماء: ١/٣٣٨.
٣ - خلاصة التذهيب: ٢٢٨.
٤ - ذيل المذيل: ٤٥.
٥ - تاريخ الإسلام للذهبي: ١/٣٨٠.
٦ - رغبة الآمل: ٧/٢٢٤.
٧ - المستدرك: ٣/٢٤١.

زَيْدُ الْخَيْرِ

«لِلَّهِ دَرُّكَ يَا زَيْدُ ... أَيُّ رَجُلٍ أَنْتَ ؟!»

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ]

النَّاسُ مَعَادِنُ ؛ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ .

فَإِلَيْكَ(١) صُورَتَيْنِ لِصَحَابِيٍّ جَلِيلٍ خَطَّتْ أُولَاهُمَا يَدُ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَبْدَعَتْ أُخْرَاهُمَا أَنَامِلُ الْإِسْلَامِ .

ذَلِكَ الصَّحَابِيُّ هُوَ «زَيْدُ الْخَيْلِ»(٢) كَمَا كَانَ يَدْعُوهُ النَّاسُ فِي جَاهِلِيَّتِهِ ... وَ«زَيْدُ الْخَيْرِ» كَمَا دَعَاهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بَعْدَ إِسْلَامِهِ .

أَمَّا الصُّورَةُ الْأُولَى فَتَرْوِيهَا كُتُبُ الْأَدَبِ فَتَقُولُ :

حَكَى الشَّيْبَانِيُّ عَنْ شَيْخٍ مِنْ بَنِي «عَامِرٍ» قَالَ : أَصَابَتْنَا سَنَةٌ مُجْدِبَةٌ(٣) هَلَكَ فِيهَا الزَّرْعُ وَالضَّرْعُ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِنَّا بِعِيَالِهِ إِلَى «الْحِيرَةِ»(٤)، وَتَرَكَهُمْ فِيهَا ، وَقَالَ لَهُمْ : انْتَظِرُونِي هُنَا حَتَّى أَعُودَ إِلَيْكُمْ .

ثُمَّ أَقْسَمَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ إِلَّا إِذَا كَسَبَ لَهُمْ مَالًا ، أَوْ يَمُوتَ .

ثُمَّ تَزَوَّدَ زَادًا وَمَشَى يَوْمَهُ كُلَّهُ حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ وَجَدَ أَمَامَهُ خِبَاءً(٥)، وَبِالْقُرْبِ مِنَ الْخِبَاءِ مُهْرٌ مُقَيَّدٌ ؛ فَقَالَ :

هَذَا أَوَّلُ الْغَنِيمَةِ ، وَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَجَعَلَ يَحُلُّ قَيْدَهُ ، فَمَا إِنْ هَمَّ بِرُكُوبِهِ حَتَّى سَمِعَ صَوْتًا يُنَادِيهِ : خَلِّ(٦) عَنْهُ وَاغْنَمْ نَفْسَكَ ، فَتَرَكَهُ وَمَضَى .

---

(١) إليك : خُذْ .

(٢) سمي كذلك لكثرة خيله .

(٣) مجدبة : لا مطر فيها ولا نبات .

(٤) الحيرة : مدينة في العراق بين النجف والكوفة .

(٥) الخباء : الخيمة .

(٦) خَلِّ عنه : اتركْهُ .

ثُمَّ مَشَىٰ سَبْعَةَ أَيَّامٍ حَتَّىٰ بَلَغَ مَكَانًا فِيهِ مَرَاحٌ لِلْإِبِلِ ، وَبِجَانِبِهِ خِبَاءٌ عَظِيمٌ فِيهِ قُبَّةٌ مِنْ أَدَمٍ[1] تُشِيرُ إِلَىٰ الثَّرَاءِ وَالنِّعْمَةِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ فِي نَفْسِهِ :

لَا بُدَّ لِهَٰذَا الْمَرَاحِ مِنْ إِبِلٍ ، وَلَا بُدَّ لِهَٰذَا الْخِبَاءِ مِنْ أَهْلٍ .

ثُمَّ نَظَرَ فِي الْخِبَاءِ ـ وَكَانَتِ الشَّمْسُ تَدْنُو مِنَ الْمَغِيبِ ـ فَوَجَدَ شَيْخًا فَانِيًا فِي وَسَطِهِ ، فَجَلَسَ خَلْفَهُ ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِهِ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ غَابَتِ الشَّمْسُ ، وَأَقْبَلَ فَارِسٌ لَمْ يُرَ قَطُّ فَارِسٌ أَعْظَمُ مِنْهُ وَلَا أَجْسَمُ[2] ، قَدِ امْتَطَىٰ صَهْوَةَ[3] جَوَادٍ عَالٍ ، وَحَوْلَهُ عَبْدَانِ يَمْشِيَانِ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، وَمَعَهُ نَحْوُ مِائَةٍ مِنَ الْإِبِلِ ، أَمَامَهَا فَحْلٌ كَبِيرٌ ، فَبَرَكَ الْفَحْلُ ، فَبَرَكَتْ حَوْلَهُ النُّوقُ ... وَهُنَا قَالَ الْفَارِسُ لِأَحَدِ عَبْدَيْهِ :

احْلِبْ هَٰذِهِ ـ وَأَشَارَ إِلَىٰ نَاقَةٍ سَمِينَةٍ ـ وَاسْقِ الشَّيْخَ ؛ فَحَلَبَ مِنْهَا حَتَّىٰ مَلَأَ الْإِنَاءَ ، وَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيِ الشَّيْخِ وَتَنَحَّىٰ عَنْهُ ، فَجَرَعَ الشَّيْخُ مِنْهُ جُرْعَةً أَوْ جُرْعَتَيْنِ وَتَرَكَهُ ... قَالَ الرَّجُلُ :

فَدَبَبْتُ نَحْوَهُ مُتَخَفِّيًا ، وَأَخَذْتُ الْإِنَاءَ ، وَشَرِبْتُ كُلَّ مَا فِيهِ ، فَرَجَعَ الْعَبْدُ وَأَخَذَ الْإِنَاءَ ، وَقَالَ :

يَا مَوْلَايَ ، لَقَدْ شَرِبَهُ كُلَّهُ ، فَفَرِحَ الْفَارِسُ وَقَالَ :

احْلِبْ هَٰذِهِ ـ وَأَشَارَ إِلَىٰ نَاقَةٍ أُخْرَىٰ ـ وَضَعِ الْإِنَاءَ بَيْنَ يَدَيِ الشَّيْخِ ، فَفَعَلَ الْعَبْدُ مَا أُمِرَ بِهِ ، فَجَرَعَ مِنْهُ الشَّيْخُ جُرْعَةً وَاحِدَةً وَتَرَكَهُ ، فَأَخَذْتُهُ ، وَشَرِبْتُ نِصْفَهُ ، وَكَرِهْتُ أَنْ آتِيَ عَلَيْهِ كُلِّهِ حَتَّىٰ لَا أُثِيرَ الشَّكَّ فِي نَفْسِ الْفَارِسِ .

ثُمَّ أَمَرَ الْفَارِسُ عَبْدَهُ الثَّانِيَ بِأَنْ يَذْبَحَ شَاةً ، فَذَبَحَهَا فَقَامَ إِلَيْهَا الْفَارِسُ

---

(١) الأدم : الجلد .
(٢) أجسم : أعظم جسمًا .
(٣) صهوة الجواد : موضع ركوب الفارس على ظهره .

وَشَوَىٰ لِلشَّيْخِ مِنْهَا ، وَأَطْعَمَهُ بِيَدَيْهِ حَتَّىٰ إِذَا شَبِعَ جَعَلَ يَأْكُلُ هُوَ وَعَبْدَاهُ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ أَخَذَ الْجَمِيعُ مَضَاجِعَهُمْ ، وَنَامُوا نَوْمًا عَمِيقًا لَهُ غَطِيطٌ[1].

عِنْدَ ذَلِكَ تَوَجَّهْتُ إِلَىٰ الْفَحْلِ فَحَلَلْتُ عِقَالَهُ وَرَكِبْتُهُ ، فَانْدَفَعَ ، وَتَبِعَتْهُ الْإِبِلُ ، وَمَشَيْتُ لَيْلَتِي . فَلَمَّا أَسْفَرَ النَّهَارُ نَظَرْتُ فِي كُلِّ جِهَةٍ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا يَتْبَعُنِي ، فَانْدَفَعْتُ فِي السَّيْرِ حَتَّىٰ تَعَالَىٰ النَّهَارُ .

ثُمَّ الْتَفَتُّ الْتِفَاتَةً فَإِذَا أَنَا بِشَيْءٍ كَأَنَّهُ نَسْرٌ أَوْ طَائِرٌ كَبِيرٌ ، فَمَا زَالَ يَدْنُو مِنِّي حَتَّىٰ تَبَيَّنْتُهُ فَإِذَا هُوَ فَارِسٌ عَلَىٰ فَرَسٍ ، ثُمَّ مَا زَالَ يُقْبِلُ عَلَيَّ حَتَّىٰ عَرَفْتُ أَنَّهُ صَاحِبِي جَاءَ يَنْشُدُ[2] إِبِلَهُ .

عِنْدَ ذَلِكَ عَقَلْتُ الْفَحْلَ[3] ، وَأَخْرَجْتُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي[4] وَوَضَعْتُهُ فِي قَوْسِي ، وَجَعَلْتُ الْإِبِلَ خَلْفِي ، فَوَقَفَ الْفَارِسُ بَعِيدًا ، وَقَالَ لِي : احْلُلْ عِقَالَ الْفَحْلِ ... فَقُلْتُ : كَلَّا ...

لَقَدْ تَرَكْتُ وَرَائِي نِسْوَةً جَائِعَاتٍ « بِالْحِيرَةِ » وَأَقْسَمْتُ أَلَّا أَرْجِعَ إِلَيْهِنَّ إِلَّا وَمَعِي مَالٌ أَوْ أَمُوتَ .

قَالَ : إِنَّكَ مَيِّتٌ ... احْلُلْ عِقَالَ الْفَحْلِ - لَا أَبَا لَكَ[5] - .

فَقُلْتُ : لَنْ أَحُلَّهُ ...

فَقَالَ : وَيْحَكَ[6] ، إِنَّكَ لَمَغْرُورٌ ...

(١) الْغطيط : صوت النائم وشخيره .
(٢) ينشد إبله : يبحث عنها ويطلبها .
(٣) عقلت الْفَحْلَ : ربطت الْجَمَلَ .
(٤) الْكنانة : الجعبة الَّتي توضع فيها السهام .
(٥) لا أبا لك : كلمة تقال في الشتم وفي المدح ، والمراد بها هنا الشتم .
(٦) ويحك : الْويح الْهلاك .

ثُمَّ قَالَ : دَلِّ زِمَامَ[1] الْفَحْلِ - وَكَانَتْ فِيهِ ثَلَاثُ عُقَدٍ - ثُمَّ سَأَلَنِي فِي أَيِّ عُقْدَةٍ مِنْهَا أُرِيدُ أَنْ يَضَعَ لِيَ السَّهْمَ ، فَأَشَرْتُ إِلَىٰ الْوُسْطَىٰ فَرَمَىٰ السَّهْمَ فَأَدْخَلَهُ فِيهَا حَتَّىٰ لَكَأَنَّمَا وَضَعَهُ بِيَدِهِ ، ثُمَّ أَصَابَ الثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ ...

عِنْدَ ذَٰلِكَ ، أَعَدْتُ سَهْمِي إِلَىٰ الْكِنَانَةِ وَوَقَفْتُ مُسْتَسْلِمًا ، فَدَنَا مِنِّي وَأَخَذَ سَيْفِي وَقَوْسِي ، وَقَالَ : ارْكَبْ خَلْفِي ، فَرَكِبْتُ خَلْفَهُ ، فَقَالَ :

كَيْفَ تَظُنُّ أَنِّي فَاعِلٌ بِكَ ؟ .

فَقُلْتُ : أَسْوَأَ الظَّنِّ .

قَالَ : وَلِمَ ؟! .

قُلْتُ : لِمَا فَعَلْتُهُ بِكَ ، وَمَا أَنْزَلْتُ بِكَ مِنْ عَنَاءٍ وَقَدْ أَظْفَرَكَ اللَّهُ بِي .

فَقَالَ : أَوَتَظُنُّ أَنِّي أَفْعَلُ بِكَ سُوءًا وَقَدْ شَارَكْتَ « مُهَلْهِلًا » [يَعْنِي أَبَاهُ] فِي شَرَابِهِ وَطَعَامِهِ ، وَنَادَمْتَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ؟!! .

فَلَمَّا سَمِعْتُ اسْمَ « مُهَلْهِلٍ » قُلْتُ : أَزَيْدُ الْخَيْلِ أَنْتَ ؟ .

قَالَ : نَعَمْ .

فَقُلْتُ : كُنْ خَيْرَ آسِرٍ .

فَقَالَ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ ، وَمَضَىٰ بِي إِلَىٰ مَوْضِعِهِ وَقَالَ :

وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ هَٰذِهِ الْإِبِلُ لِي لَسَلَّمْتُهَا إِلَيْكَ ، وَلَٰكِنَّهَا لِأُخْتٍ مِنْ أَخَوَاتِي ، فَأَقِمْ عِنْدَنَا أَيَّامًا فَإِنِّي عَلَىٰ وَشْكِ[2] غَارَةٍ قَدْ أَغْنَمُ مِنْهَا .

وَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ ثَلَاثَةٌ حَتَّىٰ أَغَارَ عَلَىٰ بَنِي « نُمَيْرٍ » فَغَنِمَ قَرِيبًا مِنْ مِائَةِ نَاقَةٍ

(١) الزِّمام : الرسن .
(٢) على وشك : على قُرب .

فَأَعْطَانِي إِيَّاهَا كُلَّهَا ، وَبَعَثَ مَعِي رِجَالاً مِنْ عِنْدِهِ يَحْمُونَنِي حَتَّىٰ وَصَلْتُ « الْحِيرَةَ » .

* * *

تِلْكَ كَانَتْ صُورَةَ زَيْدِ الْخَيْلِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أَمَّا صُورَتُهُ فِي الْإِسْلَامِ فَتَجْلُوهَا كُتُبُ السِّيَرِ فَتَقُولُ :

لَمَّا بَلَغَتْ أَخْبَارُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَمْعَ زَيْدِ الْخَيْلِ ، وَوَقَفَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ ، أَعَدَّ رَاحِلَتَهُ ، وَدَعَا السَّادَةَ الْكُبَرَاءَ مِنْ قَوْمِهِ إِلَىٰ زِيَارَةِ « يَثْرِبَ »[1] وَلِقَاءِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَرَكِبَ مَعَهُ وَفْدٌ كَبِيرٌ مِنْ « طَيِّئٍ » ، فِيهِمْ زُرُّ بْنُ سَدُوسٍ ، وَمَالِكُ بْنُ جُبَيْرٍ ، وَعَامِرُ بْنُ جُوَيْنٍ ، وَغَيْرُهُمْ وَغَيْرُهُمْ ، فَلَمَّا بَلَغُوا الْمَدِينَةَ تَوَجَّهُوا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، وَأَنَاخُوا رَكَائِبَهُمْ بِبَابِهِ .

وَصَادَفَ عِنْدَ دُخُولِهِمْ أَنْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَخْطُبُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ فَوْقِ الْمِنْبَرِ ، فَرَاعَهُمْ كَلَامُهُ ، وَأَدْهَشَهُمْ تَعَلُّقُ الْمُسْلِمِينَ بِهِ ، وَإِنْصَاتُهُمْ لَهُ ، وَتَأَثُّرُهُمْ بِمَا يَقُولُ :

وَلَمَّا أَبْصَرَهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ يُخَاطِبُ الْمُسْلِمِينَ :

(إِنِّي خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْعُزَّىٰ[2] وَمِنْ كُلِّ مَا تَعْبُدُونَ ...

إِنِّي خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْجَمَلِ الْأَسْوَدِ الَّذِي تَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) .

* * *

لَقَدْ وَقَعَ كَلَامُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِ زَيْدِ الْخَيْلِ وَمَنْ مَعَهُ

---

(١) يثرب : المدينة المنورة .

(٢) العزّىٰ : صنم كبير من أصنام العرب في الجاهلية ... انظر هدم الأصنام في كتاب « حدث في رمضان » للمؤلف .

مَوْقِعَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ؛ فَبَعْضٌ اسْتَجَابَ لِلْحَقِّ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَبَعْضٌ تَوَلَّىٰ عَنْهُ، وَاسْتَكْبَرَ عَلَيْهِ...

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ.

أَمَّا «زُرُّ بْنُ سَدُوسٍ» فَمَا كَادَ يَرَىٰ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي مَوْقِفِهِ الرَّائِعِ تَحُفُّهُ الْقُلُوبُ الْمُؤْمِنَةُ، وَتَحُوطُهُ الْعُيُونُ الْحَانِيَةُ حَتَّىٰ دَبَّ الْحَسَدُ فِي قَلْبِهِ وَمَلأَ الْخَوْفُ فُؤَادَهُ، ثُمَّ قَالَ لِمَنْ مَعَهُ:

إِنِّي لأَرَىٰ رَجُلًا لَيَمْلِكَنَّ رِقَابَ الْعَرَبِ، وَاللَّهِ لَا أَجْعَلَنَّهُ يَمْلِكُ رَقَبَتِي أَبَدًا... ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ، وَحَلَقَ رَأْسَهُ[١] وَتَنَصَّرَ.

وَأَمَّا زَيْدٌ وَالْآخَرُونَ فَقَدْ كَانَ لَهُمْ شَأْنٌ آخَرُ: فَمَا إِنِ انْتَهَىٰ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ خُطْبَتِهِ، حَتَّىٰ وَقَفَ زَيْدُ الْخَيْلِ بَيْنَ جُمُوعِ الْمُسْلِمِينَ - وَكَانَ مِنْ أَجْمَلِ الرِّجَالِ جَمَالًا، وَأَتَمِّهِمْ خِلْقَةً وَأَطْوَلِهِمْ قَامَةً - حَتَّىٰ إِنَّهُ كَانَ يَرْكَبُ الْفَرَسَ فَتَخُطُّ رِجْلَاهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ كَمَا لَوْ كَانَ رَاكِبًا حِمَارًا...

وَقَفَ بِقَامَتِهِ الْمَمْشُوقَةِ، وَأَطْلَقَ صَوْتَهُ الْجَهِيرَ[٢] وَقَالَ:

يَا مُحَمَّدُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ.

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ وَقَالَ لَهُ: (مَنْ أَنْتَ؟).

قَالَ: أَنَا زَيْدُ الْخَيْلِ بْنُ مُهَلْهِلٍ.

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ:

(بَلْ أَنْتَ زَيْدُ الْخَيْرِ، لَا زَيْدُ الْخَيْلِ...

---

(١) حلق رأسه: أي فعل كما يفعل الرهبان حيث يحلقون رؤوسهم.
(٢) الجهير: القوي الواضح.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَاءَ بِكَ مِنْ سَهْلِكَ وَجَبَلِكَ ، وَرَقَّقَ قَلْبَكَ لِلْإِسْلَامِ).

فَعُرِفَ بَعْدَ ذَلِكَ بِزَيْدِ الْخَيْرِ ...

ثُمَّ مَضَىٰ بِهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ ، وَمَعَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَلَفِيفٌ[1] مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَلَمَّا بَلَغُوا الْبَيْتَ طَرَحَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِزَيْدٍ مُتَّكَأً ، فَعَظُمَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّكِئَ فِي حَضْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَرَدَّ الْمُتَّكَأَ ، وَمَا زَالَ يُعِيدُهُ الرَّسُولُ ﷺ لَهُ وَهُوَ يَرُدُّهُ ثَلَاثًا .

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمَجْلِسُ قَالَ الرَّسُولُ ﷺ لِزَيْدِ الْخَيْرِ :

(يَا زَيْدُ ، مَا وُصِفَ لِي رَجُلٌ قَطُّ ثُمَّ رَأَيْتُهُ إِلَّا كَانَ دُونَ مَا وُصِفَ بِهِ إِلَّا أَنْتَ) ... ثُمَّ قَالَ لَهُ : (كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا زَيْدُ) ؟ .

قَالَ زَيْدٌ : أَصْبَحْتُ أُحِبُّ الْخَيْرَ وَأَهْلَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِ ...

فَإِنْ عَمِلْتُ بِهِ أَيْقَنْتُ بِثَوَابِهِ ، وَإِنْ فَاتَنِي مِنْهُ شَيْءٌ حَنَنْتُ إِلَيْهِ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (هَٰذِهِ عَلَامَةُ اللَّهِ فِيمَنْ يُرِيدُ ...) .

فَقَالَ زَيْدٌ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي عَلَىٰ مَا يُرِيدُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ...

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ لَهُ :

أَعْطِنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَلَاثَمِائَةِ فَارِسٍ ، وَأَنَا كَفِيلٌ لَكَ بِأَنْ أُغِيرَ بِهِمْ عَلَىٰ بِلَادِ « الرُّومِ » وَأَنَالَ مِنْهُمْ .

فَأَكْبَرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ هِمَّتَهُ هَٰذِهِ ، وَقَالَ لَهُ :

(لِلَّهِ دَرُّكَ[2] يَا زَيْدُ ... أَيُّ رَجُلٍ أَنْتَ ؟!) .

---

(١) لفيفٌ : جمعٌ .
(٢) للّه درك : كلمة تقال للإعجاب ، ومعناها : ما أكثر خيرك .

ثُمَّ أَسْلَمَ مَعَ زَيْدٍ جَمِيعُ مَنْ صَحِبَهُ مِنْ قَوْمِهِ .

وَلَمَّا هَمَّ زَيْدٌ بِالرُّجُوعِ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فِي « نَجْدٍ » ، وَدَّعَهُ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَالَ :

(أَيُّ رَجُلٍ هَٰذَا ؟! ...

كَمْ سَيَكُونُ لَهُ مِنَ الشَّأْنِ لَوْ سَلِمَ مِنْ وَبَاءِ الْمَدِينَةِ !!) .

وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ الْمُنَوَّرَةُ آنَذَاكَ مَوْبُوءَةً بِالْحُمَّىٰ ، فَمَا إِنْ بَارَحَهَا زَيْدُ الْخَيْرِ ، حَتَّىٰ أَصَابَتْهُ ، فَقَالَ لِمَنْ مَعَهُ :

جَنِّبُونِي بِلَادَ « قَيْسٍ » ، فَقَدْ كَانَتْ بَيْنَنَا حَمَاسَاتٌ[1] مِنْ حَمَاقَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلَا وَاللَّهِ لَا أُقَاتِلُ مُسْلِمًا حَتَّىٰ أَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ .

* * *

تَابَعَ زَيْدُ الْخَيْرِ سَيْرَهُ نَحْوَ دِيَارِ أَهْلِهِ فِي « نَجْدٍ » ؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ وَطْأَةَ الْحُمَّىٰ كَانَتْ تَشْتَدُّ عَلَيْهِ سَاعَةً بَعْدَ أُخْرَىٰ ؛ فَقَدْ كَانَ يَتَمَنَّىٰ أَنْ يَلْقَىٰ قَوْمَهُ ، وَأَنْ يَكْتُبَ اللَّهُ لَهُمُ الْإِسْلَامَ عَلَىٰ يَدَيْهِ .

وَطَفِقَ يُسَابِقُ الْمَنِيَّةَ وَالْمَنِيَّةُ تُسَابِقُهُ ؛ لَكِنَّهَا مَا لَبِثَتْ أَنْ سَبَقَتْهُ ، فَلَفَظَ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ إِسْلَامِهِ وَمَوْتِهِ مُتَّسَعٌ لِأَنْ يَقَعَ فِي ذَنْبٍ (*) .

---

(١) حماسات الجاهلية : ما كان يحدث بينهم من حروب .

(*) للاستزادة من أخبار زَيْدِ الْخَيْرِ انظر :

١ – الإصابة : ١/٥٧٢ أو « الترجمة » ٢٩٤١.
٢ – الإستيعاب « بهامش الإصابة » : ١/٥٦٣.
٣ – الأغاني : « انظر الفهارس » .
٤ – تهذيب ابن عساكر : « انظر الفهارس » .
٥ – سمط اللآلئ : « انظر الفهارس » .
٦ – خزانة الأدب للبغدادي : ٢/٤٤٨.
٧ – ذيل المذيل : ٣٣.
٨ – ثمار القلوب : ٧٨.
٩ – الشعر والشعراء : ٩٥.
١٠ – حلية الأولياء : ١/٣٧٦.
١١ – حسن الصحابة : ٢٤٨.

عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِيُّ

« أَنْتَ آمَنْتَ إِذْ كَفَرُوا ، وَعَرَفْتَ إِذْ أَنْكَرُوا ،
وَوَفَّيْتَ إِذْ غَدَرُوا ، وَأَقْبَلْتَ إِذْ أَدْبَرُوا »

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ دَانَ(١) لِلْإِسْلَامِ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ بَعْدَ نُفُورٍ ، وَلَانَ لِلْإِيمَانِ بَعْدَ إِعْرَاضٍ وَصَدٍّ ، وَأَعْطَى الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعْدَ إِبَاءٍ .

ذَلِكُمْ هُوَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِيُّ الَّذِي يُضْرَبُ الْمَثَلُ بِجُودِ أَبِيهِ .

* * *

وَرِثَ عَدِيٌّ الرِّئَاسَةَ عَنْ أَبِيهِ فَمَلَّكَتْهُ « طَيِّئٌ » عَلَيْهَا ، وَفَرَضَتْ لَهُ الرُّبُعَ فِي غَنَائِمِهَا ، وَأَسْلَمَتْ إِلَيْهِ الْقِيَادَ .

وَلَمَّا صَدَعَ(٢) الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِدَعْوَةِ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَدَانَتْ لَهُ الْعَرَبُ حَيًّا بَعْدَ حَيٍّ ؛ رَأَى عَدِيٌّ فِي دَعْوَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ زَعَامَةً تُوشِكُ أَنْ تَقْضِيَ عَلَى زَعَامَتِهِ ، وَرِيَاسَةً سَتُفْضِي(٣) إِلَى إِزَالَةِ رِيَاسَتِهِ ، فَعَادَى الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْعَدَاوَةِ - وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ - وَأَبْغَضَهُ أَعْظَمَ الْبُغْضِ قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ .

وَظَلَّ عَلَى عَدَاوَتِهِ لِلْإِسْلَامِ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ عَامًا حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِدَعْوَةِ الْهُدَى وَالْحَقِّ .

* * *

(١) دان للإسلام : خضع له وانقاد .
(٢) صدع الرسول ﷺ بدعوته : أعلنها وجهر بها . (٣) ستفضي : ستؤول وتؤدي .

وَلِإِسْلَامِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قِصَّةٌ لَا تُنْسَىٰ ... فَلْنَتْرُكْ لِلرَّجُلِ نَفْسِهِ الْحَدِيثَ عَنْ قِصَّتِهِ ؛ فَهُوَ بِهَا أَوْلَىٰ ، وَبِرِوَايَتِهَا أَجْدَرُ[1].

قَالَ عَدِيٌّ :

مَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ كَانَ أَشَدَّ مِنِّي كَرَاهَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ سَمِعْتُ بِهِ ؛ فَقَدْ كُنْتُ امْرَأً شَرِيفًا ، وَكُنْتُ نَصْرَانِيًّا ، وَكُنْتُ أَسِيرُ فِي قَوْمِي بِالْمِرْبَاعِ ؛ فَآخُذُ الرُّبُعَ مِنْ غَنَائِمِهِمْ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ غَيْرِي مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ .

فَلَمَّا سَمِعْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَرِهْتُهُ .

وَلَمَّا عَظُمَ أَمْرُهُ وَاشْتَدَّتْ شَوْكَتُهُ[2]، وَجَعَلَتْ جُيُوشُهُ وَسَرَايَاهُ تُشَرِّقُ وَتُغَرِّبُ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ ؛ قُلْتُ لِغُلَامٍ لِي يَرْعَىٰ إِبِلِي :

لَا أَبَا لَكَ[3]، أَعْدِدْ لِي مِنْ إِبِلِي نُوقًا سِمَانًا سَهْلَةَ الْقِيَادِ وَارْبِطْهَا قَرِيبًا مِنِّي ، فَإِنْ سَمِعْتَ بِجَيْشٍ لِمُحَمَّدٍ أَوْ بِسَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَاهُ قَدْ وَطِئَتْ هَٰذِهِ الْبِلَادَ فَأَعْلِمْنِي ...

وَفِي ذَاتِ غَدَاةٍ أَقْبَلَ عَلَيَّ غُلَامِي وَقَالَ :

يَا مَوْلَايَ ، مَا كُنْتَ تَنْوِي أَنْ تَصْنَعَهُ إِذَا وَطِئَتْ أَرْضَكَ خَيْلُ مُحَمَّدٍ فَاصْنَعْهُ الْآنَ .

فَقُلْتُ : وَلِمَ ؟! ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ[4].

فَقَالَ : إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَايَاتٍ تَجُوسُ[5] خِلَالَ الدِّيَارِ ، فَسَأَلْتُ عَنْهَا ، فَقِيلَ لِي : هَٰذِهِ جُيُوشُ مُحَمَّدٍ ... فَقُلْتُ لَهُ :

(١) أجدر : أحقُّ .
(٢) اشتدت شوكته : ازدادت قوته .
(٣) لا أبا لك : كلمة تقال في المدح والذم ، والمراد بها هنا المدح .
(٤) ثكلتك أمك : فقدتك .
(٥) تجوس خلال الديار : تتجول في أرجاء الديار .

أَعْدِدْ لِيَ النُّوقَ الَّتِي أَمَرْتُكَ بِإِعْدَادِهَا وَقَرِّبْهَا مِنِّي .

ثُمَّ نَهَضْتُ لِسَاعَتِي ؛ فَدَعَوْتُ أَهْلِي وَأَوْلَادِي إِلَىٰ الرَّحِيلِ عَنِ الْأَرْضِ الَّتِي أَحْبَبْنَاهَا ، وَجَعَلْتُ أُغِذُّ[1] السَّيْرَ نَحْوَ بِلَادِ الشَّامِ لِأَلْحَقَ بِأَهْلِ دِينِي مِنَ النَّصَارَىٰ وَأَنْزِلَ بَيْنَهُمْ .

وَقَدْ أَعْجَلَنِي الْأَمْرُ عَنِ اسْتِقْصَاءِ[2] أَهْلِي كُلِّهِمْ فَلَمَّا اجْتَزْتُ مَوَاضِعَ الْخَطَرِ ، تَفَقَّدْتُ أَهْلِي ، فَإِذَا بِي قَدْ تَرَكْتُ أُخْتًا لِي[3] فِي مَوَاطِنِنَا فِي « نَجْدٍ » مَعَ مَنْ بَقِيَ هُنَاكَ مِنْ « طَيِّئٍ » ...

وَلَمْ يَكُنْ لِي مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ الرُّجُوعِ إِلَيْهَا .

فَمَضَيْتُ بِمَنْ مَعِي حَتَّىٰ بَلَغْتُ « الشَّامَ » ، وَأَقَمْتُ فِيهَا بَيْنَ أَبْنَاءِ دِينِي .

أَمَّا أُخْتِي فَقَدْ نَزَلَ بِهَا مَا كُنْتُ أَتَوَقَّعُهُ وَأَخْشَاهُ .

* * *

لَقَدْ بَلَغَنِي وَأَنَا فِي دِيَارِ الشَّامِ أَنَّ خَيْلَ مُحَمَّدٍ أَغَارَتْ عَلَىٰ دِيَارِنَا وَأَخَذَتْ أُخْتِي فِي جُمْلَةِ مَنْ أَخَذَتْهُ مِنَ السَّبَايَا وَسِيقَتْ إِلَىٰ « يَثْرِبَ » .

وَهُنَاكَ وُضِعَتْ مَعَ السَّبَايَا فِي حَظِيرَةٍ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ ، فَمَرَّ بِهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَامَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَلَكَ الْوَالِدُ ، وَغَابَ الْوَافِدُ ؛ فَامْنُنْ عَلَيَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ .

فَقَالَ : (وَمَنْ وَافِدُكِ ؟) .

فَقَالَتْ : عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ .

---

(١) أُغِذُّ السَّيرَ : أسرع فيه .

(٢) استقصاء أهلي : جمع أهلي كلهم .

(٣) علَى الأرجح أنها سفانة بنت حاتم إذ لَا يعرف له بنت غيرها .

فَقَالَ : (الْفَارُّ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؟!) .

ثُمَّ مَضَىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَرَكَهَا .

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ مَرَّ بِهَا فَقَالَتْ لَهُ مِثْلَ قَوْلِهَا بِالْأَمْسِ ، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ قَوْلِهِ .

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ الْغَدِ مَرَّ بِهَا وَقَدْ يَئِسَتْ مِنْهُ فَلَمْ تَقُلْ شَيْئًا ، فَأَشَارَ لَهَا رَجُلٌ مِنْ خَلْفِهِ أَنْ قُومِي إِلَيْهِ وَكَلِّمِيهِ ... فَقَامَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَلَكَ الْوَالِدُ ، وَغَابَ الْوَافِدُ ، فَامْنُنْ عَلَيَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ .

فَقَالَ : (قَدْ فَعَلْتُ) .

فَقَالَتْ : إِنِّي أُرِيدُ اللَّحَاقَ بِأَهْلِي فِي الشَّامِ .

فَقَالَ ﷺ : (وَلَكِنْ لَا تَعْجَلِي بِالْخُرُوجِ حَتَّىٰ تَجِدِي مَنْ تَثِقِينَ بِهِ مِنْ قَوْمِكِ لِيُبَلِّغَكِ بِلَادَ الشَّامِ ، فَإِذَا وَجَدْتِ الثِّقَةَ فَأَعْلِمِينِي) .

وَلَمَّا انْصَرَفَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَأَلَتْ عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي أَشَارَ عَلَيْهَا أَنْ تُكَلِّمَهُ ، فَقِيلَ لَهَا : إِنَّهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

ثُمَّ أَقَامَتْ حَتَّىٰ قَدِمَ رَكْبٌ فِيهِمْ مَنْ تَثِقُ بِهِ ، فَجَاءَتْ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَتْ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَقَدْ قَدِمَ رَهْطٌ[1] مِنْ قَوْمِي لِي فِيهِمْ ثِقَةٌ وَبَلَاغٌ[2] ، فَكَسَاهَا الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَمَنَحَهَا نَاقَةً تَحْمِلُهَا ، وَأَعْطَاهَا نَفَقَةً تَكْفِيهَا ، فَخَرَجَتْ مَعَ الرَّكْبِ .

* * *

(١) رهط : جماعة .

(٢) بلاغ : قدرة علىٰ إيصالي إلىٰ أهلي .

قَالَ عَدِيٌّ :

ثُمَّ جَعَلْنَا بَعْدَ ذَلِكَ نَتَنَسَّمُ(١) أَخْبَارَهَا ، وَنَتَرَقَّبُ قُدُومَهَا ، وَنَحْنُ لَا نَكَادُ نُصَدِّقُ مَا رُوِيَ لَنَا مِنْ خَبَرِهَا مَعَ مُحَمَّدٍ وَ إِحْسَانِهِ إِلَيْهَا كُلَّ ذَلِكَ الْإِحْسَانِ ، مَعَ مَا كَانَ مِنِّي تِجَاهَهُ .

فَوَاللَّهِ إِنِّي لَقَاعِدٌ فِي أَهْلِي إِذْ أَبْصَرْتُ امْرَأَةً فِي هَوْدَجِهَا(٢) تَتَّجِهُ نَحْوَنَا ، فَقُلْتُ :

ابْنَةُ حَاتِمٍ ، فَإِذَا هِيَ هِيَ .

فَلَمَّا وَقَفَتْ عَلَيْنَا بَادَرَتْنِي بِقَوْلِهَا :

الْقَاطِعُ(٣) الظَّالِمُ ...

لَقَدِ احْتَمَلْتَ(٤) بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ وَتَرَكْتَ بَقِيَّةَ وَالِدِكَ وَعَوْرَتَكَ(٥).

فَقُلْتُ : أَيْ أُخَيَّةُ ، لَا تَقُولِي إِلَّا خَيْرًا ... وَجَعَلْتُ أَسْتَرْضِيهَا حَتَّىٰ رَضِيَتْ ، وَقَصَّتْ عَلَيَّ خَبَرَهَا ، فَإِذَا هُوَ كَمَا تَنَاهَىٰ(٦) إِلَيَّ ، فَقُلْتُ لَهَا ـ وَكَانَتِ امْرَأَةً حَازِمَةً عَاقِلَةً ـ :

مَا تَرَيْنَ فِي أَمْرِ الرَّجُلِ ؟ [يَعْنِي مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ] ، فَقَالَتْ :

أَرَىٰ ـ وَاللَّهِ ـ أَنْ تَلْحَقَ بِهِ سَرِيعًا ، فَإِنْ يَكُنْ نَبِيًّا فَلِلسَّابِقِ إِلَيْهِ فَضْلُهُ ... وَ إِنْ يَكُنْ مَلِكًا فَلَنْ تُذَلَّ عِنْدَهُ وَأَنْتَ أَنْتَ .

* * *

(١) نتنسم أخبارها : نتتبع أخبارها شَيْئًا فَشَيْئًا.
(٢) الْهَوْدَج : محمل له قبة يوضع فوق الناقة لتركب فيه النساء.
(٣) الْقاطع : أي الْقاطع رحمه.
(٤) لقد احتملت بأهلك : لقد أَخَذْتَ أهلك.
(٥) عورة الرّجل : كل ما يخشىٰ عَلَيْهِ ويستره.
(٦) تناهىٰ إِلَيَّ : بلغني.

قَالَ عَدِيٌّ :

فَهَيَّأْتُ جِهَازِي[1] وَمَضَيْتُ حَتَّىٰ قَدِمْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ ، مِنْ غَيْرِ أَمَانٍ وَلَا كِتَابٍ ، وَكَانَ بَلَغَنِي أَنَّهُ قَالَ :

إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ يَدَ عَدِيٍّ فِي يَدِي ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ـ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ ـ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ .

فَقَالَ : (مَنِ الرَّجُلِ ؟) .

فَقُلْتُ : عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ ، فَقَامَ إِلَيَّ ، وَأَخَذَ بِيَدِي وَانْطَلَقَ بِي إِلَىٰ بَيْتِهِ .

فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَاضٍ بِي إِلَىٰ الْبَيْتِ إِذْ لَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ ضَعِيفَةٌ كَبِيرَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ صَغِيرٌ فَاسْتَوْقَفَتْهُ ، وَجَعَلَتْ تُكَلِّمُهُ فِي حَاجَةٍ لَهَا ، فَظَلَّ مَعَهُمَا حَتَّىٰ قَضَىٰ حَاجَتَهُمَا وَأَنَا وَاقِفٌ ...

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : وَاللَّهِ مَا هَٰذَا بِمَلِكٍ .

ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي وَمَضَىٰ بِي حَتَّىٰ أَتَيْنَا مَنْزِلَهُ ، فَتَنَاوَلَ وِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ[2] مَحْشُوَّةً لِيفًا ، فَأَلْقَاهَا إِلَيَّ وَقَالَ :

(اجْلِسْ عَلَىٰ هَٰذِهِ) .

فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ : بَلْ أَنْتَ تَجْلِسُ عَلَيْهَا .

فَقَالَ ﷺ : (بَلْ أَنْتَ) .

فَامْتَثَلْتُ وَجَلَسْتُ عَلَيْهَا ، وَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ الْأَرْضِ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ سِوَاهَا .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : وَاللَّهِ مَا هَٰذَا بِأَمْرِ مَلِكٍ .

(١) الجهاز : ما يتجهز به المسافر لسفره. (٢) الأدم : الجلد.

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ : (إِيهِ يَا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ ، أَلَمْ تَكُنْ رَكُوسِيًّا تَدِينُ بِدِينٍ بَيْنَ النَّصْرَانِيَّةِ وَالصَّابِئَةِ ؟) ، قُلْتُ : بَلَىٰ .

فَقَالَ ﷺ : (أَلَمْ تَكُنْ تَسِيرُ فِي قَوْمِكَ بِالْمِرْبَاعِ فَتَأْخُذُ مِنْهُمْ مَا لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ ؟!) .

فَقُلْتُ : بَلَىٰ ... وَعَرَفْتُ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، يَعْلَمُ مَا يُجْهَلُ .

ثُمَّ قَالَ لِي : (لَعَلَّكَ يَا عَدِيُّ ، إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الدُّخُولِ فِي هَٰذَا الدِّينِ مَا تَرَاهُ مِنْ حَاجَةِ الْمُسْلِمِينَ وَفَقْرِهِمْ ، فَوَاللَّهِ لَيُوشِكَنَّ[1] الْمَالُ أَنْ يَفِيضَ فِيهِمْ حَتَّىٰ لَا يُوجَدُ مَنْ يَأْخُذُهُ ...

وَلَعَلَّكَ - يَا عَدِيُّ - إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الدُّخُولِ فِي هَٰذَا الدِّينِ مَا تَرَىٰ مِنْ قِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ ، فَوَاللَّهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بِالْمَرْأَةِ تَخْرُجُ مِنَ « الْقَادِسِيَّةِ » عَلَىٰ بَعِيرِهَا حَتَّىٰ تَزُورَ هَٰذَا الْبَيْتَ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ...

وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الدُّخُولِ فِي هَٰذَا الدِّينِ أَنَّكَ تَرَىٰ أَنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ فِي غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَيْمُ اللَّهِ[2] لَيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بِالْقُصُورِ الْبِيضِ مِنْ أَرْضِ « بَابِلَ »[3] قَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّ كُنُوزَ « كِسْرَىٰ بْنِ هُرْمُزَ » قَدْ صَارَتْ إِلَيْهِمْ) .

فَقُلْتُ : كُنُوزُ كِسْرَىٰ بْنِ هُرْمُزَ ؟!! .

فَقَالَ : (نَعَمْ كُنُوزُ كِسْرَىٰ بْنِ هُرْمُزَ) .

قَالَ عَدِيٌّ : عِنْدَ ذَٰلِكَ شَهِدْتُ شَهَادَةَ الْحَقِّ وَأَسْلَمْتُ .

* * *

(١) أوشك الأمر : اقترب .
(٢) أيم الله : اسم وضع للقسم .
(٣) بابل : منطقة من أرض العراق .

عُمِّرَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طَوِيلًا ، وَكَانَ يَقُولُ :

لَقَدْ تَحَقَّقَتِ اثْنَتَانِ وَبَقِيَتِ الثَّالِثَةُ ، وَإِنَّهَا وَاللَّهِ لَا بُدَّ كَائِنَةٌ .

فَقَدْ رَأَيْتُ الْمَرْأَةَ تَخْرُجُ مِنَ « الْقَادِسِيَّةِ » عَلَىٰ بَعِيرِهَا لَا تَخَافُ شَيْئًا حَتَّىٰ تَبْلُغَ هَٰذَا الْبَيْتَ ...

وَكُنْتُ فِي أَوَّلِ خَيْلٍ أَغَارَتْ عَلَىٰ كُنُوزِ كِسْرَىٰ وَأَخَذَتْهَا ...

وَأَحْلِفُ بِاللَّهِ لَتَجِيئَنَّ الثَّالِثَةُ .

* * *

وَقَدْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ قَوْلَ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ السَّلَامِ ؛ فَجَاءَتِ الثَّالِثَةُ فِي عَهْدِ الْخَلِيفَةِ الزَّاهِدِ الْعَابِدِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ[1]، حَيْثُ فَاضَتِ الْأَمْوَالُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ حَتَّىٰ جَعَلَ مُنَادِيهِ يُنَادِي عَلَىٰ مَنْ يَأْخُذُ أَمْوَالَ الزَّكَاةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا .

وَصَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

وَبَرَّ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ بِقَسَمِهِ (*) .

---

(١) عمر بن عبد العزيز : انظره في كتاب « صور من حياة التابعين » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي .

(*) للاستزادة من أخبار عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ انظر :

١ - الإصابة : ٤٦٨/٢ أو « الترجمة » ٥٤٧٥.
٢ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٣/ ١٤٠.
٣ - تاريخ الإسلام للذهبي : ٤٦/٣ - ٤٨.
٤ - تهذيب التهذيب : ١٦٦/٧ - ١٦٧.
٥ - الجمع بين رجال الصحيحين : ١/ ٣٩٨.
٦ - خلاصة تذهيب تهذيب الكمال : ٢٦٣ - ٢٦٤.
٧ - تجريد أسماء الصحابة : ١/ ٤٠٥.
٨ - تقريب التهذيب : ١٦/٢.
٩ - العبر : ١/ ٧٤.
١٠- التاريخ الكبير : ج٤ ق١ ١/ ٤٣.
١١- أسد الغابة : ٣٩٢/٣ - ٣٩٤.
١٢- شذرات الذهب : ١/ ٧٤.
١٣- المعارف : ١٣٦.
١٤- المعمرون : ٤٦.
١٥- ابن كثير : ٥/ ٦٥.
١٦- فتح الباري : ٦/ ٦١٠.
١٧- دلائل النبوة : ٤٧٢.

أَبُو ذَرٍّ الغِفَارِيّ

جُنْدُبُ بْنُ جُنَادَةَ

« مَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ وَلَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ »

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

فِي وَادِي « وَدَّانَ » الَّذِي يَصِلُ مَكَّةَ بِالْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ كَانَتْ تَنْزِلُ قَبِيلَةُ « غِفَارٍ ».

وَكَانَتْ « غِفَارٌ » تَعِيشُ مِنْ ذَلِكَ النَّزْرِ الْيَسِيرِ[1] الَّذِي تَبْذُلُهُ لَهَا الْقَوَافِلُ الَّتِي تَسْعَىٰ بِتِجَارَةِ قُرَيْشٍ ذَاهِبَةً إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ أَوْ آيِبَةً[2] مِنْهَا.

وَرُبَّمَا عَاشَتْ مِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَىٰ هَٰذِهِ الْقَوَافِلِ إِذَا هِيَ لَمْ تُعْطِهَا مَا يُرْضِيهَا.

وَكَانَ « جُنْدُبُ بْنُ جُنَادَةَ » الْمُكَنَّىٰ بِأَبِي ذَرٍّ وَاحِدًا مِنْ أَبْنَاءِ هَٰذِهِ الْقَبِيلَةِ، لَكِنَّهُ كَانَ يَمْتَازُ مِنْهُمْ بِجُرْأَةِ الْقَلْبِ، وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ، وَبُعْدِ النَّظَرِ...

وَبِأَنَّهُ كَانَ يَضِيقُ أَشَدَّ الضِّيقِ بِهَٰذِهِ الْأَوْثَانِ الَّتِي يَعْبُدُهَا قَوْمُهُ مِنْ دُونِ اللهِ.

وَيَسْتَنْكِرُ مَا وَجَدَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ مِنْ فَسَادِ الدِّينِ، وَتَفَاهَةِ الْمُعْتَقَدِ.

وَيَتَطَلَّعُ إِلَىٰ ظُهُورِ نَبِيٍّ جَدِيدٍ يَمْلَأُ عَلَى النَّاسِ عُقُولَهُمْ وَأَفْئِدَتَهُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

* * *

(١) النزر اليسير: الشيء القليل.

(٢) آيبة منها: راجعة منها.

ثُمَّ تَنَاهَتْ(١) إِلَىٰ أَبِي ذَرٍّ ـ وَهُوَ فِي بَادِيَتِهِ ـ أَخْبَارُ النَّبِيِّ الْجَدِيدِ الَّذِي ظَهَرَ فِي مَكَّةَ، فَقَالَ لِأَخِيهِ «أُنَيْس»:

انْطَلِقْ ـ لَا أَبَا لَكَ(٢) ـ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَقِفْ عَلَىٰ أَخْبَارِ هَٰذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَّهُ يَأْتِيهِ وَحْيٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْمَعْ شَيْئًا مِنْ قَوْلِهِ وَاحْمِلْهُ إِلَيَّ.

* * *

ذَهَبَ «أُنَيْسٌ» إِلَىٰ مَكَّةَ، وَالْتَقَىٰ بِالرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، ثُمَّ عَادَ إِلَىٰ الْبَادِيَةِ فَتَلَقَّاهُ أَبُو ذَرٍّ فِي لَهْفَةٍ، وَسَأَلَهُ عَنْ أَخْبَارِ النَّبِيِّ الْجَدِيدِ فِي شَغَفٍ(٣).

فَقَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ ـ وَاللَّهِ ـ رَجُلًا يَدْعُو إِلَىٰ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَيَقُولُ كَلَامًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ.

فَقَالَ لَهُ: وَمَاذَا يَقُولُ النَّاسُ فِيهِ؟.

فَقَالَ: يَقُولُونَ: إِنَّهُ سَاحِرٌ، وَكَاهِنٌ، وَشَاعِرٌ.

فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: وَاللَّهِ مَا شَفَيْتَ لِي غَلِيلًا(٤)، وَلَا قَضَيْتَ لِي حَاجَةً، فَهَلْ أَنْتَ كَافٍ عِيَالِي حَتَّىٰ أَنْطَلِقَ فَأَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ؟.

فَقَالَ: نَعَمْ ... وَلَكِنْ كُنْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَىٰ حَذَرٍ.

* * *

تَزَوَّدَ أَبُو ذَرٍّ لِنَفْسِهِ، وَحَمَلَ مَعَهُ قِرْبَةَ مَاءٍ صَغِيرَةً، وَاتَّجَهَ مِنْ غَدِهِ إِلَىٰ مَكَّةَ يُرِيدُ لِقَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْوُقُوفَ عَلَىٰ خَبَرِهِ بِنَفْسِهِ.

* * *

(١) تناهت إليه الأخبار: بلغته.
(٢) لا أبا لك: كلمة تقال في المدح والذم، والمراد بها هنا المدح.
(٣) في شغف: في شوق.
(٤) الغليل: العطش.

بَلَغَ أَبُو ذَرٍّ مَكَّةَ وَهُوَ مُتَوَجِّسٌ[1] خِيفَةً مِنْ أَهْلِهَا ، فَقَدْ تَنَاهَتْ إِلَيْهِ أَخْبَارُ غَضْبَةِ قُرَيْشٍ لِآلِهَتِهِمْ ، وَتَنْكِيلِهِمْ[2] بِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ .

لِذَا كَرِهَ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا عَنْ مُحَمَّدٍ ، لِأَنَّهُ مَا كَانَ يَدْرِي أَيَكُونُ هَٰذَا الْمَسْؤُولُ مِنْ شِيعَتِهِ[3] أَمْ مِنْ عَدُوِّهِ ؟ .

* * *

وَلَمَّا أَقْبَلَ اللَّيْلُ اضْطَجَعَ فِي الْمَسْجِدِ ، فَمَرَّ بِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَعَرَفَ أَنَّهُ غَرِيبٌ فَقَالَ :

هَلُمَّ[4] إِلَيْنَا أَيُّهَا الرَّجُلُ ، فَمَضَىٰ مَعَهُ وَبَاتَ لَيْلَتَهُ عِنْدَهُ ، وَفِي الصَّبَاحِ حَمَلَ قِرْبَتَهُ وَمِزْوَدَهُ[5] وَعَادَ إِلَى الْمَسْجِدِ دُونَ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ .

ثُمَّ قَضَىٰ أَبُو ذَرٍّ يَوْمَهُ الثَّانِي دُونَ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمَّا أَمْسَىٰ أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَمَرَّ بِهِ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ :

أَمَّا آنَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَعْرِفَ مَنْزِلَهُ ؟! .

ثُمَّ اصْطَحَبَهُ مَعَهُ فَبَاتَ عِنْدَهُ لَيْلَتَهُ الثَّانِيَةَ ، وَلَمْ يَسْأَلْ أَحَدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ .

فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ قَالَ عَلِيٌّ لِصَاحِبِهِ : أَلَا تُحَدِّثُنِي عَمَّا أَقْدَمَكَ إِلَىٰ مَكَّةَ ؟ .

فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ : إِنْ أَعْطَيْتَنِي مِيثَاقًا[6] أَنْ تُرْشِدَنِي إِلَىٰ مَا أَطْلُبُ فَعَلْتُ .

فَأَعْطَاهُ عَلِيٌّ مَا أَرَادَ مِنْ مِيثَاقٍ .

---

(١) متوجس خيفة : مستشعر بالخوف متحسّس به .
(٢) تنكيلهم : بطشهم .
(٣) من شيعته : من أنصاره .
(٤) هلم إلينا : تعال عندنا .
(٥) المزود : كيس يوضع فيه الطّعام .
(٦) الميثاق : العهد الواجب الوفاء .

فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ : لَقَدْ قَصَدْتُ مَكَّةَ مِنْ أَمَاكِنَ بَعِيدَةٍ أَبْتَغِي لِقَاءَ النَّبِيِّ الْجَدِيدِ وَسَمَاعَ شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُهُ .

فَانْفَرَجَتْ أَسَارِيرُ[1] عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَقَالَ :

وَاللَّهِ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ حَقًّا ، وَإِنَّهُ ... وَإِنَّهُ ...

فَإِذَا أَصْبَحْنَا فَاتْبَعْنِي حَيْثُمَا سِرْتُ ، فَإِنْ رَأَيْتُ شَيْئًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ وَقَفْتُ كَأَنِّي أُرِيقُ الْمَاءَ ، فَإِنْ مَضَيْتُ فَاتْبَعْنِي حَتَّىٰ تَدْخُلَ مَدْخَلِي .

* * *

لَمْ يَقَرَّ لِأَبِي ذَرٍّ مَضْجَعٌ طَوَالَ لَيْلَتِهِ شَوْقًا إِلَىٰ رُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَهْفَةً إِلَىٰ اسْتِمَاعِ شَيْءٍ مِمَّا يُوحَىٰ بِهِ إِلَيْهِ .

وَفِي الصَّبَاحِ مَضَىٰ عَلِيٌّ بِضَيْفِهِ إِلَىٰ بَيْتِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ وَمَضَىٰ أَبُو ذَرٍّ وَرَاءَهُ يَقْفُوهُ[2] وَهُوَ لَا يَلْوِي[3] عَلَىٰ شَيْءٍ ؛ حَتَّىٰ دَخَلَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ الرَّسُولُ : (وَعَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ) .

فَكَانَ أَبُو ذَرٍّ أَوَّلَ مَنْ حَيَّا الرَّسُولَ ﷺ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ شَاعَتْ وَعَمَّتْ بَعْدَ ذَلِكَ .

* * *

أَقْبَلَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَىٰ أَبِي ذَرٍّ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَيَقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ أَعْلَنَ كَلِمَةَ الْحَقِّ ، وَدَخَلَ فِي الدِّينِ الْجَدِيدِ قَبْلَ أَنْ يَبْرَحَ مَكَانَهُ ، فَكَانَ رَابِعَ ثَلَاثَةٍ أَسْلَمُوا أَوْ خَامِسَ أَرْبَعَةٍ .

---

(١) انفرجت أسارير عليّ : بدا السرور علَى وجهه .
(٢) يقفوه : يتبعه ويمشي علَى أثره .
(٣) لا يلوي علَى شيء : لا يلتفت إلى شيء .

وَلْنَتْرُكِ الْكَلَامَ لِأَبِي ذَرٍّ لِيَقُصَّ عَلَيْنَا بِنَفْسِهِ بَقِيَّةَ خَبَرِهِ ، قَالَ :

أَقَمْتُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَكَّةَ فَعَلَّمَنِي الْإِسْلَامَ ، وَأَقْرَأَنِي شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ ، ثُمَّ قَالَ لِي :

(لَا تُخْبِرْ بِإِسْلَامِكَ أَحَدًا فِي مَكَّةَ ، فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ يَقْتُلُوكَ) .

فَقُلْتُ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَبْرَحُ مَكَّةَ حَتَّىٰ آتِيَ الْمَسْجِدَ وَأَصْرُخَ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ[1] قُرَيْشٍ ؛ فَسَكَتَ الرَّسُولُ ﷺ ...

فَجِئْتُ الْمَسْجِدَ وَقُرَيْشٌ جُلُوسٌ يَتَحَدَّثُونَ ، فَتَوَسَّطْتُهُمْ ، وَنَادَيْتُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِي : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

فَمَا كَادَتْ كَلِمَاتِي تُلَامِسُ آذَانَ الْقَوْمِ حَتَّىٰ ذُعِرُوا جَمِيعًا ، وَهَبُّوا مِنْ مَجَالِسِهِمْ ، وَقَالُوا :

عَلَيْكُمْ بِهَٰذَا الصَّابِئِ[2]... وَقَامُوا إِلَيَّ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَنِي لِأَمُوتَ ، فَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَكَبَّ عَلَيَّ لِيَحْمِيَنِي مِنْهُمْ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ : وَيْلَكُمْ[3]!! ... أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا مِنْ « غِفَارٍ » ؛ وَمَمَرُّ قَوَافِلِكُمْ عَلَيْهِمْ ؟! ... فَأَقْلَعُوا[4] عَنِّي .

وَلَمَّا أَفَقْتُ جِئْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَىٰ مَا بِي قَالَ :

(أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ إِعْلَانِ إِسْلَامِكَ ؟) .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَانَتْ حَاجَةً فِي نَفْسِي فَقَضَيْتُهَا .

فَقَالَ : (الْحَقْ بِقَوْمِكَ ، وَخَبِّرْهُمْ بِمَا رَأَيْتَ وَمَا سَمِعْتَ ، وَادْعُهُمْ إِلَىٰ

---

(١) بين ظهراني قريش : في وسط قريش .
(٢) الصّابئ : الخارج من دينه .
(٣) الويل : الهلاك .
(٤) أقلعوا عني : كفوا عني وتركوني .

اللَّهِ ، لَعَلَّ اللَّهَ يَنْفَعُهُمْ بِكَ وَيُؤْجِرُكَ فِيهِمْ ... فَإِذَا بَلَغَكَ أَنِّي ظَهَرْتُ فَتَعَالَ إِلَيَّ) .

قَالَ أَبُو ذَرٍّ :

فَانْطَلَقْتُ حَتَّىٰ أَتَيْتُ مَنَازِلَ قَوْمِي فَلَقِيَنِي أَخِي أُنَيسٌ فَقَالَ :

مَا صَنَعْتَ ؟ .

قُلْتُ : صَنَعْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ ، وَصَدَّقْتُ ...

فَمَا لَبِثَ[1] أَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ وَقَالَ :

مَا لِيَ رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكَ ، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ أَيْضًا .

ثُمَّ أَتَيْنَا أُمَّنَا فَدَعَوْنَاهَا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ فَقَالَتْ :

مَا لِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكُمَا ، وَأَسْلَمَتْ أَيْضًا .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ انْطَلَقَتِ الْأُسْرَةُ الْمُؤْمِنَةُ تَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ فِي « غِفَارٍ » لَا تَكِلُّ عَنْ ذَلِكَ وَلَا تَمَلُّ مِنْهُ ، حَتَّىٰ أَسْلَمَ مِنْ « غِفَارٍ » خَلْقٌ كَثِيرٌ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فِيهِمْ .

وَقَالَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ : نَبْقَىٰ عَلَىٰ دِينِنَا حَتَّىٰ إِذَا قَدِمَ الرَّسُولُ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا ، فَلَمَّا قَدِمَ الرَّسُولُ ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمُوا ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(غِفَارٌ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا ، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللَّهُ) .

* * *

أَقَامَ أَبُو ذَرٍّ فِي بَادِيَتِهِ حَتَّىٰ مَضَتْ « بَدْرٌ » ، وَ« أُحُدٌ » ، وَ« الْخَنْدَقُ » ... ثُمَّ قَدِمَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ وَانْقَطَعَ[2] إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَاسْتَأْذَنَهُ فِي أَنْ يَقُومَ عَلَىٰ خِدْمَتِهِ ؛ فَأَذِنَ لَهُ وَنَعِمَ بِصُحْبَتِهِ وَسَعِدَ بِخِدْمَتِهِ .

---

(١) ما لبث : ما أبطأ .

(٢) انقطع إلىٰ رسول الله : خصص نفسه لصحبته .

وَظَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُؤْثِرُهُ[١] وَيُكْرِمُهُ، فَمَا لَقِيَهُ مَرَّةً إِلَّا صَافَحَهُ، وَهَشَّ فِي وَجْهِهِ وَبَشَّ[٢].

* * *

وَلَمَّا لَحِقَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ[٣]؛ لَمْ يُطِقْ أَبُو ذَرٍّ صَبْرًا عَلَىٰ الْإِقَامَةِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ بَعْدَ أَنْ خَلَتْ مِنْ سَيِّدِهَا وَأَقْفَرَتْ مِنْ هَدْيِ مَجَالِسِهِ، فَرَحَلَ إِلَىٰ بَادِيَةِ الشَّامِ وَأَقَامَ فِيهَا مُدَّةَ خِلَافَةِ الصِّدِّيقِ وَالْفَارُوقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعَنْهُ.

* * *

وَفِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ[٤] نَزَلَ فِي «دِمَشْقَ» فَرَأَىٰ مِنْ إِقْبَالِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الدُّنْيَا وَانْغِمَاسِهِمْ فِي التَّرَفِ[٥] مَا أَذْهَلَهُ وَدَفَعَهُ إِلَىٰ اسْتِنْكَارِ[٦] ذَلِكَ؛ فَاسْتَدْعَاهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، فَقَدِمَ إِلَيْهَا، لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ ضَاقَ بِرَغْبَةِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَضَاقَ النَّاسُ بِشِدَّتِهِ عَلَيْهِمْ وَتَنْدِيدِهِ[٧] بِهِمْ، فَأَمَرَهُ عُثْمَانُ بِالِانْتِقَالِ إِلَىٰ «الرَّبَذَةِ» وَهِيَ قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ قُرَىٰ الْمَدِينَةِ، فَرَحَلَ إِلَيْهَا وَأَقَامَ فِيهَا بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ، زَاهِدًا بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا، مُسْتَمْسِكًا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَصَاحِبَاهُ مِنْ إِيثَارِ الْبَاقِيَةِ عَلَىٰ الْفَانِيَةِ[٨].

* * *

دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ ذَاتَ مَرَّةٍ فَجَعَلَ يُقَلِّبُ الطَّرْفَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مَتَاعًا.

فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، أَيْنَ مَتَاعُكُمْ؟!.

---

(١) يؤثره: يفضله عَلَىٰ غيره.
(٢) هش في وجهه وبش: ابتسم له وأظهر السرور للقائه.
(٣) لحق بالرفيق الأعلىٰ: وافاه الأجل.
(٤) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ: انظره ص ٥٣٥.
(٥) انغماسهم في الترف: شدة رغبتهم بالنعيم.
(٦) استنكاره: استغرابه وعدم إقراره.
(٧) تنديده بهم: إشهاره لعيوبهم، وإسماعهم قارس الكلام.
(٨) الباقية: هي الآخرة، والفانية: هي الدنيا.

فَقَالَ : لَنَا بَيْتٌ هُنَاكَ [يَعْنِي الْآخِرَةَ] نُرْسِلُ إِلَيْهِ صَالِحَ مَتَاعِنَا .

فَفَهِمَ الرَّجُلُ مُرَادَهُ وَقَالَ لَهُ :

وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مَتَاعٍ مَا دُمْتَ فِي هَٰذِهِ الدَّارِ [يَعْنِي الدُّنْيَا] ...

فَأَجَابَ : وَلَكِنَّ صَاحِبَ الْمَنْزِلِ لَا يَتْرُكُنَا فِيهِ .

* * *

وَبَعَثَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الشَّامِ بِثَلَاثِمِائَةِ دِينَارٍ ، وَقَالَ لَهُ :

اسْتَعِنْ بِهَا عَلَىٰ قَضَاءِ حَاجَتِكَ ، فَرَدَّهَا إِلَيْهِ ، وَقَالَ :

أَمَا وَجَدَ أَمِيرُ الشَّامِ عَبْدًا لِلَّهِ أَهْوَنَ(١) عَلَيْهِ مِنِّي ؟ ...

* * *

وَفِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثِينَ لِلْهِجْرَةِ اسْتَأْثَرَتْ يَدُ الْمَنُونِ بِالْعَابِدِ الزَّاهِدِ الَّذِي قَالَ فِيهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(مَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ(٢) وَلَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ(٣) مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ) (*) .

---

(١) أهون عليه مني : أذل عنده مني .
(٢) أقلت الغبراء : حملت الأرض .
(٣) الخضراء : السماء .

(*) للاستزادة من أخبار أبي ذرٍّ الْغِفَارِيِّ انظر :
١ - الإصابة : ٤/ ٦٢ أو « الترجمة » ٣٨٤ .
٢ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٤/ ٦١ .
٣ - تهذيب التهذيب : ٢/ ٤٢٠ .
٤ - تجريد أسماء الصحابة : ٢/ ١٧٥ .
٥ - تذكرة الحفاظ : ١/ ١٥ - ١٦ .
٦ - حلية الأولياء : ١/ ١٥٦ - ١٧٠ .
٧ - صفة الصفوة : ١/ ٢٣٨ - ٢٤٥ .
٨ - طبقات الشعراني : ٣٢ .
٩ - المعارف : ١١٠ - ١١١ .
١٠ - شذرات الذهب : ١/ ٣٩ .
١١ - العبر : ١/ ٣٣ .
١٢ - زعماء الإسلام : ١٦٧ - ١٧٣ .

عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُوم

« رَجُلٌ أَعْمَىٰ أَنْزَلَ اللّٰهُ فِي شَأْنِهِ سِتَّ عَشْرَةَ آيَةً تُلِيَتْ
وَسَتَظَلُّ تُتْلَىٰ مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ »

[الْمُفَسِّرُونَ]

مَنْ هَـٰذَا الَّذِي عُوتِبَ فِيهِ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ أَقْسَىٰ عِتَابٍ وَأَوْجَعَهُ ؟! ...

مَنْ هَـٰذَا الَّذِي نَزَلَ بِشَأْنِهِ جِبْرِيلُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ بِوَحْيٍ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ ؟! ...

إِنَّهُ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ مُؤَذِّنُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللّٰهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

* * *

وَعَبْدُ اللّٰهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ مَكِّيٌّ قُرَشِيٌّ تَرْبِطُهُ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَحِمٌ ، فَقَدْ كَانَ ابْنَ خَالِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رِضْوَانُ اللّٰهِ عَلَيْهَا .

أَمَّا أَبُوهُ فَقَيْسُ بْنُ زَائِدَةَ ، وَأَمَّا أُمُّهُ فَعَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللّٰهِ ، وَقَدْ دُعِيَتْ بِأُمِّ مَكْتُومٍ لِأَنَّهَا وَلَدَتْهُ أَعْمَىٰ مَكْتُومًا .

* * *

شَهِدَ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ مَطْلِعَ النُّورِ فِي مَكَّةَ ، فَشَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ ، وَكَانَ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ .

عَاشَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ مِحْنَةَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ بِكُلِّ مَا حَفَلَتْ بِهِ مِنْ تَضْحِيَةٍ وَثَبَاتٍ وَصُمُودٍ وَفِدَاءٍ ...

وَعَانَىٰ مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ مَا عَانَاهُ أَصْحَابُهُ ، وَبَلَا[1] مِنْ بَطْشِهِمْ وَقَسْوَتِهِمْ

(١) بلا من بطشهم : ذاق وقاسى .

مَا بَلَوْهُ ؛ فَمَا لَانَتْ لَهُ قَنَاةٌ[1] وَلَا فَتَرَتْ لَهُ حَمَاسَةٌ ، وَلَا ضَعُفَ لَهُ إِيمَانٌ ...

وَإِنَّمَا زَادَهُ ذَلِكَ اسْتِمْسَاكًا بِدِينِ اللَّهِ ، وَتَعَلُّقًا بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَتَفَقُّهًا بِشَرْعِ اللَّهِ ، وَإِقْبَالًا عَلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

* * *

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ وَحِرْصِهِ عَلَىٰ حِفْظِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ أَنَّهُ كَانَ لَا يَتْرُكُ فُرْصَةً إِلَّا اغْتَنَمَهَا ، وَلَا سَانِحَةً إِلَّا ابْتَدَرَهَا[2] ...

بَلْ كَانَ إِلْحَاحُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ يُغْرِيهِ ـ أَحْيَانًا ـ بِأَنْ يَأْخُذَ نَصِيبَهُ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَنَصِيبَ غَيْرِهِ ...

وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي هَٰذِهِ الْفَتْرَةِ كَثِيرَ التَّصَدِّي لِسَادَاتِ قُرَيْشٍ ، شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَىٰ إِسْلَامِهِمْ ، فَالْتَقَىٰ ذَاتَ يَوْمٍ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَأَخِيهِ شَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ الْمُكَنَّىٰ بِأَبِي جَهْلٍ ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ ، وَالْوَلِيدِ ابْنِ الْمُغِيرَةِ[3] وَالِدِ سَيْفِ اللَّهِ خَالِدٍ ، وَطَفِقَ يُفَاوِضُهُمْ وَيُنَاجِيهِمْ وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ، وَهُوَ يَطْمَعُ فِي أَنْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ، أَوْ يَكُفُّوا أَذَاهُمْ عَنْ أَصْحَابِهِ .

* * *

وَفِيمَا هُوَ كَذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ يَسْتَقْرِئُهُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، وَيَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، عَلِّمْنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ .

فَأَعْرَضَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَنْهُ ، وَعَبَسَ فِي وَجْهِهِ ، وَتَوَلَّىٰ نَحْوَ أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ أَمَلًا فِي أَنْ يُسْلِمُوا فَيَكُونَ فِي إِسْلَامِهِمْ عِزٌّ لِدِينِ اللَّهِ ، وَتَأْيِيدٌ لِدَعْوَةِ رَسُولِهِ .

وَمَا إِنْ قَضَىٰ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ مَعَهُمْ وَفَرَغَ مِنْ نَجْوَاهُمْ ، وَهَمَّ أَنْ يَنْقَلِبَ[4] إِلَىٰ أَهْلِهِ حَتَّىٰ أَمْسَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَعْضًا مِنْ بَصَرِهِ ،

---

(١) مَا لَانت له قناة : أي مَا ضعف وَلَا تزعزع.

(٢) ابتدرها : أسرع إِلَيْهَا.

(٣) جميعهم قتلوا في بَدْر عدا الْوَلِيد بْن المغيرة مات بعد الْهجرة بثلاثة أشهر.

(٤) ينقلب إِلَىٰ أهله : يعود إِلَىٰ أهله.

وَأَحسَّ كَأَنَّ شَيْئًا يَخْفِقُ[1] بِرَأْسِهِ ... ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَآءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾[2].

سِتَّ عَشْرَةَ آيَةً نَزَلَ بِهَا جِبْرِيلُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ فِي شَأْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ؛ لَا تَزَالُ تُتْلَىٰ مُنْذُ نَزَلَتْ إِلَىٰ الْيَوْمِ ، وَسَتَظَلُّ تُتْلَىٰ حَتَّىٰ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَا فَتِئَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُكْرِمُ مَنْزِلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ إِذَا نَزَلَ ، وَيُدْنِي مَجْلِسَهُ إِذَا أَقْبَلَ ، وَيَسْأَلُهُ عَنْ شَأْنِهِ ، وَيَقْضِي حَاجَتَهُ .

وَلَا غَرْوَ[3] ، أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي عُوتِبَ فِيهِ مِنْ فَوقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ أَشَدَّ عِتَابٍ وَأَعْنَفَهُ ؟! .

* * *

وَلَمَّا كَلِبَتْ[4] قُرَيْشٌ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، وَاشْتَدَّ أَذَاهَا لَهُمْ أَذِنَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْهِجْرَةِ ، فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ أَسْرَعَ الْقَوْمِ مُفَارَقَةً لِوَطَنِهِ ، وَفِرَارًا بِدِينِهِ ... فَقَدْ كَانَ هُوَ وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ[5] أَوَّلَ مَنْ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَمَا إِنْ بَلَغَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ « يَثْرِبَ » حَتَّىٰ طَفِقَ هُوَ وَصَاحِبُهُ مُصْعَبُ ابْنُ عُمَيْرٍ يَخْتَلِفَانِ[6] إِلَىٰ النَّاسِ وَيُقْرِآنِهِمُ الْقُرْآنَ ، وَيُفَقِّهَانِهِمْ فِي دِينِ اللَّهِ .

* * *

(١) يخفق برأسه : يضرب رأسه .
(٢) سورة عبس : من الآية ١ - ١٦ .
(٣) لا غرو : لا عجب .
(٤) كَلِبَت قُرَيْش عَلَىٰ الْمُسْلِمِين : اشتدت عَلَيْهِم وألحّت فِي أذاهم .
(٥) مُصْعَب بْن عُمَيْر : أحد السابقين إِلَىٰ الإِسْلَام ، وأول المبشرين به خارج مَكَّة ، استشهد يَوْم أُحُد .
(٦) يختلفان إِلَىٰ النَّاس : يترددان عَلَىٰ النَّاس .

وَلَمَّا قَدِمَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ اتَّخَذَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ ، وَبِلَالَ بْنَ رَبَاحٍ[1] مُؤَذِّنَيْنِ لِلْمُسْلِمِينَ يَصْدَعَانِ[2] بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، وَيَدْعُوَانِ النَّاسَ إِلَىٰ خَيْرِ الْعَمَلِ ، وَيَحُضَّانِهِمْ عَلَىٰ الْفَلَاحِ ...

فَكَانَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُ ؛ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ يُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَرُبَّمَا أَذَّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَأَقَامَ بِلَالٌ ...

وَكَانَ لِبِلَالٍ وَابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ شَأْنٌ آخَرُ فِي رَمَضَانَ ، فَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَدِينَةِ يَتَسَحَّرُونَ عَلَىٰ أَذَانِ أَحَدِهِمَا وَيُمْسِكُونَ عِنْدَ أَذَانِ الْآخَرِ ...

كَانَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ وَيُوقِظُ النَّاسَ ، وَكَانَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ يَتَوَخَّىٰ[3] الْفَجْرَ فَلَا يُخْطِئُهُ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِكْرَامِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ أَنِ اسْتَخْلَفَهُ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ عِنْدَ غِيَابِهِ عَنْهَا بِضْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً كَانَتْ إِحْدَاهَا يَوْمَ غَادَرَهَا لِفَتْحِ مَكَّةَ .

* * *

وَفِي أَعْقَابِ غَزْوَةِ « بَدْرٍ » أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ مَا يَرْفَعُ شَأْنَ الْمُجَاهِدِينَ ، وَيُفَضِّلُهُمْ عَلَىٰ الْقَاعِدِينَ لِيَنْشَطَ الْمُجَاهِدُ إِلَىٰ الْجِهَادِ ، وَيَأْنَفَ الْقَاعِدُ مِنَ الْقُعُودِ ؛ فَأَثَّرَ ذَلِكَ فِي نَفْسِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ، وَعَزَّ عَلَيْهِ أَنْ يُحْرَمَ مِنْ هَٰذَا الْفَضْلِ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ ... ثُمَّ سَأَلَ اللَّهَ بِقَلْبٍ خَاشِعٍ أَنْ يُنْزِلَ قُرْآنًا فِي شَأْنِهِ وَشَأْنِ أَمْثَالِهِ مِمَّنْ تَعُوقُهُمْ عَاهَاتُهُمْ عَنِ الْجِهَادِ ، وَجَعَلَ يَدْعُو فِي ضَرَاعَةٍ : « اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عُذْرِي ... اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عُذْرِي » ...

فَمَا أَسْرَعَ أَنِ اسْتَجَابَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ لِدُعَائِهِ .

* * *

حَدَّثَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ[4] كَاتِبُ وَحْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ :

---

(١) بِلَال بْن رَبَاح : انظره ص ٣٠٣.
(٢) يصدعان : يجهران.
(٣) يتوخىٰ الفجر : يترقب الفجر ويتطلبه.
(٤) زَيْد بْن ثَابِت : انظره ص ٣٥١.

كُنْتُ إِلَىٰ جَنْبِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَغَشِيَتْهُ[1] السَّكِينَةُ، فَوَقَعَتْ فَخِذُهُ عَلَىٰ فَخِذِي؛ فَمَا وَجَدْتُ شَيْئًا أَثْقَلَ مِنْ فَخِذِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ سُرِّيَ[2] عَنْهُ فَقَالَ: (اكْتُبْ يَا زَيْدُ)... فَكَتَبْتُ: ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**...﴾.

فَقَامَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ؟!... فَمَا انْقَضَىٰ كَلَامُهُ حَتَّىٰ غَشِيَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ السَّكِينَةُ، فَوَقَعَتْ فَخِذُهُ عَلَىٰ فَخِذِي، فَوَجَدْتُ مِنْ ثِقَلِهَا مَا وَجَدْتُهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَىٰ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَقَالَ: (اقْرَأْ مَا كَتَبْتَهُ يَا زَيْدُ).

فَقَرَأْتُ: ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾...

فَقَالَ: اكْتُبْ ﴿**غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ**﴾[3].

فَنَزَلَ الِاسْتِثْنَاءُ الَّذِي تَمَنَّاهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ...

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَعْفَىٰ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ وَأَمْثَالَهُ مِنَ الْجِهَادِ، فَقَدْ أَبَتْ نَفْسُهُ الطَّمُوحُ أَنْ يَقْعُدَ مَعَ الْقَاعِدِينَ، وَعَقَدَ الْعَزْمَ عَلَىٰ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... ذَلِكَ لِأَنَّ النُّفُوسَ الْكَبِيرَةَ لَا تَقْنَعُ إِلَّا بِكِبَارِ الْأُمُورِ.

فَحَرَصَ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَىٰ أَلَّا تَفُوتَهُ غَزْوَةٌ، وَحَدَّدَ لِنَفْسِهِ وَظِيفَتَهَا فِي سَاحَاتِ الْقِتَالِ، فَكَانَ يَقُولُ: أَقِيمُونِي[4] بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، وَحَمِّلُونِي اللِّوَاءَ أَحْمِلْهُ لَكُمْ وَأَحْفَظْهُ... فَأَنَا أَعْمَىٰ لَا أَسْتَطِيعُ الْفِرَارَ...

* * *

وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ عَقَدَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْعَزْمَ عَلَىٰ أَنْ يَخُوضَ مَعَ «الْفُرْسِ» مَعْرَكَةً فَاصِلَةً تُدِيلُ[5] دَوْلَتَهُمْ، وَتُزِيلُ مُلْكَهُمْ، وَتَفْتَحُ الطَّرِيقَ أَمَامَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَكَتَبَ إِلَىٰ عُمَّالِهِ يَقُولُ:

---

(١) غشيته السكينة: غطته وحلّت به.

(٢) سُرِّيَ عنه: كشف عنه ما نزل به من شدة الوحي وثقله.

(٣) ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ سورة النساء: آية ٩٥.

(٤) أقيموني بين الصفين: أوقفوني بينهما.

(٥) تديل دولتهم: تقلب دولتهم.

لَا تَدَعُوا أَحَدًا لَهُ سِلَاحٌ ، أَوْ فَرَسٌ ، أَوْ نَجْدَةٌ ، أَوْ رَأْيٌ ؛ إِلَّا انْتَخَبْتُمُوهُ ثُمَّ وَجَّهْتُمُوهُ إِلَيَّ ، وَالْعَجَلَ الْعَجَلَ .

وَطَفِقَتْ جُمُوعُ الْمُسْلِمِينَ تُلَبِّي نِدَاءَ الْفَارُوقِ ، وَتَنْهَالُ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ[1]، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ هَؤُلَاءِ الْمُجَاهِدُ الْمَكْفُوفُ الْبَصَرِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ .

فَأَمَّرَ الْفَارُوقُ عَلَىٰ الْجَيْشِ الْكَبِيرِ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ[2]، وَأَوْصَاهُ وَوَدَّعَهُ ... وَلَمَّا بَلَغَ الْجَيْشُ « الْقَادِسِيَّةَ » ، بَرَزَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ لَابِسًا دِرْعَهُ ، مُسْتَكْمِلًا عُدَّتَهُ ، وَنَدَبَ نَفْسَهُ لِحَمْلِ رَايَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْحِفَاظِ عَلَيْهَا ، أَوِ الْمَوْتِ دُونَهَا .

* * *

وَالْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ فِي أَيَّامٍ ثَلَاثَةٍ قَاسِيَةٍ عَابِسَةٍ ... وَاحْتَرَبَ الْفَرِيقَانِ حَرْبًا لَمْ يَشْهَدْ لَهَا تَارِيخُ الْفُتُوحِ مَثِيلًا حَتَّىٰ انْجَلَىٰ الْيَوْمُ الثَّالِثُ عَنْ نَصْرٍ مُؤَزَّرٍ[3] لِلْمُسْلِمِينَ ، فَدَالَتْ دَوْلَةٌ مِنْ أَعْظَمِ الدُّوَلِ ...

وَزَالَ عَرْشٌ مِنْ أَعْرَقِ عُرُوشِ الدُّنْيَا ...

وَرُفِعَتْ رَايَةُ التَّوْحِيدِ فِي أَرْضِ الْوَثَنِيَّةِ .

وَكَانَ ثَمَنَ هَذَا النَّصْرِ الْمُبِينِ مِئَاتُ الشُّهَدَاءِ ...

وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الشُّهَدَاءِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ...

فَقَدْ وُجِدَ صَرِيعًا مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ وَهُوَ يُعَانِقُ رَايَةَ الْمُسْلِمِينَ (*) .

---

(١) من كل حدب وصوب : من كل ناحية .

(٢) سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص : انظره ص ٢٨١ .

(٣) نصر مؤزر : نصر قوي .

(*) للاستزادة من أخبار عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ انظر :
١ - الإصابة : ٢/٥٢٣ أو « الترجمة » ٥٧٦٤ .
٢ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٢/٥٠١ .
٣ - الطبقات الكبرىٰ : ٤/٢٠٥ .
٤ - صفة الصفوة : ١/٢٣٧ .
٥ - ذيل المذيل : ٣٦ ، ٤٧ .
٦ - حياة الصحابة : « انظر الفهارس » .

(*) ويلاحظ أن في اسم « ابن أُمِّ مَكْتُوم » خلافًا ، فأهل المدينة يدعونه عَبْد اللَّه ، وأمَّا أهل العراق فيدعونه عمرًا . أمَّا اسم أبيه فهو قيس بْن زائدة من غير خلاف .

الكتاب الثالث

مَجْزَأَةُ بْنُ ثَوْرٍ السَّدُوسِيُّ

« مَجْزَأَةُ بْنُ ثَوْرٍ كَمِيٌّ بَاسِلٌ قَتَلَ مِائَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ مُبَارَزَةً ، فَمَا بَالُكَ بِمَنْ قَتَلَهُمْ فِي خِضَمِّ الْمَعَارِكِ !! »

[الْمُؤَرِّخُونَ]

هَا هُمْ أُولَاءِ الْأَبْطَالُ الْأَمْجَادُ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ يَنْفُضُونَ عَنْهُمْ غُبَارَ « الْقَادِسِيَّةِ » جَذِلِينَ(١) بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ نَصْرٍ...

مُغْتَبِطِينَ بِمَا كُتِبَ لِإِخْوَانِهِمُ الشُّهَدَاءِ مِنْ أَجْرٍ...

مُتَشَوِّقِينَ إِلَىٰ مَعْرَكَةٍ أُخْرَىٰ تَكُونُ صِنْوًا(٢) « لِلْقَادِسِيَّةِ » فِي رَوْعَتِهَا وَجَلَالِهَا...

مُتَرَبِّصِينَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِمُوَاصَلَةِ الْجِهَادِ ، لِاجْتِثَاثِ(٣) الْعَرْشِ الْكِسْرَوِيِّ مِنْ جُذُورِهِ .

* * *

لَمْ يَطُلْ تَشَوُّقُ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ وَتَشَوُّفُهُمْ(٤) كَثِيرًا .

فَهَا هُوَ ذَا رَسُولُ الْفَارُوقِ يَقْدُمُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَىٰ « الْكُوفَةِ » ، وَمَعَهُ أَمْرٌ مِنَ الْخَلِيفَةِ لِوَالِيهَا أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ(٥) بِالْمُضِيِّ بِعَسْكَرِهِ وَالِالْتِقَاءِ مَعَ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ الْقَادِمِينَ مِنَ « الْبَصْرَةِ » ، وَالِانْطِلَاقِ مَعًا إِلَىٰ « الْأَهْوَازِ »(٦) لِتَتَبُّعِ

---

(١) جذلين : فرحين .

(٢) صنوًا للقادسيّة : أختًا لها .

(٣) لاجتثاث العرش الكسروي : لاقتلاعه من أصله .

(٤) تَشَوُّفُهُمْ : تطلعهم وانتظارهم .

(٥) أبو موسَىٰ الأشعريّ : هو عبد اللّه بن قيس بن سليم الأشعريّ صحابي جليل من أهل اليمن لما أراد الهجرة إلَىٰ الرسول ﷺ من اليمن ، ألقت به السفينة إلَىٰ أرض الحبشة ، والتقىٰ بالمهاجرين إليها ، وقد استعمله النّبي علَىٰ زبيد وعدن ثم ولاه عُمر بن الخطّاب البصرة ، وكان أحد الحكمين بين عليّ ومُعاوية من قبل عليّ .

(٦) الأهواز : إقليم من أقاليم فارس يقع علَىٰ الخليج في غربي إيران اليوم .

« الْهُرْمُزَانِ »[1] وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِ ، وَتَحْرِيرِ مَدِينَةِ « تُسْتَرَ » دُرَّةِ التَّاجِ الْكِسْرَوِيِّ ، وَلُؤْلُؤَةِ بِلَادِ فَارِسَ .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي وَجَّهَهُ الْخَلِيفَةُ لِأَبِي مُوسَىٰ أَنْ يَصْحَبَ مَعَهُ الْفَارِسَ الْبَاسِلَ « مَجْزَأَةَ بْنَ ثَوْرٍ السَّدُوسِيَّ » سَيِّدَ بَنِي « بَكْرٍ » وَأَمِيرَهُمُ الْمُطَاعَ .

* * *

صَدَعَ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ بِأَمْرِ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ ، فَعَبَّأَ جَيْشَهُ ؛ وَجَعَلَ عَلَىٰ مَيْسَرَتِهِ مَجْزَأَةَ بْنَ ثَوْرٍ السَّدُوسِيَّ ، وَانْضَمَّ إِلَىٰ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْقَادِمَةِ مِنَ « الْبَصْرَةِ » ، وَمَضَوْا مَعًا غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فَمَا زَالُوا يُحَرِّرُونَ الْمُدُنَ ، وَيُطَهِّرُونَ الْمَعَاقِلَ ، وَ« الْهُرْمُزَانُ » يَفِرُّ أَمَامَهُمْ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ آخَرَ حَتَّىٰ بَلَغَ مَدِينَةَ « تُسْتَرَ » ، وَاحْتَمَىٰ بِحِمَاهَا .

* * *

كَانَتْ « تُسْتَرُ » الَّتِي انْحَازَ إِلَيْهَا « الْهُرْمُزَانُ » مِنْ أَجْمَلِ مُدُنِ الْفُرْسِ جَمَالًا ، وَأَبْهَاهَا طَبِيعَةً ، وَأَقْوَاهَا تَحْصِينًا .

وَهِيَ إِلَىٰ ذَلِكَ مَدِينَةٌ عَرِيقَةٌ[2] ضَارِبَةٌ فِي أَغْوَارِ[3] التَّارِيخِ ، مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ مُرْتَفَعٍ مِنَ الْأَرْضِ عَلَىٰ شَكْلِ فَرَسٍ ، يَسْقِيهَا نَهْرٌ كَبِيرٌ يُدْعَىٰ بِنَهْرِ « دُجَيْلٍ » .

وَفَوْقَهَا « شَاذَرْوَانُ »[4] بَنَاهُ الْمَلِكُ « سَابُورُ » ؛ لِيَرْفَعَ إِلَيْهَا مَاءَ النَّهْرِ مِنْ خِلَالِ أَنْفَاقٍ حَفَرَهَا تَحْتَ الْأَرْضِ .

وَشَاذَرْوَانُ تُسْتَرَ وَأَنْفَاقُهُ عَجِيبَةٌ مِنْ عَجَائِبِ الْبِنَاءِ ، شُيِّدَ بِالْحِجَارَةِ

(١) الْهُرْمُزَان : قائد جيوش الفرس .
(٢) مدينة عريقة : مدينة قديمة ذات حضارة .
(٣) أغوار التاريخ : أعماق التاريخ .
(٤) الشاذروان والشادروان : منهل ماء له حوض وبوافير ، وربما وجدت فيه تماثيل حيوانات يخرج الماء من أفواهها .

الضَّخْمَةِ الْمُحْكَمَةِ، وَدُعِّمَ بِأَعْمِدَةِ الْحَدِيدِ الصُّلْبَةِ، وَبُلِّطَ هُوَ وَأَنْفَاقُهُ بِالرَّصَاصِ.

وَحَوْلَ «تُسْتَرَ» سُورٌ كَبِيرٌ سَامِقٌ(١) يُحِيطُ بِهَا إِحَاطَةَ السِّوَارِ بِالْمِعْصَمِ، قَالَ الْمُؤَرِّخُونَ عَنْهُ:

إِنَّهُ أَوَّلُ وَأَعْظَمُ سُورٍ بُنِيَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ.

ثُمَّ حَفَرَ «الْهُرْمُزَانُ» حَوْلَ السُّورِ خَنْدَقًا عَظِيمًا يَتَعَذَّرُ اجْتِيَازُهُ، وَحَشَدَ وَرَاءَهُ خِيرَةَ جُنُودِ فَارِسَ.

* * *

عَسْكَرَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ حَوْلَ خَنْدَقِ «تُسْتَرَ» وَظَلَّتْ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا لَا تَسْتَطِيعُ اجْتِيَازَهُ.

وَخَاضَتْ مَعَ جُيُوشِ «الْفُرْسِ» خِلَالَ تِلْكَ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ ثَمَانِينَ مَعْرَكَةً.

وَكَانَتْ كُلُّ مَعْرَكَةٍ مِنْ هَٰذِهِ الْمَعَارِكِ تَبْدَأُ بِالْمُبَارَزَةِ بَيْنَ فُرْسَانِ الْفَرِيقَيْنِ؛ ثُمَّ تَتَحَوَّلُ إِلَىٰ حَرْبٍ ضَارِيَةٍ ضَرُوسٍ(٢).

وَقَدْ أَبْلَىٰ مَجْزَأَةُ بْنُ ثَوْرٍ فِي هَٰذِهِ الْمُبَارَزَاتِ بَلَاءً أَذْهَلَ الْعُقُولَ، وَأَدْهَشَ الْأَعْدَاءَ وَالْأَصْدِقَاءَ فِي وَقْتٍ مَعًا.

فَقَدْ تَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِ مِائَةِ كَمِيٍّ(٣) مِنْ فُرْسَانِ الْأَعْدَاءِ مُبَارَزَةً؛ فَأَصْبَحَ اسْمُهُ يُثِيرُ الرُّعْبَ فِي صُفُوفِ «الْفُرْسِ»، وَيَبْعَثُ النَّخْوَةَ وَالْعِزَّةَ فِي صُدُورِ الْمُسْلِمِينَ.

وَعِنْدَ ذَٰلِكَ عَرَفَ الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا قَدْ عَرَفُوهُ مِنْ قَبْلُ لِمَ حَرَصَ أَمِيرُ

---

(١) سور سامق: سور عال.
(٢) حرب ضروس: حرب شديدة مهلكة.
(٣) الكمي: الشجاع الباسل.

الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ هَٰذَا الْبَطَلُ الْبَاسِلُ فِي عِدَادِ الْجَيْشِ الْغَازِي .

* * *

وَفِي آخِرِ مَعْرَكَةٍ مِنْ تِلْكَ الْمَعَارِكِ الثَّمَانِينَ حَمَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ حَمْلَةً بَاسِلَةً صَادِقَةً فَأَخْلَىٰ « الْفُرْسُ » لَهُمُ الْجُسُورَ الْمَنْصُوبَةَ فَوْقَ الْخَنْدَقِ ، وَلَاذُوا بِالْمَدِينَةِ ، وَأَغْلَقُوا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ حِصْنِهَا الْمَنِيعِ .

* * *

انْتَقَلَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ هَٰذَا الصَّبْرِ الطَّوِيلِ مِنْ حَالٍ سَيِّئَةٍ إِلَىٰ أُخْرَىٰ أَشَدَّ سُوءًا ، فَقَدْ أَخَذَ « الْفُرْسُ » يُمْطِرُونَهُمْ مِنْ أَعَالِي الْأَبْرَاجِ بِسِهَامِهِمُ الصَّائِبَةِ ...

وَجَعَلُوا يُدَلُّونَ مِنْ فَوْقِ الْأَسْوَارِ سَلَاسِلَ مِنَ الْحَدِيدِ ، فِي نِهَايَةِ كُلِّ سِلْسِلَةٍ كَلَالِيبُ مُتَوَهِّجَةٌ مِنْ شِدَّةِ مَا حُمِّيَتْ بِالنَّارِ .

فَإِذَا رَامَ[1] أَحَدُ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ تَسَلُّقَ السُّورِ أَوِ الِاقْتِرَابَ مِنْهُ ، أَنْشَبُوهَا فِيهِ[2] وَجَذَبُوهُ إِلَيْهِمْ ، فَيَحْتَرِقُ جَسَدُهُ ، وَيَتَسَاقَطُ لَحْمُهُ ، وَيُقْضَىٰ عَلَيْهِ .

* * *

اشْتَدَّ الْكَرْبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَخَذُوا يَسْأَلُونَ اللَّهَ بِقُلُوبٍ ضَارِعَةٍ خَاشِعَةٍ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْهُمْ ، وَيَنْصُرَهُمْ عَلَىٰ عَدُوِّهِ وَعَدُوِّهِمْ .

* * *

وَبَيْنَمَا كَانَ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ يَتَأَمَّلُ سُورَ « تُسْتَرَ » الْعَظِيمَ ، يَائِسًا مِنِ اقْتِحَامِهِ ، سَقَطَ أَمَامَهُ سَهْمٌ قُذِفَ نَحْوَهُ مِنْ فَوْقِ السُّورِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا فِيهِ رِسَالَةٌ تَقُولُ : لَقَدْ وَثِقْتُ بِكُمْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنِّي أَسْتَأْمِنُكُمْ عَلَىٰ نَفْسِي وَمَالِي وَأَهْلِي وَمَنْ تَبِعَنِي ، وَلَكُمْ عَلَيَّ أَنْ أَدُلَّكُمْ عَلَىٰ مَنْفَذٍ تَنْفُذُونَ مِنْهُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ .

فَكَتَبَ أَبُو مُوسَىٰ أَمَانًا لِصَاحِبِ السَّهْمِ ، وَقَذَفَهُ إِلَيْهِ بِالنُّشَّابَةِ[3] .

---

(١) رام : أراد . (٢) أنشبوها فيه : علقوها فيه ، وأدخلوها في لحمه . (٣) النشابة : السهم .

فَاسْتَوْثَقَ الرَّجُلُ مِنْ أَمَانِ الْمُسْلِمِينَ لِمَا عُرِفَ عَنْهُمْ مِنَ الصِّدْقِ بِالْوَعْدِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَتَسَلَّلَ إِلَيْهِمْ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ، وَأَفْضَىٰ لِأَبِي مُوسَىٰ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ فَقَالَ:

نَحْنُ مِنْ سَادَاتِ الْقَوْمِ، وَقَدْ قَتَلَ «الْهُرْمُزَانُ» أَخِي الْأَكْبَرَ، وَعَدَا[1] عَلَىٰ مَالِهِ وَأَهْلِهِ، وَأَضْمَرَ لِيَ الشَّرَّ فِي صَدْرِهِ حَتَّىٰ مَا عُدْتُ آمَنُهُ عَلَىٰ نَفْسِي وَأَوْلَادِي...

فَآثَرْتُ عَدْلَكُمْ عَلَىٰ ظُلْمِهِ، وَوَفَاءَكُمْ عَلَىٰ غَدْرِهِ، وَعَزَمْتُ عَلَىٰ أَنْ أَدُلَّكُمْ عَلَىٰ مَنْفَذٍ خَفِيٍّ تَنْفُذُونَ مِنْهُ إِلَىٰ «تُسْتَرَ»...

فَأَعْطِنِي إِنْسَانًا يَتَحَلَّىٰ بِالْجُرْأَةِ وَالْعَقْلِ، وَيَكُونُ مِمَّنْ يُتْقِنُونَ السِّبَاحَةَ حَتَّىٰ أُرْشِدَهُ إِلَى الطَّرِيقِ.

* * *

اسْتَدْعَىٰ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ مَجْزَأَةَ بْنَ ثَوْرٍ السَّدُوسِيَّ، وَأَسَرَّ إِلَيْهِ بِالْأَمْرِ وَقَالَ:

أَعِنِّي بِرَجُلٍ مِنْ قَوْمِكَ لَهُ عَقْلٌ وَحَزْمٌ، وَقُدْرَةٌ عَلَى السِّبَاحَةِ.

فَقَالَ مَجْزَأَةُ: اجْعَلْنِي ذَلِكَ الرَّجُلَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَىٰ: إِذَا كُنْتَ قَدْ شِئْتَ؛ فَعَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ.

ثُمَّ أَوْصَاهُ أَنْ يَحْفَظَ الطَّرِيقَ، وَأَنْ يَعْرِفَ مَوْضِعَ الْبَابِ، وَأَنْ يُحَدِّدَ مَكَانَ «الْهُرْمُزَانِ»، وَأَنْ يَتَثَبَّتَ مِنْ شَخْصِهِ، وَأَلَّا يُحْدِثَ أَمْرًا غَيْرَ ذَلِكَ.

* * *

(١) عدا: تَعَدَّىٰ.

مَضَىٰ مَجْزَأَةُ بْنُ ثَوْرٍ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ مَعَ دَلِيلِهِ الْفَارِسِيِّ ، فَأَدْخَلَهُ فِي نَفَقٍ(١) تَحْتَ الْأَرْضِ يَصِلُ بَيْنَ النَّهْرِ وَالْمَدِينَةِ .

فَكَانَ النَّفَقُ يَتَّسِعُ تَارَةً حَتَّىٰ يَتَمَكَّنَ مِنَ الْخَوْضِ فِي مَائِهِ وَهُوَ مَاشٍ عَلَىٰ قَدَمَيْهِ ، وَيَضِيقُ تَارَةً أُخْرَىٰ حَتَّىٰ يَحْمِلَهُ عَلَىٰ السِّبَاحَةِ حَمْلًا .

وَكَانَ يَتَشَعَّبُ وَيَتَعَرَّجُ مَرَّةً ، وَيَسْتَقِيمُ مَرَّةً ثَانِيَةً ...

وَهَكَذَا حَتَّىٰ بَلَغَ بِهِ الْمَنْفَذَ الَّذِي يَنْفُذُ مِنْهُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، وَأَرَاهُ « الْهُرْمُزَانَ » قَاتِلَ أَخِيهِ ، وَالْمَكَانَ الَّذِي يَتَحَصَّنُ فِيهِ .

فَلَمَّا رَأَىٰ مَجْزَأَةُ « الْهُرْمُزَانَ » ، هَمَّ بِأَنْ يُرْدِيَهُ بِسَهْمٍ فِي نَحْرِهِ ، لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ تَذَكَّرَ وَصِيَّةَ أَبِي مُوسَىٰ لَهُ بِأَلَّا يُحْدِثَ أَمْرًا ، فَكَبَحَ جِمَاحَ(٢) هَٰذِهِ الرَّغْبَةِ فِي نَفْسِهِ ، وَعَادَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ قَبْلَ بُزُوغِ الْفَجْرِ .

* * *

أَعَدَّ أَبُو مُوسَىٰ ثَلَاثَمِائَةٍ مِنْ أَشْجَعِ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ قَلْبًا ، وَأَشَدِّهِمْ جَلَدًا وَصَبْرًا ، وَأَقْدَرِهِمْ عَلَىٰ الْعَوْمِ ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ مَجْزَأَةَ بْنَ ثَوْرٍ وَوَدَّعَهُمْ وَأَوْصَاهُمْ ...

وَجَعَلَ التَّكْبِيرَ عَلَامَةً عَلَىٰ دَعْوَةِ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ لِاقْتِحَامِ الْمَدِينَةِ .

أَمَرَ مَجْزَأَةُ رِجَالَهُ أَنْ يَتَخَفَّفُوا مِنْ مَلَابِسِهِمْ مَا اسْتَطَاعُوا حَتَّىٰ لَا تَحْمِلَ مِنَ الْمَاءِ مَا يُثْقِلُهُمْ .

وَحَذَّرَهُمْ مِنْ أَنْ يَأْخُذُوا مَعَهُمْ غَيْرَ سُيُوفِهِمْ ... وَأَوْصَاهُمْ أَنْ يَشُدُّوهَا عَلَىٰ أَجْسَادِهِمْ تَحْتَ الثِّيَابِ ...

---

(١) النَّفَق : ممر تحت الأرض .
(٢) كبح جماح رغبته : رد نفسه عن هَوَاها ، ولم يحقق لها رغبتها .

وَمَضَىٰ بِهِمْ فِي آخِرِ الْهَزِيعِ(١) الأَوَّلِ مِنَ اللَّيْلِ .

* * *

ظَلَّ مَجْزَأَةُ بْنُ ثَوْرٍ وَجُنْدُهُ الْبَوَاسِلُ نَحْوًا مِنْ سَاعَتَيْنِ يُصَارِعُونَ عَقَبَاتِ هَٰذَا النَّفَقِ الْخَطِيرِ ، فَيَصْرَعُونَهَا تَارَةً وَتَصْرَعُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ .

وَلَمَّا بَلَغُوا الْمَنْفَذَ الْمُؤَدِّيَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ؛ وَجَدَ مَجْزَأَةُ أَنَّ النَّفَقَ قَدِ ابْتَلَعَ مِائَتَيْنِ وَعِشْرِينَ رَجُلًا مِنْ رِجَالِهِ ، وَأَبْقَىٰ لَهُ ثَمَانِينَ ...

* * *

وَمَا إِنْ وَطِئَتْ أَقْدَامُ مَجْزَأَةَ وَصَحْبِهِ أَرْضَ الْمَدِينَةِ حَتَّىٰ جَرَّدُوا سُيُوفَهُمْ ، وَانْقَضُّوا عَلَىٰ حُمَاةِ الْحِصْنِ ، فَأَغْمَدُوهَا فِي صُدُورِهِمْ .

ثُمَّ وَثَبُوا إِلَىٰ الأَبْوَابِ وَفَتَحُوهَا وَهُمْ يُكَبِّرُونَ .

فَتَلَاقَىٰ تَكْبِيرُهُمْ مِنَ الدَّاخِلِ مَعَ تَكْبِيرِ إِخْوَانِهِمْ مِنَ الْخَارِجِ ...

وَتَدَفَّقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ عِنْدَ الْفَجْرِ ...

وَدَارَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَاءِ اللَّهِ رَحَىٰ مَعْرَكَةٍ ضَرُوسٍ قَلَّمَا شَهِدَ تَارِيخُ الْحُرُوبِ مِثْلَهَا هَوْلًا وَرَهْبَةً وَكَثْرَةً فِي الْقَتْلَىٰ .

* * *

وَفِيمَا كَانَتِ الْمَعْرَكَةُ قَائِمَةً عَلَىٰ قَدَمٍ وَسَاقٍ أَبْصَرَ مَجْزَأَةُ بْنُ ثَوْرٍ « الْهُرْمُزَانَ » فِي سَاحِهَا ، فَقَصَدَ قَصْدَهُ(٢) ، وَسَاوَرَهُ(٣) بِالسَّيْفِ ، فَمَا لَبِثَ أَنِ ابْتَلَعَهُ مَوْجُ الْمُتَقَاتِلِينَ وَأَخْفَاهُ عَنْ نَاظِرَيْهِ ... ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لَهُ مَرَّةً أُخْرَىٰ فَانْدَفَعَ نَحْوَهُ وَحَمَلَ عَلَيْهِ ...

---

(١) الهزيع الأول من الليل : الثلث الأول منه .

(٢) قصد قصده : اتجه نحوه .

(٣) ساوره بالسيف : وثب عليه بالسيف .

وَتَصَاوَلَ[1] مَجْزَأَةُ وَ« الْهُرْمُزَانُ » بِسَيْفَيْهِمَا فَضَرَبَ كُلٌّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ضَرْبَةً قَاضِيَةً ، فَنَبَا[2] سَيْفُ مَجْزَأَةَ ، وَأَصَابَ سَيْفُ « الْهُرْمُزَانِ » ...

فَخَرَّ الْبَطَلُ الْكَمِيُّ الْبَاسِلُ صَرِيعًا عَلَىٰ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ ، وَعَيْنُهُ قَرِيرَةٌ بِمَا حَقَّقَ اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ .

وَوَاصَلَ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ الْقِتَالَ ، حَتَّىٰ كَتَبَ اللَّهُ لَهُمُ النَّصْرَ ، وَوَقَعَ « الْهُرْمُزَانُ » فِي أَيْدِيهِمْ أَسِيرًا .

* * *

اِنْطَلَقَ الْمُبَشِّرُونَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ يَزُفُّونَ إِلَىٰ الْفَارُوقِ بَشَائِرَ الْفَتْحِ .

وَيَسُوقُونَ أَمَامَهُمْ « الْهُرْمُزَانَ » وَعَلَىٰ رَأْسِهِ تَاجُهُ الْمُرَصَّعُ بِالْجَوْهَرِ ، وَعَلَىٰ كَتِفَيْهِ حُلَّتُهُ الْمُوَشَّاةُ بِخُيُوطِ الذَّهَبِ لِيَرَاهُ الْخَلِيفَةُ[3] .

وَكَانَ الْمُبَشِّرُونَ يَحْمِلُونَ مَعَ ذَلِكَ تَعْزِيَةً حَارَّةً لِلْخَلِيفَةِ بِفَارِسِهِ الْبَاسِلِ مَجْزَأَةَ بْنِ ثَوْرٍ (*) .

---

(١) تصاول الرجلان : وثب كل منهما عَلَىٰ صاحبه .

(٢) نبا السيف : ارتد ولم يقطع .

(٣) انظر خبر الْهُرْمُزَان مع عُمَر بْن الْخَطَّاب في الأَحنف بْن قَيْس بكتاب « صور من حياة التَّابعين » للمؤلف ، النَّاشر دار الأدب الإسلامي .

(*) للاستزادة من أخبار مَجْزَأَة بْن ثَوْر انظر :

١ – تاريخ الأمم والملوك للطبري : ٢١٦/٤ في حوادث السَّنة السَّابعة عشرة .

٢ – تاريخ خليفة بن خياط : ١١٧/١ وما بعدها .

٣ – تاريخ الإِسْلَام للذهبي : ٢/ ٣٠ .

٤ – معجم الْبلدان لياقوت : عند تُسْتَر .

٥ – الإِصابة : ٣٦٤/٣ أو « التَّرجمة » ٧٧٣٠ .

٦ – أُسْدُ الْغابة : ٤/ ٣٠ .

أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْر

«تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ إِلَيْكَ يَا أُسَيْدُ ...»

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

قَدِمَ الْفَتَىٰ الْمَكِّيُّ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ إِلَىٰ «يَثْرِب»[١]، فِي أَوَّلِ بَعْثَةٍ تَبْشِيرِيَّةٍ عَرَفَهَا تَارِيخُ الْإِسْلَامِ.

فَنَزَلَ عَلَىٰ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ[٢] أَحَدِ أَشْرَافِ الْخَزْرَجِ، وَاتَّخَذَ مِنْ دَارِهِ مَقَامًا لِنَفْسِهِ، وَمُنْطَلَقًا لِبَثِّ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ اللَّهِ، وَالتَّبْشِيرِ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَأَخَذَ أَبْنَاءُ «يَثْرِب» يُقْبِلُونَ عَلَىٰ مَجَالِسِ الدَّاعِيَةِ الشَّابِّ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ إِقْبَالًا كَبِيرًا.

وَكَانَ يُغْرِيهِمْ[٣] بِهِ عُذُوبَةُ حَدِيثِهِ، وَوُضُوحُ حُجَّتِهِ، وَرِقَّةُ شَمَائِلِهِ[٤]، وَوَضَاءَةُ الْإِيمَانِ الَّتِي تُشْرِقُ مِنْ وَجْهِهِ الْقَسِيمِ الْوَسِيمِ[٥].

وَكَانَ يَجْذِبُهُمْ إِلَيْهِ شَيْءٌ آخَرُ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ، هُوَ هَٰذَا الْقُرْآنُ الَّذِي كَانَ يَتْلُو عَلَيْهِمْ بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْفَيْنَةِ[٦] بَعْضًا مِنْ آيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ؛ بِصَوْتِهِ الشَّجِيِّ الرَّخِيمِ، وَنَبَرَاتِهِ الْحُلْوَةِ الْآسِرَةِ، فَيَسْتَلِينُ بِهِ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ، وَيَسْتَدِرُّ الدُّمُوعَ الْعَاصِيَةَ، فَلَا يَنْفَضُّ[٧] الْمَجْلِسُ مِنْ مَجَالِسِهِ إِلَّا عَنْ أُنَاسٍ أَسْلَمُوا وَانْضَمُّوا إِلَىٰ كَتَائِبِ الْإِيمَانِ.

* * *

(١) يثرب: المدينة المنورة.

(٢) أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ النَّجَّارِي الْأَنْصَارِي: أحد الشجعان الأشراف في الجاهلية والإسلام، قدم علىٰ الرسول ﷺ في مكة فأسلم هو وذكوان بن عبد قيس وعادا إلىٰ المدينة، فكانا أول من قدمها بالإسلام؛ مات قبل وقعة بدر ودفن في البقيع.

(٣) يغريهم به: يولعهم به. (٥) القسيم الوسيم: الجميل الحسن.

(٤) رقة شمائله: رقة طباعه. (٦) بين الفينة والفينة: بين الحين والحين. (٧) ينفض المجلس: يتفرق المجلس.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ، خَرَجَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ بِضَيْفِهِ الدَّاعِيَةِ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ؛ لِيَلْقَىٰ جَمَاعَةً مِنْ بَنِي «عَبْدِ الْأَشْهَلِ»، وَيَعْرِضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ. فَدَخَلَا بُسْتَانًا مِنْ بَسَاتِينِ بَنِي «عَبْدِ الْأَشْهَلِ»، وَجَلَسَا عِنْدَ بِئْرِهَا الْعَذْبَةِ فِي ظِلَالِ النَّخِيلِ.

فَاجْتَمَعَ عَلَىٰ مُصْعَبٍ جَمَاعَةٌ قَدْ أَسْلَمُوا وَآخَرُونَ يُرِيدُونَ أَنْ يَسْمَعُوا، فَانْطَلَقَ يَدْعُو وَيُبَشِّرُ، وَالنَّاسُ إِلَيْهِ مُنْصِتُونَ، وَبِرَوْعَةِ حَدِيثِهِ مَأْخُوذُونَ.

* * *

فَجَاءَ مَنْ أَخْبَرَ أُسَيْدَ بْنَ الْحُضَيْرِ، وَسَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ[1] - وَكَانَا سَيِّدَيِ «الْأَوْسِ»[2] - بِأَنَّ الدَّاعِيَةَ الْمَكِّيَّ قَدْ نَزَلَ قَرِيبًا مِنْ دِيَارِهِمَا، وَأَنَّ الَّذِي جَرَّأَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ.

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ لِأُسَيْدِ بْنِ الْحُضَيْرِ:

لَا أَبَا لَكَ[3] يَا أُسَيْدُ، انْطَلِقْ إِلَىٰ هَٰذَا الْفَتَىٰ الْمَكِّيِّ الَّذِي جَاءَ إِلَىٰ بُيُوتِنَا لِيُغْرِيَ[4] ضُعَفَاءَنَا، وَيُسَفِّهَ آلِهَتَنَا، وَازْجُرْهُ[5]، وَحَذِّرْهُ مِنْ أَنْ يَطَأَ دِيَارَنَا بَعْدَ الْيَوْمِ.

ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ: وَلَوْلَا أَنَّهُ فِي ضِيَافَةِ ابْنِ خَالَتِي أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، وَأَنَّهُ يَمْشِي فِي حِمَايَتِهِ لَكَفَيْتُكَ ذَلِكَ.

* * *

أَخَذَ أُسَيْدٌ حَرْبَتَهُ، وَمَضَىٰ نَحْوَ الْبُسْتَانِ، فَلَمَّا رَآهُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ مُقْبِلًا قَالَ لِمُصْعَبٍ:

---

(١) سَعْدُ بْنُ مُعَاذِ بْنِ النُّعْمَانِ بْنِ امْرِئِ الْقَيْسِ الْأَوْسِيُّ الْأَنْصَارِيُّ: صحابي من الأبطال، حمل لواء قومه يوم بَدْر وشهد أُحُدًا فكان ممن ثبت فيها، ومات متأثرًا بجرحه في يوم الخندق.
(٢) الأوس: قبيلة يمانية ارتحلت هي وأختها «الخزرج» إلى المدينة بعد خراب سدّ مأرب، واستقرت فيها.
(٣) لا أبا لك: كلمة تقال في الذّم والمدح، والمراد بها هنا المدح.
(٤) ليغري ضعفاءنا: ليحض ضعفاءنا علىٰ الإسلام ويزينه لهم.
(٥) ازجره: امنعه.

وَيْحَكَ يَا مُصْعَبُ، هَٰذَا سَيِّدُ قَوْمِهِ، وَأَرْجَحُهُمْ عَقْلًا، وَأَكْمَلُهُمْ كَمَالًا: أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ.

فَإِنْ يُسْلِمْ تَبِعَهُ فِي إِسْلَامِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَاصْدُقِ اللَّهَ فِيهِ، وَأَحْسِنِ التَّأَتِّيَ(١) لَهُ.

* * *

وَقَفَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ عَلَىٰ الْجَمْعِ، وَالْتَفَتَ إِلَىٰ مُصْعَبٍ وَصَاحِبِهِ وَقَالَ:

مَا جَاءَ بِكُمَا إِلَىٰ دِيَارِنَا، وَأَغْرَاكُمَا بِضُعَفَائِنَا؟! ... اعْتَزِلَا(٢) هَٰذَا الْحَيَّ إِنْ كَانَتْ لَكُمَا بِنَفْسَيْكُمَا حَاجَةٌ(٣).

فَالْتَفَتَ مُصْعَبٌ إِلَىٰ أُسَيْدٍ بِوَجْهِهِ الْمُشْرِقِ بِنُورِ الْإِيمَانِ، وَخَاطَبَهُ بِلَهْجَتِهِ الصَّادِقَةِ الْآسِرَةِ وَقَالَ لَهُ:

يَا سَيِّدَ قَوْمِهِ، هَلْ لَكَ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكَ؟.

قَالَ: وَمَا هُوَ؟.

قَالَ: تَجْلِسُ إِلَيْنَا وَتَسْمَعُ مِنَّا، فَإِنْ رَضِيتَ مَا قُلْنَاهُ قَبِلْتَهُ، وَإِنْ لَمْ تَرْضَهُ تَحَوَّلْنَا عَنْكُمْ وَلَمْ نَعُدْ إِلَيْكُمْ.

فَقَالَ أُسَيْدٌ: لَقَدْ أَنْصَفْتَ، وَرَكَزَ رُمْحَهُ فِي الْأَرْضِ وَجَلَسَ.

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ مُصْعَبٌ يَذْكُرُ لَهُ حَقِيقَةَ الْإِسْلَامِ، وَيَقْرَأُ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ؛ فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُهُ وَأَشْرَقَ وَجْهُهُ وَقَالَ:

---

(١) أحسن التأتي له: أحسن عرض الأمر عليه.
(٢) اعتزلا هذا الحي: ابتعدا عنه.
(٣) إن كانت لكما بنفسيكما حاجة: كناية عن التهديد بالقتل.

مَا أَحْسَنَ هَٰذَا الَّذِي تَقُولُ ، وَمَا أَجَلَّ ذَلِكَ الَّذِي تَتْلُو !!! ...

كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَرَدْتُمُ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ ؟! .

فَقَالَ لَهُ مُصْعَبٌ :

تَغْتَسِلُ وَتُطَهِّرُ ثِيَابَكَ ، وَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ .

فَقَامَ إِلَىٰ الْبِئْرِ فَتَطَهَّرَ بِمَائِهَا ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ .

فَانْضَمَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَىٰ كَتَائِبِ الْإِسْلَامِ فَارِسٌ مِنْ فُرْسَانِ الْعَرَبِ الْمَرْمُوقِينَ(١)، وَسَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ « الْأَوْسِ » الْمَعْدُودِينَ .

كَانَ يُلَقِّبُهُ قَوْمُهُ بِالْكَامِلِ ؛ لِرَجَاحَةِ عَقْلِهِ ، وَنَبَالَةِ أَصْلِهِ ، وَلِأَنَّهُ مَلَكَ السَّيْفَ وَالْقَلَمَ ، إِذْ كَانَ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ فُرُوسِيَّتِهِ وَدِقَّةِ رَمْيِهِ ، قَارِئًا كَاتِبًا فِي مُجْتَمَعٍ نَدَرَ فِيهِ مَنْ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ .

وَقَدْ كَانَ إِسْلَامُهُ سَبَبًا فِي إِسْلَامِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ .

وَكَانَ إِسْلَامُهُمَا مَعًا سَبَبًا فِي أَنْ تُسْلِمَ جُمُوعٌ غَفِيرَةٌ(٢) مِنَ « الْأَوْسِ » .

وَأَنْ تُصْبِحَ الْمَدِينَةُ بَعْدَ ذَلِكَ مُهَاجَرًا(٣) لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَمَوْئِلًا(٤) وَقَاعِدَةً لِدَوْلَةِ الْإِسْلَامِ الْعُظْمَىٰ .

* * *

أُولِعَ(٥) أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ بِالْقُرْآنِ - مُنْذُ سَمِعَهُ مِنْ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ - وَلَعَ

(١) المرموقين : الذين ينظر إليهم إعجابًا بهم .
(٢) غفيرة : كثيرة وفيرة .
(٣) مهاجرًا لرسول الله : مكانًا لهجرته .
(٤) موئلًا : ملاذًا وملجأً .
(٥) أولع بالقرآن : أحبّه حبًا شديدًا وتعلّق به .

الْمُحِبُّ بِحَبِيبِهِ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ إِقْبَالَ الظَّامِئِ عَلَىٰ الْمَوْرِدِ الْعَذْبِ فِي الْيَوْمِ الْقَائِظِ ، وَجَعَلَهُ شُغْلَهُ الشَّاغِلَ .

فَكَانَ لَا يُرَىٰ إِلَّا مُجَاهِدًا غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ عَاكِفًا يَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ .

وَكَانَ رَخِيمَ الصَّوْتِ ، مُبِينَ النُّطْقِ ، مُشْرِقَ الْأَدَاءِ ، تَطِيبُ لَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ أَكْثَرَ مَا تَطِيبُ إِذَا سَكَنَ اللَّيْلُ ، وَنَامَتِ الْعُيُونُ ، وَصَفَتِ النُّفُوسُ .

وَكَانَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ يَتَحَيَّنُونَ[1] أَوْقَاتَ قِرَاءَتِهِ ، وَيَتَسَابَقُونَ إِلَىٰ سَمَاعِ تِلَاوَتِهِ .

فَيَا سَعْدَ مَنْ يُتَاحُ لَهُ أَنْ يَسْمَعَ الْقُرْآنَ مِنْهُ رَطْبًا طَرِيًّا كَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَقَدِ اسْتَعْذَبَ أَهْلُ السَّمَاءِ تِلَاوَتَهُ كَمَا اسْتَعْذَبَهَا أَهْلُ الْأَرْضِ .

فَفِي جَوْفِ لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي كَانَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ جَالِسًا فِي مِرْبَدِهِ[2] ، وَابْنُهُ « يَحْيَىٰ » نَائِمٌ إِلَىٰ جَانِبِهِ ، وَفَرَسُهُ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُرْتَبِطَةٌ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْهُ .

وَكَانَ اللَّيْلُ وَادِعًا سَاجِيًا[3] ، وَأَدِيمُ السَّمَاءِ رَائِقًا صَافِيًا ، وَعُيُونُ النُّجُومِ تَرْمُقُ الْأَرْضَ الْهَاجِعَةَ بِحَنَانٍ وَعَطْفٍ .

فَتَاقَتْ[4] نَفْسُ أُسَيْدِ بْنِ الْحُضَيْرِ لِأَنْ يُعَطِّرَ هَٰذِهِ الْأَجْوَاءَ النَّدِيَّةَ بِطُيُوبِ الْقُرْآنِ ، فَانْطَلَقَ يَتْلُو بِصَوْتِهِ الرَّخِيمِ الْحَنُونِ :

﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

(١) يتحينون أوقات قراءته : يترقبون أوقات قراءته ويترصدونها .
(٢) المربد : فضاء وراء البيت .
(٣) ساجيًا : ساكنًا .
(٤) تاقت نفسه : رغبت واشتاقت .

بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[١].

فَإِذَا بِهِ يَسْمَعُ فَرَسَهُ وَقَدْ جَالَتْ[٢] جَوْلَةً كَادَتْ تَقْطَعُ بِسَبَبِهَا رِبَاطَهَا ، فَسَكَتَ ؛ فَسَكَنَتِ الْفَرَسُ وَقَرَّتْ .

فَعَادَ يَقْرَأُ :

﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[٣].

فَجَالَتِ الْفَرَسُ جَوْلَةً أَشَدَّ مِنْ تِلْكَ وَأَقْوَىٰ .

فَسَكَتَ ...

فَسَكَنَتْ ...

وَكَرَّرَ ذَلِكَ مِرَارًا ، فَكَانَ إِذَا قَرَأَ أَجْفَلَتِ[٤] الْفَرَسُ وَهَاجَتْ ، وَإِذَا سَكَتَ سَكَنَتْ وَقَرَّتْ .

فَخَافَ عَلَىٰ ابْنِهِ « يَحْيَىٰ » أَنْ تَطَأَهُ ، فَمَضَىٰ إِلَيْهِ لِيُوقِظَهُ ، وَهُنَا حَانَتْ مِنْهُ الْتِفَاتَةٌ إِلَىٰ السَّمَاءِ ، فَرَأَىٰ غَمَامَةً كَالْمَظَلَّةِ لَمْ تَرَ الْعَيْنُ أَرْوَعَ وَلَا أَبْهَىٰ مِنْهَا قَطُّ وَقَدْ عُلِّقَ بِهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ ، فَمَلَأَتِ الْآفَاقَ ضِيَاءً وَسَنَاءً ، وَهِيَ تَصْعَدُ إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ حَتَّىٰ غَابَتْ عَنْ نَاظِرَيْهِ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ مَضَىٰ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ خَبَرَ مَا رَأَىٰ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ يَا أُسَيْدُ ...

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١ - ٤.
(٢) جالت جَوْلَةً : دارت دَوْرَةً.
(٣) سورة البقرة : آية ٥.
(٤) أجفلت الفرس : نفرت.

وَلَوْ أَنَّكَ مَضَيْتَ فِي قِرَاءَتِكَ لَرَآهَا النَّاسُ وَلَمْ تَسْتَتِرْ مِنْهُمْ)[١].

* * *

وَكَمَا أُولِعَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ بِكِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أُولِعَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَ ـ كَمَا حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ ـ أَصْفَىٰ مَا يَكُونُ صَفَاءً، وَأَشَدَّ مَا يَكُونُ شَفَافِيَةً وَإِيمَانًا حِينَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ أَوْ يَسْمَعُهُ...

وَحِينَ يَنْظُرُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَخْطُبُ أَوْ يُحَدِّثُ.

وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَتَمَنَّىٰ أَنْ يَمَسَّ جَسَدُهُ جَسَدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْ يُكِبَّ عَلَيْهِ لَاثِمًا مُقَبِّلًا.

وَقَدْ أُتِيحَ[٢] لَهُ ذَٰلِكَ ذَاتَ مَرَّةٍ.

فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كَانَ أُسَيْدٌ يُطْرِفُ الْقَوْمَ بِمُلَحِهِ[٣]، فَغَمَزَهُ[٤] رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي خَاصِرَتِهِ بِيَدِهِ، كَأَنَّهُ يَسْتَحْسِنُ مَا يَقُولُ.

فَقَالَ أُسَيْدٌ: أَوْجَعْتَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (اقْتَصَّ مِنِّي يَا أُسَيْدُ).

فَقَالَ أُسَيْدٌ: إِنَّ عَلَيْكَ قَمِيصًا وَلَمْ يَكُنْ عَلَيَّ قَمِيصٌ حِينَ غَمَزْتَنِي.

فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَمِيصَهُ عَنْ جَسَدِهِ، فَاحْتَضَنَهُ أُسَيْدٌ، وَجَعَلَ يُقَبِّلُ مَا بَيْنَ إِبْطِهِ وَخَاصِرَتِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهَا لَبُغْيَةٌ كُنْتُ أَتَمَنَّاهَا مُنْذُ عَرَفْتُكَ، وَقَدْ بَلَغْتُهَا الْآنَ.

* * *

---

(١) ورد أصل هذا الخبر في البخاري ومسلم.
(٢) أتيح له: يُسّرَ له ومُكّنَ منه.
(٣) بملحه: بطرائفه ونكته.
(٤) غمزه بيده: طعنه بها.

وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُبَادِلُ أُسَيْدًا حُبًّا بِحُبٍّ، وَيَحْفَظُ لَهُ سَابِقَتَهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَذَوْدَهُ[١] عَنْهُ يَوْمَ «أُحُدٍ» حَتَّىٰ إِنَّهُ طُعِنَ سَبْعَ طَعَنَاتٍ مُمِيتَاتٍ فِي ذَٰلِكَ الْيَوْمِ.

وَكَانَ يَعْرِفُ لَهُ قَدْرَهُ وَمَنْزِلَتَهُ فِي قَوْمِهِ، فَإِذَا شَفَعَ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ شَفَّعَهُ فِيهِ...

حَدَّثَ أُسَيْدٌ قَالَ: جِئْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْتُ لَهُ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فِيهِمْ مَحَاوِيجُ[٢]، وَجُلُّ أَهْلِ ذَٰلِكَ الْبَيْتِ نِسْوَةٌ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(لَقَدْ جِئْتَنَا يَا أُسَيْدُ بَعْدَ أَنْ أَنْفَقْنَا مَا بِأَيْدِينَا، فَإِذَا سَمِعْتَ بِشَيْءٍ قَدْ جَاءَنَا فَاذْكُرْ لَنَا أَهْلَ ذَٰلِكَ الْبَيْتِ).

فَجَاءَهُ بَعْدَ ذَٰلِكَ مَالٌ مِنْ «خَيْبَرَ» فَقَسَمَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَعْطَىٰ الْأَنْصَارَ وَأَجْزَلَ[٣]، وَأَعْطَىٰ أَهْلَ ذَٰلِكَ الْبَيْتِ وَأَجْزَلَ، فَقُلْتُ لَهُ:

جَزَاكَ اللَّهُ عَنْهُمْ - يَا نَبِيَّ اللَّهِ - خَيْرًا.

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ جَزَاكُمُ اللَّهُ أَطْيَبَ الْجَزَاءِ، فَإِنَّكُمْ - مَا عَلِمْتُ[٤] - أَعِفَّةٌ صُبُرٌ، وَإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ أَثَرَةً بَعْدِي[٥]، فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ تَلْقَوْنِي، وَمَوْعِدُكُمُ الْحَوْضُ)[٦].

قَالَ أُسَيْدٌ: فَلَمَّا آلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَسَمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَالًا وَمَتَاعًا، فَبَعَثَ إِلَيَّ بِحُلَّةٍ فَاسْتَصْغَرْتُهَا...

---

(١) ذوده عنه: دفاعه عنه.
(٢) مَحاويج: فقراءُ محتاجون.
(٣) أجزل: أكثرَ.
(٤) ما علمت: طول مدة معرفتي إياكم.
(٥) إنكم ستلقون أثرة بعدي: أي إنَّ الناس سيستأثرون بالخير من دونكم.
(٦) انظر أصل هذا الخبر في البخاري ومسلم.

فَبَيْنَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ إِذْ مَرَّ بِي شَابٌّ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَيْهِ حُلَّةٌ سَابِغَةٌ[1] مِنْ تِلْكَ الْحُلَلِ الَّتِي أَرْسَلَ إِلَيَّ مِنْهَا عُمَرُ، وَهُوَ يَجُرُّهَا عَلَىٰ الْأَرْضِ جَرًّا؛ فَذَكَرْتُ لِمَنْ مَعِيَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

(إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ أَثَرَةً مِنْ بَعْدِي)، وَقُلْتُ: صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

فَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَىٰ عُمَرَ وَأَخْبَرَهُ بِمَا قُلْتُ، فَجَاءَنِي مُسْرِعًا وَأَنَا أُصَلِّي فَقَالَ:

صَلِّ يَا أُسَيْدُ.

فَلَمَّا قَضَيْتُ صَلَاتِي أَقْبَلَ عَلَيَّ وَقَالَ: مَاذَا قُلْتَ؟.

فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا رَأَيْتُ وَبِمَا قُلْتُ.

فَقَالَ: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ، تِلْكَ حُلَّةٌ بَعَثْتُ بِهَا إِلَىٰ فُلَانٍ، وَهُوَ أَنْصَارِيٌّ عَقَبِيٌّ بَدْرِيٌّ أُحُدِيٌّ[2]، فَشَرَاهَا مِنْهُ هَٰذَا الْفَتَىٰ الْقُرَشِيُّ وَلَبِسَهَا...

أَفَتَظُنُّ أَنَّ هَٰذَا الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَكُونُ فِي زَمَانِي؟!!.

فَقَالَ أُسَيْدٌ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ فِي زَمَانِكَ.

* * *

لَمْ يَعِشْ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ بَعْدَ ذَلِكَ طَوِيلًا، فَقَدِ اخْتَارَهُ اللَّهُ إِلَىٰ جِوَارِهِ فِي عَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ عُمَرَ.

فَوُجِدَ أَنَّ عَلَيْهِ دَيْنًا مِقْدَارُهُ أَرْبَعَةُ آلَافِ دِرْهِمٍ، فَهَمَّ وَرَثَتُهُ بِبَيْعِ أَرْضٍ لَهُ لِوَفَاءِ دُيُونِهِ.

(١) حلّة سابغة: حلّة طويلة واسعة.
(٢) عقبي: نسبة إلَىٰ العقبة حيث بايع الأنصار الرّسول ﷺ تلك البيعة المشهورة، وبَدْري: نسبة إلَىٰ موقعة بَدْر، وأُحدي: نسبة إلَىٰ موقعة أُحُد.

فَلَمَّا عَرَفَ عُمَرُ ذَلِكَ قَالَ:

لَا أَتْرُكُ بَنِي أَخِي أُسَيْدٍ عَالَةً عَلَى النَّاسِ...

ثُمَّ كَلَّمَ الْغُرَمَاءَ[1] فَرَضُوا بِأَنْ يَشْتَرُوا مِنْهُ ثَمَرَ الْأَرْضِ أَرْبَعَ سِنِينَ، كُلُّ سَنَةٍ بِأَلْفٍ (*).

(١) الْغرماء: الدّائنون.

(*) للاستزادة من أخبار أُسَيْد بن الْحُضَيْر انظر:
١ - البخاري ومسلم: «باب فضائل الصّحابة».
٢ - جامع الأصول: ٩/ ٣٧٨.
٣ - طبقات ابن سعد: ٣/ ٦٠٣.
٤ - تهذيب التّهذيب: ١/ ٣٤٧.
٥ - أسدُ الغابة: ١/ ٩٢.
٦ - حياة الصّحابة: «انظر الفهارس في الجزء الرّابع».
٧ - الأعلام ومراجعه ١/ ٣٣٠.
٨ - الإصابة: ١/ ٤٩ أو «الترجمة» ١٨٥.

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ

حَبْرُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ

« إِنَّهُ فَتَى الْكُهُولِ ، لَهُ لِسَانٌ سَؤُولٌ ، وَقَلْبٌ عَقُولٌ »

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

هَٰذَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ مَلَكَ الْمَجْدَ مِنْ أَطْرَافِهِ ، فَمَا فَاتَهُ مِنْهُ شَيْءٌ : فَقَدِ اجْتَمَعَ لَهُ مَجْدُ الصُّحْبَةِ ، وَلَوْ تَأَخَّرَ مِيلَادُهُ قَلِيلًا لَمَا شَرُفَ بِصُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَمَجْدُ الْقَرَابَةِ ، فَهُوَ ابْنُ عَمِّ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَمَجْدُ الْعِلْمِ ، فَهُوَ حَبْرُ(1) أُمَّةِ مُحَمَّدٍ وَبَحْرُ عِلْمِهَا الزَّاخِرُ .

وَمَجْدُ التُّقَىٰ ، فَقَدْ كَانَ صَوَّامًا بِالنَّهَارِ قَوَّامًا بِاللَّيْلِ ، مُسْتَغْفِرًا بِالْأَسْحَارِ ، بَكَّاءً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّىٰ خَدَّدَ(2) الدَّمْعُ خَدَّيْهِ .

إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَبَّانِيُّ(3) أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ، وَأَعْلَمُهَا بِكِتَابِ اللَّهِ . وَأَفْقَهُهَا بِتَأْوِيلِهِ ، وَأَقْدَرُهَا عَلَى النُّفُوذِ إِلَىٰ أَغْوَارِهِ ، وَ إِدْرَاكِ مَرَامِيهِ وَأَسْرَارِهِ .

* * *

وُلِدَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سَنَوَاتٍ ، وَلَمَّا تُوُفِّيَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، كَانَ لَهُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً فَقَطْ ... وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ حَفِظَ لِلْمُسْلِمِينَ عَنْ نَبِيِّهِمْ أَلْفًا وَسِتَّمِائَةٍ وَسِتِّينَ حَدِيثًا أَثْبَتَهَا الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا .

* * *

(1) الحَبْرُ : العالم المتبحر في العلم.
(2) خدد الدّمع خديه : حفر الدّمع خديه.
(3) الرّباني : العالم العارف بالله.

وَلَمَّا وَضَعَتْهُ أُمُّهُ حَمَلَتْهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَنَّكَهُ[1] بِرِيقِهِ ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ النَّبِيِّ الْمُبَارَكُ الطَّاهِرُ ، وَدَخَلَتْ مَعَهُ التَّقْوَىٰ وَالْحِكْمَةُ ...

﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[2].

* * *

وَمَا إِنْ خُلَّتْ عَنِ الْغُلَامِ « الْهَاشِمِيِّ » تَمَائِمُهُ ، وَدَخَلَ سِنَّ التَّمْيِيزِ[3] حَتَّىٰ لَازَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُلَازَمَةَ الْعَيْنِ لِأُخْتِهَا ...

فَكَان يُعِدُّ لَهُ مَاءَ وُضُوئِهِ إِذَا هَمَّ أَنْ يَتَوَضَّأَ .

وَيُصَلِّي خَلْفَهُ إِذَا وَقَفَ لِلصَّلَاةِ .

وَيَكُونُ رَدِيفَهُ[4] إِذَا عَزَمَ عَلَىٰ السَّفَرِ .

حَتَّىٰ غَدَا لَهُ كَظِلِّهِ يَسِيرُ مَعَهُ أَنَّىٰ سَارَ ، وَيَدُورُ فِي فَلَكِهِ كَيْفَمَا دَارَ .

وَهُوَ فِي كُلِّ ذَٰلِكَ يَحْمِلُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَلْبًا وَاعِيًا ، وَذِهْنًا صَافِيًا ، وَحَافِظَةً دُونَهَا كُلُّ آلَاتِ التَّسْجِيلِ الَّتِي عَرَفَهَا الْعَصْرُ الْحَدِيثُ .

* * *

حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

هَمَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِالْوُضُوءِ ذَاتَ مَرَّةٍ ؛ فَمَا أَسْرَعَ أَنْ أَعْدَدْتُ لَهُ الْمَاءَ ، فَسُرَّ بِمَا صَنَعْتُ ...

وَلَمَّا هَمَّ بِالصَّلَاةِ أَشَارَ إِلَيَّ : أَنْ أَقِفَ بِإِزَائِهِ[5] ، فَوَقَفْتُ خَلْفَهُ .

فَلَمَّا انْتَهَتِ الصَّلَاةُ مَالَ عَلَيَّ وَقَالَ :

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكُونَ بِإِزَائِي يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟!) .

---

(١) حنكه : دلك حلقه بريقه قبل أن يرضع .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٦٩ .

(٣) سن التمييز : هو سن السابعة ، وقيل غير ذلك .

(٤) رديف الرجل : من يركب خلفه .

(٥) بإزائه : بجانبه .

فَقُلْتُ : أَنْتَ أَجَلُّ فِي عَيْنِي وَأَعَزُّ مِنْ أَنْ أُوَازِيَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَقَالَ : (اللَّهُمَّ آتِهِ الْحِكْمَةَ)[1].

وَقَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَةَ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَآتَىٰ الْغُلَامَ الْهَاشِمِيَّ مِنَ الْحِكْمَةِ مَا فَاقَ بِهِ أَسَاطِينَ[2] الْحُكَمَاءِ .

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّكَ تَوَدُّ أَنْ تَقِفَ عَلَىٰ صُورَةٍ من صُوَرِ حِكْمَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ... فَإِلَيْكَ[3] هَٰذَا الْمَوْقِفَ ، فَفِيهِ بَعْضٌ مِمَّا تُرِيدُ :

* * *

لَمَّا اعْتَزَلَ[4] بَعْضُ أَصْحَابِ عَلِيٍّ وَخَذَلُوهُ فِي نِزَاعِهِ مَعَ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

ائْذَنْ لِي ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ آتِيَ الْقَوْمَ وَأُكَلِّمَهُمْ .

فَقَالَ : إِنِّي أَتَخَوَّفُ عَلَيْكَ مِنْهُمْ .

فَقَالَ : كَلَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَرَ قَوْمًا قَطُّ أَشَدَّ اجْتِهَادًا[5] مِنْهُمْ فِي الْعِبَادَةِ .

فَقَالُوا : مَرْحَبًا بِكَ يَا بْنَ عَبَّاسٍ ... مَا جَاءَ بِكَ ؟! .

فَقَالَ : جِئْتُ أُحَدِّثُكُمْ .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا تُحَدِّثُوهُ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : قُلْ نَسْمَعْ مِنْكَ .

---

(١) ورد أصل هذا الخبر في البخاري ، ومسلم ، ومسند الإمام أحمد بن حنبل .

(٢) أساطين الحكماء : أكابر الحكماء والمتفردون منهم .

(٣) إليك : خُذْ .

(٤) اعتزل بعض أصحاب عليّ : تخلوا عن عليّ وتركوه .

(٥) اجتهادًا في العبادة : إكثارًا من العبادة وعكوفًا عليها .

فَقَالَ: أَخْبِرُونِي مَا تَنْقِمُونَ[١] عَلَىٰ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، وَزَوْجِ ابْنَتِهِ، وَأَوَّلِ مَنْ آمَنَ بِهِ؟!.

قَالُوا: نَنْقِمُ عَلَيْهِ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ.

قَالَ: وَمَا هِيَ؟!.

قَالُوا: أَوَّلُهَا: أَنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي دِينِ اللَّهِ[٢]...

وَثَانِيهَا: أَنَّهُ قَاتَلَ عَائِشَةَ وَمُعَاوِيَةَ وَلَمْ يَأْخُذْ غَنَائِمَ وَلَا سَبَايَا...

وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ مَحَا عَنْ نَفْسِهِ لَقَبَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ بَايَعُوهُ وَأَمَّرُوهُ.

فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْمَعْتُكُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَحَدَّثْتُكُمْ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ مَا لَا تُنْكِرُونَهُ، أَفَتَرْجِعُونَ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ؟.

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: أَمَّا قَوْلُكُمْ: إِنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ**﴾[٣].

أَنْشُدُكُمُ اللَّهَ[٤]، أَفَحُكْمُ الرِّجَالِ فِي حَقْنِ[٥] دِمَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ أَحَقُّ، أَمْ حُكْمُهُمْ فِي أَرْنَبٍ ثَمَنُهَا رُبْعُ دِرْهَمٍ؟!.

فَقَالُوا: بَلْ فِي حَقْنِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ.

---

(١) ما تنقمون عَلَىٰ ابن عم رَسُول اللَّه: ما تأخذون عَلَيْهِ، وما تنكرون من فعله.
(٢) يشيرون بذلك إِلَىٰ قبول عَلِيّ بأن يحكم بينه وبين معاوية كُلٌّ من أبي مُوسَىٰ الأشعري وعَمرو بن العاص.
(٣) سورة المائدة: آية ٩٥.
(٤) أنشدكم اللَّه: أستحلفكم باللَّه.
(٥) حقن دمائهم: صون دمائهم.

فَقَالَ : أَخَرَجْنَا[١] مِنْ هَاذِهِ ؟ .

قَالُوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ .

قَالَ : وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : إِنَّ عَلِيًّا قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ[٢] كَمَا سَبَىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

أَفَكُنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْبُوا أُمَّكُمْ عَائِشَةَ وَتَسْتَحِلُّونَهَا كَمَا تُسْتَحَلُّ السَّبَايَا ؟! ... فَإِنْ قُلْتُمْ : نَعَمْ ؛ فَقَدْ كَفَرْتُمْ ... وَإِنْ قُلْتُمْ : إِنَّهَا لَيْسَتْ بِأُمِّكُمْ كَفَرْتُمْ أَيْضًا ؛ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ : ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾[٣].

فَاخْتَارُوا لِأَنْفُسِكُمْ مَا شِئْتُمْ .

ثُمَّ قَالَ : أَخَرَجْنَا مِنْ هَاذِهِ أَيْضًا ؟ .

قَالُوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ .

قَالَ : وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : إِنَّ عَلِيًّا قَدْ مَحَا عَنْ نَفْسِهِ لَقَبَ إِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ طَلَبَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ « الْحُدَيْبِيَةِ » أَنْ يَكْتُبُوا فِي الصُّلْحِ الَّذِي عَقَدَهُ مَعَهُمْ « هَاذَا مَا قَاضَىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » قَالُوا : لَوْ كُنَّا نُؤْمِنُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ ، وَلَكِنِ اكْتُبْ « مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ » ، فَنَزَلَ عِنْدَ طَلَبِهِمْ وَهُوَ يَقُولُ :

(وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي) . فَهَلْ خَرَجْنَا مِنْ هَاذِهِ ؟ .

فَقَالُوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ .

وَكَانَ مِنْ ثَمَرَةِ هَاذَا اللِّقَاءِ ، وَمَا أَظْهَرَهُ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ مِنْ حِكْمَةٍ

---

(١) أخرجنا من هذه؟ : هل انتهينا من هذه؟ .

(٢) لم يَسْبِ : لم يأخذ سبايا ، والسبايا : النساء اللواتي يؤسرن في الحرب .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٦ .

بَالِغَةٍ وَحُجَّةٍ دَامِغَةٍ أَنْ عَادَ مِنْهُمْ عِشْرُونَ أَلْفًا إِلَىٰ صُفُوفِ عَلِيٍّ ، وَأَصَرَّ أَرْبَعَةُ آلَافٍ عَلَىٰ خُصُومَتِهِمْ لَهُ عِنَادًا وَإِعْرَاضًا عَنِ الْحَقِّ .

* * *

وَقَدْ سَلَكَ الْفَتَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ إِلَىٰ الْعِلْمِ كُلَّ سَبِيلٍ ، وَبَذَلَ مِنْ أَجْلِ تَحْصِيلِهِ كُلَّ جُهْدٍ .

فَقَدْ ظَلَّ يَنْهَلُ[1] مِنْ مَعِينِ[2] رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ ، فَلَمَّا لَحِقَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِجِوَارِ رَبِّهِ اتَّجَهَ إِلَىٰ الْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَطَفِقَ يَأْخُذُ مِنْهُمْ وَيَتَلَقَّىٰ عَنْهُمْ . حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

كَانَ إِذَا بَلَغَنِي الْحَدِيثُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، أَتَيْتُ بَابَ بَيْتِهِ فِي وَقْتِ قَيْلُولَتِهِ[3] وَتَوَسَّدْتُ رِدَائِي عِنْدَ عَتَبَةِ دَارِهِ ، فَيَسْفِي[4] عَلَيَّ الرِّيحُ مِنَ التُّرَابِ مَا يَسْفِي ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَسْتَأْذِنَ عَلَيْهِ لَأَذِنَ لِي ...

وَإِنَّمَا كُنْتُ أَفْعَلُ ذَلِكَ لِأُطَيِّبَ نَفْسَهُ .

فَإِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ رَآنِي عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْحَالِ ، وَقَالَ :

يَا بْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ، مَا جَاءَ بِكَ ؟! ... هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ ؟ .

فَأَقُولُ : أَنَا أَحَقُّ بِالْمَجِيءِ إِلَيْكَ ، فَالْعِلْمُ يُؤْتَىٰ وَلَا يَأْتِي ، ثُمَّ أَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ .

* * *

وَكَمَا كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يُذِلُّ نَفْسَهُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ؛ فَقَدْ كَانَ يُغْلِي مِنْ قَدْرِ الْعُلَمَاءِ . فَهَا هُوَ ذَا زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ[5] كَاتِبُ الْوَحْيِ وَرَأْسُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي الْقَضَاءِ وَالْفِقْهِ وَالْقِرَاءَةِ وَالْفَرَائِضِ[6] يَهِمُّ بِرُكُوبِ دَابَّتِهِ فَيَقِفُ الْفَتَىٰ

---

(١) ينهل : يشرب .
(٢) المعين : الماء الجاري .
(٣) قيلولته : وقت نومه في منتصف النهار .
(٤) تسفي الريح التراب : تذروه وتحمله إليه .
(٥) زيد بن ثابت : انظره ص ٣٥١ .
(٦) الفرائض : عِلْم قسمة التركة على مستحقيها .

« الْهَاشِمِيُّ » عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وِقْفَةَ الْعَبْدِ بَيْنَ يَدَيْ مَوْلَاهُ ، وَيُمْسِكُ لَهُ رِكَابَهُ ، وَيَأْخُذُ بِزِمَامِ دَابَّتِهِ .

فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ : دَعْ عَنْكَ يَا بْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ .

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمَائِنَا .

فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ : أَرِنِي يَدَكَ ...

فَأَخْرَجَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ يَدَهُ ، فَمَالَ عَلَيْهَا وَقَبَّلَهَا وَقَالَ :

هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا .

* * *

وَقَدْ دَأَبَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ حَتَّىٰ بَلَغَ فِيهِ مَبْلَغًا أَذْهَشَ الْفُحُولَ ... فَقَالَ فِيهِ مَسْرُوقُ بْنُ الْأَجْدَعِ أَحَدُ كِبَارِ التَّابِعِينَ[1]:

كُنْتُ إِذَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ قُلْتُ : أَجْمَلُ النَّاسِ ...

فَإِذَا نَطَقَ قُلْتُ : أَفْصَحُ النَّاسِ ...

فَإِذَا تَحَدَّثَ قُلْتُ : أَعْلَمُ النَّاسِ .

* * *

وَلَمَّا اكْتَمَلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ مَا طَمَحَ إِلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ تَحَوَّلَ إِلَىٰ مُعَلِّمٍ يُعَلِّمُ النَّاسَ . فَأَصْبَحَ بَيْتُهُ جَامِعَةً لِلْمُسْلِمِينَ ...

نَعَمْ أَصْبَحَ جَامِعَةً بِكُلِّ مَا تَعْنِيهِ هَـٰذِهِ الْكَلِمَةُ فِي عَصْرِنَا الْحَدِيثِ ...

وَكُلُّ مَا بَيْنَ جَامِعَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَامِعَاتِنَا مِنْ فَرْقٍ ، هُوَ أَنَّ جَامِعَاتِ الْيَوْمِ يُحْشَدُ فِيهَا عَشَرَاتُ الْأَسَاتِذَةِ ، وَأَحْيَانًا الْمِئَاتُ ... أَمَّا جَامِعَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَدْ

(١) التَّابعون : هم الرَّعيل الأُول بعد صَحابة النَّبي ﷺ ، وقد قسمهم علماء الحديث إِلَىٰ طبقات ، أولهم من لحق العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم من لَقِيَ صغار الصَّحابة أو من تأخرت وفاتهم ... انظر كتاب « صور من حياة التَّابعين » للمؤلف ، النَّاشر دار الأدب الإسلامي .

قَامَتْ عَلَىٰ أَكْتَافِ أُسْتَاذٍ وَاحِدٍ، هُوَ ابْنُ عَبَّاسٍ نَفْسُهُ.

رَوَىٰ أَحَدُ أَصْحَابِهِ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ مِنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَجْلِسًا لَوْ أَنَّ جَمِيعَ قُرَيْشٍ افْتَخَرَتْ بِهِ لَكَانَ لَهَا مَفْخَرَةً... فَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّاسَ اجْتَمَعُوا فِي الطُّرُقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَىٰ بَيْتِهِ حَتَّىٰ ضَاقَتْ بِهِمْ، وَسَدُّوهَا فِي وُجُوهِ النَّاسِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَأَخْبَرْتُهُ بِاحْتِشَادِ النَّاسِ عَلَىٰ بَابِهِ، فَقَالَ: ضَعْ لِي وَضُوءًا[1]... فَتَوَضَّأَ وَجَلَسَ، وَقَالَ:

أُخْرُجْ وَقُلْ لَهُمْ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْقُرْآنِ وَحُرُوفِهِ فَلْيَدْخُلْ... فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ، فَدَخَلُوا حَتَّىٰ مَلَأُوا الْبَيْتَ وَالْحُجْرَةَ، فَمَا سَأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرَهُمْ بِهِ، وَزَادَهُمْ مِثْلَ مَا سَأَلُوا عَنْهُ وَأَكْثَرَ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:

أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ لِإِخْوَانِكُمْ، فَخَرَجُوا.

ثُمَّ قَالَ لِي: أُخْرُجْ فَقُلْ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَتَأْوِيلِهِ فَلْيَدْخُلْ... فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ.

فَدَخَلُوا حَتَّىٰ مَلَأُوا الْبَيْتَ وَالْحُجْرَةَ، فَمَا سَأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرَهُمْ بِهِ، وَزَادَهُمْ مِثْلَ مَا سَأَلُوا عَنْهُ وَأَكْثَرَ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:

أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ لِإِخْوَانِكُمْ، فَخَرَجُوا.

ثُمَّ قَالَ لِي: أُخْرُجْ فَقُلْ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْفِقْهِ فَلْيَدْخُلْ... فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ، فَدَخَلُوا حَتَّىٰ مَلَأُوا الْبَيْتَ وَالْحُجْرَةَ، فَمَا سَأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرَهُمْ بِهِ وَزَادَهُمْ مِثْلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:

أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ لِإِخْوَانِكُمْ، فَخَرَجُوا.

ثُمَّ قَالَ لِي: أُخْرُجْ فَقُلْ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْفَرَائِضِ وَمَا أَشْبَهَهَا

(١) الْوَضوء بفتح الْواو: الْمَاءُ الذي يُتَوَضَّأُ به.

فَلْيَدْخُلْ ... فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ ، فَدَخَلُوا حَتَّىٰ مَلَأُوا الْبَيْتَ وَالْحُجْرَةَ ، فَمَا سَأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرَهُمْ بِهِ وَزَادَهُمْ مِثْلَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ لِإِخْوَانِكُمْ ، فَخَرَجُوا .

ثُمَّ قَالَ لِي : أُخْرُجْ فَقُلْ : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ وَالشِّعْرِ وَغَرِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ فَلْيَدْخُلْ ... فَدَخَلُوا حَتَّىٰ مَلَأُوا الْبَيْتَ وَالْحُجْرَةَ ، فَمَا سَأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرَهُمْ بِهِ ، وَزَادَهُمْ مِثْلَهُ .

قَالَ رَاوِي الْخَبَرِ : فَلَوْ أَنَّ قُرَيْشًا فَخَرَتْ بِذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ لَهَا فَخْرًا .

* * *

وَكَأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأَىٰ أَنْ يُوَزِّعَ الْعُلُومَ عَلَىٰ الْأَيَّامِ حَتَّىٰ لَا يَحْدُثَ عَلَىٰ بَابِهِ مِثْلُ ذَلِكَ الزِّحَامِ ...

فَصَارَ يَجْلِسُ فِي الْأُسْبُوعِ يَوْمًا لَا يُذْكَرُ فِيهِ إِلَّا التَّفْسِيرُ .

وَيَوْمًا لَا يُذْكَرُ فِيهِ إِلَّا الْفِقْهُ .

وَيَوْمًا لَا تُذْكَرُ فِيهِ إِلَّا الْمَغَازِي(١).

وَيَوْمًا لَا يُذْكَرُ فِيهِ إِلَّا الشِّعْرُ .

وَيَوْمًا لَا تُذْكَرُ فِيهِ إِلَّا أَيَّامُ الْعَرَبِ .

وَمَا جَلَسَ إِلَيْهِ عَالِمٌ قَطُّ إِلَّا خَضَعَ لَهُ ...

وَمَا سَأَلَهُ سَائِلٌ قَطُّ إِلَّا وَجَدَ عِنْدَهُ عِلْمًا .

* * *

وَقَدْ غَدَا ابْنُ عَبَّاسٍ ، بِفَضْلِ عِلْمِهِ وَفِقْهِهِ ، مُسْتَشَارًا لِلْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ .

(١) الْمغازي : غزوات رَسُول الله ﷺ .

فَكَانَ إِذَا عَرَضَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَمْرٌ أَوْ وَاجَهَتْهُ مُعْضِلَةٌ[1] دَعَا جِلَّةَ[2] الصَّحَابَةِ وَدَعَا مَعَهُمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، فَإِذَا حَضَرَ رَفَعَ مَنْزِلَتَهُ وَأَدْنَى مَجْلِسَهُ وَقَالَ لَهُ:

لَقَدْ أَعْضَلَ عَلَيْنَا أَمْرٌ أَنْتَ لَهُ وَلِأَمْثَالِهِ.

وَقَدْ عُوتِبَ مَرَّةً فِي تَقْدِيمِهِ لَهُ وَجَعْلِهِ مَعَ الشُّيُوخِ، وَهُوَ مَا زَالَ فَتًى، فَقَالَ:

إِنَّهُ فَتَى الْكُهُولِ، لَهُ لِسَانٌ سَؤُولٌ وَقَلْبٌ عَقُولٌ.

* * *

عَلَى أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ حِينَ انْصَرَفَ إِلَى الْخَاصَّةِ لِيُعَلِّمَهُمْ وَيُفَقِّهَهُمْ، لَمْ يَنْسَ حَقَّ الْعَامَّةِ عَلَيْهِ، فَكَانَ يَعْقِدُ لَهُمْ مَجَالِسَ الْوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ.

فَمِنْ مَوَاعِظِهِ قَوْلُهُ مُخَاطِبًا أَصْحَابَ الذُّنُوبِ:

يَا صَاحِبَ الذَّنْبِ لَا تَأْمَنْ عَاقِبَةَ ذَنْبِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا يَتْبَعُ الذَّنْبَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ نَفْسِهِ.

فَإِنَّ عَدَمَ اسْتِحْيَائِكَ مِمَّنْ عَلَى يَمِينِكَ وَعَلَى شِمَالِكَ وَأَنْتَ تَقْتَرِفُ[3] الذَّنْبَ لَا يَقِلُّ عَنِ الذَّنْبِ.

وَإِنَّ ضَحِكَكَ عِنْدَ الذَّنْبِ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ بِكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ.

وَإِنَّ فَرَحَكَ بِالذَّنْبِ إِذَا ظَفِرْتَ بِهِ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ.

---

(١) المعضلة: المشكلة الصعبة.
(٢) جلة الصحابة: شيوخ الصحابة ومتقدموهم.
(٣) تقترف الذنب: ترتكب الذنب.

وَإِنَّ حُزْنَكَ عَلَى الذَّنْبِ إِذَا فَاتَكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ .

وَإِنَّ خَوْفَكَ مِنَ الرِّيحِ إِذَا حَرَّكَتْ سِتْرَكَ ، وَأَنْتَ تَرْتَكِبُ الذَّنْبَ مَعَ كَوْنِكَ لَا يَضْطَرِبُ فُؤَادُكَ مِنْ نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ .

يَا صَاحِبَ الذَّنْبِ : أَتَدْرِي مَا كَانَ ذَنْبُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ ابْتَلَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِجَسَدِهِ وَمَالِهِ ؟ ...

إِنَّمَا كَانَ ذَنْبُهُ أَنَّهُ اسْتَعَانَ بِهِ مِسْكِينٌ لِيَدْفَعَ عَنْهُ الظُّلْمَ فَلَمْ يُعِنْهُ .

* * *

وَلَمْ يَكُنِ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنَ الَّذِين يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَيَنْهَوْنَ النَّاسَ وَلَا يَنْتَهُونَ ، وَإِنَّمَا كَانَ صَوَّامَ نَهَارٍ قَوَّامَ لَيْلٍ .

أَخْبَرَ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ :

صَحِبْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَكُنَّا إِذَا نَزَلْنَا مَنْزِلًا قَامَ شَطْرَ اللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ .

وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ يَقْرَأُ :

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[1].

فَظَلَّ يُكَرِّرُهَا وَيَنْشِجُ[2] حَتَّى طَلَعَ عَلَيْهِ الْفَجْرُ .

وَحَسْبُنَا بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ كَانَ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ جَمَالًا ، وَأَصْبَحِهِمْ وَجْهًا ، فَمَا زَالَ يَبْكِي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى خَدَّدَ الدَّمْعُ الْهَتُونُ[3] خَدَّيْهِ الأَسِيلَيْنِ[4].

* * *

(١) سورة ق : آية ١٩.
(٢) ينشج : يبكي بصوت عالٍ.
(٣) الدّمع الْهتون : الدّمع الْمنصبّ بغزارة.
(٤) خديه الأسيلين : خديه الْمستويين الناعمين.

وَقَدْ بَلَغَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ مَجْدِ الْعِلْمِ غَايَتَهُ .

ذَلِكَ أَنَّ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ خَرَجَ ذَاتَ سَنَةٍ حَاجًّا ...

وَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ حَاجًّا أَيْضًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ صَوْلَةٌ وَلَا إِمَارَةٌ .

فَكَانَ لِمُعَاوِيَةَ مَوْكِبٌ مِنْ رِجَالِ دَوْلَتِهِ .

وَكَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ مَوْكِبٌ يَفُوقُ مَوْكِبَ الْخَلِيفَةِ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ .

* * *

عُمِّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ سَنَةً مَلَأَ فِيهَا الدُّنْيَا عِلْمًا وَفَهْمًا وَحِكْمَةً وَتُقًى .

فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ(١) صَلَّىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ(٢) .

وَالْبَقِيَّةُ الْبَاقِيَةُ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجِلَّةُ التَّابِعِينَ ...

وَفِيمَا كَانُوا يُوَارُونَهُ تُرَابَهُ ، سَمِعُوا قَارِئًا يَقْرَأُ :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾(٣) (*) .

---

(١) الْيَقِين : الْمَوت .

(٢) مُحَمَّد ابن الْحنفية : هُوَ مُحَمَّد بن عَلِيّ بن أبي طَالِب ، وقد نُسب لأُمّه لتمييزه من الْحسن والْحسين ، لأن أمّهمَا فاطمة بنت النَّبِي ﷺ وَأم مُحَمَّد امرأة من بني حنيفة ... انظره في كتاب « صور من حياة التَّابعين » للمؤلف ، النَّاشر دار الأَدب الإِسلامي .

(٣) سورة الْفجر : من الآية ٢٧ - ٣٠ .

(*) للاستزادة من أخبار عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ انظر :

١ - جامع الأصول : « الْجزء الْعاشر باب فضائل الصَّحابة » .

٢ - الإِصابة : ٢/ ٣٣٠ أو « التَّرجمة » ٤٧٨١ .

٣ - الاستيعاب « بهامش الإِصابة » : ٢/ ٣٥٠ .

٤ - أسْدُ الْغابة : ٣/ ٢٩٠ .

٥ - صفة الصَّفوة « الطَّبعة الْحلبية » : ١/ ٧٤٦ .

٦ - حياة الصَّحابة : « انظر الْفهارس في الْجزء الرَّابع » .

٧ - الأعلام ومراجعه .

النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيُّ

«إِنَّ لِلْإِيمَانِ بُيُوتًا ، وَلِلنِّفَاقِ بُيُوتًا ،
وَإِنَّ بَيْتَ بَنِي مُقَرِّنٍ مِنْ بُيُوتِ الْإِيمَانِ»

[عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ]

كَانَتْ قَبِيلَةُ «مُزَيْنَةَ» تَتَّخِذُ مَنَازِلَهَا قَرِيبًا مِنْ «يَثْرِبَ» عَلَىٰ الطَّرِيقِ الْمُمْتَدَّةِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ .

وَكَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قَدْ هَاجَرَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، وَجَعَلَتْ أَخْبَارُهُ تَصِلُ تِبَاعًا إِلَىٰ «مُزَيْنَةَ» مَعَ الْغَادِينَ وَالرَّائِحِينَ ، فَلَا تَسْمَعُ عَنْهُ إِلَّا خَيْرًا .

وَفِي ذَاتِ عَشِيَّةٍ ، جَلَسَ سَيِّدُ الْقَوْمِ ، النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيُّ ، فِي نَادِيهِ مَعَ إِخْوَتِهِ وَمَشْيَخَةِ قَبِيلَتِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ :

يَا قَوْمِ ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا خَيْرًا ، وَلَا سَمِعْنَا مِنْ دَعْوَتِهِ إِلَّا مَرْحَمَةً وَإِحْسَانًا وَعَدْلًا ، فَمَا بَالُنَا[1] نُبْطِئُ عَنْهُ ، وَالنَّاسُ إِلَيْهِ يُسْرِعُونَ ؟! .

ثُمَّ أَتْبَعَ يَقُولُ :

أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَزَمْتُ عَلَىٰ أَنْ أَغْدُوَ[2] عَلَيْهِ ، إِذَا أَصْبَحْتُ ، فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ مَعِي فَلْيَتَجَهَّزْ .

وَكَأَنَّمَا مَسَّتْ كَلِمَاتُ النُّعْمَانِ وَتَرًا مُرْهَفًا فِي نُفُوسِ الْقَوْمِ ، فَمَا إِنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ حَتَّىٰ وَجَدَ إِخْوَتَهُ الْعَشَرَةَ ، وَأَرْبَعَمِائَةِ فَارِسٍ مِنْ فُرْسَانِ «مُزَيْنَةَ» قَدْ جَهَّزُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْمُضِيِّ مَعَهُ إِلَىٰ «يَثْرِبَ» لِلِقَاءِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَالدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ .

---

(١) ما بالنا : كلمة تقال عند التعجب من فعل شيء أو تركه.

(٢) أغدو عليه : أذهب إليه في الغداة ، والغداة : البكرة ، وهي ما بين الفجر وطلوع الشمس.

بَيْدَ أَنَّ[1] النُّعْمَانَ اسْتَحَىٰ أَنْ يَفِدَ مَعَ هَٰذَا الْجَمْعِ الْحَاشِدِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ دُونَ أَنْ يَحْمِلَ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فِي يَدِهِ .

لَكِنَّ السَّنَةَ الشَّهْبَاءَ[2] الْمُجْدِبَةَ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا « مُزَيْنَةُ » لَمْ تَتْرُكْ لَهَا ضَرْعًا[3] وَلَا زَرْعًا ...

فَطَافَ النُّعْمَانُ بِبَيْتِهِ وَبُيُوتِ إِخْوَتِهِ ، وَجَمَعَ كُلَّ مَا أَبْقَاهُ لَهُمُ الْقَحْطُ مِنْ غُنَيْمَاتٍ ، وَسَاقَهَا أَمَامَهُ ، وَقَدِمَ بِهَا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَعْلَنَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ إِسْلَامَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ .

* * *

اهْتَزَّتْ « يَثْرِبُ » مِنْ أَقْصَاهَا إِلَىٰ أَقْصَاهَا فَرَحًا بِالنُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ وَصَحْبِهِ ، إِذْ لَمْ يَسْبِقْ لِبَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ أَنْ أَسْلَمَ مِنْهُ أَحَدَ عَشَرَ أَخًا مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ وَمَعَهُمْ أَرْبَعُمِائَةِ فَارِسٍ .

وَسُرَّ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِإِسْلَامِ النُّعْمَانِ أَبْلَغَ السُّرُورِ .

وَتَقَبَّلَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ غُنَيْمَاتِهِ ، وَأَنْزَلَ فِيهِ قُرْآنًا فَقَالَ :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[4].

* * *

انْضَوَىٰ[5] النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ تَحْتَ رَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَشَهِدَ مَعَهُ غَزَوَاتِهِ كُلَّهَا غَيْرَ وَانٍ[6] وَلَا مُقَصِّرٍ .

---

(١) بيد أن : غير أن .
(٢) السّنة الشّهباء : السّنة المجدبة التي لا خضرة فيها ولا مطر .
(٣) ضرعًا : الضّرع كناية عن الأنعام أي الماشية .
(٤) سورة التّوبة : آية ٩٩ .
(٥) انضوى : انضم ودخل .
(٦) غير وان : غير متراخ ، ولا مقصر .

وَلَمَّا آلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الصِّدِّيقِ وَقَفَ مَعَهُ هُوَ وَقَوْمُهُ مِنْ بَنِي « مُزَيْنَةَ » وَقْفَةً حَازِمَةً كَانَ لَهَا أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي الْقَضَاءِ عَلَى فِتْنَةِ الرِّدَّةِ .

* * *

وَلَمَّا صَارَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْفَارُوقِ كَانَ لِلنُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ فِي عَهْدِهِ شَأْنٌ مَا يَزَالُ التَّارِيخُ يَذْكُرُهُ بِلِسَانٍ نَدِيٍّ بِالْحَمْدِ ، رَطِيبٍ بِالثَّنَاءِ .

* * *

فَقُبَيْلَ « الْقَادِسِيَّةِ »[1]، أَرْسَلَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ[2] قَائِدُ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ وَفْدًا إِلَى « كِسْرَى يَزْدَجِرْدَ » بِرِئَاسَةِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ لِيَدْعُوَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ .

وَلَمَّا بَلَغُوا عَاصِمَةَ « كِسْرَى » فِي « الْمَدَائِنِ »[3] اسْتَأْذَنُوا بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُمْ ، ثُمَّ دَعَا التَّرْجُمَانَ فَقَالَ لَهُ :

سَلْهُمْ : مَا الَّذِي جَاءَ بِكُمْ إِلَى دِيَارِنَا وَأَغْرَاكُمْ[4] بِغَزْوِنَا ؟! ... لَعَلَّكُمْ طَمِعْتُمْ بِنَا وَاجْتَرَأْتُمْ عَلَيْنَا لِأَنَّنَا تَشَاغَلْنَا عَنْكُمْ ، وَلَمْ نَشَأْ أَنْ نَبْطِشَ بِكُمْ .

فَالْتَفَتَ النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ إِلَى مَنْ مَعَهُ وَقَالَ :

إِنْ شِئْتُمْ أَجَبْتُهُ عَنْكُمْ ، وَإِنْ شَاءَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَكَلَّمَ آثَرْتُهُ[5] بِالْكَلَامِ ، فَقَالُوا : بَلْ تَكَلَّمْ .

ثُمَّ الْتَفَتُوا إِلَى « كِسْرَى » وَقَالُوا :

هَٰذَا الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِنَا فَاسْتَمِعْ إِلَى مَا يَقُولُ .

فَحَمِدَ النُّعْمَانُ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :

---

(١) الْقَادسية : مكان في العراق غربي النجف وقعت فيه المعركة الكبرى الفاصلة الَّتي دعيت بمعركة القادسية .
(٢) سَعْد بن أبي وَقَّاص : انظره ص ٢٨١.
(٣) المدائن : مدينة قديمة في العراق .
(٤) أغراكم بغزونا : رغبكم بغزونا ، وحضكم عليه .
(٥) آثرته بالكلام : فضلته وجعلته يتكلم أولًا .

إِنَّ اللَّهَ رَحِمَنَا فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا يَدُلُّنَا عَلَىٰ الْخَيْرِ وَيَأْمُرُنَا بِهِ ، وَيُعَرِّفُنَا الشَّرَّ وَيَنْهَانَا عَنْهُ .

وَوَعَدَنَا - إِنْ أَجَبْنَاهُ إِلَىٰ مَا دَعَانَا إِلَيْهِ - أَنْ يُعْطِيَنَا اللَّهُ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

فَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ بَدَّلَ اللَّهُ ضِيقَنَا سَعَةً ، وَذِلَّتَنَا عِزَّةً ، وَعَدَاوَاتِنَا إِخَاءً وَمَرْحَمَةً ...

وَقَدْ أَمَرَنَا أَنْ نَدْعُوَ النَّاسَ إِلَىٰ مَا فِيهِ خَيْرُهُمْ وَأَنْ نَبْدَأَ بِمَنْ يُجَاوِرُنَا .

فَنَحْنُ نَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الدُّخُولِ فِي دِينِنَا ، وَهُوَ دِينٌ حَسَّنَ الْحَسَنَ كُلَّهُ وَحَضَّ[1] عَلَيْهِ ، وَقَبَّحَ الْقَبِيحَ كُلَّهُ وَحَذَّرَ مِنْهُ ...

وَهُوَ يَنْقُلُ مُعْتَنِقِيهِ[2] مِنْ ظَلَامِ الْكُفْرِ وَجَوْرِهِ إِلَىٰ نُورِ الْإِيمَانِ وَعَدْلِهِ .

فَإِنْ أَجَبْتُمُونَا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ خَلَّفْنَا فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَمْنَاكُمْ عَلَيْهِ ، عَلَىٰ أَنْ تَحْكُمُوا بِأَحْكَامِهِ ، وَرَجَعْنَا عَنْكُمْ وَتَرَكْنَاكُمْ وَشَأْنَكُمْ ...

فَإِنْ أَبَيْتُمُ الدُّخُولَ فِي دِينِ اللَّهِ أَخَذْنَا مِنْكُمُ الْجِزْيَةَ وَحَمَيْنَاكُمْ ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِعْطَاءَ الْجِزْيَةِ حَارَبْنَاكُمْ .

فَاسْتَشَاطَ[3] « يَزْدَجِرْدُ » غَضَبًا وَغَيْظًا مِمَّا سَمِعَ ، وَقَالَ :

إِنِّي لَا أَعْلَمُ أُمَّةً فِي الْأَرْضِ كَانَتْ أَشْقَىٰ مِنْكُمْ وَلَا أَقَلَّ عَدَدًا ، وَلَا أَشَدَّ فُرْقَةً ، وَلَا أَسْوَأَ حَالًا ...

وَقَدْ كُنَّا نَكِلُ أَمْرَكُمْ إِلَىٰ وُلَاةِ الضَّوَاحِي فَيَأْخُذُونَ لَنَا الطَّاعَةَ مِنْكُمْ ...

ثُمَّ خَفَّفَ شَيْئًا مِنْ حِدَّتِهِ وَقَالَ :

(١) حض عَلَيْهِ : رغب فيه وحث عَلَيْهِ .
(٢) معتنقيه : الْمؤمنين به .
(٣) استشاط غضبًا : اشتعل غضبًا .

فَإِنْ كَانَتِ الْحَاجَةُ هِيَ الَّتِي دَفَعَتْكُمْ إِلَىٰ الْمَجِيءِ إِلَيْنَا أَمَرْنَا لَكُمْ بِقُوتٍ إِلَىٰ أَنْ تُخْصِبَ دِيَارُكُمْ ، وَكَسَوْنَا سَادَتَكُمْ وَوُجُوهَ قَوْمِكُمْ ، وَمَلَّكْنَا[1] عَلَيْكُمْ مَلِكًا مِنْ قِبَلِنَا يَرْفُقُ بِكُمْ .

فَرَدَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْوَفْدِ رَدًّا أَشْعَلَ نَارَ غَضَبِهِ مِنْ جَدِيدٍ فَقَالَ :

لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمْ ...

قُومُوا فَلَيْسَ لَكُمْ شَيْءٌ عِنْدِي ، وَأَخْبِرُوا قَائِدَكُمْ أَنِّي مُرْسِلٌ إِلَيْهِ « رُسْتُمَ »[2] حَتَّىٰ يَدْفِنَهُ وَيَدْفِنَكُمْ مَعًا فِي خَنْدَقِ « الْقَادِسِيَّةِ » .

ثُمَّ أَمَرَ فَأُتِيَ لَهُ بِحِمْلِ تُرَابٍ ، وَقَالَ لِرِجَالِهِ : حَمِّلُوهُ عَلَىٰ أَشْرَفِ هَؤُلَاءِ وَسُوقُوهُ أَمَامَكُمْ عَلَىٰ مَرْأًى مِنَ النَّاسِ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنْ أَبْوَابِ عَاصِمَةِ مُلْكِنَا .

فَقَالُوا لِلْوَفْدِ : مَنْ أَشْرَفُكُمْ ؟...

فَبَادَرَ إِلَيْهِمْ عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ وَقَالَ : أَنَا .

فَحَمَّلُوهُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ خَرَجَ مِنَ الْمَدَائِنِ ، ثُمَّ حَمَّلَهُ عَلَىٰ نَاقَتِهِ وَأَخَذَهُ مَعَهُ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَبَشَّرَهُ بِأَنَّ اللَّهَ سَيَفْتَحُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ دِيَارَ الْفُرْسِ وَيُمَلِّكُهُمْ تُرَابَ أَرْضِهِمْ .

ثُمَّ وَقَعَتْ مَعْرَكَةُ « الْقَادِسِيَّةِ » ، وَاكْتَظَّ[3] خَنْدَقُهَا بِجُثَثِ آلَافِ الْقَتْلَىٰ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا كَانُوا مِنْ جُنُودِ « كِسْرَىٰ » .

* * *

لَمْ يَسْتَكِنِ الْفُرْسُ لِهَزِيمَةِ « الْقَادِسِيَّةِ » ، فَجَمَعُوا جُمُوعَهُمْ ، وَجَيَّشُوا جُيُوشَهُمْ حَتَّىٰ اكْتَمَلَ لَهُمْ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفًا مِنْ أَشِدَّاءِ الْمُقَاتِلِينَ .

(١) مَلَّكنا عليكم : وَلَّينا عليكم .
(٢) رستم : قائد جيش الفُرس .
(٣) اكتظ خندقها : امتلأ خندقها .

فَلَمَّا وَقَفَ الْفَارُوقُ عَلَىٰ أَخْبَارِ هَٰذَا الْحَشْدِ الْعَظِيمِ ، عَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَمْضِيَ إِلَىٰ مُوَاجَهَةِ هَٰذَا الْخَطَرِ الْكَبِيرِ بِنَفْسِهِ .

وَلَكِنَّ وُجُوهَ الْمُسْلِمِينَ ثَنَوْهُ[1] عَنْ ذَٰلِكَ ، وَأَشَارُوا عَلَيْهِ أَنْ يُرْسِلَ قَائِدًا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ هَٰذَا الْأَمْرِ الْجَلِيلِ .

فَقَالَ عُمَرُ : أَشِيرُوا عَلَيَّ بِرَجُلٍ لِأُوَلِّيَهُ ذَٰلِكَ الثَّغْرَ .

فَقَالُوا : أَنْتَ أَعْلَمُ بِجُنْدِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ لَأُوَلِّيَنَّ عَلَىٰ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ رَجُلًا يَكُونُ - إِذَا الْتَقَى الْجَمْعَانِ - أَسْبَقَ مِنَ الْأَسِنَّةِ ، هُوَ النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيُّ .

فَقَالُوا : هُوَ لَهَا .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَىٰ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ .

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ جُمُوعًا مِنَ الْأَعَاجِمِ كَثِيرَةً قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ بِمَدِينَةِ « نَهَاوَنْدَ » ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَٰذَا فَسِرْ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَبِعَوْنِ اللَّهِ ، وَبِنَصْرِ اللَّهِ بِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا تُوطِئْهُمْ وَعْرًا فَتُؤْذِيَهُمْ ...

فَإِنَّ رَجُلًا وَاحِدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ .

* * *

هَبَّ النُّعْمَانُ بِجَيْشِهِ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ ، وَأَرْسَلَ أَمَامَهُ طَلَائِعَ مِنْ فُرْسَانِهِ لِتَكْشِفَ لَهُ الطَّرِيقَ ... فَلَمَّا اقْتَرَبَ الْفُرْسَانُ مِنْ « نَهَاوَنْدَ » ، تَوَقَّفَتْ خُيُولُهُمْ ،

(١) ثنوه : ردوه .

فَدَفَعُوهَا فَلَمْ تَنْدَفِعْ ، فَنَزَلُوا عَنْ ظُهُورِهَا لِيَعْرِفُوا الْخَبَرَ فَوَجَدُوا فِي حَوَافِرِ الْخَيْلِ شَظَايَا مِنَ الْحَدِيدِ تُشْبِهُ رُؤُوسَ الْمَسَامِيرِ ، فَنَظَرُوا فِي الأَرْضِ فَإِذَا الْعَجَمُ قَدْ نَثَرُوا فِي الدُّرُوبِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَىٰ « نَهَاوَنْدَ » حَسَكَ الْحَدِيدِ ؛ لِيَعُوقُوا الْفُرْسَانَ وَالْمُشَاةَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا .

* * *

أَخْبَرَ الْفُرْسَانُ النُّعْمَانَ بِمَا رَأَوْا ، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُمِدَّهُمْ بِرَأْيِهِ ، فَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَقِفُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ ، وَأَنْ يُوقِدُوا النِّيرَانَ فِي اللَّيْلِ لِيَرَاهُمُ الْعَدُوُّ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَظَاهَرُونَ بِالْخَوْفِ مِنْهُ وَالْهَزِيمَةِ أَمَامَهُ لِيُغْرُوهُ بِاللَّحَاقِ بِهِمْ ، وَ إِزَالَةِ مَا زَرَعَهُ مِنْ حَسَكِ الْحَدِيدِ .

وَجَازَتِ الْحِيلَةُ عَلَىٰ الْفُرْسِ ، فَمَا إِنْ رَأَوْا طَلِيعَةَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ تَمْضِي مُنْهَزِمَةً أَمَامَهُمْ حَتَّىٰ أَرْسَلُوا عُمَّالَهُمْ ، فَكَنَسُوا الطُّرُقَ مِنَ الْحَسَكِ ، فَكَرَّ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ وَاحْتَلُّوا تِلْكَ الدُّرُوبَ .

* * *

عَسْكَرَ النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ بِجَيْشِهِ عَلَىٰ مَشَارِفِ « نَهَاوَنْدَ » وَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يُبَاغِتَ[1] عَدُوَّهُ بِالْهُجُومِ ، فَقَالَ لِجُنُودِهِ :

إِنِّي مُكَبِّرٌ ثَلاثًا ، فَإِذَا كَبَّرْتُ الأُولَىٰ فَلْيَتَهَيَّأْ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَهَيَّأَ ، وَ إِذَا كَبَّرْتُ الثَّانِيَةَ فَلْيَشْدُدْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ سِلاَحَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، فَإِذَا كَبَّرْتُ الثَّالِثَةَ ، فَإِنِّي حَامِلٌ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللَّهِ فَاحْمِلُوا مَعِي .

* * *

كَبَّرَ النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ تَكْبِيرَاتِهِ الثَّلَاثَ ، وَانْدَفَعَ فِي صُفُوفِ الْعَدُوِّ كَأَنَّهُ

(١) يباغت عدوه : يفاجئه .

اللَّيْثُ عَادِيًا ، وَتَدَفَّقَ وَرَاءَهُ جُنُودُ الْمُسْلِمِينَ تَدَفُّقَ السَّيْلِ ، وَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ رَحَىٰ مَعْرَكَةٍ ضَرُوسٍ قَلَّمَا شَهِدَ تَارِيخُ الْحُرُوبِ لَهَا نَظِيرًا .

فَتَمَزَّقَ جَيْشُ الْفُرْسِ شَرَّ مُمَزَّقٍ ، وَمَلَأَتْ قَتْلَاهُ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ ، وَسَالَتْ دِمَاؤُهُ فِي الْمَمَرَّاتِ وَالدُّرُوبِ ، فَزَلِقَ جَوَادُ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ بِالدِّمَاءِ فَصُرِعَ ، وَأُصِيبَ النُّعْمَانُ نَفْسُهُ إِصَابَةً قَاتِلَةً ، فَأَخَذَ أَخُوهُ اللِّوَاءَ مِنْ يَدِهِ ، وَسَجَّاهُ[1] بِبُرْدَةٍ كَانَتْ مَعَهُ ، وَكَتَمَ أَمْرَ مَصْرَعِهِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ .

وَلَمَّا تَمَّ النَّصْرُ الْكَبِيرُ الَّذِي سَمَّاهُ الْمُسْلِمُونَ « فَتْحَ الْفُتُوحِ » ...

سَأَلَ الْجُنُودُ الْمُنْتَصِرُونَ عَنْ قَائِدِهِمُ الْبَاسِلِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ ...

فَرَفَعَ أَخُوهُ الْبُرْدَةَ عَنْهُ وَقَالَ :

هَٰذَا أَمِيرُكُمْ ، قَدْ أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ بِالْفَتْحِ ، وَخَتَمَ لَهُ بِالشَّهَادَةِ (*) .

---

(١) سجّاه : غطاه .

(*) للاستزادة من أخبار النُّعمانِ بنِ مُقرِّنٍ المُزنِيِّ انظر :
١ — الإصابة : ٣/٥٦٣ أو « الترجمة » ٨٧٥٢.
٢ — ابن الأثير : ٢/٢١١ و٣/٧.
٣ — تهذيب التهذيب : ١٠/٤٥٦.
٤ — فتوح البلدان : ٣١١.
٥ — شرح ألفية العراقي : ٣/ ٧٦.
٦ — الأعلام : ٩/ ٩.
٧ — القادسية : ٦٦ ـ ٧٣ « منشورات دار النفائس ـ بيروت » .

صُهَيْبُ الرُّومِيُّ

« رَبِحَ الْبَيْعُ يَا أَبَا يَحْيَىٰ ... رَبِحَ الْبَيْعُ ... »

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

صُهَيْبٌ الرُّومِيُّ ...

وَمَنْ مِنَّا - مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ - لَا يَعْرِفُ صُهَيْبًا الرُّومِيَّ ، وَلَا يُلِمُّ بِطَرَفٍ مِنْ أَخْبَارِهِ وَنُتَفٍ مِنْ سِيرَتِهِ ؟! .

وَلَكِنَّ الَّذِي لَا يَعْرِفُهُ الْكَثِيرُ مِنَّا هُوَ أَنَّ صُهَيْبًا لَمْ يَكُنْ رُومِيًّا ، وَ إِنَّمَا كَانَ عَرَبِيًّا خَالِصًا ، نُمَيْرِيَّ[1] الْأَبِ تَمِيمِيَّ[2] الْأُمِّ .

وَلِانْتِسَابِ صُهَيْبٍ إِلَىٰ « الرُّومِ » قِصَّةٌ مَا تَزَالُ تَعِيهَا ذَاكِرَةُ التَّارِيخِ ، وَتَرْوِيهَا أَسْفَارُهُ .

فَقَبْلَ الْبَعْثَةِ بِحَوَالَيْ عِقْدَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ كَانَ يَتَوَلَّىٰ « الْأُبُلَّةَ »[3] سِنَانُ بْنُ مَالِكٍ النُّمَيْرِيُّ ، من قِبَلِ « كِسْرَىٰ » مَلِكِ الْفُرْسِ ...

وَكَانَ أَحَبُّ أَوْلَادِهِ إِلَيْهِ طِفْلٌ لَمْ يُجَاوِزِ الْخَامِسَةَ مِنْ عُمُرِهِ ، دَعَاهُ صُهَيْبًا .

* * *

كَانَ صُهَيْبٌ أَزْهَرَ الْوَجْهِ ، أَحْمَرَ الشَّعْرِ ، مُتَدَفِّقَ النَّشَاطِ ذَا عَيْنَيْنِ تَتَقِدَانِ فِطْنَةً وَنَجَابَةً ...

وَكَانَ إِلَىٰ ذَلِكَ مِمْرَاحًا ، عَذْبَ الرُّوحِ ، يُدْخِلُ السُّرُورَ عَلَىٰ قَلْبِ أَبِيهِ ، وَيَنْتَزِعُ مِنْهُ هُمُومَ الْمُلْكِ انْتِزَاعًا .

* * *

---

(١) نميري الأب : أي إن أباه من بني نمير.

(٢) تميمي الأم : أي إن أمّه من بني تميم.

(٣) الأُبلّة : مدينة قديمة دخلت في البصرة وأصبحت جزءًا منها .

مَضَتْ أُمُّ صُهَيْبٍ مَعَ ابْنِهَا الصَّغِيرِ وَطَائِفَةٍ مِنْ حَشَمِهَا وَخَدَمِهَا إِلَىٰ قَرْيَةِ « الثِّنِيِّ » مِنْ أَرْضِ « الْعِرَاقِ » طَلَبًا لِلرَّاحَةِ وَالِاسْتِجْمَامِ ، فَأَغَارَتْ عَلَىٰ الْقَرْيَةِ سَرِيَّةٌ مِنْ سَرَايَا جَيْشِ « الرُّومِ » ، فَقَتَلَتْ حُرَّاسَهَا ، وَنَهَبَتْ أَمْوَالَهَا ، وَأَسَرَتْ ذَرَارِيَهَا ...

فَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ أَسَرَتْهُمْ صُهَيْبٌ .

* * *

بِيعَ صُهَيْبٌ فِي أَسْوَاقِ الرَّقِيقِ بِبِلَادِ « الرُّومِ » ، وَجَعَلَتْ تَتَدَاوَلُهُ الْأَيْدِي فَيَنْتَقِلُ مِنْ خِدْمَةِ سَيِّدٍ إِلَىٰ خِدْمَةِ آخَرَ ، شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ كَشَأْنِ الْآلَافِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنَ الْأَرِقَّاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَمْلَؤُونَ قُصُورَ بِلَادِ « الرُّومِ » .

* * *

وَقَدْ أَتَاحَ ذَلِكَ لِصُهَيْبٍ أَنْ يَنْفُذَ إِلَىٰ أَعْمَاقِ الْمُجْتَمَعِ الرُّومِيِّ ، وَأَنْ يَقِفَ عَلَيْهِ مِنْ دَاخِلِهِ ، فَرَأَىٰ بِعَيْنَيْهِ مَا يُعَشِّشُ فِي قُصُورِهِ مِنَ الرَّذَائِلِ وَالْمُوبِقَاتِ(١)، وَسَمِعَ بِأُذُنَيْهِ مَا يُرْتَكَبُ فِيهَا مِنَ الْمَظَالِمِ وَالْمَآثِمِ . فَكَرِهَ ذَلِكَ الْمُجْتَمَعَ وَازْدَرَاهُ(٢).

وَكَانَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : إِنَّ مُجْتَمَعًا كَهَـٰذَا لَا يُطَهِّرُهُ إِلَّا الطُّوفَانُ .

* * *

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ صُهَيْبًا قَدْ نَشَأَ فِي بِلَادِ « الرُّومِ » ، وَشَبَّ عَلَىٰ أَرْضِهَا وَبَيْنَ أَهْلِيهَا .

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ نَسِيَ الْعَرَبِيَّةَ أَوْ كَادَ يَنْسَاهَا ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ بَالِهِ قَطُّ أَنَّهُ عَرَبِيٌّ مِنْ أَبْنَاءِ الصَّحْرَاءِ ...

---

(١) الموبقات : الفواحش .

(٢) ازدراه : احتقره .

وَلَمْ تَفْتُرْ أَشْوَاقُهُ لَحْظَةً إِلَىٰ الْيَوْمِ الَّذِي يَتَحَرَّرُ فِيهِ مِنْ عُبُودِيَّتِهِ ، وَيَلْحَقُ بِبَنِي قَوْمِهِ .

وَقَدْ زَادَهُ حَنِينًا إِلَىٰ بِلَادِ الْعَرَبِ فَوْقَ حَنِينِهِ ، أَنَّهُ سَمِعَ كَاهِنًا[1] مِنْ كَهَنَةِ النَّصَارَىٰ يَقُولُ لِسَيِّدٍ مِنْ أَسْيَادِهِ :

لَقَدْ أَطَلَّ[2] زَمَانٌ يَخْرُجُ فِيهِ مِنْ مَكَّةَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ نَبِيٌّ يُصَدِّقُ رِسَالَةَ عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ ، وَيُخْرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ .

* * *

ثُمَّ أُتِيحَتِ الْفُرْصَةُ لِصُهَيْبٍ فَوَلَّىٰ هَارِبًا مِنْ رِقِّ أَسْيَادِهِ ، وَيَمَّمَ[3] وَجْهَهُ شَطْرَ مَكَّةَ أُمِّ الْقُرَىٰ وَمَوْئِلِ الْعَرَبِ ، وَمَبْعَثِ النَّبِيِّ الْمُرْتَقَبِ .

وَلَمَّا أَلْقَىٰ عَصَاهُ[4] فِيهَا أَطْلَقَ النَّاسُ عَلَيْهِ اسْمَ صُهَيْبٍ الرُّومِيِّ لِلُكْنَةِ[5] لِسَانِهِ وَحُمْرَةِ شَعْرِهِ .

* * *

وَقَدْ حَالَفَ صُهَيْبٌ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ مَكَّةَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُدْعَانَ ، وَطَفِقَ يَعْمَلُ فِي التِّجَارَةِ ، فَدَرَّتْ عَلَيْهِ الْخَيْرَ الْوَفِيرَ وَالْمَالَ الْكَثِيرَ .

غَيْرَ أَنَّ صُهَيْبًا لَمْ تُنْسِهِ تِجَارَتُهُ وَمَكَاسِبُهُ حَدِيثَ الْكَاهِنِ النَّصْرَانِيِّ ، فَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ كَلَامُهُ بِخَاطِرِهِ يُسَائِلُ نَفْسَهُ فِي لَهْفَةٍ :

مَتَىٰ يَكُونُ ذَلِكَ ؟! .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ جَاءَهُ الْجَوَابُ .

* * *

(١) الكاهن : رجل الدِّين عند النَّصارىٰ .
(٢) أطل : اقترب .
(٣) يمم وجهه شطر مَكَّة : توجه نحو مَكَّة .
(٤) ألقىٰ عصاه فيها : نزل فيها واستقر .
(٥) لِلُكْنَةِ لسانه : لثقل لسانه .

فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ عَادَ صُهَيْبٌ إِلَىٰ مَكَّةَ مِنْ إِحْدَىٰ رِحْلَاتِهِ، فَقِيلَ لَهُ إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَدْ بُعِثَ، وَقَامَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَيَحُضُّهُمْ عَلَىٰ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

فَقَالَ: أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي يُلَقِّبُونَهُ بِالْأَمِينِ؟!.

فَقِيلَ لَهُ: بَلَىٰ.

فَقَالَ: وَأَيْنَ مَكَانُهُ؟.

فَقِيلَ لَهُ: فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ[1] عِنْدَ الصَّفَا...

وَلَكِنْ حَذَارِ مِنْ أَنْ يَرَاكَ أَحَدٌ مِنْ قُرَيْشٍ؛ فَإِنْ رَأَوْكَ فَعَلُوا بِكَ... وَفَعَلُوا، وَأَنْتَ رَجُلٌ غَرِيبٌ لَا عَصَبِيَّةَ لَكَ تَحْمِيكَ، وَلَا عَشِيرَةَ عِنْدَكَ تَنْصُرُكَ.

* * *

مَضَىٰ صُهَيْبٌ إِلَىٰ دَارِ الْأَرْقَمِ حَذِرًا يَتَلَفَّتُ، فَلَمَّا بَلَغَهَا وَجَدَ عِنْدَ الْبَابِ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ[2]، وَكَانَ يَعْرِفُهُ مِنْ قَبْلُ، فَتَرَدَّدَ لَحْظَةً ثُمَّ دَنَا مِنْهُ وَقَالَ:

مَا تُرِيدُ يَا عَمَّارُ؟.

فَقَالَ عَمَّارٌ: بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ؟.

فَقَالَ صُهَيْبٌ: أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ عَلَىٰ هَٰذَا الرَّجُلِ، فَأَسْمَعَ مِنْهُ مَا يَقُولُ.

فَقَالَ عَمَّارٌ: وَأَنَا أُرِيدُ ذَلِكَ أَيْضًا.

فَقَالَ صُهَيْبٌ: إِذَنْ نَدْخُلَ مَعًا عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ.

* * *

(١) هو ابن عبد مناف بن أسد المخزومي: من السابقين إِلَىٰ الإسلام، وكانت داره «دار السَّلام» مقرًا لدعوة الرَّسُول ﷺ، واستعمله عَلَىٰ الصَّدقات.

(٢) عمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: انظر آل ياسر ص ٥٠١.

دَخَلَ صُهَيْبُ بْنُ سِنَانٍ الرُّومِيُّ ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاسْتَمَعَا إِلَىٰ مَا يَقُولُ ، فَأَشْرَقَ نُورُ الْإِيمَانِ فِي صَدْرَيْهِمَا ، وَتَسَابَقَا فِي مَدِّ أَيْدِيهِمَا إِلَيْهِ ، وَشَهِدَا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَمْضَيَا سَحَابَةَ[1] يَوْمِهِمَا عِنْدَهُ يَنْهَلَانِ مِنْ هَدْيِهِ وَيَنْعُمَانِ بِصُحْبَتِهِ .

وَلَمَّا أَقْبَلَ اللَّيْلُ ، وَهَدَأَتِ الْحَرَكَةُ ، خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ ، وَقَدْ حَمَلَ كُلٌّ مِنْهُمَا مِنَ النُّورِ فِي صَدْرِهِ مَا يَكْفِي لِإِضَاءَةِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا .

* * *

تَحَمَّلَ صُهَيْبٌ نَصِيبَهُ مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ مَعَ بِلَالٍ[2] وَعَمَّارٍ وَسُمَيَّةَ وَخَبَّابٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عَشَرَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَاسَىٰ مِنْ نَكَالِ قُرَيْشٍ مَا لَوْ نَزَلَ بِجَبَلٍ لَهَدَّهُ ، فَتَلَقَّىٰ ذَلِكَ كُلَّهُ بِنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ صَابِرَةٍ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ طَرِيقَ الْجَنَّةِ مَحْفُوفٌ بِالْمَكَارِهِ .

* * *

وَلَمَّا أَذِنَ الرَّسُولُ ﷺ لِأَصْحَابِهِ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، عَزَمَ صُهَيْبٌ عَلَىٰ أَنْ يَمْضِيَ فِي صُحْبَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ ؛ لَكِنَّ قُرَيْشًا شَعَرَتْ بِعَزْمِهِ عَلَىٰ الْهِجْرَةِ فَصَدَّتْهُ[3] عَنْ غَايَتِهِ ، وَأَقَامَتْ عَلَيْهِ الرُّقَبَاءَ حَتَّىٰ لَا يَفْلِتَ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَيَحْمِلَ مَعَهُ مَا دَرَّتْهُ عَلَيْهِ التِّجَارَةُ مِنْ فِضَّةٍ وَذَهَبٍ .

* * *

ظَلَّ صُهَيْبٌ بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَصَاحِبِهِ يَتَحَيَّنُ[4] الْفُرَصَ لِلَّحَاقِ بِهِمَا فَلَمْ يُفْلِحْ ؛ إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُ الرُّقَبَاءِ سَاهِرَةً عَلَيْهِ مُتَيَقِّظَةً لَهُ ؛ فَلَمْ يَجِدْ سَبِيلًا غَيْرَ اللُّجُوءِ إِلَىٰ الْحِيلَةِ .

---

(١) سحابة يومهما : طول يومهما .

(٢) بلال بن رباح : انظره ص ٣٠٣.

(٣) صدته : منعته .

(٤) يتحين الفرص : يترقب الفرص.

فَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ أَكْثَرَ صُهَيْبٌ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَىٰ الْخَلَاءِ كَأَنَّهُ يَقْضِي الْحَاجَةَ ، فَكَانَ لَا يَرْجِعُ مِنْ قَضَاءِ حَاجَتِهِ حَتَّىٰ يَعُودَ إِلَيْهَا .

فَقَالَ بَعْضُ رُقَبَائِهِ لِبَعْضٍ : طِيبُوا نَفْسًا فَإِنَّ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ شَغَلَاهُ بِبَطْنِهِ ...

ثُمَّ أَوَوْا إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ، وَأَسْلَمُوا عُيُونَهُمْ إِلَىٰ الْكَرَىٰ[1] .

فَتَسَلَّلَ صُهَيْبٌ مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَيَمَّمَ وَجْهَهُ شَطْرَ الْمَدِينَةِ .

* * *

لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ عَلَىٰ رَحِيلِ صُهَيْبٍ حَتَّىٰ فَطِنَ لَهُ رُقَبَاؤُهُ ، فَهَبُّوا مِنْ نَوْمِهِمْ مَذْعُورِينَ ، وَامْتَطَوْا خُيُولَهُمُ السَّوَابِقَ ، وَأَطْلَقُوا أَعِنَّتَهَا[2] خَلْفَهُ حَتَّىٰ أَدْرَكُوهُ .

فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِمْ ، وَقَفَ عَلَىٰ مَكَانٍ عَالٍ وَأَخْرَجَ سِهَامَهُ مِنْ كِنَانَتِهِ[3] وَوَتَرَ[4] قَوْسَهُ وَقَالَ :

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، لَقَدْ عَلِمْتُمْ - وَاللَّهِ - أَنِّي مِنْ أَرْمَىٰ النَّاسِ وَأَحْكَمِهِمْ إِصَابَةً ...

وَوَاللَّهِ لَا تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّىٰ أَقْتُلَ بِكُلِّ سَهْمٍ مَعِي رَجُلًا مِنْكُمْ .

ثُمَّ أَضْرِبَكُمْ بِسَيْفِي مَا بَقِيَ فِي يَدِي شَيْءٌ مِنْهُ .

فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : وَاللَّهِ لَا نَدَعُكَ تَفُوزُ مِنَّا بِنَفْسِكَ وَبِمَالِكَ ...

لَقَدْ أَتَيْتَ مَكَّةَ صُعْلُوكًا[5] فَقِيرًا فَاغْتَنَيْتَ وَبَلَغْتَ مَا بَلَغْتَ .

فَقَالَ صُهَيْبٌ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ تَرَكْتُ لَكُمْ مَالِي ، أَتُخَلُّونَ سَبِيلِي ؟ .

(١) الكرىٰ : النوم .
(٢) العنان : الرسن ، وجمعه أعنّة .
(٣) الكنانة : الجعبة التي توضع فيها السهام .
(٤) وتر قوسه : شد وتره استعدادًا للرمي .
(٥) الصعلوك : الضعيف الفقير .

قَالُوا : نَعَمْ .

فَدَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْضِعِ مَالِهِ فِي بَيْتِهِ فِي مَكَّةَ ، فَمَضَوْا إِلَيْهِ وَأَخَذُوهُ مِنْهُ ، ثُمَّ أَطْلَقُوا سَرَاحَهُ .

* * *

أَخَذَ صُهَيْبٌ يُغِذُّ السَّيْرَ نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَارًّا بِدِينِهِ إِلَىٰ اللَّهِ ؛ غَيْرَ آسِفٍ عَلَىٰ الْمَالِ الَّذِي أَنْفَقَ فِي جَنْبِهِ زَهْرَةَ الْعُمُرِ ...

وَكَانَ كُلَّمَا أَدْرَكَهُ الْوَنَىٰ[1] وَأَصَابَهُ التَّعَبُ ، اسْتَفَزَّهُ الشَّوْقُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَعُودُ إِلَيْهِ نَشَاطُهُ ، وَيُوَاصِلُ سَيْرَهُ .

فَلَمَّا بَلَغَ « قُبَاءَ »[2] رَآهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مُقْبِلًا ، فَهَشَّ لَهُ وَبَشَّ وَقَالَ :

(رَبِحَ الْبَيْعُ يَا أَبَا يَحْيَىٰ ...

رَبِحَ الْبَيْعُ) ... وَكَرَّرَهَا ثَلَاثًا .

فَعَلَتِ الْفَرْحَةُ وَجْهَ صُهَيْبٍ وَقَالَ :

وَاللَّهِ مَا سَبَقَنِي إِلَيْكَ أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

وَمَا أَخْبَرَكَ بِهِ إِلَّا جِبْرِيلُ .

* * *

حَقًّا لَقَدْ رَبِحَ الْبَيْعُ ...

وَصَدَّقَ ذَلِكَ وَحْيُ السَّمَاءِ ...

(١) الْوَنىٰ : التعب .
(٢) قباء : قرية على بعد ميلين من المدينة .

وَشَهِدَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ... حَيْثُ نَزَلَ فِي صُهَيْبٍ قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[1].

فَطُوبَىٰ لِصُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ الرُّومِيِّ، وَحُسْنُ مَآبٍ (*).

(1) سورة البقرة: آية ۲۰۷.

(*) للاستزادة من أخبار صُهَيْب الرُّومي انظر:
١ - الاستيعاب «على هامش الإصابة»: ٢/ ١٧٤.
٢ - طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٢٦.
٣ - حياة الصحابة: «انظر الفهارس في الجزء الرابع».
٤ - الإصابة: ٢/١٩٥ أو «الترجمة» ٤١٠٤.
٥ - صفة الصفوة: ١/ ١٦٩.
٦ - البداية والنهاية: ٧/٣١٨ - ٣١٩.
٧ - أسد الغابة: ٣/ ٣٠.
٨ - الأعلام ومراجعه.

أَبُو الدَّرْدَاءِ

عُوَيْمِرُ بْنُ مَالِكٍ الْخَزْرَجِيُّ

«كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَدْفَعُ عَنْهُ الدُّنْيَا بِالرَّاحَتَيْنِ وَالصَّدْرِ»

[عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ]

نَهَضَ عُوَيْمِرُ بْنُ مَالِكٍ الْخَزْرَجِيُّ[1] الْمُكَنَّىٰ بِأَبِي الدَّرْدَاءِ مِنْ نَوْمِهِ مُبَكِّرًا، وَمَضَىٰ إِلَىٰ صَنَمِهِ الَّذِي نَصَبَهُ فِي أَشْرَفِ مَكَانٍ مِنْ بَيْتِهِ، فَحَيَّاهُ وَضَمَّخَهُ[2] بِأَنْفَسِ مَا حَوَاهُ مَتْجَرُهُ الْكَبِيرُ مِنَ الطِّيبِ، ثُمَّ أَلْقَىٰ عَلَيْهِ ثَوْبًا جَدِيدًا مِنْ فَاخِرِ الْحَرِيرِ، أَهْدَاهُ إِلَيْهِ بِالْأَمْسِ أَحَدُ التُّجَّارِ الْقَادِمِينَ عَلَيْهِ مِنَ «الْيَمَنِ».

وَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ غَادَرَ أَبُو الدَّرْدَاءِ مَنْزِلَهُ مُتَوَجِّهًا إِلَىٰ مَتْجَرِهِ.

فَإِذَا شَوَارِعُ «يَثْرِبَ» وَطُرُقَاتُهَا تَضِيقُ بِأَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ، وَهُمْ عَائِدُونَ مِنْ «بَدْرٍ»، وَأَمَامَهُمْ أَفْوَاجُ الْأَسْرَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ، فَازْوَرَّ[3] عَنْهُمْ؛ لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ أَقْبَلَ عَلَىٰ فَتًى مِنْهُمْ يَنْتَمِي إِلَىٰ الْخَزْرَجِ وَسَأَلَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ[4]، فَقَالَ لَهُ الْفَتَىٰ الْخَزْرَجِيُّ: لَقَدْ أَبْلَىٰ فِي الْمَعْرَكَةِ أَكْرَمَ الْبَلَاءِ وَعَادَ سَالِمًا غَانِمًا، وَطَمْأَنَهُ عَلَيْهِ.

وَلَمْ يَسْتَغْرِبِ الْفَتَىٰ سُؤَالَ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ؛ لِمَا كَانَ يَعْلَمُ النَّاسُ جَمِيعًا مِنْ أَوَاصِرِ[5] الْأُخُوَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَرْبِطُ بَيْنَهُمَا؛ ذَلِكَ لِأَنَّ

---

(١) الخزرجي: نسبة إلى الخزرج وهي قبيلة يمانية الأصل ارتحلت إلى المدينة واستقرت فيها وكانت هي والأوس تكونان جمهرة الأنصار.

(٢) ضمخه: دهنه.

(٣) ازورّ عنهم: أعرض عنهم.

(٤) عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي: شاعر مشهور، أحد السابقين إلى الإسلام، شهد بدرًا واستشهد بمؤتة سنة ٨هـ، وكان ثالث قوادها.

(٥) أواصر الأخوة: روابط الأخوة.

أَبَا الدَّرْدَاءِ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ كَانَا مُتَآخِيَيْنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ اعْتَنَقَهُ ابْنُ رَوَاحَةَ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ.

لَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَقْطَعْ مَا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ وَثِيقِ الْأَوَاصِرِ(١)؛ إِذْ ظَلَّ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ رَوَاحَةَ يَتَعَهَّدُ أَبَا الدَّرْدَاءِ بِالزِّيَارَةِ، وَيَدْعُوهُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَيُرَغِّبُهُ فِيهِ، وَيَأْسَفُ عَلَىٰ كُلِّ يَوْمٍ يَمْضِي مِنْ عُمُرِهِ وَهُوَ مُشْرِكٌ.

* * *

وَصَلَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِلَىٰ مَتْجَرِهِ، وَتَرَبَّعَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ الْعَالِي، وَجَعَلَ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي، وَيَأْمُرُ غِلْمَانَهُ وَيَنْهَاهُمْ ... وَهُوَ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِمَّا يَجْرِي فِي مَنْزِلِهِ ...

فَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَمْضِي إِلَىٰ بَيْتِ صَاحِبِهِ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَقَدْ عَزَمَ عَلَىٰ أَمْرٍ ... فَلَمَّا بَلَغَ الْبَيْتَ رَأَىٰ بَابَهُ مَفْتُوحًا وَأَبْصَرَ أُمَّ الدَّرْدَاءِ فِي فِنَائِهِ(٢)، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكِ يَا أَمَةَ اللَّهِ.

فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا أَخَا أَبِي الدَّرْدَاءِ.

فَقَالَ: أَيْنَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟.

فَقَالَتْ: ذَهَبَ إِلَىٰ مَتْجَرِهِ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَعُودَ.

فَقَالَ: أَتَأْذَنِينَ؟.

فَقَالَتْ: عَلَىٰ الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ، وَأَفْسَحَتْ لَهُ الطَّرِيقَ، وَمَضَتْ إِلَىٰ حُجْرَتِهَا، وَانْشَغَلَتْ عَنْهُ بِإِصْلَاحِ شَأْنِ بَيْتِهَا وَرِعَايَةِ أَطْفَالِهَا.

* * *

دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ إِلَىٰ الْحُجْرَةِ الَّتِي وَضَعَ فِيهَا أَبُو الدَّرْدَاءِ صَنَمَهُ، وَأَخْرَجَ قَدُومًا أَحْضَرَهُ مَعَهُ، وَمَالَ عَلَىٰ الصَّنَمِ وَجَعَلَ يُقَطِّعُهُ بِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

---

(١) وثيق الأواصر: متين الصِّلات.

(٢) فناء المنزل: باحته.

أَلَا كُلُّ مَا يُدْعَىٰ مَعَ اللَّهِ بَاطِلٌ ... أَلَا كُلُّ مَا يُدْعَىٰ مَعَ اللَّهِ بَاطِلٌ ...

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تَقْطِيعِهِ غَادَرَ الْبَيْتَ .

* * *

دَخَلَتْ أُمُّ الدَّرْدَاءِ إِلَىٰ الْحُجْرَةِ الَّتِي فِيهَا الصَّنَمُ ، فَصُعِقَتْ حِينَ رَأَتْهُ قَدْ غَدَا أَجْذَاذًا[1] ... وَوَجَدَتْ أَشْلَاءَهُ[2] مُبَعْثَرَةً عَلَىٰ الْأَرْضِ ... وَجَعَلَتْ تَلْطِمُ خَدَّيْهَا وَهِيَ تَقُولُ : أَهْلَكْتَنِي يَا ابْنَ رَوَاحَةَ ... أَهْلَكْتَنِي يَا ابْنَ رَوَاحَةَ ...

* * *

لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ حَتَّىٰ عَادَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ ؛ فَرَأَىٰ امْرَأَتَهُ جَالِسَةً عِنْدَ بَابِ الْحُجْرَةِ الَّتِي فِيهَا الصَّنَمُ وَهِيَ تَبْكِي وَتَنْشِجُ[3]، وَعَلَامَاتُ الْخَوْفِ مِنْهُ بَادِيَةٌ عَلَىٰ وَجْهِهَا ، فَقَالَ : مَا شَأْنُكِ[4]؟ ... قَالَتْ :

أَخُوكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ جَاءَنَا فِي غَيْبَتِكَ ، وَصَنَعَ بِصَنَمِكَ مَا تَرَىٰ .

فَنَظَرَ إِلَىٰ الصَّنَمِ فَوَجَدَهُ حُطَامًا ، فَاسْتَشَاطَ[5] غَضَبًا ، وَهَمَّ أَنْ يَثْأَرَ لَهُ ، لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ قَلِيلًا حَتَّىٰ هَدَأَتْ ثَائِرَتُهُ ، وَسَكَتَ عَنْهُ غَضَبُهُ ؛ فَفَكَّرَ فِيمَا حَدَثَ ، ثُمَّ قَالَ : لَوْ كَانَ فِي هَٰذَا الصَّنَمِ خَيْرٌ لَدَفَعَ الْأَذَىٰ عَنْ نَفْسِهِ .

ثُمَّ انْطَلَقَ مِنْ تَوِّهِ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ، وَمَضَيَا مَعًا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَعْلَنَ دُخُولَهُ فِي دِينِ اللَّهِ ، فَكَانَ آخِرَ أَهْلِ حَيِّهِ إِسْلَامًا .

* * *

آمَنَ أَبُو الدَّرْدَاءِ - مُنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَىٰ - بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِيمَانًا خَالَطَ كُلَّ ذَرَّةٍ فِي كِيَانِهِ .

وَنَدِمَ نَدَمًا كَبِيرًا عَلَىٰ مَا فَاتَهُ مِنْ خَيْرٍ ، وَأَدْرَكَ إِدْرَاكًا عَمِيقًا مَا سَبَقَهُ إِلَيْهِ

---

(١) أجذاذًا : قطعًا .
(٢) أشلاءه : أعضاءه وأجزاءه .
(٣) التشيج : البكاء بصوت عالٍ .
(٤) ما شأنك ؟ : ما خبرك ، ما أمرك ؟ .
(٥) استشاط غضبًا : اتقد غضبًا .

أَصْحَابُهُ مِنْ فِقْهٍ لِدِينِ اللَّهِ، وَحِفْظٍ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَعِبَادَةٍ وَتَقْوَىٰ ادَّخَرُوهُمَا لِأَنْفُسِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ.

فَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَهُ بِالْجُهْدِ الْجَاهِدِ، وَأَنْ يُوَاصِلَ كَلَالَ اللَّيْلِ[1] بِكَلَالِ النَّهَارِ حَتَّىٰ يَلْحَقَ بِالرَّكْبِ وَيَتَقَدَّمَ عَلَيْهِ.

فَانْصَرَفَ إِلَىٰ الْعِبَادَةِ انْصِرَافَ مُتَبَتِّلٍ[2]، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ الْعِلْمِ إِقْبَالَ ظَمْآنَ، وَأَكَبَّ[3] عَلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ يَحْفَظُ كَلِمَاتِهِ، وَيَتَعَمَّقُ فَهْمَ آيَاتِهِ.

وَلَمَّا رَأَىٰ التِّجَارَةَ تُنَغِّصُ[4] عَلَيْهِ لَذَّةَ الْعِبَادَةِ، وَتُفَوِّتُ عَلَيْهِ مَجَالِسَ الْعِلْمِ تَرَكَهَا غَيْرَ مُتَرَدِّدٍ وَلَا آسِفٍ.

وَقَدْ سَأَلَهُ فِي ذَلِكَ سَائِلٌ فَأَجَابَ: لَقَدْ كُنْتُ تَاجِرًا قَبْلَ عَهْدِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَ التِّجَارَةِ وَالْعِبَادَةِ فَلَمْ يَسْتَقِمْ لِي مَا أَرَدْتُ، فَتَرَكْتُ التِّجَارَةَ وَأَقْبَلْتُ عَلَىٰ الْعِبَادَةِ...

وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي الدَّرْدَاءِ بِيَدِهِ، مَا أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِيَ الْيَوْمَ حَانُوتٌ عَلَىٰ بَابِ الْمَسْجِدِ فَلَا تَفُوتُنِي صَلَاةٌ مَعَ الْجَمَاعَةِ، ثُمَّ أَبِيعُ وَأَشْتَرِي فَأَرْبَحُ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَمِائَةِ دِينَارٍ. ثُمَّ نَظَرَ إِلَىٰ سَائِلِهِ وَقَالَ:

إِنِّي لَا أَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ الْبَيْعَ... وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ مِنَ الَّذِينَ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ.

* * *

لَمْ يَتْرُكْ أَبُو الدَّرْدَاءِ التِّجَارَةَ فَحَسْبُ وَإِنَّمَا تَرَكَ الدُّنْيَا، وَأَعْرَضَ عَنْ زِينَتِهَا وَزُخْرُفِهَا، وَاكْتَفَىٰ مِنْهَا بِلُقْمَةٍ خَشِنَةٍ تُقِيمُ صُلْبَهُ[5] وَثَوْبٍ صَفِيقٍ[6] يَسْتُرُ جَسَدَهُ.

---

(١) كلال اللّيل بكلال النهار: تعب اللّيل بتعب النهار.
(٢) المتبتل: المنقطع عن الدّنيا، المنصرف إلىٰ اللّٰه.
(٣) أكب علىٰ الشيء: أقبل عليه ولزمه.
(٤) تنغص: تكدر.
(٥) تقيم صلبه: تقيم أوده.
(٦) ثوب صفيق: ثوب خشن.

فَقَدْ نَزَلَ بِهِ جَمَاعَةٌ فِي لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ الْقَرِّ[1] قَاسِيَةِ الْبَرْدِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ طَعَامًا سَاخِنًا، وَلَمْ يَبْعَثْ إِلَيْهِمْ بِاللُّحُفِ، فَلَمَّا هَمُّوا بِالنَّوْمِ جَعَلُوا يَتَشَاوَرُونَ فِي أَمْرِ اللُّحُفِ، فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: أَنَا أَذْهَبُ إِلَيْهِ وَأُكَلِّمُهُ...

فَقَالَ لَهُ آخَرُ: دَعْهُ، فَأَبَىٰ، وَمَضَىٰ حَتَّىٰ وَقَفَ عَلَىٰ بَابِ حُجْرَتِهِ فَرَآهُ قَدِ اضْطَجَعَ، وَامْرَأَتُهُ جَالِسَةٌ قَرِيبًا مِنْهُ لَيْسَ عَلَيْهِمَا وَعَلَيْهِ إِلَّا ثَوْبٌ خَفِيفٌ لَا يَقِي مِنْ حَرٍّ وَلَا يَصُونُ مِنْ بَرْدٍ، فَقَالَ الرَّجُلُ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ:

مَا أَرَاكَ بِتَّ إِلَّا كَمَا نَبِيتُ نَحْنُ!!... أَيْنَ مَتَاعُكُمْ؟!.

فَقَالَ: لَنَا دَارٌ هُنَاكَ نُرْسِلُ إِلَيْهَا تِبَاعًا كُلَّ مَا نَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنْ مَتَاعٍ، وَلَوْ كُنَّا اسْتَبْقَيْنَا فِي هَٰذِهِ الدَّارِ شَيْئًا مِنْهُ لَبَعَثْنَا بِهِ إِلَيْكُمْ...

ثُمَّ إِنَّ فِي طَرِيقِنَا الَّذِي سَنَسْلُكُهُ إِلَىٰ تِلْكَ الدَّارِ عَقَبَةً كَؤُودًا[2] الْمُخِفُّ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمُثْقَلِ، فَأَرَدْنَا أَنْ نَتَخَفَّفَ مِنْ أَثْقَالِنَا عَلَّنَا نَجْتَازُ.

ثُمَّ قَالَ لِلرَّجُلِ: أَفَهِمْتَ؟.

فَقَالَ: نَعَمْ فَهِمْتُ، وَجُزِيتَ خَيْرًا.

* * *

وَفِي خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَرَادَ مِنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنْ يَلِيَ[3] لَهُ عَمَلًا فِي الشَّامِ فَأَبَىٰ، فَأَصَرَّ عَلَيْهِ فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:

إِذَا رَضِيتَ مِنِّي أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْهِمْ لِأُعَلِّمَهُمْ كِتَابَ رَبِّهِمْ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِمْ وَأُصَلِّيَ بِهِمْ ذَهَبْتُ، فَرَضِيَ مِنْهُ عُمَرُ بِذَلِكَ، وَمَضَىٰ هُوَ إِلَىٰ «دِمَشْقَ»، فَلَمَّا بَلَغَهَا وَجَدَ النَّاسَ قَدْ أُولِعُوا بِالتَّرَفِ، وَانْغَمَسُوا فِي النَّعِيمِ، فَهَالَهُ ذَلِكَ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْمَسْجِدِ؛ فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ فَوَقَفَ فِيهِمْ وَقَالَ:

(1) شديدة القر: شديدة البرد.
(2) عقبة كؤودًا: عقبة صعبة المرتقى.
(3) أن يلي له عملًا: أن يتولى له ولاية.

يَا أَهْلَ « دِمَشْقَ » أَنْتُمُ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، وَالْجِيرَانُ فِي الدَّارِ ، وَالْأَنْصَارُ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ ...

يَا أَهْلَ « دِمَشْقَ » ، مَا الَّذِي يَمْنَعُكُمْ مِنْ مَوَدَّتِي وَالِاسْتِجَابَةِ لِنَصِيحَتِي وَأَنَا لَا أَبْتَغِي مِنْكُم شَيْئًا ؛ فَنَصِيحَتِي لَكُمْ ، وَمُؤْنَتِي[1] عَلَىٰ غَيْرِكُمْ .

مَا لِي أَرَىٰ عُلَمَاءَكُمْ يَذْهَبُونَ[2]، وَجُهَّالَكُمْ لَا يَتَعَلَّمُونَ ؟! ... وَأَرَاكُمْ قَدْ أَقْبَلْتُمْ عَلَىٰ مَا تَكَفَّلَ لَكُمْ بِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَتَرَكْتُمْ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ ؟! ...

مَا لِي أَرَاكُمْ تَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ !! ...

وَتَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ !! ...

وَتُؤَمِّلُونَ مَا لَا تَبْلُغُونَ !! ...

لَقَدْ جَمَعَتِ الْأَقْوَامُ الَّتِي قَبْلَكُمْ وَأَمَّلَتْ ...

فَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ أَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُورًا[3]...

وَأَمَلُهُمْ غُرُورًا ...

وَبُيُوتُهُمْ قُبُورًا ...

هَـٰذِهِ « عَادٌ »[4] ـ يَا أَهْلَ « دِمَشْقَ » ـ قَدْ مَلَأَتِ الْأَرْضَ مَالًا وَوَلَدًا ...

فَمَنْ يَشْتَرِي مِنِّي تَرِكَةَ « عَادٍ » الْيَوْمَ بِدِرْهَمَيْنِ ؟ .

فَجَعَلَ النَّاسُ يَبْكُونَ حَتَّىٰ سُمِعَ نَشِيجُهُمْ[5] مِنْ خَارِجِ الْمَسْجِدِ .

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ طَفِقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَؤُمُّ[6] مَجَالِسَ النَّاسِ فِي « دِمَشْقَ »

---

(١) مؤنتي علىٰ غيركم : نفقتي علىٰ غيركم .
(٢) يذهبون : يأخذهم الموتُ .
(٣) بورًا : هالكًا خربًا .
(٤) عاد : قوم نبي الله هود ، عصوا نبيهم فأهلكهم الله .
(٥) نشيجهم : صَوْت بكائهم .
(٦) يؤم مجالس النّاس : يتردد علىٰ مجالس النّاس ويغشاها .

وَيَطُوفُ بِأَسْوَاقِهِمْ ، فَيُجِيبُ السَّائِلَ ، وَيُعَلِّمُ الْجَاهِلَ ، وَيُنَبِّهُ الْغَافِلَ ، مُغْتَنِمًا كُلَّ فُرْصَةٍ مُسْتَفِيدًا مِنْ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ .

* * *

فَهَا هُوَ ذَا يَمُرُّ بِجَمَاعَةٍ قَدْ تَجَمْهَرُوا عَلَىٰ رَجُلٍ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ وَيَشْتُمُونَهُ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ : مَا الْخَبَرُ ؟! .

قَالُوا : رَجُلٌ وَقَعَ فِي ذَنْبٍ كَبِيرٍ .

قَالَ : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَقَعَ فِي بِئْرٍ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْهُ ؟ .

قَالُوا : بَلَىٰ .

قَالَ : لَا تَسُبُّوهُ وَلَا تَضْرِبُوهُ وَ إِنَّمَا عِظُوهُ وَبَصِّرُوهُ ، وَاحْمَدُوا اللَّهَ الَّذِي عَافَاكُمْ مِنَ الْوُقُوعِ فِي ذَنْبِهِ .

قَالُوا : أَفَلَا تُبْغِضُهُ ؟! .

قَالَ : إِنَّمَا أُبْغِضُ فِعْلَهُ ؛ فَإِذَا تَرَكَهُ فَهُوَ أَخِي .

فَأَخَذَ الرَّجُلُ يَنْتَحِبُ وَيُعْلِنُ تَوْبَتَهُ .

* * *

وَهَٰذَا شَابٌّ يُقْبِلُ عَلَىٰ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَيَقُولُ : أَوْصِنِي يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَيَقُولُ لَهُ : يَا بُنَيَّ ، اذْكُرِ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ يَذْكُرْكَ فِي الضَّرَّاءِ ...

يَا بُنَيَّ ، كُنْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا أَوْ مُسْتَمِعًا وَلَا تَكُنِ الرَّابِعَ[1] فَتَهْلَكَ .

يَا بُنَيَّ ، لِيَكُنِ الْمَسْجِدُ بَيْتَكَ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (الْمَسَاجِدُ بَيْتُ كُلِّ تَقِيٍّ) ، وَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ كَانَتِ الْمَسَاجِدُ بُيُوتَهُمُ الرَّوْحَ[2] ، وَالرَّحْمَةَ ، وَالْجَوَازَ[3] عَلَىٰ الصِّرَاطِ إِلَىٰ رِضْوَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

* * *

(١) أراد بالرابع : الجاهل.　　(٢) الرَّوح : الرّاحة والسّعة.　　(٣) الجواز : المرور.

وَهَؤُلَاءِ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّبَّانِ جَلَسُوا عَلَىٰ الطَّرِيقِ يَتَحَدَّثُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْمَارِّينَ ، فَيُقْبِلُ عَلَيْهِمْ وَيَقُولُ : يَا بَنِيَّ ، صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ بَيْتُهُ ، يَكُفُّ فِيهِ نَفْسَهُ وَبَصَرَهُ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الْأَسْوَاقِ فَإِنَّهُ يُلْهِي وَيُلْغِي .

* * *

وَفِي أَثْنَاءِ إِقَامَةِ أَبِي الدَّرْدَاءِ « بِدِمَشْقَ » بَعَثَ إِلَيْهِ وَالِيهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ يَخْطُبُ ابْنَتَهُ « الدَّرْدَاءَ » لِابْنِهِ يَزِيدَ ، فَأَبَىٰ أَنْ يُزَوِّجَهَا لَهُ ، وَأَعْطَاهَا لِشَابٍّ مِنْ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ رَضِيَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ .

فَسَارَ ذَلِكَ فِي النَّاسِ ، وَجَعَلُوا يَقُولُونَ : خَطَبَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بِنْتَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فَرَدَّهُ أَبُوهَا ، وَزَوَّجَهَا لِرَجُلٍ مِنْ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ .

فَسَأَلَهُ سَائِلٌ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ ؟! .

فَقَالَ : إِنَّمَا تَحَرَّيْتُ فِيمَا صَنَعْتُهُ صَلَاحَ أَمْرِ الدَّرْدَاءِ .

فَقَالَ : وَكَيْفَ ؟ .

فَقَالَ : مَا ظَنُّكُمْ بِالدَّرْدَاءِ إِذَا قَامَ بَيْنَ يَدَيْهَا الْعَبِيدُ يَخْدِمُونَهَا ، وَوَجَدَتْ نَفْسَهَا فِي قُصُورٍ يَخْطَفُ لَأْلَاؤُهَا الْبَصَرَ ... أَيْنَ يُصْبِحُ دِينُهَا يَوْمَئِذٍ ؟! .

* * *

وَفِي خِلَالِ وُجُودِ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي بِلَادِ الشَّامِ قَدِمَ عَلَيْهِمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مُتَفَقِّدًا أَحْوَالَهَا ، فَزَارَ صَاحِبَهُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فِي مَنْزِلِهِ لَيْلًا ، فَدَفَعَ الْبَابَ ، فَإِذَا هُوَ بِغَيْرِ غَلَقٍ ، فَدَخَلَ فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ لَا ضَوْءَ فِيهِ ، فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو الدَّرْدَاءِ حِسَّهُ قَامَ إِلَيْهِ ، وَرَحَّبَ بِهِ وَأَجْلَسَهُ .

وَأَخَذَ الرَّجُلَانِ يَتَفَاوَضَانِ(١) الْأَحَادِيثَ ، وَالظَّلَامُ يَحْجُبُ كُلًّا مِنْهُمَا عَنْ عَيْنَيْ صَاحِبِهِ .

(١) يتفاوضان الأحاديث : يتبادلان الأحاديث ويتجاذبانها .

فَجَسَّ عُمَرُ وِسَادَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فَإِذَا هُوَ بَرْذَعَةٌ[1] ... وَجَسَّ فِرَاشَهُ فَإِذَا هُوَ حَصًى ... وَجَسَّ دِثَارَهُ[2] فَإِذَا هُوَ كِسَاءٌ رَقِيقٌ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا فِي بَرْدِ « دِمَشْقَ » .

فَقَالَ لَهُ : رَحِمَكَ اللَّهُ أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ ؟! أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ ؟! .

فَقَالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ : أَتَذْكُرُ - يَا عُمَرُ - حَدِيثًا حَدَّثَنَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ .

قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ .

قَالَ : أَلَمْ يَقُلْ : (لِيَكُنْ بَلَاغُ[3] أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ رَاكِبٍ) ؟ .

قَالَ : بَلَىٰ .

قَالَ : فَمَاذَا فَعَلْنَا بَعْدَهُ يَا عُمَرُ ؟!! ...

فَبَكَىٰ عُمَرُ وَبَكَىٰ أَبُو الدَّرْدَاءِ .

وَمَا زَالَا يَتَجَاوَبَانِ[4] بِالْبُكَاءِ حَتَّىٰ طَلَعَ عَلَيْهِمَا الصُّبْحُ .

* * *

ظَلَّ أَبُو الدَّرْدَاءِ فِي « دِمَشْقَ » يَعِظُ أَهْلَهَا وَيُذَكِّرُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ حَتَّىٰ أَتَاهُ الْيَقِينُ[5] ...

فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَ الْمَوْتِ ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ ، فَقَالُوا : مَا تَشْتَكِي ؟ .

قَالَ : ذُنُوبِي .

قَالُوا : وَمَا تَشْتَهِي ؟ .

قَالَ : عَفْوَ رَبِّي .

---

(١) الْبرذعة : كساء يلقىٰ علىٰ ظهر الدّابة .
(٢) دثاره : غطاءه .
(٣) بلاغ أحدكم : كِفايَةُ أحدكم وماله .
(٤) يتجاوبان بالْبكاء : يجيب كل منهما صاحبه بالْبكاء .
(٥) الْيقين : الموت .

ثُمَّ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : لَقِّنُونِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ . فَمَا زَالَ يُرَدِّدُهَا حَتَّىٰ فَارَقَ الْحَيَاةَ .

* * *

وَلَمَّا لَحِقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ بِجِوَارِ رَبِّهِ رَأَىٰ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيُّ[1] فِيمَا يَرَاهُ النَّائِمُ مَرْجًا أَخْضَرَ فَسِيحَ الْأَرْجَاءِ وَارِفَ الْأَفْيَاءِ فِيهِ قُبَّةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أَدَمٍ[2]، حَوْلَهَا غَنَمٌ رَابِضَةٌ لَمْ تَرَ الْعَيْنُ مِثْلَهَا قَطُّ ، فَقَالَ :

لِمَنْ هَٰذَا ؟! .

فَقِيلَ لَهُ : لِعَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْفٍ[3].

فَطَلَعَ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ مِنَ الْقُبَّةِ ، وَقَالَ لَهُ : يَا بْنَ مَالِكٍ ، هَٰذَا مَا أَعْطَانَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُرْآنِ . وَلَوْ أَشْرَفْتَ عَلَىٰ هَٰذِهِ الثَّنِيَّةِ[4] لَرَأَيْتَ مَا لَمْ تَرَ عَيْنُكَ ، وَسَمِعْتَ مَا لَمْ تَسْمَعْ أُذُنُكَ ، وَوَجَدْتَ مَا لَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِكَ .

فَقَالَ ابْنُ مَالِكٍ : وَلِمَنْ ذَٰلِكَ كُلُّهُ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟! .

فَقَالَ : أَعَدَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ لِأَنَّهُ كَانَ يَدْفَعُ عَنْهُ الدُّنْيَا بِالرَّاحَتَيْنِ وَالصَّدْرِ (*) .

---

(١) عوف بن مالك الأشجعي الغطفاني : صحابي من الشّجعان الرؤساء، كانت معه راية «أشجع» يوم الفتح، نزل حمص وسكن دمشق .
(٢) من أدم : من جلد .
(٣) عبد الرحمن بن عوف : انظره ص ٢٤٩.
(٤) الثّنية : الطّريق .

(*) للاستزادة من أخبار أبي الدّرداء انظر :
١ - الإصابة : ٣/٤٥ أو «التّرجمة» ٦١١٧.
٢ - الاستيعاب «بهامش الإصابة» : ٣/١٥ و٤/٥٩.
٣ - أسْدُ الغابة : ٤/١٥٩.
٤ - حلية الأولياء : ١/٢٠٨.
٥ - حسن الصّحابة : ٢١٨.
٦ - صفة الصّفوة : ١/٢٥٧.
٧ - تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/١٠٧.
٨ - حياة الصّحابة : «انظر الفهارس».
٩ - الكواكب الدّرية : ١/٤٥.
١٠- الأعلام للزركلي : ٥/٢٨١.

زَيدُ بنُ حَارِثَة

«وَأَيْمُ اللهِ لَقَدْ كَانَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ خَلِيقًا بِالْإِمْرَةِ،
وَلَقَدْ كَانَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ»

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

مَضَتْ سُعْدَىٰ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ تَبْتَغِي زِيَارَةَ قَوْمِهَا بَنِي «مَعْنٍ»، وَكَانَتْ تَصْحَبُ مَعَهَا غُلَامَهَا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ الْكَعْبِيَّ.

فَمَا كَادَتْ تَحُلُّ فِي دِيَارِ قَوْمِهَا حَتَّىٰ أَغَارَتْ عَلَيْهِمْ خَيْلٌ لِبَنِي «الْقَيْنِ» فَأَخَذُوا الْمَالَ، وَاسْتَاقُوا الْإِبِلَ، وَسَبَوُا الذَّرَارِيَ...

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَنِ احْتَمَلُوهُ مَعَهُمْ وَلَدُهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ.

وَكَانَ زَيْدٌ - إِذْ ذَاكَ - غُلَامًا صَغِيرًا يَدْرُجُ نَحْوَ الثَّامِنَةِ مِنْ عُمُرِهِ، فَأَتَوْا بِهِ سُوقَ عُكَاظٍ[1] وَعَرَضُوهُ لِلْبَيْعِ؛ فَاشْتَرَاهُ ثَرِيٌّ مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ هُوَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامِ بْنِ خُوَيْلِدٍ[2] بِأَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ...

وَاشْتَرَىٰ مَعَهُ طَائِفَةً مِنَ الْغِلْمَانِ، وَعَادَ بِهِمْ إِلَىٰ مَكَّةَ.

* * *

فَلَمَّا عَرَفَتْ عَمَّتُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ بِمَقْدَمِهِ، زَارَتْهُ مُسَلِّمَةً عَلَيْهِ، مُرَحِّبَةً بِهِ، فَقَالَ لَهَا:

يَا عَمَّةُ، لَقَدِ ابْتَعْتُ مِنْ سُوقِ عُكَاظٍ طَائِفَةً مِنَ الْغِلْمَانِ، فَاخْتَارِي أَيًّا مِنْهُمْ تَشَائِينَهُ، فَهُوَ هَدِيَّةٌ لَكِ.

فَتَفَرَّسَتِ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ وُجُوهَ الْغِلْمَانِ...

---

(١) سوق عكاظ: سوق كانت تقيمه العرب في الأشهر الحرم للبيع والشراء، وتتناشد فيه الأشعار.

(٢) حكيم بن حزام: انظره ص ٢٣٧.

وَاخْتَارَتْ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ، لِمَا بَدَا لَهَا مِنْ عَلَامَاتِ نَجَابَتِهِ[1]، وَمَضَتْ بِهِ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ تَزَوَّجَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَأَرَادَتْ أَنْ تُطْرِفَهُ[2] وَتُهْدِيَ لَهُ ، فَلَمْ تَجِدْ خَيْرًا مِنْ غُلَامِهَا الْأَثِيرِ[3] زَيْدِ ابْنِ حَارِثَةَ فَأَهْدَتْهُ إِلَيْهِ .

* * *

وَفِيمَا كَانَ الْغُلَامُ الْمَحْظُوظُ يَتَقَلَّبُ فِي رِعَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَيَحْظَىٰ بِكَرِيمِ صُحْبَتِهِ ، وَيَنْعَمُ بِجَمِيلِ خِلَالِهِ[4].

كَانَتْ أُمُّهُ الْمَفْجُوعَةُ بِفَقْدِهِ لَا تَرْقَأُ[5] لَهَا عَبْرَةٌ ، وَلَا تَهْدَأُ لَهَا لَوْعَةٌ ، وَلَا يَطْمَئِنُّ لَهَا جَنْبٌ ...

وَكَانَ يَزِيدُهَا أَسًى عَلَىٰ أَسَاهَا أَنَّهَا لَا تَعْرِفُ أَحَيٌّ هُوَ فَتَرْجُوَهُ أَمْ مَيِّتٌ فَتَيْأَسَ مِنْهُ ...

أَمَّا أَبُوهُ فَأَخَذَ يَتَحَرَّاهُ فِي كُلِّ أَرْضٍ ، وَيُسَائِلُ عَنْهُ كُلَّ رَكْبٍ ، وَيَصُوغُ حَنِينَهُ إِلَيْهِ شِعْرًا حَزِينًا تَتَفَطَّرُ[6] لَهُ الْأَكْبَادُ حَيْثُ يَقُولُ :

بَكَيْتُ عَلَىٰ زَيْدٍ وَلَمْ أَدْرِ مَا فَعَلْ ... أَحَيٌّ فَيُرْجَىٰ أَمْ أَتَىٰ دُونَهُ الْأَجَلْ؟
فَوَاللَّـهِ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَسَائِلٌ ... أَغَالَكَ بَعْدِي السَّهْلُ أَمْ غَالَكَ الْجَبَلْ[7]
تُذَكِّرُنِيهِ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا ... وَتَعْرِضُ ذِكْرَاهُ إِذَا غَرْبُهَا أَفَلْ[8]
سَأُعْمِلُ نَصَّ الْعِيسِ فِي الْأَرْضِ جَاهِدًا ... وَلَا أَسْأَمُ التَّطْوَافَ أَوْ تَسْأَمَ الْإِبِلْ[9]

---

(١) نجابته : ذكائه وفطنته .
(٢) أن تطرفه : أن تتحفه .
(٣) الأثير : العزيز .
(٤) بجميل خلاله : بجميل أخلاقه وصفاته .
(٥) لا ترقأ لها عبرة : لا تجف لها دمعة .
(٦) تتفطر : تتمزق .
(٧) غالك : سرقك .
(٨) أفل : غاب .
(٩) سأعمل نص العيس : سأستحث النوق على السير في الأرض .

حَيَاتِيَ، أَوْ تَأْتِي عَلَيَّ مَنِيَّتِي فَكُلُّ امْرِيءٍ فَانٍ وَإِنْ غَرَّهُ الأَمَلْ

* * *

وَفِي مَوْسِمٍ مِنْ مَوَاسِمِ الْحَجِّ[1] قَصَدَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ نَفَرٌ مِنْ قَوْمِ زَيْدٍ، وَفِيمَا كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، إِذَا هُمْ بِزَيْدٍ وَجْهًا لِوَجْهٍ، فَعَرَفُوهُ وَعَرَفَهُمْ وَسَأَلُوهُ وَسَأَلَهُمْ، وَلَمَّا قَضَوْا مَنَاسِكَهُمْ وَعَادُوا إِلَى دِيَارِهِمْ أَخْبَرُوا حَارِثَةَ بِمَا رَأَوْا وَحَدَّثُوهُ بِمَا سَمِعُوا.

* * *

فَمَا أَسْرَعَ أَنْ أَعَدَّ حَارِثَةُ رَاحِلَتَهُ، وَحَمَلَ مِنَ الْمَالِ مَا يَفْدِي بِهِ فَلِذَةَ الْكَبِدِ، وَقُرَّةَ الْعَيْنِ، وَصَحِبَ مَعَهُ أَخَاهُ كَعْبًا، وَانْطَلَقَا مَعًا يُغِذَّانِ[2] السَّيْرَ نَحْوَ مَكَّةَ... فَلَمَّا بَلَغَاهَا دَخَلَا عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَقَالَا لَهُ:

يَا بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْتُمْ جِيرَانُ اللَّهِ، تَفُكُّونَ الْعَانِيَ[3]، وَتُطْعِمُونَ الْجَائِعَ، وَتُغِيثُونَ الْمَلْهُوفَ...

وَقَدْ جِئْنَاكَ فِي ابْنِنَا الَّذِي عِنْدَكَ، وَحَمَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْمَالِ مَا يَفِي بِهِ...

فَامْنُنْ عَلَيْنَا، وَفَادِهِ لَنَا بِمَا تَشَاءُ.

فَقَالَ مُحَمَّدٌ: (وَمَنِ ابْنُكُمَا الَّذِي تَعْنِيَانِ؟).

فَقَالَا: غُلَامُكَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ.

فَقَالَ: (وَهَلْ لَكُمَا فِيمَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْفِدَاءِ؟).

فَقَالَا: وَمَا هُوَ؟!.

فَقَالَ: (أَدْعُوهُ لَكُمْ، فَخَيِّرُوهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ؛ فَإِنِ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ بِغَيْرِ مَالٍ، وَإِنِ اخْتَارَنِي فَمَا أَنَا ـ وَاللَّهِ ـ بِالَّذِي يَرْغَبُ عَمَّنْ يَخْتَارُهُ).

(١) كان ذلك في الجاهلية. (٢) يغذان السير: يسرعان في السير. (٣) العاني: السائل والمستجير.

فَقَالَا : لَقَدْ أَنْصَفْتَ وَبَالَغْتَ فِي الْإِنْصَافِ .

فَدَعَا مُحَمَّدٌ زَيْدًا وَقَالَ : (مَنْ هَـٰذَانِ ؟) .

قَالَ : هَـٰذَا أَبِي حَارِثَةُ بْنُ شُرَاحِيلَ ، وَهَـٰذَا عَمِّي كَعْبٌ .

فَقَالَ : (قَدْ خَيَّرْتُكَ : إِنْ شِئْتَ مَضَيْتَ مَعَهُمَا ، وَإِنْ شِئْتَ أَقَمْتَ مَعِي) .

فَقَالَ - فِي غَيْرِ إِبْطَاءٍ وَلَا تَرَدُّدٍ - :

بَلْ أُقِيمُ مَعَكَ .

فَقَالَ أَبُوهُ : وَيْحَكَ يَا زَيْدُ ، أَتَخْتَارُ الْعُبُودِيَّةَ عَلَىٰ أَبِيكَ وَأُمِّكَ ؟! .

فَقَالَ : إِنِّي رَأَيْتُ مِنْ هَـٰذَا الرَّجُلِ شَيْئًا ، وَمَا أَنَا بِالَّذِي يُفَارِقُهُ أَبَدًا .

* * *

فَلَمَّا رَأَىٰ مُحَمَّدٌ مِنْ زَيْدٍ مَا رَأَىٰ ، أَخَذَ بِيَدِهِ وَأَخْرَجَهُ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَوَقَفَ بِهِ بِالْحِجْرِ عَلَىٰ مَلَإٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَقَالَ :

(يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، اشْهَدُوا أَنَّ هَـٰذَا ابْنِي يَرِثُنِي وَأَرِثُهُ) ...

فَطَابَتْ نَفْسُ أَبِيهِ وَعَمِّهِ ، وَخَلَّفَاهُ عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَعَادَا إِلَىٰ قَوْمِهِمَا مُطْمَئِنِّي النَّفْسِ مُرْتَاحِي الْبَالِ .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَصْبَحَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يُدْعَىٰ بِزَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، وَظَلَّ يُدْعَىٰ كَذَلِكَ حَتَّىٰ بُعِثَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَأَبْطَلَ الْإِسْلَامُ التَّبَنِّيَ حَيْثُ نَزَلَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ** ﴾[1] فَأَصْبَحَ يُدْعَىٰ : زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ .

* * *

(١) سورة الأحزاب : آية ٥.

لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ زَيْدٌ ـ حِينَ اخْتَارَ مُحَمَّدًا عَلَىٰ أُمِّهِ وَأَبِيهِ ـ أَيَّ غُنْمٍ غَنِمَهُ ...

وَلَمْ يَكُنْ يَدْرِي أَنَّ سَيِّدَهُ الَّذِي آثَرَهُ عَلَىٰ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ هُوَ سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَرَسُولُ اللَّهِ إِلَىٰ خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ ...

وَمَا خَطَرَ لَهُ بِبَالٍ أَنَّ دَوْلَةً لِلسَّمَاءِ سَتَقُومُ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ؛ فَتَمْلَأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ بِرًّا وَعَدْلًا، وَأَنَّهُ هُوَ نَفْسَهُ سَيَكُونُ اللَّبِنَةَ الْأُولَىٰ فِي بِنَاءِ هَٰذِهِ الدَّوْلَةِ الْعُظْمَىٰ ...

لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَٰلِكَ يَدُورُ فِي خَلَدِ زَيْدٍ ...

وَإِنَّمَا هُوَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ...

وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

ذَٰلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ حَادِثَةِ التَّخْيِيرِ هَٰذِهِ إِلَّا بِضْعُ سِنِينَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ، فَكَانَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الرِّجَالِ.

وَهَلْ فَوْقَ هَٰذِهِ الْأَوَّلِيَّةِ أَوَّلِيَّةٌ يَتَنَافَسُ فِيهَا الْمُتَنَافِسُونَ ؟! ...

لَقَدْ أَصْبَحَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَمِينًا لِسِرِّ رَسُولِ اللَّهِ، وَقَائِدًا لِبُعُوثِهِ وَسَرَايَاهُ، وَأَحَدَ خُلَفَائِهِ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ إِذَا غَادَرَهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

* * *

وَكَمَا أَحَبَّ زَيْدٌ النَّبِيَّ ﷺ وَآثَرَهُ عَلَىٰ أُمِّهِ وَأَبِيهِ، فَقَدْ أَحَبَّهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَخَلَطَهُ بِأَهْلِهِ وَبَنِيهِ، فَكَانَ يَشْتَاقُ إِلَيْهِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، وَيَفْرَحُ بِقُدُومِهِ إِذَا عَادَ إِلَيْهِ، وَيَلْقَاهُ لِقَاءً لَا يَحْظَىٰ بِمِثْلِهِ أَحَدٌ سِوَاهُ.

فَهَا هِيَ ذِي عَائِشَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا تُصَوِّرُ لَنَا مَشْهَدًا مِنْ مَشَاهِدِ فَرْحَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِلِقَاءِ زَيْدٍ فَتَقُولُ:

« قَدِمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الْمَدِينَةَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي ، فَقَرَعَ الْبَابَ ، فَقَامَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ عُرْيَانًا - لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا مَا يَسْتُرُ مَا بَيْنَ سُرَّتِهِ وَرُكْبَتِهِ - وَمَضَىٰ إِلَىٰ الْبَابِ يَجُرُّ ثَوْبَهُ ؛ فَاعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَهُ ...

وَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ عُرْيَانًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ »(١).

وَقَدْ شَاعَ أَمْرُ حُبِّ النَّبِيِّ ﷺ لِزَيْدٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَفَاضَ(٢)، فَدَعَوْهُ « بِزَيْدِ الْحُبِّ » ، وَأَطْلَقُوا عَلَيْهِ لَقَبَ « حِبِّ »(٣) رَسُولِ اللَّهِ ؛ وَلَقَّبُوا ابْنَهُ أُسَامَةَ(٤) مِنْ بَعْدِهِ بِحِبِّ رَسُولِ اللَّهِ وَابْنِ حِبِّهِ .

* * *

وَفِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ شَاءَ اللَّهُ - تَبَارَكَتْ حِكْمَتُهُ - أَنْ يَمْتَحِنَ الْحَبِيبَ بِفِرَاقِ حَبِيبِهِ .

ذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، بَعَثَ الْحَارِثَ بْنَ عُمَيْرٍ الْأَزْدِيَّ بِكِتَابٍ إِلَىٰ مَلِكِ « بُصْرَىٰ » يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْحَارِثُ « مُؤْتَةَ » بِشَرْقِيِّ الْأُرْدُنِّ ، عَرَضَ لَهُ أَحَدُ أُمَرَاءِ « الْغَسَاسِنَةِ » شُرَحْبِيلُ بْنُ عَمْرٍو فَأَخَذَهُ ، وَشَدَّ عَلَيْهِ وِثَاقَهُ ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ .

فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يُقْتَلْ لَهُ رَسُولٌ غَيْرُهُ .

فَجَهَّزَ جَيْشًا مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ لِغَزْوِ « مُؤْتَةَ » ، وَوَلَّىٰ عَلَىٰ الْجَيْشِ حَبِيبَهُ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ، وَقَالَ : (إِنْ أُصِيبَ زَيْدٌ فَتَكُونُ الْقِيَادَةُ لِجَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ(٥)، فَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ كَانَتْ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ، فَإِنْ أُصِيبَ عَبْدُ

---

(١) انظر جامع الأصول: ١٠/ ٢٥، وقد أخرجه الترمذي.
(٢) استفاض: ذاع وانتشر.
(٣) الْحِب - بكسر الحاء -: المحبوب.
(٤) أسامة بن زيد: انظره ص ٢١٩.
(٥) جعفر بن أبي طالب: انظره ص ٢٥٧.

اللَّهِ ؛ فَلْيَخْتَرِ الْمُسْلِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ) .

* * *

مَضَىٰ الْجَيْشُ حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ « مَعَانَ » بِشَرْقِيِّ الْأُرْدُنِّ ...

فَهَبَّ « هِرَقْلُ » مَلِكُ الرُّومِ عَلَىٰ رَأْسِ مِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ لِلدِّفَاعِ عَنِ « الْغَسَاسِنَةِ » ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِ مِائَةُ أَلْفٍ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، وَنَزَلَ هَٰذَا الْجَيْشُ الْجَرَّارُ غَيْرَ بَعِيدٍ مِنْ مَوَاقِعِ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

بَاتَ الْمُسْلِمُونَ فِي « مَعَانَ » لَيْلَتَيْنِ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَا يَصْنَعُونَ .

فَقَالَ قَائِلٌ : نَكْتُبُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنُخْبِرُهُ بِعَدَدِ عَدُوِّنَا وَنَنْتَظِرُ أَمْرَهُ .

وَقَالَ آخَرُ : وَاللَّهِ - يَا قَوْمُ - إِنَّنَا لَا نُقَاتِلُ بِعَدَدٍ وَلَا قُوَّةٍ وَلَا كَثْرَةٍ ، وَ إِنَّمَا نُقَاتِلُ بِهَٰذَا الدِّينِ ...

فَانْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا خَرَجْتُمْ لَهُ ...

وَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ لَكُمُ الْفَوْزَ بِإِحْدَىٰ الْحُسْنَيَيْنِ :

إِمَّا الظَّفَرُ ... وَ إِمَّا الشَّهَادَةُ .

* * *

ثُمَّ الْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ عَلَىٰ أَرْضِ « مُؤْتَةَ » ، فَقَاتَلَ الْمُسْلِمُونَ قِتَالًا أَذْهَلَ الرُّومَ وَمَلَأَ قُلُوبَهُمْ هَيْبَةً لِهَٰذِهِ الْآلَافِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تَصَدَّتْ لِجَيْشِهِمُ الْبَالِغِ مِائَتَيْ أَلْفٍ .

وَجَالَدَ[1] زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ عَنْ رَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِلَادًا لَمْ يَعْرِفْ لَهُ تَارِيخُ الْبُطُولَاتِ مَثِيلًا ، حَتَّىٰ خَرَقَتْ جَسَدَهُ مِئَاتُ الرِّمَاحِ ؛ فَخَرَّ صَرِيعًا يَسْبَحُ فِي دِمَائِهِ .

(١) جالد جلادًا : ضرب بالسيف ضربًا ، قاتل قتالًا .

فَتَنَاوَلَ مِنْهُ الرَّايَةَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَطَفِقَ يَذُودُ عَنْهَا أَكْرَمَ الذَّوْدِ حَتَّىٰ لَحِقَ بِصَاحِبِهِ .

فَتَنَاوَلَ مِنْهُ الرَّايَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، فَنَاضَلَ عَنْهَا أَبْسَلَ النِّضَالِ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ صَاحِبَاهُ .

فَأَمَّرَ النَّاسُ عَلَيْهِمْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ - وَكَانَ حَدِيثَ إِسْلَامٍ - فَانْحَازَ بِالْجَيْشِ ، وَأَنْقَذَهُ مِنَ الْفَنَاءِ الْمُحَتَّمِ .

* * *

بَلَغَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْبَاءُ « مُؤْتَةَ » ، وَمَصْرَعُ قَادَتِهِ الثَّلَاثَةِ فَحَزِنَ عَلَيْهِمْ حُزْنًا لَمْ يَحْزَنْ مِثْلَهُ قَطُّ ، وَمَضَىٰ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ يُعَزِّيهِمْ بِهِمْ .

فَلَمَّا بَلَغَ بَيْتَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ لَاذَتْ بِهِ ابْنَتُهُ الصَّغِيرَةُ وَهِيَ مُجْهِشَةٌ بِالْبُكَاءِ ، فَبَكَىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ انْتَحَبَ(١) .

فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ : مَا هَٰذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟! .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(هَٰذَا بُكَاءُ الْحَبِيبِ عَلَىٰ حَبِيبِهِ) (*) .

---

(١) انتحب : ارتفع صوته بالبكاء .

(*) للاستزادة من أخبار زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ انظر :
١ - صحيح مسلم : ١١٣/٧ باب فضائل الصحابة .
٢ - جامع الأصول من أحاديث الرسول : ٢٥/١٠، ٢٦.
٣ - الإصابة : ٥٦٣/١ أو « الترجمة » ٢٨٩٠.
٤ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٥٤٤/١.
٥ - السيرة النبوية لابن هشام : « انظر فهارس الأجزاء الأربعة » .
٦ - البداية والنهاية : « في أخبار السنة الثامنة للهجرة » .
٧ - حياة الصحابة : « انظر الفهارس في الجزء الرابع » .
٨ - صفة الصفوة : ١٤٧/١.
٩ - خزانة الأدب للبغدادي : ٣٦٣/١.

أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ

« إِنَّ أَبَا أُسَامَةَ كَانَ أَحَبَّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ مِنْ أَبِيكَ ،
وَكَانَ هُوَ أَحَبَّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ مِنْكَ »

[مِنْ كَلَامِ الْفَارُوقِ لِابْنِهِ]

نَحْنُ الْآنَ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ فِي مَكَّةَ .

وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يُكَابِدُ(١) مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ مَا يُكَابِدُ ...

وَيَحْمِلُ مِنْ هُمُومِ الدَّعْوَةِ وَأَعْبَائِهَا مَا أَحَالَ حَيَاتَهُ إِلَىٰ سِلْسِلَةٍ مُتَوَاصِلَةٍ مِنَ الْأَحْزَانِ وَالنَّوَائِبِ(٢) .

وَفِيمَا هُوَ كَذَٰلِكَ أَشْرَقَتْ فِي حَيَاتِهِ بَارِقَةُ سُرُورٍ .

فَلَقَدْ جَاءَهُ الْبَشِيرُ يُبَشِّرُهُ أَنَّ « أُمَّ أَيْمَنَ » وَضَعَتْ غُلَامًا .

فَأَضَاءَتْ أَسَارِيرُهُ(٣) عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْفَرْحَةِ ، وَأَشْرَقَ وَجْهُهُ الْكَرِيمُ بِالْبَهْجَةِ .

فَمَنْ يَكُونُ هَٰذَا الْغُلَامُ السَّعِيدُ الَّذِي أَدْخَلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلَّ هَٰذَا السُّرُورِ ؟! .

إِنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ .

وَلَمْ يَسْتَغْرِبْ أَحَدٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَهْجَتَهُ بِالْمَوْلُودِ الْجَدِيدِ ، وَذَٰلِكَ لِمَوْضِعِ أَبَوَيْهِ مِنْهُ(٤) ، وَمَنْزِلَتِهِمَا عِنْدَهُ .

---

(١) يكابد : يعاني .
(٢) النوائب : المصائب .
(٣) أساريره : محاسن وجهه .
(٤) لموضع أبويه منه : لمكانة أبويه عنده .

فَأُمُّ الْغُلَامِ هِيَ « بَرَكَةُ الْحَبَشِيَّةُ » الْمُكَنَّاةُ بِأُمِّ أَيْمَنَ .

وَقَدْ كَانَتْ مَمْلُوكَةً لِآمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ أُمِّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَرَبَّتْهُ فِي حَيَاتِهَا، وَحَضَنَتْهُ بَعْدَ وَفَاتِهَا، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ عَلَىٰ الدُّنْيَا؛ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ لِنَفْسِهِ أُمًّا غَيْرَهَا ...

فَأَحَبَّهَا أَعْمَقَ الْحُبِّ وَأَصْدَقَهُ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ :

هِيَ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي، وَبَقِيَّةُ أَهْلِ بَيْتِي .

هَٰذِهِ أُمُّ الْغُلَامِ الْمَحْظُوظِ، أَمَّا أَبُوهُ فَهُوَ « حِبُّ » رَسُولِ اللَّهِ ﷺ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ[١]، وَابْنُهُ بِالتَّبَنِّي قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَصَاحِبُهُ وَمَوْضِعُ سِرِّهِ، وَأَحَدُ أَهْلِهِ وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ .

وَقَدْ فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِمَوْلِدِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ كَمَا لَمْ يَفْرَحُوا بِمَوْلُودٍ سِوَاهُ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ مَا يُفْرِحُ النَّبِيَّ ﷺ يُفْرِحُهُمْ، وَكُلَّ مَا يُدْخِلُ السُّرُورَ عَلَىٰ قَلْبِهِ يَسُرُّهُمْ .

فَأَطْلَقُوا عَلَىٰ الْغُلَامِ الْمَحْظُوظِ لَقَبَ : « الْحِبُّ وَابْنُ الْحِبِّ » .

* * *

وَلَمْ يَكُنِ الْمُسْلِمُونَ مُبَالِغِينَ حِينَ أَطْلَقُوا هَٰذَا اللَّقَبَ عَلَىٰ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ أُسَامَةَ؛ فَقَدْ أَحَبَّهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ حُبًّا تَغْبِطُهُ عَلَيْهِ الدُّنْيَا كُلُّهَا، فَقَدْ كَانَ أُسَامَةُ مُقَارِبًا فِي السِّنِّ لِسِبْطِهِ[٢] الْحَسَنِ بْنِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ[٣].

وَكَانَ الْحَسَنُ أَبْيَضَ أَزْهَرَ رَائِعَ الْحُسْنِ شَدِيدَ الشَّبَهِ بِجَدِّهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

---

(١) زيد بن حارثة : انظره ص ٢١١.

(٢) سبط الرجل : ابن ابنته .

(٣) فاطمة الزهراء : انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

وَكَانَ أُسَامَةُ أَسْوَدَ الْبَشَرَةِ أَفْطَسَ الْأَنْفِ شَدِيدَ الشَّبَهِ بِأُمِّهِ الْحَبَشِيَّةِ .

لَكِنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَا كَانَ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا فِي الْحُبِّ ، فَكَانَ يَأْخُذُ أُسَامَةَ فَيَضَعُهُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ فَخِذَيْهِ ، وَيَأْخُذُ الْحَسَنَ فَيَضَعُهُ عَلَىٰ فَخِذِهِ الْأُخْرَىٰ ، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا مَعًا إِلَىٰ صَدْرِهِ وَيَقُولُ :

(اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا) .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ حُبِّ الرَّسُولِ ﷺ لِأُسَامَةَ أَنَّهُ عَثَرَ ذَاتَ مَرَّةٍ بِعَتَبَةِ الْبَابِ فَشُجَّتْ جَبْهَتُهُ ، وَسَالَ الدَّمُ مِنْ جُرْحِهِ ؛ فَأَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَائِشَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا أَنْ تُزِيلَ الدَّمَ عَنْ جُرْحِهِ فَلَمْ تَطِبْ نَفْسُهَا لِذَٰلِكَ .

فَقَامَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَجَعَلَ يَمُصُّ شَجَّتَهُ ، وَيَمُجُّ الدَّمَ وَهُوَ يُطَيِّبُ خَاطِرَهُ بِكَلِمَاتٍ تَفِيضُ عُذُوبَةً وَحَنَانًا .

* * *

وَكَمَا أَحَبَّ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أُسَامَةَ فِي صِغَرِهِ فَقَدْ أَحَبَّهُ فِي شَبَابِهِ ، فَلَقَدْ أَهْدَىٰ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ[1] أَحَدُ سَرَاةِ[2] قُرَيْشٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُلَّةً ثَمِينَةً شَرَاهَا مِنَ « الْيَمَنِ » بِخَمْسِينَ دِينَارًا ذَهَبًا كَانَتْ « لِذِي يَزَنٍ » أَحَدِ مُلُوكِهِمْ .

فَأَبَىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْبَلَ هَدِيَّتَهُ لِأَنَّهُ كَانَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكًا ، وَأَخَذَهَا مِنْهُ بِالثَّمَنِ . . .

وَقَدْ لَبِسَهَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ ، ثُمَّ خَلَعَهَا عَلَىٰ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، فَكَانَ يَرُوحُ بِهَا وَيَغْدُو بَيْنَ أَتْرَابِهِ مِنْ شُبَّانِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .

* * *

(١) حكيم بن حزام : انظره ص ٣٣٧.

(٢) السّراة بفتح السّين : الأشراف .

وَلَمَّا بَلَغَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ أَشُدَّهُ[1]، بَدَا عَلَيْهِ مِنْ كَرِيمِ الشَّمَائِلِ وَجَلِيلِ الْخِصَائِلِ مَا يَجْعَلُهُ جَدِيرًا بِحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقَدْ كَانَ ذَكِيًّا حَادَّ الذَّكَاءِ، شُجَاعًا خَارِقَ الشَّجَاعَةِ، حَكِيمًا يَضَعُ الْأُمُورَ فِي مَوَاضِعِهَا، عَفِيفًا يَأْنَفُ الدَّنَايَا، آلِفًا مَأْلُوفًا يُحِبُّهُ النَّاسُ، تَقِيًّا وَرِعًا يُحِبُّهُ اللَّهُ.

فَفِي يَوْمِ «أُحُدٍ» جَاءَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ مَعَ نَفَرٍ مِنْ صِبْيَانِ الصَّحَابَةِ يُرِيدُونَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَخَذَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ، وَرَدَّ مِنْهُمْ مَنْ رَدَّ لِصِغَرِ أَعْمَارِهِمْ، فَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْمَرْدُودِينَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَتَوَلَّى[2] وَعَيْنَاهُ الصَّغِيرَتَانِ تَفِيضَانِ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يُجَاهِدَ تَحْتَ رَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

* * *

وَفِي غَزْوَةِ «الْخَنْدَقِ»، جَاءَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ أَيْضًا وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ فِتْيَانِ الصَّحَابَةِ، وَجَعَلَ يَشُدُّ قَامَتَهُ إِلَى أَعْلَى لِيُجِيزَهُ[3] رَسُولُ اللَّهِ، فَرَقَّ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَجَازَهُ، فَحَمَلَ السَّيْفَ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً.

* * *

وَفِي يَوْمِ «حُنَيْنٍ» حِينَ انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ، ثَبَتَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ مَعَ الْعَبَّاسِ عَمِّ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَبِي سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ[4] ابْنِ عَمِّهِ، وَسِتَّةِ نَفَرٍ آخَرِينَ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ، فَاسْتَطَاعَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهَذِهِ الْفِئَةِ الصَّغِيرَةِ الْمُؤْمِنَةِ الْبَاسِلَةِ، أَنْ يُحَوِّلَ هَزِيمَةَ أَصْحَابِهِ إِلَى نَصْرٍ، وَأَنْ يَحْمِيَ الْمُسْلِمِينَ الْفَارِّينَ مِنْ أَنْ يَفْتِكَ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ.

* * *

(١) بلغ أشده: بلغ سن الرجولة.
(٢) فتولى: فرجع.
(٣) ليجيزه: ليأذن له.
(٤) أبو سفيان بن الحارث: انظره ص ٢٧١.

وَفِي يَوْمِ « مُؤْتَةَ » جاهَدَ أُسامَةُ تَحْتَ لِوَاءِ أَبِيهِ زَيْدِ بْنِ حارِثَةَ وَسِنُّهُ دُونَ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ ، فَرَأَىٰ بِعَيْنَيْهِ مَصْرَعَ أَبِيهِ ، فَلَمْ يَهِنْ[1] وَلَمْ يَتَضَعْضَعْ ، وَ إِنَّمَا ظَلَّ يُقَاتِلُ تَحْتَ لِوَاءِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ[2] حَتَّىٰ صُرِعَ عَلَىٰ مَرْأًى مِنْهُ وَمَشْهَدٍ ، ثُمَّ تَحْتَ لِوَاءِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ حَتَّىٰ لَحِقَ بِصَاحِبَيْهِ ، ثُمَّ تَحْتَ لِوَاءِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ حَتَّىٰ اسْتَنْقَذَ الْجَيْشَ الصَّغِيرَ مِنْ بَرَاثِنِ[3] الرُّومِ .

* * *

ثُمَّ عَادَ أُسَامَةُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ مُحْتَسِبًا أَبَاهُ عِنْدَ اللَّهِ ، تَارِكًا جَسَدَهُ الطَّاهِرَ عَلَىٰ تُخُومِ الشَّامِ ، وَرَاكِبًا جَوَادَهُ الَّذِي اسْتُشْهِدَ عَلَيْهِ .

* * *

وَفِي السَّنَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ ، أَمَرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِتَجْهِيزِ جَيْشٍ لِغَزْوِ الرُّومِ ، وَجَعَلَ فِيهِ أَبَا بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ، وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ[4] ، وَأَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ[5] وَغَيْرَهُمْ مِنْ جِلَّةِ[6] الصَّحَابَةِ ، وَأَمَّرَ عَلَىٰ الْجَيْشِ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ، وَهُوَ لَمْ يُجَاوِزِ الْعِشْرِينَ بَعْدُ ... وَأَمَرَهُ أَنْ يُوطِئَ الْخَيْلَ تُخُومَ « الْبَلْقَاءِ » وَ« قَلْعَةَ الدَّارُومِ » ، الْقَرِيبَةَ مِنْ « غَزَّةَ » مِنْ بِلَادِ الرُّومِ .

وَفِيمَا كَانَ الْجَيْشُ يَتَجَهَّزُ ، مَرِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْمَرَضُ ، تَوَقَّفَ الْجَيْشُ عَنِ الْمَسِيرِ انْتِظَارًا لِمَا تُسْفِرُ عَنْهُ حَالُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

قَالَ أُسَامَةُ : « وَلَمَّا ثَقُلَ عَلَىٰ نَبِيِّ اللَّهِ الْمَرَضُ ، أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَأَقْبَلَ النَّاسُ مَعِي ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَوَجَدْتُهُ قَدْ صَمَتَ فَمَا يَتَكَلَّمُ مِنْ وَطْأَةِ[7] الدَّاءِ ، فَجَعَلَ

---

(١) فلم يهن : فلم يضعف .
(٢) جعفر بن أبي طالب : انظره ص ٢٥٧.
(٣) براثن الرّوم : مخالب الرّوم .
(٤) سعد بن أبي وقاص : انظره ص ٢٨١.
(٥) أبو عُبَيْدَة بن الجرّاح : انظره ص ٨٩.
(٦) جلة الصّحابة : شيوخ الصّحابة .
(٧) من وطأة الدّاء : من ثقل المرض وشدته .

يَرْفَعُ يَدَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ ثُمَّ يَضَعُهَا عَلَيَّ ؛ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَدْعُو لِي » .

* * *

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ فَارَقَ الرَّسُولُ ﷺ الْحَيَاةَ ، وَتَمَّتِ الْبَيْعَةُ لِأَبِي بَكْرٍ ، فَأَمَرَ بِإِنْفَاذِ بَعْثِ أُسَامَةَ .

لَكِنَّ فِئَةً مِنَ الْأَنْصَارِ رَأَتْ أَنْ يُؤَخَّرَ الْبَعْثُ ، وَطَلَبَتْ مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنْ يُكَلِّمَ فِي ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ ، وَقَالَتْ لَهُ :

فَإِنْ أَبَىٰ إِلَّا الْمُضِيَّ ، فَأَبْلِغْهُ عَنَّا أَنْ يُوَلِّيَ أَمْرَنَا رَجُلًا أَقْدَمَ سِنًّا مِنْ أُسَامَةَ .

وَمَا إِنْ سَمِعَ الصِّدِّيقُ مِنْ عُمَرَ رِسَالَةَ الْأَنْصَارِ ، حَتَّىٰ وَثَبَ لَهَا ـ وَكَانَ جَالِسًا ـ وَأَخَذَ بِلِحْيَةِ الْفَارُوقِ وَقَالَ مُغْضَبًا :

ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ وَعَدِمَتْكَ يَا بْنَ الْخَطَّابِ ... اسْتَعْمَلَهُ(١) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَأْمُرُنِي أَنْ أَنْزِعَهُ ؟! وَاللَّهِ لَا يَكُونُ ذَلِكَ .

وَلَمَّا رَجَعَ عُمَرُ إِلَىٰ النَّاسِ ، سَأَلُوهُ عَمَّا صَنَعَ ، فَقَالَ :

امْضُوا ثَكِلَتْكُمْ(٢) أُمَّهَاتُكُمْ ، فَقَدْ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ فِي سَبِيلِكُمْ مِنْ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ .

* * *

وَلَمَّا انْطَلَقَ الْجَيْشُ بِقِيَادَةِ قَائِدِهِ الشَّابِّ ، شَيَّعَهُ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ مَاشِيًا وَأُسَامَةُ رَاكِبٌ ، فَقَالَ أُسَامَةُ : يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ :

وَاللَّهِ لَتَرْكَبَنَّ أَوْ لَأَنْزِلَنَّ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَاللَّهِ لَا تَنْزِلُ ، وَوَاللَّهِ لَا أَرْكَبُ ... وَمَا عَلَيَّ أَنْ أُغَبِّرَ قَدَمَيَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَاعَةً ؟! ...

(١) استعمله : ولاه.

(٢) ثكلتكم أمهاتكم : فقدتكم أمهاتكم.

ثُمَّ قَالَ لِأُسَامَةَ :

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ ، وَأُوصِيكَ بِإِنْفَاذِ مَا أَمَرَكَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ مَالَ عَلَيْهِ وَقَالَ :

إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُعِينَنِي بِعُمَرَ فَائْذَنْ لَهُ بِالْبَقَاءِ مَعِي ، فَأَذِنَ أُسَامَةُ لِعُمَرَ بِالْبَقَاءِ .

* * *

مَضَىٰ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ بِالْجَيْشِ ، وَأَنْفَذَ كُلَّ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَأَوْطَأَ خَيْلَ الْمُسْلِمِينَ تُخُومَ « الْبَلْقَاءِ » وَ« قَلْعَةَ الدَّارُومِ » مِنْ أَرْضِ « فِلَسْطِينَ » ، وَنَزَعَ هَيْبَةَ الرُّومِ مِنْ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَهَّدَ الطَّرِيقَ أَمَامَهُمْ لِفَتْحِ دِيَارِ الشَّامِ ، وَمِصْرَ ، وَالشَّمَالِ الْإِفْرِيقِيِّ كُلِّهِ حَتَّىٰ بَحْرِ الظُّلُمَاتِ ...

ثُمَّ عَادَ أُسَامَةُ مُمْتَطِيًا صَهْوَةَ[1] الْجَوَادِ الَّذِي اسْتُشْهِدَ عَلَيْهِ أَبُوهُ ، حَامِلًا مِنَ الْغَنَائِمِ مَا زَادَ عَنْ تَقْدِيرِ الْمُقَدِّرِينَ ، حَتَّىٰ قِيلَ :

« إِنَّهُ مَا رُئِيَ جَيْشٌ أَسْلَمُ وَأَغْنَمُ مِنْ جَيْشِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ » .

* * *

ظَلَّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ـ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ ـ مَوْضِعَ إِجْلَالِ الْمُسْلِمِينَ وَحُبِّهِمْ ، وَفَاءً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَإِجْلَالًا لِشَخْصِهِ .

فَقَدْ فَرَضَ لَهُ الْفَارُوقُ عَطَاءً[2] أَكْثَرَ مِمَّا فَرَضَهُ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِأَبِيهِ :

« يَا أَبَتِ ، فَرَضْتَ لِأُسَامَةَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ وَفَرَضْتَ لِي ثَلَاثَةَ آلَافٍ ، وَمَا كَانَ لِأَبِيهِ مِنَ الْفَضْلِ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَ لَكَ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ أَكْثَرُ مِمَّا لِي » .

---

(١) صهوة الجواد : مكان قعود الفارس علىٰ الجواد .
(٢) عطاء : مرتبًا .

فَقَالَ الْفَارُوقُ : هَيْهَاتَ[1]...

إِنَّ أَبَاهُ كَانَ أَحَبَّ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ أَبِيكَ ، وَكَانَ هُوَ أَحَبَّ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ مِنْكَ ...

فَرَضِيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بِمَا فُرِضَ لَهُ مِنْ عَطَاءٍ .

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا لَقِيَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ قَالَ :

مَرْحَبًا بِأَمِيرِي ... فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدًا يَعْجَبُ مِنْهُ قَالَ :

لَقَدْ أَمَّرَهُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

* * *

رَحِمَ اللَّهُ هَٰذِهِ النُّفُوسَ الْكَبِيرَةَ ، فَمَا عَرَفَ التَّارِيخُ أَعْظَمَ وَلَا أَكْمَلَ وَلَا أَنْبَلَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (*) .

---

(١) هيهات : لقد أبْعَدْتَ كثيرا .

(*) للاستزادة من أخبار أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ انظر :

١ - جامع الأصول : ١٠/ ٢٧.
٢ - الإصابة : ١/ ٣١ أو « الترجمة » ٨٩.
٣ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ١/ ٥٧.
٤ - تقريب التهذيب : ١/ ٥٣.
٥ - تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/ ٢٧٠ - ٢٧٢.
٦ - الطبقات الكبرى : ٤/ ٤٢، ٦١ - ٧٢.
٧ - السيرة النبوية لابن هشام : « انظر الفهارس ».
٨ - العبر : ١/ ٩٥.
٩ - من أبطالنا الذين صنعوا التاريخ لأبي الفتوح التوانسي : ٣٣ ، ٣٩.
١٠ - قادة فتح الشام ومصر : ٣٣ - ٥١.
١١ - الأعلام ومراجعه : ١/ ٢٨١ - ٢٨٢.

سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ

« اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ حَرَمْتَنِي مِنْ هَٰذَا الْخَيْرِ
فَلَا تَحْرِمْ مِنْهُ ابْنِي سَعِيدًا »

[زَيْدٌ وَالِدُ سَعِيدٍ]

وَقَفَ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بَعِيدًا عَنْ زَحْمَةِ النَّاسِ يَشْهَدُ قُرَيْشًا وَهِيَ تَحْتَفِلُ بِعِيدٍ مِنْ أَعْيَادِهَا ، فَرَأَىٰ الرِّجَالَ يَعْتَجِرُونَ(١) الْعَمَائِمَ السُّنْدُسِيَّةَ الْغَالِيَةَ ، وَيَخْتَالُونَ بِالْبُرُودِ الْيَمَانِيَّةِ الثَّمِينَةِ ، وَأَبْصَرَ النِّسَاءَ وَالْوِلْدَانَ وَقَدْ لَبِسُوا زَاهِيَ الثِّيَابِ وَبَدِيعَ الْحُلَلِ ، وَنَظَرَ إِلَىٰ الْأَنْعَامِ يَقُودُهَا الْمُوسِرُونَ ، بَعْدَ أَنْ حَلَّوْهَا بِأَنْوَاعِ الزِّينَةِ ، لِيَذْبَحُوهَا بَيْنَ أَيْدِي الْأَوْثَانِ .

فَوَقَفَ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَىٰ جِدَارِ الْكَعْبَةِ وَقَالَ :

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ... الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ لَهَا الْمَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ فَرَوِيَتْ ، وَأَنْبَتَ لَهَا الْعُشْبَ مِنَ الْأَرْضِ فَشَبِعَتْ ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَىٰ غَيْرِ اسْمِهِ ، إِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ !! .

فَقَامَ إِلَيْهِ عَمُّهُ الْخَطَّابُ وَالِدُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَلَطَمَهُ ، وَقَالَ :

تَبًّا لَكَ(٢)، مَا زِلْنَا نَسْمَعُ مِنْكَ هَٰذَا الْبَذَاءَ(٣) وَنَحْتَمِلُهُ ، حَتَّىٰ نَفِدَ صَبْرُنَا ، ثُمَّ أَغْرَىٰ بِهِ سُفَهَاءَ قَوْمِهِ فَآذَوْهُ ، وَلَجُّوا فِي إِيذَائِهِ ، حَتَّىٰ نَزَحَ عَنْ مَكَّةَ وَالْتَجَأَ إِلَىٰ جَبَلِ « حِرَاءَ » ، فَوَكَلَ بِهِ الْخَطَّابُ طَائِفَةً مِنْ شَبَابِ قُرَيْشٍ ، لِيَحُولُوا دُونَهُ وَدُونَ دُخُولِ مَكَّةَ ، فَكَانَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا سِرًّا .

* * *

(١) يعتجرون العَمَائِم : يلفون العَمَائِم .
(٢) تبًّا لك : خسرانًا لك .
(٣) الْبَذَاء : الْكلام السّفيه .

ثُمَّ إِنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ اجْتَمَعَ - فِي غَفْلَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ - إِلَىٰ كُلٍّ مِنْ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ[١]، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ[٢]، وَعُثْمَانَ بْنِ الْحَارِثِ، وَأُمَيْمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَجَعَلُوا يَتَذَاكَرُونَ مَا غَرِقَتْ فِيهِ الْعَرَبُ مِنَ الضَّلَالِ؛ فَقَالَ زَيْدٌ لِأَصْحَابِهِ:

إِنَّكُمْ - وَاللَّهِ - لَتَعْلَمُونَ أَنَّ قَوْمَكُمْ لَيْسُوا عَلَىٰ شَيْءٍ، وَأَنَّهُمْ أَخْطَأُوا دِينَ إِبْرَاهِيمَ وَخَالَفُوهُ، فَابْتَغُوا لِأَنْفُسِكُمْ دِينًا تَدِينُونَ بِهِ، إِنْ كُنْتُمْ تَرُومُونَ النَّجَاةَ.

فَهَبَّ الرِّجَالُ الْأَرْبَعَةُ إِلَىٰ الْأَحْبَارِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمِلَلِ، يَلْتَمِسُونَ عِنْدَهُمُ الْحَنِيفِيَّةَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ.

أَمَّا وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ فَتَنَصَّرَ.

وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ الْحَارِثِ فَلَمْ يَصِلَا إِلَىٰ شَيْءٍ.

وَأَمَّا زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنُ نُفَيْلٍ فَكَانَتْ لَهُ قِصَّةٌ، فَلْنَدَعْ لَهُ الْكَلَامَ لِيَرْوِيَهَا لَنَا ...

* * *

قَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو: وَقَفْتُ عَلَىٰ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، فَأَعْرَضْتُ عَنْهُمَا إِذْ لَمْ أَجِدْ فِيهِمَا مَا أَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ، وَجَعَلْتُ أَضْرِبُ فِي الْآفَاقِ بَحْثًا عن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَتَّىٰ صِرْتُ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ، فَذُكِرَ لِي رَاهِبٌ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ، فَأَتَيْتُهُ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ أَمْرِي، فَقَالَ: أَرَاكَ تُرِيدُ دِينَ إِبْرَاهِيمَ يَا أَخَا مَكَّةَ.

قُلْتُ: نَعَمْ، ذَلِكَ مَا أَبْغِي، فَقَالَ:

إِنَّكَ تَطْلُبُ دِينًا لَا يُوجَدُ الْيَوْمَ، وَلَكِنِ الْحَقْ بِبَلَدِكَ فَإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مِنْ قَوْمِكَ مَنْ يُجَدِّدُ دِينَ إِبْرَاهِيمَ، فَإِذَا أَدْرَكْتَهُ فَالْتَزِمْهُ.

---

(١) ورقة بن نوفل بن أسد: ابن عم أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، أولى أزواج الرسول ﷺ، أخبره الرسول بما جرى له مع جبريل وما أوحي إليه فصدقه ووعد بمساعدته إن أدركه وكان معتنقًا النصرانية.

(٢) عبد الله بن جحش: انظره ص ٨١.

فَقَفَلَ[1] زَيْدٌ رَاجِعًا إِلَىٰ مَكَّةَ يَحُثُّ الْخُطَىٰ الْتِمَاسًا لِلنَّبِيِّ الْمَوْعُودِ.

وَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ؛ لَكِنَّ زَيْدًا لَمْ يُدْرِكْهُ إِذْ خَرَجَتْ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فَقَتَلَتْهُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ مَكَّةَ، وَتَكْتَحِلَ عَيْنَاهُ بِرُؤْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَفِيمَا كَانَ زَيْدٌ يَلْفِظُ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَقَالَ:

اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ حَرَمْتَنِي مِنْ هَٰذَا الْخَيْرِ فَلَا تَحْرِمْ مِنْهُ ابْنِي «سَعِيدًا».

* * *

وَشَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ دَعْوَةَ زَيْدٍ، فَمَا إِنْ قَامَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ حَتَّىٰ كَانَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ فِي طَلِيعَةِ مَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَصَدَّقُوا رِسَالَةَ نَبِيِّهِ.

وَلَا غَرْوَ[2]؛ فَقَدْ نَشَأَ سَعِيدٌ فِي بَيْتٍ يَسْتَنْكِرُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنَ الضَّلَالِ، وَرُبِّيَ فِي حِجْرِ أَبٍ عَاشَ حَيَاتَهُ وَهُوَ يَبْحَثُ عَنِ الْحَقِّ...

وَمَاتَ وَهُوَ يَرْكُضُ لَاهِثًا وَرَاءَ الْحَقِّ...

وَلَمْ يُسْلِمْ سَعِيدٌ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا أَسْلَمَتْ مَعَهُ زَوْجَتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ أُخْتُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ.

وَقَدْ لَقِيَ الْفَتَىٰ الْقُرَشِيُّ مِنْ أَذَىٰ قَوْمِهِ مَا كَانَ خَلِيقًا[3] أَنْ يَفْتِنَهُ عَنْ دِينِهِ؛ وَلَكِنَّ قُرَيْشًا بَدَلًا مِنْ أَنْ تَصْرِفَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ اسْتَطَاعَ هُوَ وَزَوْجُهُ أَنْ يَنْتَزِعَا مِنْهَا رَجُلًا مِنْ أَثْقَلِ رِجَالِهَا وَزْنًا، وَأَجَلِّهِمْ خَطَرًا...

حَيْثُ كَانَا سَبَبًا فِي إِسْلَامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ.

* * *

وَضَعَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ طَاقَاتِهِ الْفَتِيَّةَ الشَّابَّةَ كُلَّهَا فِي خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ، إِذْ إِنَّهُ

---

(١) قفل: رجع من السفر. (٢) ولا غرو: ولا عجب. (٣) خليقًا: جديرًا.

أَسْلَمَ وَسِنُّهُ لَمْ تُجَاوِزِ الْعِشْرِينَ بَعْدُ ، فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا إِلَّا « بَدْرًا » ، فَقَدْ غَابَ عَنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ لِأَنَّهُ كَانَ فِي مُهِمَّةٍ كَلَّفَهُ إِيَّاهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَأَسْهَمَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي اسْتِلَالِ عَرْشِ « كِسْرَىٰ » وَتَقْوِيضِ مُلْكِ « قَيْصَرَ » ، وَكَانَتْ لَهُ فِي كُلِّ مَوْقِعَةٍ خَاضَ غِمَارَهَا الْمُسْلِمُونَ مَوَاقِفُ غُرٌّ مَشْهُودَةٌ ، وَأَيَادٍ بِيضٌ مَحْمُودَةٌ . وَلَعَلَّ أَرْوَعَ بُطُولَاتِهِ ، تِلْكَ الَّتِي سَجَّلَهَا يَوْمَ « الْيَرْمُوكِ » ، فَلْنَتْرُكْ لَهُ الْكَلَامَ لِيَقُصَّ عَلَيْنَا طَرَفًا مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

* * *

قَالَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ :

لَمَّا كَانَ يَوْمُ « الْيَرْمُوكِ » كُنَّا أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ أَلْفًا أَوْ نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ ، فَخَرَجَتْ لَنَا « الرُّومُ » بِعِشْرِينَ وَمِائَةِ أَلْفٍ ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْنَا بِخُطًى ثَقِيلَةٍ كَأَنَّهُمُ الْجِبَالُ تُحَرِّكُهَا أَيْدٍ خَفِيَّةٌ ، وَسَارَ أَمَامَهُمُ الْأَسَاقِفَةُ وَالْبَطَارِقَةُ وَالْقِسِّيسُونَ يَحْمِلُونَ الصُّلْبَانَ وَهُمْ يَجْهَرُونَ بِالصَّلَوَاتِ ؛ فَيُرَدِّدُهَا الْجَيْشُ مِنْ وَرَائِهِمْ وَلَهُ هَزِيمٌ[1] كَهَزِيمِ الرَّعْدِ .

فَلَمَّا رَآهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ حَالِهِمْ هَٰذِهِ ، هَالَتْهُمْ كَثْرَتُهُمْ ، وَخَالَطَ قُلُوبَهُمْ شَيْءٌ مِنْ خَوْفِهِمْ .

عِنْدَ ذَلِكَ قَامَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ[2] يَحُضُّ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الْقِتَالِ ، فَقَالَ : عِبَادَ اللَّهِ ، انْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ...

عِبَادَ اللَّهِ ، اصْبِرُوا فَإِنَّ الصَّبْرَ مَنْجَاةٌ مِنَ الْكُفْرِ ، وَمَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ ، وَمَدْحَضَةٌ[3] لِلْعَارِ ، وَأَشْرِعُوا[4] الرِّمَاحَ ، وَاسْتَتِرُوا بِالتُّرُوسِ ، وَالْزَمُوا الصَّمْتَ إِلَّا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَنْفُسِكُمْ ، حَتَّىٰ آمُرَكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) الْهَزِيمُ : صوت الرعد .
(٢) أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ : انظره ص ٨٩.
(٣) مدحضة للعار : دافع للعار .
(٤) أشرعوا الرماح : سددوها وصوبوها .

قَالَ سَعِيدٌ :

عِنْدَ ذَلِكَ ، خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ لِأَبِي عُبَيْدَةَ :

إِنِّي أَزْمَعْتُ(1) عَلَىٰ أَنْ أَقْضِيَ أَمْرِيَ السَّاعَةَ(2)، فَهَلْ لَكَ مِنْ رِسَالَةٍ تَبْعَثُ بِهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟! . فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ :

نَعَمْ ، تُقْرِئُهُ مِنِّي وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ السَّلَامَ ، وَتَقُولُ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّا وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا .

قَالَ سَعِيدٌ : فَمَا إِنْ سَمِعْتُ كَلَامَهُ ، وَرَأَيْتُهُ يَمْتَشِقُ حُسَامَهُ(3)، وَيَمْضِي إِلَىٰ لِقَاءِ أَعْدَاءِ اللَّهِ ، حَتَّىٰ اقْتَحَمْتُ(4) إِلَى الْأَرْضِ ، وَجَثَوْتُ عَلَىٰ رُكْبَتَيَّ ، وَأَشْرَعْتُ رُمْحِيَ وَطَعَنْتُ أَوَّلَ فَارِسٍ أَقْبَلَ عَلَيْنَا ، ثُمَّ وَثَبْتُ عَلَى الْعَدُوِّ وَقَدِ انْتَزَعَ اللَّهُ كُلَّ مَا فِي قَلْبِي مِنَ الْخَوْفِ ؛ فَثَارَ النَّاسُ فِي وُجُوهِ « الرُّومِ » ، وَمَا زَالُوا يُقَاتِلُونَهُمْ حَتَّىٰ كَتَبَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ النَّصْرَ .

* * *

شَهِدَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ بَعْدَ ذَلِكَ فَتْحَ « دِمَشْقَ » ، فَلَمَّا دَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ بِالطَّاعَةِ ، جَعَلَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَالِيًا عَلَيْهَا ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ وَلِيَ إِمْرَةَ « دِمَشْقَ » مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

وَفِي زَمَنِ بَنِي أُمَيَّةَ وَقَعَتْ لِسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ حَادِثَةٌ ظَلَّ أَهْلُ « يَثْرِبَ » يَتَحَدَّثُونَ بِهَا زَمَنًا طَوِيلًا .

ذَلِكَ أَنَّ « أَرْوَىٰ بِنْتَ أُوَيْسٍ » زَعَمَتْ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ قَدْ غَصَبَ شَيْئًا مِنْ أَرْضِهَا وَضَمَّهَا إِلَىٰ أَرْضِهِ ، وَجَعَلَتْ تَلُوكُ(5) ذَلِكَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَتَحَدَّثُ بِهِ ، ثُمَّ رَفَعَتْ أَمْرَهَا إِلَىٰ « مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ » وَالِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ

(1) أزمعت : عزمت .

(2) أن أقضي أمري الساعة : أن أموت في هذه الساعة .

(3) يمتشق حسامه : يستل سيفه .

(4) اقتحمت إلَى الأرض : رميت نفسي بشدة علَىٰ الأرض .

(5) تلوك ذلك : تردِّده .

مَرْوَانُ أُنَاسًا يُكَلِّمُونَهُ فِي ذَلِكَ ، فَصَعُبَ الْأَمْرُ عَلَىٰ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ وَقَالَ :

يَرَوْنَنِي أَظْلِمُهَا !! كَيْفَ أَظْلِمُهَا ؟! وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (مَنْ ظَلَمَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ) ... اللَّهُمَّ إِنَّهَا قَدْ زَعَمَتْ أَنِّي ظَلَمْتُهَا ، فَإِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً ، فَأَعْمِ بَصَرَهَا ، وَأَلْقِهَا فِي بِئْرِهَا الَّذِي تُنَازِعُنِي فِيهِ ، وَأَظْهِرْ مِنْ حَقِّي نُورًا يُبَيِّنُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنِّي لَمْ أَظْلِمْهَا .

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ ذَلِكَ غَيْرُ قَلِيلٍ ، حَتَّىٰ سَالَ « الْعَقِيقُ »[1] بِسَيْلٍ لَمْ يَسِلْ مِثْلَهُ قَطُّ ، فَكَشَفَ عَنِ الْحَدِّ الَّذِي كَانَا يَخْتَلِفَانِ فِيهِ ، وَظَهَرَ لِلْمُسْلِمِينَ أَنَّ سَعِيدًا كَانَ صَادِقًا .

وَلَمْ تَلْبَثِ الْمَرْأَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا شَهْرًا حَتَّىٰ عَمِيَتْ ، وَبَيْنَا[2] هِيَ تَطُوفُ فِي أَرْضِهَا تِلْكَ ، سَقَطَتْ فِي بِئْرِهَا . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ :

فَكُنَّا وَنَحْنُ غِلْمَانٌ نَسْمَعُ الْإِنْسَانَ يَقُولُ لِلْإِنْسَانِ :

« أَعْمَاكَ اللَّهُ كَمَا أَعْمَىٰ الْأَرْوَىٰ » .

وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ ، فَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ :

(اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) .

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْمَظْلُومُ سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ ، أَحَدَ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ ؟! (*) .

---

(١) الْعقيق : وادٍ في المدينة يجري فيه السَّيْلُ.

(٢) بينا : عندما.

(*) للاستزادة من أخبار سَعِيد بْن زَيْد انظر :

١ – الإصابة : ٢/ ٤٦ أو « الترجمة » ٣٢٦١.
٢ – الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٢/ ٢.
٣ – طبقات ابن سعد : ٣/ ٢٧٥.
٤ – تهذيب ابن عساكر : ٦/ ١٢٧.
٥ – صِفَةُ الصَّفوة : ١/ ١٤١.
٦ – حلية الأولياء : ١/ ٩٥.
٧ – الرِّياض النَّضرة : ٢/ ٣٠٢.
٨ – حياة الصَّحابة : « انظر فهارس الجزء الرَّابع ».

عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ

« فِي صِغَرِهِ »

« عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ نَسِيجُ وَحْدِهِ »

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

تَجَرَّعَ الْغُلَامُ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيُّ كَأْسَ الْيُتْمِ وَالْفَاقَةِ(١) مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ ...

فَقَدْ مَضَىٰ أَبُوهُ إِلَىٰ رَبِّهِ دُونَ أَنْ يَتْرُكَ لَهُ مَالًا أَوْ مُعِيلًا .

لَكِنَّ أُمَّهُ مَا لَبِثَتْ أَنْ تَزَوَّجَتْ مِنْ ثَرِيٍّ مِنْ أَثْرِيَاءِ « الْأَوْسِ »(٢)، يُدْعَىٰ « الْجُلَاسَ بْنَ سُوَيْدٍ » ، فَكَفَلَ ابْنَهَا عُمَيْرًا ، وَضَمَّهُ إِلَيْهِ .

وَقَدْ لَقِيَ عُمَيْرٌ مِنْ بِرِّ الْجُلَاسِ وَحُسْنِ رِعَايَتِهِ وَجَمِيلِ عَطْفِهِ مَا جَعَلَهُ يَنْسَىٰ أَنَّهُ يَتِيمٌ .

فَأَحَبَّ عُمَيْرٌ الْجُلَاسَ حُبَّ الِابْنِ لِأَبِيهِ ، كَمَا أُولِعَ الْجُلَاسُ بِعُمَيْرٍ وَلَعَ الْوَالِدِ بِوَلَدِهِ .

وَكَانَ كُلَّمَا نَمَا عُمَيْرٌ وَشَبَّ ، يَزْدَادُ الْجُلَاسُ لَهُ حُبًّا ، وَبِهِ إِعْجَابًا ؛ لِمَا كَانَ يَرَىٰ فِيهِ مِنْ أَمَارَاتِ الْفِطْنَةِ(٣) وَالنَّجَابَةِ الَّتِي تَبْدُو فِي كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِ ، وَشَمَائِلِ(٤) الْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي كُلِّ تَصَرُّفٍ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِ .

* * *

وَقَدْ أَسْلَمَ الْفَتَىٰ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ ، وَهُوَ صَغِيرٌ لَمْ يُجَاوِزِ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِهِ

---

(١) الفاقة : الفقر .

(٢) الأوس : قبيلة عظيمة من الأزد كانت تسكن المدينة ، وقد عاهدت الرسول صلوات الله عليه على حمايته .

(٣) أمارات الفطنة : علامات الذكاء . (٤) الشمائل : الخصال والصفات .

إِلَّا قَلِيلًا ، فَوَجَدَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ الْغَضِّ مَكَانًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَ مِنْهُ ، وَأَلْفَى[1] الْإِسْلَامُ فِي نَفْسِهِ الصَّافِيَةِ الشَّفَّافَةِ تُرْبَةً خِصْبَةً فَتَغَلْغَلَ فِي ثَنَايَاهَا ؛ فَكَانَ عَلَىٰ حَدَاثَةِ سِنِّهِ لَا يَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةٍ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ تَغْمُرُهَا الْفَرْحَةُ كُلَّمَا رَأَتْهُ ذَاهِبًا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ أَوْ آيِبًا مِنْهُ ، تَارَةً مَعَ زَوْجِهَا وَتَارَةً وَحْدَهُ .

* * *

وَسَارَتْ حَيَاةُ الْغُلَامِ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ عَلَىٰ هَٰذَا النَّحْوِ : هَانِئَةً وَادِعَةً لَا يُعَكِّرُ صَفْوَهَا مُعَكِّرٌ ، وَلَا يُكَدِّرُ هَنَاءَتَهَا مُكَدِّرٌ ، حَتَّىٰ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُعَرِّضَ الْغُلَامَ الْيَافِعَ[2] لِتَجْرِبَةٍ مِنْ أَشَدِّ التَّجَارِبِ عُنْفًا وَأَقْسَاهَا قَسْوَةً ، وَأَنْ يَمْتَحِنَهُ امْتِحَانًا قَلَّمَا مَرَّ بِمِثْلِهِ فَتًى فِي سِنِّهِ .

فَفِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ أَعْلَنَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ عَزْمَهُ عَلَىٰ غَزْوِ الرُّومِ فِي « تَبُوكَ »[3] وَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يَسْتَعِدُّوا وَيَتَجَهَّزُوا لِذَٰلِكَ .

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَغْزُوَ غَزْوَةً لَمْ يُصَرِّحْ بِهَا ، وَأَوْهَمَ أَنَّهُ يُرِيدُ جِهَةً غَيْرَ الْجِهَةِ الَّتِي يَقْصِدُ إِلَيْهَا ، إِلَّا فِي غَزْوَةِ « تَبُوكَ » ، فَإِنَّهُ بَيَّنَهَا لِلنَّاسِ ، لِبُعْدِ الشُّقَّةِ[4] ، وَعِظَمِ الْمَشَقَّةِ ، وَقُوَّةِ الْعَدُوِّ ؛ لِيَكُونَ النَّاسُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ، فَيَأْخُذُوا لِلْأَمْرِ أُهْبَتَهُ[5] وَيُعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ .

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الصَّيْفَ كَانَ قَدْ دَخَلَ ، وَالْحَرَّ قَدِ اشْتَدَّ ، وَالثِّمَارَ قَدْ أَيْنَعَتْ ، وَالظِّلَالَ قَدْ طَابَتْ ، وَالنُّفُوسَ قَدْ رَكَنَتْ إِلَىٰ التَّرَاخِي وَالتَّكَاسُلِ ؛ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ ذَٰلِكَ كُلِّهِ فَقَدْ لَبَّىٰ الْمُسْلِمُونَ دَعْوَةَ نَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَخَذُوا يَتَجَهَّزُونَ وَيَسْتَعِدُّونَ .

---

(١) أَلْفَىٰ : وجد .
(٢) الْيَافِع : الْغُلَام الذي قارب الْبلوغ .
(٣) تبوك : موضعٌ عَلَىٰ حدود الشَّام وقعت فيه الْمعركة الْمعروفة بين الْمُسْلِمين والرُّوم .
(٤) لبعد الشُّقَّة : لبعد الْمسافة . (٥) يأخذوا للأمر أهبته : يستعدوا للأمر .

غَيْرَ أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْمُنَافِقِينَ(١) أَخَذُوا يُثَبِّطُونَ(٢) الْعَزَائِمَ، وَيُوهِنُونَ(٣) الْهِمَمَ، وَيُثِيرُونَ الشُّكُوكَ، وَيَغْمِزُونَ(٤) الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَيُطْلِقُونَ فِي مَجَالِسِهِمُ الْخَاصَّةِ مِنَ الْكَلِمَاتِ مَا يَدْمَغُهُمْ بِالْكُفْرِ دَمْغًا(٥).

* * *

وَفِي يَوْمٍ مِنْ هَٰذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي سَبَقَتْ رَحِيلَ الْجَيْشِ، عَادَ الْغُلَامُ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ إِلَىٰ بَيْتِهِ بَعْدَ أَدَاءِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ وَقَدِ امْتَلَأَتْ نَفْسُهُ بِطَائِفَةٍ مُشْرِقَةٍ مِنْ صُوَرِ بَذْلِ الْمُسْلِمِينَ وَتَضْحِيَتِهِمْ رَآهَا بِعَيْنَيْهِ، وَسَمِعَهَا بِأُذُنَيْهِ.

فَقَدْ رَأَىٰ نِسَاءَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ يُقْبِلْنَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَنْزَعْنَ حُلِيَّهُنَّ وَيُلْقِينَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيُجَهِّزَ بِثَمَنِهِ الْجَيْشَ الْغَازِيَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَأَبْصَرَ بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ(٦) يَأْتِي بِجِرَابٍ فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ ذَهَبًا، وَيُقَدِّمُهُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَشَهِدَ عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ بْنَ عَوْفٍ(٧) يَحْمِلُ عَلَىٰ عَاتِقِهِ مِائَتَيْ أُوقِيَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ وَيُلْقِيهَا بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ.

بَلْ إِنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا يَعْرِضُ فِرَاشَهُ لِلْبَيْعِ؛ لِيَشْتَرِيَ بِثَمَنِهِ سَيْفًا يُقَاتِلُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

فَأَخَذَ عُمَيْرٌ يَسْتَعِيدُ هَٰذِهِ الصُّوَرَ الْفَذَّةَ(٨) الرَّائِعَةَ، وَيَعْجَبُ مِنْ تَبَاطُؤِ الْجُلَاسِ عَنِ الِاسْتِعْدَادِ لِلرَّحِيلِ مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَالتَّأَخُّرِ عَنِ الْبَذْلِ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ قُدْرَتِهِ وَيَسَارِهِ(٩).

---

(١) الْمنافقون: الذي يُبطنون الكفر ويظهرون الإسلام.
(٢) يثبطون الْعزائم: يُضْعِفُون الْعزائم.
(٣) يوهنون الْهِمَم: يُضْعِفُون الْهِمَم.
(٤) يغمزون الرَّسُول: يذكرونه بسوء.
(٥) يدمغهم بالْكفر دمغًا: يسمُهُم بالْكُفْرِ وَسْمًا.
(٦) عُثْمَان بْن عفَّان: انظره ص ٥٣٥.
(٧) عَبْدَ الرَّحْمَٰن بْن عَوْف: انظره ص ٢٤٩.
(٨) الصّور الْفَذَّة: الصّور الرّائعة الْفريدَة.
(٩) الْيسار: الْغِنَى.

وَكَأَنَّمَا أَرَادَ عُمَيْرٌ أَنْ يَسْتَثِيرَ هِمَّةَ الْجُلَاسِ وَيَبْعَثَ الْحَمِيَّةَ[١] فِي نَفْسِهِ ؛ فَأَخَذَ يَقُصُّ عَلَيْهِ أَخْبَارَ مَا سَمِعَ وَرَأَىٰ ، وَخَاصَّةً خَبَرَ أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَدِمُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَسَأَلُوهُ فِي لَوْعَةٍ أَنْ يَضُمَّهُمْ إِلَىٰ الْجَيْشِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ فَرَدَّهُمُ النَّبِيُّ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ مِنَ الرَّكَائِبِ مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ ، فَتَوَلَّوْا[٢] وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُبَلِّغُهُمْ أُمْنِيَّتَهُمْ فِي الْجِهَادِ ، وَيُحَقِّقُ لَهُمْ أَشْوَاقَهُمْ إِلَىٰ الِاسْتِشْهَادِ .

لَكِنَّ الْجُلَاسَ مَا كَادَ يَسْمَعُ مِنْ عُمَيْرٍ مَا سَمِعَ حَتَّىٰ انْطَلَقَتْ مِنْ فَمِهِ كَلِمَةٌ أَطَارَتْ صَوَابَ[٣] الْفَتَىٰ الْمُؤْمِنِ ...

إِذْ سَمِعَهُ يَقُولُ :

« إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا فِيمَا يَدَّعِيهِ مِنَ النُّبُوَّةِ فَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ » .

* * *

لَقَدْ شُدِهَ[٤] عُمَيْرٌ مِمَّا سَمِعَ ؛ فَمَا كَانَ يَظُنُّ أَنَّ رَجُلًا لَهُ عَقْلُ الْجُلَاسِ وَسِنُّهُ ، تَنِدُّ[٥] مِنْ فَمِهِ مِثْلُ هَٰذِهِ الْكَلِمَةِ الَّتِي تُخْرِجُ صَاحِبَهَا مِنَ الْإِيمَانِ دَفْعَةً وَاحِدَةً ، وَتُدْخِلُهُ فِي الْكُفْرِ مِنْ أَوْسَعِ أَبْوَابِهِ .

وَكَمَا تَنْطَلِقُ الْآلَاتُ الْحَاسِبَةُ الدَّقِيقَةُ فِي حِسَابِ مَا يُلْقَىٰ إِلَيْهَا مِنَ الْمَسَائِلِ ، انْطَلَقَ عَقْلُ الْفَتَىٰ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ يُفَكِّرُ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْنَعَهُ :

لَقَدْ رَأَىٰ أَنَّ فِي السُّكُوتِ عَنِ الْجُلَاسِ وَالتَّسَتُّرِ عَلَيْهِ خِيَانَةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِضْرَارًا بِالْإِسْلَامِ الَّذِي يَكِيدُ لَهُ الْمُنَافِقُونَ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ[٦].

(١) الْحَمِيَّة : النَّخوة والْمروءة.
(٢) فتولوا : فرجعوا .
(٣) أطارت صواب الْفَتَى : أذهلته وأطارت عقلَه .
(٤) شُدِه : دُهِش وتَحيَّر.
(٥) تَنِدُّ : تشرُدُ .
(٦) يأتمرون به : يحدِّث بعضهم بعضًا بإيذائه .

وَأَنَّ فِي إِذَاعَةِ مَا سَمِعَهُ عُقُوقًا بِالرَّجُلِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنْ نَفْسِهِ مَنْزِلَةَ الْوَالِدِ، وَمُجَازَاةً لِإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ بِالْإِسَاءَةِ ...

فَهُوَ الَّذِي آوَاهُ مِنْ يُتْمٍ وَأَغْنَاهُ مِنْ فَقْرٍ وَعَوَّضَهُ عَنْ فَقْدِ أَبِيهِ.

وَكَانَ عَلَى الْفَتَى أَنْ يَخْتَارَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحْلَاهُمَا مُرٌّ. وَسَرْعَانَ مَا اخْتَارَ ...

فَالْتَفَتَ إِلَى الْجُلَاسِ وَقَالَ: وَاللَّهِ يَا جُلَاسُ مَا كَانَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ بَعْدَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ ...

فَأَنْتَ آثَرُ[١] النَّاسِ عِنْدِي، وَأَجَلُّهُمْ يَدًا[٢] عَلَيَّ، وَلَقَدْ قُلْتَ مَقَالَةً إِنْ ذَكَرْتُهَا فَضَحْتُكَ، وَإِنْ أَخْفَيْتُهَا خُنْتُ أَمَانَتِي وَأَهْلَكْتُ نَفْسِي وَدِينِي، وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَمْضِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأُخْبِرَهُ بِمَا قُلْتَ، فَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِكَ.

* * *

مَضَى الْفَتَى عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَأَخْبَرَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمَا سَمِعَ مِنَ الْجُلَاسِ بْنِ سُوَيْدٍ.

فَاسْتَبْقَاهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عِنْدَهُ، وَأَرْسَلَ أَحَدَ أَصْحَابِهِ لِيَدْعُوَ لَهُ الْجُلَاسَ.

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى جَاءَ الْجُلَاسُ فَحَيَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(مَا مَقَالَةٌ سَمِعَهَا مِنْكَ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ؟!) ... وَذَكَرَ لَهُ مَا قَالَهُ.

فَقَالَ الْجُلَاسُ: كَذَبَ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَافْتَرَى، فَمَا تَفَوَّهْتُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

(١) آثَرُ النَّاسِ عندي: أَحَبُّ النَّاس وأقربهم إليَّ. (٢) أجَلُّهم يدًا: أعظمهم نعمة عليَّ.

وَأَخَذَ الصَّحَابَةُ يُنَقِّلُونَ أَبْصَارَهُمْ بَيْنَ الْجُلَاسِ وَفَتَاهُ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ كَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَقْرَؤُوا عَلَىٰ صَفْحَتَيْ وَجْهَيْهِمَا(١) مَا يُكِنُّهُ(٢) صَدْرَاهُمَا.

وجَعَلُوا يَتَهَامَسُونَ ... فَقَالَ وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ(٣): فَتًى عَاقٌّ أَبَىٰ إِلَّا أَنْ يُسِيءَ لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ.

وَقَالَ آخَرُ: بَلْ إِنَّهُ غُلَامٌ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَ إِنَّ قَسَمَاتِ(٤) وَجْهِهِ لَتَنْطِقُ بِصِدْقِهِ.

وَالْتَفَتَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَىٰ عُمَيْرٍ فَرَأَىٰ وَجْهَهُ قَدِ احْتَقَنَ(٥) بِالدَّمِ، وَالدُّمُوعُ تَتَحَدَّرُ مِدْرَارًا مِنْ عَيْنَيْهِ؛ فَتَتَسَاقَطُ عَلَىٰ خَدَّيْهِ وَصَدْرِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَىٰ نَبِيِّكَ بَيَانَ مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ...

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَىٰ نَبِيِّكَ بَيَانَ مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ...

فَانْبَرَىٰ(٦) الْجُلَاسُ وَقَالَ: إِنَّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ، وَ إِنْ شِئْتَ تَحَالَفْنَا(٧) بَيْنَ يَدَيْكَ.

وَ إِنِّي أَحْلِفُ بِاللَّهِ أَنِّي مَا قُلْتُ شَيْئًا مِمَّا نَقَلَهُ لَكَ عُمَيْرٌ.

فَمَا إِنِ انْتَهَىٰ مِنْ حَلْفِهِ وَأَخَذَتْ عُيُونُ النَّاسِ تَنْتَقِلُ عَنْهُ إِلَىٰ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ حَتَّىٰ غَشِيَتْ(٨) رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ، فَعَرَفَ الصَّحَابَةُ أَنَّهُ

(١) صَفْحة الوجه: ما يبدو منه للناظر.
(٢) يكنه صدراهما: يخفيه صدراهما.
(٣) في قلوبهم مرض: في قلوبهم شبهةُ نفاق.
(٤) قسمات وجهه: ملامح وجهه.
(٥) احتقن بالدّم: تجمع الدّم فيه.
(٦) انبرىٰ: برزَ واندفع.
(٧) تحالفنا: حلَف كل منا علىٰ صحة كلامه.
(٨) غشيته السّكينة: نزلت عليه وعطته.

الْوَحْيُ ، فَلَزِمُوا أَمَاكِنَهُمْ ، وَسَكَنَتْ جَوَارِحُهُمْ ، وَلَاذُوا بِالصَّمْتِ[1] وَتَعَلَّقَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَهُنَا ظَهَرَ الْخَوْفُ وَالْوَجَلُ عَلَىٰ الْجُلَاسِ ...

وَبَدَا التَّلَهُّفُ وَالتَّشَوُّفُ[2] عَلَىٰ عُمَيْرٍ ...

وَظَلَّ الْجَمِيعُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ سُرِّيَ[3] عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَتَلَا قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ، وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ، فَإِن يَتُوبُوا يَكُ[4] خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[5].

فَارْتَعَدَ الْجُلَاسُ مِنْ هَوْلِ مَا سَمِعَ ، وَكَادَ يَنْعَقِدُ لِسَانُهُ مِنَ الْجَزَعِ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ :

بَلْ أَتُوبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

بَلْ أَتُوبُ ...

صَدَقَ عُمَيْرٌ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَكُنْتُ مِنَ الْكَاذِبِينَ .

اسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَ تَوْبَتِي ، جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

---

(١) لَاذُوا بِالصَّمْتِ : الْتَزَمُوا الصَّمْتَ وَانْقَطَعُوا عَنِ الْكَلَامِ .
(٢) التَّشَوُّف : التَّطَلُّع .
(٣) سُرِّيَ عَنِ الرَّسُولِ : زَالَ عَنْهُ أَثَرُ الْوَحْيِ .
(٤) يَكُ : أَصْلُهَا يَكُن ، حُذِفَتْ نُونُهَا تَخْفِيفًا .
(٥) سورة التوبة : آية ٧٤.

وَهُنَا تَوَجَّهَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَىٰ الْفَتَىٰ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ ، فَإِذَا دُمُوعُ الْفَرَحِ تُبَلِّلُ وَجْهَهُ الْمُشْرِقَ بِنُورِ الْإِيمَانِ .

فَمَدَّ الرَّسُولُ يَدَهُ الشَّرِيفَةَ إِلَىٰ أُذُنِهِ وَأَمْسَكَهَا بِرِفْقٍ وَقَالَ :

(وَفَّتْ أُذُنُكَ - يَا غُلَامُ - مَا سَمِعَتْ ، وَصَدَّقَكَ رَبُّكَ) .

* * *

عَادَ الْجُلَاسُ إِلَىٰ حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ .

وَقَدْ عَرَفَ الصَّحَابَةُ صَلَاحَ حَالِهِ مِمَّا كَانَ يُغْدِقُهُ[1] عَلَىٰ عُمَيْرٍ مِنْ بِرٍّ .

وَقَدْ كَانَ يَقُولُ كُلَّمَا ذُكِرَ عُمَيْرٌ :

جَزَاهُ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا ، فَقَدْ أَنْقَذَنِي مِنَ الْكُفْرِ ، وَأَعْتَقَ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ .

وَبَعْدُ ... فَلَيْسَتْ هَٰذِهِ أَوْضَأَ[2] صُورَةٍ فِي حَيَاةِ الْغُلَامِ الصَّحَابِيِّ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ ، وَلَا أَشَدَّهَا تَأَلُّقًا .

وَإِنَّمَا فِي حَيَاتِهِ مِنَ الصُّوَرِ مَا هُوَ أَزْهَىٰ وَأَجْمَلُ .

فَإِلَىٰ لِقَاءٍ آخَرَ مَعَ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ فِي كِبَرِهِ .

(١) يغدقه : يعطيه بسخاء.
(٢) أوضأ : أكثر وضاءة وإشراقا.

عُمَيرُ بنُ سَعدٍ

«في كِبَرِهِ»

«لَكَمْ وَدِدْتُ أَنَّ لِي رِجَالًا مِثْلَ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ
لِأَسْتَعِينَ بِهِمْ فِي أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ»

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

وَقَفْنَا آنِفًا(١) عَلَىٰ صُورَةٍ فَذَّةٍ(٢) وَضِيئَةٍ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عُمَيْرِ ابْنِ سَعْدٍ فِي صِغَرِهِ، فَتَعَالَوْا نَقِفِ الْآنَ عَلَىٰ صُورَةٍ رَائِعَةٍ مُشْرِقَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ فِي كِبَرِهِ، وَسَتَجِدُونَ أَنَّ الصُّورَةَ الثَّانِيَةَ لَنْ تَقِلَّ عَنِ الْأُولَىٰ جَلَالًا وَبَهَاءً.

* * *

كَانَ أَهْلُ «حِمْصَ»(٣) شَدِيدِي التَّذَمُّرِ مِنْ وُلَاتِهِمْ، كَثِيرِي الشَّكْوَىٰ مِنْهُمْ، فَمَا جَاءَهُمْ مِنْ وَالٍ إِلَّا وَجَدُوا فِيهِ عُيُوبًا، وَأَحْصَوْا لَهُ ذُنُوبًا، وَرَفَعُوا أَمْرَهُ إِلَىٰ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَمَنَّوْا عَلَيْهِ أَنْ يُبْدِلَهُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ.

فَعَزَمَ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللّٰهِ عَلَيْهِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ بِوَالٍ لَا يَجِدُونَ فِيهِ مَطْعَنًا وَلَا يَرَوْنَ فِي سِيرَتِهِ مَغْمَزًا(٤).

فَنَثَرَ كِنَانَةَ(٥) رِجَالِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَجَمَ(٦) عِيدَانَهَا عُودًا عُودًا، فَلَمْ يَجِدْ خَيْرًا مِنْ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ.

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ عُمَيْرًا كَانَ إِذْ ذَاكَ يَضْرِبُ(٧) فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ مِنْ

---

(١) آنفًا: قريبًا.
(٢) فذًا: فريدًا.
(٣) حِمْص: مدينة في سورية بين دمشق وحلب، فيها قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه.
(٤) مَغْمَزًا: عيبًا.
(٥) الكنانة: الجعبة التي توضع فيها السهام.
(٦) عجم عيدانها: اختبرها، وفي الكلام تشبيه للرجال بالسهام.
(٧) يَضرب: يسير غازيًا.

بِلَادِ الشَّام عَلَىٰ رَأْسِ جَيْشِهِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُحَرِّرُ الْمُدُنَ وَيَدُكُّ الْمَعَاقِلَ(١)، وَيُخْضِعُ الْقَبَائِلَ، وَيُقِيمُ الْمَسَاجِدَ فِي كُلِّ أَرْضٍ وَطِئَتْهَا قَدَمَاهُ ...

عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ دَعَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَهِدَ إِلَيْهِ بِوِلَايَةِ «حِمْصَ» وَأَمَرَهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهَا، فَأَذْعَنَ لِلْأَمْرِ عَلَىٰ كُرْهٍ مِنْهُ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يُؤْثِرُ(٢) شَيْئًا عَلَىٰ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

* * *

بَلَغَ عُمَيْرٌ «حِمْصَ» فَدَعَا النَّاسَ إِلَىٰ صَلَاةٍ جَامِعَةٍ.

وَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ خَطَبَ النَّاسَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَصَلَّىٰ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ثُمَّ قَالَ:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْإِسْلَامَ حِصْنٌ مَنِيعٌ، وَبَابٌ وَثِيقٌ(٣)، وَحِصْنُ الْإِسْلَامِ الْعَدْلُ وَبَابُهُ الْحَقُّ ...

فَإِذَا دُكَّ الْحِصْنُ وَحُطِّمَ الْبَابُ اسْتُبِيحَ حِمَىٰ هَٰذَا الدِّينِ ...

وَإِنَّ الْإِسْلَامَ مَا يَزَالُ مَنِيعًا مَا اشْتَدَّ السُّلْطَانُ ...

وَلَيْسَتْ شِدَّةُ السُّلْطَانِ ضَرْبًا بِالسَّوْطِ(٤) وَلَا قَتْلًا بِالسَّيْفِ، وَلَكِنْ قَضَاءً بِالْعَدْلِ وَأَخْذًا بِالْحَقِّ».

ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَىٰ عَمَلِهِ لِيُنَفِّذَ مَا اخْتَطَّهُ لَهُمْ مِنْ دُسْتُورٍ فِي خُطْبَتِهِ الْقَصِيرَةِ.

* * *

قَضَىٰ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ حَوْلًا(٥) كَامِلًا فِي «حِمْصَ» لَمْ يَكْتُبْ خِلَالَهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا، وَلَمْ يَبْعَثْ إِلَىٰ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْفَيْءِ(٦) دِرْهَمًا

(١) الْمعاقل: الْحصون.
(٢) لَا يُؤثِر: لَا يُفضِّلُ.
(٣) وثيق: متين.
(٤) السَّوط: جلد مضفور يُضرب به.
(٥) حولًا: عامًا.
(٦) الْفيء: الْخراج.

وَلَا دِينَارًا ، فَأَخَذَتِ الشُّكُوكُ تُسَاوِرُ[1] عُمَرَ إِذْ كَانَ شَدِيدَ الْخَشْيَةِ عَلَىٰ وُلَاتِهِ مِنْ فِتْنَةِ الْإِمَارَةِ ، فَلَا مَعْصُومَ عِنْدَهُ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَقَالَ لِكَاتِبِهِ : اكْتُبْ إِلَىٰ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ وَقُلْ لَهُ : إِذَا جَاءَكَ كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَدَعْ « حِمْصَ » وَأَقْبِلْ عَلَيْهِ ، وَاحْمِلْ مَعَكَ مَا جَبَيْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

تَلَقَّىٰ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ كِتَابَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ عُمَيْرٍ ؛ فَأَخَذَ جِرَابَ زَادِهِ[2] وَحَمَلَ عَلَىٰ عَاتِقِهِ[3] قَصْعَتَهُ[4] وَوِعَاءَ وَضُوئِهِ ، وَأَمْسَكَ بِيَدِهِ حَرْبَتَهُ ، وَخَلَّفَ « حِمْصَ » وَإِمَارَتَهَا وَرَاءَهُ ، وَانْطَلَقَ يَحُثُّ الْخُطَا ـ مَشْيًا عَلَىٰ قَدَمَيْهِ ـ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ .

فَمَا كَادَ يَبْلُغُ عُمَيْرٌ الْمَدِينَةَ حَتَّىٰ كَانَ قَدْ شَحَبَ لَوْنُهُ ، وَهَزُلَ جِسْمُهُ وَطَالَ شَعْرُهُ ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ وَعْثَاءُ[5] السَّفَرِ .

* * *

دَخَلَ عُمَيْرٌ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَدُهِشَ الْفَارُوقُ مِنْ حَالَتِهِ وَقَالَ : مَا بِكَ يَا عُمَيْرُ ؟! .

فَقَالَ : مَا بِي مِنْ شَيْءٍ ـ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ـ فَأَنَا صَحِيحٌ مُعَافًى ـ بِحَمْدِ اللَّهِ ـ أَحْمِلُ مَعِي الدُّنْيَا كُلَّهَا وَأَجُرُّهَا مِنْ قَرْنَيْهَا .

فَقَالَ : وَمَا مَعَكَ مِنَ الدُّنْيَا ؟ [وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ يَحْمِلُ مَالًا لِبَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ] .

فَقَالَ : مَعِي جِرَابِي وَقَدْ وَضَعْتُ فِيهِ زَادِي ...

---

(١) تُسَاوِرُ عمر : تدور في نفس عمر. (٣) العاتق : الكتف .
(٢) جراب زاده : كيس طعامه . (٤) القصعة : وعاءٌ يؤكل فيه . (٥) وعثاءُ السّفر : آثار مشقّة السّفر .

وَمَعِي قَصْعَتِي آكُلُ فِيهَا وَأَغْسِلُ عَلَيْهَا رَأْسِي وَثِيَابِي ...

وَمَعِي قِرْبَةٌ لِوُضُوئِي وَشَرَابِي ...

ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - تَبَعٌ لِمَتَاعِي هَٰذَا ، وَفَضْلَةٌ لَا حَاجَةَ لِي وَلَا لِأَحَدٍ غَيْرِي فِيهَا .

فَقَالَ عُمَرُ : وَهَلْ جِئْتَ مَاشِيًا ؟! .

قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ عُمَرُ : أَمَا أُعْطِيتَ مِنَ الْإِمَارَةِ دَابَّةً تَرْكَبُهَا ؟! .

فَقَالَ : هُمْ لَمْ يُعْطُونِي ، وَأَنَا لَمْ أَطْلُبْ مِنْهُمْ .

فَقَالَ عُمَرُ : وَأَيْنَ مَا أَتَيْتَ بِهِ لِبَيْتِ الْمَالِ ؟ .

فَقَالَ : لَمْ آتِ بِشَيْءٍ .

فَقَالَ عُمَرُ : وَلِمَ ؟! .

فَقَالَ : لَمَّا وَصَلْتُ إِلَىٰ « حِمْصَ » ؛ جَمَعْتُ صُلَحَاءَ أَهْلِهَا ، وَوَلَّيْتُهُمْ جَمْعَ فَيْئِهِمْ ، فَكَانُوا كُلَّمَا جَمَعُوا شَيْئًا مِنْهُ ؛ اسْتَشَرْتُهُمْ فِي أَمْرِهِ وَوَضَعْتُهُ فِي مَوَاضِعِهِ ، وَأَنْفَقْتُهُ عَلَىٰ الْمُسْتَحِقِّينَ مِنْهُمْ .

فَقَالَ عُمَرُ لِكَاتِبِهِ : جَدِّدْ عَهْدًا لِعُمَيْرٍ عَلَىٰ وِلَايَةِ « حِمْصَ » .

فَقَالَ عُمَيْرٌ : هَيْهَاتَ[1]... فَإِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ لَا أُرِيدُهُ ، وَلَنْ أَعْمَلَ لَكَ وَلَا لِأَحَدٍ بَعْدَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

ثُمَّ اسْتَأْذَنَهُ بِالذَّهَابِ إِلَىٰ قَرْيَةٍ فِي ضَوَاحِي الْمَدِينَةِ يُقِيمُ بِهَا أَهْلُهُ ، فَأَذِنَ لَهُ .

* * *

(١) هيهات : كلمة تقال عند استبعاد أمرٍ ما .

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ ذَهَابِ عُمَيْرٍ إِلَىٰ قَرْيَتِهِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّىٰ أَرَادَ عُمَرُ أَنْ يَخْتَبِرَ صَاحِبَهُ ، وَأَنْ يَسْتَوْثِقَ مِنْ أَمْرِهِ ؛ فَقَالَ لِوَاحِدٍ مِنْ ثِقَاتِهِ يُدْعَىٰ الْحَارِثَ :

انْطَلِقْ يَا حَارِثُ إِلَىٰ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ ، وَانْزِلْ بِهِ كَأَنَّكَ ضَيْفٌ ، فَإِنْ رَأَيْتَ عَلَيْهِ آثَارَ نِعْمَةٍ ؛ فَعُدْ كَمَا أَتَيْتَ .

وَإِنْ وَجَدْتَ حَالًا شَدِيدَةً فَأَعْطِهِ هَٰذِهِ الدَّنَانِيرَ ...

وَنَاوَلَهُ صُرَّةً فِيهَا مِائَةُ دِينَارٍ .

* * *

انْطَلَقَ الْحَارِثُ حَتَّىٰ بَلَغَ قَرْيَةَ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَدُلَّ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا لَقِيَهُ قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

فَقَالَ عُمَيْرٌ : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، مِنْ أَيْنَ قَدِمْتَ ؟ .

فَقَالَ : مِنَ الْمَدِينَةِ .

فَقَالَ عُمَيْرٌ : كَيْفَ تَرَكْتَ الْمُسْلِمِينَ ؟ .

فَقَالَ : بِخَيْرٍ .

فَقَالَ عُمَيْرٌ : كَيْفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ : صَحِيحٌ صَالِحٌ .

فَقَالَ عُمَيْرٌ : أَلَيْسَ يُقِيمُ الْحُدُودَ ؟! .

قَالَ : بَلَىٰ ، وَلَقَدْ ضَرَبَ ابْنًا لَهُ لِفَاحِشَةٍ أَتَاهَا .

فَقَالَ عُمَيْرٌ : اللَّهُمَّ أَعِنْ عُمَرَ ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا شَدِيدَ الْحُبِّ لَكَ

* * *

أَقَامَ الْحَارِثُ فِي ضِيَافَةِ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ ، فَكَانَ يُخْرِجُ لَهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ قُرْصًا مِنَ الشَّعِيرِ .

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ ؛ قَالَ لِلْحَارِثِ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ :

لَقَدْ أَجْهَدْتَ[١] عُمَيْرًا وَأَهْلَهُ ؛ فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا هَـٰذَا الْقُرْصُ الَّذِي يُؤْثِرُونَكَ[٢] بِهِ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ، وَقَدْ أَضَرَّ بِهِمُ الْجُوعُ وَالْجَهْدُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَحَوَّلَ عَنْهُمْ إِلَيَّ فَافْعَلْ ...

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ أَخْرَجَ الْحَارِثُ الدَّنَانِيرَ ، وَدَفَعَهَا إِلَىٰ عُمَيْرٍ .

فَقَالَ عُمَيْرٌ : مَا هَـٰذِهِ ؟!! .

فَقَالَ الْحَارِثُ : بَعَثَ بِهَا إِلَيْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : رُدَّهَا إِلَيْهِ ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، وَقُلْ لَهُ : لَا حَاجَةَ لِعُمَيْرٍ بِهَا .

فَصَاحَتْ امْرَأَتُهُ ـ وَكَانَتْ تَسْمَعُ مَا يَدُورُ بَيْنَ زَوْجِهَا وَضَيْفِهِ ـ وَقَالَتْ :

خُذْهَا ـ يَا عُمَيْرُ ـ فَإِنِ احْتَجْتَ إِلَيْهَا أَنْفَقْتَهَا ، وَإِلَّا وَضَعْتَهَا فِي مَوَاضِعِهَا[٣] ، فَالْمُحْتَاجُونَ هُنَا كَثِيرٌ .

فَلَمَّا سَمِعَ الْحَارِثُ قَوْلَهَا ؛ أَلْقَىٰ الدَّنَانِيرَ بَيْنَ يَدَيْ عُمَيْرٍ وَانْصَرَفَ ، فَأَخَذَهَا عُمَيْرٌ وَجَعَلَهَا فِي صُرَرٍ صَغِيرَةٍ وَلَمْ يَبِتْ لَيْلَتَهُ تِلْكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَزَّعَهَا بَيْنَ ذَوِي الْحَاجَاتِ ، وَخَصَّ مِنْهُمْ أَبْنَاءَ الشُّهَدَاءِ .

* * *

عَادَ الْحَارِثُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : مَا رَأَيْتَ يَا حَارِثُ ؟ .

(١) أجهدتَ عُمَيْرًا : عنيته ، وألحقت به الضرر.
(٢) يؤثرونك : يفضلونك.
(٣) وضعتها في مواضعها : أنفقتها في طريقها.

فَقَالَ : حَالًا شَدِيدَةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ عُمَرُ : أَدَفَعْتَ إِلَيْهِ الدَّنَانِيرَ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ عُمَرُ : وَمَا صَنَعَ بِهَا ؟! .

فَقَالَ : لَا أَدْرِي ، وَمَا أَظُنُّهُ يُبْقِي لِنَفْسِهِ مِنْهَا دِرْهَمًا وَاحِدًا .

فَكَتَبَ الْفَارُوقُ إِلَىٰ عُمَيْرٍ يَقُولُ : إِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَٰذَا فَلَا تَضَعْهُ مِنْ يَدِكَ حَتَّىٰ تُقْبِلَ عَلَيَّ .

* * *

تَوَجَّهَ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، وَدَخَلَ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَحَيَّاهُ عُمَرُ وَرَحَّبَ بِهِ وَأَدْنَىٰ مَجْلِسَهُ[1] ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَا صَنَعْتَ بِالدَّنَانِيرِ يَا عُمَيْرُ ؟! .

فَقَالَ : وَمَا عَلَيْكَ مِنْهَا يَا عُمَرُ بَعْدَ أَنْ خَرَجْتَ لِي عَنْهَا ؟!!! .

فَقَالَ : عَزَمْتُ عَلَيْكَ أَنْ تُخْبِرَنِي بِمَا صَنَعْتَ بِهَا .

فَقَالَ : ادَّخَرْتُهَا لِنَفْسِي لِأَنْتَفِعَ بِهَا فِي يَوْمٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ...

فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ ، وَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّكَ مِنَ الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَتْ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[2]... ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِوَسْقٍ[3] مِنْ طَعَامٍ وَثَوْبَيْنِ .

فَقَالَ عُمَيْرٌ : أَمَّا الطَّعَامُ فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدْ تَرَكْتُ عِنْدَ أَهْلِي صَاعَيْنِ مِنْ شَعِيرٍ ، وَإِلَىٰ أَنْ نَأْكُلَهُمَا يَكُونُ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قَدْ جَاءَنَا بِالرِّزْقِ ...

---

(١) أدنىٰ مجلسه : قرّبه إليه دلالةً علىٰ الإكرام .

(٢) الخصاصة : الحاجة .

(٣) الوسق : ستون صاعًا ، وهي تقدر بحمل بعير .

وَأَمَّا الثَّوْبَانِ فَآخُذُهُمَا لِأُمِّ فُلَانٍ [يَعْنِي زَوْجَتَهُ] ، فَقَدْ بَلِيَ ثَوْبُهَا وَكَادَتْ تَعْرَىٰ .

* * *

لَمْ يَمْضِ طَوِيلُ وَقْتٍ عَلَىٰ ذَلِكَ اللِّقَاءِ بَيْنَ الْفَارُوقِ وَصَاحِبِهِ حَتَّىٰ أَذِنَ اللَّهُ لِعُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ بِأَنْ يَلْحَقَ بِنَبِيِّهِ وَقُرَّةِ عَيْنِهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ طَالَتْ أَشْوَاقُهُ إِلَىٰ لِقَائِهِ .

فَمَضَىٰ عُمَيْرٌ فِي طَرِيقِ الْآخِرَةِ وَادِعَ النَّفْسِ ، وَاثِقَ الْخَطْوِ ، لَا يُثْقِلُ كَاهِلَهُ شَيْءٌ مِنْ أَحْمَالِ الدُّنْيَا ، وَلَا يَؤُودُ[1] ظَهْرَهُ عِبْءٌ مِنْ أَثْقَالِهَا ...

مَضَىٰ لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا نُورُهُ وَهُدَاهُ ، وَوَرَعُهُ وَتُقَاهُ ...

فَلَمَّا بَلَغَ الْفَارُوقَ نَعْيُهُ ، وَشَّحَ الْحُزْنُ وَجْهَهُ ، وَاعْتَصَرَ الْأَسَىٰ فُؤَادَهُ وَقَالَ :

« وَدِدْتُ أَنَّ لِي رِجَالًا مِثْلَ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ أَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ » .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ وَأَرْضَاهُ ...

فَقَدْ كَانَ نَمَطًا فَرِيدًا بَيْنَ الرِّجَالِ ...

وَتِلْمِيذًا مُتَفَوِّقًا فِي مَدْرَسَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ... (*) .

---

(١) يؤود ظهره : يثقل ظهره ويتعبه .

(*) للاستزادة من أخبار عُمَيْر بْن سَعْد انظر :
١ – الإصابة : ٣٢/٣ أو « الترجمة » : ٦٠٣٦.
٢ – الاستيعاب « على هامش الإصابة » : ٢/ ٤٨٦.
٣ – أسد الغابة : ١/ ٢٩٣.
٤ – سير أعلام النبلاء : ٨٦/١ وما بعدها.
٥ – حياة الصحابة : « انظر الفهارس في الجزء الرابع » .
٦ – قادة فتح العراق والجزيرة : ٥١٣ وما بعدها .
٧ – الأعلام : ٥/ ٢٦٤.

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ

« بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَعْطَيْتَ ،
وَبَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ »

[مِنْ دُعَاءِ الرَّسُولِ ﷺ لَهُ]

هُوَ أَحَدُ الثَّمَانِيَةِ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ ...

وَأَحَدُ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ ...

وَأَحَدُ السِّتَّةِ أَصْحَابِ الشُّورَىٰ يَوْمَ اخْتِيَارِ الْخَلِيفَةِ بَعْدَ الْفَارُوقِ ...

وَأَحَدُ النَّفَرِ الَّذِينَ كَانُوا يُفْتُونَ فِي الْمَدِينَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ حَيٌّ قَائِمٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيِ الْمُسْلِمِينَ ...

كَانَ اسْمُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَبْدَ عَمْرٍو ، فَلَمَّا أَسْلَمَ دَعَاهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ .

ذَٰلِكُمْ هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

* * *

أَسْلَمَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ عَوْفٍ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ دَارَ « الْأَرْقَمِ »[1] وَذَلِكَ بَعْدَ إِسْلَامِ الصِّدِّيقِ بِيَوْمَيْنِ اثْنَيْنِ .

وَلَقِيَ مِنَ الْعَذَابِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَهُ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُونَ فَصَبَرَ وَصَبَرُوا ، وَثَبَتَ وَثَبَتُوا ، وَصَدَقَ وَصَدَقُوا ، وَفَرَّ بِدِينِهِ إِلَىٰ « الْحَبَشَةِ » كَمَا فَرَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِدِينِهِ .

---

(١) دار الأرقم : دار في مكة كان الرسول ﷺ يدعو فيها إلى الإسلام ، وهي للأرقم بن عبد مناف المخزومي ، وكانت تُسمّى « دار الإسلام » .

وَلَمَّا أُذِنَ لِلرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ كَانَ فِي طَلِيعَةِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ .

وَلَمَّا أَخَذَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُؤَاخِي بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ آخَىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ سَعْدٌ لِأَخِيهِ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْفٍ : أَيْ أُخَيَّ ... أَنَا أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَالًا ، وَعِنْدِي بُسْتَانَانِ ، وَلِي امْرَأَتَانِ ؛ فَانْظُرْ أَيَّ بُسْتَانَيَّ أَحَبُّ إِلَيْكَ حَتَّىٰ أَخْرُجَ لَكَ عَنْهُ ، وَأَيَّ امْرَأَتَيَّ أَرْضَىٰ عِنْدَكَ حَتَّىٰ أُطَلِّقَهَا لَكَ .

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ لِأَخِيهِ الْأَنْصَارِيِّ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ...

وَلَكِنْ دُلَّنِي عَلَىٰ السُّوقِ ...

فَدَلَّهُ عَلَيْهِ فَجَعَلَ يَتَّجِرُ ، وَطَفِقَ يَشْتَرِي وَيَبِيعُ ، وَيَرْبَحُ وَيَدَّخِرُ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ اجْتَمَعَ لَدَيْهِ مَهْرُ امْرَأَةٍ فَتَزَوَّجَ ، وَجَاءَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَعَلَيْهِ طِيبٌ ...

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : (مَهْيَمْ[2] يَا عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ) .

فَقَالَ : تَزَوَّجْتُ ...

فَقَالَ : (وَمَا أَعْطَيْتَ زَوْجَتَكَ مِنَ الْمَهْرِ ؟!) .

قَالَ : وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ ...

قَالَ ﷺ : (أَوْلِمْ[3]، وَلَوْ بِشَاةٍ ، بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي مَالِكَ) ...

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ : فَأَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ حَتَّىٰ رَأَيْتُنِي لَوْ رَفَعْتُ حَجَرًا

(١) هو سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ بن عمرو بن أبي زهير بن مالك الأَنْصاري الخزرجي صحابي جليل ، أحدُ النقباء ، استشهد في يوم أُحد .

(٢) مَهْيَمْ : كلمةٌ يمانيةٌ تُفيدُ الاستفسار والتَّعجُّب . (٣) أولم : اصنع وليمة .

لَتَوَقَّعْتُ أَنْ أَجِدَ تَحْتَهُ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً .

* * *

وَفِي يَوْمِ « بَدْرٍ » جَاهَدَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ عَوْفٍ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ فَأَرْدَىٰ(١) عَدُوَّ اللَّهِ عُمَيْرَ بْنَ عُثْمَانَ بْنِ كَعْبٍ التَّيْمِيَّ .

وَفِي يَوْمِ « أُحُدٍ » ثَبَتَ حِينَ زُلْزِلَتِ الْأَقْدَامُ ، وَصَمَدَ حِينَ فَرَّ الْمُنْهَزِمُونَ ، وَخَرَجَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ وَفِيهِ بِضْعَةٌ(٢) وَعِشْرُونَ جُرْحًا ، بَعْضُهَا عَمِيقٌ تَدْخُلُ فِيهِ يَدُ الرَّجُلِ .

وَلَكِنَّ جِهَادَ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْفٍ بِنَفْسِهِ أَصْبَحَ يُعَدُّ قَلِيلًا إِذَا قِيسَ بِجِهَادِهِ بِمَالِهِ ... فَهَا هُوَ ذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يُرِيدُ أَنْ يُجَهِّزَ سَرِيَّةً ، فَوَقَفَ فِي أَصْحَابِهِ وَقَالَ : (تَصَدَّقُوا فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَ بَعْثًا) .

فَبَادَرَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ عَوْفٍ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ وَعَادَ مُسْرِعًا وَقَالَ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ عِنْدِي أَرْبَعَةُ آلَافٍ :

أَلْفَانِ مِنْهَا أَقْرَضْتُهُمَا رَبِّي ، وَأَلْفَانِ تَرَكْتُهُمَا لِعِيَالِي .

فَقَالَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ :

(بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَعْطَيْتَ ...

وَبَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ ...)

* * *

وَلَمَّا عَزَمَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ غَزْوَةِ « تَبُوكَ »(٣) - وَهِيَ آخِرُ

---

(١) أردىٰ : قتل .
(٢) بضعة وعشرون جرحًا : البضع ما بين الثلاث إلىٰ التسع ، وهو يؤنث مع المذكر ويذكر مع المؤنث .
(٣) تبوك : مدينة علىٰ حدود الشام من جهة الجزيرة العربية كانت بأيدي الروم ، وهي الآن في المملكة العربية السعودية .

غَزْوَةٍ غَزَاهَا فِي حَيَاتِهِ ـ كَانَتِ الْحَاجَةُ إِلَىٰ الْمَالِ لَا تَقِلُّ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الرِّجَالِ ؛ فَجَيْشُ « الرُّومِ » وَافِرُ الْعَدَدِ كَثِيرُ الْعُدَدِ ، وَالْعَامُ فِي الْمَدِينَةِ عَامُ جَدْبٍ ، وَالسَّفَرُ طَوِيلٌ ، وَالْمَؤُونَةُ قَلِيلَةٌ ، وَالرَّوَاحِلُ أَقَلُّ حَتَّىٰ إِنَّ نَفَرًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ جَاؤُوا إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ فِي حُرْقَةٍ أَنْ يَأْخُذَهُمْ مَعَهُ فَرَدَّهُمْ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ ، فَتَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ . فَسُمُّوا بِالْبَكَّائِينَ ، وَأُطْلِقَ عَلَىٰ الْجَيْشِ اسْمُ « جَيْشِ الْعُسْرَةِ » .

عِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَصْحَابَهُ بِالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاحْتِسَابِ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ، فَهَبَّ الْمُسْلِمُونَ يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْمُتَصَدِّقِينَ عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ بْنُ عَوْفٍ ؛ فَقَدْ تَصَدَّقَ بِمِائَتَيْ أُوقِيَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

إِنِّي لَا أَرَىٰ عَبْدَ الرَّحْمَـٰنِ إِلَّا مُرْتَكِبًا إِثْمًا ؛ فَمَا تَرَكَ لِأَهْلِهِ شَيْئًا ...

فَقَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(هَلْ تَرَكْتَ لِأَهْلِكَ شَيْئًا يَا عَبْدَ الرَّحْمَـٰنِ ؟) .

فَقَالَ : نَعَمْ ... تَرَكْتُ لَهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا أَنْفَقْتُ وَأَطْيَبَ .

قَالَ ﷺ : (كَمْ ؟!) .

قَالَ : مَا وَعَدَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الرِّزْقِ وَالْخَيْرِ وَالْأَجْرِ .

* * *

وَمَضَىٰ الْجَيْشُ إِلَىٰ « تَبُوكَ » ... وَهُنَاكَ أَكْرَمَ اللَّهُ عَبْدَ الرَّحْمَـٰنِ بْنَ عَوْفٍ بِمَا لَمْ يُكْرِمْ بِهِ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَدْ دَخَلَ وَقْتُ الصَّلَاةِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ غَائِبٌ ؛ فَأَمَّ الْمُسْلِمِينَ عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَمَا كَادَتْ تَتِمُّ الرَّكْعَةُ الْأُولَىٰ حَتَّىٰ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمُصَلِّينَ ، وَاقْتَدَىٰ بِعَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ عَوْفٍ وَصَلَّىٰ خَلْفَهُ ...

فَهَلْ هُنَالِكَ أَكْرَمُ كَرَامَةً وَأَفْضَلُ فَضْلًا مِنْ أَنْ يَغْدُوَ أَحَدٌ إِمَامًا لِسَيِّدِ الْخَلْقِ ، وَإِمَامِ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؟!! .

* * *

وَلَمَّا لَحِقَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ(١) جَعَلَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ عَوْفٍ يَقُومُ بِمَصَالِحِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَكَانَ يَنْهَضُ بِحَاجَاتِهِنَّ ... فَيَخْرُجُ مَعَهُنَّ إِذَا خَرَجْنَ ، وَيَحُجُّ مَعَهُنَّ إِذَا حَجَجْنَ وَيَجْعَلُ عَلَىٰ هَوَادِجِهِنَّ(٢) الطَّيَالِسَةَ(٣)، وَيَنْزِلُ بِهِنَّ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي تَسُرُّهُنَّ ، وَتِلْكَ مَنْقَبَةٌ(٤) مِنْ مَنَاقِبِ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْفٍ ، وَثِقَةٌ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَعْتَزَّ بِهَا وَيَفْخَرَ .

* * *

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ بِرِّ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْفٍ بِالْمُسْلِمِينَ وَأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ بَاعَ أَرْضًا لَهُ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ؛ فَقَسَمَهَا كُلَّهَا فِي بَنِي « زُهْرَةَ »(٥) وَفُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ، وَأَزْوَاجِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَلَمَّا بَعَثَ إِلَىٰ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا بِمَا خَصَّهَا مِنْ ذَٰلِكَ الْمَالِ ؛ قَالَتْ :

مَنْ بَعَثَ هَٰذَا الْمَالَ ؟ . فَقِيلَ : عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بْنُ عَوْفٍ .

فَقَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

(لَا يَحْنُو عَلَيْكُنَّ مِنْ بَعْدِي إِلَّا الصَّابِرُونَ) .

* * *

وَقَدِ اسْتُجِيبَتْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَبُورِكَ لِعَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْفٍ فِي مَالِهِ ، فَقَدْ أَخَذَتْ تِجَارَتُهُ تَنْمُو وَتَزْدَادُ ، وَطَفِقَتْ عِيرُهُ(٦) تَتَرَدَّدُ ذَاهِبَةً

---

(١) لحق بالرفيق الأعلىٰ : كناية عن الموت ، أي ولما توفي .
(٢) الهوادج : جمع هودج ، وهو محمل له قبة يوضع علىٰ ظهر البعير لتركب فيه النساء .
(٣) الطيالسة : أكسية خضر يستعملها الخواص .
(٤) المنقبة : المفخرة والفعل الكريم .
(٥) بنو زُهْرَة : قوم آمنة بنت وهب أم الرسول ﷺ .
(٦) العير : القافلة .

مِنَ الْمَدِينَةِ أَوْ آيِبَةً(١) إِلَيْهَا تَحْمِلُ لِأَهْلِهَا الْبُرَّ(٢)، وَالدَّقِيقَ، وَالدُّهْنَ، وَالثِّيَابَ وَالْآنِيَةَ، وَالطِّيبَ، وَكُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ...

وَتَنْقُلُ مَا يَفْضُلُ عَنْ حَاجَتِهِمْ مِمَّا يُنْتِجُونَهُ.

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ قَدِمَتْ عِيرُ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ عَوْفٍ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ. وَكَانَتْ مُؤَلَّفَةً مِنْ سَبْعِمِائَةِ رَاحِلَةٍ ... نَعَمْ سَبْعِمِائَةِ رَاحِلَةٍ ... وَهِيَ تَحْمِلُ عَلَىٰ ظُهُورِهَا الْمِيرَةَ(٣)، وَالْمَتَاعَ، وَكُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ.

فَمَا إِنْ دَخَلَتِ الْمَدِينَةَ حَتَّىٰ رُجَّتِ الْأَرْضُ بِهَا رَجًّا، وَسُمِعَ لَهَا دَوِيٌّ وَضَجَّةٌ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا: مَا هَـٰذِهِ الرَّجَّةُ؟ فَقِيلَ لَهَا: عِيرٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ عَوْفٍ ... سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ تَحْمِلُ الْبُرَّ، وَالدَّقِيقَ، وَالطَّعَامَ.

فَقَالَتْ عَائِشَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا:

بَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيمَا أَعْطَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَثَوَابُ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ.

* * *

وَقَبْلَ أَنْ تَبْرُكَ النُّوقُ، كَانَ الْخَبَرُ قَدْ نُقِلَ إِلَىٰ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ عَوْفٍ، فَمَا إِنْ لَامَسَتْ مَقَالَةُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ سَمْعَهُ حَتَّىٰ طَارَ مُسْرِعًا إِلَىٰ عَائِشَةَ وَقَالَ:

أُشْهِدُكِ يَا أُمَّهْ أَنَّ هَـٰذِهِ الْعِيرَ جَمِيعَهَا بِأَحْمَالِهَا وَأَقْتَابِهَا(٤) وَأَحْلَاسِهَا(٥) فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

* * *

بَقِيَتْ دَعْوَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ عَوْفٍ بِأَنْ يُبَارِكَ اللَّهُ لَهُ تُظَلِّلُهُ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ، حَتَّىٰ غَدَا أَغْنَىٰ الصَّحَابَةِ غِنًى وَأَكْثَرَهُمْ

---

(١) آيبة: عائدة.
(٢) الْبُرّ: الْقمح.
(٣) الْمِيرَة: الطعام.
(٤) الْأقتاب: الرِّحال الَّتي توضع علَىٰ ظهور الْجمال.
(٥) الأحلاس: كُلُّ ما يوضعُ علىٰ ظهر الدّابّة تحت الرِّحال والسروج.

ثَرَاءً ... لَكِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ بْنَ عَوْفٍ جَعَلَ ذَٰلِكَ الْمَالَ كُلَّهُ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ وَمَرْضَاةِ رَسُولِهِ ﷺ ، فَكَانَ يُنْفِقُهُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينًا وَشِمَالًا ، وَسِرًّا وَ إِعْلَانًا ...

حَيْثُ تَصَدَّقَ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مِنَ الْفِضَّةِ ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ذَهَبًا ... ثُمَّ تَصَدَّقَ بِمِائَتَي أُوقِيَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ ...

ثُمَّ حَمَلَ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَىٰ خَمْسِمِائَةِ فَرَسٍ ، ثُمَّ حَمَلَ مُجَاهِدِينَ آخَرِينَ عَلَىٰ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ رَاحِلَةٍ .

وَلَمَّا حَضَرَتْ عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ بْنَ عَوْفٍ الْوَفَاةُ أَعْتَقَ خَلْقًا كَثِيرًا مِنْ مَمَالِيكِهِ .

وَأَوْصَىٰ لِكُلِّ رَجُلٍ بَقِيَ مِنْ أَهْلِ « بَدْرٍ » بِأَرْبَعِمِائَةِ دِينَارٍ ذَهَبًا ، فَأَخَذُوهَا جَمِيعًا ، وَكَانَ عَدَدُهُمْ مِائَةً .

وَأَوْصَىٰ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَالٍ جَزِيلٍ ؛ حَتَّىٰ إِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا - كَثِيرًا مَا كَانَتْ تَدْعُو لَهُ فَتَقُولُ :

سَقَاهُ اللَّهُ مِنْ مَاءِ السَّلْسَبِيلِ[1] .

ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ ذَٰلِكَ كُلِّهِ خَلَّفَ لِوَرَثَتِهِ مَالًا لَا يَكَادُ يُحْصِيهِ الْعَدُّ ...

حَيْثُ تَرَكَ أَلْفَ بَعِيرٍ ، وَمِائَةَ فَرَسٍ ، وَثَلَاثَةَ آلَافِ شَاةٍ ، وَكَانَتْ نِسَاؤُهُ أَرْبَعًا فَبَلَغَ رُبُعُ الثُّمُنِ الَّذِي خَصَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ثَمَانِينَ أَلْفًا .

وَتَرَكَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مَا قُسِّمَ بَيْنَ وَرَثَتِهِ بِالْفُؤُوسِ حَتَّىٰ تَأَثَّرَتْ أَيْدِي الرِّجَالِ مِنْ تَقْطِيعِهِ .

كُلُّ ذَٰلِكَ بِفَضْلِ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنْ يُبَارَكَ لَهُ فِي مَالِهِ .

* * *

(١) السلسبيل : عينٌ في الجنّة .

لَكِنَّ ذَلِكَ الْمَالَ كُلَّهُ لَمْ يَفْتِنْ عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ بْنَ عَوْفٍ ، وَلَمْ يُغَيِّرْهُ ؛ فَكَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْهُ بَيْنَ مَمَالِيكِهِ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ .

وَقَدْ أُتِيَ ذَاتَ يَوْمٍ بِطَعَامٍ - وَهُوَ صَائِمٌ - فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

لَقَدْ قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ - وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي - فَمَا وَجَدْنَا لَهُ إِلَّا كَفَنًا إِنْ غَطَّىٰ رَأْسَهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ ، وَإِنْ غَطَّىٰ رِجْلَيْهِ بَدَا رَأْسُهُ .

ثُمَّ بَسَطَ اللَّهُ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بَسَطَ ...

وَإِنِّي لَأَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ ثَوَابُنَا قَدْ عُجِّلَ لَنَا ...

ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي وَيَنْشِجُ حَتَّىٰ عَافَ الطَّعَامَ .

* * *

طُوبَىٰ[1] لِعَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْفٍ وَأَلْفُ غِبْطَةٍ ...

فَقَدْ بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ .

وَحَمَلَ جِنَازَتَهُ إِلَىٰ مَثْوَاهُ الْأَخِيرِ خَالُ رَسُولِ اللَّهِ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ .

وَصَلَّىٰ عَلَيْهِ ذُو النُّورَيْنِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ[2].

وَشَيَّعَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُكَرَّمُ الْوَجْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَهُوَ يَقُولُ : اذْهَبْ فَقَدْ أَدْرَكْتَ صَفْوَهَا ، وَسَبَقْتَ زَيْفَهَا يَرْحَمُكَ اللَّهُ (*) .

---

(١) الطُّوبىٰ : الخير والسعادة ، وطوبىٰ لفلان : الخير والسعادة له .

(٢) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ : انظره ص ٥٣٥.

(*) للاستزادة من أخبار عبد الرحمٰن بن عوف انظر :

١ - صفة الصفوة : ١/ ١٣٥.
٢ - السيرة النبوية لابن هشام : «انظر الفهارس».
٣ - تاريخ الخميس : ٢/ ٢٥٧.
٤ - البدء والتاريخ : ٥/ ٨٦.
٥ - الرياض النضرة : ٢/ ٢٨١.
٦ - الجمع بين رجال الصحيحين : ٢٨١.
٧ - الإصابة : ٢/ ٤١٦ أو «الترجمة» ٥١٧٩.
٨ - حلية الأولياء : ١/ ٩٨.
٩ - حياة الصحابة : «انظر الفهارس».
١٠- البداية والنهاية : ٧/ ١٦٣.
١١- الطبقات الكبرىٰ : ٢/ ٣٤٠.
١٢- تهذيب التهذيب : ٦/ ٢٤٢.
١٣- الاستيعاب «بهامش الإصابة» : ٢/ ٣٩٣.

جعفر بن أبي طالب

«لَقَدْ رَأَيْتُ جَعْفَرًا فِي الْجَنَّةِ
لَهُ جَنَاحَانِ مُضَرَّجَانِ بِالدِّمَاءِ وَهُوَ مَصْبُوغُ الْقَوَادِمِ»
[حديثٌ شريفٌ]

كَانَ فِي بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ[١] خَمْسَةُ رِجَالٍ يُشْبِهُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ الشَّبَهِ حَتَّى إِنَّ ضِعَافَ الْبَصَرِ كَثِيرًا مَا كَانُوا يَخْلِطُونَ بَيْنَ النَّبِيِّ وَبَيْنَهُمْ.

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّكَ تَوَدُّ أَنْ تَعْرِفَ هَؤُلَاءِ الْخَمْسَةَ الَّذِينَ يُشْبِهُونَ نَبِيَّكَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ.

فَتَعَالَ نَتَعَرَّفْ عَلَيْهِمْ.

إِنَّهُمْ: أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ[٢]، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَخُوهُ مِنَ الرَّضَاعِ.

وَقُثَمُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ أَيْضًا.

وَالسَّائِبُ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ عَبْدِ يَزِيدَ بْنِ هَاشِمٍ جَدُّ الْإِمَامِ الشَّافِعِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ سِبْطُ[٣] رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَشَدَّ الْخَمْسَةِ شَبَهًا بِالنَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَهُوَ أَخُو أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

---

(١) عبد مناف: من أجداد الرسول ﷺ، وبنوه هم العشيرة الأقربون للنبي الكريم.
(٢) أبو سفيان بن الحارث: انظره ص ٢٧١.
(٣) سبط الرجل: ابن بنته... وحفيده: ابن ابنه.

فَتَعَالَ نَقُصَّ عَلَيْكَ صُوَرًا مِنْ حَيَاةِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ...

* * *

كَانَ أَبُو طَالِبٍ ـ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ سُمُوِّ شَرَفِهِ فِي قُرَيْشٍ، وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ فِي قَوْمِهِ ـ رَقِيقَ الْحَالِ كَثِيرَ الْعِيَالِ.

وَقَدِ ازْدَادَتْ حَالُهُ سُوءًا عَلَىٰ سُوءٍ بِسَبَبِ تِلْكَ السَّنَةِ الْمُجْدِبَةِ[1] الَّتِي نَزَلَتْ بِقُرَيْشٍ فَأَهْلَكَتِ الزَّرْعَ وَالضَّرْعَ[2]، وَحَمَلَتِ النَّاسَ عَلَىٰ أَنْ يَأْكُلُوا الْعِظَامَ الْبَالِيَةَ.

وَلَمْ يَكُنْ فِي بَنِي «هَاشِمٍ» ـ يَوْمَئِذٍ ـ أَيْسَرُ[3] مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَمِنْ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ.

فَقَالَ مُحَمَّدٌ لِلْعَبَّاسِ: يَا عَمُّ، إِنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ الْعِيَالِ، وَقَدْ أَصَابَ النَّاسَ مَا تَرَىٰ مِنْ شِدَّةِ الْقَحْطِ[4] وَمَضَضِ[5] الْجُوعِ، فَانْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِ حَتَّىٰ نَحْمِلَ عَنْهُ بَعْضَ عِيَالِهِ؛ فَآخُذَ أَنَا فَتًى مِنْ بَنِيهِ، وَتَأْخُذَ أَنْتَ فَتًى آخَرَ فَنَكْفِيَهُمَا عَنْهُ.

فَقَالَ الْعَبَّاسُ: لَقَدْ دَعَوْتَ إِلَىٰ خَيْرٍ، وَحَضَضْتَ عَلَىٰ بِرٍّ.

ثُمَّ انْطَلَقَا حَتَّىٰ أَتَيَا أَبَا طَالِبٍ، فَقَالَا لَهُ: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نُخَفِّفَ عَنْكَ بَعْضَ مَا تَحْمِلُهُ مِنْ عِبْءِ عِيَالِكَ حَتَّىٰ يَنْكَشِفَ هَٰذَا الضُّرُّ الَّذِي مَسَّ النَّاسَ.

فَقَالَ لَهُمَا: إِذَا تَرَكْتُمَا لِي «عَقِيلًا»[6] فَاصْنَعَا مَا شِئْتُمَا ...

فَأَخَذَ مُحَمَّدٌ عَلِيًّا وَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَأَخَذَ الْعَبَّاسُ جَعْفَرًا وَجَعَلَهُ فِي عِيَالِهِ.

(١) السَّنة المجدبة: التي انقطع مطرها.
(٢) الضَّرع: كناية عن الماشية.
(٣) أيسر: أغنى.
(٤) القحط: الجدب واحتباس المطر.
(٥) مَضَض الجوع: ألمه.
(٦) عقيل: هو عقيل بن أبي طالب أخو علي وهو أكبر منه.

فَلَمْ يَزَلْ عَلِيٌّ مَعَ مُحَمَّدٍ حَتَّىٰ بَعَثَهُ اللَّهُ بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ مِنَ الْفِتْيَانِ.

وَظَلَّ جَعْفَرٌ مَعَ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ حَتَّىٰ شَبَّ وَأَسْلَمَ وَاسْتَغْنَىٰ عَنْهُ.

* * *

انْضَمَّ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَىٰ رَكْبِ النُّورِ هُوَ وَزَوْجُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ مُنْذُ أَوَّلِ الطَّرِيقِ.

فَقَدْ أَسْلَمَا عَلَىٰ يَدَيِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الرَّسُولُ ﷺ دَارَ الْأَرْقَمِ[1].

وَلَقِيَ الْفَتَىٰ «الْهَاشِمِيُّ» وَزَوْجُهُ الشَّابَّةُ مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ وَنَكَالِهَا مَا لَقِيَهُ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُونَ، فَصَبَرَا عَلَىٰ الْأَذَىٰ لِأَنَّهُمَا كَانَا يَعْلَمَانِ أَنَّ طَرِيقَ الْجَنَّةِ مَفْرُوشٌ بِالْأَشْوَاكِ مَحْفُوفٌ بِالْمَكَارِهِ[2] وَلَكِنَّ الَّذِي كَانَ يُنَغِّصُهُمَا[3] وَيُنَغِّصُ إِخْوَتَهُمَا فِي اللَّهِ أَنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ تَحُولُ دُونَهُمْ وَدُونَ أَدَاءِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، وَتَحْرِمُهُمْ مِنْ أَنْ يَتَذَوَّقُوا لَذَّةَ الْعِبَادَةِ؛ فَقَدْ كَانَتْ تَقِفُ لَهُمْ فِي كُلِّ مَرْصَدٍ[4]، وَتُحْصِي عَلَيْهِمُ الْأَنْفَاسَ.

عِنْدَ ذَلِكَ اسْتَأْذَنَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِأَنْ يُهَاجِرَ مَعَ زَوْجِهِ وَنَفَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ إِلَىٰ «الْحَبَشَةِ»، فَأَذِنَ لَهُمْ وَهُوَ أَسْوَانٌ[5] حَزِينٌ.

فَقَدْ كَانَ يَعِزُّ عَلَيْهِ أَنْ يُرْغَمَ هَؤُلَاءِ الْأَطْهَارُ الْأَبْرَارُ عَلَىٰ مُفَارَقَةِ دِيَارِهِمْ،

(١) دار الأرقم: دار بمكة تسمّىٰ «دار الإسلام» كانت للأرقم بن عبد مناف المخزومي، وفيها كان الرسول ﷺ يدعو النّاس إلىٰ الإسلام، وقد مرّ ذكرها.

(٢) محفوف بالمكاره: محاطٌ بالمصاعب والآلام.

(٣) ينغصهما: يكدرهما ويعكر صفوهما.

(٤) تقف لهم في كل مَرْصد: ترصُدُهم في كل جهة.

(٥) أسوان: محزون.

وَمُبَارَحَةِ[1] مَرَاتِعِ[2] طُفُولَتِهِمْ وَمَغَانِي[3] شَبَابِهِمْ دُونَ ذَنْبٍ جَنَوْهُ إِلَّا أَنَّهُمْ قَالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ .

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْحَوْلِ مَا يَدْفَعُ بِهِ عَنْهُمْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ .

* * *

مَضَىٰ رَكْبُ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَىٰ أَرْضِ « الْحَبَشَةِ » ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَاسْتَقَرُّوا فِي كَنَفِ « النَّجَاشِيِّ »[4] مَلِكِهَا الْعَادِلِ الصَّالِحِ .

فَتَذَوَّقُوا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ـ مُنْذُ أَسْلَمُوا ـ طَعْمَ الْأَمْنِ ، وَاسْتَمْتَعُوا بِحَلَاوَةِ الْعِبَادَةِ دُونَ أَنْ يُعَكِّرَ مُتْعَةَ عِبَادَتِهِمْ مُعَكِّرٌ ، أَوْ يُكَدِّرَ صَفْوَ سَعَادَتِهِمْ مُكَدِّرٌ .

لَكِنَّ قُرَيْشًا مَا كَادَتْ تَعْلَمُ بِرَحِيلِ هَٰذَا النَّفَرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ أَرْضِ « الْحَبَشَةِ » ، وَتَقِفُ عَلَىٰ مَا نَالُوهُ فِي حِمَىٰ مَلِيكِهَا مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ عَلَىٰ دِينِهِمْ ، وَالْأَمْنِ عَلَىٰ عَقِيدَتِهِمْ ، حَتَّىٰ هَبَّتْ تَأْتَمِرُ[5] بِهِمْ لِتَقْتُلَهُمْ أَوْ تَسْتَرْجِعَهُمْ إِلَىٰ السِّجْنِ الْكَبِيرِ .

فَلْنَتْرُكِ الْحَدِيثَ لِأُمِّ سَلَمَةَ[6] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِتَرْوِيَ لَنَا الْخَبَرَ كَمَا رَأَتْهُ عَيْنَاهَا وَسَمِعَتْهُ أُذُنَاهَا .

* * *

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ « الْحَبَشَةِ » لَقِينَا فِيهَا خَيْرَ جِوَارٍ ، فَأَمِنَّا عَلَىٰ دِينِنَا ، وَعَبَدْنَا

---

(١) مبارَحة : ترك .
(٢) مراتع طفولتهم : ديارهم التي رتعوا فيها ولعبوا وهم صغار .
(٣) مغاني شبابهم : ديارُهم التي قضوا فيها عهد الشّباب .
(٤) كنف النّجاشي : حِماه ورعايته ... انظره في كتاب « صور من حياة التّابعين » للمؤلف ، النّاشر دار الأدب الإسلامي .
(٥) تأتمر بهم : يأمُرُ بعضها بعضًا بقتلهم . (٦) أمّ سَلَمَة : انظرها في كتاب « صور من حياة الصّحابيات » للمؤلف .

اللَّهَ تَعَالَىٰ رَبَّنَا مِنْ غَيْرِ أَنْ نُؤْذَىٰ أَوْ نَسْمَعَ شَيْئًا نَكْرَهُهُ ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَٰلِكَ قُرَيْشًا ائْتَمَرَتْ بِنَا فَأَرْسَلَتْ إِلَىٰ « النَّجَاشِيِّ » رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ[1] مِنْ رِجَالِهَا ، هُمَا : عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ[2] وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَبَعَثَتْ مَعَهُمَا بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ لِلنَّجَاشِيِّ وَلِبَطَارِقَتِهِ[3] مِمَّا كَانُوا يَسْتَطْرِفُونَهُ[4] مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ . ثُمَّ أَوْصَتْهُمَا بِأَنْ يَدْفَعَا إِلَىٰ كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا مَلِكَ « الْحَبَشَةِ » فِي أَمْرِنَا .

* * *

فَلَمَّا قَدِمَا « الْحَبَشَةَ » لَقِيَا بَطَارِقَةَ النَّجَاشِيِّ ، وَدَفَعَا إِلَىٰ كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ ؛ فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَهْدَيَا إِلَيْهِ وَقَالَا لَهُ :

إِنَّهُ قَدْ حَلَّ فِي أَرْضِ الْمَلِكِ غِلْمَانٌ مِنْ سُفَهَائِنَا ، صَبَؤُوا[5] عَنْ دِينِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ ، وَفَرَّقُوا كَلِمَةَ قَوْمِهِمْ ؛ فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِي أَمْرِهِمْ فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا دُونَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ؛ فَإِنَّ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ أَبْصَرُ بِهِمْ ، وَأَعْلَمُ بِمَا يَعْتَقِدُونَ . فَقَالَ الْبَطَارِقَةُ : نَعَمْ ...

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ أَكْرَهُ لِعَمْرٍو وَصَاحِبِهِ مِنْ أَنْ يَسْتَدْعِيَ « النَّجَاشِيُّ » أَحَدًا مِنَّا وَيَسْمَعَ كَلَامَهُ .

* * *

ثُمَّ أَتَيَا « النَّجَاشِيَّ » وَقَدَّمَا إِلَيْهِ الْهَدَايَا ، فَاسْتَطْرَفَهَا وَأُعْجِبَ بِهَا ، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَا :

أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُ قَدْ أَوَىٰ إِلَىٰ مَمْلَكَتِكَ طَائِفَةٌ مِنْ أَشْرَارِ غِلْمَانِنَا ، قَدْ جَاؤُوا بِدِينٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ ؛ فَفَارَقُوا دِينَنَا وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ ...

---

(١) جلدين : قويين .
(٢) عَمْرُو بنُ العَاص : انظره ص ١٥٥.
(٣) البطارقة : جمع بطريق : وهو رَجُل الدّين عند النصارىٰ .
(٤) يستطرفونه : يستحسنونه ويعجبون به .
(٥) صبؤوا عن دينهم : ارتدوا عنه .

وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ، وَهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمَا أَحْدَثُوهُ مِنْ فِتْنَةٍ .

فَنَظَرَ « النَّجَاشِيُّ » إِلَىٰ بَطَارِقَتِهِ ، فَقَالَ الْبَطَارِقَةُ :

صَدَقَا ـ أَيُّهَا الْمَلِكُ ـ ... فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَبْصَرُ بِهِمْ وَأَعْلَمُ بِمَا صَنَعُوا ، فَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ لِيَرَوْا رَأْيَهُمْ فِيهِمْ . فَغَضِبَ الْمَلِكُ غَضَبًا شَدِيدًا مِنْ كَلَامِ بَطَارِقَتِه وَقَالَ :

لَا وَاللَّهِ ، لَا أُسْلِمُهُمْ لِأَحَدٍ حَتَّىٰ أَدْعُوَهُمْ ، وَأَسْأَلَهُمْ عَمَّا نُسِبَ إِلَيْهِمْ ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولُ هَـٰذَانِ الرَّجُلَانِ أَسْلَمْتُهُمْ لَهُمَا ، وَإِنْ كَانُوا عَلَىٰ غَيْرِ ذَٰلِكَ حَمَيْتُهُمْ وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي(١) .

* * *

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : ثُمَّ أَرْسَلَ « النَّجَاشِيُّ » يَدْعُونَا لِلِقَائِهِ .

فَاجْتَمَعْنَا قَبْلَ الذَّهَابِ إِلَيْهِ وَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ :

إِنَّ الْمَلِكَ سَيَسْأَلُكُمْ عَنْ دِينِكُمْ فَاصْدَعُوا(٢) بِمَا تُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَلْيَتَكَلَّمْ عَنْكُمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَلَا يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ غَيْرُهُ .

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : ثُمَّ ذَهَبْنَا إِلَىٰ « النَّجَاشِيِّ » فَوَجَدْنَاهُ قَدْ دَعَا بَطَارِقَتَهُ ، فَجَلَسُوا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ، وَقَدْ لَبِسُوا طَيَالِسَتَهُمْ(٣) ، وَاعْتَمَرُوا(٤) قَلَانِسَهُمْ ، وَنَشَرُوا كُتُبَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ...

وَوَجَدْنَا عِنْدَهُ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ .

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِنَا الْمَجْلِسُ الْتَفَتَ إِلَيْنَا « النَّجَاشِيُّ » وَقَالَ :

---

(١) ما جاوروني : ما داموا يرغبون في حمايتي .

(٢) فاصدعوا : فاجْهَروا .

(٣) طَيَالِسَتَهُم : الطَّيالسة جمع طيلسان وهو كساءٌ أخضرُ يلبسه الأشراف ورجال الدِّين .

(٤) اعتمروا قلانسهم : وضعوها على رؤوسهم .

مَا هَٰذَا الدِّينُ الَّذِي اسْتَحْدَثْتُمُوهُ لِأَنْفُسِكُمْ وَفَارَقْتُمْ بِسَبَبِهِ دِينَ قَوْمِكُمْ ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي ، وَلَا فِي دِينِ أَيٍّ مِنْ هَٰذِهِ الْمِلَلِ ؟ ...

فَتَقَدَّمَ مِنْهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَالَ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، وَبَقِينَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ ، وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ...

فَدَعَانَا إِلَىٰ اللَّهِ ؛ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ...

وَقَدْ أَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَحَقْنِ الدِّمَاءِ(١) ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ(٢) .

وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ نُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَنُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَنَصُومَ رَمَضَانَ ... فَصَدَّقْنَاهُ ، وَآمَنَّا بِهِ ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا ، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا .

فَمَا كَانَ مِنْ قَوْمِنَا أَيُّهَا الْمَلِكُ إِلَّا أَنْ عَدَوْا عَلَيْنَا ؛ فَعَذَّبُونَا أَشَدَّ الْعَذَابِ لِيَفْتِنُونَا عَنْ دِينِنَا(٣) وَيَرُدُّونَا إِلَىٰ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ...

فَلَمَّا ظَلَمُونَا وَقَهَرُونَا ، وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا ، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَىٰ

(١) حقن الدّماء : حفظها وعدم إراقتها .
(٢) قذف المحصنات : اتّهام النّساء الطّاهرات العفيفات .
(٣) ليفتنونا عن ديننا : ليرجعونا عنه .

بِلَادِكَ ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَىٰ مَنْ سِوَاكَ ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ ، وَرَجَوْنَا أَلَّا نُظْلَمَ عِنْدَكَ .

* * *

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

فَالْتَفَتَ « النَّجَاشِيُّ » إِلَىٰ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَالَ : هَلْ مَعَكَ شَيْءٌ مِمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ عَنِ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ :

﴿ كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ... ﴾[١] . حَتَّىٰ أَتَمَّ صَدْرًا مِنَ السُّورَةِ .

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : فَبَكَىٰ « النَّجَاشِيُّ » حَتَّىٰ اخْضَلَّتْ[٢] لِحْيَتُهُ بِالدُّمُوعِ ، وَبَكَىٰ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّىٰ بَلَّلُوا كُتُبَهُمْ ؛ لِمَا سَمِعُوهُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ ...

وَهُنَا قَالَ لَنَا النَّجَاشِيُّ : إِنَّ هَٰذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَىٰ لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ[٣] وَاحِدَةٍ ... ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ عَمْرٍو وَصَاحِبِهِ وَقَالَ لَهُمَا :

انْطَلِقَا ، فَلَا وَاللَّهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمَا أَبَدًا .

* * *

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ « النَّجَاشِيِّ » تَوَعَّدَنَا[٤] عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَقَالَ لِصَاحِبِهِ :

وَاللَّهِ لَآتِيَنَّ الْمَلِكَ غَدًا ، وَلَأَذْكُرَنَّ لَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا يَمْلَأُ صَدْرَهُ غَيْظًا مِنْهُمْ وَيَشْحَنُ[٥] فُؤَادَهُ كُرْهًا لَهُمْ ، وَلَأَحْمِلَنَّهُ عَلَىٰ أَنْ يَسْتَأْصِلَهُمْ[٦] مِنْ جُذُورِهِمْ .

---

(١) سورة مريم : من الآية ١ - ٤.
(٢) اخضلَّت : تبللت .
(٣) المشكاة : ما يوضع عليه المصباح ، والمراد يخرجان من نور واحد .
(٤) توعّدنا : هدّدنا .
(٥) يشحن فؤاده : يملؤه .
(٦) يستأصلهم من جذورهم : يقطعهم من أصولهم ، وهو كناية عن شدة الفتك .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ : لَا تَفْعَلْ يَا عَمْرُو ، فَإِنَّهُمْ مِنْ ذَوِي قُرْبَانَا ، وَ إِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا .

فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : دَعْ عَنْكَ هَذَا ... وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّهُ بِمَا يُزَلْزِلُ أَقْدَامَهُمْ ...

وَاللَّهِ لَأَقُولَنَّ لَهُ : إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَىٰ بْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ ...

* * *

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ دَخَلَ عَمْرٌو عَلَىٰ « النَّجَاشِيِّ » وَقَالَ لَهُ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آوَيْتَهُمْ وَحَمَيْتَهُمْ ، يَقُولُونَ فِي عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا ... فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ ، وَسَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَهُ فِيهِ .

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

فَلَمَّا عَرَفْنَا ذَلِكَ ، نَزَلَ بِنَا مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ مَا لَمْ نَتَعَرَّضْ لِمِثْلِهِ قَطُّ ... وَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ :

مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ الْمَلِكُ ؟ .

فَقُلْنَا : وَاللَّهِ لَا نَقُولُ فِيهِ إِلَّا مَا قَالَ اللَّهُ ، وَلَا نَخْرُجُ فِي أَمْرِهِ قِيدَ أُنْمُلَةٍ[١] عَمَّا جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ، وَلْيَكُنْ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَا يَكُونُ .

ثُمَّ اتَّفَقْنَا عَلَىٰ أَنْ يَتَوَلَّىٰ الْكَلَامَ عَنَّا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَيْضًا .

فَلَمَّا دَعَانَا « النَّجَاشِيُّ » دَخَلْنَا عَلَيْهِ فَوَجَدْنَا عِنْدَهُ بَطَارِقَتَهُ عَلَىٰ الْهَيْئَةِ الَّتِي رَأَيْنَاهُمْ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلُ .

وَوَجَدْنَا عِنْدَهُ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَصَاحِبَهُ .

فَلَمَّا صِرْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ بَادَرَنَا بِقَوْلِهِ : مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ ؟ .

(١) قيد أنملة : مقدار أنملة ، وهي رأس الإصبع .

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : إِنَّمَا نَقُولُ فِيهِ مَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ .

فَقَالَ « النَّجَاشِيُّ » : وَمَا الَّذِي يَقُولُهُ فِيهِ ؟ .

فَأَجَابَ جَعْفَرٌ : يَقُولُ عَنْهُ : إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ الَّتِي أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ .

فَمَا إِنْ سَمِعَ « النَّجَاشِيُّ » قَوْلَ جَعْفَرٍ حَتَّىٰ ضَرَبَ بِيَدِهِ الْأَرْضَ وَقَالَ :

وَاللَّهِ ، مَا خَرَجَ عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ مِقْدَارَ شَعْرَةٍ ...

فَتَنَاخَرَتِ[1] الْبَطَارِقَةُ مِنْ حَوْلِ « النَّجَاشِيِّ » اسْتِنْكَارًا لِمَا سَمِعُوا مِنْهُ ...

فَقَالَ : وَ إِنْ نَخَرْتُمْ ...

ثُمَّ الْتَفَتَ وَقَالَ : اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ آمِنُونَ ...

مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ ، وَمَنْ تَعَرَّضَ لَكُمْ عُوقِبَ ...

وَوَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِي جَبَلٌ مِنْ ذَهَبٍ ، وَأَنْ يُصَابَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِسُوءٍ ... ثُمَّ نَظَرَ إِلَىٰ عَمْرٍو وَصَاحِبِهِ وَقَالَ :

رُدُّوا عَلَىٰ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ هَدَايَاهُمَا ؛ فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا .

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

فَخَرَجَ عَمْرٌو وَصَاحِبُهُ مَكْسُورَيْنِ مَقْهُورَيْنِ يَجُرَّانِ أَذْيَالَ الْخَيْبَةِ ... أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ أَقَمْنَا عِنْدَ « النَّجَاشِيِّ » بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ أَكْرَمِ جَارٍ .

* * *

قَضَىٰ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ هُوَ وَزَوْجَتُهُ فِي رِحَابِ « النَّجَاشِيِّ » عَشْرَ سَنَوَاتٍ آمِنَيْنِ مُطْمَئِنَّيْنِ .

---

(١) تناخرت البطارقة : أخرجوا أصواتًا من أنوفهم .

وَفِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ لِلْهِجْرَةِ غَادَرَا بِلَادَ « الْحَبَشَةِ » مَعَ نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُتَّجِهِينَ إِلَىٰ « يَثْرِبَ » ، فَلَمَّا بَلَغُوهَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَائِدًا لِتَوِّهِ مِنْ « خَيْبَرَ »(١)، بَعْدَ أَنْ فَتَحَهَا اللَّهُ لَهُ .

فَفَرِحَ بِلِقَاءِ جَعْفَرٍ فَرَحًا شَدِيدًا حَتَّىٰ قَالَ :

(مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَنَا أَشَدُّ فَرَحًا !! ...

أَبِفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ ؟) .

وَلَمْ تَكُنْ فَرْحَةُ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً وَالْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ خَاصَّةً بِعَوْدَةِ جَعْفَرٍ بِأَقَلَّ مِنْ فَرْحَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

فَقَدْ كَانَ جَعْفَرٌ شَدِيدَ الْحَدْبِ(٢) عَلَىٰ الضُّعَفَاءِ كَثِيرَ الْبِرِّ بِهِمْ ، حَتَّىٰ إِنَّهُ كَانَ يُلَقَّبُ « بِأَبِي الْمَسَاكِينِ » .

أَخْبَرَ عَنْهُ أَبُو هُرَيْرَةَ(٣) فَقَالَ : كَانَ خَيْرَ النَّاسِ لَنَا ـ مَعْشَرَ الْمَسَاكِينِ ـ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَدْ كَانَ يَمْضِي بِنَا إِلَىٰ بَيْتِهِ فَيُطْعِمُنَا مَا يَكُونُ عِنْدَهُ ، حَتَّىٰ إِذَا نَفِدَ طَعَامُهُ أَخْرَجَ لَنَا الْعُكَّةَ(٤) الَّتِي يُوضَعُ فِيهَا السَّمْنُ وَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ ، فَنَشُقُّهَا وَنَلْعَقُ مَا عَلِقَ بِدَاخِلِهَا ...

* * *

لَمْ يَطُلْ مُكْثُ(٥) جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي الْمَدِينَةِ .

فَفِي أَوَائِلِ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ جَهَّزَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ جَيْشًا لِمُنَازَلَةِ الرُّومِ فِي بِلَادِ الشَّامِ ، وَأَمَّرَ عَلَىٰ الْجَيْشِ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ(٦) وَقَالَ :

---

(١) خيبر : حُصونٌ لليهود فتحها الرَّسُول ﷺ سنة سبع للهجْرة وغَنِمَ منها مغانم كثيرة .
(٢) شديد الحَدْب : شديد العطف والرِّعاية .
(٣) أبو هُرَيْرَة : انظره ص ٤٧٥.
(٤) العُكَّة : قربة صغيرة يوضع فيها السَّمْن .
(٥) المكث : الإقامة .
(٦) زيد بن حارثة : انظره ص ٢١١.

(إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ أَوْ أُصِيبَ فَالْأَمِيرُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ أَوْ أُصِيبَ فَالْأَمِيرُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، فَإِنْ قُتِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ أَوْ أُصِيبَ فَلْيَخْتَرِ الْمُسْلِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ أَمِيرًا مِنْهُمْ) .

فَلَمَّا وَصَلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ « مُؤْتَةَ » وَهِيَ قَرْيَةٌ وَاقِعَةٌ عَلَىٰ مَشَارِفِ الشَّامِ فِي « الْأُرْدُنِّ » ؛ وَجَدُوا أَنَّ الرُّومَ قَدْ أَعَدُّوا لَهُمْ مِائَةَ أَلْفٍ تُظَاهِرُهُمْ[1] مِائَةُ أَلْفٍ أُخْرَىٰ مِنْ نَصَارَىٰ الْعَرَبِ مِنْ قَبَائِلِ « لَخْمٍ ، وَجُذَامٍ ، وَقُضَاعَةَ » وَغَيْرِهَا .

أَمَّا جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ فَكَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ . . .

وَمَا إِنِ الْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ وَدَارَتْ رَحَىٰ الْمَعْرَكَةِ حَتَّىٰ خَرَّ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ صَرِيعًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ .

فَمَا أَسْرَعَ أَنْ وَثَبَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ ظَهْرِ فَرَسٍ كَانَتْ لَهُ شَقْرَاءَ ، ثُمَّ عَقَرَهَا[2] بِسَيْفِهِ حَتَّىٰ لَا يَنْتَفِعَ بِهَا الْأَعْدَاءُ مِنْ بَعْدِهِ .

وَحَمَلَ الرَّايَةَ وَأَوْغَلَ[3] فِي صُفُوفِ الرُّومِ وَهُوَ يُنْشِدُ :

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا طَيِّبَةٌ وَبَارِدٌ شَرَابُهَا
وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا
عَلَيَّ إِذْ لَاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

وَظَلَّ يَجُولُ فِي صُفُوفِ الْأَعْدَاءِ بِسَيْفِهِ وَيَصُولُ حَتَّىٰ أَصَابَتْهُ ضَرْبَةٌ قَطَعَتْ يَمِينَهُ ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ بِشِمَالِهِ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ أَصَابَتْهُ أُخْرَىٰ قَطَعَتْ شِمَالَهُ ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ بِصَدْرِهِ وَعَضُدَيْهِ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ أَصَابَتْهُ ثَالِثَةٌ شَطَرَتْهُ شَطْرَيْنِ[4] ،

(١) تُظاهِرهم : تساندُهم وتدعمهم .
(٢) عَقرها : ضرَب قوائمها بسيفه .
(٣) أوْغَل : دخل بعيدًا .
(٤) شطرته شطرين : قسمته نصفين .

فَأَخَذَ الرَّايَةَ مِنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَمَا زَالَ يُقَاتِلُ حَتَّىٰ لَحِقَ بِصَاحِبَيْهِ .

* * *

بَلَغَ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَصْرَعُ قُوَّادِهِ الثَّلَاثَةِ فَحَزِنَ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ الْحُزْنِ وَأَمَضَّهُ(١) وَانْطَلَقَ إِلَىٰ بَيْتِ ابْنِ عَمِّهِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَلْفَىٰ(٢) زَوْجَتَهُ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ تَتَأَهَّبُ لِاسْتِقْبَالِ زَوْجِهَا الْغَائِبِ .

فَهِيَ قَدْ عَجَنَتْ عَجِينَهَا ، وَغَسَلَتْ بَنِيهَا وَدَهَنَتْهُمْ وَأَلْبَسَتْهُمْ ...

* * *

قَالَتْ أَسْمَاءُ :

فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأَيْتُ غُلَالَةً(٣) مِنَ الْحُزْنِ تُوَشِّحُ(٤) وَجْهَهُ الْكَرِيمَ ، فَسَرَتِ الْمَخَاوِفُ فِي نَفْسِي ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَشَأْ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ جَعْفَرٍ مَخَافَةَ أَنْ أَسْمَعَ مِنْهُ مَا أَكْرَهُ .

فَحَيَّا وَقَالَ : (ائْتِينِي بِأَوْلَادِ جَعْفَرٍ) ... فَدَعَوْتُهُمْ لَهُ .

فَهَبُّوا نَحْوَهُ فَرِحِينَ مُزَغْرِدِينَ ، وَأَخَذُوا يَتَزَاحَمُونَ عَلَيْهِ ؛ كُلٌّ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِهِ .

فَأَكَبَّ عَلَيْهِمْ ، وَجَعَلَ يَتَشَمَّمُهُمْ ، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ مِنَ الدَّمْعِ .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ - بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي - مَا يُبْكِيكَ ؟! ...

أَبَلَغَكَ عَنْ جَعْفَرٍ وَصَاحِبَيْهِ شَيْءٌ ؟! .

قَالَ : (نَعَمْ ... لَقَدِ اسْتُشْهِدُوا هَذَا الْيَوْمَ) ...

---

(١) أمضّه : أوجعه .
(٢) ألفىٰ : وجد .
(٣) الغلالة : الثوب رقيق شفاف .
(٤) توشّح : تغطّي .

عِنْدَ ذَلِكَ غَاضَتِ الْبَسْمَةُ مِنْ وُجُوهِ الصِّغَارِ لَمَّا سَمِعُوا أُمَّهُمْ تَبْكِي وَتَنْشِجُ، وَجَمَدُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ كَأَنَّ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمُ[1] الطَّيْرَ.

أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَضَىٰ وَهُوَ يُكَفْكِفُ[2] عَبَرَاتِهِ وَيَقُولُ:

(اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي وَلَدِهِ...

اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ ...).

ثُمَّ قَالَ:

(لَقَدْ رَأَيْتُ جَعْفَرًا فِي الْجَنَّةِ، لَهُ جَنَاحَانِ مُضَرَّجَانِ بِالدِّمَاءِ، وَهُوَ مَصْبُوغُ الْقَوَادِمِ) (*).

---

(١) كأن علىٰ رؤوسهم الطّير: مَثَلٌ يضرب لِشدَّة السّكون.
(٢) يكفكف عبراته: يَمسَحُ دموعه.

(*) للاستزادة من أخبار جعفر بن أبي طالب انظر:
١ - السّيرة النّبوية لابن هشام: ١/٣٥٧ و٤/٣، ٢٠.
٢ - الدُّرَر في اختصار المغازي والسّير لابن عبد البر: ٥٠، ٢٢٢.
٣ - حلية الأولياء: ١/ ١١٤.
٤ - طبقات ابن سعد: ٤/ ٢٢.
٥ - معجم البلدان: في مادّة «مؤتة».
٦ - تهذيب التّهذيب: ٢/ ٩٨.
٧ - البداية والنّهاية: ٤/ ٢٤١.
٨ - الإصابة: ١/٢٣٧ أو «الترجمة» ١١٦٦.
٩ - صفة الصّفوة: ١/ ٢٠٥.
١٠- حياة الصّحابة: «انظر الفهارس».
١١- الكامل لابن الأثير: ٢/ ٣٠، ٩٦.
١٢- الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ١/ ٢١٠.

أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ

«أَبُو سُفْيَانَ بنُ الْحَارِثِ سَيِّدُ فِتْيَانِ الْجَنَّةِ»

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

قَلَّ أَنِ اتَّصَلَتِ الْأَسْبَابُ بَيْنَ شَخْصَيْنِ، وَتَوَثَّقَتِ الْعُرَى[1] بَيْنَ اثْنَيْنِ كَمَا اتَّصَلَتْ وَتَوَثَّقَتْ بَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَبَيْنَ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ...

فَقَدْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ لِدَةً[2] مِنْ لِدَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتِرْبًا مِنْ أَتْرَابِهِ، فَقَدْ وُلِدَا فِي زَمَنٍ مُتَقَارِبٍ، وَنَشَآ فِي أُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ...

وَكَانَ ابْنَ عَمِّ النَّبِيِّ اللَّصِيقَ، فَأَبُوهُ الْحَارِثُ، وَعَبْدُ اللَّهِ وَالِدُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ؛ أَخَوَانِ يَنْحَدِرَانِ مِنْ صُلْبِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ...

ثُمَّ إِنَّهُ كَانَ أَخًا لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الرَّضَاعِ، فَقَدْ غَذَّتْهُمَا السَّيِّدَةُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ[3] مِنْ ثَدْيَيْهَا مَعًا...

وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ صَدِيقًا حَمِيمًا لِلرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَأَشَدَّ النَّاسِ شَبَهًا بِهِ.

* * *

فَهَلْ رَأَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ قَرَابَةً أَقْرَبَ أَوْ أَوَاصِرَ أَمْتَنَ[4] مِنْ هَذَا الَّذِي كَانَ بَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ؟...

---

(١) توثقت العُرى: قويت واشتدّت.

(٢) لِدَة الرّجل: من ولد معه في زمن واحد، وكذلك «التِّرْب».

(٣) حليمة السّعدية: انظرها في كتاب «صور من حياة الصّحابيات» للمؤلف.

(٤) أواصر أمتن: صلات أوثق.

لِذَا فَقَدْ كَانَ الْمَظْنُونُ بِأَبِي سُفْيَانَ أَنْ يَكُونَ أَسْبَقَ النَّاسِ إِلَىٰ تَلْبِيَةِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَسْرَعَهُمْ مُبَادَرَةً إِلَىٰ اتِّبَاعِهِ.

لَكِنَّ الْأَمْرَ جَاءَ عَلَىٰ خِلَافِ كُلِّ مَا يَتَوَقَّعُهُ الْمُتَوَقِّعُونَ.

إِذْ مَا كَادَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُظْهِرُ دَعْوَتَهُ، وَيُنْذِرُ عَشِيرَتَهُ حَتَّىٰ شَبَّتْ نَارُ الضَّغِينَةِ(١) فِي نَفْسِ أَبِي سُفْيَانَ عَلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ...

فَاسْتَحَالَتِ الصَّدَاقَةُ إِلَىٰ عَدَاوَةٍ...

وَالرَّحِمُ إِلَىٰ قَطِيعَةٍ، وَالْأُخُوَّةُ إِلَىٰ صَدٍّ وَإِعْرَاضٍ.

* * *

وَلَقَدْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ صَدَعَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَمْرِ رَبِّهِ فَارِسًا مِنْ أَنْبَهِ(٢) فُرْسَانِ قُرَيْشٍ ذِكْرًا، وَشَاعِرًا مِنْ أَعْلَىٰ شُعَرَائِهِمْ كَعْبًا(٣)...

فَوَضَعَ سِنَانَهُ وَلِسَانَهُ فِي مُحَارَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَمُعَادَاةِ دَعْوَتِهِ...

وَجَنَّدَ طَاقَاتِهِ كُلَّهَا لِلنِّكَايَةِ(٤) بِالْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

فَمَا خَاضَتْ قُرَيْشٌ حَرْبًا ضِدَّ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا كَانَ مِسْعَرَهَا(٥)...

وَلَا أَوْقَعَتْ بِالْمُسْلِمِينَ أَذًى إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ كَبِيرٌ.

* * *

وَلَقَدْ أَيْقَظَ أَبُو سُفْيَانَ شَيْطَانَ شِعْرِهِ، وَأَطْلَقَ لِسَانَهُ فِي هِجَاءِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، فَقَالَ فِيهِ كَلَامًا مُقْذِعًا(٦) فَاحِشًا مُوجِعًا.

* * *

وَطَالَتْ عَدَاوَةُ أَبِي سُفْيَانَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَتَّىٰ قَارَبَتْ عِشْرِينَ

---

(١) شبت نار الضغينة: اشتعلت نار الحقد والكراهية.
(٢) من أنبه: من أشهر.
(٣) أعلىٰ شعرائهم كعبًا: أعلىٰ شعرائهم شأنًا ومقامًا.
(٤) النكاية: الإيذاء والبطش.
(٥) مسعرها: موقدها.
(٦) مقذعًا: بذيئًا.

عَامًا ، لَمْ يَتْرُكْ خِلَالَهَا ضَرْبًا مِنْ ضُرُوبِ الْكَيْدِ لِلرَّسُولِ ﷺ إِلَّا فَعَلَهُ ، وَلَا صِنْفًا مِنْ صُنُوفِ الْأَذَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَّا اجْتَرَحَهُ(١) وَبَاءَ بِإِثْمِهِ(٢).

* * *

وَقُبَيْلَ فَتْحِ مَكَّةَ بِقَلِيلٍ كُتِبَ لِأَبِي سُفْيَانَ أَنْ يُسْلِمَ ، وَكَانَ لِإِسْلَامِهِ قِصَّةٌ مُثِيرَةٌ وَعَتْهَا كُتُبُ السِّيَرِ ، وَتَنَاقَلَتْهَا أَسْفَارُ التَّارِيخِ .

فَلْنَتْرُكْ لِلرَّجُلِ نَفْسِهِ الْحَدِيثَ عَنْ قِصَّةِ إِسْلَامِهِ ...

فَشُعُورُهُ بِهَا أَعْمَقُ ، وَوَصْفُهُ لَهَا أَدَقُّ وَأَصْدَقُ .

قَالَ : لَمَّا اسْتَقَامَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ وَقَرَّ قَرَارُهُ ، وَشَاعَتْ أَخْبَارُ تَوَجُّهِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ مَكَّةَ لِيَفْتَحَهَا ضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ(٣) وَقُلْتُ :

إِلَىٰ أَيْنَ أَذْهَبُ ؟! وَمَنْ أَصْحَبُ ؟! وَمَعَ مَنْ أَكُونُ ؟! .

ثُمَّ جِئْتُ زَوْجَتِي وَأَوْلَادِي وَقُلْتُ :

تَهَيَّؤُوا لِلْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ فَقَدْ أَوْشَكَ وُصُولُ مُحَمَّدٍ(٤)، وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ لَا مَحَالَةَ إِنْ أَدْرَكَنِي الْمُسْلِمُونَ ، فَقَالُوا لِي :

أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تُبْصِرَ أَنَّ الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ قَدْ دَانَتْ(٥) لِمُحَمَّدٍ ﷺ بِالطَّاعَةِ ، وَاعْتَنَقَتْ دِينَهُ ، وَأَنْتَ مَا تَزَالُ مُصِرًّا عَلَىٰ عَدَاوَتِهِ ، وَكُنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ ؟! ...

وَمَا زَالُوا بِي يَعْطِفُونَنِي عَلَىٰ دِينِ مُحَمَّدٍ ، وَيُرَغِّبُونَنِي فِيهِ حَتَّىٰ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلْإِسْلَامِ .

* * *

---

(١) اجترح الذّنب : ارتكبه .
(٢) باء بإثمه : تحمّل عاقبة ذنبه .
(٣) رحُبت : اتّسعت .
(٤) أوشك وصول مُحمّد : قرب وصول مُحمّد .
(٥) دانت لِمُحمّد بالطّاعة : أطاعته ونزلت عند أمره .

قُمْتُ مِنْ تَوِّي، وَقُلْتُ لِغُلَامِي «مَذْكُورٍ»: هَيِّئْ لَنَا نُوقًا وَفَرَسًا، وَأَخَذْتُ مَعِي ابْنِي جَعْفَرًا، وَجَعَلْنَا نُغِذُّ السَّيْرَ[1] نَحْوَ «الْأَبْوَاءِ» بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ؛ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ مُحَمَّدًا نَزَلَ فِيهَا.

وَلَمَّا اقْتَرَبْتُ مِنْهَا تَنَكَّرْتُ حَتَّىٰ لَا يَعْرِفَنِي أَحَدٌ فَأُقْتَلَ قَبْلَ أَنْ أَصِلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأُعْلِنَ إِسْلَامِي بَيْنَ يَدَيْهِ.

وَمَضَيْتُ أَمْشِي عَلَىٰ قَدَمَيَّ نَحْوًا مِنْ مِيلٍ، وَطَلَائِعُ الْمُسْلِمِينَ تَمْضِي مُيَمِّمَةً شَطْرَ مَكَّةَ[2] جَمَاعَةً إِثْرَ جَمَاعَةٍ، فَكُنْتُ أَتَنَحَّىٰ عَنْ طَرِيقِهِمْ فَرَقًا[3] مِنْهُمْ وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يَعْرِفَنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ.

* * *

وَفِيمَا أَنَا كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ الرَّسُولُ ﷺ فِي مَوْكِبِهِ، فَتَصَدَّيْتُ[4] لَهُ وَوَقَفْتُ تِلْقَاءَهُ[5] وَحَسَرْتُ عَنْ وَجْهِي، فَمَا إِنْ مَلَأَ عَيْنَيْهِ مِنِّي، وَعَرَفَنِي حَتَّىٰ أَعْرَضَ عَنِّي إِلَى النَّاحِيَةِ الْأُخْرَىٰ، فَتَحَوَّلْتُ إِلَىٰ نَاحِيَةِ وَجْهِهِ، فَأَعْرَضَ عَنِّي وَحَوَّلَ وَجْهَهُ، فَتَحَوَّلْتُ إِلَىٰ نَاحِيَةِ وَجْهِهِ، حَتَّىٰ فَعَلَ ذَلِكَ مِرَارًا.

* * *

كُنْتُ لَا أَشُكُّ - وَأَنَا مُقْبِلٌ عَلَى النَّبِيِّ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيَفْرَحُ بِإِسْلَامِي، وَأَنَّ أَصْحَابَهُ سَيَفْرَحُونَ لِفَرَحِهِ.

لَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَ رَأَوْا إِعْرَاضَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِّي تَجَهَّمُوا لِي[6]، وَأَعْرَضُوا عَنِّي جَمِيعًا:

لَقَدْ لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَأَعْرَضَ عَنِّي أَشَدَّ الْإِعْرَاضِ، وَنَظَرْتُ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ نَظْرَةً أَسْتَلِينُ بِهَا قَلْبَهُ، فَوَجَدْتُهُ أَشَدَّ إِعْرَاضًا مِنْ صَاحِبِهِ...

---

(١) نُغِذُّ السَّيْرَ: نجِدُّ فيه ونسرع.
(٢) ميممة شطر مكة: مُتَّجهة نحو مكة.
(٣) فَرَقًا منهم: خوفًا منهم.
(٤) تصديت له: برزت له، واتجهت نحوه.
(٥) تلقاء وجهه: أمام وجهه.
(٦) تجهموا لي: عبسوا في وجهي.

بَلْ إِنَّهُ أَغْرَىٰ بِي[١] أَحَدَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ لِيَ الْأَنْصَارِيُّ:

يَا عَدُوَّ اللَّهِ، أَنْتَ الَّذِي كُنْتَ تُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَتُؤْذِي أَصْحَابَهُ، وَقَدْ بَلَغْتَ فِي عَدَاوَةِ النَّبِيِّ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا...

وَمَا زَالَ الْأَنْصَارِيُّ يَسْتَطِيلُ[٢] عَلَيَّ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ وَالْمُسْلِمُونَ يَقْتَحِمُونَنِي[٣] بِعُيُونِهِمْ، وَيُسَرُّونَ مِمَّا أُلَاقِي.

عِنْدَ ذَلِكَ أَبْصَرْتُ عَمِّيَ الْعَبَّاسَ فَلُذْتُ[٤] بِهِ، وَقُلْتُ:

يَا عَمِّ، قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَفْرَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِسْلَامِي لِقَرَابَتِي مِنْهُ، وَشَرَفِي فِي قَوْمِي، وَقَدْ كَانَ مِنْهُ مَا تَعْلَمُ، فَكَلِّمْهُ فِيَّ لِيَرْضَىٰ عَنِّي.

فَقَالَ عَمِّي: لَا وَاللَّهِ... لَا أُكَلِّمُهُ كَلِمَةً أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي رَأَيْتُهُ مِنْ إِعْرَاضِهِ عَنْكَ إِلَّا إِنْ سَنَحَتْ فُرْصَةٌ؛ فَإِنِّي أُجِلُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَهَابُهُ.

فَقُلْتُ: يَا عَمِّ، إِلَىٰ مَنْ تَكِلُنِي إِذَنْ[٥]؟!.

فَقَالَ: لَيْسَ لَكَ عِنْدِي غَيْرُ مَا سَمِعْتَ...

فَتَمَلَّكَنِي الْهَمُّ وَرَكِبَنِي الْحُزْنُ، وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ رَأَيْتُ ابْنَ عَمِّي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَكَلَّمْتُهُ فِي أَمْرِي، فَقَالَ لِي مِثْلَ مَقَالَةِ عَمِّنَا الْعَبَّاسِ.

عِنْدَ ذَلِكَ رَجَعْتُ إِلَىٰ عَمِّي الْعَبَّاسِ وَقُلْتُ:

يَا عَمِّ، إِذَا كُنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْطِفَ عَلَيَّ قَلْبَ الرَّسُولِ ﷺ؛ فَكُفَّ عَنِّي ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي يَشْتِمُنِي وَيُغْرِي[٦] النَّاسَ بِشَتْمِي، فَقَالَ:

صِفْهُ لِي؛ فَوَصَفْتُهُ لَهُ، فَقَالَ:

---

(١) أغرىٰ بي أحد الأنصار: حرّضه عليّ.

(٢) يستطيل عليّ: يتطاول عليّ بالسب والشتم.

(٣) يقتحمونني بعيونهم: ينظرون إليّ نظرًا فيه شدّة.

(٤) لذتُ به: لجأت إليه.

(٥) إلىٰ من تكلني: إلىٰ من تتركني.

(٦) يغري: يرغب ويحض.

ذَلِكَ نُعَيْمَانُ بْنُ الْحَارِثِ النَّجَّارِيُّ ... فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ :

يَا نُعَيْمَانُ ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَابْنُ أَخِي ، وَ إِنْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاخِطًا عَلَيْهِ الْيَوْمَ فَسَيَرْضَىٰ عَنْهُ يَوْمًا ، فَكُفَّ عَنْهُ ...

وَمَا زَالَ بِهِ(١) حَتَّىٰ رَضِيَ بِأَنْ يَكُفَّ عَنِّي ، وَقَالَ :

لَا أَعْرِضُ لَهُ بَعْدَ السَّاعَةِ .

* * *

وَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « بِالْجُحْفَةِ »(٢) جَلَسْتُ عَلَىٰ بَابِ مَنْزِلِهِ ، وَمَعِي ابْنِي جَعْفَرٌ قَائِمًا ، فَلَمَّا رَآنِي - وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ مَنْزِلِهِ - أَشَاحَ(٣) عَنِّي بِوَجْهِهِ ، فَلَمْ أَيْأَسْ مِنِ اسْتِرْضَائِهِ ، وَجَعَلْتُ كُلَّمَا نَزَلَ فِي مَنْزِلٍ أَجْلِسُ عَلَىٰ بَابِهِ ، وَأُقِيمُ ابْنِي جَعْفَرًا وَاقِفًا بِإِزَائِي(٤)، فَكَانَ إِذَا أَبْصَرَنِي الرَّسُولُ ﷺ أَعْرَضَ عَنِّي .

وَبَقِيتُ عَلَىٰ ذَلِكَ زَمَانًا ، فَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيَّ الْأَمْرُ وَضَاقَ ؛ قُلْتُ لِزَوْجَتِي :

وَاللَّهِ لَيَرْضَيَنَّ عَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ لَآخُذَنَّ بِيَدَيِ ابْنِي هَٰذَا ، ثُمَّ لَنَذْهَبَنَّ هَائِمَيْنِ عَلَىٰ وَجْهَيْنَا فِي الْأَرْضِ حَتَّىٰ نَمُوتَ جُوعًا وَعَطَشًا ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَقَّ لِي ... وَلَمَّا خَرَجَ مِنْ قُبَّتِهِ نَظَرَ إِلَيَّ نَظَرًا أَلْيَنَ مِنَ النَّظَرِ الْأَوَّلِ ، وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَبْتَسِمَ .

* * *

ثُمَّ دَخَلَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَكَّةَ فَدَخَلْتُ فِي رِكَابِهِ ، وَخَرَجَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ فَخَرَجْتُ أَسْعَىٰ بَيْنَ يَدَيْهِ لَا أُفَارِقُهُ عَلَىٰ حَالٍ .

---

(١) ما زال به : ما زال يُلحُّ عليه .

(٢) الجُحفة : مكان عَلَىٰ الطَّريق بين المدينة ومكة ، يبعُدُ عن مكة أربع مراحل .

(٣) أشاح عني بوجهه : أمال وجهه وأعرض عني .

(٤) بإزائي : بجانبي .

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ «حُنَيْنٍ» جَمَعَتِ الْعَرَبُ لِحَرْبِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا لَمْ تَجْمَعْ قَطُّ، وَأَعَدَّتْ لِلِقَائِهِ مَا لَمْ تُعِدَّ مِنْ قَبْلُ، وَعَزَمَتْ عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَهَا الْقَاضِيَةَ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

وَخَرَجَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِلِقَائِهِمْ فِي جُمُوعٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَخَرَجْتُ مَعَهُ، وَلَمَّا رَأَيْتُ جُمُوعَ الْمُشْرِكِينَ الْكَبِيرَةَ قُلْتُ:

وَاللَّهِ لَأُكَفِّرَنَّ الْيَوْمَ عَنْ كُلِّ مَا سَلَفَ مِنِّي مِنْ عَدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَيَرَيَنَّ النَّبِيُّ مِنْ أَثَرِي مَا يُرْضِي اللَّهَ وَيُرْضِيهِ.

وَلَمَّا الْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ اشْتَدَّتْ وَطْأَةُ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ؛ فَدَبَّ فِيهِمُ الْوَهَنُ وَالْفَشَلُ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَتَفَرَّقُونَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَادَتْ تَحُلُّ بِنَا الْهَزِيمَةُ الْمُنْكَرَةُ.

فَإِذَا بِالرَّسُولِ - فِدَاهُ أَبِي وَأُمِّي - يَثْبُتُ فِي قَلْبِ الْمَعْرَكَةِ عَلَىٰ بَغْلَتِهِ الشَّهْبَاءِ كَأَنَّهُ الطَّوْدُ[1] الرَّاسِخُ، وَيُجَرِّدُ سَيْفَهُ، وَيُجَالِدُ[2] عَنْ نَفْسِهِ وَعَمَّنْ حَوْلَهُ كَأَنَّهُ اللَّيْثُ عَادِيًا.

عِنْدَ ذَلِكَ وَثَبْتُ عَنْ فَرَسِي، وَكَسَرْتُ غِمْدَ سَيْفِي، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي أُرِيدُ الْمَوْتَ دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَأَخَذَ عَمِّي الْعَبَّاسُ بِلِجَامِ بَغْلَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَوَقَفَ بِجَانِبِهِ...

وَأَخَذْتُ أَنَا مَكَانِي مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَفِي يَمِينِي سَيْفِي أَذُودُ بِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَمَّا شِمَالِي فَكَانَتْ مُمْسِكَةً بِرِكَابِهِ.

فَلَمَّا نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ حُسْنِ بَلَائِي[3] قَالَ لِعَمِّيَ الْعَبَّاسِ:

---

(١) الطَّود: الْجَبلُ العظيم.

(٢) يجالد: يضارب بالسيف.

(٣) حُسْن بلائي: شدَّة فتكي بالأعداء.

(مَنْ هَٰذَا ؟) ، فَقَالَ :

هَٰذَا أَخُوكَ وَابْنُ عَمِّكَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ ، فَارْضَ عَنْهُ أَيْ[1] رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ :

(قَدْ فَعَلْتُ ؛ وَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ كُلَّ عَدَاوَةٍ عَادَانِيهَا) .

فَاسْتَطَارَ فُؤَادِي فَرَحًا بِرِضَىٰ رَسُولِ اللَّهِ عَنِّي ، وَقَبَّلْتُ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ : (أَخِي لَعَمْرِي ، تَقَدَّمْ فَضَارِبْ) .

أَلْهَبَتْ كَلِمَاتُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَمَاسَتِي ، فَحَمَلْتُ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ حَمْلَةً أَزَالَتْهُمْ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ ، وَحَمَلَ مَعِي الْمُسْلِمُونَ حَتَّىٰ طَرَدْنَاهُمْ قَدْرَ فَرْسَخٍ[2] ، وَفَرَّقْنَاهُمْ فِي كُلِّ وَجْهٍ .

* * *

ظَلَّ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ مُنْذُ « حُنَيْنٍ » يَنْعَمُ بِجَمِيلِ رِضَىٰ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ وَيَسْعَدُ بِكَرِيمِ صُحْبَتِهِ ، وَلَٰكِنَّهُ لَمْ يَرْفَعْ نَظَرَهُ إِلَيْهِ أَبَدًا ، وَلَمْ يُثَبِّتْ بَصَرَهُ فِي وَجْهِهِ حَيَاءً مِنْهُ ، وَخَجَلًا مِنْ مَاضِيهِ مَعَهُ .

* * *

وَقَدْ جَعَلَ أَبُو سُفْيَانَ يَعَضُّ بَنَانَ النَّدَمِ عَلَىٰ الْأَيَّامِ السُّودِ الَّتِي قَضَاهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَحْجُوبًا عَنْ نُورِ اللَّهِ ، مَحْرُومًا مِنْ كِتَابِهِ ؛ فَأَكَبَّ عَلَىٰ الْقُرْآنِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ يَتْلُو آيَاتِهِ ، وَيَتَفَقَّهُ فِي أَحْكَامِهِ ، وَيَتَمَلَّىٰ مِنْ عِظَاتِهِ .

وَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ اللَّهِ بِكُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِهِ حَتَّىٰ إِنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ رَآهُ ذَاتَ مَرَّةٍ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ فَقَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : (أَتَدْرِينَ مَنْ هَٰذَا يَا عَائِشَةُ ؟!) .

---

(١) أيْ : حرف نداء مثل « يا » .
(٢) الفرسخ : ثلاثة أميال ، والميل : ألف باع ، والباع : أربعة أذرع .

قَالَتْ : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

قَالَ : (إِنَّهُ ابْنُ عَمِّي أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ ، انْظُرِي إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ وَآخِرُ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهُ ، وَلَا يُفَارِقُ بَصَرُهُ شِرَاكَ نَعْلِهِ[1]) .

* * *

وَلَمَّا لَحِقَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ[2] حَزِنَ عَلَيْهِ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ حُزْنَ الْأُمِّ عَلَىٰ وَحِيدِهَا ، وَبَكَاهُ بُكَاءَ الْحَبِيبِ عَلَىٰ حَبِيبِهِ ، وَرَثَاهُ بِقَصِيدَةٍ مِنْ غُرَرِ الْمَرَاثِي تَفِيضُ لَوْعَةً وَشُجُونًا ، وَتَذُوبُ حَسْرَةً وَأَنِينًا ... فَقَالَ :

أَرِقْتُ فَبَاتَ لَيْلِي لَا يَزُولُ ... وَلَيْلُ أَخِي الْمُصِيبَةِ فِيهِ طُولُ
وَأَسْعَدَنِي[3] الْبُكَاءُ وَذَاكَ فِيمَا ... أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ قَلِيلُ
لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتُنَا وَجَلَّتْ ... عَشِيَّةَ قِيلَ قَدْ قُبِضَ الرَّسُولُ
وَأَضْحَتْ أَرْضُنَا مِمَّا عَرَاهَا[4] ... تَكَادُ بِهَا جَوَانِبُهَا تَمِيلُ
فَقَدْنَا الْوَحْيَ وَالتَّنْزِيلَ فِينَا ... يَرُوحُ بِهِ وَيَغْدُو جِبْرَئِيلُ
وَذَاكَ أَحَقُّ مَا سَالَتْ عَلَيْهِ ... نُفُوسُ النَّاسِ أَوْ كَرِبَتْ[5] تَسِيلُ
نَبِيٌّ كَانَ يَجْلُو الشَّكَّ عَنَّا ... بِمَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ وَمَا يَقُولُ
وَيَهْدِينَا فَلَا نَخْشَىٰ ضَلَالًا ... عَلَيْنَا وَالرَّسُولُ لَنَا دَلِيلُ
أَفَاطِمُ إِنْ جَزِعْتِ فَذَاكَ عُذْرٌ ... وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِي ذَاكَ السَّبِيلُ

(١) شراك نعله : سير نعله .
(٢) لحق بالرفيق الأعلىٰ : تُوفيَ ولحق بربِّه .
(٣) أسعدني : أعانني على احتمال المصيبة .
(٤) عراها : أصابها .
(٥) كربت : قاربت .

فَقَبْرُ أَبِيكِ سَيِّدُ كُلِّ قَبْرٍ وَفِيهِ سَيِّدُ النَّاسِ الرَّسُولُ

* * *

وَفِي خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحَسَّ أَبُو سُفْيَانَ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ ؛ فَحَفَرَ لِنَفْسِهِ قَبْرَهُ بِيَدَيْهِ .

وَلَمْ يَمْضِ عَلَىٰ ذَٰلِكَ غَيْرُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ حَتَّىٰ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ كَأَنَّهُ مَعَ الْمَوْتِ عَلَىٰ مِيعَادٍ ؛ فَالْتَفَتَ إِلَىٰ زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ وَقَالَ :

لَا تَبْكُوا عَلَيَّ فَوَاللَّهِ مَا تَعَلَّقْتُ بِخَطِيئَةٍ مُنْذُ أَسْلَمْتُ ...

ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ الطَّاهِرَةُ ، فَصَلَّىٰ عَلَيْهِ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَحَزِنَ لِفَقْدِهِ هُوَ وَالصَّحَابَةُ الْكِرَامُ .

وَعَدُّوا مَوْتَهُ رُزْءًا[1] جَلَلًا حَلَّ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ (*) .

(١) رزءًا : مصيبة أو فاجعة .

(*) للاستزادة من أخبار أبي سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ انظر :

١ – طبقات فحول الشعراء : ٦ - ٢.
٢ – البداية والنهاية : ٢٨٧/٤ و٥/ ٢٨٢.
٣ – صفة الصفوة « طبعة حلب » : ١/ ٥١٩.
٤ – الكامل لابن الأثير : ٢/ ١٦٤.
٥ – السيرة النبوية لابن هشام : ٢٦٨/٢ « وانظر الفهارس » .
٦ – تاريخ الطبري : ٣/ ٣٢٩.
٧ – الإصابة : ٩٠/٤ أو « الترجمة » ٥٣٨.
٨ – الطبقات الكبرىٰ : ٤/ ٥١.
٩ – الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٤/ ٨٣.
١٠– نهاية الأرب : ١٧/ ٢٩٨.
١١– سير أعلام النبلاء : ١/ ١٣٧.
١٢– دول الإسلام : ٢/ ٣٦.
١٣– مع الرعيل الأول : ١٠٤.

سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ

«ارْمِ سَعْدُ ... ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ يُحَرِّضُ سَعْدًا يَوْمَ أُحُدٍ]

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا[١] عَلَىٰ وَهْنٍ، وَفِصَالُهُ[٢] فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ[٣] عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا، وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ[٤] إِلَيَّ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٥].

لِهَٰذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ قِصَّةٌ فَذَّةٌ[٦] رَائِعَةٌ، اصْطَرَعَتْ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْعَوَاطِفِ الْمُتَنَاقِضَةِ، فِي نَفْسِ فَتًى طَرِيِّ الْعُودِ؛ فَكَانَ النَّصْرُ لِلْخَيْرِ عَلَى الشَّرِّ، وَلِلْإِيمَانِ عَلَى الْكُفْرِ.

أَمَّا بَطَلُ الْقِصَّةِ فَفَتًى مِنْ أَكْرَمِ فِتْيَانِ مَكَّةَ نَسَبًا، وَأَعَزِّهِمْ أُمًّا وَأَبًا.

ذَلِكَ الْفَتَى هُوَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

* * *

كَانَ سَعْدٌ حِينَ أَشْرَقَ نُورُ النُّبُوَّةِ فِي مَكَّةَ شَابًّا رَيَّانَ الشَّبَابِ[٧] غَضَّ الْإِهَابِ[٨] رَقِيقَ الْعَاطِفَةِ كَثِيرَ الْبِرِّ بِوَالِدَيْهِ شَدِيدَ الْحُبِّ لِأُمِّهِ خَاصَّةً.

---

(١) وهنًا : ضعفًا ومشقّة.
(٢) فصاله : فطامه عن الرّضاع.
(٣) جاهداك : دفعاك بالقوّة.
(٤) أناب إليّ : رجع إليّ بالإخلاص والطّاعة.
(٥) سورة لقمان : من الآية ١٤ - ١٥.
(٦) فذّة : فريدة نادرة.
(٧) ريّان الشّباب : طريّ الشّباب مونقه.
(٨) غضّ الإهاب : غضّ الجلد، كناية عن أنه في مقتبل العمر ورونقه.

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سَعْدًا كَانَ يَوْمَئِذٍ يَسْتَقْبِلُ رَبِيعَهُ السَّابِعَ عَشَرَ؛ فَقَدْ كَانَ يَضُمُّ بَيْنَ بُرْدَيْهِ[1] كَثِيرًا مِنْ رَجَاحَةِ الْكُهُولِ[2]، وَحِكْمَةِ الشُّيُوخِ.

فَلَمْ يَكُنْ - مَثَلًا - يَرْتَاحُ إِلَىٰ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ لِدَاتُهُ[3] مِنْ أَلْوَانِ اللَّهْوِ، وَإِنَّمَا كَانَ يَصْرِفُ هَمَّهُ إِلَىٰ بَرْيِ[4] السِّهَامِ، وَإِصْلَاحِ الْقِسِيِّ[5]، وَالتَّمَرُّسِ بِالرِّمَايَةِ حَتَّىٰ لَكَأَنَّهُ كَانَ يُعِدُّ نَفْسَهُ لِأَمْرٍ كَبِيرٍ.

وَلَمْ يَكُنْ - أَيْضًا - يَطْمَئِنُّ إِلَىٰ مَا وَجَدَ عَلَيْهِ قَوْمَهُ مِنْ فَسَادِ الْعَقِيدَةِ وَسُوءِ الْحَالِ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّهُ كَانَ يَنْتَظِرُ أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِمْ يَدٌ قَوِيَّةٌ حَازِمَةٌ حَانِيَةٌ؛ لِتَنْتَشِلَهُمْ مِمَّا يَتَخَبَّطُونَ فِيهِ مِنْ ظُلُمَاتٍ.

* * *

وَفِيمَا هُوَ كَذَلِكَ شَاءَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يُكْرِمَ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا بِهَٰذِهِ الْيَدِ الْحَانِيَةِ الْبَانِيَةِ.

فَإِذَا هِيَ يَدُ سَيِّدِ الْخَلْقِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ ...

وَفِي قَبْضَتِهَا الْكَوْكَبُ الْإِلَٰهِيُّ الَّذِي لَا يَخْبُو:

كِتَابُ اللَّهِ الْكَرِيمُ ...

فَمَا أَسْرَعَ أَنِ اسْتَجَابَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ لِدَعْوَةِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ؛ حَتَّىٰ كَانَ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ أَسْلَمُوا مِنَ الرِّجَالِ أَوْ رَابِعَ أَرْبَعَةٍ.

وَلِذَا كَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ مُفْتَخِرًا:

لَقَدْ مَكَثْتُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَإِنِّي لَثُلُثُ الْإِسْلَامِ.

* * *

---

(١) بُرْدَيْه: ثوبيه.
(٢) رجاحة الكهول: عقل الكهول ورصانتهم.
(٣) لِدَاته: المماثلون له في السنّ.
(٤) بري السهام: إعدادها وإصلاحها.
(٥) القِسيّ: الأقواس التي يُرمىٰ بها.

كَانَتْ فَرْحَةُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِإِسْلَامِ سَعْدٍ كَبِيرَةً ؛ فَفِي سَعْدٍ مِنْ مَخَايِلِ[1] النَّجَابَةِ ، وَبَوَاكِيرِ الرُّجُولَةِ[2] مَا يُبَشِّرُ بِأَنَّ هَٰذَا الْهِلَالَ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلًا فِي يَوْمٍ قَرِيبٍ .

وَلِسَعْدٍ مِنْ كَرَمِ النَّسَبِ ، وَعِزَّةِ الْحَسَبِ مَا قَدْ يُغْرِي[3] فِتْيَانَ مَكَّةَ بِأَنْ يَسْلُكُوا سَبِيلَهُ ، وَيَنْسِجُوا عَلَىٰ مِنْوَالِهِ[4] .

ثُمَّ إِنَّ سَعْدًا فَوْقَ ذَٰلِكَ كُلِّهِ مِنْ أَخْوَالِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ فَهُوَ مِنْ بَنِي « زُهْرَةَ » ، وَبَنُو « زُهْرَةَ » أَهْلُ « آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ » ، أُمِّ النَّبِيِّ ﷺ .

وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَعْتَزُّ بِهَٰذِهِ الْخُؤُولَةِ .

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ الْكَرِيمَ ﷺ كَانَ جَالِسًا مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَرَأَىٰ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ مُقْبِلًا فَقَالَ لِمَنْ مَعَهُ :

(هَٰذَا خَالِي ... فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ) .

* * *

لَكِنَّ إِسْلَامَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ لَمْ يَمُرَّ سَهْلًا هَيِّنًا ، وَإِنَّمَا عَرَّضَ الْفَتَىٰ الْمُؤْمِنَ لِتَجْرِبَةٍ مِنْ أَقْسَىٰ التَّجَارِبِ قَسْوَةً وَأَعْنَفِهَا عُنْفًا ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ بَلَغَ مِنْ قَسْوَتِهَا وَعُنْفِهَا أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي شَأْنِهَا قُرْآنًا ...

فَلْنَتْرُكْ لِسَعْدٍ الْكَلَامَ لِيَقُصَّ عَلَيْنَا خَبَرَ هَٰذِهِ التَّجْرِبَةِ الْفَذَّةِ .

قَالَ سَعْدٌ : رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ قَبْلَ أَنْ أُسْلِمَ بِثَلَاثِ لَيَالٍ كَأَنِّي غَارِقٌ فِي ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَتَخَبَّطُ فِي لُجَجِهَا[5] إِذْ أَضَاءَ لِي قَمَرٌ

(١) مخايل : علامات .
(٢) بواكير الرّجولة : تباشيرها وأوائلها .
(٣) يغري : يرغّب ويحضّ
(٤) ينسجون علىٰ منواله : يسلكون طريقته فيسلمون كما أسلم .
(٥) اللّجج : جمع لجة وهي معظم الماء وأعمقه .

فَاتَّبَعْتُهُ فَرَأَيْتُ نَفَرًا أَمَامِي قَدْ سَبَقُونِي إِلَىٰ ذَلِكَ الْقَمَرِ ...

رَأَيْتُ : زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ[1]، وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ...

فَقُلْتُ لَهُمْ : مُنْذُ مَتَىٰ أَنْتُمْ هَا هُنَا ؟! فَقَالُوا : السَّاعَةَ .

ثُمَّ إِنِّي لَمَّا طَلَعَ عَلَيَّ النَّهَارُ بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو إِلَىٰ الْإِسْلَامِ مُسْتَخْفِيًا ، فَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ بِي خَيْرًا ، وَشَاءَ أَنْ يُخْرِجَنِي بِسَبَبِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ .

فَمَضَيْتُ إِلَيْهِ مُسْرِعًا ، حَتَّىٰ لَقِيتُهُ فِي شِعْبِ « جِيَادٍ »[2]، وَقَدْ صَلَّىٰ الْعَصْرَ ، فَأَسْلَمْتُ ، فَمَا تَقَدَّمَنِي أَحَدٌ سِوَىٰ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ رَأَيْتُهُمْ فِي الْحُلُمِ .

ثُمَّ تَابَعَ سَعْدٌ رِوَايَةَ قِصَّةِ إِسْلَامِهِ فَقَالَ :

وَمَا إِنْ سَمِعَتْ أُمِّي بِخَبَرِ إِسْلَامِي حَتَّىٰ ثَارَتْ ثَائِرَتُهَا[3] وَكُنْتُ فَتًى بَرًّا بِهَا مُحِبًّا لَهَا ، فَأَقْبَلَتْ عَلَيَّ تَقُولُ :

يَا سَعْدُ مَا هَٰذَا الدِّينُ الَّذِي اعْتَنَقْتَهُ فَصَرَفَكَ عَنْ دِينِ أُمِّكَ وَأَبِيكَ ... وَاللَّهِ لَتَدَعَنَّ دِينَكَ الْجَدِيدَ أَوْ لَا آكُلُ وَلَا أَشْرَبُ حَتَّىٰ أَمُوتَ ... فَيَتَفَطَّرَ[4] فُؤَادُكَ حُزْنًا عَلَيَّ ، وَيَأْكُلَكَ النَّدَمُ عَلَىٰ فَعْلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ ، وَتُعَيِّرَكَ النَّاسُ بِهَا أَبَدَ الدَّهْرِ .

فَقُلْتُ : لَا تَفْعَلِي يَا أُمَّاهُ ، فَأَنَا لَا أَدَعُ دِينِي لِأَيِّ شَيْءٍ .

لَكِنَّهَا مَضَتْ فِي وَعِيدِهَا ، فَاجْتَنَبَتِ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ ، وَمَكَثَتْ أَيَّامًا عَلَىٰ ذَلِكَ لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ ، فَهَزَلَ جِسْمُهَا وَوَهَنَ عَظْمُهَا وَخَارَتْ قُوَاهَا .

فَجَعَلْتُ آتِيهَا سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ أَسْأَلُهَا أَنْ تَتَبَلَّغَ[5] بِشَيْءٍ مِنْ طَعَامٍ أَوْ قَلِيلِ

(١) زَيْد بن حارِثَة : انظره ص ٢١١.
(٢) شِعْب جياد : أحد شِعاب مَكَّة المكرَّمة .
(٣) ثارت ثائرتها : اشتعلت نار غَضَبِها .
(٤) يتفطر : يتشقَّق .
(٥) تتبلَّغ : تتناول القليل الذي يحفظ حياتها .

مِنْ شَرَابٍ ؛ فَتَأْبَىٰ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبَاءِ ، وَتُقْسِمُ أَلَّا تَأْكُلَ أَوْ تَشْرَبَ حَتَّىٰ تَمُوتَ أَوْ أَدَعَ دِينِي .

عِنْدَ ذَلِكَ قُلْتُ لَهَا : يَا أُمَّاهُ إِنِّي عَلَىٰ شَدِيدِ حُبِّي لَكِ لَأَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ... وَوَاللَّهِ لَوْ كَانَ لَكِ أَلْفُ نَفْسٍ فَخَرَجَتْ مِنْكِ نَفْسًا بَعْدَ نَفْسٍ مَا تَرَكْتُ دِينِي هَٰذَا لِشَيْءٍ .

فَلَمَّا رَأَتِ الْجِدَّ مِنِّي أَذْعَنَتْ لِلْأَمْرِ ، وَأَكَلَتْ وَشَرِبَتْ عَلَىٰ كُرْهٍ مِنْهَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِينَا قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[1].

* * *

لَقَدْ كَانَ يَوْمُ إِسْلَامِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَكْثَرِ الْأَيَّامِ بِرًّا بِالْمُسْلِمِينَ ، وَأَجْزَلِهَا خَيْرًا عَلَىٰ الْإِسْلَامِ :

فَفِي يَوْمِ « بَدْرٍ » كَانَ لِسَعْدٍ وَأَخِيهِ « عُمَيْرٍ » مَوْقِفٌ مَشْهُودٌ ؛ فَقَدْ كَانَ « عُمَيْرٌ » يَوْمَئِذٍ فَتًى حَدَثًا لَمْ يُجَاوِزِ الْحُلُمَ إِلَّا قَلِيلًا ، فَلَمَّا أَخَذَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْرِضُ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ تَوَارَىٰ « عُمَيْرٌ » أَخُو سَعْدٍ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَرَاهُ الرَّسُولُ ﷺ فَيَرُدَّهُ لِصِغَرِ سِنِّهِ ، لَكِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَبْصَرَهُ وَرَدَّهُ ؛ فَجَعَلَ عُمَيْرٌ يَبْكِي حَتَّىٰ رَقَّ لَهُ قَلْبُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَجَازَهُ .

عِنْدَ ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَيْهِ سَعْدٌ فَرِحًا ، وَعَقَدَ عَلَيْهِ حِمَالَةَ سَيْفِهِ[2] عَقْدًا لِصِغَرِهِ ، وَانْطَلَقَ الْأَخَوَانِ يُجَاهِدَانِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَقَّ الْجِهَادِ .

---

(١) سورة لقمان : آية ١٥.

(٢) حمالة السيف : ما يعلق به علىٰ عاتق صاحبه .

فَلَمَّا انْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ عَادَ سَعْدٌ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ وَحْدَهُ ، أَمَّا « عُمَيْرٌ » فَقَدْ خَلَّفَهُ شَهِيدًا عَلَىٰ أَرْضِ « بَدْرٍ » وَاحْتَسَبَهُ عِنْدَ اللَّهِ(١).

* * *

وَفِي « أُحُدٍ » حِينَ زُلْزِلَتِ الْأَقْدَامُ(٢)، وَتَفَرَّقَ الْمُسْلِمُونَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ إِلَّا فِي نَفَرٍ قَلِيلٍ لَا يُتِمُّونَ الْعَشَرَةَ ؛ وَقَفَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ يُنَاضِلُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِقَوْسِهِ ، فَكَانَ لَا يَرْمِي رَمْيَةً إِلَّا أَصَابَتْ مِنْ مُشْرِكٍ مَقْتَلًا .

وَلَمَّا رَآهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرْمِي هَٰذَا الرَّمْيَ ، جَعَلَ يَحُضُّهُ(٣) وَيَقُولُ لَهُ : (اِرْمِ سَعْدُ ... اِرْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي) ...

فَظَلَّ سَعْدٌ يَفْتَخِرُ بِهَا طَوَالَ حَيَاتِهِ وَيَقُولُ : مَا جَمَعَ الرَّسُولُ ﷺ لِأَحَدٍ أَبَوَيْهِ إِلَّا لِي ... وَذَلِكَ حِينَ فَدَّاهُ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ مَعًا .

* * *

وَلَكِنَّ سَعْدًا بَلَغَ ذُرْوَةَ مَجْدِهِ حِينَ عَزَمَ الْفَارُوقُ عَلَىٰ أَنْ يَخُوضَ مَعَ « الْفُرْسِ » حَرْبًا تُدِيلُ دَوْلَتَهُمْ(٤) وَتَثُلُّ عَرْشَهُمْ(٥)، وَتَجْتَثُّ جُذُورَ(٦) الْوَثَنِيَّةِ مِنْ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ ، فَأَرْسَلَ كُتُبَهُ إِلَىٰ عُمَّالِهِ فِي الْآفَاقِ ... أَنْ أَرْسِلُوا إِلَيَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ سِلَاحٌ أَوْ فَرَسٌ ، أَوْ نَجْدَةٌ أَوْ رَأْيٌ ، أَوْ مَزِيَّةٌ مِنْ شِعْرٍ ، أَوْ خَطَابَةٍ أَوْ غَيْرِهَا مِمَّا يُجْدِي عَلَىٰ الْمَعْرَكَةِ .

فَجَعَلَتْ وُفُودُ الْمُجَاهِدِينَ تَتَدَفَّقُ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ(٧)، فَلَمَّا

---

(١) احتسبه عند اللَّه : طلب من اللَّه أجره علَىٰ فقده .
(٢) زُلزلت الأقدام : دبَّ الضعف والخوف في النفوس .
(٣) يحضه : يحثُّه .
(٤) تديل دولتهم : تطيح بدولتهم وتذهب بها .
(٥) تَثُل عرشهم : تهدم ملكهم .
(٦) تجتثُّ جذور الوثنية : تقتلعها من أصولها .
(٧) من كل صوب : من كل جهة .

تَكَامَلَتْ، أَخَذَ الْفَارُوقُ يَسْتَشِيرُ أَصْحَابَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ[1] فِي مَنْ يُوَلِّيهِ عَلَىٰ الْجَيْشِ الْكَبِيرِ وَيُسْلِمُ إِلَيْهِ قِيَادَهُ، فَقَالُوا بِلِسَانٍ وَاحِدٍ: الْأَسَدُ عَادِيًا ... سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، فَاسْتَدْعَاهُ عُمَرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا، وَعَقَدَ لَهُ لِوَاءَ الْجَيْشِ[2].

* * *

وَلَمَّا هَمَّ الْجَيْشُ الْكَبِيرُ بِأَنْ يَفْصِلَ[3] عَنِ الْمَدِينَةِ وَقَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُوَدِّعُهُ وَيُوصِي قَائِدَهُ فَقَالَ:

يَا سَعْدُ، لَا يَغُرَّنَّكَ مِنَ اللَّهِ أَنْ قِيلَ: خَالُ رَسُولِ اللَّهِ، وَصَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنَّهُ يَمْحُو السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ.

يَا سَعْدُ: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلَّا الطَّاعَةَ، فَالنَّاسُ شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ[4] سَوَاءٌ؛ اللَّهُ رَبُّهُمْ وَهُمْ عِبَادُهُ يَتَفَاضَلُونَ بِالتَّقْوَىٰ وَيُدْرِكُونَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِالطَّاعَةِ، فَانْظُرِ الْأَمْرَ الَّذِي رَأَيْتَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ فَالْتَزِمْهُ فَإِنَّهُ الْأَمْرُ[5].

وَمَضَىٰ الْجَيْشُ الْمُبَارَكُ وَفِيهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ بَدْرِيًا[6]، وَثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ مِمَّنْ كَانَتْ لَهُمْ صُحْبَةٌ فِيمَا بَيْنَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَثَلَاثُمِائَةٍ مِمَّنْ شَهِدُوا فَتْحَ مَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، وَسَبْعُمِائَةٍ مِنْ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ.

* * *

مَضَىٰ سَعْدٌ وَعَسْكَرَ بِجَيْشِهِ فِي «الْقَادِسِيَّةِ»[7]، وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ

(١) أصحاب الحل والعقد: أَهْلُ الشُّورَىٰ وذوو الرأي والمكانة.
(٢) عقد له لواء الجيش: ولّاه عليه.
(٣) يَفْصِل: يخرج.
(٤) في ذات اللّه: عند اللّه.
(٥) فإنه الأَمْرُ: أي فإنه الأمر الذي يجب إنفاذه.
(٦) الْبَدْرِيّ: من شهد معركة بَدْر.
(٧) الْقَادِسِيَّة: موضعٌ يبعد عن الْكوفة خمسة عشر فرسخًا، وقعت فيها المعركة الْفاصلة بين المسلمين والْفرس سنة ست عشرة للهجرة وانتصر فيها المسلمون نصرًا كبيرًا لم تقم بعدها للفرس قائمة.

«الْهَرِيرِ»(١) عَزَمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلُوهَا الْقَاضِيَةَ(٢)؛ فَأَحَاطُوا بِعَدُوِّهِمْ إِحَاطَةَ الْقَيْدِ بِالْمِعْصَمِ، وَنَفَذُوا إِلَىٰ صُفُوفِهِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ مُهَلِّلِينَ(٣) مُكَبِّرِينَ...

فَإِذَا رَأْسُ «رُسْتُمَ» قَائِدِ جَيْشِ الْفُرْسِ مَرْفُوعٌ عَلَىٰ رِمَاحِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِذَا بِالرُّعْبِ وَالْهَلَعِ يَدُبَّانِ فِي قُلُوبِ أَعْدَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ كَانَ الْمُسْلِمُ يُشِيرُ إِلَىٰ الْفَارِسِيِّ فَيَأْتِيهِ فَيَقْتُلُهُ، وَرُبَّمَا قَتَلَهُ بِسِلَاحِهِ.

أَمَّا الْغَنَائِمُ فَحَدِّثْ عَنْهَا وَلَا حَرَجَ، وَأَمَّا الْقَتْلَىٰ فَيَكْفِيكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الَّذِينَ قَضَوْا غَرَقًا فَحَسْبُ قَدْ بَلَغُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا.

* * *

عُمِّرَ سَعْدٌ طَوِيلًا وَأَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ، لَكِنَّهُ حِينَ أَدْرَكَتْهُ الْوَفَاةُ دَعَا بِجُبَّةٍ مِنْ صُوفٍ بَالِيَةٍ وَقَالَ:

كَفِّنُونِي بِهَا فَإِنِّي لَقِيتُ بِهَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ «بَدْرٍ»...

وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَلْقَىٰ بِهَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَيْضًا (*).

---

(١) يوم الهرير: اليوم الأخير من أيام القادسية، وسمي كذلك لأنه لم يكن يُسمعُ للجند أصواتٌ إلا الهرير من شِدَّة القتال.

(٢) القاضية: المهلكة المدمِّرة.

(٣) مُهللين: صائحين لا إله إلا الله.

(*) للاستزادة من أخبار سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ انظر:

١ – الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ٢/ ١٨.
٢ – الإصابة: ٢/٣٣ أو «الترجمة» ٣١٩٤.
٣ – الملل والنحل: ١/ ٢٠.
٤ – أشهر مشاهير الإسلام: ٣/ ٥٢٥.
٥ – الطبقات الكبرى: ١/ ٢١.
٦ – تحفة الأحوذي: ١٠/ ٢٥٣.
٧ – سير أعلام النبلاء: ١/ ٦٢.
٨ – زعماء الإسلام: ١١٤.
٩ – رجال حول الرسول: ١٤١.
١٠– سَعْدُ بن أبي وَقَّاص وأبطال القادسية للشحّار.
١١– الرياض النضرة: ٢/ ٢٩٢.
١٢– صفة الصفوة: ١/ ١٣٨.
١٣– تهذيب ابن عساكر: ٦/ ٩٣.
١٤– المعارف: ١٠٦.
١٥– النجوم الزاهرة: «انظر الفهارس».
١٦– أسْدُ الغابة: ٢/ ٢٩٠.
١٧– جمهرة أنساب العرب: ٧١.
١٨– تاريخ الإسلام: ١/ ٧٩.
١٩– فتوح مصر وأخبارها: ٣١٨.
٢٠– البداية والنهاية: ٨/ ٧٢.

حذيفة بن اليمان

صَاحِبُ سِرِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ

« مَا حَدَّثَكُمْ حُذَيْفَةُ فَصَدِّقُوهُ ، وَمَا أَقْرَأَكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ فَاقْرَؤُوهُ »

[حَدِيثٌ شَرِيفٌ]

(إِنْ شِئْتَ كُنْتَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَإِنْ شِئْتَ كُنْتَ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَاخْتَرْ أَحَبَّ الْأَمْرَيْنِ إِلَىٰ نَفْسِكَ) .

بِهَٰذِهِ الْكَلِمَاتِ خَاطَبَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ حِينَ لَقِيَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي مَكَّةَ .

وَلِتَخْيِيرِ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ فِي الِانْتِمَاءِ إِلَىٰ أَكْرَمِ فِئَتَيْنِ وَأَحَبِّهِمَا إِلَىٰ الْمُسْلِمِينَ قِصَّةٌ :

فَالْيَمَانُ أَبُو حُذَيْفَةَ مَكِّيٌّ مِنْ بَنِي « عَبْسٍ » لَكِنَّهُ أَصَابَ دَمًا[1] فِي قَوْمِهِ ، فَاضْطُرَّ إِلَىٰ النُّزُوحِ عَنْ مَكَّةَ إِلَىٰ « يَثْرِبَ » ، وَهُنَاكَ حَالَفَ بَنِي « عَبْدِ الْأَشْهَلِ » وَصَاهَرَهُمْ ، وَوُلِدَ لَهُ ابْنُهُ حُذَيْفَةُ .

ثُمَّ زَالَتِ الْمَوَانِعُ الَّتِي تَحُولُ دُونَ الْيَمَانِ وَدُونَ دُخُولِ مَكَّةَ ، فَجَعَلَ يَتَرَدَّدُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ « يَثْرِبَ » ، وَلَكِنَّ إِقَامَتَهُ كَانَتْ فِي الْمَدِينَةِ أَكْثَرَ وَأَلْصَقَ .

وَلَمَّا أَهَلَّ الْإِسْلَامُ بِنُورِهِ عَلَىٰ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ كَانَ الْيَمَانُ أَبُو حُذَيْفَةَ أَحَدَ عَشَرَةٍ مِنْ بَنِي « عَبْسٍ » وَفَدُوا عَلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَأَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، وَمِنْ هُنَا كَانَ حُذَيْفَةُ مَكِّيَّ الْأَصْلِ مَدَنِيَّ النَّشْأَةِ .

* * *

(١) أصاب دمًا : قتل قتيلًا .

نَشَأَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ فِي بَيْتٍ مُسْلِمٍ، وَرُبِّيَ فِي كَنَفِ أَبَوَيْنِ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ، فَأَسْلَمَ قَبْلَ أَنْ تَكْتَحِلَ عَيْنَاهُ بِمَرْأَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

* * *

كَانَ شَوْقُ حُذَيْفَةَ إِلَىٰ لِقَاءِ الرَّسُولِ ﷺ يَمْلأُ جَوَانِحَهُ، فَهُوَ مَا زَالَ مُنْذُ أَسْلَمَ يَتَسَقَّطُ[1] أَخْبَارَهُ، وَيُلِحُّ فِي السُّؤَالِ عَنْ أَوْصَافِهِ، فَلَا يَزِيدُهُ ذَلِكَ إِلَّا وَلَعًا بِهِ، وَحَنِينًا إِلَيْهِ. فَرَحَلَ إِلَىٰ مَكَّةَ لِيَلْقَاهُ، فَمَا إِنْ رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ حَتَّىٰ سَأَلَهُ:

أَمُهَاجِرٌ أَنَا أَمْ أَنْصَارِيٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (إِنْ شِئْتَ كُنْتَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنْ شِئْتَ كُنْتَ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا تُحِبُّ).

فَقَالَ: بَلْ أَنَا أَنْصَارِيٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

* * *

وَلَمَّا هَاجَرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لَازَمَهُ حُذَيْفَةُ مُلَازَمَةَ الْعَيْنِ لِأُخْتِهَا، وَشَهِدَ مَعَهُ الْمَوَاقِعَ كُلَّهَا إِلَّا «بَدْرًا».

وَلِتَخَلُّفِ حُذَيْفَةَ عَنْ «بَدْرٍ» قِصَّةٌ رَوَاهَا بِنَفْسِهِ فَقَالَ:

مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ «بَدْرًا» إِلَّا أَنِّي كُنْتُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ أَنَا وَأَبِي، فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ وَقَالُوا: أَيْنَ تَقْصِدُونَ؟ فَقُلْنَا: الْمَدِينَةَ، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَبَوْا أَنْ يُطْلِقُونَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَخَذُوا الْعَهْدَ عَلَيْنَا أَلَّا نَنْصُرَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِمْ، وَأَلَّا نُقَاتِلَ مَعَهُ، ثُمَّ أَطْلَقُوا سَرَاحَنَا.

وَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرْنَاهُ بِمَا قَطَعْنَاهُ مِنْ عَهْدٍ لِقُرَيْشٍ، وَسَأَلْنَاهُ مَاذَا نَصْنَعُ؟.

---

(١) يتسقَّطُ أخباره: يتتبَّعُها ويبحثُ عنها.

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (نَفِي بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ عَلَيْهِمْ بِاللَّهِ) .

* * *

وَلَمَّا كَانَتْ « أُحُدٌ » خَاضَهَا حُذَيْفَةُ مَعَ أَبِيهِ الْيَمَانِ ؛ أَمَّا حُذَيْفَةُ فَأَبْلَىٰ فِيهَا أَعْظَمَ الْبَلَاءِ وَأَكْرَمَهُ ، وَخَرَجَ مِنْهَا سَالِمًا ، وَأَمَّا أَبُوهُ فَقَدِ اسْتُشْهِدَ فِيهَا ، وَلَكِنَّ اسْتِشْهَادَهُ كَانَ بِسُيُوفِ الْمُسْلِمِينَ لَا بِسُيُوفِ الْمُشْرِكِينَ ؛ وَلِذَلِكَ قِصَّةٌ نُورِدُهَا فِيمَا يَلِي :

لَمَّا كَانَ يَوْمُ « أُحُدٍ » وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْيَمَانَ ، وَثَابِتَ بْنَ وَقْشٍ فِي الْحُصُونِ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ، لِأَنَّهُمَا كَانَا شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ طَاعِنَيْنِ فِي السِّنِّ[1] ، فَلَمَّا حَمِيَ وَطِيسُ الْمَعْرَكَةِ[2] ، قَالَ الْيَمَانُ لِصَاحِبِهِ :

لَا أَبَا لَكَ ، مَا نَنْتَظِرُ ؟! فَوَاللَّهِ مَا بَقِيَ لِوَاحِدٍ مِنَّا مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا يَظْمَأُ الْحِمَارُ[3] ، إِنَّمَا نَحْنُ هَامَةُ الْيَوْمِ[4] أَوْ غَدٍ ، أَفَلَا نَأْخُذُ سَيْفَيْنَا وَنَلْحَقُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُنَا الشَّهَادَةَ مَعَ نَبِيِّهِ ... ثُمَّ أَخَذَا سَيْفَيْهِمَا وَدَخَلَا فِي النَّاسِ وَاقْتَحَمَا الْمَعْرَكَةَ ...

أَمَّا ثَابِتُ بْنُ وَقْشٍ فَأَكْرَمَهُ اللَّهُ بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ ، وَأَمَّا الْيَمَانُ وَالِدُ حُذَيْفَةَ فَتَعَاوَرَتْهُ[5] سُيُوفُ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ ، وَجَعَلَ حُذَيْفَةُ يُنَادِي : أَبِي ... أَبِي ... فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ ، وَخَرَّ الشَّيْخُ صَرِيعًا بِأَسْيَافِ أَصْحَابِهِ ، فَمَا زَادَ حُذَيْفَةُ عَلَىٰ أَنْ قَالَ لَهُمْ :

يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

ثُمَّ أَرَادَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يُعْطِيَ الِابْنَ دِيَةَ[6] أَبِيهِ ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ : إِنَّمَا هُوَ طَالِبُ شَهَادَةٍ وَقَدْ نَالَهَا ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ أَنِّي تَصَدَّقْتُ بِدِيَتِهِ عَلَىٰ

(١) طاعنين في السّنّ : متقدمين في السّن.
(٢) حمي وطيسُ المعركة : اشتدّت.
(٣) إلا بمقدار ما يظمأ الحمار : كناية عن قصر المُدّة لأن الحمار قليل الصّبر علَىٰ العطش.
(٤) هامَة اليوم : كناية عن أنهم يموتون قريبًا.
(٥) تعاورته : تداولته وتتابعت عَلَيْهِ.
(٦) الدِّيةُ : ما يؤدَّىٰ لأهل القتيل.

الْمُسْلِمِينَ ، فَازْدَادَ بِذَلِكَ مَنْزِلَةً عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

سَبَرَ[1] الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ غَوْرَ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ، فَتَجَلَّتْ لَهُ فِيهِ خِلَالٌ ثَلَاثٌ : ذَكَاءٌ فَذٌّ يُسْعِفُهُ فِي حَلِّ الْمُعْضِلَاتِ ...

وَبَدِيهَةٌ[2] مُطَاوِعَةٌ تُلَبِّيهِ كُلَّمَا دَعَاهَا ...

وَكِتْمَانٌ لِلسِّرِّ فَلَا يَنْفُذُ إِلَىٰ غَوْرِهِ أَحَدٌ .

وَكَانَتْ سِيَاسَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَقُومُ عَلَىٰ اكْتِشَافِ مَزَايَا أَصْحَابِهِ ؛ وَالْإِفَادَةِ مِنْ طَاقَاتِهِمُ الْكَامِنَةِ فِي ذَوَاتِهِمْ ، وَذَلِكَ بِوَضْعِ الرَّجُلِ الْمُنَاسِبِ فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ .

* * *

وَكَانَتْ أَكْبَرُ مُشْكِلَةٍ تُوَاجِهُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ هِيَ وُجُودَ الْمُنَافِقِينَ[3] مِنَ الْيَهُودِ وَأَشْيَاعِهِمْ[4] ، وَمَا يَحِيكُونَهُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَصْحَابِهِ مِنْ مَكَائِدَ وَدَسَائِسَ .

فَأَفْضَىٰ[5] النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ بِأَسْمَاءِ الْمُنَافِقِينَ - وَهُوَ سِرٌّ لَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ - وَعَهِدَ إِلَيْهِ بِرَصْدِ حَرَكَاتِهِمْ ، وَتَتَبُّعِ نَشَاطِهِمْ ، وَدَرْءِ خَطَرِهِمْ[6] عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ... وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ دُعِيَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ « بِصَاحِبِ سِرِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ » .

* * *

وَقَدِ اسْتَعَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمَوَاهِبِ حُذَيْفَةَ فِي مَوْقِفٍ مِنْ أَشَدِّ الْمَوَاقِفِ خَطَرًا ، وَأَحْوَجِهَا إِلَىٰ الذَّكَاءِ الْفَذِّ وَالْبَدِيهَةِ الْمُطَاوِعَةِ ، وَذَلِكَ فِي ذُرْوَةِ غَزْوَةِ « الْخَنْدَقِ »[7]... حَيْثُ كَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَحَاطَ بِهِمُ الْعَدُوُّ مِنْ

(١) سبر غوره : نفذ إلىٰ أعماقه واختبره.
(٢) البديهة : سُرعة الفهم لأول وهلة .
(٣) المنافق : هو من ستر الكفر بقلبه وأظهر الإيمان بلسانه .
(٤) أشياعهم : أنصارهم .
(٥) أفضىٰ النبي لحذيفة : أسرَّ إليه وخبَّره .
(٦) دَرْء خطرهم : دفع خطرهم .
(٧) غزوة الخندق : كانت سنة ٥ للهجرة وهي غزوة الأحزاب .

فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِهِمْ، وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْحِصَارُ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ، وَبَلَغَ مِنْهُمُ الْجَهْدُ وَالضَّنْكُ[1] كُلَّ مَبْلَغ، حَتَّىٰ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ[2]، وَأَخَذَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ.

وَلَمْ تَكُنْ قُرَيْشٌ وَأَحْلَافُهَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي هَٰذِهِ السَّاعَاتِ الْحَاسِمَاتِ بِأَحْسَنَ حَالًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

فَقَدْ صَبَّ عَلَيْهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ غَضَبِهِ مَا أَوْهَنَ قُوَاهَا وَزَلْزَلَ عَزَائِمَهَا، فَأَرْسَلَ عَلَيْهَا رِيحًا صَرْصَرًا[3] تَقْلِبُ خِيَامَهَا، وَتَكْفَأُ[4] قُدُورَهَا، وَتُطْفِئُ نِيرَانَهَا وَتَقْذِفُ وُجُوهَهَا بِالْحَصْبَاءِ، وَتَسُدُّ عُيُونَهَا وَخَيَاشِيمَهَا بِالتُّرَابِ.

* * *

فِي هَٰذِهِ الْمَوَاقِفِ الْحَاسِمَةِ مِنْ تَارِيخِ الْحُرُوبِ؛ يَكُونُ الْفَرِيقُ الْخَاسِرُ هُوَ الَّذِي يَئِنُّ أَوَّلًا، وَيَكُونُ الْفَرِيقُ الرَّابِحُ هُوَ الَّذِي يَضْبِطُ نَفْسَهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ بَعْدَ صَاحِبِهِ.

وَفِي هَٰذِهِ اللَّحَظَاتِ الَّتِي تُكْتَبُ فِيهَا مَصَائِرُ الْمَعَارِكِ؛ يَكُونُ لِاسْتِخْبَارَاتِ الْجُيُوشِ الْفَضْلُ الْأَوَّلُ فِي تَقْدِيرِ الْمَوْقِفِ وَإِسْدَاءِ الْمَشُورَةِ.

وَمِنْ هُنَا احْتَاجَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِطَاقَاتِ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَخِبْرَاتِهِ، وَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ بِهِ إِلَىٰ قَلْبِ جَيْشِ الْعَدُوِّ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ؛ لِيَأْتِيَهُ بِأَخْبَارِهِ قَبْلَ أَنْ يُبْرِمَ[5] أَمْرًا.

فَلْنَتْرُكْ لِحُذَيْفَةَ الْكَلَامَ لِيُحَدِّثَنَا عَنْ رِحْلَةِ الْمَوْتِ هَٰذِهِ. قَالَ حُذَيْفَةُ:

كُنَّا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ صَافِّينَ قُعُودًا، وَأَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ فَوْقَنَا، وَبَنُو «قُرَيْظَةَ» مِنَ الْيَهُودِ أَسْفَلَ مِنَّا نَخَافُهُمْ عَلَىٰ نِسَائِنَا وَذَرَارِينَا،

---

(١) الضَّنك: الضِّيقُ والشِّدَّة.
(٢) بلغت القلوب الحناجر: كناية عن شدَّة الضِّيق.
(٣) الرِّيح الصَّرصَر: الرِّيح الشَّديدة التي تُصِرُّ صَرًّا.
(٤) تكفأ: تقلب.
(٥) قبل أن يُبرم أمرًا: قبل أن يتخذ قرارًا.

وَمَا أَتَتْ عَلَيْنَا لَيْلَةٌ قَطُّ أَشَدُّ ظُلْمَةً ، وَلَا أَقْوَىٰ رِيحًا مِنْهَا ، فَأَصْوَاتُ رِيحِهَا مِثْلُ الصَّوَاعِقِ ، وَشِدَّةُ ظَلَامِهَا تَجْعَلُ أَحَدَنَا مَا يَرَىٰ إِصْبَعَهُ ...

فَأَخَذَ الْمُنَافِقُونَ يَسْتَأْذِنُونَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنَا مَكْشُوفَةٌ لِلْعَدُوِّ - وَمَا هِيَ بِمَكْشُوفَةٍ - فَمَا يَسْتَأْذِنُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَذِنَ لَهُ وَهُمْ يَتَسَلَّلُونَ حَتَّىٰ بَقِينَا فِي ثَلَاثِمِائَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ قَامَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَجَعَلَ يَمُرُّ بِنَا وَاحِدًا وَاحِدًا حَتَّىٰ أَتَىٰ إِلَيَّ وَمَا عَلَيَّ شَيْءٌ يَقِينِي مِنَ الْبَرْدِ إِلَّا مِرْطٌ[1] لِامْرَأَتِي مَا يُجَاوِزُ رُكْبَتَيَّ ... فَاقْتَرَبَ مِنِّي وَأَنَا جَاثٍ عَلَىٰ الْأَرْضِ ، وَقَالَ : (مَنْ هَٰذَا ؟) .

فَقُلْتُ : حُذَيْفَةُ ، قَالَ : (حُذَيْفَةُ ؟) ... فَتَقَاصَرْتُ إِلَىٰ الْأَرْضِ كَرَاهِيَةَ أَنْ أَقُومَ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ وَالْبَرْدِ ، وَقُلْتُ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ :

(إِنَّهُ كَائِنٌ فِي الْقَوْمِ خَبَرٌ فَتَسَلَّلْ إِلَىٰ عَسْكَرِهِمْ وَأْتِنِي بِخَبَرِهِمْ) ...

فَخَرَجْتُ وَأَنَا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ فَزَعًا وَأَكْثَرِهِمْ بَرْدًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (اللَّهُمَّ احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَمِنْ خَلْفِهِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ، وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ) .

فَوَاللَّهِ ، مَا تَمَّتْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّىٰ انْتَزَعَ اللَّهُ مِنْ جَوْفِي كُلَّ مَا أَوْدَعَهُ فِيهِ مِنْ خَوْفٍ ، وَأَزَالَ عَنْ جَسَدِي كُلَّ مَا أَصَابَهُ مِنْ بَرْدٍ .

فَلَمَّا وَلَّيْتُ نَادَانِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ : (يَا حُذَيْفَةُ لَا تُحْدِثَنَّ[2] فِي الْقَوْمِ شَيْئًا حَتَّىٰ تَأْتِيَنِي) ، فَقُلْتُ : نَعَمْ ، وَمَضَيْتُ أَتَسَلَّلُ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ حَتَّىٰ دَخَلْتُ فِي جُنْدِ الْمُشْرِكِينَ وَصِرْتُ كَأَنِّي وَاحِدٌ مِنْهُمْ .

---

(١) الْمِرْط : كل ثوب غير مخيط من مئزر ونحوه.		(٢) لا تحدثنّ : لا تفعلنّ.

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ قَامَ أَبُو سُفْيَانَ فِيهِمْ خَطِيبًا وَقَالَ :

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ قَوْلًا أَخْشَىٰ أَنْ يَبْلُغَ مُحَمَّدًا ؛ فَلْيَنْظُرْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَنْ جَلِيسُهُ ، فَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا أَنْ أَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ إِلَىٰ جَنْبِي وَقُلْتُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ .

وَهُنَا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ قَرَارٍ ، لَقَدْ هَلَكَتْ رَوَاحِلُنَا[1]، وَتَخَلَّتْ عَنَّا بَنُو « قُرَيْظَةَ »[2]، وَلَقِينَا مِنْ شِدَّةِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ . ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ جَمَلِهِ فَفَكَّ عِقَالَهُ ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ قَائِمًا ... وَلَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَنِي أَلَّا أُحْدِثَ شَيْئًا حَتَّىٰ آتِيَهُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ .

عِنْدَ ذَلِكَ رَجَعْتُ إِلَىٰ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَوَجَدْتُهُ قَائِمًا يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ ، فَلَمَّا رَآنِي أَدْنَانِي إِلَىٰ رِجْلَيْهِ وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ فَأَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ ، فَسُرَّ بِهِ سُرُورًا شَدِيدًا وَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ .

* * *

ظَلَّ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ مُؤْتَمَنًا عَلَىٰ أَسْرَارِ الْمُنَافِقِينَ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ ، وَظَلَّ الْخُلَفَاءُ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي أَمْرِهِمْ ، حَتَّىٰ إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا مَاتَ أَحَدُ الْمُسْلِمِينَ يَسْأَلُ : أَحَضَرَ حُذَيْفَةُ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ ؟ ... فَإِنْ قَالُوا : نَعَمْ ، صَلَّىٰ عَلَيْهِ ، وَإِنْ قَالُوا : لَا ، شَكَّ فِيهِ ، وَأَمْسَكَ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ .

وَقَدْ سَأَلَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ : أَفِي عُمَّالِي أَحَدٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ؟ فَقَالَ : وَاحِدٌ ، فَقَالَ : دُلَّنِي عَلَيْهِ ، فَقَالَ : لَا أَفْعَلُ ...

قَالَ حُذَيْفَةُ : لَكِنَّ عُمَرَ مَا لَبِثَ أَنْ عَزَلَهُ كَأَنَّمَا هُدِيَ إِلَيْهِ .

وَلَعَلَّ قَلِيلًا مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ فَتَحَ لِلْمُسْلِمِينَ

(١) رواحلنا : دوابُّنا .

(٢) بنو قريظة : قبيلة من قبائل يهود المدينة .

« نَهَاوَنْدَ » وَ« الدِّينَوَرَ » ، وَ« هَمَذَانَ » وَ« الرَّيِّ »[1]... وَكَانَ سَبَبًا فِي جَمْعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ مُصْحَفٍ وَاحِدٍ بَعْدَ أَنْ كَادُوا يَفْتَرِقُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ .

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ ذَٰلِكَ كُلِّهِ كَانَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ شَدِيدَ الْخَوْفِ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنَ اللَّهِ ، عَظِيمَ الْخَشْيَةِ مِنْ عِقَابِهِ .

فَهُوَ حِينَ ثَقُلَ عَلَيْهِ مَرَضُ الْمَوْتِ جَاءَهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، فَقَالَ : أَيُّ سَاعَةٍ هَٰذِهِ ؟ .

فَقَالُوا : نَحْنُ قَرِيبٌ مِنَ الصُّبْحِ .

فَقَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ صَبَاحٍ يُفْضِي[2] بِي إِلَىٰ النَّارِ ... أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ صَبَاحٍ يُفْضِي بِي إِلَىٰ النَّارِ ... ثُمَّ قَالَ : أَجِئْتُمْ بِكَفَنٍ ؟ .

قَالُوا : نَعَمْ .

قَالَ : لَا تُغَالُوا بِالْأَكْفَانِ ؛ فَإِنْ يَكُنْ لِي عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ بُدِّلْتُ بِهِ خَيْرًا ، وَإِنْ كَانَتِ الْأُخْرَىٰ سُلِبَ مِنِّي ...

ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُحِبُّ الْفَقْرَ عَلَىٰ الْغِنَىٰ ، وَأُحِبُّ الذِّلَّةَ عَلَىٰ الْعِزِّ ، وَأُحِبُّ الْمَوْتَ عَلَىٰ الْحَيَاةِ .

ثُمَّ قَالَ وَرُوحُهُ تَفِيضُ : حَبِيبٌ جَاءَ عَلَىٰ شَوْقٍ ، لَا أَفْلَحَ مَنْ نَدِمَ ...

رَحِمَ اللَّهُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ فَقَدْ كَانَ طِرَازًا فَرِيدًا مِنَ النَّاسِ (*) .

(١) نهاوند والدِّينور وهمذان والرّي : مدن عظيمة في بلاد فارس .
(٢) يفضي بي : يوصلني .

(*) للاستزادة من أخبار حُذَيفَةَ بن الْيَمانِ انظر :
١ – الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ١/ ٢٧٧.
٢ – الإصابة : ١/٣١٧ أو « الترجمة » ١٦٤٧.
٣ – الطَّبقات الكبرىٰ : ١/ ٢٥.
٤ – سِيرُ أعلام النّبلاء : ٢/ ٢٦٠.
٥ – تهذيب التّهذيب : ٢/ ٢١٩.
٦ – صفة الصّفوة : ١/ ٢٤٩.
٧ – أسْدُ الْغابة : ١/ ٢٩٠.
٨ – تاريخ الإسلام : ٢/ ١٥٢.
٩ – المعارف : ١١٤.
١٠– النّجوم الزّاهرة : ١/ ٧٦، ٨٥، ١٠٢.

عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ

«لَقَدْ جَعَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ هَمَّهُ فِي أَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ :
الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ»

هَٰذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؛ يَبْلُغُ مَشَارِفَ «يَثْرِبَ»[1]، بَعْدَ طُولِ لَهْفَةٍ وَتَرَقُّبٍ ...

وَهَا هُمْ أَوْلَاءِ رِجَالُ الْمَدِينَةِ الطَّيِّبَةِ ؛ يَتَزَاحَمُونَ فِي الدُّرُوبِ مُهَلِّلِينَ[2] مُكَبِّرِينَ فَرَحًا بِلِقَاءِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَصَاحِبِهِ الصِّدِّيقِ ...

وَهَا هُنَّ نِسْوَةُ الْمَدِينَةِ الْمُخَدَّرَاتُ[3] وَصَبَايَاهَا الصَّغِيرَاتُ عَلَوْنَ سُطُوحَ الْمَنَازِلِ ، وَجَعَلْنَ يَتَرَاءَيْنَ[4] الرَّسُولَ ﷺ وَيَقُلْنَ :

أَيُّهُمْ هُوَ ؟ ... أَيُّهُمْ هُوَ ؟ ...

وَهَٰذَا مَوْكِبُ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ يَتَهَادَىٰ[5] بَيْنَ الصُّفُوفِ ؛ تَحُفُّهُ الْمُهَجُ الْمُشْتَاقَةُ ، وَتَحُوطُهُ الْأَفْئِدَةُ التَّوَّاقَةُ ، وَتَنْثُرُ حَوَالَيْهِ دُمُوعُ الْفَرَحِ ، وَبَسَمَاتُ السُّرُورِ .

* * *

لَكِنَّ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ الْجُهَنِيَّ لَمْ يَشْهَدْ مَوْكِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَمْ يَسْعَدْ بِاسْتِقْبَالِهِ مَعَ الْمُسْتَقْبِلِينَ .

ذَٰلِكَ ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ خَرَجَ إِلَىٰ الْبَوَادِي بِغُنَيْمَاتٍ لَهُ ؛ لِيَرْعَاهَا هُنَاكَ ، بَعْدَ

---

(١) مشارف يثرب : الأماكن المطلة على المدينة المنورة .
(٢) مُهلّلين : قائلين : لا إله إلا الله .
(٣) المُخدَّرات : المستقرات في خدورهن أي بيوتهن .
(٤) الترائي : الرؤية من بُعد .
(٥) يتهادىٰ : يمشي بتؤدة .

أَنِ اشْتَدَّ عَلَيْهَا السَّغَبُ(١) وَخَافَ عَلَيْهَا الْهَلَاكَ ، وَهِيَ كُلُّ مَا يَمْلِكُ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا(٢).

لَكِنَّ الْفَرْحَةَ الَّتِي غَمَرَتِ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ مَا لَبِثَتْ أَنْ عَمَّتْ بَوَادِيَهَا الْقَرِيبَةَ وَالْبَعِيدَةَ ، وَأَشْرَقَتْ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ مِنْ بِقَاعِهَا الطَّيِّبَةِ ، وَبَلَغَتْ تَبَاشِيرُهَا عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ الْجُهَنِيَّ ؛ وَهُوَ مَعَ غُنَيْمَاتِهِ بَعِيدًا فِي الْفَلَوَاتِ .

فَلْنَتْرُكِ الْكَلَامَ لِعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ لِيَرْوِيَ لَنَا قِصَّةَ لِقَائِهِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

قَالَ عُقْبَةُ :

قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَأَنَا فِي غُنَيْمَةٍ لِي أَرْعَاهَا ، فَمَا إِنْ تَنَاهَىٰ إِلَيَّ(٣) خَبَرُ قُدُومِهِ حَتَّىٰ تَرَكْتُهَا وَمَضَيْتُ إِلَيْهِ لَا أَلْوِي عَلَىٰ شَيْءٍ(٤) فَلَمَّا لَقِيتُهُ قُلْتُ : تُبَايِعُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟! قَالَ : (فَمَنْ أَنْتَ ؟) قُلْتُ : عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ ، قَالَ ﷺ: (أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ : تُبَايِعُنِي بَيْعَةً أَعْرَابِيَّةً أَوْ بَيْعَةَ هِجْرَةٍ ؟) . قُلْتُ : بَلْ بَيْعَةَ هِجْرَةٍ ، فَبَايَعَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ مَا بَايَعَ عَلَيْهِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَأَقَمْتُ مَعَهُ لَيْلَةً ثُمَّ مَضَيْتُ إِلَىٰ غَنَمِي .

* * *

وَكُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِمَّنْ أَسْلَمُوا نُقِيمُ بَعِيدًا عَنِ الْمَدِينَةِ لِنَرْعَىٰ أَغْنَامَنَا فِي بَوَادِيهَا .

فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ : لَا خَيْرَ فِينَا إِذَا نَحْنُ لَمْ نَقْدَمْ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، لِيُفَقِّهَنَا فِي دِينِنَا ، وَيُسْمِعَنَا مَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ وَحْيِ السَّمَاءِ ، فَلْيَمْضِ كُلَّ يَوْمٍ وَاحِدٌ مِنَّا إِلَىٰ « يَثْرِبَ » ، وَلْيَتْرُكْ غَنَمَهُ لَنَا فَنَرْعَاهَا لَهُ .

فَقُلْتُ : اذْهَبُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ وَلْيَتْرُكْ لِيَ الذَّاهِبُ

(١) السَّغَب : الجوع.
(٢) حطام الدّنيا : مالها الفاني.
(٣) تناهى إِلَيَّ : بلغني.
(٤) لا ألوي عَلَىٰ شيء : لا أقف عند شيء ولا أنتظر.

غَنَمَهُ ؛ لِأَنِّي كُنْتُ شَدِيدَ الْإِشْفَاقِ[1] عَلَىٰ غُنَيْمَتِي مِنْ أَنْ أَتْرُكَهَا لِأَحَدٍ .

* * *

ثُمَّ طَفِقَ أَصْحَابِي يَغْدُو[2] الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بَعْدَ الْآخَرِ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَيَتْرُكُ لِي غَنَمَهُ أَرْعَاهَا لَهُ ، فَإِذَا جَاءَ ، أَخَذْتُ مِنْهُ مَا سَمِعَ ، وَتَلَقَّيْتُ عَنْهُ مَا فَقِهَ ، لَكِنَّنِي مَا لَبِثْتُ أَنْ رَجَعْتُ إِلَىٰ نَفْسِي وَقُلْتُ : وَيْحَكَ !! ... أَمِنْ أَجْلِ غُنَيْمَاتٍ لَا تُسْمِنُ وَلَا تُغْنِي تُفَوِّتُ عَلَىٰ نَفْسِكَ صُحْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَالْأَخْذَ عَنْهُ مُشَافَهَةً مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ ؟! ... ثُمَّ تَخَلَّيْتُ عَنْ غُنَيْمَاتِي ، وَمَضَيْتُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لِأُقِيمَ فِي الْمَسْجِدِ بِجِوَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

لَمْ يَكُنْ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ يَخْطُرُ لَهُ عَلَىٰ بَالٍ - حِينَ اتَّخَذَ هَٰذَا الْقَرَارَ الْحَاسِمَ الْحَازِمَ - أَنَّهُ سَيَغْدُو بَعْدَ عِقْدٍ مِنَ الزَّمَانِ عَالِمًا مِنْ أَكَابِرِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ ، وَقَارِئًا مِنْ شُيُوخِ الْقُرَّاءِ ، وَقَائِدًا مِنْ قُوَّادِ الْفَتْحِ الْمَرْمُوقِينَ ، وَوَالِيًا مِنْ وُلَاةِ الْإِسْلَامِ الْمَعْدُودِينَ .

وَلَمْ يَكُنْ يَتَخَيَّلُ - مُجَرَّدَ تَخَيُّلٍ - وَهُوَ يَتَخَلَّىٰ عَنْ غُنَيْمَاتِهِ ، وَيَمْضِي إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنَّهُ سَيَكُونُ طَلِيعَةَ الْجَيْشِ الَّذِي يَفْتَحُ أُمَّ الدُّنْيَا « دِمَشْقَ » وَيَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ دَارًا بَيْنَ رِيَاضِهَا النَّضِرَةِ عِنْدَ « بَابِ تُومَا »[3] .

وَلَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُ - مُجَرَّدَ تَصَوُّرٍ - أَنَّهُ سَيَكُونُ أَحَدَ الْقَادَةِ الَّذِينَ سَيَفْتَحُونَ زُمُرُّدَةَ الْكَوْنِ الْخَضْرَاءَ « مِصْرَ » ، وَأَنَّهُ سَيَغْدُو وَالِيًا عَلَيْهَا ، وَيَخْتَطُّ لِنَفْسِهِ دَارًا فِي سَفْحِ جَبَلِهَا « الْمُقَطَّمِ »[4] ؛ فَتِلْكَ كُلُّهَا أُمُورٌ مُسْتَكِنَّةٌ[5] فِي ضَمِيرِ الْغَيْبِ ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ .

* * *

(١) شديد الإشفاق : شديد الخوف والمحاذرة .
(٢) يغدو : يذهب في الغداة ، والغداة الصباح .
(٣) باب توما : أحد أبواب دمشق القديمة .
(٤) المقطم : جبل مطل على القاهرة من جهة الجنوب قليل الارتفاع .
(٥) مستكنة : محتجبة مختبئة .

لَزِمَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرِ الْجُهَنِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لُزُومَ الظِّلِّ لِصَاحِبِهِ، فَكَانَ يَأْخُذُ لَهُ بِزِمَامِ بَغْلَتِهِ أَيْنَمَا سَارَ، وَيَمْضِي بَيْنَ يَدَيْهِ أَنَّى اتَّجَهَ، وَكَثِيرًا مَا أَرْدَفَهُ[1] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَاءَهُ، حَتَّى دُعِيَ «بِرَدِيفِ رَسُولِ اللَّهِ»، وَرُبَّمَا نَزَلَ لَهُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ عَنْ بَغْلَتِهِ لِيَكُونَ هُوَ الَّذِي يَرْكَبُ، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ الَّذِي يَمْشِي.

حَدَّثَ عُقْبَةُ قَالَ:

كُنْتُ آخُذُ بِزِمَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ غَابِ[2] الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لِي: (يَا عُقْبَةُ، أَلَا تَرْكَبُ؟!) فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُولَ: لَا؛ لَكِنِّي أَشْفَقْتُ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ مَعْصِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ، فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَنَزَلَ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ بَغْلَتِهِ وَرَكِبْتُ أَنَا امْتِثَالًا لِأَمْرِهِ... وَجَعَلَ هُوَ يَمْشِي. ثُمَّ مَا لَبِثْتُ أَنْ نَزَلْتُ عَنْهَا، وَرَكِبَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ قَالَ لِي: (يَا عُقْبَةُ أَلَا أُعَلِّمُكَ سُورَتَيْنِ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ؟) فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَقْرَأَنِي: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ وَ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾، ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَتَقَدَّمَ وَصَلَّى بِهِمَا، وَقَالَ: (اقْرَأْهُمَا كُلَّمَا نِمْتَ وَكُلَّمَا قُمْتَ).

قَالَ عُقْبَةُ: فَمَا زِلْتُ أَقْرَؤُهُمَا مَا امْتَدَّتْ بِيَ الْحَيَاةُ.

* * *

وَلَقَدْ جَعَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ هَمَّهُ[3] فِي أَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ: الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ، وَانْصَرَفَ إِلَيْهِمَا بِرُوحِهِ وَجَسَدِهِ، وَبَذَلَ لَهُمَا مِنْ ذَاتِهِ أَسْخَى الْبَذْلِ، وَأَكْرَمَهُ.

أَمَّا فِي مَجَالِ الْعِلْمِ فَقَدْ جَعَلَ يَعُبُّ مِنْ مَنَاهِلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الثَّرَّةِ[4]

(١) أردفه: أركبه خلفه.
(٢) غاب المدينة: أجماتها ذوات الأشجار الكثيفة الملتفة.
(٣) همّه: اهتمامه وعنايته.
(٤) الثرة: الغزيرة.

الْعَذْبَةِ حَتَّىٰ غَدَا مُقْرِئًا ، مُحَدِّثًا ، فَقِيهًا ، فَرَضِيًّا[1]، أَدِيبًا ، فَصِيحًا ، شَاعِرًا .

وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ ، وَكَانَ إِذَا مَا سَجَا[2] اللَّيْلُ وَهَدَأَ الْكَوْنُ انْصَرَفَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ يَقْرَأُ مِنْ آيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ ، فَتُصْغِي لِتَرْتِيلِهِ أَفْئِدَةُ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ، وَتَخْشَعُ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَتَفِيضُ عُيُونُهُمْ بِالدَّمْعِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .

وَقَدْ دَعَاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَوْمًا فَقَالَ : اعْرِضْ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ يَا عُقْبَةُ ، فَقَالَ : سَمْعًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ جَعَلَ يَقْرَأُ لَهُ مَا تَيَسَّرَ مِنْ آيِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، وَعُمَرُ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّلَتْ دُمُوعُهُ لِحْيَتَهُ .

وَقَدْ تَرَكَ عُقْبَةُ مُصْحَفًا مَكْتُوبًا بِخَطِّ يَدِهِ ، وَبَقِيَ مُصْحَفُهُ هَٰذَا إِلَىٰ عَهْدٍ غَيْرِ بَعِيدٍ مَوْجُودًا فِي « مِصْرَ » فِي الْجَامِعِ الْمَعْرُوفِ بِجَامِعِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ، وَقَدْ جَاءَ فِي آخِرِهِ : « كَتَبَهُ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ » .

وَمُصْحَفُ عُقْبَةَ هَٰذَا مِنْ أَقْدَمِ الْمَصَاحِفِ الَّتِي وُجِدَتْ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ لَكِنَّهُ فُقِدَ فِي جُمْلَةِ مَا فُقِدَ مِنْ تُرَاثِنَا الثَّمِينِ ، وَنَحْنُ عَنْهُ غَافِلُونَ .

* * *

وَأَمَّا فِي مَجَالِ الْجِهَادِ ؛ فَحَسْبُنَا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ الْجُهَنِيَّ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « أُحُدًا » وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْمَغَازِي ، وَأَنَّهُ كَانَ أَحَدَ الْكُمَاةِ الْأَشَاوِسِ الْمَغَاوِيرِ ، الَّذِينَ أَبْلَوْا يَوْمَ فَتْحِ « دِمَشْقَ » أَعَزَّ الْبَلَاءِ وَأَعْظَمَهُ ، فَكَافَأَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ[3] عَلَىٰ حُسْنِ بَلَائِهِ بِأَنْ بَعَثَهُ بَشِيرًا إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي الْمَدِينَةِ لِيُبَشِّرَهُ بِالْفَتْحِ ، فَظَلَّ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا مِنَ الْجُمُعَةِ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ يُغِذُّ السَّيْرَ دُونَ انْقِطَاعٍ ، حَتَّىٰ بَشَّرَ الْفَارُوقَ بِالْفَتْحِ الْعَظِيمِ .

ثُمَّ إِنَّهُ كَانَ أَحَدَ قَادَةِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي فَتَحَتْ « مِصْرَ » ، فَكَافَأَهُ أَمِيرُ

(١) فرضيًا : عالمًا بالفرائض ، والمقصود بها هنا علم المواريث والتركات .
(٢) سجا الليل : هدأ وسكن.　　(٣) أبو عبيدة بن الجراح : انظره ص ٨٩.

الْمُؤْمِنِينَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ(١) بِأَنْ جَعَلَهُ وَالِيًا عَلَيْهَا ثَلَاثَ سِنِينَ ، ثُمَّ وَجَّهَهُ لِغَزْوِ جَزِيرَةِ « رُودُسَ » فِي الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ وَلَعِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ بِالْجِهَادِ ، أَنَّهُ وَعَىٰ أَحَادِيثَ الْجِهَادِ فِي صَدْرِهِ ، وَاخْتَصَّ بِرِوَايَتِهَا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَأَنَّهُ دَأَبَ عَلَىٰ حِذْقِ الرِّمَايَةِ حَتَّىٰ إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَلَهَّىٰ تَلَهَّىٰ بِالرَّمْيِ .

* * *

وَلَمَّا مَرِضَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ مَرَضَ الْمَوْتِ - وَهُوَ فِي « مِصْرَ » - جَمَعَ بَنِيهِ فَأَوْصَاهُمْ فَقَالَ : يَا بَنِيَّ أَنْهَاكُمْ عَنْ ثَلَاثٍ فَاحْتَفِظُوا بِهِنَّ :

لَا تَقْبَلُوا الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا مِنْ ثِقَةٍ ، وَلَا تَسْتَدِينُوا وَلَوْ لَبِسْتُمُ الْعَبَاءَ(٢)، وَلَا تَكْتُبُوا شِعْرًا فَتَشْغَلُوا بِهِ قُلُوبَكُمْ عَنِ الْقُرْآنِ .

وَلَمَّا أَدْرَكَتْهُ الْوَفَاةُ ، دَفَنُوهُ فِي سَفْحِ « الْمُقَطَّمِ » ثُمَّ انْقَلَبُوا إِلَىٰ تَرِكَتِهِ يُفَتِّشُونَهَا ، فَإِذَا هُوَ قَدْ خَلَّفَ بِضْعًا وَسَبْعِينَ قَوْسًا ؛ مَعَ كُلِّ قَوْسٍ قَرْنٌ وَنِبَالٌ ، وَقَدْ أَوْصَىٰ بِهِنَّ أَنْ يُجْعَلْنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ الْقَارِئِ الْعَالِمِ الْغَازِي عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ ، وَجَزَاهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ (*) .

---

(١) مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ : صخر بن حرب القرشي الأموي ، أسلم عام الفتح وكان من كتبة الوحي ، أسس الدّولة الأموية بالشام ، كانت وفاته سنة ٦٠هـ.

(٢) الْعَبَاء : كساء مفتوح من الأمام .

(*) للاستزادة من أخبار عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ انظر :

١ - النّجوم الزّاهرة : ١/ ١٩، ٢١، ٦٢، ٨١ وغيرها.
٢ - طبقات علماء أفريقية وتونس: ٥٨/ ٧٠.
٣ - الإصابة : ٤٨٩/٢ أو « الترجمة » ٥٦٠١.
٤ - سِيَرُ أعلام النّبلاء: ٢/ ٣٣٤.
٥ - جمهرة الأنساب: ٤١٦.
٦ - المعارف: ١٢١.
٧ - قلائد الجمان : ٤١.
٨ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٣/ ١٠٦.
٩ - أُسْدُ الغابة : ٣/ ٤١٧.
١٠- فتوح مصر وأخبارها: ٢٨٧.
١١- تهذيب التّهذيب : ٧/ ٢٤٢.
١٢- تذكرة الحفاظ : ١/ ٤٢.

الكتاب الخامس

بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ

مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللهِ

« أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا »
[يَعْنِي بِلَالًا]

[عُمَرُ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ]

لِبِلَالِ بْنِ رَبَاحٍ مُؤَذِّنِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، سِيرَةٌ مِنْ أَرْوَعِ سِيَرِ النِّضَالِ فِي سَبِيلِ الْعَقِيدَةِ ...

وَقِصَّةٌ لَا يَمَلُّ الزَّمَانُ مِنْ تَرْدِيدِهَا ...

وَلَا تَشْبَعُ الْآذَانُ مِنْ سِحْرِ نَشِيدِهَا .

وُلِدَ بِلَالٌ فِي « السَّرَاةِ » قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِنَحْوِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً لِأَبٍ كَانَ يُدْعَىٰ « رَبَاحًا » ، أَمَّا أُمُّهُ فَكَانَتْ تُدْعَىٰ « حَمَامَةَ » ...

وَهِيَ أَمَةٌ[1] سَوْدَاءُ مِنْ إِمَاءِ مَكَّةَ ...

وَلِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ يَدْعُونَهُ بِابْنِ السَّوْدَاءِ .

* * *

نَشَأَ بِلَالٌ فِي « أُمِّ الْقُرَىٰ »[2]، وَكَانَ مَمْلُوكًا لِأَيْتَامٍ مِنْ بَنِي « عَبْدِ الدَّارِ » أَوْصَىٰ بِهِمْ أَبُوهُمْ إِلَىٰ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ أَحَدِ رُؤُوسِ الْكُفْرِ .

وَلَمَّا أَشْرَقَتْ مَكَّةُ بِأَنْوَارِ الدِّينِ الْجَدِيدِ ...

وَهَتَفَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ ...

---

(١) الْأَمَةُ : الجارية المملوكة لسيدها.

(٢) أُمُّ الْقُرَىٰ : مكة المكرمة.

كَانَ بِلَالٌ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ.

فَقَدْ أَسْلَمَ وَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا هُوَ وَبِضْعَةُ نَفَرٍ[1] مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ.

عَلَىٰ رَأْسِهِمْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ.

وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ[2].

وَصُهَيْبٌ الرُّومِيُّ[3]، وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ[4].

وَقَدْ لَقِيَ بِلَالٌ مِنْ أَذَىٰ الْمُشْرِكِينَ مَا لَمْ يَلْقَهُ سِوَاهُ...

وَعَانَىٰ مِنْ قَسْوَتِهِمْ، وَبَطْشِهِمْ، وَغِلَظِ قُلُوبِهِمْ مَا لَمْ يُعَانِهِ غَيْرُهُ... وَصَبَرَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ عَلَىٰ الِابْتِلَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا لَمْ يَصْبِرْ أَحَدٌ.

فَلَقَدْ كَانَتْ لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَصَبِيَّةٌ تَمْنَعُهُمَا، وَقَوْمٌ يَحْمُونَهُمَا، أَمَّا أُولَئِكَ الْمُسْتَضْعَفُونَ مِنَ الْأَرِقَّاءِ وَالْإِمَاءِ[5]؛ فَقَدْ نَكَّلَتْ[6] بِهِمْ قُرَيْشٌ أَشَدَّ التَّنْكِيلِ... فَلَقَدْ أَرَادَتْ أَنْ تَجْعَلَهُمْ عِبْرَةً لِمَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِنَبْذِ آلِهَتِهِمْ وَاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ.

وَقَدْ تَصَدَّىٰ لِتَعْذِيبِ هَؤُلَاءِ طَائِفَةٌ مِنْ أَغْلَظِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ كَبِدًا، وَأَقْسَاهُمْ قَلْبًا... فَلَقَدْ بَاءَ أَبُو جَهْلٍ[7] - أَخْزَاهُ اللَّهُ - بِإِثْمِ «سُمَيَّةَ» فَوَقَفَ عَلَيْهَا يَسُبُّ

(١) بِضْعَةُ نفر: جماعة قليلة لا تزيد عن عشرة.

(٢) عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ: انظر آل ياسر ص ٥٠١.

(٣) صُهَيْبٌ الرُّومِيُّ: انظره ص ١٩٣.

(٤) الْمِقْدَاد بْنُ الْأَسْوَد: هو المقداد بن عمرو، قديم الإسلام، هاجر إلىٰ الحبشة والمدينة وشهد بدرًا وغيرها. مات سنة ٣٣هـ في خلافة عثمان.

(٥) الْأَرِقَّاءِ وَالْإِمَاءِ: العبيد المملوكون رجالًا ونساءً.

(٦) نَكَّلَتْ بهم: عذبتهم وجعلتهم عبرة لغيرهم.

(٧) أَبُو جَهْل: انظر مصرع أبي جهل في كتاب «حدث في رمضان» للمؤلف.

وَيَرْفُثُ[1]، ثُمَّ طَعَنَهَا بِرُمْحِهِ طَعْنَةً دَخَلَتْ مِنْ أَسْفَلِ بَطْنِهَا وَخَرَجَتْ مِنْ ظَهْرِهَا ... فَكَانَتْ أَوَّلَ شَهِيدَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ...

وَأَمَّا الْآخَرُونَ مِنْ إِخْوَتِهَا فِي اللَّهِ وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ فَقَدْ أَطَالَتْ قُرَيْشٌ تَعْذِيبَهُمْ ... كَانُوا إِذَا تَوَسَّطَتِ الشَّمْسُ كَبِدَ السَّمَاءِ، وَالْتَهَبَتْ رِمَالُ مَكَّةَ بِالرَّمْضَاءِ[2]... يَنْزِعُونَ عَنْهُمْ ثِيَابَهُمْ، وَيُلْبِسُونَهُمْ دُرُوعَ[3] الْحَدِيدِ، وَيَصْهَرُونَهُمْ[4] بِأَشِعَّةِ الشَّمْسِ الْمُتَّقِدَةِ ...

وَيُلْهِبُونَ ظُهُورَهُمْ بِالسِّيَاطِ[5]، وَيَأْمُرُونَهُمْ بِأَنْ يَسُبُّوا مُحَمَّدًا.

فَكَانُوا إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ التَّعْذِيبُ، وَعَجَزَتْ طَاقَاتُهُمْ عَنْ تَحَمُّلِهِ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ فِيمَا يُرِيدُونَهُ مِنْهُمْ، وَقُلُوبُهُمْ مُعَلَّقَةٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَّا بِلَالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ؛ فَقَدْ كَانَتْ نَفْسُهُ تَهُونُ عَلَيْهِ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَكَانَ الَّذِي يَتَوَلَّىٰ كِبْرَ تَعْذِيبِهِ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ وَزَبَانِيَتُهُ[6].

لَقَدْ كَانُوا يُلْهِبُونَ ظَهْرَهُ بِالسِّيَاطِ؛ فَيَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ ...

وَيُطْبِقُونَ عَلَىٰ صَدْرِهِ الصُّخُورَ؛ فَيُنَادِي: أَحَدٌ أَحَدٌ ...

وَيَشْتَدُّونَ عَلَيْهِ فِي النَّكَالِ؛ فَيَهْتِفُ: أَحَدٌ أَحَدٌ ...

كَانُوا يَحْمِلُونَهُ عَلَىٰ ذِكْرِ اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ[7]؛ فَيَذْكُرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ...

وَيَقُولُونَ لَهُ: قُلْ كَمَا نَقُولُ ...

فَيُجِيبُهُمْ: إِنَّ لِسَانِي لَا يُحْسِنُهُ ...

---

(١) يرفث: يشتم شتمًا قبيحًا.
(٢) الرَّمْضَاءِ: الرِّمال الملتهبة بحرارة الشَّمس.
(٣) دُرُوعَ الْحَدِيدِ: ثياب من حديد تحمي صدر الفارس.
(٤) يصهرونهم: يحرقونهم بالشَّمس.
(٥) السّوط: جلد مضفور يضرب به.
(٦) زَبَانِيَتُه: جنوده الغلاظ القلوب.
(٧) اللَّات وَالْعُزَّىٰ: انظر هدم الأصنام في كتاب «حدث في رمضان» للمؤلف.

فَيَلِجُّونَ[1] فِي إِيذَائِهِ، وَيُمْعِنُونَ فِي تَعْذِيبِهِ...

وَكَانَ الطَّاغِيَةُ الْجَبَّارُ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ إِذَا مَلَّ مِنْ تَعْذِيبِهِ طَوَّقَ عُنُقَهُ بِحَبْلٍ غَلِيظٍ، وَأَسْلَمَهُ إِلَى السُّفَهَاءِ وَالْوِلْدَانِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَطُوفُوا بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، وَأَنْ يَجُرُّوهُ فِي أَبَاطِحِهَا...

فَكَانَ بِلَالٌ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَسْتَعْذِبُ[2] الْعَذَابَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيُرَدِّدُ عَلَى الدَّوَامِ نَشِيدَهُ الْعُلْوِيَّ: أَحَدٌ أَحَدٌ... أَحَدٌ أَحَدٌ...

فَلَا يَمَلُّ مِنْ تَرْدَادِهِ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْ إِنْشَادِهِ.

* * *

وَقَدْ عَرَضَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَى أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ أَنْ يَشْتَرِيَهُ مِنْهُ فَأَغْلَى بِهِ الثَّمَنَ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَأْخُذُهُ...

فَاشْتَرَاهُ مِنْهُ بِتِسْعِ أَوَاقٍ مِنَ الذَّهَبِ...

فَقَالَ لَهُ أُمَيَّةُ بَعْدَ أَنْ تَمَّتِ الصَّفْقَةُ: لَوْ أَبَيْتَ أَخْذَهُ إِلَّا بِأُوقِيَّةٍ لَبِعْتُهُ.

فَقَالَ لَهُ الصِّدِّيقُ:

لَوْ أَبَيْتَ بَيْعَهُ إِلَّا بِمِائَةٍ لَاشْتَرَيْتُهُ...

وَلَمَّا أَخْبَرَ الصِّدِّيقُ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِاشْتِرَائِهِ بِلَالًا، وَإِنْقَاذِهِ مِنْ أَيْدِي مُعَذِّبِيهِ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(الشَّرِكَةَ[3] يَا أَبَا بَكْرٍ).

فَقَالَ لَهُ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ: «لَقَدْ أَعْتَقْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ».

* * *

وَلَمَّا أَذِنَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ... هَاجَرَ بِلَالٌ رِضْوَانُ اللَّهِ

(١) يَلِجُّونَ: يتعمقون في الإيذاء.
(٢) يَسْتَعْذِبُ الْعَذَابَ: يجد العذاب عذبًا.
(٣) الشَّرِكَةَ يَا أَبَا بَكْر: أي شارِكْني فيه.

عَلَيْهِ فِي جُمْلَةِ مَنْ هَاجَرَ... وَنَزَلَ هُوَ وَالصِّدِّيقُ وَعَامِرُ بْنُ فُهَيْرَ[1] فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ، فَأُصِيبُوا بِالْحُمَّىٰ جَمِيعًا فَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أَقْلَعَتْ[2] عَنْهُ الْحُمَّىٰ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ[3]، وَجَعَلَ يَتَرَنَّمُ بِصَوْتِهِ الْعَذْبِ قَائِلًا:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً
«بِفَخٍّ»[4] وَحَوْلِي «إِذْخِرٌ»[5] وَ«جَلِيلُ»
وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ «مِجَنَّةٍ»[6]
وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي «شَامَةٌ» وَ«طَفِيلُ»[7]

وَلَا عَجَبَ إِذَا حَنَّ بِلَالٌ إِلَىٰ مَكَّةَ وَشِعَابِهَا، وَاشْتَاقَ وِدْيَانَهَا وَجِبَالَهَا...

فَهُنَاكَ ذَاقَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ...

وَهُنَاكَ اسْتَعْذَبَ الْعَذَابَ فِي جَنْبِ[8] اللَّهِ...

وَهُنَاكَ انْتَصَرَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَعَلَىٰ الشَّيْطَانِ...

* * *

اسْتَقَرَّ بِلَالٌ فِي «يَثْرِبَ» بَعِيدًا عَنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ، وَتَفَرَّغَ لِنَبِيِّهِ وَحَبِيبِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

فَكَانَ يَغْدُو مَعَهُ إِذَا غَدَا، وَيَعُودُ مَعَهُ إِذَا عَادَ...

وَيُصَلِّي مَعَهُ إِذَا صَلَّىٰ، وَيَغْزُو مَعَهُ إِذَا غَزَا...

حَتَّىٰ أَصْبَحَ أَلْزَمَ لَهُ مِنْ ظِلِّهِ[9].

(١) عامر بن فهير: من بني تميم أحد السابقين إلى الإسلام وكان ممن يُعذب في الله، اشتراه أبو بكر وأعتقه، استشهد في بئر معونة.
(٢) أقلعت عنه: تركته.
(٣) رَفَعَ عقيرته: رفع صوته.
(٤) فخ: موضع خارج مكة.
(٥) الإذخر: نبات طيب الرائحة.
(٦) مجنة: اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية على مسافة بريد من مكة.
(٧) شامة وطفيل: جبلان بمكة.
(٨) في جَنْب الله: ابتغاء وجه الله.
(٩) أَلْزَمَ لَهُ مِنْ ظِلِّه: ملازم له لا يتركه.

وَلَمَّا شَيَّدَ الرَّسُولُ ـ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ـ مَسْجِدَهُ فِي الْمَدِينَةِ، وَشُرِعَ الْأَذَانُ ... كَانَ بِلَالٌ أَوَّلَ مُؤَذِّنٍ فِي الْإِسْلَامِ.

وَكَانَ إِذَا فَرَغَ مِنَ الْأَذَانِ وَقَفَ عَلَىٰ بَابِ بَيْتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ: حَيَّ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَىٰ الْفَلَاحِ ...

فَإِذَا خَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ حُجْرَتِهِ وَرَآهُ بِلَالٌ مُقْبِلًا ابْتَدَأَ بِالْإِقَامَةِ.

* * *

وَقَدْ أَهْدَىٰ «النَّجَاشِيُّ»[(١)] مَلِكُ «الْحَبَشَةِ» الرَّسُولَ الْأَعْظَمَ ﷺ ثَلَاثَةَ رِمَاحٍ قَصِيرَةٍ مِنْ نَفَائِسِ مَا يَقْتَنِيهِ الْمُلُوكُ، فَاحْتَفَظَ لِنَفْسِهِ بِوَاحِدٍ مِنْهَا، وَأَعْطَىٰ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَاحِدًا، وَأَعْطَىٰ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَاحِدًا ...

ثُمَّ اخْتَصَّ بِرُمْحِهِ بِلَالًا، فَجَعَلَ بِلَالٌ يَسْعَىٰ بِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ كُلَّهَا ...

فَكَانَ يَحْمِلُهُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَفِي صَلَوَاتِ الِاسْتِسْقَاءِ، وَيَرْكُزُهُ أَمَامَهُ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فِي غَيْرِ الْمَسْجِدِ.

* * *

وَلَقَدْ شَهِدَ بِلَالٌ مَعَ نَبِيِّهِ «بَدْرًا»؛ فَرَأَىٰ بِعَيْنَيْهِ كَيْفَ أَنْجَزَ[(٢)] اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ جُنْدَهُ، وَشَهِدَ مَصَارِعَ الطُّغَاةِ الَّذِينَ كَانُوا يُعَذِّبُونَهُ سُوءَ الْعَذَابِ ...

وَأَبْصَرَ أَبَا جَهْلٍ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ صَرِيعَيْنِ تَنُوشُهُمَا[(٣)] سُيُوفُ الْمُسْلِمِينَ، وَتَنْهَلُ مِنْ دِمَائِهِمَا رِمَاحُ الْمُعَذَّبِينَ.

* * *

وَلَمَّا دَخَلَ الرَّسُولُ ﷺ مَكَّةَ فَاتِحًا عَلَىٰ رَأْسِ كَتِيبَتِهِ الْخَضْرَاءِ كَانَ مَعَهُ دَاعِي السَّمَاءِ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ.

---

(١) النَّجَاشِيُّ: انظره في كتاب «صور من حياة التَّابعين» للمؤلف، النَّاشر دار الأدب الإسلامي.
(٢) أَنْجَزَ: أوفى بوعده. (٣) تَنُوشُهُمَا: تصيبهما.

وَحِينَ دَخَلَ الْكَعْبَةَ الْمُعَظَّمَةَ لَمْ يَكُنْ فِي صُحْبَتِهِ إِلَّا ثَلَاثَةُ رِجَالٍ هُمْ:

عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ(١) حَامِلُ مَفَاتِيحِ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ.

وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ(٢) حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ وَابْنُ حِبِّهِ.

وَبِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللَّهِ.

وَلَمَّا حَانَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ كَانَتِ الْأُلُوفُ الْمُؤَلَّفَةُ تُحِيطُ بِالرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ.

وَكَانَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا؛ يَشْهَدُونَ ذَلِكَ الْمَشْهَدَ الْكَبِيرَ...

عِنْدَ ذَلِكَ دَعَا الرَّسُولُ ﷺ بِلَالَ بْنَ رَبَاحٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَصْعَدَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْكَعْبَةِ... وَأَنْ يُعْلِنَ مِنْ فَوْقِهَا كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ، فَصَدَعَ بِلَالٌ بِالْأَمْرِ...

وَأَرْسَلَ صَوْتَهُ الْجَهِيرَ بِالْأَذَانِ.

فَامْتَدَّتْ آلَافُ الْأَعْنَاقِ نَحْوَهُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَانْطَلَقَتْ آلَافُ الْأَلْسُنِ تُرَدِّدُ وَرَاءَهُ فِي خُشُوعٍ.

أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ(٣) فَقَدْ أَخَذَ الْحَسَدُ يَنْهَشُ قُلُوبَهُمْ نَهْشًا، وَجَعَلَتِ الضَّغِينَةُ(٤) تُمَزِّقُ قُلُوبَهُمْ تَمْزِيقًا.

فَمَا إِنْ وَصَلَ بِلَالٌ فِي الْأَذَانِ إِلَىٰ قَوْلِهِ: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ» حَتَّىٰ قَالَتْ «جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ أَبِي جَهْلٍ»: لَعَمْرِي لَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ لَكَ ذِكْرَكَ...

أَمَّا الصَّلَاةُ فَنُصَلِّي وَلَكِنَّنَا ـ وَاللَّهِ ـ مَا نُحِبُّ مَنْ قَتَلَ الْأَحِبَّةَ.

---

(١) عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ: حاجب البيت العتيق، أسلم في صلح الحديبية وهاجر مع خالد بن الوليد، وقد رافق أم سلمة في هجرتها إلى المدينة قبل إسلامه.

(٢) أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ: انظره ص ٢١٩.

(٣) فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ: غير خالصي الإيمان.

(٤) الضَّغِينَةُ: الحقد وإضمار السوء.

وَكَانَ أَبُوهَا قَدْ قُتِلَ فِي «بَدْرٍ».

وَقَالَ خَالِدُ بْنُ أُسَيْدٍ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَ أَبِي فَلَمْ يَشْهَدْ هَذَا الْيَوْمَ، وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ مَاتَ قَبْلَ الْفَتْحِ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ...

وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ: وَاثُكْلَاهُ...

لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ أَنْ أَرَىٰ بِلَالًا فَوْقَ الْكَعْبَةِ.

وَقَالَ الْحَكَمُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ: هَذَا - وَاللَّهِ - الْخَطْبُ الْجَلَلُ أَنْ يُصْبِحَ عَبْدُ بَنِي «جُمَحٍ» يَنْهَقُ عَلَىٰ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ[1].

وَكَانَ مَعَهُمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَلَا أَقُولُ شَيْئًا...

فَإِنِّي لَوْ فُهْتُ[2] بِكَلِمَةٍ؛ لَنَقَلَتْهَا هَذِهِ الْحَصَاةُ إِلَىٰ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ.

* * *

وَلَقَدْ ظَلَّ بِلَالٌ يُؤَذِّنُ لِلرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ طُوَالَ حَيَاتِهِ.

وَظَلَّ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ يَأْنَسُ إِلَىٰ هَذَا الصَّوْتِ الَّذِي عُذِّبَ فِي اللَّهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَهُوَ يُرَدِّدُ: أَحَدٌ... أَحَدٌ.

وَلَمَّا انْتَقَلَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ إِلَىٰ الرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ، وَحَانَ وَقْتُ الصَّلَاةِ... قَامَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُ فِي النَّاسِ - وَالنَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ مُسَجًّى[3] لَمْ يُدْفَنْ بَعْدُ - فَلَمَّا وَصَلَ إِلَىٰ قَوْلِهِ: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»...

خَنَقَتْهُ الْعَبَرَاتُ... وَاحْتَبَسَ[4] صَوْتُهُ فِي حَلْقِهِ...

وَأَجْهَشَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْبُكَاءِ، وَأَغْرَقُوا فِي النَّحِيبِ.

ثُمَّ أَذَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.

---

(١) الْبَنِيَّة: المقصود الكعبة المشرفة.
(٢) لو فُهت: لو خرجت كلمة من فمي.
(٣) مُسَجًّى: مغطًّى.
(٤) احتَبَس صَوْتُه في حَلْقِه: لم يستطع الكلام.

فَكَانَ كُلَّمَا وَصَلَ إِلَىٰ قَوْلِهِ «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»؛ بَكَىٰ وَأَبْكَىٰ ... عِنْدَ ذَلِكَ طَلَبَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُعْفِيَهُ مِنَ الْأَذَانِ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ لَا يَحْتَمِلُهُ[1].

وَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْخُرُوجِ إِلَىٰ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُرَابَطَةِ[2] فِي بِلَادِ الشَّامِ ... فَتَرَدَّدَ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الِاسْتِجَابَةِ لِطَلَبِهِ، وَالْإِذْنِ لَهُ بِمُغَادَرَةِ الْمَدِينَةِ ... فَقَالَ لَهُ بِلَالٌ:

إِنْ كُنْتَ اشْتَرَيْتَنِي لِنَفْسِكَ فَأَمْسِكْنِي ...

وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَعْتَقْتَنِي لِلَّهِ فَخَلِّنِي لِمَنْ أَعْتَقْتَنِي لَهُ.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ مَا اشْتَرَيْتُكَ إِلَّا لِلَّهِ ...

وَمَا أَعْتَقْتُكَ إِلَّا فِي سَبِيلِهِ.

فَقَالَ بِلَالٌ: إِنِّي لَا أُؤَذِّنُ لِأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَكَ ذَلِكَ.

* * *

رَحَلَ بِلَالٌ عَنِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مَعَ أَوَّلِ بَعْثٍ مِنْ بُعُوثِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَقَامَ فِي «دَارِيَّا» بِالْقُرْبِ مِنْ «دِمَشْقَ».

وَلَقَدْ ظَلَّ مُمْسِكًا عَنِ الْأَذَانِ حَتَّىٰ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِلَادَ الشَّامِ ... فَلَقِيَ بِلَالًا رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بَعْدَ غِيَابٍ طَوِيلٍ ...

وَكَانَ عُمَرُ شَدِيدَ الشَّوْقِ إِلَيْهِ، عَظِيمَ الْإِجْلَالِ لَهُ، حَتَّىٰ إِنَّهُ كَانَ إِذَا ذُكِرَ الصِّدِّيقُ أَمَامَهُ يَقُولُ: «إِنَّ أَبَا بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَهُوَ الَّذِي أَعْتَقَ سَيِّدَنَا» [يَعْنِي بِلَالًا رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ].

(١) لا يحتمله: لا يطيق أن يؤذن في غياب رسول الله ﷺ. (٢) الْمُرَابَطَة: الملازمة لثغور الأعداء.

وَهُنَاكَ عَزَمَ الصَّحَابَةُ عَلَىٰ بِلَالٍ أَنْ يُؤَذِّنَ فِي حَضْرَةِ الْفَارُوقِ ...

فَمَا إِنِ ارْتَفَعَ صَوْتُهُ بِالْأَذَانِ حَتَّىٰ بَكَىٰ عُمَرُ، وَبَكَىٰ مَعَهُ الصَّحَابَةُ حَتَّىٰ اخْضَلَّتِ اللُّحَىٰ[1] بِالدُّمُوعِ.

فَلَقَدْ أَهَاجَ بِلَالٌ أَشْوَاقَهُمْ إِلَىٰ عُهُودِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، سُقْيًا لَهَا مِنْ عُهُودٍ ...

* * *

وَلَقَدْ ظَلَّ دَاعِي السَّمَاءِ يُقِيمُ فِي مِنْطَقَةِ «دِمَشْقَ» حَتَّىٰ وَافَاهُ الْأَجَلُ الْمَحْتُومُ؛ فَكَانَتِ امْرَأَتُهُ تُعْوِلُ إِلَىٰ جَانِبِهِ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ، وَتَصِيحُ قَائِلَةً:

وَاحَزَنَاهُ ...

وَكَانَ هُوَ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَيُجِيبُهَا قَائِلًا:

وَافَرَحَاهُ ...

ثُمَّ لَفَظَ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ وَهُوَ يُرَدِّدُ:

غَدًا نَلْقَىٰ الْأَحِبَّهْ ... مُحَمَّدًا وَصَحْبَهْ

غَدًا نَلْقَىٰ الْأَحِبَّهْ ... مُحَمَّدًا وَصَحْبَهْ (*).

---

(١) اخضلت اللِّحىٰ: ابتلت.

(*) للاستزادة من أخبار بِلَالِ بْنِ رَبَاحٍ انظر:

١ - الإصابة: ١/١٦٥ أو «الترجمة» ٧٣٦.
٢ - الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ١/ ١٤١.
٣ - أُسْدُ الغابة: ١/ ٢٠٦.
٤ - تهذيب التهذيب: ١/ ٥٠٢.
٥ - تجريد أسماء الصحابة: ١/ ٥٩.
٦ - الجمع بين رجال الصحيحين: ١/ ٦٠.
٧ - حلية الأولياء: ١/ ١٤٧.
٨ - صفة الصفوة: ١/ ١٧١.
٩ - سير أعلام النبلاء: ١/ ٢٥١.
١٠ - ابن كثير: ٧/ ١٠٢.
١١ - تاريخ الإسلام للذهبي: ٢/ ٣١.
١٢ - الأعلام وتراجمه.

حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ

« بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ ، رَحِمَكُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ »

[مِنْ ثَنَاءِ الرَّسُولِ عَلَىٰ حَبِيبٍ وَآلِ بَيْتِهِ]

فِي بَيْتٍ تَتَضَوَّعُ[1] طُيُوبُ الْإِيمَانِ فِي كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهِ ...

وَتَلُوحُ صُوَرُ التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ عَلَىٰ جَبِينِ كُلِّ سَاكِنٍ مِنْ سُكَّانِهِ ...

نَشَأَ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ وَدَرَجَ .

* * *

فَأَبُوهُ هُوَ زَيْدُ بْنُ عَاصِمٍ طَلِيعَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي « يَثْرِبَ » ، وَأَحَدُ السَّبْعِينَ الَّذِينَ شَهِدُوا الْعَقَبَةَ[2] وَشَدُّوا عَلَىٰ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُبَايِعِينَ ، وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ وَوَلَدَاهُ .

وَأُمُّهُ هِيَ أُمُّ عُمَارَةَ نَسِيبَةُ الْمَازِنِيَّةُ[3] أَوَّلُ امْرَأَةٍ حَمَلَتِ السِّلَاحَ دِفَاعًا عَنْ دِينِ اللَّهِ ، وَذِيَادًا[4] عَنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ .

وَأَخُوهُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ الَّذِي جَعَلَ نَحْرَهُ دُونَ نَحْرِ[5] النَّبِيِّ ﷺ وَصَدْرَهُ دُونَ صَدْرِهِ يَوْمَ « أُحُدٍ » ...

حَتَّىٰ قَالَ فِيهِمُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ :

(بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ ... رَحِمَكُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ) ...

* * *

(١) تتضوّع طيوب الإيمان : تنتشر طيوب الإيمان .

(٢) العقبة : مَوْضِعٌ في مِنًى بايع فيه المسلمون الأولون من الأنصار النبي عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام .

(٣) نَسِيبَة المازنيّة : انظرها في كتاب « صور من حياة الصّحابيات » للمؤلف .

(٤) ذيادًا : دفاعًا .

(٥) جعل نحره دون نحر النّبي : النحر : أعلىٰ الصّدر ، وجعل نحره دون نحر النّبي : أي جعل نفسه فداءً له .

نَفَذَ النُّورُ الْإِلَهِيُّ[1] إِلَىٰ قَلْبِ حَبِيبِ بْنِ زَيْدٍ وَهُوَ غَضٌّ طَرِيٌّ ، فَاسْتَقَرَّ فِيهِ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ .

وَكُتِبَ لَهُ أَنْ يَمْضِيَ مَعَ أُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَخَالَتِهِ وَأَخِيهِ إِلَىٰ مَكَّةَ لِيُسْهِمَ مَعَ النَّفَرِ السَّبْعِينَ مِنَ الْغُرِّ[2] الْمَيَامِينِ فِي صُنْعِ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ؛ حَيْثُ مَدَّ يَدَهُ الصَّغِيرَةَ وَبَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ غَدَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ ...

وَأَصْبَحَ الْإِسْلَامُ أَغْلَىٰ عِنْدَهُ مِنْ نَفْسِهِ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ ...

* * *

لَمْ يَشْهَدْ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ « بَدْرًا » ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَوْمَئِذٍ صَغِيرًا جِدًّا .

وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُ شَرَفُ الْإِسْهَامِ فِي « أُحُدٍ » ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مَا يَزَالُ دُونَ حَمْلِ السِّلَاحِ ...

لَكِنَّهُ شَهِدَ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكَانَ لَهُ فِي كُلٍّ مِنْهَا رَايَةُ عِزٍّ ...

وَصَحِيفَةُ مَجْدٍ ...

وَمَوْقِفُ فِدَاءٍ ...

غَيْرَ أَنَّ هَٰذِهِ الْمَشَاهِدَ عَلَىٰ عَظَمَتِهَا وَرَوْعَتِهَا لَمْ تَكُنْ فِي حَقِيقَتِهَا سِوَىٰ إِعْدَادٍ ضَخْمٍ لِلْمَوْقِفِ الْكَبِيرِ الَّذِي سَنَسُوقُ لَكَ حَدِيثَهُ ، وَالَّذِي سَيَهُزُّ ضَمِيرَكَ فِي عُنْفٍ كَمَا هَزَّ ضَمَائِرَ مَلَايِينِ الْمُسْلِمِينَ ؛ مُنْذُ عَصْرِ النُّبُوَّةِ وَإِلَىٰ يَوْمِنَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ .

(١) النور الإلهي : أي الإيمان .

(٢) الغُرّ : جمع أغر ، وهو الكريم الأفعال .

وَالَّذِي سَتَرُوعُكَ قِصَّتُهُ كَمَا رَاعَتْهُمْ عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ.

فَتَعَالَ نَسْتَمِعْ إِلَىٰ هَٰذِهِ الْقِصَّةِ الْعَنِيفَةِ مِنْ بِدَايَتِهَا.

* * *

فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ كَانَ الْإِسْلَامُ قَدْ صَلُبَ(١) عُودُهُ، وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُ(٢) وَرَسَخَتْ دَعَائِمُهُ، فَطَفِقَتْ وُفُودُ الْعَرَبِ تَشُدُّ الرِّحَالَ مِنْ أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ إِلَىٰ «يَثْرِبَ» لِلِقَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَإِعْلَانِ إِسْلَامِهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمُبَايَعَتِهِ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ.

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ هَٰذِهِ الْوُفُودِ وَفْدُ بَنِي «حَنِيفَةَ» الْقَادِمُ مِنْ أَعَالِي «نَجْدٍ».

* * *

أَنَاخَ الْوَفْدُ جِمَالَهُ فِي حَوَاشِي(٣) مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَخَلَّفَ عَلَىٰ رِحَالِهِ(٤) رَجُلًا مِنْهُ يُدْعَىٰ «مُسَيْلِمَةَ بْنَ حَبِيبٍ الْحَنَفِيَّ»، وَمَضَىٰ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ وَإِسْلَامَ قَوْمِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ فَأَكْرَمَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وِفَادَتَهُمْ(٥)، وَأَمَرَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ بِعَطِيَّةٍ وَأَمَرَ لِصَاحِبِهِمُ الَّذِي خَلَّفُوهُ فِي رِحَالِهِمْ بِمِثْلِ مَا أَمَرَ لَهُمْ بِهِ.

* * *

لَمْ يَكَدْ يَبْلُغُ الْوَفْدُ مَنَازِلَهُ فِي «نَجْدٍ» حَتَّىٰ ارْتَدَّ مُسَيْلِمَةُ بْنُ حَبِيبٍ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَقَامَ فِي النَّاسِ يُعْلِنُ لَهُمْ:

أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَىٰ بَنِي «حَنِيفَةَ» كَمَا أَرْسَلَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ إِلَىٰ قُرَيْشٍ...

---

(١) صلب عوده: قوي واشتدّ.
(٢) الشوكة: القوّة والبأس.
(٣) حواشي المدينة: أطرافها.
(٤) خلّف علَىٰ رحاله: ترك عِنْدَ متاعه.
(٥) أكرم وفادتهم: أكرم قدومهم عليه وأحسن ضيافتهم.

فَطَفِقَ قَوْمُهُ يَلْتَفُّونَ حَوْلَهُ مَدْفُوعِينَ إِلَىٰ ذَٰلِكَ بِدَوَافِعَ شَتَّىٰ كَانَ أَهَمُّهَا الْعَصَبِيَّةَ(١)؛ حَتَّىٰ إِنَّ رَجُلًا مِنْ رِجَالَاتِهِمْ قَالَ :

« أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ وَأَنَّ مُسَيْلِمَةَ لَكَذَّابٌ ؛ وَلَكِنَّ كَذَّابَ رَبِيعَةَ(٢) أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ صَادِقِ مُضَرَ(٣)» .

* * *

وَلَمَّا قَوِيَ سَاعِدُ مُسَيْلِمَةَ وَغَلُظَ(٤) أَمْرُهُ كَتَبَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كِتَابًا جَاءَ فِيهِ : « مِنْ مُسَيْلِمَةَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ، سَلَامٌ عَلَيْكَ .

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنِّي قَدْ أُشْرِكْتُ فِي الْأَمْرِ مَعَكَ ، وَإِنَّ لَنَا نِصْفَ الْأَرْضِ وَلِقُرَيْشٍ نِصْفَ الْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ قُرَيْشًا قَوْمٌ يَعْتَدُونَ » .

وَبَعَثَ الْكِتَابَ مَعَ رَجُلَيْنِ مِنْ رِجَالِهِ ؛ فَلَمَّا قُرِئَ الْكِتَابُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لِلرَّجُلَيْنِ : (وَمَا تَقُولَانِ أَنْتُمَا ؟!) .

فَأَجَابَا : نَقُولُ كَمَا قَالَ .

فَقَالَ لَهُمَا : (أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ عُنُقَيْكُمَا) ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَىٰ مُسَيْلِمَةَ رِسَالَةً جَاءَ فِيهَا :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَىٰ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ .

السَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ، أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) ...

وَبَعَثَ الرِّسَالَةَ مَعَ الرَّجُلَيْنِ .

* * *

(١) العصبية : شدة ارتباط المرء بعصبيته وانحيازه لها .
(٢) ربيعة : قبيلة كبيرة من قبائل العرب ينتمي إليها مُسَيْلِمَة .
(٣) مضر : قبيلة رسول الله ﷺ .
(٤) غلظ أمره : اشتدَّ أمره وكثر أتباعه .

ازْدَادَ شَرُّ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَاسْتَشْرَىٰ[1] فَسَادُهُ ، فَرَأَىٰ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِرِسَالَةٍ يَزْجُرُهُ فِيهَا عَنْ غَيِّهِ[2] ، وَنَدَبَ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ بَطَلَ قِصَّتِنَا حَبِيبَ بْنَ زَيْدٍ .

وَكَانَ يَوْمَئِذٍ شَابًّا نَاضِرَ الشَّبَابِ مُكْتَمِلَ الْفَتَاءِ[3] مُؤْمِنًا مِنْ قِمَّةِ رَأْسِهِ إِلَىٰ أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ .

* * *

مَضَىٰ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ إِلَىٰ مَا أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ وَانٍ[4] وَلَا مُتَرَيِّثٍ[5] تَرْفَعُهُ النِّجَادُ[6] وَتَحُطُّهُ الْوِهَادُ[7] حَتَّىٰ بَلَغَ دِيَارَ بَنِي « حَنِيفَةَ » فِي أَعَالِي « نَجْدٍ » ، وَدَفَعَ الرِّسَالَةَ إِلَىٰ مُسَيْلِمَةَ .

فَمَا كَادَ مُسَيْلِمَةُ يَقِفُ عَلَىٰ مَا جَاءَ فِيهَا حَتَّىٰ انْتَفَخَ صَدْرُهُ ضَغِينَةً وَحِقْدًا ، وَبَدَا الشَّرُّ وَالْغَدْرُ عَلَىٰ قَسَمَاتِ[8] وَجْهِهِ الدَّمِيمِ الْأَصْفَرِ ، وَأَمَرَ بِحَبِيبِ ابْنِ زَيْدٍ أَنْ يُقَيَّدَ ، وَأَنْ يُؤْتَىٰ بِهِ إِلَيْهِ ضُحَىٰ الْيَوْمِ التَّالِي .

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ تَصَدَّرَ مُسَيْلِمَةُ مَجْلِسَهُ ، وَجَعَلَ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ الطَّوَاغِيتَ[9] مِنْ كِبَارِ أَتْبَاعِهِ ، وَأَذِنَ لِلْعَامَّةِ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِحَبِيبِ بْنِ زَيْدٍ فَجِيءَ بِهِ إِلَيْهِ وَهُوَ يَرْسُفُ[10] فِي قُيُودِهِ .

* * *

وَقَفَ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ وَسَطَ هَٰذِهِ الْجُمُوعِ الْحَاشِدَةِ الْحَاقِدَةِ مَشْدُودَ

---

(١) استشرىٰ فساده : انتشر وازداد .
(٢) يزجره عن غيّه : ينهاه عن ضلاله .
(٣) الفتاء : الفتوّة .
(٤) غير وانٍ : غير فاتر ولا ضعيف .
(٥) متريّث : متمهّل .
(٦) النجاد : جمع نجد ، وهو المكان المرتفع .
(٧) الوهاد : جمع وهد ، وهو المكان المنخفض .
(٨) قسمات الوجه : ملامحه .
(٩) الطواغيت : جمع طاغوت ، وهو رأس الضلال أو المعبود من دون الله .
(١٠) يرسف في قيوده : يمشي بها ببطء لِثِقَلِها .

الْقَامَةِ ، مَرْفُوعَ الْهَامَةِ ، شَامِخَ الْأَنْفِ ، وَانْتَصَبَ بَيْنَهَا كَرُمْحٍ سَمْهَرِيٍّ(١) أَحْكَمَ الْمُثَقِّفُونَ(٢) تَقْوِيمَهُ .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ مُسَيْلِمَةُ وَقَالَ : أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

فَتَمَيَّزَ(٣) مُسَيْلِمَةُ غَيْظًا وَقَالَ : وَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ حَبِيبٌ فِي سُخْرِيَةٍ لَاذِعَةٍ : إِنَّ فِي أُذُنَيَّ صَمَمًا عَنْ سَمَاعِ مَا تَقُولُ .

فَامْتُقِعَ(٤) وَجْهُ مُسَيْلِمَةَ وَارْتَجَفَتْ شَفَتَاهُ حَنَقًا(٥) وَقَالَ لِجَلَّادِهِ :

اقْطَعْ قِطْعَةً مِنْ جَسَدِهِ .

فَأَهْوَىٰ الْجَلَّادُ عَلَىٰ حَبِيبٍ بِسَيْفِهِ وَبَتَرَ قِطْعَةً مِنْ جَسَدِهِ ؛ فَتَدَحْرَجَتْ عَلَىٰ الْأَرْضِ ...

ثُمَّ أَعَادَ مُسَيْلِمَةُ عَلَيْهِ السُّؤَالَ نَفْسَهُ : أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؟ .

قَالَ : نَعَمْ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

قَالَ : وَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟ .

قَالَ : قُلْتُ لَكَ : إِنَّ فِي أُذُنَيَّ صَمَمًا عَنْ سَمَاعِ مَا تَقُولُ .

فَأَمَرَ بِأَنْ تُقْطَعَ مِنْ جَسَدِهِ قِطْعَةٌ أُخْرَىٰ ، فَقُطِعَتْ وَتَدَحْرَجَتْ عَلَىٰ الْأَرْضِ حَتَّىٰ اسْتَوَتْ(٦) إِلَىٰ جَانِبِ أُخْتِهَا ، وَالنَّاسُ شَاخِصُونَ(٧) بِأَبْصَارِهِمْ إِلَيْهِ ، مَذْهُولُونَ مِنْ تَصْمِيمِهِ وَعِنَادِهِ .

---

(١) الرمح السمهري : الرمح الصُّلْب .
(٢) مثقفو الرماح : مُقوِّموها ومُعَدِّلوها .
(٣) تميز غيظًا : تقطَّع بسبب الغيظ .
(٤) امتُقِع وجهه : تغير لون وجهه .
(٥) حنقًا : غيظًا .
(٦) استوت : استقرَّت .
(٧) شاخصون بأبصارهم إليه : رافعون أبصارهم إليه .

وَمَضَىٰ مُسَيْلِمَةُ يَسْأَلُ ، وَالْجَلَّادُ يَقْطَعُ ، وَحَبِيبٌ يَقُولُ :

أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

حَتَّىٰ صَارَ نَحْوٌ مِنْ نِصْفِهِ بِضَعًا(١) مُقَطَّعَةً مَنْثُورَةً عَلَىٰ الْأَرْضِ ... وَنِصْفُهُ الْآخَرُ كُتْلَةً تَتَكَلَّمُ ...

ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ ، وَعَلَىٰ شَفَتَيْهِ الطَّاهِرَتَيْنِ اسْمُ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي بَايَعَهُ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ(٢)...

اسْمُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ...

* * *

بَلَغَ مَصْرَعُ حَبِيبٍ أُمَّهُ نَسِيبَةَ الْمَازِنِيَّةَ ؛ فَطَوَتْ جَوَانِحَهَا عَلَىٰ أَحْزَانِهَا وَاحْتَسَبَتْهُ عِنْدَ اللَّهِ .

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ « الْيَمَامَةِ » جَهَّزَ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ جَيْشًا لِحَرْبِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ ، وَعَقَدَ لِوَاءَهُ لِسَيْفِ الْإِسْلَامِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

فَانْضَمَّتْ إِلَىٰ الْجَيْشِ الْمُجَاهِدَةُ الْبَاسِلَةُ نَسِيبَةُ الْمَازِنِيَّةُ وَابْنُهَا عَبْدُ اللَّهِ ... لَقَدْ كَانَا يُرِيدَانِ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

وَكَانَا يُرِيدَانِ أَيْضًا أَنْ يَثْأَرَا لِحَبِيبٍ مِنْ عَدُوِّهِ وَعَدُوِّ اللَّهِ .

* * *

وَفِي يَوْمِ « الْيَمَامَةِ » الْأَغَرِّ شُوهِدَتْ نَسِيبَةُ تَشُقُّ الصُّفُوفَ كَاللَّبُؤَةِ(٣) الثَّائِرَةِ وَهِيَ تُنَادِي :

أَيْنَ عَدُوُّ اللَّهِ ؟ ...

---

(١) بضعًا : جمع بضعة ، وهي القطعة . (٢) ليلة العقبة : ليلة بيعة العقبة . (٣) اللّبؤة : أنثى الأسد .

دُلُّونِي عَلَىٰ عَدُوِّ اللَّهِ ...

فَلَمَّا انْتَهَتْ إِلَيْهِ وَجَدَتْهُ مُجَدَّلًا(١) عَلَىٰ الْأَرْضِ وَسُيُوفُ الْمُسْلِمِينَ تَنْهَلُ مِنْ دِمَائِهِ ؛ فَطَابَتْ نَفْسًا ...

وَقَرَّتْ عَيْنًا ...

وَلِمَ لَا ؟! ...

أَلَمْ يَنْتَقِمِ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ لِفَتَاهَا الْبَرِّ التَّقِيِّ مِنْ قَاتِلِهِ الْبَاغِي الشَّقِيِّ ؟! ...

بَلَىٰ ...

لَقَدْ مَضَىٰ كُلٌّ مِنْهُمَا إِلَىٰ رَبِّهِ وَلَكِنْ ...

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ ...

وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (*) ...

---

(١) مجدلًا علَى الأرض: مُلقًى علَى الأرض.

(*) للاستزادة من أخبار حبيب بن زيد انظر.
١ - أسْدُ الغابة: ١/٤٤٣ أو «الترجمة»: ١٠٤٩.
٢ - أنساب الأشراف: ٢٥٠، ٣٢٥.
٣ - الطَّبقات الكبرىٰ: ٤/٣١٦.
٤ - السِّيرة النبوية لابن هشام «انظر الفهارس».
٥ - الإصابة: ١/٣٠٦، أو «الترجمة»: ١٥٨٤.
٦ - شهداء الإسلام في عهد النبوة للنشار.
٧ - الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ١/٣٢٨.

أَبُو طَلْحَةَ الأَنْصَارِيُّ

زَيْدُ بْنُ سَهْلٍ

« عَاشَ أَبُو طَلْحَةَ حَيَاتَهُ صَائِمًا مُجَاهِدًا ...
وَمَاتَ كَذٰلِكَ صَائِمًا مُجَاهِدًا ... »

عَرَفَ زَيْدُ بْنُ سَهْلٍ النَّجَّارِيُّ الْمُكَنَّىٰ بِأَبِي طَلْحَةَ ، أَنَّ « الرُّمَيْصَاءَ[1] بِنْتَ مِلْحَانَ النَّجَّارِيَّةَ » الْمُكَنَّاةَ بِأُمِّ سُلَيْمٍ قَدْ غَدَتْ أَيِّمًا[2] بَعْدَ أَنْ تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا ؛ فَاسْتَطَارَ فَرَحًا[3] لِهَٰذَا الْخَبَرِ .

وَلَا غَرْوَ[4] فَقَدْ كَانَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ سَيِّدَةً حَصَانًا رَزَانًا[5] رَاجِحَةَ الْعَقْلِ مُكْتَمِلَةَ الصِّفَاتِ .

فَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يُبَادِرَ إِلَىٰ خِطْبَتِهَا قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَهُ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِمَّنْ يَطْمَحُونَ إِلَىٰ أَمْثَالِهَا مِنَ النِّسَاءِ ... وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ عَلَىٰ ثِقَةٍ مِنْ أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ لَنْ تُؤْثِرَ[6] عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ طَالِبِيهَا ...

فَهُوَ رَجُلٌ مُكْتَمِلُ الرُّجُولَةِ مَرْمُوقُ الْمَنْزِلَةِ[7] طَائِلُ الثَّرْوَةِ[8] ...

وَهُوَ إِلَىٰ ذَٰلِكَ فَارِسُ بَنِي « النَّجَّارِ » ، وَأَحَدُ رُمَاةِ « يَثْرِبَ » الْمَعْدُودِينَ .

* * *

مَضَىٰ أَبُو طَلْحَةَ إِلَىٰ بَيْتِ أُمِّ سُلَيْمٍ ...

---

(١) قيل في اسمها الرُّمَيْصاء والغُمَيْصاء والأرجح أنهما وصف لها، انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

(٢) غدت أيِّمًا : أصبحت بلا زوج .

(٣) استطار فرحًا : كاد يطير من شِدَّة الفرح .

(٤) لا غرو : لا عجب .

(٥) حَصَانًا رزانًا : حصينة الخلق رزينة العقل .

(٦) لن تؤثر عليه أحدًا : لن تفضِّل عليه أحدًا .

(٧) مرموق المنزلة : ذو منزلة عالية ينظر الناس إليها بإعجاب .

(٨) طائل الثروة : واسع الغنى .

وَفِيمَا هُوَ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ تَذَكَّرَ أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ قَدْ سَمِعَتْ مِنْ كَلَامِ هَٰذَا الدَّاعِيَةِ الْمَكِّيِّ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ[1]؛ فَآمَنَتْ بِمُحَمَّدٍ وَاتَّبَعَتْ دِينَهُ .

لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ قَالَ فِي نَفْسِهِ : وَمَا فِي ذَلِكَ ؟ ... أَلَمْ يَكُنْ زَوْجُهَا الَّذِي تُوُفِّيَ عَنْهَا مُسْتَمْسِكًا بِدِينِ آبَائِهِ ، نَائِيًا بِجَانِبِهِ[2] عَنْ مُحَمَّدٍ وَدَعْوَةِ مُحَمَّدٍ ؟! .

* * *

بَلَغَ أَبُو طَلْحَةَ مَنْزِلَ أُمِّ سُلَيْمٍ ، وَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهَا ، فَأَذِنَتْ لَهُ ، وَكَانَ ابْنُهَا أَنَسٌ[3] حَاضِرًا ، فَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا ... فَقَالَتْ :

إِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا طَلْحَةَ لَا يُرَدُّ ، لَكِنِّي لَنْ أَتَزَوَّجَكَ فَأَنْتَ رَجُلٌ كَافِرٌ ...

فَظَنَّ أَبُو طَلْحَةَ أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ تَتَعَلَّلُ[4] عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَأَنَّهَا قَدْ آثَرَتْ عَلَيْهِ رَجُلًا آخَرَ أَكْثَرَ مِنْهُ مَالًا ، أَوْ أَعَزَّ[5] نَفَرًا .

فَقَالَ لَهَا : وَاللَّهِ مَا هَٰذَا الَّذِي يَمْنَعُكِ مِنِّي يَا أُمَّ سُلَيْمٍ .

قَالَتْ : وَمَا الَّذِي يَمْنَعُنِي إِذَنْ ؟! .

قَالَ : الْأَصْفَرُ وَالْأَبْيَضُ ... الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ...

قَالَتْ : الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ؟! .

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَتْ : بَلْ إِنِّي أُشْهِدُكَ يَا أَبَا طَلْحَةَ وَأُشْهِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ رَضِيتُ بِكَ زَوْجًا مِنْ غَيْرِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ ، وَجَعَلْتُ إِسْلَامَكَ لِي مَهْرًا ...

* * *

(١) مصعب بن عمير بن هاشم : أحد السابقين إلى الإسلام ، وأول المبشرين به خارج مكة ، استشهد يوم أحد .
(٢) نائيًا بجانبه : مُعْرِضًا عنه .
(٣) أنس بن مالك الأنصاري : انظره ص ١٣.
(٤) تتعلل عليه : تتصنّع له العلل والحجج .
(٥) أعزّ نفرًا : أعزّ قبيلة .

فَمَا إِنْ سَمِعَ أَبُو طَلْحَةَ كَلَامَ أُمِّ سُلَيْمٍ حَتَّىٰ انْصَرَفَ ذِهْنُهُ إِلَىٰ صَنَمِهِ الَّذِي اتَّخَذَهُ(١) مِنْ نَفِيسِ الْخَشَبِ، وَخَصَّ بِهِ نَفْسَهُ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ السَّادَةُ مِنْ قَوْمِهِ.

لَكِنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ أَرَادَتْ أَنْ تَطْرُقَ الْحَدِيدَ وَهُوَ مَا زَالَ حَامِيًا(٢) فَأَتْبَعَتْ تَقُولُ: أَلَسْتَ تَعْلَمُ يَا أَبَا طَلْحَةَ أَنَّ إِلَٰهَكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَدْ نَبَتَ مِنَ الْأَرْضِ؟!.

فَقَالَ: بَلَىٰ.

قَالَتْ: أَفَلَا تَشْعُرُ بِالْخَجَلِ وَأَنْتَ تَعْبُدُ جِذْعَ شَجَرَةٍ جَعَلْتَ بَعْضَهُ لَكَ إِلَٰهًا بَيْنَمَا جَعَلَ غَيْرُكَ بَعْضَهُ الْآخَرَ وَقُودًا لَهُ؛ يَصْطَلِي بِنَارِهِ(٣) أَوْ يَخْبِزُ عَلَيْهِ عَجِينَهُ... إِنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ - يَا أَبَا طَلْحَةَ - رَضِيتُ بِكَ زَوْجًا، وَلَا أُرِيدُ مِنْكَ صَدَاقًا(٤) غَيْرَ الْإِسْلَامِ.

قَالَ: وَمَنْ لِي بِالْإِسْلَامِ؟.

قَالَتْ: أَنَا لَكَ بِهِ.

قَالَ: وَكَيْفَ؟.

قَالَتْ: تَنْطِقُ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ فَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ تَمْضِي إِلَىٰ بَيْتِكَ فَتُحَطِّمُ صَنَمَكَ ثُمَّ تَرْمِي بِهِ.

فَانْطَلَقَتْ أَسَارِيرُ(٥) أَبِي طَلْحَةَ وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ... ثُمَّ تَزَوَّجَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ...

---

(١) اتخذه: صنعه.
(٢) أرادتْ أن تطرق الحديدَ ...: أرادت ألّا تضيّع الفرصة.
(٣) يصطلي بناره: يستدفئ بناره.
(٤) صداقًا: مَهْرًا.
(٥) انطلقت أسارير أبي طلحة: ظهر البِشر والسّرور علىٰ وجهه.

فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَقُولُونَ: مَا سَمِعْنَا بِمَهْرٍ قَطُّ كَانَ أَكْرَمَ مِنْ مَهْرِ أُمِّ سُلَيْمٍ... فَقَدْ جَعَلَتْ صَدَاقَهَا الإِسْلَامَ...

* * *

مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ انْضَوَىٰ[1] أَبُو طَلْحَةَ تَحْتَ لِوَاءِ الإِسْلَامِ، وَوَضَعَ طَاقَاتِهِ الْفَذَّةَ[2] كُلَّهَا فِي خِدْمَتِهِ...

فَكَانَ أَحَدَ السَّبْعِينَ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ[3] وَمَعَهُ زَوْجُهُ أُمُّ سُلَيْمٍ.

وَكَانَ أَحَدَ النُّقَبَاءِ[4] الاثْنَيْ عَشَرَ الَّذِينَ أَمَّرَهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ عَلَىٰ مُسْلِمِي «يَثْرِبَ».

ثُمَّ إِنَّهُ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَغَازِيَهُ كُلَّهَا، وَأَبْلَىٰ فِيهَا أَشْرَفَ الْبَلَاءِ وَأَعَزَّهُ.

لَكِنَّ أَعْظَمَ أَيَّامِ أَبِي طَلْحَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا هُوَ يَوْمُ «أُحُدٍ».

وَإِلَيْكَ[5] خَبَرَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

* * *

أَحَبَّ أَبُو طَلْحَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حُبًّا خَالَطَ شِغَافَ قَلْبِهِ[6]، وَجَرَىٰ مَجْرَىٰ الدَّمِ مِنْ عُرُوقِهِ، فَكَانَ لَا يَشْبَعُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَلَا يَرْتَوِي مِنَ الاسْتِمَاعِ إِلَىٰ عَذْبِ حَدِيثِهِ... وَكَانَ إِذَا بَقِيَ مَعَهُ جَثَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ لَهُ:

نَفْسِي لِنَفْسِكَ الْفِدَاءُ، وَوَجْهِي لِوَجْهِكَ الْوِقَاءُ.

---

(١) انضوىٰ: دخل.
(٢) الفذّة: الفريدة.
(٣) بيعة العقبة: هي البيعة التي تمت عند العقبة بمنىٰ قبل الهجرة.
(٤) النقباء: جمع نقيب، وهو الرئيس والمقدّم علىٰ جماعته.
(٥) إليك خبره: خُذْ خبره.
(٦) خالط شغاف قلبه: مازج أعماق قلبه.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ «أُحُدٍ» انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَفَذَ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ[(١)]، وَشَجُّوا جَبِينَهُ، وَجَرَحُوا شَفَتَهُ، وَأَسَالُوا الدَّمَ عَلَىٰ وَجْهِهِ...

حَتَّىٰ إِنَّ الْمُرْجِفِينَ أَرْجَفُوا[(٢)] بِأَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَازْدَادَ الْمُسْلِمُونَ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ[(٣)]، وَأَعْطَوْا ظُهُورَهُمْ[(٤)] لِأَعْدَاءِ اللَّهِ.

عِنْدَ ذَلِكَ لَمْ يَثْبُتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ نَفَرٍ قَلِيلٍ فِي طَلِيعَتِهِمْ أَبُو طَلْحَةَ.

* * *

انْتَصَبَ أَبُو طَلْحَةَ أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَالطَّوْدِ الرَّاسِخِ[(٥)] بَيْنَمَا وَقَفَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَلْفَهُ يَتَتَرَّسُ[(٦)] بِهِ...

ثُمَّ وَتَرَ[(٧)] أَبُو طَلْحَةَ قَوْسَهُ الَّتِي لَا تُفَلُّ[(٨)]، وَرَكَّبَ عَلَيْهَا سِهَامَهُ الَّتِي لَا تُخْطِئُ، وَجَعَلَ يَذُودُ[(٩)] بِهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَرْمِي جُنُودَ الْمُشْرِكِينَ وَاحِدًا إِثْرَ وَاحِدٍ.

وَكَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَتَطَاوَلُ مِنْ خَلْفِ أَبِي طَلْحَةَ لِيَرَىٰ مَوَاقِعَ سِهَامِهِ؛ فَكَانَ يَرُدُّهُ خَوْفًا عَلَيْهِ وَيَقُولُ لَهُ:

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، لَا تُشْرِفْ[(١٠)] عَلَيْهِمْ فَيُصِيبُوكَ...

إِنَّ نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ[(١١)] وَصَدْرِي دُونَ صَدْرِكَ، وَجُعِلْتُ فِدَاكَ...

---

(١) رباعيته: سِنُّه التي بين الثَّنيَّة والنَّاب.
(٢) أرجف المرجفون: زعم الخراصون الكذابون.
(٣) ازداد المسلمون وهنا علىٰ وهن: ازدادوا ضعفًا علىٰ ضعف.
(٤) أعطوا ظهورهم لأعداء الله: جعلوا ينهزمون أمامهم.
(٥) الطَّود الرَّاسخ: الجبل الثَّابت.
(٦) يتترس به: يجعله ترسًا له ووقاية من رماح الأعداء وسهامهم.
(٧) وتر قوسه: شَدَّ قوسه.
(٨) لا تفلّ: لا تُهزم.
(٩) يذود بها: يدافع بها.
(١٠) لا تشرف عليهم: لا تطلّ عليهم.
(١١) إن نحري دون نحرك: إن عنقي فداءٌ لعنقك.

وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ يَمُرُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَارِبًا وَمَعَهُ الْجَعْبَةُ[1] مِنَ السِّهَامِ، فَيُنَادِي عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَيَقُولُ لَهُ:

(انْثُرْ سِهَامَكَ بَيْنَ يَدَيْ أَبِي طَلْحَةَ وَلَا تَمْضِ بِهَا هَارِبًا).

وَمَا زَالَ أَبُو طَلْحَةَ يُنَافِحُ[2] عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ كَسَرَ ثَلَاثَ أَقْوَاسٍ، وَقَتَلَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْتُلَ مِنْ جُنُودِ الْمُشْرِكِينَ.

ثُمَّ انْجَلَتِ الْمَعْرَكَةُ، وَسَلَّمَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ وَصَانَهُ بِصَوْنِهِ.

* * *

وَكَمَا كَانَ أَبُو طَلْحَةَ جَوَادًا بِنَفْسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي سَاعَاتِ الْبَأْسِ[3]، فَقَدْ كَانَ أَكْثَرَ جُودًا بِمَالِهِ فِي مَوَاقِفِ الْبَذْلِ[4]...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ بُسْتَانٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَمْ تَعْرِفْ «يَثْرِبُ»[5] بُسْتَانًا أَعْظَمَ مِنْهُ شَجَرًا، وَلَا أَطْيَبَ ثَمَرًا، وَلَا أَعْذَبَ مَاءً.

وَفِيمَا كَانَ أَبُو طَلْحَةَ يُصَلِّي تَحْتَ أَفْيَائِهِ الظَّلِيلَةِ؛ أَثَارَ انْتِبَاهَهُ طَائِرٌ غَرِدٌ أَخْضَرُ اللَّوْنِ أَحْمَرُ الْمِنْقَارِ، مُخَضَّبُ[6] الرِّجْلَيْنِ...

وَقَدْ جَعَلَ يَتَوَاثَبُ عَلَىٰ أَفْنَانِ الْأَشْجَارِ طَرِبًا مُغَرِّدًا مُتَرَاقِصًا... فَأَعْجَبَهُ مَنْظَرُهُ، وَسَبَحَ بِفِكْرِهِ مَعَهُ...

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ رَجَعَ إِلَىٰ نَفْسِهِ؛ فَإِذَا هُوَ لَا يَذْكُرُ كَمْ صَلَّىٰ؟!...

رَكْعَتَيْنِ... ثَلَاثًا... لَا يَدْرِي...

فَمَا إِنْ فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ حَتَّىٰ غَدَا[7] عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَشَكَا لَهُ نَفْسَهُ

(١) الجعبة: كيس السهام.
(٢) ينافح: يدافع.
(٣) في ساعات البأس: في ساعات الشدة.
(٤) مواقف البذل: مواقف العطاء.
(٥) يثرب: المدينة المنورة.
(٦) مخضب الرجلين: مصبوغ الرجلين.
(٧) غدا على رسول الله: مضى إلى رسول الله ﷺ.

الَّتِي صَرَفَهَا الْبُسْتَانُ ، وَشَجَرُهُ الْوَارِفُ ، وَطَيْرُهُ الْغَرِدُ عَنِ الصَّلَاةِ ...

ثُمَّ قَالَ لَهُ : اشْهَدْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي جَعَلْتُ هَٰذَا الْبُسْتَانَ صَدَقَةً لِلَّهِ تَعَالَىٰ ... فَضَعْهُ[١] حَيْثُ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ...

* * *

عَاشَ أَبُو طَلْحَةَ حَيَاتَهُ صَائِمًا مُجَاهِدًا ...

وَمَاتَ كَذَلِكَ صَائِمًا مُجَاهِدًا ...

فَقَدْ أُثِرَ عَنْهُ أَنَّهُ بَقِيَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ عَامًا صَائِمًا لَمْ يُفْطِرْ إِلَّا فِي أَيَّامِ الْأَعْيَادِ حَيْثُ يَحْرُمُ الصِّيَامُ ...

وَأَنَّهُ امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ حَتَّىٰ غَدَا شَيْخًا فَانِيًا ، لَكِنَّ شَيْخُوخَتَهُ لَمْ تَحُلْ دُونَهُ وَدُونَ مُوَاصَلَةِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالضَّرْبِ[٢] فِي فِجَاجِ الْأَرْضِ إِعْلَاءً لِكَلِمَتِهِ ، وَإِعْزَازًا لِدِينِهِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ عَزَمُوا عَلَىٰ غَزْوَةٍ فِي الْبَحْرِ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ .

فَأَخَذَ أَبُو طَلْحَةَ يُعِدُّ نَفْسَهُ لِلْخُرُوجِ مَعَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ لَهُ أَبْنَاؤُهُ :

يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا أَبَانَا ، لَقَدْ صِرْتَ شَيْخًا كَبِيرًا ، وَقَدْ غَزَوْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، فَهَلَّا رَكَنْتَ[٣] إِلَىٰ الرَّاحَةِ ، وَتَرَكْتَنَا نَغْزُو عَنْكَ .

فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾[٤] فَهُوَ قَدِ اسْتَنْفَرَنَا جَمِيعًا ... شُيُوخًا وَشُبَّانًا ، وَلَمْ يُحَدِّدْ لَنَا سِنًّا .

---

(١) ضَعْهُ : تَصَرَّفْ بِهِ وَاسْتَخْدِمْهُ .

(٢) الضَّرْبُ فِي فِجَاجِ الْأَرْضِ : السَّيْرُ فِي سُبُلِ الْأَرْضِ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

(٣) رَكَنْتَ إِلَىٰ الرَّاحَةِ : لَزِمْتَ الرَّاحَةَ .

(٤) أَيْ هُبُّوا إِلَىٰ الْجِهَادِ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ كُنْتُمْ ... سُورَةُ التَّوْبَةِ : آيَة ٤١ .

ثُمَّ أَبَىٰ إِلَّا الْخُرُوجَ ...

* * *

وَبَيْنَمَا كَانَ الشَّيْخُ الْمُعَمَّرُ أَبُو طَلْحَةَ عَلَىٰ ظَهْرِ السَّفِينَةِ مَعَ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ ، مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا فَارَقَ عَلَىٰ إِثْرِهِ الْحَيَاةَ .

فَطَفِقَ الْمُسْلِمُونَ يَبْحَثُونَ لَهُ عَنْ جَزِيرَةٍ لِيَدْفِنُوهُ فِيهَا ؛ فَلَمْ يَعْثُرُوا عَلَىٰ مُبْتَغَاهُمْ إِلَّا بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ ، وَأَبُو طَلْحَةَ مُسَجًّى[1] بَيْنَهُمْ لَمْ يَتَغَيَّرْ فِيهِ شَيْءٌ كَأَنَّهُ نَائِمٌ .

وَفِي عُرْضِ[2] الْبَحْرِ...

بَعِيدًا عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ ...

نَائِيًا عَنِ الْعَشِيرِ[3] وَالسَّكَنِ ...

دُفِنَ أَبُو طَلْحَةَ ...

وَمَاذَا يَضِيرُهُ[4] بُعْدُهُ عَنِ النَّاسِ ، مَا دَامَ قَرِيبًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (*) ...

---

(١) مسجّى : مُغَطًى .
(٢) عُرْض البحر : وَسَطُ البحر .
(٣) العشير : المعاشِرُ من زوج وأهل وغيرهم .
(٤) يَضِيره : يَضُرُّه .

(*) للاستزادة من أخبار أبي طَلْحَةَ الأنصاريّ انظر :
١ - حياة الصّحابة : «انظر الفهارس في الرّابع» .
٢ - أُسْدُ الغابة «التّرجمة» : ١٨٤٣ .
٣ - الاستيعاب «بهامش الإصابة» : ١/ ٥٤٩ .
٤ - الطّبقات الكبرىٰ : ٣/ ٥٠٤ .
٥ - صفة الصّفوة : ١/ ١٩٠ .
٦ - تهذيب التّهذيب : ٣/ ٤١٤ .
٧ - تاريخ الطّبري «طبعة دار المعارف» : ٢/ ٦١٩ و٣/ ١٢٤، ١٨١ و٤/ ١٩٢، «وانظر الفهارس في العاشر» .
٨ - تهذيب ابن عساكر : ٦/ ٤ .
٩ - السّيرة لابن هشام : «انظر الفهارس» .
١٠ - الإصابة : ١/ ٥٦٦ أو «التّرجمة» ٢٩٠٥ .

وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ

« قَتَلَ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... وَقَتَلَ شَرَّ النَّاسِ أَيْضًا »

[الْمُؤَرِّخُونَ]

مَنْ هَٰذَا الَّذِي أَدْمَىٰ فُؤَادَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ حِينَ قَتَلَ عَمَّهُ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَوْمَ « أُحُدٍ » ؟! .

ثُمَّ شَفَىٰ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ ؛ حِينَ قَتَلَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ يَوْمَ « الْيَمَامَةِ » ؟ .

إِنَّهُ وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ الْحَبَشِيُّ ، الْمُكَنَّىٰ « بِأَبِي دَسْمَةَ » ...

وَإِنَّ لَهُ قِصَّةً عَنِيفَةً حَزِينَةً دَامِيَةً ...

فَأَعِرْهُ سَمْعَكَ لِيَرْوِيَ لَكَ مَأْسَاتَهُ بِنَفْسِهِ ...

قَالَ وَحْشِيٌّ :

كُنْتُ غُلَامًا رَقِيقًا[1] « لِجُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ »[2] أَحَدِ سَادَةِ قُرَيْشٍ .

وَكَانَ عَمُّهُ « طُعَيْمَةُ » ، قَدْ قُتِلَ يَوْمَ « بَدْرٍ » عَلَىٰ يَدِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؛ فَحَزِنَ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْحُزْنِ ، وَأَقْسَمَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ[3] لَيَثْأَرَنَّ لِعَمِّهِ ، وَلَيَقْتُلَنَّ قَاتِلَهُ ... وَجَعَلَ يَتَرَبَّصُ[4] بِحَمْزَةَ الْفُرَصَ .

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ ذَٰلِكَ طَوِيلُ وَقْتٍ حَتَّىٰ عَقَدَتْ قُرَيْشٌ الْعَزْمَ عَلَىٰ الْخُرُوجِ

(١) رقيقًا : عبدًا .

(٢) جُبَيْر بن مُطْعِم بن عدي بن نوفل القُرَشي : كان من علماء قُرَيْش وسادتهم أسلم وصحب الرسول ﷺ .

(٣) اللّات والعُزّىٰ : صنمان كبيران من أصنام العرب في الجاهلية ... انظر هدم الأصنام في كتاب « حدث في رمضان » للمؤلف .

(٤) يتربَّص : ينتظر ويتحين الفُرصَة .

إِلَىٰ « أُحُدٍ » لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَالثَّأْرِ لِقَتْلَاهَا فِي « بَدْرٍ » ... فَكَتَّبَتْ كَتَائِبَهَا[1]، وَجَمَعَتْ أَحْلَافَهَا ، وَأَعَدَّتْ عُدَّتَهَا ، ثُمَّ أَسْلَمَتْ قِيَادَهَا إِلَىٰ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ .

فَرَأَىٰ أَبُو سُفْيَانَ أَنْ يَجْعَلَ مَعَ الْجَيْشِ طَائِفَةً مِنْ عَقِيلَاتِ[2] قُرَيْشٍ مِمَّنْ قُتِلَ آبَاؤُهُنَّ أَوْ أَبْنَاؤُهُنَّ أَوْ إِخْوَتُهُنَّ أَوْ أَحَدٌ مِنْ ذَوِيهِنَّ فِي « بَدْرٍ » ، لِيُحَمِّسْنَ الْجَيْشَ عَلَىٰ الْقِتَالِ ، وَيَحُلْنَ دُونَ الرِّجَالِ وَدُونَ الْفِرَارِ ؛ فَكَانَ فِي طَلِيعَةِ مَنْ خَرَجَ مَعَهُ مِنَ النِّسَاءِ زَوجُهُ « هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ » ...

وَكَانَ أَبُوهَا وَعَمُّهَا وَأَخُوهَا قَدْ قُتِلُوا جَمِيعًا فِي « بَدْرٍ » ...

وَلَمَّا أَوْشَكَ الْجَيْشُ عَلَىٰ الرَّحِيلِ ، الْتَفَتَ إِلَيَّ « جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ » وَقَالَ : هَلْ لَكَ يَا أَبَا دَسْمَةَ فِي أَنْ تُنْقِذَ نَفْسَكَ مِنَ الرِّقِّ ؟ .

قُلْتُ : وَمَنْ لِي بِذَلِكَ ؟! .

قَالَ : أَنَا لَكَ بِهِ .

قُلْتُ : وَكَيْفَ ؟! .

قَالَ : إِنْ قَتَلْتَ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّ مُحَمَّدٍ بِعَمِّي « طُعَيْمَةَ بْنِ عَدِيٍّ » فَأَنْتَ عَتِيقٌ[3].

قُلْتُ : وَمَنْ يَضْمَنُ لِيَ الْوَفَاءَ بِذَلِكَ ؟ .

قَالَ : مَنْ تَشَاءُ ، وَلَأُشْهِدَنَّ عَلَىٰ ذَلِكَ النَّاسَ جَمِيعًا .

قُلْتُ : أَفْعَلُ ، وَأَنَا لَهَا ...

(١) كتّبت كتائبها : نظّمت كتائبها وأعدّتها ، والكتيبة : القطعة من الجيش.
(٢) عقيلات قُرَيْش : سيدات قُرَيْش.
(٣) أنت عتيق : أنت حرٌّ.

قَالَ وَحْشِيٌّ :

وَكُنْتُ رَجُلًا حَبَشِيًّا أَقْذِفُ بِالْحَرْبَةِ قَذْفَ الْحَبَشَةِ ؛ فَلَا أُخْطِئُ شَيْئًا أَرْمِيهِ بِهَا .

فَأَخَذْتُ حَرْبَتِي وَمَضَيْتُ مَعَ الْجَيْشِ ، وَجَعَلْتُ أَمْشِي فِي مُؤَخِّرَتِهِ قَرِيبًا مِنَ النِّسَاءِ ؛ فَمَا كَانَ لِي أَرَبٌ[1] بِقِتَالٍ ...

وَكُنْتُ كُلَّمَا مَرَرْتُ « بِهِنْدَ » زَوْجِ أَبِي سُفْيَانَ أَوْ مَرَّتْ بِي وَرَأَتِ الْحَرْبَةَ تَلْتَمِعُ فِي يَدِي تَحْتَ وَهْجِ الشَّمْسِ تَقُولُ : أَبَا دَسْمَةَ ...

اشْفِ وَاسْتَشْفِ[2] ...

فَلَمَّا بَلَغْنَا « أُحُدًا » ، وَالْتَقَى الْجَمْعَانِ ؛ خَرَجْتُ أَلْتَمِسُ[3] حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ يَكُنْ حَمْزَةُ يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَضَعُ عَلَى رَأْسِهِ رِيشَةَ نَعَامَةٍ لِيَدُلَّ الْأَقْرَانَ[4] عَلَيْهِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ ذَوُو الْبَأْسِ مِنْ شُجْعَانِ الْعَرَبِ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى رَأَيْتُ حَمْزَةَ يَهْدِرُ بَيْنَ الْجُمُوعِ كَالْجَمَلِ الْأَوْرَقِ[5] ، وَهُوَ يَهُدُّ النَّاسَ بِسَيْفِهِ هَدًّا[6] فَمَا يَصْمُدُ أَمَامَهُ أَحَدٌ ، وَلَا يَثْبُتُ لَهُ شَيْءٌ ...

وَفِيمَا كُنْتُ أَتَهَيَّأُ لَهُ ، وَأَسْتَتِرُ مِنْهُ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ مُتَرَبِّصًا أَنْ يَدْنُوَ مِنِّي ، إِذْ تَقَدَّمَنِي إِلَيْهِ فَارِسٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُدْعَى « سِبَاعَ بْنَ عَبْدِ الْعُزَّى » وَهُوَ يَقُولُ :

بَارِزْنِي يَا حَمْزَةُ ... بَارِزْنِي ...

(١) أرَبٌ : غايةٌ ورغبةٌ .
(٢) اشف واستشف : أيْ اشف غيظ قلوبنا من حمزة وابن أخيه .
(٣) ألتمس حَمْزة : أبحث عنه وأطلبه .
(٤) الأقران : جمع قِرْن بكسر القاف ، وقِرْن الرجل : البطل المماثل له .
(٥) الجمل الأورق : الجَمَل الذي لونه كلون الرّماد ، وهُوَ من أقوى الجمال .
(٦) يهدُّ النَّاس هدًّا : يقطع النَّاس قطْعًا .

فَبَرَزَ لَهُ حَمْزَةُ وَهُوَ يَقُولُ: هَلُمَّ إِلَيَّ[1] يَا بْنَ الْمُشْرِكَةِ...

هَلُمَّ إِلَيَّ...

ثُمَّ مَا أَسْرَعَ أَنْ بَادَرَهُ حَمْزَةُ بِضَرْبَةٍ مِنْ سَيْفِهِ، فَخَرَّ صَرِيعًا يَتَخَبَّطُ بِدِمَائِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ...

عِنْدَ ذَٰلِكَ وَقَفْتُ مِنْ حَمْزَةَ مَوْقِفًا أَرْضَاهُ، وَجَعَلْتُ أَهُزُّ حَرْبَتِي حَتَّىٰ إِذَا اطْمَأْنَنْتُ إِلَيْهَا، دَفَعْتُ بِهَا نَحْوَهُ، فَوَقَعَتْ فِي أَسْفَلِ بَطْنِهِ، وَخَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ.

فَخَطَا مُتَثَاقِلًا نَحْوِي خُطْوَتَيْنِ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ سَقَطَ، وَالْحَرْبَةُ فِي جَسَدِهِ؛ فَتَرَكْتُهَا فِيهِ حَتَّىٰ أَيْقَنْتُ أَنَّهُ مَاتَ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَانْتَزَعْتُهَا مِنْهُ وَرَجَعْتُ إِلَىٰ الْخِيَامِ، وَقَعَدْتُ فِيهَا؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةٌ بِغَيْرِهِ، وَإِنَّمَا قَتَلْتُهُ لِأُعْتَقَ...

* * *

ثُمَّ حَمِيَ وَطِيسُ[2] الْمَعْرَكَةِ وَكَثُرَ فِيهَا الْكَرُّ وَالْفَرُّ، غَيْرَ أَنَّ الدَّائِرَةَ مَا لَبِثَتْ أَنْ دَارَتْ عَلَىٰ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، وَكَثُرَ فِيهِمُ الْقَتْلُ.

عِنْدَ ذَٰلِكَ غَدَتْ «هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ» عَلَىٰ قَتْلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ وَرَائِهَا طَائِفَةٌ مِنَ النِّسَاءِ، فَجَعَلَتْ تُمَثِّلُ بِهِمْ: فَتَبْقَرُ[3] بُطُونَهُمْ، وَتَفْقَأُ عُيُونَهُمْ، وَتَجْدَعُ أُنُوفَهُمْ[4]، وَتَصْلِمُ آذَانَهُمْ[5]...

ثُمَّ صَنَعَتْ مِنَ الْآنَافِ[6] وَالْآذَانِ قِلَادَةً[7] وَأَقْرَاطًا[8]، فَتَحَلَّتْ بِهَا، وَدَفَعَتْ قِلَادَتَهَا وَقُرْطَيْهَا الذَّهَبِيَّيْنِ إِلَيَّ وَقَالَتْ:

---

(١) هَلُمَّ إِلَيَّ: أقبل عَلَيَّ وتعال إِلَيَّ.

(٢) الْوَطِيس: التَّنُّور، وحمي وطيسُ المعركة: التهبَتْ واشتدت.

(٣) تبقر بطونهم: تشقّ بطونهم.

(٤) تجدع أنوفهم: تقطع أنوفهم.

(٥) تصلِم آذانهم: تقطع آذانهم.

(٦) الآناف: الأُنوف.

(٧) قِلَادة: طوقًا.

(٨) القرط: الحلق.

هُمَا لَكَ يَا أَبَا دَسْمَةَ ... هُمَا لَكَ ...

احْتَفِظْ بِهِمَا فَإِنَّهُمَا ثَمِينَانِ .

وَلَمَّا وَضَعَتْ « أُحُدٌ » أَوْزَارَهَا[1]، عُدْتُ مَعَ الْجَيْشِ إِلَىٰ مَكَّةَ فَبَرَّ لِي « جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ » بِمَا وَعَدَنِي بِهِ وَأَعْتَقَ رَقَبَتِي ، فَغَدَوْتُ حُرًّا ...

* * *

لَكِنَّ أَمْرَ مُحَمَّدٍ جَعَلَ يَنْمُو يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ يَزْدَادُونَ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ ، فَكُنْتُ كُلَّمَا عَظُمَ أَمْرُ مُحَمَّدٍ عَظُمَ عَلَيَّ الْكَرْبُ ، وَتَمَكَّنَ الْجَزَعُ وَالْخَوْفُ مِنْ نَفْسِي .

وَمَا زِلْتُ عَلَىٰ حَالِي هَٰذِهِ ، حَتَّىٰ دَخَلَ مُحَمَّدٌ مَكَّةَ بِجَيْشِهِ الْجَرَّارِ فَاتِحًا .

عِنْدَ ذَلِكَ وَلَّيْتُ هَارِبًا إِلَىٰ « الطَّائِفِ » أَلْتَمِسُ فِيهَا الْأَمْنَ .

لَكِنَّ أَهْلَ « الطَّائِفِ » مَا لَبِثُوا[2] كَثِيرًا حَتَّىٰ لَانُوا لِلْإِسْلَامِ ، وَأَعَدُّوا وَفْدًا مِنْهُمْ لِلِقَاءِ مُحَمَّدٍ وَإِعْلَانِ دُخُولِهِمْ فِي دِينِهِ[3].

عِنْدَ ذَلِكَ سُقِطَ فِي يَدِي[4]، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَأَعْيَتْنِي الْمَذَاهِبُ[5]، فَقُلْتُ :

أَلْحَقُ بِالشَّامِ ، أَوْ بِالْيَمَنِ ، أَوْ بِبَعْضِ الْبِلَادِ الْأُخْرَىٰ .

فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي غَمْرَةِ هَمِّي[6] هَٰذِهِ ؛ إِذْ رَقَّ لِي رَجُلٌ نَاصِحٌ وَقَالَ :

---

(١) وضعت الحرب أوزارها : توقَّفت وهَدَأَت .
(٢) ما لبثوا كثيرًا : ما تأخَّروا كثيرًا .
(٣) انظر إسلام بني ثقيف في كتاب «حدث في رمضان» للمؤلف .
(٤) سُقِط في يدي : اشتدَّ ندمي وزادت حيرتي .
(٥) أعْيَتني المذاهب : سُدَّت في وجهي الطرق .
(٦) غمرة همي : شِدَّة كربي .

وَيْحَكَ[1] يَا وَحْشِيُّ ، إِنَّ مُحَمَّدًا ـ وَاللَّهِ ـ مَا يَقْتُلُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ إِذَا دَخَلَ فِي دِينِهِ ، وَتَشَهَّدَ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ[2] .

فَمَا إِنْ سَمِعْتُ مَقَالَتَهُ حَتَّىٰ خَرَجْتُ مُيَمِّمًا وَجْهِي شَطْرَ[3] « يَثْرِبَ » أَبْتَغِي مُحَمَّدًا ، فَلَمَّا بَلَغْتُهَا تَحَسَّسْتُ أَمْرَهُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ فِي الْمَسْجِدِ ...

فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي خِفَّةٍ وَحَذَرٍ ، وَمَضَيْتُ نَحْوَهُ حَتَّىٰ صِرْتُ وَاقِفًا فَوْقَ رَأْسِهِ وَقُلْتُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

فَلَمَّا سَمِعَ الشَّهَادَتَيْنِ رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَيَّ ، فَلَمَّا عَرَفَنِي رَدَّ بَصَرَهُ عَنِّي وَقَالَ :

(أَوَحْشِيٌّ أَنْتَ ؟!!) .

قُلْتُ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ : (اقْعُدْ وَحَدِّثْنِي كَيْفَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ) ... فَقَعَدْتُ فَحَدَّثْتُهُ خَبَرَهُ .

فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ حَدِيثِي ، أَشَاحَ[4] عَنِّي بِوَجْهِهِ وَقَالَ :

(وَيْحَكَ يَا وَحْشِيُّ ، غَيِّبْ وَجْهَكَ عَنِّي فَلَا أَرَيَنَّكَ بَعْدَ الْيَوْمِ) ...

فَكُنْتُ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَتَجَنَّبُ أَنْ يَقَعَ بَصَرُ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ عَلَيَّ ؛ فَإِذَا جَلَسَ الصَّحَابَةُ قُبَالَتَهُ[5] أَخَذْتُ مَكَانِي خَلْفَهُ .

وَبَقِيتُ عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ جِوَارِ رَبِّهِ .

* * *

ثُمَّ أَرْدَفَ[6] وَحْشِيٌّ يَقُولُ :

---

(١) ويحك : ويْلٌ لك ، وكثيرًا ما تستعملُ للترحم والتوجع .
(٢) شهادة الحق : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله .
(٣) ميممًا وجهي شطر يثرب : موليًا وجهي ناحية المدينة المنورة .
(٤) أشاح عنّي بوجهه : أعرضَ عني وأمال وجهَهُ .
(٥) قُبالته : أمامه .
(٦) ثمَّ أردف يقول : ثم تابع قوله .

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنِّي عَرَفْتُ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ[1] مَا قَبْلَهُ ، فَقَدْ ظَلَلْتُ أَسْتَشْعِرُ فَدَاحَةَ الْفَعْلَةِ الَّتِي اجْتَرَحْتُهَا[2] ، وَأَسْتَفْظِعُ الرُّزْءَ[3] الْجَلِيلَ الَّذِي رَزَأْتُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَطَفِقْتُ أَتَحَيَّنُ الْفُرْصَةَ الَّتِي أُكَفِّرُ بِهَا عَمَّا سَلَفَ مِنِّي .

* * *

فَلَمَّا لَحِقَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ ، وَآلَتْ خِلَافَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ ، وَارْتَدَّتْ بَنُو « حَنِيفَةَ » أَصْحَابُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ مَعَ الْمُرْتَدِّينَ ، جَهَّزَ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَيْشًا لِحَرْبِ مُسَيْلِمَةَ ، وَ إِعَادَةِ قَوْمِهِ بَنِي « حَنِيفَةَ » إِلَىٰ دِينِ اللَّهِ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّ هَٰذِهِ ـ وَاللَّهِ ـ فُرْصَتُكَ يَا وَحْشِيُّ فَاغْتَنِمْهَا ، وَلَا تَدَعْهَا تُفْلِتُ مِنْ يَدَيْكَ .

ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَخَذْتُ مَعِي حَرْبَتِي الَّتِي قَتَلْتُ بِهَا سَيِّدَ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَآلَيْتُ عَلَىٰ نَفْسِي أَنْ أَقْتُلَ بِهَا مُسَيْلِمَةَ أَوْ أَظْفَرَ بِالشَّهَادَةِ .

فَلَمَّا اقْتَحَمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ مُسَيْلِمَةَ وَجَيْشِهِ « حَدِيقَةَ الْمَوْتِ »[4] ، وَالْتَحَمُوا بِأَعْدَاءِ اللَّهِ ، جَعَلْتُ أَتَرَصَّدُ مُسَيْلِمَةَ ، فَرَأَيْتُهُ قَائِمًا وَالسَّيْفُ فِي يَدِهِ ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يَتَرَبَّصُ بِهِ مِثْلَمَا أَتَرَبَّصُ أَنَا بِهِ : كِلَانَا يُرِيدُ قَتْلَهُ ...

فَلَمَّا وَقَفْتُ مِنْهُ مَوْقِفًا أَرْضَاهُ ، هَزَزْتُ حَرْبَتِي حَتَّىٰ إِذَا اسْتَقَامَتْ فِي يَدِي دَفَعْتُ بِهَا نَحْوَهُ ، فَوَقَعَتْ فِيهِ ...

---

(١) يَجُبُّ ما قبله : يمحو ما قبله من الذّنوب .

(٢) اجترَحْتُها : ارتكبْتُها .

(٣) الرّزء الذي رزأت به الإسلام : المصيبة الّتي أصبتُ بها الإسلام .

(٤) حديقة الموت : الحديقة الكبيرة الّتي لجأ إليها مُسَيْلِمة وأتباعُه ، وسميت بذلك لكثرة من مات فيها من المرتدين .

وَفِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتِي أَطْلَقْتُ بِهَا حَرْبَتِي عَلَىٰ مُسَيْلِمَةَ كَانَ الْأَنْصَارِيُّ[1] يَثِبُ عَلَيْهِ وَيَكِيلُ لَهُ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ ...

فَرَبُّكَ يَعْلَمُ أَيُّنَا قَتَلَهُ .

فَإِنْ كُنْتُ أَنَا الَّذِي قَتَلْتُهُ ؛ أَكُنْ قَدْ قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ ... وَقَتَلْتُ شَرَّ النَّاسِ أَيْضًا ... (*) .

(١) قيل أن هذا الأنصاري هو عبد الله أخو حبيب بن زيد وعلى الأرجح أنه أبو دجانة سماك بن خرشة صاحب سيف رسول الله ﷺ .

(*) للاستزادة من أخبار وَحْشِيِّ بْنِ حَرْبٍ انظر :

١ - الإصابة : ٣/٦٣١ أو «الترجمة» ٩١٠٩.
٢ - أسْدُ الغابة : ٥/٤٣٨.
٣ - الاستيعاب «بهامش الإصابة» : ٣/ ٦٤٤.
٤ - التاريخ الكبير : ج٤ ق٢/ ١٨٠.
٥ - الجمع بين رجال الصحيحين : ٢/ ٥٤٦.
٦ - تجريد أسماء الصحابة : ٢/ ١٣٦.
٧ - تهذيب التهذيب : ١١/١١٣.
٨ - السيرة لابن هشام : «انظر الفهارس».
٩ - مسند أبي داود : ١٨٦.
١٠- الكامل لابن الأثير : ٢/ ١٠٨.
١١- تاريخ الطبري : انظر الفهارس في العاشر.
١٢- إمتاع الأسماع : ١/١٥٢ - ١٥٣.
١٣- سير أعلام النبلاء : ١/١٢٩ - ١٣٠.
١٤- المعارف لابن قتيبة : ١٤٤.
١٥- تاريخ الإسلام للذهبي : ١/ ٢٥٢.

حكيم بن حزام

«إِنَّ بِمَكَّةَ لَأَرْبَعَةَ نَفَرٍ أَرْبَأُ بِهِمْ عَنِ الشِّرْكِ
وَأَرْغَبُ لَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ... أَحَدُهُمْ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ»

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ هَٰذَا الصَّحَابِيِّ ؟! .

لَقَدْ سَجَّلَ التَّارِيخُ أَنَّهُ الْمَوْلُودُ الْوَحِيدُ الَّذِي وُلِدَ دَاخِلَ الْكَعْبَةِ الْمُعَظَّمَةِ ...

أَمَّا قِصَّةُ وِلَادَتِهِ هَٰذِهِ ، فَخُلَاصَتُهَا أَنَّ أُمَّهُ دَخَلَتْ مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ أَتْرَابِهَا(١) إِلَىٰ جَوْفِ الْكَعْبَةِ لِلتَّفَرُّجِ عَلَيْهَا ...

وَكَانَتْ يَوْمَئِذٍ مَفْتُوحَةً لِمُنَاسَبَةٍ مِنَ الْمُنَاسَبَاتِ .

وَكَانَتْ وَالِدَتُهُ آنَذَاكَ حَامِلًا بِهِ ، فَفَجَأَهَا الْمَخَاضُ(٢) وَهِيَ فِي دَاخِلِ الْكَعْبَةِ ؛ فَلَمْ تَسْتَطِعْ مُغَادَرَتَهَا ...

فَجِيءَ لَهَا بِنِطْعٍ(٣) فَوَضَعَتْ مَوْلُودَهَا عَلَيْهِ ...

وَكَانَ ذَلِكَ الْمَوْلُودُ حَكِيمَ بْنَ حِزَامِ بْنِ خُوَيْلِدٍ ...

وَهُوَ ابْنُ أَخِي أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا .

* * *

(١) أترابها : لداتها وصويحباتها .
(٢) فجأها المخاض : أتاها الطَّلْقُ فجأةً .
(٣) النطع : قطعة من الجلد .

نَشَأَ حَكِيمُ بْنُ حَزَامٍ فِي أُسْرَةٍ عَرِيقَةِ النَّسَبِ[١]، عَرِيضَةِ الْجَاهِ، وَاسِعَةِ الثَّرَاءِ.

وَكَانَ إِلَىٰ ذَلِكَ عَاقِلًا سَرِيًّا[٢] فَاضِلًا؛ فَسَوَّدَهُ قَوْمُهُ[٣]، وَأَنَاطُوا بِهِ[٤] مَنْصِبَ الرِّفَادَةِ[٥].

فَكَانَ يُخْرِجُ مِنْ مَالِهِ الْخَاصِّ مَا يُرْفِدُ بِهِ الْمُنْقَطِعِينَ مِنْ حُجَّاجِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ...

وَقَدْ كَانَ حَكِيمٌ صَدِيقًا حَمِيمًا[٦] لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ.

فَهُوَ وَإِنْ كَانَ أَكْبَرَ مِنَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ بِخَمْسِ سَنَوَاتٍ؛ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَأْلَفُهُ، وَيَأْنَسُ بِهِ، وَيَرْتَاحُ إِلَىٰ صُحْبَتِهِ وَمُجَالَسَتِهِ. وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُبَادِلُهُ وُدًّا بِوُدٍّ، وَصَدَاقَةً بِصَدَاقَةٍ.

ثُمَّ جَاءَتْ آصِرَةُ الْقُرْبَىٰ[٧] فَوَثَّقَتْ[٨] مَا بَيْنَهُمَا مِنْ عَلَاقَةٍ، وَذَلِكَ حِينَ تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عَمَّتِهِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

* * *

وَقَدْ تَعْجَبُ بَعْدَ كُلِّ الَّذِي بَسَطْنَاهُ لَكَ مِنْ عَلَاقَةِ حَكِيمٍ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ حَكِيمًا لَمْ يُسْلِمْ إِلَّا يَوْمَ الْفَتْحِ[٩]، حَيْثُ كَانَ قَدْ مَضَىٰ عَلَىٰ بَعْثَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ عِشْرِينَ عَامًا!!.

---

(١) عريقة النّسب: كريمة الآباء والأجداد.
(٢) السّري: الشّريف.
(٣) سوّده قومه: جعلوا له السّيادة عليهم.
(٤) أناطوا به: أسندوا إليه.
(٥) الرّفادة: أحد مناصب قريش في الجاهلية، ويقوم صاحبه بمعونة المحتاجين والمنقطعين من الحجاج.
(٦) صديقًا حميمًا: صديقًا متين الصّداقة.
(٧) آصرة القربى: علاقة القُرْبَى.
(٨) وثّقت: قوّت ومتّنت.
(٩) يوم الفتح: يوم فتح مكة.

فَقَدْ كَانَ الْمَظْنُونُ بِرَجُلٍ مِثْلِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ حَبَاهُ اللَّهُ[1] ذَلِكَ الْعَقْلَ الرَّاجِحَ ، وَيَسَّرَ لَهُ تِلْكَ الْقُرْبَىٰ الْقَرِيبَةَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، الْمُصَدِّقِينَ لِدَعْوَتِهِ ، الْمُهْتَدِينَ بِهَدْيِهِ .

وَلَكِنَّهَا مَشِيئَةُ اللَّهِ ...

وَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ ...

* * *

وَكَمَا نَعْجَبُ نَحْنُ مِنْ تَأَخُّرِ إِسْلَامِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ، فَقَدْ كَانَ يَعْجَبُ هُوَ نَفْسُهُ مِنْ ذَلِكَ .

فَهُوَ مَا كَادَ يَدْخُلُ الْإِسْلَامَ وَيَتَذَوَّقُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ، حَتَّىٰ جَعَلَ يَعَضُّ بَنَانَ النَّدَمِ[2] عَلَىٰ كُلِّ لَحْظَةٍ قَضَاهَا مِنْ عُمُرِهِ وَهُوَ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ مُكَذِّبٌ لِنَبِيِّهِ .

فَلَقَدْ رَآهُ ابْنُهُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ يَبْكِي ، فَقَالَ : مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَتَاهُ ؟! .

قَالَ : أُمُورٌ كَثِيرَةٌ كُلُّهَا أَبْكَانِي يَا بُنَيَّ :

أَوَّلُهَا بُطْءُ إِسْلَامِي مِمَّا جَعَلَنِي أُسْبَقُ إِلَىٰ مَوَاطِنَ[3] كَثِيرَةٍ صَالِحَةٍ حَتَّىٰ لَوْ أَنَّنِي أَنْفَقْتُ مِلْءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَمَا بَلَغْتُ شَيْئًا مِنْهَا .

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَنْجَانِي يَوْمَ « بَدْرٍ » وَ« أُحُدٍ » فَقُلْتُ يَوْمَئِذٍ فِي نَفْسِي :

لَا أَنْصُرُ بَعْدَ ذَلِكَ قُرَيْشًا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا أَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ ، فَمَا لَبِثْتُ أَنْ جُرِرْتُ إِلَىٰ نُصْرَةِ « قُرَيْشٍ » جَرًّا .

ثُمَّ إِنَّنِي كُنْتُ كُلَّمَا هَمَمْتُ بِالْإِسْلَامِ ، نَظَرْتُ إِلَىٰ بَقَايَا مِنْ رِجَالَاتِ

---

(١) حباه الله : أعطاه الله .

(٢) يعضُّ بنان النَّدَم : كناية عن شِدَّة النَّدم .

(٣) مواطن كثيرة : مواقف كثيرة .

قُرَيْشٍ لَهُمْ أَسْنَانٌ(١) وَأَقْدَارٌ مُتَمَسِّكِينَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَقْتَدِي بِهِمْ وَأُجَارِيهِمْ ...

وَيَا لَيْتَ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ ...

فَمَا أَهْلَكَنَا إِلَّا الِاقْتِدَاءُ بِآبَائِنَا وَكُبَرَائِنَا ...

فَلِمَ لَا أَبْكِي يَا بُنَيَّ ؟!! .

* * *

وَكَمَا عَجِبْنَا نَحْنُ مِنْ تَأَخُّرِ إِسْلَامِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ، وَكَمَا كَانَ يَعْجَبُ هُوَ نَفْسُهُ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ كَانَ يَعْجَبُ مِنْ رَجُلٍ لَهُ مِثْلُ حِلْمِ(٢) حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ وَفَهْمِهِ ، كَيْفَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ وَكَانَ يَتَمَنَّىٰ لَهُ وَلِلنَّفَرِ(٣) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ(٤) أَنْ يُبَادِرُوا إِلَىٰ الدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ .

فَفِي اللَّيْلَةِ الَّتِي سَبَقَتْ فَتْحَ مَكَّةَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ :

(إِنَّ بِمَكَّةَ لَأَرْبَعَةَ نَفَرٍ أَرْبَأُ(٥) بِهِمْ عَنِ الشِّرْكِ ، وَأَرْغَبُ لَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ)

قِيلَ : وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ .

قَالَ : (عَتَّابُ بْنُ أُسَيْدٍ ، وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ، وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو(٦)) .

وَمِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَسْلَمُوا جَمِيعًا ...

* * *

---

(١) لهم أسنان : متقدمون في السِّنِّ .
(٢) الحِلْم : العَقل .
(٣) النَّفر : الجماعة .
(٤) عَلَىٰ شاكلته : عَلَىٰ طريقته .
(٥) أربأ بهم عن الشرك : لا أرضاه لهم ولا أجدهم أهلًا له .
(٦) سهيل بن عمرو : انظره ص ٥١١.

وَحِينَ دَخَلَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ فَاتِحًا ؛ أَبَىٰ إِلَّا أَنْ يُكَرِّمَ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ فَأَمَرَ مُنَادِيَهُ أَنْ يُنَادِيَ :

مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَهُوَ آمِنٌ ...

وَمَنْ جَلَسَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فَوَضَعَ سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ ...

وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ...

وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ...

وَمَنْ دَخَلَ دَارَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ فَهُوَ آمِنٌ ...

وَكَانَتْ دَارُ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ ، وَدَارُ أَبِي سُفْيَانَ فِي أَعْلَاهَا .

* * *

أَسْلَمَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ إِسْلَامًا مَلَكَ عَلَيْهِ لُبَّهُ ، وَآمَنَ إِيمَانًا خَالَطَ دَمَهُ وَمَازَجَ قَلْبَهُ ...

وَآلَىٰ[1] عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ كُلِّ مَوْقِفٍ وَقَفَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أَوْ نَفَقَةٍ أَنْفَقَهَا فِي عَدَاوَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِأَمْثَالِ أَمْثَالِهَا .

وَقَدْ بَرَّ بِقَسَمِهِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ آلَتْ إِلَيْهِ[2] دَارُ النَّدْوَةِ وَهِيَ دَارٌ عَرِيقَةٌ ذَاتُ تَارِيخٍ ...

فَفِيهَا كَانَتْ تَعْقِدُ قُرَيْشٌ مُؤْتَمَرَاتِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَفِيهَا اجْتَمَعَ سَادَتُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ لِيَأْتَمِرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ[3] ﷺ .

---

(١) آلَىٰ عَلَىٰ نفسه : قطع عهدًا عَلَىٰ نَفْسِه .
(٢) آلت إليه : أصْبَحَتْ في مُلْكِه .
(٣) ليأتمروا برسول الله : ليتآمروا عَلَىٰ قتله .

فَأَرَادَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهَا ـ وَكَأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُسْدِلَ سِتَارًا مِنَ النِّسْيَانِ عَلَىٰ ذَٰلِكَ الْمَاضِي الْبَغِيضِ ـ فَبَاعَهَا بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مِنْ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ :

لَقَدْ بِعْتَ مَكْرُمَةَ[١] قُرَيْشٍ يَا عَمِّ .

فَقَالَ لَهُ حَكِيمٌ : هَيْهَاتَ[٢] يَا بُنَيَّ ، ذَهَبَتِ الْمَكَارِمُ كُلُّهَا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا التَّقْوَىٰ ، وَإِنِّي مَا بِعْتُهَا إِلَّا لِأَشْتَرِيَ بِثَمَنِهَا بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ...

وَإِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنَّنِي جَعَلْتُ ثَمَنَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

* * *

وَحَجَّ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ بَعْدَ إِسْلَامِهِ ، فَسَاقَ أَمَامَهُ مِائَةَ نَاقَةٍ مُجَلَّلَةٍ بِالْأَثْوَابِ الزَّاهِيَةِ ثُمَّ نَحَرَهَا جَمِيعَهَا تَقَرُّبًا إِلَىٰ اللَّهِ ...

وَفِي حَجَّةٍ أُخْرَىٰ وَقَفَ فِي عَرَفَاتٍ ، وَمَعَهُ مِائَةٌ مِنْ عَبِيدِهِ وَقَدْ جَعَلَ فِي عُنُقِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ طَوْقًا مِنَ الْفِضَّةِ ، نُقِشَ عَلَيْهِ :

عُتَقَاءُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ .

ثُمَّ أَعْتَقَهُمْ جَمِيعًا ...

وَفِي حَجَّةٍ ثَالِثَةٍ سَاقَ أَمَامَهُ أَلْفَ شَاةٍ ـ نَعَمْ أَلْفَ شَاةٍ ـ وَأَرَاقَ دَمَهَا كُلَّهَا فِي « مِنًى » ، وَأَطْعَمَ بِلُحُومِهَا فُقَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ تَقَرُّبًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

* * *

وَبَعْدَ غَزْوَةِ « حُنَيْنٍ » سَأَلَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْغَنَائِمِ فَأَعْطَاهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ ، حَتَّىٰ بَلَغَ مَا أَخَذَهُ مِائَةَ بَعِيرٍ ـ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ حَدِيثَ

(١) مكرمة قريش : يريد الدّار التي بقيت من آثار قريش .
(٢) هيهات : لقد بَعُدْتَ عن الصّواب .

إِسْلَامٍ - فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ :

يَا حَكِيمُ :

(إِنَّ هَٰذَا الْمَالَ حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ[1]...

فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ[2] بُورِكَ لَهُ فِيهِ...

وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ[3] لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ...

وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَىٰ).

فَلَمَّا سَمِعَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ذَلِكَ مِنَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَسْأَلُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا...

وَلَا آخُذُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا حَتَّىٰ أُفَارِقَ الدُّنْيَا...

وَبَرَّ حَكِيمٌ بِقَسَمِهِ أَصْدَقَ الْبِرِّ.

فَفِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ دَعَاهُ الصِّدِّيقُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ لِأَخْذِ عَطَائِهِ[4] مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ فَأَبَىٰ أَنْ يَأْخُذَهُ...

وَلَمَّا آلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَىٰ الْفَارُوقِ دَعَاهُ إِلَىٰ أَخْذِ عَطَائِهِ فَأَبَىٰ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا أَيْضًا...

فَقَامَ عُمَرُ فِي النَّاسِ وَقَالَ :

أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنِّي أَدْعُو حَكِيمًا إِلَىٰ أَخْذِ عَطَائِهِ فَيَأْبَىٰ.

---

(١) حلوة خضرة : حُلْوٌ محبَّبٌ للنفس.
(٢) بسخاوة نفس : بقناعة.
(٣) بإشراف نَفْسٍ : بطمع.
(٤) لأخذ عطائه : لأخذ حقّه من بيت المال.

وَظَلَّ حَكِيمٌ كَذَلِكَ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا حَتَّى فَارَقَ الْحَيَاةَ (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار حكيم بن حزام انظر:

١ - الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ١/ ٣٢٠.

٢ - الإصابة: ١/٣٤٩ أو «الترجمة» ١٨٠٠.

٣ - الملل والنحل: ١/ ٢٧.

٤ - الطبقات الكبرى: ١/ ٢٦.

٥ - سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٦٤.

٦ - زعماء الإسلام: ١٩٠ - ١٩٦.

٧ - حماة الإسلام: ١/ ١٢١.

٨ - تاريخ الخلفاء: ١٢٦.

٩ - صفة الصفوة: ١/ ٣١٩.

١٠ - المعارف: ٩٢ - ٩٣.

١١ - أسد الغابة: ٢/٩ - ١٥.

١٢ - محاضرات الأدباء: ٤/ ٤٧٨.

١٣ - مروج الذهب: ٢/ ٣٠٢.

عَبَّادُ بنُ بِشْرٍ

« ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَسْمُو عَلَيْهِمْ فَضْلًا ...
سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ، وَأُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ ، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ »
[عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ]

عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ اسْمٌ وَضِيءٌ مُشْرِقٌ فِي تَارِيخِ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ...

إِنْ نَشَدْتَهُ[1] بَيْنَ الْعُبَّادِ ؛ وَجَدْتَهُ التَّقِيَّ النَّقِيَّ قَوَّامَ اللَّيْلِ بِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ ...

وَإِنْ طَلَبْتَهُ بَيْنَ الْأَبْطَالِ ؛ أَلْفَيْتَهُ[2] الْكَمِيَّ الْحَمِيَّ[3] خَوَّاضَ الْمَعَارِكِ إِعْلَاءً لِكَلِمَةِ اللَّهِ ...

وَإِنْ بَحَثْتَ عَنْهُ بَيْنَ الْوُلَاةِ رَأَيْتَهُ الْقَوِيَّ الْمُؤْتَمَنَ عَلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ ...

حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ فِيهِ وَفِي اثْنَيْنِ آخَرَيْنِ مِنْ بَنِي قَوْمِهِ :

ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَسْمُو عَلَيْهِمْ فَضْلًا كُلُّهُمْ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ : سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ، وَأُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ[4]، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ .

* * *

كَانَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ الْأَشْهَلِيُّ حِينَ لَاحَ[5] فِي آفَاقِ « يَثْرِبَ » أَوَّلُ شُعَاعٍ مِنْ أَشِعَّةِ الْهِدَايَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فَتًى مَوْفُورَ الشَّبَابِ ، غَضَّ الْإِهَابِ ، تَعْرِفُ فِي وَجْهِهِ نُضْرَةَ الْعَفَافِ وَالطُّهْرِ ، وَتَلْمَحُ فِي تَصَرُّفَاتِهِ رَزَانَةَ[6] الْكُهُولِ ؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِذْ ذَاكَ قَدْ جَاوَزَ الْخَامِسَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ السَّعِيدِ .

* * *

(١) نشدته : طلبته .
(٢) ألفيته : وجدته .
(٣) الكميّ الحميّ : الشجاع المحامي .
(٤) أُسَيد بن الحُضَير : انظره ص ١٦٣ .
(٥) لاح : بدا وظهر .
(٦) رزانة الكهول : رصانتهم وعقلهم .

وَقَدِ اجْتَمَعَ إِلَىٰ الدَّاعِيَةِ الْمَكِّيِّ الشَّابِّ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ؛ فَسَرْعَانَ مَا أَلَّفَتْ بَيْنَ قَلْبَيْهِمَا أَوَاصِرُ[1] الْإِيمَانِ، وَوَحَّدَتْ بَيْنَ نَفْسَيْهِمَا كَرِيمُ الشَّمَائِلِ وَنَبِيلُ الْخَصَائِلِ.

وَقَدِ اسْتَمَعَ إِلَىٰ مُصْعَبٍ وَهُوَ يُرَتِّلُ الْقُرْآنَ بِصَوْتِهِ الْفِضِّيِّ الدَّافِيءِ، وَنَبْرَتِهِ الشَّجِيَّةِ الْآسِرَةِ؛ فَشُغِفَ بِكَلَامِ اللَّهِ حُبًّا[2]، وَأَفْسَحَ لَهُ فِي سُوَيْدَاءِ فُؤَادِهِ مَكَانًا رَحْبًا، وَجَعَلَهُ شُغْلَهُ الشَّاغِلَ فَكَانَ يُرَدِّدُهُ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَحِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ، حَتَّىٰ عُرِفَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ بِالْإِمَامِ، وَصَدِيقِ الْقُرْآنِ.

* * *

وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَتَهَجَّدُ[3] ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ الْمُلَاصِقِ لِلْمَسْجِدِ، فَسَمِعَ صَوْتَ عَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ رَطْبًا نَدِيًّا كَمَا نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَىٰ قَلْبِهِ فَقَالَ:

(يَا عَائِشَةُ: هَٰذَا صَوْتُ عَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ؟!).

قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ).

* * *

شَهِدَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَشَاهِدَهُ كُلَّهَا، وَكَانَ لَهُ فِي كُلٍّ مِنْهَا مَوْقِفٌ يَلِيقُ بِحَامِلِ الْقُرْآنِ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا قَفَلَ عَائِدًا مِنْ غَزْوَةِ «ذَاتِ الرِّقَاعِ» نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ لِيَقْضُوا لَيْلَتَهُمْ فِيهِ.

وَكَانَ أَحَدُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ سَبَىٰ - فِي أَثْنَاءِ الْغَزْوَةِ - امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ

(١) أواصر الإيمان: روابط الإيمان.

(٢) شغف به حبًّا: أحبه حبًّا عميقًا مَسَّ شِغَافَ قَلْبِه. (٣) يتهجد: يتعبد في اللَّيل.

الْمُشْرِكِينَ فِي غَيْبَةٍ مِنْ زَوْجِهَا ، فَلَمَّا حَضَرَ الزَّوْجُ - وَلَمْ يَجِدِ امْرَأَتَهُ - أَقْسَمَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ لَيَلْحَقَنَّ بِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَأَلَّا يَعُودَ إِلَّا إِذَا أَرَاقَ مِنْهُمْ دَمًا .

* * *

مَا كَادَ الْمُسْلِمُونَ يُنِيخُونَ رَوَاحِلَهُمْ فِي الشِّعْبِ حَتَّىٰ قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : (مَنْ يَحْرُسُنَا فِي لَيْلَتِنَا هَٰذِهِ ؟) .

فَقَامَ إِلَيْهِ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ[1] وَقَالَا : نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ آخَىٰ بَيْنَهُمَا حِينَ قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ .

فَلَمَّا خَرَجَا إِلَىٰ فَمِ الشِّعْبِ قَالَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ لِأَخِيهِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ : أَيُّ شَطْرَيِ اللَّيْلِ تُؤْثِرُ أَنْ تَنَامَ فِيهِ : أَوَّلِهِ أَمْ آخِرِهِ ؟ .

فَقَالَ عَمَّارٌ : بَلْ أَنَامُ فِي أَوَّلِهِ .

وَاضْطَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْهُ .

* * *

كَانَ اللَّيْلُ سَاجِيًا هَادِئًا وَادِعًا ، وَكَانَ النَّجْمُ وَالشَّجَرُ وَالْحَجَرُ تُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا وَتُقَدِّسُ لَهُ ، فَتَاقَتْ نَفْسُ عَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ إِلَىٰ الْعِبَادَةِ ، وَاشْتَاقَ قَلْبُهُ إِلَىٰ الْقُرْآنِ .

وَكَانَ أَحْلَىٰ مَا يَحْلُو لَهُ الْقُرْآنُ إِذَا رَتَّلَهُ مُصَلِّيًا ؛ فَيَجْمَعُ مُتْعَةَ الصَّلَاةِ إِلَىٰ مُتْعَةِ التِّلَاوَةِ .

فَتَوَجَّهَ إِلَىٰ الْقِبْلَةِ وَدَخَلَ فِي الصَّلَاةِ ؛ وَطَفِقَ يَقْرَأُ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ بِصَوْتِهِ الشَّجِيِّ النَّدِيِّ الْعَذْبِ .

وَفِيمَا هُوَ سَابِحٌ فِي هَٰذَا النُّورِ الْإِلَٰهِيِّ الْأَسْنَىٰ ، غَارِقٌ فِي لَأْلَاءِ ضِيَائِهِ ؛

(١) انظر آل ياسر : ص ٥٠١.

أَقْبَلَ الرَّجُلُ يَحُثُّ الْخُطَىٰ(١) فَلَمَّا رَأَىٰ عَبَّادًا مِنْ بَعِيدٍ مُنْتَصِبًا عَلَىٰ فَمِ الشِّعْبِ عَرَفَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَصَحْبَهُ بِدَاخِلِهِ وَأَنَّهُ حَارِسُ الْقَوْمِ ؛ فَوَتَّرَ قَوْسَهُ ، وَتَنَاوَلَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ وَرَمَاهُ بِهِ فَوَضَعَهُ فِيهِ .

فَانْتَزَعَهُ عَبَّادٌ مِنْ جَسَدِهِ وَمَضَىٰ مُتَدَفِّقًا فِي تِلَاوَتِهِ غَارِقًا فِي صَلَاتِهِ ...

فَرَمَاهُ الرَّجُلُ بِآخَرَ فَوَضَعَهُ فِيهِ ؛ فَانْتَزَعَهُ كَمَا انْتَزَعَ سَابِقَهُ ، فَرَمَاهُ بِثَالِثٍ ، فَانْتَزَعَهُ كَمَا انْتَزَعَ سَابِقَيْهِ ، وَزَحَفَ حَتَّىٰ غَدَا قَرِيبًا مِنْ صَاحِبِهِ وَأَيْقَظَهُ قَائِلًا :

انْهَضْ فَقَدْ أَثْخَنَتْنِي(٢) الْجِرَاحُ .

فَلَمَّا رَآهُمَا الرَّجُلُ وَلَّىٰ هَارِبًا .

* * *

وَحَانَتِ الْتِفَاتَةٌ مِنْ عَمَّارٍ إِلَىٰ عَبَّادٍ فَرَأَىٰ الدِّمَاءَ تَنْزِفُ غَزِيرَةً مِنْ جِرَاحِهِ الثَّلَاثَةِ فَقَالَ لَهُ :

يَا سُبْحَانَ اللَّهِ ، هَلَّا أَيْقَظْتَنِي عِنْدَ أَوَّلِ سَهْمٍ رَمَاكَ بِهِ ؟! .

فَقَالَ عَبَّادٌ : كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَأُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّىٰ أَفْرَغَ مِنْهَا . وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْلَا خَوْفِي مِنْ أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِهِ لَكَانَ قَطْعُ نَفْسِي أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ قَطْعِهَا .

* * *

وَلَمَّا نَشِبَتْ(٣) حُرُوبُ الرِّدَّةِ عَلَىٰ عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، جَهَّزَ الصِّدِّيقُ جَيْشًا كَثِيفًا لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ فِتْنَةِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ ، وَ إِخْضَاعِ الْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ(٤)، وَ إِعَادَتِهِمْ إِلَىٰ حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ ، فَكَانَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فِي طَلِيعَةِ ذَلِكَ الْجَيْشِ .

---

(١) أقبل الرجل يحث الخُطَى : أقبل الرجل مُسْرِعًا.
(٢) أثختني الجراح : أضعفتني وأوْهَنَتْ قوتي.
(٣) نشبت الحربُ : ثارت الحربُ.
(٤) ظاهروه : عاونوه وساعدوه.

وَقَدْ رَأَىٰ عَبَّادٌ - خِلَالَ الْمَعَارِكِ الَّتِي لَمْ يُحَقِّقِ الْمُسْلِمُونَ فِيهَا نَصْرًا يُذْكَرُ - مِنْ تَوَاكُلِ الْأَنْصَارِ عَلَىٰ الْمُهَاجِرِينَ، وَتَوَاكُلِ الْمُهَاجِرِينَ عَلَىٰ الْأَنْصَارِ مَا شَحَنَ[1] صَدْرَهُ أَسًى وَغَيْظًا، وَسَمِعَ مِنْ تَنَابُزِهِمْ[2] مَا حَشَا سَمْعَهُ جَمْرًا وَشَوْكًا، فَأَيْقَنَ أَنَّهُ لَا نَجَاحَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي هَٰذِهِ الْمَعَارِكِ الطَّاحِنَةِ إِلَّا إِذَا تَمَيَّزَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَنِ الْآخَرِ لِيَتَحَمَّلَ مَسْؤُولِيَّتَهُ وَحْدَهُ...

وَلِيُعْلَمَ الْمُجَاهِدُونَ الصَّابِرُونَ حَقًّا.

* * *

وَفِي اللَّيْلَةِ الَّتِي سَبَقَتِ الْمَعْرَكَةَ الْحَاسِمَةَ رَأَىٰ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فِيمَا يَرَاهُ النَّائِمُ أَنَّ السَّمَاءَ انْفَرَجَتْ لَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ فِيهَا ضَمَّتْهُ إِلَيْهَا وَأَغْلَقَتْ عَلَيْهِ بَابَهَا...

فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ بِرُؤْيَاهُ، وَقَالَ:

وَاللَّهِ إِنَّهَا الشَّهَادَةُ يَا أَبَا سَعِيدٍ.

* * *

فَلَمَّا طَلَعَ النَّهَارُ وَاسْتُؤْنِفَ الْقِتَالُ، عَلَا عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ نَشَزًا[3] مِنَ الْأَرْضِ وَجَعَلَ يَصِيحُ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ تَمَيَّزُوا مِنَ النَّاسِ...

وَاحْطِمُوا جُفُونَ[4] السُّيُوفِ...

وَلَا تَتْرُكُوا الْإِسْلَامَ يُؤْتَىٰ مِنْ قِبَلِكُمْ[5]...

وَمَا زَالَ يُرَدِّدُ ذَلِكَ النِّدَاءَ حَتَّىٰ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ نَحْوُ أَرْبَعِمِائَةٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ

(١) شحن صدره: ملأ صدره.
(٢) تنابزهم: تعيير بعضهم لبعض.
(٣) نَشَزًا من الأرض: مكانًا مرتفعًا من الأرض.
(٤) جفون السيوف: أغماد السيوف.
(٥) يُؤْتَىٰ من قِبَلِكم: يصابُ من ناحيتكم.

رَأْسِهِمْ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ[1]، وَالْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ[2]، وَأَبُو دُجَانَةَ صَاحِبُ سَيْفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَمَضَىٰ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ بِمَنْ مَعَهُ يَشُقُّ الصُّفُوفَ بِسَيْفِهِ ، وَيَلْقَىٰ الْحُتُوفَ[3] بِصَدْرِهِ ، حَتَّىٰ كُسِرَتْ شَوْكَةُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَمَنْ مَعَهُ وَأُلْجِئُوا إِلَىٰ حَدِيقَةِ الْمَوْتِ .

وَهُنَاكَ عِنْدَ أَسْوَارِ الْحَدِيقَةِ سَقَطَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ شَهِيدًا مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ ...

وَفِيهِ مَا فِيهِ مِنْ ضَرَبَاتِ السُّيُوفِ ، وَطَعَنَاتِ الرِّمَاحِ ، وَوَقْعِ السِّهَامِ .

حَتَّىٰ إِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوهُ إِلَّا بِعَلَامَةٍ كَانَتْ فِي جَسَدِهِ (*) .

---

(١) ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ : انظره ص ٤٥٩.
(٢) الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ : انظره ص ٥١.
(٣) الْحتوف : جمع حتف وهو الموت والهلاك .

(*) للاستزادة من أخبار عَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ انظر :
١ - الْإصابة : ٢٦٣/٢ أو «التّرجمة» ٤٤٥٥.
٢ - الاستيعاب «بهامش الإصابة» : ٢/ ٤٥٢.
٣ - تاريخ الْإِسْلَام للذهبي : ١/ ٣٧٠.
٤ - تهذيب التّهذيب : ٥/ ٩٠.
٥ - الطّبقات الْكبرىٰ لابْن سَعْد : ٣/ ٤٤٠.
٦ - الْمُحَبَّر في التّاريخ : ٢٨٢.
٧ - سير أعلام النّبلاء : ١/ ٢٤٣.
٨ - حياة الصّحابة : ٧١٦/١ و«انظر الْفهارس».

زَيدُ بنُ ثَابِتٍ الأَنصَارِيُّ

تَرجُمَانُ رَسُولِ اللهِ

«فَمَنْ لِلْقَوَافِي بَعْدَ حَسَّانَ وَابْنِهِ
وَمَنْ لِلْمَعَانِي بَعْدَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتِ»
[حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ]

نَحْنُ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ ...

وَمَدِينَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ يَمُوجُ بَعْضُهَا يَوْمَئِذٍ فِي بَعْضٍ[1] اسْتِعْدَادًا لِبَدْرٍ.

وَالنَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ يُلْقِي النَّظَرَاتِ الْأَخِيرَةَ عَلَىٰ أَوَّلِ جَيْشٍ يَتَحَرَّكُ تَحْتَ قِيَادَتِهِ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَتَثْبِيتِ كَلِمَتِهِ فِي الْأَرْضِ.

وَهُنَا أَقْبَلَ عَلَىٰ الصُّفُوفِ غُلَامٌ صَغِيرٌ لَمْ يُتِمَّ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ ، يَتَوَهَّجُ ذَكَاءً وَفِطْنَةً ... وَيَتَأَلَّقُ نَجَابَةً[2] وَحَمِيَّةً ...

وَفِي يَدِهِ سَيْفٌ يُسَاوِيهِ فِي الطُّولِ أَوْ يَزِيدُ عَنْهُ قَلِيلًا ، وَدَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَقَالَ : جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ائْذَنْ لِي أَنْ أَكُونَ مَعَكَ وَأُجَاهِدَ أَعْدَاءَ اللَّهِ تَحْتَ رَايَتِكَ.

فَنَظَرَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ نَظْرَةَ سُرُورٍ وَإِعْجَابٍ ، وَرَبَّتَ[3] عَلَىٰ كَتِفِهِ بِرِفْقٍ وَوُدٍّ ، وَطَيَّبَ خَاطِرَهُ ، وَصَرَفَهُ لِصِغَرِ سِنِّهِ.

* * *

(١) يموج بعضها في بعض : يزدحم فيها النّاس.
(٢) نجابةً : ذكاءً وفطنةً.
(٣) ربَّتَ علَىٰ كتفه : ضرب بيده علَىٰ كتفه بلين.

عَادَ الْغُلَامُ الصَّغِيرُ يُجَرْجِرُ سَيْفَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ أَسْوَانَ(١) حَزِينًا ؛ لِأَنَّهُ حُرِمَ مِنْ شَرَفِ صُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَوَّلِ غَزْوَةٍ يَغْزُوهَا .

وَعَادَتْ مِنْ وَرَائِهِ أُمُّهُ « النَّوَارُ بِنْتُ مَالِكٍ » وَهِيَ لَا تَقِلُّ عَنْهُ أَسًى وَحُزْنًا .

فَقَدْ كَانَتْ تَتَمَنَّىٰ أَنْ تَكْتَحِلَ عَيْنَاهَا بِرُؤْيَةِ غُلَامِهَا ، وَهُوَ يَمْضِي مَعَ الرِّجَالِ مُجَاهِدًا تَحْتَ رَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَكَانَتْ تَأْمُلُ فِي أَنْ يَحْتَلَّ الْمَكَانَةَ الَّتِي كَانَ مِنَ الْمُنْتَظَرِ أَنْ يَحْظَىٰ بِهَا أَبُوهُ لَدَىٰ الرَّسُولِ ﷺ لَوْ أَنَّهُ ظَلَّ عَلَىٰ قَيْدِ الْحَيَاةِ .

* * *

لَكِنَّ الْغُلَامَ الْأَنْصَارِيَّ حِينَ وَجَدَ أَنَّهُ قَدْ أَخْفَقَ(٢) فِي أَنْ يَحْظَىٰ بِالتَّقَرُّبِ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي هَٰذَا الْمَجَالِ لِصِغَرِ سِنِّهِ ، تَفَتَّقَتْ فِطْنَتُهُ عَنْ مَجَالٍ آخَرَ - لَا عَلَاقَةَ لَهُ بِالسِّنِّ - يُقَرِّبُهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَيُدْنِيهِ إِلَيْهِ .

ذَٰلِكَ الْمَجَالُ : هُوَ مَجَالُ الْعِلْمِ وَالْحِفْظِ ...

فَذَكَرَ الْغُلَامُ الْفِكْرَةَ لِأُمِّهِ ؛ فَهَشَّتْ لَهَا وَبَشَّتْ(٣) وَنَشِطَتْ لِتَحْقِيقِهَا .

* * *

حَدَّثَتِ « النَّوَارُ » رِجَالًا مِنْ قَوْمِهِمْ بِرَغْبَةِ الْغُلَامِ ؛ وَذَكَرَتْ لَهُمْ فِكْرَتَهُ ...

فَمَضَوْا بِهِ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَالُوا :

يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، هَٰذَا ابْنُنَا زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ يَحْفَظُ سَبْعَ عَشْرَةَ سُورَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، وَيَتْلُوهَا صَحِيحَةً كَمَا أُنْزِلَتْ عَلَىٰ قَلْبِكَ .

وَهُوَ فَوْقَ ذَٰلِكَ حَاذِقٌ يُجِيدُ الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ . وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَقَرَّبَ بِذَٰلِكَ إِلَيْكَ وَأَنْ يَلْزَمَكَ ... فَاسْمَعْ مِنْهُ إِذَا شِئْتَ .

* * *

(١) أسوان حزينًا : شديد الأسى والحزن . (٢) أخفق : لم ينجح . (٣) هشّت وبشّت : سُرّت وفرحت .

سَمِعَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مِنَ الْغُلَامِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ بَعْضًا مِمَّا يَحْفَظُ، فَإِذَا هُوَ مُشْرِقُ[1] الْأَدَاءِ، مُبِينُ[2] النُّطْقِ... تَتَلَأْلَأُ كَلِمَاتُ الْقُرْآنِ عَلَىٰ شَفَتَيْهِ كَمَا تَتَلَأْلَأُ الْكَوَاكِبُ عَلَىٰ صَفْحَةِ السَّمَاءِ...

ثُمَّ إِنَّ تِلَاوَتَهُ تَنُمُّ عَلَىٰ تَأَثُّرٍ بِمَا يَتْلُو...

وَوَقَفَاتُهُ تَدُلُّ عَلَىٰ وَعْيٍ لِمَا يَقْرَأُ وَحُسْنِ فَهْمٍ...

فَسُرَّ بِهِ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ إِذْ وَجَدَهُ فَوْقَ مَا وَصَفُوهُ، وَزَادَهُ سُرُورًا بِهِ إِتْقَانُهُ لِلْكِتَابَةِ... فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ وَقَالَ:

(يَا زَيْدُ، تَعَلَّمْ لِي كِتَابَةَ الْيَهُودِ[3]، فَإِنِّي لَا آمَنُهُمْ عَلَىٰ مَا أَقُولُ).

فَقَالَ: لَبَّيْكَ[4] يَا رَسُولَ اللَّهِ.

وَأَكَبَّ[5] مِنْ تَوِّهِ[6] عَلَىٰ «الْعِبْرِيَّةِ» حَتَّىٰ حَذَقَهَا[7] فِي وَقْتٍ يَسِيرٍ، وَجَعَلَ يَكْتُبُهَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ لِلْيَهُودِ، وَيَقْرَؤُهَا لَهُ إِذَا هُمْ كَتَبُوا إِلَيْهِ. ثُمَّ تَعَلَّمَ «السُّرْيَانِيَّةَ»[8] بِأَمْرٍ مِنْهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا تَعَلَّمَ «الْعِبْرِيَّةَ».

فَأَصْبَحَ الْفَتَىٰ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ تَرْجُمَانَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

* * *

وَلَمَّا اسْتَوْثَقَ[9] النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ رَصَانَةِ زَيْدٍ وَأَمَانَتِهِ، وَدِقَّتِهِ وَفَهْمِهِ؛ ائْتَمَنَهُ عَلَىٰ رِسَالَةِ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، فَجَعَلَهُ كَاتِبًا لِوَحْيِ اللَّهِ...

فَكَانَ إِذَا نَزَلَ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَىٰ قَلْبِهِ، بَعَثَ إِلَيْهِ يَدْعُوهُ وَقَالَ:

---

(١) مُشْرِق الأداء: بديع الإلقاءِ وَضّاء التّلاوة.
(٢) مبين النّطق: فصيح النّطق.
(٣) كتابة اليهود: العِبْرِيّة.
(٤) لبيك: سمعًا وطاعة وإجابة لأمرك.
(٥) أكب عَلَىٰ العِبْرِيّة: عكف عَلَىٰ تعلم العِبْرِيّة.
(٦) من تَوّه: فورًا.
(٧) حذقها: أتقنها.
(٨) السّريانية: إِحْدَىٰ اللّغات السّامية وكانت منتشرة بين طوائف من النّاس.
(٩) استوثق: تأكّد واطمأنّ.

(اكْتُبْ يَا زَيْدُ) ، فَيَكْتُبُ .

فَإِذَا بِزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ يَتَلَقَّى الْقُرْآنَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، آنًا فَآنًا[١] فَيَنْمُو مَعَ آيَاتِهِ ... وَيَأْخُذُهُ رَطْبًا طَرِيًّا مِنْ فَمِهِ مَوْصُولًا بِأَسْبَابِ نُزُولِهِ ، فَتَشْرِقُ نَفْسُهُ بِأَنْوَارِ هِدَايَتِهِ ... وَيَسْتَنِيرُ عَقْلُهُ بِأَسْرَارِ شَرِيعَتِهِ ...

وَ إِذَا بِالْفَتَى الْمَحْظُوظِ يَتَخَصَّصُ بِالْقُرْآنِ ، وَيَغْدُو الْمَرْجِعَ الْأَوَّلَ فِيهِ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

فَكَانَ رَأْسَ مَنْ جَمَعُوا كِتَابَ اللَّهِ فِي عَهْدِ الصِّدِّيقِ ...

وَطَلِيعَةَ مَنْ وَحَّدُوا مَصَاحِفَهُ فِي زَمَنِ عُثْمَانَ[٢] .

أَفَبَعْدَ هَٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ مَنْزِلَةٌ تَسْمُو إِلَيْهَا الْهِمَمُ ؟! ...

وَهَلْ فَوْقَ هَٰذَا الْمَجْدِ مَجْدٌ تَطْمَحُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ ؟! .

* * *

وقَدْ كَانَ مِنْ فَضْلِ الْقُرْآنِ عَلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنْ أَنَارَ لَهُ سُبُلَ الصَّوَابِ فِي الْمَوَاقِفِ الَّتِي يَحَارُ فِيهَا أُولُو الْأَلْبَابِ[٣]... فَفِي يَوْمِ السَّقِيفَةِ[٤] اخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِيمَنْ يَخْلِفُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ...

فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ : فِينَا خِلَافَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ بِهَا أَوْلَى .

وَقَالَ بَعْضُ الْأَنْصارِ : بَلْ تَكُونُ الْخِلَافَةُ فِينَا وَنَحْنُ بِهَا أَجْدَرُ .

وَقَالَ بَعْضُهُمُ الْآخَرُ : بَلْ تَكُونُ الْخِلَافَةُ فِينَا وَفِيكُمْ مَعًا ...

فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ إِذَا اسْتَعْمَلَ وَاحِدًا مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ قَرَنَ مَعَهُ[٥] وَاحِدًا مِنَّا .

وَكَادَتْ تَحْدُثُ الْفِتْنَةُ الْكُبْرَى ، وَنَبِيُّ اللَّهِ ﷺ مَا زَالَ مُسَجًّى بَيْنَ

---

(١) آنًا فآنًا : شيئًا فشيئًا ، ووقتًا بعد وقت .
(٢) عثمان بن عفان : انظره ص ٥٣٥ .
(٣) أولو الألباب : أصحاب العقول .
(٤) السّقيفة : هي سقيفة بني ساعدة حيث اجتمع المسلمون بعد وفاة الرّسول ﷺ ليتفاوضوا في شأن الخلافة .
(٥) قرن معه : جَمَعَ معه وضمّ إليه .

ظَهْرَانَيْهِمْ[1] لَمْ يُدْفَنْ بَعْدُ . وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ كَلِمَةٍ حَاسِمَةٍ رَشِيدَةٍ مُشْرِقَةٍ بِهَدْيِ الْقُرْآنِ تَئِدُ الْفِتْنَةَ فِي مَهْدِهَا[2]، وَتُنِيرُ لِلْحَائِرِينَ الطَّرِيقَ .

فَانْطَلَقَتْ هَٰذِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ فَمِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ .

إِذِ الْتَفَتَ إِلَىٰ قَوْمِهِ وَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ... إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، فَيَكُونُ خَلِيفَتُهُ مُهَاجِرًا مِثْلَهُ ...

وَ إِنَّا كُنَّا أَنْصَارَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَنَكُونُ أَنْصَارًا لِخَلِيفَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَعْوَانًا لَهُ عَلَىٰ الْحَقِّ .

ثُمَّ بَسَطَ[3] يَدَهُ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَقَالَ : هَٰذَا خَلِيفَتُكُمْ فَبَايِعُوهُ .

* * *

وَقَدْ غَدَا زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ بِفَضْلِ الْقُرْآنِ وَتَفَقُّهِهِ فِيهِ وَطُولِ مُلَازَمَتِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنَارَةً[4] لِلْمُسْلِمِينَ ... يَسْتَشِيرُهُ خُلَفَاؤُهُمْ فِي الْمُعْضِلَاتِ[5]، وَيَسْتَفْتِيهِ عَامَّتُهُمْ فِي الْمُشْكِلَاتِ ، وَيَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْمَوَارِيثِ خَاصَّةً ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ - إِذْ ذَاكَ - مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَحْكَامِهَا وَأَحْذَقُ مِنْهُ فِي قِسْمَتِهَا ؛ فَقَدْ خَطَبَ عُمَرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ « الْجَابِيَةِ »[6] فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ؛ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْقُرْآنِ فَلْيَأْتِ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ ...

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْفِقْهِ فَلْيَأْتِ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ[7]...

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْمَالِ فَلْيَأْتِ إِلَيَّ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَنِي عَلَيْهِ وَالِيًا ، وَلَهُ قَاسِمًا ...

* * *

(١) مسجَّى بين ظهرانيهم : مُغَطًّى لم يُدْفَنْ بَعْدُ .
(٢) تَئِدُ الفتنة في مهدها : تدفنها وهي ما زالت صغيرة .
(٣) بَسَط يده : مَدَّ يده .
(٤) منارةً : مرشدًا للمسلمين وهاديًا لهم .
(٥) المعضلات : الأمور التي يصعب حلُّها .
(٦) الجابية : قرية غربي دمشق اجتمع فيها عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه مع الصَّحابة للتداول في شئون الفتح ، وخطب فيها خطبته المشهورة فسُمِّي ذلك اليوم بيوم الجابِيَة .
(٧) معاذ بن جبل : انظره ص ٤٩٣ .

وَلَقَدْ عَرَفَ طُلَّابُ الْعِلْمِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ[1] لِزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَدْرَهُ، فَأَجَلُّوهُ، وَعَظَّمُوهُ لِمَا وَقَرَ[2] فِي صَدْرِهِ مِنَ الْعِلْمِ.

فَهَا هُوَ ذَا بَحْرُ الْعِلْمِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ[3] يَرَىٰ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ قَدْ هَمَّ بِرُكُوبِ دَابَّتِهِ، فَيَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيُمْسِكُ لَهُ بِرِكَابِهِ، وَيَأْخُذُ بِزِمَامِ دَابَّتِهِ...

فَقَالَ لَهُ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: دَعْ عَنْكَ يَا بْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ.

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمَائِنَا...

فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ: أَرِنِي يَدَكَ.

فَأَخْرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَدَهُ لَهُ، فَمَالَ عَلَيْهَا زَيْدٌ وَقَبَّلَهَا، وَقَالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِآلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا...

* * *

وَلَمَّا لَحِقَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ بِجِوَارِ رَبِّهِ؛ بَكَى الْمُسْلِمُونَ بِمَوْتِهِ الْعِلْمَ الَّذِي وُورِيَ مَعَهُ[4]، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: الْيَوْمَ مَاتَ حَبْرُ[5] هَٰذِهِ الْأُمَّةِ، وَعَسَىٰ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ فِي ابْنِ عَبَّاسٍ خَلَفًا مِنْهُ.

وَرَثَاهُ شَاعِرُ رَسُولِ اللَّهِ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَرَثَىٰ نَفْسَهُ مَعَهُ؛ فَقَالَ:

فَمَنْ لِلْقَوَافِي بَعْدَ حَسَّانَ وَابْنِهِ ... وَمَنْ لِلْمَعَانِي بَعْدَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ؟! (*)

---

(١) التَّابعون: هم الرَّعيل الأول بعد صَحابة النَّبي ﷺ، وقد قسمهم علماء الحديث إِلَى طبقات، أولهم من لحِقَ الْعشرةَ المبشرين بالجنة وآخرهم من لَقِيَ صغار الصَّحابة أو من تأخرت وفاتهم ... انظر كتاب «صور من حياة التَّابعين» للمؤلف، النَّاشر دار الأدب الإِسلامي.

(٢) وَقَرَ في صدره: استقر في صدره وثبت.

(٣) عبد الله بن عباس: انظره ص ١٧٣.

(٤) وُورِيَ معه: دُفِنَ معه.

(٥) الْحَبْرُ: الْعالم الْمُتَبَحِّرُ في الْعلم.

(*) للاستزادة من أخبار زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ انظر:

١ - الإِصابة: ٥٦١/١ أو «التَّرجمة»: ٢٨٨٠.

٢ - الاستيعاب «بهامش الإِصابة»: ١/ ٥٥١.

٣ - غاية النِّهاية: ١/ ٢٩٦.

٤ - صفة الصَّفوة: ١/ ٧٠٤.

٥ - أُسْدُ الْغابة «التَّرجمة»: ١٨٢٤.

٦ - تهذيب التَّهذيب: ٣/ ٣٩٩.

٧ - تقريب التَّهذيب: ١/ ٢٧٢.

٨ - الطَّبقات لابن سعد: «انظر الْفهارس».

٩ - المعارف: ٢٦٠.

١٠- حياة الصَّحابة: «انظر الْفهارس».

١١- السِّيرة لابن هشام: «انظر الْفهارس».

١٢- تاريخ الطَّبري: «انظر الْفهارس».

١٣- أخبار الْقضاء لوكيع: ١٠٧/١ - ١١٠

رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ

« دَأَبَ رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ فِي الْعِبَادَةِ لِيَحْظَىٰ بِمُرَافَقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْجَنَّةِ ... كَمَا حَظِيَ بِخِدْمَتِهِ وَصُحْبَتِهِ فِي الدُّنْيَا »

قَالَ رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ :

كُنْتُ فَتًى حَدِيثَ السِّنِّ لَمَّا أَشْرَقَتْ نَفْسِي بِنُورِ الْإِيمَانِ ، وَامْتَلأَ فُؤَادِي بِمَعَانِي الْإِسْلَامِ .

وَلَمَّا اكْتَحَلَتْ عَيْنَايَ بِمَرْأَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؛ أَحْبَبْتُهُ حُبًّا مَلَكَ عَلَيَّ كُلَّ جَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِي[1]...

وَأُولِعْتُ[2] بِهِ وَلَعًا صَرَفَنِي عَنْ كُلِّ مَا عَدَاهُ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي ذَاتَ يَوْمٍ : وَيْحَكَ[3] يَا رَبِيعَةُ ، لِمَ لَا تُجَرِّدُ نَفْسَكَ لِخِدْمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟! ...

اعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَيْهِ ... فَإِنْ رَضِيَ بِكَ سَعِدْتَ بِقُرْبِهِ وَفُزْتَ بِحُبِّهِ ، وَحَظِيتَ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثُمَّ مَا لَبِثْتُ أَنْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَرَجَوْتُهُ أَنْ يَقْبَلَنِي فِي خِدْمَتِهِ .

فَلَمْ يُخَيِّبْ رَجَائِي ، وَرَضِيَ بِي أَنْ أَكُونَ خَادِمًا لَهُ .

فَصِرْتُ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَلْزَمَ لِلنَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ مِنْ ظِلِّهِ :

---

(١) الجوارح : الأعضاء.

(٢) أولعت به : شُغفت به حبًا وتعلقت به.

(٣) ويحك : كلمة تَرَحُّم.

أَسِيرُ مَعَهُ أَيْنَمَا سَارَ ، وَأَدُورُ فِي فَلَكِهِ كَيْفَمَا دَارَ .

فَمَا رَمَىٰ بِطَرْفِهِ[١] مَرَّةً نَحْوِي إِلَّا مَثُلْتُ[٢] وَاقِفًا بَيْنَ يَدَيْهِ .

وَمَا تَشَوَّفَ[٣] لِحَاجَةٍ مِنْ حَاجَاتِهِ إِلَّا وَجَدَنِي مُسْرِعًا فِي قَضَائِهَا .

وَكُنْتُ أَخْدِمُهُ نَهَارَهُ كُلَّهُ ، فَإِذَا انْقَضَىٰ النَّهَارُ وَصَلَّىٰ الْعِشَاءَ الْأَخِيرَةَ وَأَوَىٰ إِلَىٰ بَيْتِهِ ؛ أَهِمُّ بِالِانْصِرَافِ .

لَكِنِّي مَا أَلْبَثُ أَنْ أَقُولَ فِي نَفْسِي : إِلَىٰ أَيْنَ تَمْضِي يَا رَبِيعَةُ ؟! ...

فَلَعَلَّهَا تَعْرِضُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَاجَةٌ فِي اللَّيْلِ .

فَأَجْلِسُ عَلَىٰ بَابِهِ وَلَا أَتَحَوَّلُ عَنْ عَتَبَةِ بَيْتِهِ .

وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْطَعُ لَيْلَهُ قَائِمًا يُصَلِّي ؛ فَرُبَّمَا سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ[٤]؛ فَمَا يَزَالُ يُكَرِّرُهَا هَزِيعًا[٥] مِنَ اللَّيْلِ ، حَتَّىٰ أَمَلَّ فَأَتْرُكَهُ ، أَوْ تَغْلِبَنِي عَيْنَايَ فَأَنَامَ . وَرُبَّمَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ : « سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ » فَمَا يَزَالُ يُرَدِّدُهَا زَمَنًا أَطْوَلَ مِنْ تَرْدِيدِهِ لِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ .

* * *

وقَدْ كَانَ مِنْ عَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ مَا صَنَعَ لَهُ أَحَدٌ مَعْرُوفًا إِلَّا أَحَبَّ أَنْ يُجَازِيَهُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَجَلُّ مِنْهُ .

وَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُجَازِيَنِي عَلَىٰ خِدْمَتِي لَهُ ، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَالَ :

(يَا رَبِيعَةُ بْنَ كَعْبٍ) .

فَقُلْتُ : لَبَّيْكَ[٦] يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ[٧].

فَقَالَ : (سَلْنِي شَيْئًا أُعْطِهِ لَكَ) .

فَرَوَّيْتُ[٨] قَلِيلًا ثُمَّ قُلْتُ :

---

(١) رَمَىٰ بطرفه : نظر بطرف عينيه .
(٢) مثلت واقفًا : بادرت واقفًا .
(٣) تَشَوَّف لحاجة : تَطَلَّعَ لحاجة .
(٤) فاتحة الكتاب : سورة الحمد .
(٥) الهزيع من اللّيل : الشّطر من اللّيل ، ثلثه أو نصفه أو جزء منه .
(٦) لبيك : سمعًا وإجابةً لك .
(٧) سعديك : أسْعَدَكَ اللّه إسعادًا بعد إسعاد .
(٨) روّيت قليلًا : فكّرت قليلًا .

أَمْهِلْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ لِأَنْظُرَ فِيمَا أَطْلُبُهُ مِنْكَ ، ثُمَّ أُعْلِمَكَ .

فَقَالَ : (لَا بَأْسَ عَلَيْكَ) .

وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ شَابًّا فَقِيرًا لَا أَهْلَ لِي وَلَا مَالَ وَلَا سَكَنَ . وَإِنَّمَا كُنْتُ آوِي إِلَىٰ صُفَّةِ[1] الْمَسْجِدِ مَعَ أَمْثَالِي مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ .

وَكَانَ النَّاسُ يَدْعُونَنَا « بِضُيُوفِ الْإِسْلَامِ » . فَإِذَا أَتَىٰ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِصَدَقَةٍ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ بِهَا كُلِّهَا إِلَيْنَا .

وَإِذَا أَهْدَىٰ لَهُ أَحَدٌ هَدِيَّةً أَخَذَ مِنْهَا شَيْئًا ، وَجَعَلَ بَاقِيَهَا لَنَا .

فَحَدَّثَتْنِي نَفْسِي أَنْ أَطْلُبَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئًا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا ، أَغْتَنِي بِهِ مِنْ فَقْرٍ ، وَأَغْدُو كَالْآخَرِينَ ذَا مَالٍ وَزَوْجٍ وَوَلَدٍ .

لَكِنِّي مَا لَبِثْتُ أَنْ قُلْتُ : تَبًّا[2] لَكَ يَا رَبِيعَةُ بْنَ كَعْبٍ ، إِنَّ الدُّنْيَا زَائِلَةٌ فَانِيَةٌ ، وَإِنَّ لَكَ فِيهَا رِزْقًا كَفَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَكَ .

وَالرَّسُولُ ﷺ فِي مَنْزِلَةٍ عِنْدَ رَبِّهِ لَا يُرَدُّ لَهُ مَعَهَا طَلَبٌ . فَاطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ لَكَ مِنْ فَضْلِ الْآخِرَةِ .

فَطَابَتْ نَفْسِي لِذَلِكَ ، وَاسْتَرَاحَتْ لَهُ .

ثُمَّ جِئْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : (مَا تَقُولُ يَا رَبِيعَةُ ؟!) .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْأَلُكَ أَنْ تَدْعُوَ لِيَ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَنِي رَفِيقًا لَكَ فِي الْجَنَّةِ .

فَقَالَ ﷺ : (مَنْ أَوْصَاكَ بِذَلِكَ ؟) .

فَقُلْتُ : لَا وَاللَّهِ مَا أَوْصَانِي بِهِ أَحَدٌ ، وَلَكِنَّكَ حِينَ قُلْتَ لِي : سَلْنِي

---

(١) الصُّفَّة : مكان في مسجد رسول الله ﷺ كان يأوي إليه الفقراء الذين لا بيوت لهم ، وكانوا يُدْعَوْنَ أَهْلَ الصُّفَّة .

(٢) تبًّا لك : التبّ الهلاكُ والبوارُ .

أُعْطِكَ حَدَّثَتْنِي نَفْسِي أَنْ أَسْأَلَكَ شَيْئًا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا ...

ثُمَّ مَا لَبِثْتُ أَنْ هُدِيتُ إِلَىٰ إِيثَارِ الْبَاقِيَةِ عَلَىٰ الْفَانِيَةِ[١]، فَسَأَلْتُكَ أَنْ تَدْعُوَ اللَّهَ لِي بِأَنْ أَكُونَ رَفِيقَكَ فِي الْجَنَّةِ.

فَصَمَتَ رَسُولُ اللَّهِ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ: (أَوَ غَيْرَ ذَٰلِكَ يَا رَبِيعَةُ؟).

فَقُلْتُ: كَلَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا أَعْدِلُ[٢] بِمَا سَأَلْتُكَ شَيْئًا.

فَقَالَ: (إِذَنْ أَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ).

فَجَعَلْتُ أَدْأَبُ[٣] فِي الْعِبَادَةِ لِأَحْظَىٰ بِمُرَافَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَنَّةِ كَمَا حَظِيتُ بِخِدْمَتِهِ وَصُحْبَتِهِ فِي الدُّنْيَا.

* * *

ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ ذَٰلِكَ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّىٰ نَادَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: (أَلَا تَتَزَوَّجُ يَا رَبِيعَةُ؟!).

فَقُلْتُ: مَا أُحِبُّ أَنْ يَشْغَلَنِي شَيْءٌ عَنْ خِدْمَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

ثُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ عِنْدِي مَا أَمْهُرُ بِهِ الزَّوْجَةَ[٤]، وَلَا مَا أُقِيمُ حَيَاتَهَا بِهِ، فَسَكَتَ.

ثُمَّ رَآنِي ثَانِيَةً وَقَالَ: (أَلَا تَتَزَوَّجُ يَا رَبِيعَةُ؟!).

فَأَجَبْتُهُ بِمِثْلِ مَا قُلْتُ لَهُ فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ.

لَكِنَّنِي مَا إِنْ خَلَوْتُ إِلَىٰ نَفْسِي حَتَّىٰ نَدِمْتُ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنِّي، وَقُلْتُ:

وَيْحَكَ يَا رَبِيعَةُ ... وَاللَّهِ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَأَعْلَمُ مِنْكَ بِمَا يَصْلُحُ لَكَ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ، وَأَعْرَفُ مِنْكَ بِمَا عِنْدَكَ.

وَاللَّهِ لَئِنْ دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَٰذِهِ الْمَرَّةِ إِلَىٰ الزَّوَاجِ لَأُجِيبَنَّهُ.

* * *

(١) إيثار الباقية علىٰ الفانية: تفضيل الآخرة علىٰ الدُّنيا.

(٢) ما أعدل: ما أساوي.

(٣) أدأب في العبادة: اجتهدُ في العبادة.

(٤) أمهر به الزوجة: أعطيه مهرًا لها.

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ ذَلِكَ طَوِيلُ وَقْتٍ حَتَّىٰ قَالَ لِيَ الرَّسُولُ ﷺ :

(أَلَا تَتَزَوَّجُ يَا رَبِيعَةُ ؟!) .

فَقُلْتُ : بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ ... وَلَكِنْ مَنْ يُزَوِّجُنِي ، وَأَنَا كَمَا تَعْلَمُ ؟! .

فَقَالَ ﷺ : (انْطَلِقْ إِلَىٰ آلِ فُلَانٍ[١] وَقُلْ لَهُمْ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُزَوِّجُونِي فَتَاتَكُمْ فُلَانَةَ) .

فَأَتَيْتُهُمْ عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ وَقُلْتُ لَهُمْ :

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ لِتُزَوِّجُونِي فَتَاتَكُمْ فُلَانَةَ .

فَقَالُوا : فُلَانَةَ ؟! .

فَقُلْتُ : نَعَمْ .

فَقَالُوا : مَرْحَبًا بِرَسُولِ اللَّهِ ، وَمَرْحَبًا بِرَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ[٢] ...

وَاللَّهِ لَا يَرْجِعُ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ إِلَّا بِحَاجَتِهِ ... وَعَقَدُوا لِي عَلَيْهَا .

فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَقَدْ جِئْتُ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ بَيْتٍ ... صَدَّقُونِي ، وَرَحَّبُوا بِي ، وَعَقَدُوا لِي عَلَىٰ ابْنَتِهِمْ .

فَمِنْ أَيْنَ آتِيهِمْ بِالْمَهْرِ ؟! .

فَاسْتَدْعَىٰ الرَّسُولُ ﷺ بُرَيْدَةَ بْنَ الْحُصَيْبِ ـ وَكَانَ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ قَوْمِي [بَنِي أَسْلَمَ] ـ وَقَالَ لَهُ :

(يَا بُرَيْدَةُ ، اجْمَعُوا لِرَبِيعَةَ وَزْنَ نَوَاةٍ ذَهَبًا) ... فَجَمَعَهَا لِي .

فَقَالَ لِيَ الرَّسُولُ ﷺ : (اذْهَبْ بِهَٰذَا إِلَيْهِمْ ، وَقُلْ لَهُمْ : هَٰذَا صَدَاقُ[٣] ابْنَتِكُمْ) ، فَأَتَيْتُهُمْ ، وَدَفَعْتُهُ إِلَيْهِمْ فَقَبِلُوهُ ، وَرَضُوهُ ، وَقَالُوا : كَثِيرٌ طَيِّبٌ ...

(١) فلان : كناية عن شخص مُعيَّن .

(٢) رَسُول رَسُولِ اللَّه : من أرسله إلينا رَسُولُ اللَّه .

(٣) صداق ابنتكم : مهر ابنتكم .

فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَقُلْتُ : مَا رَأَيْتُ قَوْمًا قَطُّ أَكْرَمَ مِنْهُمْ ؛ فَلَقَدْ رَضُوا مَا أَعْطَيْتُهُمْ - عَلَىٰ قِلَّتِهِ - وَقَالُوا : كَثِيرٌ طَيِّبٌ .

فَمِنْ أَيْنَ لِي مَا أُولِمُ بِهِ(١) يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟! .

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ لِبُرَيْدَةَ : (اجْمَعُوا لِرَبِيعَةَ ثَمَنَ كَبْشٍ) ، فَابْتَاعُوا لِي كَبْشًا عَظِيمًا سَمِينًا .

فَقَالَ لِيَ الرَّسُولُ ﷺ : (اذْهَبْ إِلَىٰ عَائِشَةَ ، وَقُلْ لَهَا أَنْ تَدْفَعَ لَكَ مَا عِنْدَهَا مِنَ الشَّعِيرِ) ، فَأَتَيْتُهَا فَقَالَتْ : إِلَيْكَ(٢) الْمِكْتَلَ(٣) فَفِيهِ سَبْعُ آصُعٍ(٤) شَعِيرٍ ، لَا وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا طَعَامٌ غَيْرُهُ .

فَانْطَلَقْتُ بِالْكَبْشِ وَالشَّعِيرِ إِلَىٰ أَهْلِ زَوْجَتِي فَقَالُوا :

أَمَّا الشَّعِيرُ فَنَحْنُ نُعِدُّهُ .

وَأَمَّا الْكَبْشُ فَمُرْ أَصْحَابَكَ أَنْ يُعِدُّوهُ لَكَ .

فَأَخَذْتُ الْكَبْشَ - أَنَا وَنَاسٌ مِنْ « أَسْلَمَ » - فَذَبَحْنَاهُ وَسَلَخْنَاهُ وَطَبَخْنَاهُ ، فَأَصْبَحَ عِنْدَنَا خُبْزٌ وَلَحْمٌ .

فَأَوْلَمْتُ وَدَعَوْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأَجَابَ دَعْوَتِي .

* * *

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَنَحَنِي أَرْضًا إِلَىٰ جَانِبِ أَرْضٍ لِأَبِي بَكْرٍ ، فَدَخَلَتْ عَلَيَّ الدُّنْيَا ، حَتَّىٰ إِنِّي اخْتَلَفْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ عَلَىٰ نَخْلَةٍ فَقُلْتُ :

هِيَ فِي أَرْضِي .

---

(١) أولم به : أنفق منه عَلَىٰ وليمة العرس.
(٢) إليك : خُذْ .
(٣) المكتل : زنبيل من خُوص.
(٤) آصُع : جَمْعُ صَاعٍ وهو مكيال تكال به الحبوب .

فَقَالَ : بَلْ هِيَ فِي أَرْضِي .

فَنَازَعْتُهُ ، فَأَسْمَعَنِي كَلِمَةً كَرِهْتُهَا .

فَلَمَّا بَدَرَتْ[1] مِنْهُ الْكَلِمَةُ ؛ نَدِمَ عَلَيْهَا وَقَالَ :

يَا رَبِيعَةُ رُدَّ عَلَيَّ مِثْلَهَا حَتَّىٰ يَكُونَ قِصَاصًا[2].

فَقُلْتُ : لَا وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ .

فَقَالَ : إِذَنْ آتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَشْكُو إِلَيْهِ امْتِنَاعَكَ عَنِ الِاقْتِصَاصِ مِنِّي ...

وَانْطَلَقَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَمَضَيْتُ فِي إِثْرِهِ[3].

فَتَبِعَنِي قَوْمِي بَنُو « أَسْلَمَ » وَقَالُوا :

هُوَ الَّذِي بَدَأَ بِكَ فَشَتَمَكَ ، ثُمَّ يَسْبِقُكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَشْكُوكَ ؟!!.

فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِمْ وَقُلْتُ : وَيْحَكُمْ أَتَدْرُونَ مَنْ هَٰذَا ؟! ...

هَٰذَا الصِّدِّيقُ ...

وَذُو شَيْبَةِ الْمُسْلِمِينَ[4] ...

ارْجِعُوا قَبْلَ أَنْ يَلْتَفِتَ فَيَرَاكُمْ ، فَيَظُنَّ أَنَّكُمْ إِنَّمَا جِئْتُمْ لِتُعِينُونِي عَلَيْهِ فَيَغْضَبَ ، فَيَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ فَيَغْضَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِغَضَبِهِ ، فَيَغْضَبَ اللَّهُ لِغَضَبِهِمَا فَيَهْلَكَ رَبِيعَةُ ؛ فَرَجَعُوا .

---

(١) بَدَرَتْ : ظَهَرَتْ .

(٢) قِصاصًا : عقوبة لي .

(٣) مضيتُ في إثره : تبعته .

(٤) ذو شيبة المُسْلِمين : صاحب شيبة المُسْلِمين وشيخُهم .

ثُمَّ أَتَىٰ أَبُو بَكْرٍ النَّبِيَّ ﷺ، وَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ كَمَا كَانَ، فَرَفَعَ الرَّسُولُ ﷺ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ:

(يَا رَبِيعَةُ مَا لَكَ وَلِلصِّدِّيقِ ؟!).

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَادَ مِنِّي أَنْ أَقُولَ لَهُ كَمَا قَالَ لِي ؛ فَلَمْ أَفْعَلْ.

فَقَالَ ﷺ: (نَعَمْ لَا تَقُلْ لَهُ كَمَا قَالَ لَكَ...

وَلَكِنْ قُلْ: غَفَرَ اللَّهُ لِأَبِي بَكْرٍ).

فَقُلْتُ لَهُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ.

فَمَضَىٰ وَعَيْنَاهُ تَفِيضَانِ مِنَ الدَّمْعِ، وَهُوَ يَقُولُ:

جَزَاكَ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا يَا رَبِيعَةُ بْنَ كَعْبٍ...

جَزَاكَ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا يَا رَبِيعَةُ بْنَ كَعْبٍ...(*).

(*) للاستزادة من أخبار رَبِيعَة بْنِ كَعْبٍ انظر:

١ - أسْدُ الغابة: ٢/ ١٧١.
٢ - الإصابة: ١/٥١١ أو «الترجمة» ٢٦٢٣.
٣ - الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ١/ ٥٠٦.
٤ - البداية والنهاية: ٣٣٥ - ٣٣٦.
٥ - كنز العمال: ٧/ ٣٦.
٦ - الطبقات الكبرىٰ: ٤/ ٣١٣.
٧ - مسند أبي داود: ١٦١ - ١٦٢.
٨ - تاريخ الخلفاء: ٥٦.
٩ - مجمع الزوائد: ٤/٢٥٦ - ٢٥٧.
١٠ - حياة الصحابة: «انظر الفهارس في الرابع»
١١ - تهذيب التهذيب: ٣/٢٦٢ - ٢٦٣.
١٢ - خلاصة تذهيب تهذيب الكمال: ١١٦.
١٣ - تجريد أسماء الصحابة: ١/ ١٩٤.
١٤ - الجمع بين رجال الصحيحين: ١/ ١٣٦.
١٥ - الجرح والتعديل: ج١ ق ٢/ ٤٧٢.
١٦ - التاريخ الكبير: ج٢ ق ١/ ٢٥٦.
١٧ - تاريخ خليفة بن خياط: ١١١.
١٨ - الطبقات الكبرىٰ: ٤/٣١٣ - ٣١٤.
١٩ - تاريخ الإسلام للذهبي: ٣/ ١٥.
٢٠ - القصص الإسلامية في عهد النبوّة والخلفاء الراشدين لأحمد بن حافظ الحكمي: ٢/ ٦٥٦.

ذو البجادين

عَبْدُ اللهِ الْمُزَنِيُّ

«لَقَدْ نَادَتِ الدُّنْيَا ذَا الْبِجَادَيْنِ ، فَأَصَمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ سَمَاعِ أَصْوَاتِهَا ، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ الْآخِرَةِ يَطْلُبُهَا مِنْ كُلِّ سَبِيلٍ»

عَلَىٰ يَمِينِ الرَّاكِبِ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ إِلَىٰ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ جَبَلٌ أَخْضَرُ السُّفُوحِ...

نَضِيرُ الذُّرَىٰ(١)...

وَارِفُ الظِّلَالِ(٢)...

يُدْعَىٰ جَبَلَ «وَرْقَانَ».

وَكَانَ يَسْكُنُ هَٰذَا الْجَبَلَ بَطْنٌ مِنْ بُطُونِ قَبِيلَةِ «مُزَيْنَةَ».

* * *

فِي شِعْبٍ(٣) مِنْ شِعَابِ ذَٰلِكَ الْجَبَلِ الْقَرِيبِ مِنْ «يَثْرِبَ» وُلِدَ «عَبْدُ الْعُزَّىٰ بْنُ عَبْدِ نَهْمٍ الْمُزَنِيُّ» لِأَبَوَيْنِ فَقِيرَيْنِ.

وَقَدْ كَانَ مِيلَادُهُ قُبَيْلَ مَطْلَعِ النُّورِ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ بِزَمَنٍ يَسِيرٍ.

غَيْرَ أَنَّ يَدَ الْمَنُونِ مَا لَبِثَتْ أَنِ اخْتَرَمَتْ(٤) وَالِدَ الطِّفْلِ «الْمُزَنِيِّ» وَهُوَ لَمْ يَدْرُجْ(٥) بَعْدُ ، فَتَحَالَفَ(٦) عَلَيْهِ الْيُتْمُ وَالْفَقْرُ.

---

(١) نضير الذُّرَىٰ : ناعم وحسن وجميل الذُّرَىٰ.

(٢) وارف الظِّلال : ممتدة متسعة.

(٣) الشِّعب : جمعه شعاب ، وهي الطُّرق في الجبال.

(٤) اخترمت : أهلكت واستأصلت.

(٥) لم يدرج : لم يمش.

(٦) تحالف : تعاهد وتصاحب.

لَكِنَّهُ كَانَ لِلطِّفْلِ الْيَتِيمِ الْفَقِيرِ عَمٌّ عَلَىٰ حَظٍّ كَبِيرٍ مِنْ وَفْرَةِ[1] الْغِنَىٰ، وَبَسْطَةِ الْعَيْشِ...

وَلَمْ يَكُنْ لِعَمِّهِ هَٰذَا وَلَدٌ يُزَيِّنُ حَيَاتَهُ... أَوْ عَقِبٌ يَرِثُ أَمْوَالَهُ...

فَأُولِعَ بِابْنِ أَخِيهِ الصَّغِيرِ، وَأَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ مَنْزِلَةَ الْوَلَدِ مِنْ أَبِيهِ.

* * *

شَبَّ الْغُلَامُ «الْمُزَنِيُّ» فِي أَحْضَانِ جَبَلِ «وَرْقَانَ» الْمُونِقَةِ[2] الْمُورِقَةِ؛ فَخَلَعَ[3] عَلَيْهِ الْجَبَلُ النَّضِيرُ رِقَّةً مِنْ رِقَّتِهِ...

وَأَسْبَغَ[4] عَلَيْهِ صَفَاءً مِنْ صَفَائِهِ...

فَنَشَأَ مُرْهَفَ الْحِسِّ، صَافِيَ النَّفْسِ، نَقِيَّ الْفِطْرَةِ...

فَكَانَ ذَٰلِكَ سَبَبًا آخَرَ لِأَنْ يَزْدَادَ عَمُّهُ وَلَعًا[5] بِهِ، وَإِيثَارًا لَهُ[6].

* * *

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْفَتَىٰ «الْمُزَنِيَّ» قَدْ بَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ.

فَإِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ بِالدِّينِ الْجَدِيدِ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَىٰ عِلْمِهِ شَيْءٌ مِنْ أَخْبَارِ صَاحِبِهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَقَدِ اسْتَطَالَ ذَٰلِكَ حَتَّىٰ سَعِدَتْ «يَثْرِبُ» بِيَوْمِهَا الْمُبَارَكِ الْأَغَرِّ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ عَلَيْهَا مُهَاجِرًا.

فَطَفِقَ[7] الْفَتَىٰ «الْمُزَنِيُّ» يَتَتَبَّعُ أَخْبَارَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَيَتَسَقَّطُ[8] أَحْوَالَهُ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ كَثِيرًا مَا كَانَ يَمْكُثُ[9] سَحَابَةَ

(١) وفرة: سعة وكثرة.
(٢) المونقة: المزهرة النضرة.
(٣) فخلع عليه: ألبسه ومنحه.
(٤) أسبغ: أطال وأوسع.
(٥) وَلَعًا: حبًا شديدًا.
(٦) إيثارًا له: تفضيلًا له عَلَىٰ غيره.
(٧) طفق: جعل يفعل كذا.
(٨) يتسقط: يتحسس ويبحث.
(٩) يمكث: يبقىٰ.

نَهَارِهِ[1] عَلَىٰ جَانِبِ الطَّرِيقِ الْمُفْضِيَةِ[2] إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لِيَسْأَلَ الذَّاهِبِينَ إِلَيْهَا وَالْغَادِينَ[3] مِنْهَا سُؤَالَ الْمَلْهُوفِ عَنِ الدِّينِ الْجَدِيدِ وَأَنْصَارِهِ ...

وَالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ وَأَخْبَارِهِ ، إِلَىٰ أَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ الطَّاهِرَ لِلْإِسْلَامِ ...

وَفَتَحَ قَلْبَهُ الْغَضَّ لِأَنْوَارِ الْإِيمَانِ .

فَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَكْتَحِلَ عَيْنَاهُ بِمَرْأَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

أَوْ تَنْعَمَ أُذُنَاهُ بِسَمَاعِ حَدِيثِهِ ...

فَكَانَ أَوَّلَ امْرِئٍ يُسْلِمُ مِنْ بَنِي قَوْمِهِ فِي جَبَلِ « وَرْقَانَ » .

* * *

كَتَمَ الْفَتَىٰ « الْمُزَنِيُّ » إِسْلَامَهُ عَنْ قَوْمِهِ عَامَّةً ، وَعَنْ عَمِّهِ خَاصَّةً ، وَجَعَلَ يَخْرُجُ إِلَىٰ الشِّعَابِ النَّائِيَةِ[4] لِيَعْبُدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَكْنَافِهَا[5] بَعِيدًا عَنْ أَنْظَارِ النَّاسِ .

وَكَانَ يَتَرَقَّبُ بِلَهْفَةٍ وَشَوْقٍ الْيَوْمَ الَّذِي يُسْلِمُ فِيهِ عَمُّهُ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ إِعْلَانِ إِسْلَامِهِ ...

وَلِيَمْضِيَ بِصُحْبَتِهِ إِلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ غَدَا[6] الشَّوْقُ إِلَىٰ لِقَاءِ النَّبِيِّ ﷺ يَمْلِكُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ ، وَيَشْغَلُ مِنْهُ لُبَّهُ[7] .

* * *

وَلَمَّا وَجَدَ الْفَتَىٰ الْمُؤْمِنُ أَنَّ صَبْرَهُ قَدْ طَالَ ...

وَأَنَّ عَمَّهُ بَعِيدٌ عَنِ الْإِسْلَامِ ...

---

(١) سحابة نهاره : طول نهاره .
(٢) المفضية : الموصلة .
(٣) الغادين : العائدين أو الذاهبين في الغداة .
(٤) النائية : البعيدة .
(٥) أكنافها : جوانبها .
(٦) غدا : صار .
(٧) لبه : عقله .

وَأَنَّ الْمَشَاهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، تَفُوتُهُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ، حَزَمَ أَمْرَهُ - غَيْرَ غَافِلٍ عَنْ عَوَاقِبِ مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ - وَأَقْبَلَ عَلَىٰ عَمِّهِ وَقَالَ:

يَا عَمِّ، لَقَدِ انْتَظَرْتُ إِسْلَامَكَ طَوِيلًا حَتَّىٰ نَفِدَ صَبْرِي، فَإِنْ كُنْتَ تَرْغَبُ فِي أَنْ تُسْلِمَ وَيَكْتُبَ اللَّهُ لَكَ السَّعَادَةَ فَنِعْمَ مَا تَصْنَعُ، وَإِنْ كَانَتِ الْأُخْرَىٰ؛ فَأْذَنْ لِي بِأَنْ أُعْلِنَ إِسْلَامِي بَيْنَ النَّاسِ.

* * *

مَا كَادَتْ كَلِمَاتُ الْفَتَىٰ تُلَامِسُ أُذُنَيْ عَمِّهِ حَتَّىٰ اسْتَشَاطَ غَضَبًا وَقَالَ:

أُقْسِمُ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ(١) لَئِنْ أَسْلَمْتَ لَأَنْزَعَنَّ مِنْ يَدِكَ كُلَّ شَيْءٍ كُنْتُ أَعْطَيْتُهُ لَكَ، وَلَأُسْلِمَنَّكَ لِلْفَاقَةِ(٢)...

وَلَأَتْرُكَنَّكَ فَرِيسَةً لِلْعَوَزِ(٣) وَالْجُوعِ.

فَلَمْ يُحَرِّكْ هَٰذَا التَّهْدِيدُ فِي الْغُلَامِ الْمُؤْمِنِ سَاكِنًا...

وَلَمْ يَفُتَّ(٤) مِنْ عَزْمِهِ شَيْئًا...

فَاسْتَعَانَ عَمُّهُ عَلَيْهِ بِقَوْمِهِ... فَهَبُّوا يُرْهِبُونَهُ وَيُرَغِّبُونَهُ...

وَطَفِقُوا يُهَدِّدُونَهُ وَيَتَوَعَّدُونَهُ(٥) فَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ:

افْعَلُوا مَا شِئْتُمْ... فَأَنَا وَاللَّهِ مُتَّبِعٌ مُحَمَّدًا، وَتَارِكٌ عِبَادَةَ الْأَحْجَارِ.

وَمُنْصَرِفٌ إِلَىٰ عِبَادَةِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ...

وَلْيَكُنْ مِنْكُمْ وَمِنْ عَمِّي مَا يَكُونُ...

فَمَا كَانَ مِنْ عَمِّهِ إِلَّا أَنْ جَرَّدَهُ مِنْ كُلِّ مَا أَعْطَاهُ...

---

(١) اللَّات وَالْعُزَّىٰ: انظر هدم الأصنام في كتاب «حدث في رمضان» للمؤلف.
(٢) الْفاقة: الْفقر.
(٣) الْعوز: الحاجة.
(٤) ولم يفتت: ولم يضعضع منه عزمه أو يضعفه.
(٥) يتوعدونه: ينذرونه بالشَّر.

وَقَطَعَ عَنْهُ رِفْدَهُ[1]، وَحَرَمَهُ مِنْ جَدْوَاهُ[2]...

وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ غَيْرَ بِجَادٍ[3] يَسْتُرُ بِهِ جَسَدَهُ.

* * *

مَضَىٰ الْفَتَىٰ «الْمُزَنِيُّ» مُهَاجِرًا بِدِينِهِ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، مُخَلِّفًا وَرَاءَهُ مَغَانِيَ[4] الطُّفُولَةِ وَمَرَاتِعَ الصِّبَا[5]...

مُعْرِضًا عَمَّا فِي يَدِ عَمِّهِ مِنَ الثَّرَاءِ وَالنِّعْمَةِ...

رَاغِبًا فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْأَجْرِ وَالْمَثُوبَةِ.

وَجَعَلَ يَحُثُّ الْخُطَىٰ[6] نَحْوَ الْمَدِينَةِ تَحْدُوهُ[7] إِلَيْهَا أَشْوَاقٌ بَاتَتْ تَفْرِي فُؤَادَهُ فَرْيًا[8]. فَلَمَّا غَدَا قَرِيبًا مِنْ «يَثْرِبَ» شَقَّ بِجَادَهُ شِقَّيْنِ...

فَاتَّزَرَ بِأَحَدِهِمَا... وَارْتَدَىٰ بِالْآخَرِ.

ثُمَّ مَضَىٰ إِلَىٰ مَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَبَاتَ فِيهِ لَيْلَتَهُ تِلْكَ...

فَلَمَّا انْبَلَجَ[9] الْفَجْرُ وَقَفَ قَرِيبًا مِنْ بَابِ حُجْرَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَجَعَلَ يَتَرَقَّبُ - فِي لَهْفَةٍ وَشَوْقٍ - طَلْعَةَ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ مِنْ حُجْرَتِهِ.

فَمَا إِنْ وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ تَهَلَّلَتْ[10] عَلَىٰ خَدَّيْهِ دُمُوعُ الْفَرَحِ وَشَعَرَ كَأَنَّ قَلْبَهُ يُرِيدُ أَن يَقْفِزَ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ لِتَحِيَّتِهِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ.

* * *

(1) رفده: معونته وعطاؤه.
(2) جدواه: ما يجود به.
(3) الْبجاد: الْكساء الْغليظ.
(4) مغاني الطّفولة: الدّيار التي قضىٰ فيها عهد الطّفولة.
(5) مراتع الصّبا: أماكن اللّعب في أيام الصّبا.
(6) يحث الخطىٰ: يسرع في خطاه.
(7) تحدوه: تسوقه وتدفعه.
(8) تفري فؤاده فريًا: تقطع فؤاده تقطيعًا.
(9) انبلج: أشرق وأضاء.
(10) تهللت علىٰ خديه: انحدرت.

وَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ، قَامَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ - عَلَىٰ عَادَتِهِ - يَتَصَفَّحُ وُجُوهَ النَّاسِ فَنَظَرَ إِلَىٰ الْفَتَىٰ « الْمُزَنِيِّ » ، وَقَالَ :

(مِمَّنْ أَنْتَ يَا فَتَىٰ ؟) .

فَانْتَسَبَ لَهُ .

فَقَالَ لَهُ : (مَا اسْمُكَ ؟) .

فَقَالَ : عَبْدُ الْعُزَّىٰ .

فَقَالَ لَهُ : (بَلْ عَبْدُ اللَّهِ) .

ثُمَّ دَنَا[1] مِنْهُ وَقَالَ : (انْزِلْ قَرِيبًا مِنَّا ، وَكُنْ فِي جُمْلَةِ أَضْيَافِنَا) ...

فَصَارَ النَّاسُ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ يُنَادُونَهُ عَبْدَ اللَّهِ .

وَلَقَّبَهُ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ « بِذِي الْبِجَادَيْنِ » بَعْدَ أَنْ رَأَوْا بِجَادَيْهِ ، وَوَقَفُوا عَلَىٰ قِصَّتِهِ ... فَعُرِفَ فِي التَّارِيخِ أَكْثَرَ مَا عُرِفَ بِهَذَا اللَّقَبِ .

* * *

لَا تَسَلْ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - عَنْ سَعَادَةِ ذِي الْبِجَادَيْنِ حِينَ أَصْبَحَ يَعِيشُ فِي كَنَفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَشْهَدُ مَجَالِسَهُ ...

وَيُصَلِّي خَلْفَهُ ...

وَيَنْهَلُ[2] مِنْ هَدْيِهِ ...

وَيَتَمَلَّىٰ مِنْ شَمَائِلِهِ[3] ...

* * *

(١) دنا منه : اقترب منه .

(٢) ينهل : يرتوي .

(٣) يتملى من شمائله : يتشبع من أخلاقه ومزاياه .

لَقَدْ نَادَتْهُ الدُّنْيَا فَأَصَمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ سَمَاعِ أَصْوَاتِهَا ...

وَأَقْبَلَ عَلَىٰ الْآخِرَةِ يَطْلُبُهَا مِنْ كُلِّ سَبِيلٍ :

لَقَدْ طَلَبَهَا بِالدُّعَاءِ الَّذِي كَانَ يَجْأَرُ بِهِ فِي خَشْيَةٍ وَخُشُوعٍ ...

حَتَّىٰ سَمَّاهُ الصَّحَابَةُ « الْأَوَّاهَ »[1].

وَطَلَبَهَا بِالْقُرْآنِ ...

فَكَانَ لَا يَفْتَأُ يُعَطِّرُ بِشَذَىٰ[2] آيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ أَرْجَاءَ[3] مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَطَلَبَهَا بِالْجِهَادِ ...

فَكَانَتْ لَا تَفُوتُهُ غَزْوَةٌ غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

* * *

وَفِي غَزْوَةِ « تَبُوكَ » ، سَأَلَ ذُو الْبِجَادَيْنِ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ بِالشَّهَادَةِ .

فَدَعَا لَهُ بِأَنْ يَعْصِمَ دَمَهُ مِنْ سُيُوفِ الْكُفَّارِ .

فَقَالَ لَهُ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي[4] يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا هَٰذَا أَرَدْتُ .

فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (إِذَا خَرَجْتَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَرِضْتَ فَمُتَّ فَأَنْتَ شَهِيدٌ ...

وَإِذَا جَمَحَتْ[5] بِكَ دَابَّتُكَ فَسَقَطْتَ فَقُتِلْتَ فَأَنْتَ شَهِيدٌ ...) .

* * *

(١) الأَوَّاه : كثير التأوه خوفًا من الله .
(٢) الشَّذَىٰ : الرائحة الطيبة .
(٣) أرجاء : نواحي .
(٤) بأبي أنت وأمي : أي أفديك بأبي وأمي .
(٥) جمحت : نفرت الدابة وعصت راكبها .

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ هَٰذَا الْحَدِيثِ غَيْرُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ حَتَّىٰ حُمَّ الْفَتَىٰ «الْمُزَنِيُّ» وَمَاتَ...

لَقَدْ مَاتَ مُهَاجِرًا إِلَىٰ اللَّهِ...

مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...

بَعِيدًا عَنِ الْأَهْلِ وَالْعَشِيرِ...

غَرِيبًا عَنِ الْوَطَنِ وَالدَّارِ...

فَعَوَّضَهُ اللَّهُ عَنْ ذَٰلِكَ كُلِّهِ خَيْرَ الْعِوَضِ،

فَلَقَدْ خَطَّ لَهُ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ قَبْرَهُ بِسَوَاعِدِهِمُ الطَّاهِرَةِ...

وَنَزَلَ فِي قَبْرِهِ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِنَفْسِهِ...

وَسَوَّاهُ لَهُ بِيَدَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ.

وَلَقَدْ دَلَّاهُ إِلَىٰ الْقَبْرِ الشَّيْخَانِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ حَيْثُ قَالَ لَهُمَا الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ:

(قَرِّبَا إِلَيَّ أَخَاكُمَا) فَأَنْزَلَاهُ إِلَيْهِ.

فَتَنَاوَلَهُ مِنْهُمَا، وَأَسْكَنَهُ فِي لَحْدِهِ...

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ[1] وَاقِفًا يَشْهَدُ ذَٰلِكَ كُلَّهُ.

فَقَالَ: «لَيْتَنِي كُنْتُ صَاحِبَ هَٰذِهِ الْحُفْرَةِ... وَاللَّهِ، وَدِدْتُ لَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ وَقَدْ أَسْلَمْتُ قَبْلَهُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً» (*).

---

(١) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: انظره ص ٩٧.

(*) للاستزادة من أخبار ذِي الْبِجَادَيْنِ انظر:

١ – أُسْدُ الْغَابة: ٢٢٧/٣ أو «الترجمة»: ٢٩٢٨.

٢ – صفة الصفوة: ٦٧٧/١.

٣ – الإصابة: ٣٣٨/٢ أو «الترجمة» ٤٨٠٤.

٤ – السيرة النبوية لابن هشام: ١٧١/٤ - ١٧٢.

٥ – حياة الصحابة: ٧٨/٤ – ٨١.

أَبُو العَاصِ بْنُ الرَّبِيعِ

«حَدَّثَنِي أَبُو الْعَاصِ فَصَدَقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوَفَىٰ لِي»
[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

كَانَ أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَبْشَمِيُّ[1] الْقُرَشِيُّ، شَابًّا مَوْفُورَ الشَّبَابِ، بَهِيَّ الرَّوْنَقِ، رَائِعَ الْمُجْتَلَىٰ[2]، بَسَطَتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ ظِلَالَهَا، وَجَلَّلَهُ الْحَسَبُ بِرِدَائِهِ، فَغَدَا مَثَلًا لِلْفُرُوسِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ خَصَائِلِ الْأَنَفَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ، وَمَخَايِلِ[3] الْمُرُوءَةِ وَالْوَفَاءِ، وَمَآثِرِ الِاعْتِزَازِ بِتُرَاثِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ.

* * *

وَقَدْ وَرِثَ أَبُو الْعَاصِ حُبَّ التِّجَارَةِ عَنْ قُرَيْشٍ صَاحِبَةِ الرِّحْلَتَيْنِ: رِحْلَةِ الشِّتَاءِ وَرِحْلَةِ الصَّيْفِ[4]؛ فَكَانَتْ رَكَائِبُهُ لَا تَفْتَأُ ذَاهِبَةً آيِبَةً بَيْنَ مَكَّةَ وَالشَّامِ، وَكَانَتْ قَافِلَتُهُ تَضُمُّ الْمِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْمِائَتَيْنِ مِنَ الرِّجَالِ، وَكَانَ النَّاسُ يَدْفَعُونَ إِلَيْهِ بِأَمْوَالِهِمْ لِيَتَّجِرَ لَهُمْ بِهَا فَوْقَ مَالِهِ؛ لِمَا بَلَوْا[5] مِنْ حِذْقِهِ، وَصِدْقِهِ، وَأَمَانَتِهِ.

* * *

وَكَانَتْ خَالَتُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ زَوْجُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ تُنْزِلُهُ مِنْ نَفْسِهَا مَنْزِلَةَ الْوَلَدِ مِنْ أُمِّهِ، وَتَفْسَحُ لَهُ فِي قَلْبِهَا وَبَيْتِهَا مَكَانًا مَرْمُوقًا يَنْزِلُ فِيهِ عَلَىٰ الرَّحْبِ وَالْحُبِّ.

---

(١) الْعبشمي: المنسوب إِلَىٰ عبد شمس.
(٢) رائع الْمُجتلَىٰ: يروع من ينظر إليه.
(٣) مخايل: علامات.
(٤) رحلة الشّتاء إِلَىٰ اليمن، ورحلة الصّيف إِلَىٰ الشّام.
(٥) بلوا: جرّبوا واختبروا.

وَلَمْ يَكُنْ حُبُّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ لِأَبِي الْعَاصِ بِأَقَلَّ مِنْ حُبِّ خَدِيجَةَ لَهُ وَلَا أَدْنَىٰ .

* * *

وَمَرَّتِ الْأَعْوَامُ سِرَاعًا خِفَافًا عَلَىٰ بَيْتِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَشَبَّتْ زَيْنَبُ كُبْرَىٰ بَنَاتِهِ ، وَتَفَتَّحَتْ كَمَا تَتَفَتَّحُ زَهْرَةٌ فَوَّاحَةُ الشَّذَىٰ بَهِيَّةُ الرُّوَاءِ . فَطَمَحَتْ إِلَيْهَا نُفُوسُ أَبْنَاءِ السَّادَةِ الْبَهَالِيلِ(١) مِنْ أَشْرَافِ مَكَّةَ ...

وَكَيْفَ لَا ؟!! ... وَهِيَ مِنْ أَعْرَقِ بَنَاتِ قُرَيْشٍ حَسَبًا وَنَسَبًا ، وَأَكْرَمِهِنَّ أُمًّا وَأَبًا ، وَأَزْكَاهُنَّ(٢) خُلُقًا وَأَدَبًا .

وَلَكِنْ أَنَّىٰ(٣) لَهُمْ أَنْ يَظْفَرُوا بِهَا ؟! ...

وَقَدْ حَالَ دُونَهُمْ وَدُونَهَا ابْنُ خَالَتِهَا أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرَّبِيعِ فَتَىٰ فِتْيَانِ مَكَّةَ !! .

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ اقْتِرَانِ زَيْنَبَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ بِأَبِي الْعَاصِ إِلَّا سَنَوَاتٌ مَعْدُودَاتٌ حَتَّىٰ أَشْرَقَتْ بِطَاحُ مَكَّةَ بِالنُّورِ الْإِلَٰهِيِّ الْأَسْنَىٰ ، وَبَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ ، وَأَمَرَهُ بِأَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ النِّسَاءِ زَوْجَتُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَبَنَاتُهُ زَيْنَبُ ، وَرُقَيَّةُ ، وَأُمُّ كُلْثُومٍ ، وَفَاطِمَةُ(٤)، عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ فَاطِمَةَ كَانَتْ صَغِيرَةً آنَذَاكَ .

غَيْرَ أَنَّ صِهْرَهُ أَبَا الْعَاصِ ، كَرِهَ أَنْ يُفَارِقَ دِينَ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ ، وَأَبَىٰ أَنْ يَدْخُلَ فِيمَا دَخَلَتْ فِيهِ زَوْجَتُهُ زَيْنَبُ ، عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يُصْفِيهَا(٥) بِصَافِي

---

(١) الْبهاليل : السَّادة الجامعون لكل فضل .
(٢) أزكاهن : أرفعهن .
(٣) أنّىٰ لهم : من أين لهم .
(٤) فاطمة الزّهراء : انظرها في كتاب « صور من حياة الصّحابيات » للمؤلف .
(٥) يُصْفيها : يَخُصُّها .

الْحُبُّ، وَيَمْحَضُهَا[1] مِنْ مَحْضِ[2] الْوِدَادِ.

* * *

وَلَمَّا اشْتَدَّ النِّزَاعُ بَيْنَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

وَيْحَكُمْ ... إِنَّكُمْ قَدْ حَمَلْتُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ هُمُومَهُ بِتَزْوِيجِ فِتْيَانِكُمْ مِنْ بَنَاتِهِ، فَلَوْ رَدَدْتُمُوهُنَّ إِلَيْهِ لَانْشَغَلَ بِهِنَّ عَنْكُمْ ...

فَقَالُوا: نِعْمَ الرَّأْيُ مَا رَأَيْتُمْ، وَمَشَوْا إِلَىٰ أَبِي الْعَاصِ وَقَالُوا لَهُ:

فَارِقْ صَاحِبَتَكَ يَا أَبَا الْعَاصِ، وَرُدَّهَا إِلَىٰ بَيْتِ أَبِيهَا، وَنَحْنُ نُزَوِّجُكَ أَيَّ امْرَأَةٍ تَشَاءُ مِنْ كَرَائِمِ عَقِيلَاتِ[3] قُرَيْشٍ.

فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، إِنِّي لَا أُفَارِقُ صَاحِبَتِي، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا[4] نِسَاءَ الدُّنْيَا جَمِيعًا ...

أَمَّا ابْنَتَاهُ رُقَيَّةُ وَأُمُّ كُلْثُومٍ فَقَدْ طُلِّقَتَا وَحُمِلَتَا إِلَىٰ بَيْتِهِ، فَسَرَّ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِرَدِّهِمَا إِلَيْهِ، وَتَمَنَّىٰ أَنْ لَوْ فَعَلَ أَبُو الْعَاصِ كَمَا فَعَلَ صَاحِبَاهُ، غَيْرَ أَنَّهُ مَا كَانَ يَمْلِكُ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يُرْغِمُهُ بِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ شُرِعَ - بَعْدُ - تَحْرِيمُ زَوَاجِ الْمُؤْمِنَةِ مِنَ الْمُشْرِكِ.

* * *

وَلَمَّا هَاجَرَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَاشْتَدَّ أَمْرُهُ فِيهَا، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ لِقِتَالِهِ فِي «بَدْرٍ» اضْطُرَّ أَبُو الْعَاصِ لِلْخُرُوجِ مَعَهُمُ اضْطِرَارًا ...

---

(١) يَمْحَضُها: يَسْقيها.

(٢) محض الوداد: خالص الوداد وصافيه.

(٣) عقيلات قُريش: أنفس نساءِ قُريش..

(٤) أنَّ لي بها: أنَّ لي بدلًا منها.

إِذْ لَمْ تَكُنْ بِهِ رَغْبَةٌ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا أَرَبٌ[1] فِي النَّيْلِ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّ مَنْزِلَتَهُ فِي قَوْمِهِ حَمَلَتْهُ عَلَىٰ مُسَايَرَتِهِمْ حَمْلًا ... وَقَدِ انْجَلَتْ «بَدْرٌ» عَنْ هَزِيمَةٍ مُنْكَرَةٍ لِقُرَيْشٍ أَذَلَّتْ مَعَاطِسَ[2] الشِّرْكِ، وَقَصَمَتْ ظُهُورَ طَوَاغِيتِهِ[3]؛ فَفَرِيقٌ قُتِلَ، وَفَرِيقٌ أُسِرَ، وَفَرِيقٌ نَجَّاهُ الْفِرَارُ.

وَكَانَ فِي زُمْرَةِ الْأَسْرَىٰ أَبُو الْعَاصِ زَوْجُ زَيْنَبَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

* * *

فَرَضَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ الْأَسْرَىٰ فِدْيَةً يَفْتَدُونَ بِهَا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَسْرِ، وَجَعَلَهَا تَتَرَاوَحُ بَيْنَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَأَرْبَعَةِ آلَافٍ حَسَبَ مَنْزِلَةِ الْأَسِيرِ فِي قَوْمِهِ وَغِنَاهُ.

وَطَفِقَتِ[4] الرُّسُلُ تَرُوحُ وَتَغْدُو بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ حَامِلَةً مِنَ الْأَمْوَالِ مَا تَفْتَدِي بِهِ أَسْرَاهَا.

فَبَعَثَتْ زَيْنَبُ رَسُولَهَا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ يَحْمِلُ فِدْيَةَ زَوْجِهَا أَبِي الْعَاصِ، وَجَعَلَتْ فِيهَا قِلَادَةً كَانَتْ أَهْدَتْهَا لَهَا أُمُّهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ يَوْمَ زَفَّتْهَا إِلَيْهِ ... فَلَمَّا رَأَىٰ الرَّسُولُ ﷺ الْقِلَادَةَ غَشِيَتْ وَجْهَهُ الْكَرِيمَ غِلَالَةٌ[5] شَفَّافَةٌ مِنَ الْحُزْنِ الْعَمِيقِ، وَرَقَّ لِابْنَتِهِ أَشَدَّ الرِّقَّةِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ وَقَالَ:

(إِنَّ زَيْنَبَ بَعَثَتْ بِهَذَا الْمَالِ لِافْتِدَاءِ أَبِي الْعَاصِ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا مَالَهَا فَافْعَلُوا).

---

(١) أرب: غاية وغرض.
(٢) المعاطس: الأنوف.
(٣) طواغيت: جمع طاغوت، وهو رأس الضلال أو المعبود من دون الله.
(٤) طفقت: أخذت.
(٥) الغِلالة: ثوب رقيق شفاف يُلبس علىٰ الجسد مباشرة.

فَقَالُوا : نَعَمْ ، وَنَعْمَةَ عَيْنٍ[1] يَا رَسُولَ اللَّهِ .

* * *

غَيْرَ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اشْتَرَطَ عَلَىٰ أَبِي الْعَاصِ قَبْلَ إِطْلَاقِ سَرَاحِهِ أَنْ يُسَيِّرَ إِلَيْهِ ابْنَتَهُ زَيْنَبَ مِنْ غَيْرِ إِبْطَاءٍ ...

فَمَا كَادَ أَبُو الْعَاصِ يَبْلُغُ مَكَّةَ حَتَّىٰ بَادَرَ إِلَىٰ الْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ ...

فَأَمَرَ زَوْجَتَهُ بِالِاسْتِعْدَادِ لِلرَّحِيلِ ، وَأَخْبَرَهَا بِأَنَّ رُسُلَ أَبِيهَا يَنْتَظِرُونَهَا غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْ مَكَّةَ ، وَأَعَدَّ لَهَا زَادَهَا وَرَاحِلَتَهَا ، وَنَدَبَ أَخَاهُ عَمْرَو بْنَ الرَّبِيعِ لِمُصَاحَبَتِهَا وَتَسْلِيمِهَا لِمُرَافِقِيهَا يَدًا بِيَدٍ .

* * *

تَنَكَّبَ[2] عَمْرُو بْنُ الرَّبِيعِ قَوْسَهُ ، وَحَمَلَ كِنَانَتَهُ[3]، وَجَعَلَ زَيْنَبَ فِي هَوْدَجِهَا[4]، وَخَرَجَ بِهَا مِنْ مَكَّةَ جِهَارًا نَهَارًا عَلَىٰ مَرْأًى مِنْ قُرَيْشٍ ، فَهَاجَ الْقَوْمُ وَمَاجُوا[5]، وَلَحِقُوا بِهِمَا حَتَّىٰ أَدْرَكُوهُمَا غَيْرَ بَعِيدٍ ، وَرَوَّعُوا زَيْنَبَ وَأَفْزَعُوهَا ...

عِنْدَ ذَلِكَ وَتَرَ عَمْرٌو قَوْسَهُ ، وَنَثَرَ كِنَانَتَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ لَا يَدْنُو رَجُلٌ مِنْهَا إِلَّا وَضَعْتُ سَهْمًا فِي نَحْرِهِ[6]، وَكَانَ رَامِيًا لَا يُخْطِئُ لَهُ سَهْمٌ ...

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ ـ وَكَانَ قَدْ لَحِقَ بِالْقَوْمِ ـ وَقَالَ لَهُ :

يَا بْنَ أَخِي ، كُفَّ عَنَّا نَبْلَكَ حَتَّىٰ نُكَلِّمَكَ ؛ فَكَفَّ عَنْهُمْ ، فَقَالَ لَهُ :

إِنَّكَ لَمْ تُصِبْ فِيمَا صَنَعْتَ ...

---

(١) نَعْمَة عَيْن : أي سنفعل ما طلبته لِتَقَرَّ عينك ونسرك .
(٢) تنكَّب قوسه : ألقاها عَلَىٰ منكبه ، والمنكب : الْكتف .
(٣) الْكنانة : جَعْبَة السّهام .
(٤) الْهودَج : مَحْمَلٌ له قُبَّةٌ تركب فيه النّساء .
(٥) هاجوا وماجوا : ثاروا واضطربوا .
(٦) في نحره : في رقبته .

فَلَقَدْ خَرَجْتَ بِزَيْنَبَ عَلَانِيَةً عَلَىٰ رُؤُوسِ النَّاسِ، وَعُيُونُنَا تَرَىٰ ... وَقَدْ عَرَفَتِ الْعَرَبُ جَمِيعُهَا أَمْرَ نَكْبَتِنَا فِي «بَدْرٍ»، وَمَا أَصَابَنَا عَلَىٰ يَدَيْ أَبِيهَا مُحَمَّدٍ.

فَإِذَا خَرَجْتَ بِابْنَتِهِ عَلَانِيَةً - كَمَا فَعَلْتَ - رَمَتْنَا الْقَبَائِلُ بِالْجُبْنِ وَوَصَفَتْنَا بِالْهَوَانِ وَالذُّلِّ، فَارْجِعْ بِهَا، وَاسْتَبْقِهَا فِي بَيْتِ زَوْجِهَا أَيَّامًا حَتَّىٰ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ بِأَنَّنَا رَدَدْنَاهَا فَسُلَّهَا(١) مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا سِرًّا، وَأَلْحِقْهَا بِأَبِيهَا، فَمَا لَنَا بِحَبْسِهَا عَنْهُ حَاجَةٌ ...

فَرَضِيَ عَمْرٌو بِذَلِكَ، وَأَعَادَ زَيْنَبَ إِلَىٰ مَكَّةَ ...

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ أَخْرَجَهَا مِنْهَا لَيْلًا بَعْدَ أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ، وَأَسْلَمَهَا إِلَىٰ رُسُلِ أَبِيهَا يَدًا بِيَدٍ كَمَا أَوْصَاهُ أَخُوهُ.

* * *

أَقَامَ أَبُو الْعَاصِ فِي مَكَّةَ بَعْدَ فِرَاقِ زَوْجَتِهِ زَمَنًا، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ قُبَيْلَ الْفَتْحِ بِقَلِيلٍ، خَرَجَ إِلَىٰ الشَّامِ فِي تِجَارَةٍ لَهُ، فَلَمَّا قَفَلَ رَاجِعًا إِلَىٰ مَكَّةَ وَمَعَهُ عِيرُهُ الَّتِي بَلَغَتْ مِائَةَ بَعِيرٍ، وَرِجَالُهُ الَّذِينَ نَيَّفُوا(٢) عَلَىٰ مِائَةٍ وَسَبْعِينَ رَجُلًا، بَرَزَتْ لَهُ سَرِيَّةٌ مِنْ سَرَايَا الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ؛ فَأَخَذَتِ الْعِيرَ وَأَسَرَتِ الرِّجَالَ، لَكِنَّ أَبَا الْعَاصِ أَفْلَتَ مِنْهَا فَلَمْ تَظْفَرْ بِهِ.

فَلَمَّا أَرْخَىٰ اللَّيْلُ سُدُولَهُ اسْتَتَرَ أَبُو الْعَاصِ بِجُنْحِ الظَّلَامِ، وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ، وَمَضَىٰ حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ زَيْنَبَ، وَاسْتَجَارَ بِهَا فَأَجَارَتْهُ ...

* * *

وَلَمَّا خَرَجَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ، وَاسْتَوَىٰ

(١) سُلَّها: استخرجها برفق.

(٢) نيفوا: قاربوا.

قَائِمًا فِي الْمِحْرَابِ، وَكَبَّرَ لِلْإِحْرَامِ وَكَبَّرَ النَّاسُ بِتَكْبِيرِهِ، صَرَخَتْ زَيْنَبُ مِنْ صُفَّةِ النِّسَاءِ وَقَالَتْ:

أَيُّهَا النَّاسُ، أَنَا زَيْنَبُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ أَجَرْتُ أَبَا الْعَاصِ فَأَجِيرُوهُ. فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ؛ الْتَفَتَ إِلَىٰ النَّاسِ وَقَالَ:

(هَلْ سَمِعْتُمْ مَا سَمِعْتُ ؟!).

قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَٰلِكَ حَتَّىٰ سَمِعْتُ مَا سَمِعْتُمُوهُ، وَإِنَّهُ يُجِيرُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ)، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَىٰ بَيْتِهِ وَقَالَ لِابْنَتِهِ:

(أَكْرِمِي مَثْوَىٰ أَبِي الْعَاصِ، وَاعْلَمِي أَنَّكِ لَا تَحِلِّينَ لَهُ).

ثُمَّ دَعَا رِجَالَ السَّرِيَّةِ الَّتِي أَخَذَتِ الْعِيرَ وَأَسَرَتِ الرِّجَالَ وَقَالَ لَهُمْ:

(إِنَّ هَٰذَا الرَّجُلَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ أَخَذْتُمْ مَالَهُ، فَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَرُدُّوا عَلَيْهِ الَّذِي لَهُ؛ كَانَ مَا نُحِبُّ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَهُوَ فَيْءُ[1] اللَّهِ الَّذِي أَفَاءَ عَلَيْكُمْ، وَأَنْتُمْ بِهِ أَحَقُّ).

فَقَالُوا: بَلْ نَرُدُّ عَلَيْهِ مَالَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَلَمَّا جَاءَ لِأَخْذِهِ قَالُوا لَهُ: «يَا أَبَا الْعَاصِ، إِنَّكَ فِي شَرَفٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَأَنْتَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ وَصِهْرُهُ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تُسْلِمَ، وَنَحْنُ نَتَنَزَّلُ لَكَ عَنْ هَٰذَا الْمَالِ كُلِّهِ فَتَنْعَمُ بِمَا مَعَكَ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ مَكَّةَ وَتَبْقَىٰ مَعَنَا فِي الْمَدِينَةِ؟.

فَقَالَ: بِئْسَ مَا دَعَوْتُمُونِي أَنْ أَبْدَأَ دِينِي الْجَدِيدَ بِغَدْرَةٍ.

* * *

(١) الفيء: ما يغنمه المسلمون من غنائم الحرب.

مَضَىٰ أَبُو الْعَاصِ بِالْعِيرِ وَمَا عَلَيْهَا إِلَىٰ مَكَّةَ فَلَمَّا بَلَغَهَا أَدَّىٰ لِكُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، ثُمَّ قَالَ :

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ هَلْ بَقِيَ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ عِنْدِي مَالٌ لَمْ يَأْخُذْهُ ؟ .

قَالُوا : لَا ... وَجَزَاكَ اللَّهُ عَنَّا خَيْرًا ، فَقَدْ وَجَدْنَاكَ وَفِيًّا كَرِيمًا .

قَالَ : أَمَا وَإِنِّي قَدْ وَفَّيْتُ لَكُمْ حُقُوقَكُمْ ، فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ...

وَاللَّهِ مَا مَنَعَنِي مِنَ الْإِسْلَامِ عِنْدَ مُحَمَّدٍ فِي الْمَدِينَةِ إِلَّا خَوْفِي أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ آكُلَ أَمْوَالَكُمْ ...

فَلَمَّا أَدَّاهَا اللَّهُ إِلَيْكُمْ ، وَفَرَغَتْ ذِمَّتِي مِنْهَا أَسْلَمْتُ ...

ثُمَّ خَرَجَ حَتَّىٰ قَدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَكْرَمَ وِفَادَتَهُ[1]، وَرَدَّ إِلَيْهِ زَوْجَتَهُ ، وَكَانَ يَقُولُ عَنْهُ :

(حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي ، وَوَعَدَنِي فَوَفَىٰ لِي) (*) .

---

(١) أَكْرَمَ وِفادَتَه : أحسن ضيافته .

(*) للاستزادة من أخبار أبي العاص بن الرَّبيع انظر :
١ – سير أعلام النبلاء للذهبي : ١/ ٢٣٩.
٢ – أسْدُ الغابة : ٦/١٨٥ أو « الترجمة » : ٦٠٣٥.
٣ – أنساب الأشراف : ٣٩٧ وما بعدها .
٤ – الإصابة : ٤/١٢١ أو « الترجمة » ٦٩٢.
٥ – الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٤/ ١٢٥.
٦ – السِّيرة النَّبوية لابن هشام : ٢/٣٠٦ ـ ٣١٤.
٧ – البداية والنهاية : ٦/ ٣٥٤.
٨ – حياة الصَّحابة : « انظر الفهرس في الرابع » .

عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ

«مَنْ قَاتَلَ فَلْيُقَاتِلْ كَمَا يُقَاتِلُ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ»

[مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ]

خَرَجَتْ قُرَيْشٌ بِقَضِّهَا وَقَضِيضِهَا[1]، وَسَادَتِهَا وَعَبِيدِهَا إِلَىٰ لِقَاءِ مُحَمَّدِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي «أُحُدٍ»...

فَقَدْ كَانَتِ الْأَضْغَانُ تَشْحَنُ[2] صُدُورَهَا شَحْنًا، وَالثَّارَاتُ لِقَتْلَاهَا فِي «بَدْرٍ» تَسْتَعِرُ[3] فِي دِمَائِهَا اسْتِعَارًا.

وَلَمْ يَكْفِهَا ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَخْرَجَتْ مَعَهَا الْعَقَائِلَ مِنْ نِسَاءِ قُرَيْشٍ؛ لِيُحَرِّضْنَ الرِّجَالَ عَلَىٰ الْقِتَالِ، وَيُضْرِمْنَ الْحَمِيَّةَ فِي نُفُوسِ الْأَبْطَالِ، وَيَشْدُدْنَ عَزَائِمَهُمْ كُلَّمَا وَنَوْا أَوْ ضَعُفُوا.

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ خَرَجَتْ مَعَهُنَّ: هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ زَوْجُ أَبِي سُفْيَانَ، وَرَيْطَةُ بِنْتُ مُنَبِّهٍ زَوْجُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ[4]، وَسُلَافَةُ بِنْتُ سَعْدٍ وَمَعَهَا زَوْجُهَا طَلْحَةُ وَأَوْلَادُهَا الثَّلَاثَةُ: مُسَافِعٌ، وَالْجُلَاسُ وَكِلَابٌ، وَنِسَاءٌ كَثِيرَاتٌ غَيْرُهُنَّ.

* * *

وَلَمَّا الْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ عِنْدَ «أُحُدٍ» وَأَخَذَتْ نَارُ الْحَرْبِ تَسْتَعِرُ، قَامَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ وَمَنْ مَعَهَا مِنَ النِّسْوَةِ، فَوَقَفْنَ خَلْفَ الصُّفُوفِ، وَأَخَذْنَ بِأَيْدِيهِنَّ الدُّفُوفَ، وَجَعَلْنَ يَضْرِبْنَ عَلَيْهَا مُنْشِدَاتٍ:

---

(١) قضّها وقضيضها: جميعها.

(٢) تشحن: تملأ.

(٣) تستعر: تتقد.

(٤) عَمْرو بْنِ الْعَاص: انظره ص ٥٥١.

إِنْ تُقْبِلُوا[1] نُعَانِقْ　　　وَنَفْرُشِ النَّمَارِقْ[2]

أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقْ　　　فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقْ[3]

فَكَانَ نَشِيدُهُنَّ هَذَا يُضْرِمُ فِي صُدُورِ الْفُرْسَانِ الْحَمِيَّةَ ، وَيَفْعَلُ فِي نُفُوسِ أَزْوَاجِهِنَّ فِعْلَ السِّحْرِ ...

ثُمَّ وَضَعَتِ الْمَعْرَكَةُ أَوْزَارَهَا ... وَكُتِبَ فِيهَا النَّصْرُ لِقُرَيْشٍ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَامَتِ النِّسْوَةُ ـ وَقَدِ اسْتَفَزَّتْهُنَّ حُمَيَّا الظَّفَرِ[4] ـ وَطَفِقْنَ يَجُسْنَ[5] خِلَالَ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ مُزَغْرِدَاتٍ ...

وَأَخَذْنَ يُمَثِّلْنَ بِالْقَتْلَىٰ أَفْظَعَ تَمْثِيلٍ : فَبَقَرْنَ الْبُطُونَ ، وَسَمَلْنَ الْعُيُونَ ، وَصَلَمْنَ الْآذَانَ ، وَجَدَعْنَ الْأُنُوفَ .

بَلْ إِنَّ إِحْدَاهُنَّ لَمْ يَشْفِ غَيْظَهَا إِلَّا أَنْ جَعَلَتْ مِنَ الْأُنُوفِ وَالْآذَانِ قَلَائِدَ وَخَلَالِيلَ[6]، وَتَزَيَّنَتْ بِهَا انْتِقَامًا لِأَبِيهَا وَأَخِيهَا وَعَمِّهَا الَّذِينَ قُتِلُوا فِي « بَدْرٍ » ...

* * *

لَكِنَّ سُلَافَةَ بِنْتَ سَعْدٍ كَانَ لَهَا شَأْنٌ غَيْرُ شَأْنِ أَتْرَابِهَا[7] مِنْ نِسَاءِ قُرَيْشٍ ...

فَقَدْ كَانَتْ قَلِقَةً مُضْطَرِبَةً ، تَنْتَظِرُ أَنْ يُقْبِلَ عَلَيْهَا زَوْجُهَا أَوْ أَحَدُ أَبْنَائِهَا الثَّلَاثَةِ ؛ لِتَقِفَ عَلَىٰ أَخْبَارِهِمْ ، وَتُشَارِكَ النِّسْوَةَ الْأُخْرَيَاتِ فَرْحَةَ النَّصْرِ .

---

(١) إن تقبلوا : أي علَىٰ الحرب .
(٢) النمارق : الوسائد والمتكآت .
(٣) غير وامق : غير مُحِبٍّ .
(٤) استفزتهنَّ حميّا الظفر : أثارتهن خمرة النصر .
(٥) يَجُسْنَ : يَدُرْنَ عابثات فسادًا .
(٦) خلاليل أو خلاخيل : هي قطع من الحُلي تلبسها النساء أسفل الساق .
(٧) أترابها : لداتها وصُوَيحباتها .

بَيْدَ[1] أَنَّ انْتِظَارَهَا قَدْ طَالَ عَبَثًا، فَأَوْغَلَتْ[2] فِي أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، وَجَعَلَتْ تَتَفَحَّصُ وُجُوهَ الْقَتْلَىٰ، فَإِذَا بِهَا تَجِدُ زَوْجَهَا صَرِيعًا مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ[3].

فَهَبَّتْ كَاللَّبُؤَةِ[4] الْمَذْعُورَةِ، وَجَعَلَتْ تُطْلِقُ بَصَرَهَا فِي كُلِّ صَوْبٍ بَحْثًا عَنْ أَوْلَادِهَا: مُسَافِعٍ وَكِلَابٍ وَالْجُلَاسِ.

فَمَا لَبِثَتْ أَنْ رَأَتْهُمْ مُمَدَّدِينَ عَلَىٰ سُفُوحِ «أُحُدٍ»...

أَمَّا مُسَافِعٌ وَكِلَابٌ؛ فَكَانَا قَدْ فَارَقَا الْحَيَاةَ، وَأَمَّا الْجُلَاسُ فَوَجَدَتْهُ وَمَا تَزَالُ بِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ ذَمَاءٍ[5].

* * *

أَكَبَّتْ سُلَافَةُ عَلَىٰ ابْنِهَا الَّذِي يُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وَوَضَعَتْ رَأْسَهُ فِي حِجْرِهَا، وَجَعَلَتْ تَمْسَحُ الدِّمَاءَ عَنْ جَبِينِهِ وَفَمِهِ، وَقَدْ يَبِسَ الدَّمْعُ فِي عَيْنَيْهَا مِنْ هَوْلِ الْكَارِثَةِ.

ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ وَهِيَ تَقُولُ: مَنْ صَرَعَكَ يَا بُنَيَّ؟... فَهَمَّ أَنْ يُجِيبَهَا لَكِنَّ حَشْرَجَةَ الْمَوْتِ مَنَعَتْهُ، فَأَلَحَّتْ عَلَيْهِ بِالسُّؤَالِ فَقَالَ: صَرَعَنِي عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ، وَ... وَصَرَعَ أَخِي مُسَافِعًا، وَ... ثُمَّ لَفَظَ آخِرَ أَنْفَاسِهِ...

* * *

جُنَّ جُنُونُ سُلَافَةَ بِنْتِ سَعْدٍ، وَجَعَلَتْ تُعْوِلُ وَتَنْشِجُ[6]، وَأَقْسَمَتْ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ أَلَّا تَهْدَأَ لَهَا لَوْعَةٌ أَوْ تَرْقَأَ[7] لِعَيْنَيْهَا دَمْعَةٌ إِلَّا إِذَا ثَأَرَتْ لَهَا قُرَيْشٌ مِنْ عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ، وَأَعْطَتْهَا قِحْفَ[8] رَأْسِهِ لِتَشْرَبَ فِيهِ الْخَمْرَ...

---

(1) بَيْدَ أَنَّ: غَيْرَ أَنَّ.
(2) أوغلت: دخلت بعيدًا.
(3) مُضَرَّجًا بدمائِهِ: مصبوغًا بدمائِهِ.
(4) اللَّبُؤَة: أنثى الأَسَدِ.
(5) الذَّمَاءُ: بقية النَّفْسِ.
(6) تُعْوِلُ وتنشِج: ترفع صوتها بالْبكاء.
(7) تَرْقَأَ: تجفّ.
(8) قحف رأسه: عظم رأسه الجوْف.

ثُمَّ نَذَرَتْ لِمَنْ يَأْسِرُهُ أَوْ يَقْتُلُهُ وَيَأْتِيهَا بِرَأْسِهِ ، أَنْ تُعْطِيَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مُنْفَسِ الْمَالِ .

فَشَاعَ خَبَرُ نَذْرِهَا فِي قُرَيْشٍ ، وَجَعَلَ كُلُّ فَتًى مِنْ فِتْيَانِ مَكَّةَ يَتَمَنَّىٰ أَنْ لَوْ ظَفِرَ بِعَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَقَدَّمَ رَأْسَهُ لِسُلَافَةَ لَعَلَّهُ يَكُونُ الْفَائِزَ بِجَائِزَتِهَا .

* * *

عَادَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ بَعْدَ « أُحُدٍ » ، وَجَعَلُوا يَتَذَاكَرُونَ الْمَعْرَكَةَ وَمَا كَانَ فِيهَا ، فَيَتَرَحَّمُونَ عَلَىٰ الأَبْطَالِ الَّذِينَ اسْتُشْهِدُوا ، وَيُنَوِّهُونَ بِالْكُمَاةِ الَّذِينَ أَبْلَوْا وَجَالَدُوا ... فَذَكَرُوا فِيمَنْ ذَكَرُوهُمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ ، وَعَجِبُوا كَيْفَ اتَّفَقَ لَهُ أَنْ يُرْدِيَ ثَلَاثَةَ إِخْوَةٍ مِنْ بَيْتٍ وَاحِدٍ فِي جُمْلَةِ مَنْ أَرْدَاهُمْ .

فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : وَهَلْ فِي ذَلِكَ مِنْ عَجَبٍ ؟!! ...

أَفَلَا تَذْكُرُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حِينَ سَأَلَنَا قُبَيْلَ « بَدْرٍ » كَيْفَ تُقَاتِلُونَ ؟ ... فَقَامَ لَهُ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَأَخَذَ قَوْسَهُ بِيَدِهِ وَقَالَ :

إِذَا كَانَ الْقَوْمُ قَرِيبًا مِنِّي مِائَةَ ذِرَاعٍ كَانَ الرَّمْيُ بِالسِّهَامِ ...

فَإِذَا دَنَوْا حَتَّىٰ تَنَالَهُمُ الرِّمَاحُ كَانَتِ الْمُدَاعَسَةُ[1] إِلَىٰ أَنْ تَتَقَصَّفَ الرِّمَاحُ ...

فَإِذَا تَقَصَّفَتِ الرِّمَاحُ وَضَعْنَاهَا وَأَخَذْنَا السُّيُوفَ وَكَانَتِ الْمُجَالَدَةُ[2]...

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (هَكَذَا الْحَرْبُ ...

مَنْ قَاتَلَ فَلْيُقَاتِلْ كَمَا يُقَاتِلُ عَاصِمٌ) ...

* * *

(١) المداعسة : المطاعنة بالرّماح .

(٢) المجالدة : المضاربة بالسّيف .

لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ عَلَىٰ «أُحُدٍ» حَتَّىٰ انْتَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِتَّةً مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ لِبَعْثٍ مِنْ بُعُوثِهِ[١]، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ.

فَمَضَىٰ النَّفَرُ الْأَخْيَارُ لِإِنْفَاذِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَفِيمَا هُمْ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ بَيْنَ «عُسْفَانَ» وَمَكَّةَ عَلِمَتْ بِهِمْ جَمَاعَةٌ مِنْ «هُذَيْلٍ»؛ فَهَبُّوا نَحْوَهُمْ مُسْرِعِينَ، وَأَحَاطُوا بِهِمْ إِحَاطَةَ الْقَيْدِ بِالْعُنُقِ.

فَامْتَشَقَ عَاصِمٌ وَمَنْ مَعَهُ سُيُوفَهُمْ وَهَمُّوا بِمُنَازَلَةِ الْمُطْبِقِينَ عَلَيْهِمْ.

فَقَالَ لَهُمُ الْهُذَلِيُّونَ: إِنَّكُمْ لَا قِبَلَ[٢] لَكُمْ بِنَا، وَإِنَّنَا أَصْحَابُ هَٰذِهِ الدِّيَارِ، وَجَمْعُنَا كَثِيرٌ غَفِيرٌ، وَجَمْعُكُمْ قَلِيلٌ ضَئِيلٌ...

ثُمَّ إِنَّنَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، لَا نُرِيدُ بِكُمْ شَرًّا إِذَا اسْتَسْلَمْتُمْ لَنَا، وَلَكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ...

فَجَعَلَ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ كَأَنَّهُمْ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَا يَصْنَعُونَ...

فَالْتَفَتَ عَاصِمٌ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ وَقَالَ:

أَمَّا أَنَا فَلَا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ مُشْرِكٍ... ثُمَّ تَذَكَّرَ نَذْرَ سُلَافَةَ الَّذِي نَذَرَتْهُ، وَجَرَّدَ سَيْفَهُ وَهُوَ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْمَىٰ[٣] لِدِينِكَ وَأُدَافِعُ عَنْهُ...

فَاحْمِ لَحْمِي وَعَظْمِي وَلَا تُظْفِرْ بِهِمَا أَحَدًا مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ...

---

(١) لبعثٍ من بعوثه: لأمر من أموره.
(٢) لا قِبَلَ لكم بنا: لا طاقة لكم بنا، ولا قدرة لكم علينا.
(٣) أحْمَىٰ لِدِينِكَ: أدافع عن دينك.

ثُمَّ كَرَّ عَلَىٰ « الْهُذَلِيِّينَ » ، وَتَبِعَهُ اثْنَانِ مِنْ أَصْحَابِهِ ، هُمَا مَرْثَدٌ الْغَنَوِيُّ ، وَخَالِدٌ اللَّيْثِيُّ ... وَظَلُّوا يُقَاتِلُونَ حَتَّىٰ صُرِعُوا وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ .

وَأَمَّا النَّفَرُ الثَّلَاثَةُ الْآخَرُونَ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُمْ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَارِقٍ ، وَزَيْدُ بْنُ الدُّثُنَّةِ ، وَخُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ فَقَدِ اسْتَسْلَمُوا لِآسِرِيهِمْ ، فَمَا لَبِثَ « الْهُذَلِيُّونَ » أَنْ غَدَرُوا بِهِمْ شَرَّ غَدْرَةٍ .

* * *

لَمْ يَكُنْ « الْهُذَلِيُّونَ » فِي بَادِئِ الْأَمْرِ يَعْلَمُونَ أَنَّ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ هُوَ أَحَدُ قَتْلَاهُمْ ، فَلَمَّا عَرَفُوا ذَلِكَ فَرِحُوا بِهِ أَشَدَّ الْفَرَحِ ، وَمَنَّوْا أَنْفُسَهُمْ بِجَزِيلِ الْعَطَاءِ .

وَلَا غَرْوَ ... أَلَمْ تَكُنْ سُلَافَةُ بِنْتُ سَعْدٍ قَدْ نَذَرَتْ إِنْ هِيَ ظَفِرَتْ بِعَاصِمِ ابْنِ ثَابِتٍ أَنْ تَشْرَبَ فِي قِحْفِ رَأْسِهِ الْخَمْرَ ؟ .

أَلَمْ تَكُنْ قَدْ جَعَلَتْ لِمَنْ يَأْتِيهَا بِهِ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا مَا يَشَاءُ مِنَ الْمَالِ ؟! .

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ مَصْرَعِ عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ بِضْعُ سَاعَاتٍ حَتَّىٰ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ بِمَقْتَلِهِ ، فَقَدْ كَانَتْ « هُذَيْلٌ » تُقِيمُ قَرِيبًا مِنْ مَكَّةَ .

فَأَرْسَلَ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ رَسُولًا مِنْ عِنْدِهِمْ إِلَىٰ قَتَلَةِ عَاصِمٍ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ رَأْسَهُ ؛ لِيُطْفِئُوا بِهَا غُلَّةَ سُلَافَةَ بِنْتِ سَعْدٍ وَيُبِرُّوا قَسَمَهَا ، وَيُخَفِّفُوا بَعْضَ أَحْزَانِهَا عَلَىٰ أَوْلَادِهَا الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ صَرَعَهُمْ عَاصِمٌ بِيَدِهِ ...

وَحَمَّلُوا الرَّسُولَ مَالًا وَفِيرًا ، وَأَمَرُوهُ أَنْ يَبْذُلَهُ لِلْهُذَلِيِّينَ بِسَخَاءٍ لِقَاءَ رَأْسِ عَاصِمٍ .

* * *

قَامَ « الْهُذَلِيُّونَ » إِلَىٰ جَسَدِ عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ لِيَفْصِلُوا عَنْهُ رَأْسَهُ ؛ فَفُوجِئُوا

بِأَسْرَابِ النَّحْلِ وَجَمَاعَاتِ الزَّنَابِيرِ(١) قَدْ حَطَّتْ عَلَيْهِ ، وَأَحَاطَتْ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ...

فَكَانُوا كُلَّمَا رَامُوا(٢) الِاقْتِرَابَ مِنْ جُثَّتِهِ طَارَتْ فِي وُجُوهِهِمْ ، وَلَدَغَتْهُمْ فِي عُيُونِهِمْ وَجِبَاهِهِمْ وَكُلِّ مَوْضِعٍ فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَذَادَتْهُمْ(٣) عَنْهُ ...

فَلَمَّا يَئِسُوا مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ حَاوَلُوا ذَلِكَ الْكَرَّةَ تِلْوَ الْكَرَّةِ ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

دَعُوهُ حَتَّىٰ يَجِنَّ(٤) عَلَيْهِ اللَّيْلُ ؛ فَإِنَّ الزَّنَابِيرَ إِذَا حَلَّ الظَّلَامُ ؛ جَلَتْ عَنْهُ وَخَلَّتْهُ لَكُمْ .

ثُمَّ جَلَسُوا يَنْتَظِرُونَ غَيْرَ بَعِيدٍ ...

* * *

لَكِنَّهُ مَا كَادَ يَنْصَرِمُ النَّهَارُ(٥) وَيُقْبِلُ اللَّيْلُ حَتَّىٰ تَلَبَّدَتِ السَّمَاءُ بِالْغُيُومِ الْكَثِيفَةِ الدُّكْنِ(٦)...

وَأَرْعَدَ الْجَوُّ وَأَزْبَدَ ... وَانْهَمَرَ الْمَطَرُ انْهِمَارًا لَمْ يَشْهَدْ لَهُ الْمُعَمَّرُونَ مَثِيلًا مُنْذُ وُجِدُوا عَلَىٰ تِلْكَ الْأَرْضِ ...

وَسُرْعَانَ مَا سَالَتِ الشِّعَابُ وَامْتَلَأَتِ الْبِطَاحُ وَغُمِرَتِ الْأَوْدِيَةُ ...

وَاكْتَسَحَ الْمِنْطَقَةَ سَيْلٌ كَسَيْلِ الْعَرِمِ ...

فَلَمَّا انْبَلَجَ الصُّبْحُ قَامَتْ « هُذَيْلٌ » تَبْحَثُ عَنْ جَسَدِ عَاصِمٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ ؛ فَلَمْ تَقِفْ لَهُ عَلَىٰ أَثَرٍ ...

---

(١) الزَّنابير : حشرة كالنَّحل غير أنَّها لا تنتج العَسل .
(٢) راموا : أرادوا .
(٣) ذادتهم عنه : دفعتهم عنه .
(٤) يجن عَلَيْهِ اللَّيل : يطبق عَلَيْهِ اللَّيل .
(٥) ينصرم النَّهار : يمضي وينقطع .
(٦) الْغيوم الدُّكن : الْغيوم السُّود .

ذَلِكَ أَنَّ السَّيْلَ أَخَذَهُ بَعِيدًا بَعِيدًا ... وَمَضَىٰ بِهِ إِلَىٰ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ...

فَلَقَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ دَعْوَةَ عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ ؛ فَحَمَىٰ جَسَدَهُ الطَّاهِرَ مِنْ أَنْ يُمَثَّلَ بِهِ(١) ...

وَصَانَ رَأْسَهُ الْكَرِيمَةَ مِنْ أَنْ يُشْرَبَ فِي قِحْفِهَا الْخَمْرُ ...

وَلَمْ يَجْعَلْ لِلْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (*) ...

---

(١) التمثيل بالميت : العبث بجسده وتقطيعه .

(*) للاستزادة من أخبار عاصم بن ثابت انظر :

١ - السيرة النبوية لابن هشام : « انظر الفهارس » .

٢ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٣/ ١٣٢ .

٣ - ديوان حسان بن ثابت وشروحه : « فيه مراث قيلت في عاصم بن ثابت » .

٤ - الطبقات الكبرى : ٢/ ٤١ ، ٤٣ ، ٥٥ ، ٧٩ و٣/ ٩٠ .

٥ - حياة الصحابة : « انظر الفهارس في الرابع » .

٦ - صفة الصفوة : « انظر الفهارس » .

٧ - تاريخ الطبري : « انظر الفهارس في العاشر » .

٨ - البداية والنهاية : ٦٢/٣ ـ ٦٩ .

٩ - تاريخ خليفة بن خياط : ٢٧ ، ٣٦ .

١٠ - الإصابة : ٢٤٤/٢ أو « الترجمة » ٤٣٤٧ .

١١ - المحبر في التاريخ : ١١٨ .

١٢ - أسد الغابة « الترجمة » : ٢٦٦٣ .

١٣ - حلية الأولياء : ١/ ١١٠ .

عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَان

« إِنَّ لِعُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ مِنَ الْإِسْلَامِ مَكَانًا »

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

أَوَىٰ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَىٰ مَضْجَعِهِ ؛ فَقَدْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُصِيبَ حَظًّا مِنَ الرَّاحَةِ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَىٰ الْعَسِّ[١] فِي اللَّيْلِ .

لَكِنَّ النَّوْمَ نَفَرَ عَنْ عَيْنَيِ الْخَلِيفَةِ ، لِأَنَّ الْبَرِيدَ حَمَلَ إِلَيْهِ : أَنَّ جُيُوشَ الْفُرْسِ الْمُنْهَزِمَةَ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ كَانَتْ كُلَّمَا أَوْشَكَ جُنْدُهُ عَلَىٰ أَنْ يُجْهِزُوا[٢] عَلَيْهَا يَأْتِيهَا الْمَدَدُ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ، فَلَا تَلْبَثُ أَنْ تَسْتَعِيدَ قُوَّتَهَا وَتَسْتَأْنِفَ الْقِتَالَ .

وَقِيلَ لَهُ : إِنَّ مَدِينَةَ « الْأُبُلَّةِ »[٣] تُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ الْمَصَادِرِ الَّتِي تُمِدُّ جُيُوشَ الْفُرْسِ الْمُنْهَزِمَةَ بِالْمَالِ وَالرِّجَالِ .

فَعَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يُرْسِلَ جَيْشًا لِفَتْحِ « الْأُبُلَّةِ » ، وَقَطْعِ إِمْدَادَاتِهَا عَنِ الْفُرْسِ ، لَكِنَّهُ اصْطَدَمَ بِقِلَّةِ الرِّجَالِ عِنْدَهُ .

ذَلِكَ لِأَنَّ شُبَّانَ الْمُسْلِمِينَ وَكُهُولَهُمْ وَشُيُوخَهُمْ قَدْ خَرَجُوا يَضْرِبُونَ فِي فِجَاجِ[٤] الْأَرْضِ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ لَدَيْهِ فِي الْمَدِينَةِ إِلَّا النَّزْرُ[٥] الْقَلِيلُ .

فَعَمَدَ إِلَىٰ طَرِيقَتِهِ الَّتِي عُرِفَ بِهَا ...

---

(١) الْعَسُّ : الطَّواف باللَّيل للحِراسة .
(٢) يجهزوا عَلَيْهَا : يقضوا عَلَيْهَا .
(٣) الأُبُلَّة : مدينة في جوار الْبَصْرة ألحقت بها وغدت جزءًا منها .
(٤) يضربون في فجاج الأرض : يمشون في سُبُل الأرض غزاة في سبيل الله .
(٥) النَّزر : الْقليلُ الضَّئيل .

وَهِيَ التَّعْوِيضُ عَنْ قِلَّةِ الْجُنْدِ بِقُوَّةِ الْقَائِدِ...

فَنَثَرَ كِنَانَةَ[1] رِجَالِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَخَذَ يَعْجِمُ عِيدَانَهُمْ[2] وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ فَمَا لَبِثَ أَنْ هَتَفَ: وَجَدْتُهُ... نَعَمْ وَجَدْتُهُ...

ثُمَّ مَضَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

إِنَّهُ مُجَاهِدٌ عَرَفَتْهُ بَدْرٌ، وَأُحُدٌ، وَالْخَنْدَقُ وَأَخَوَاتُهَا...

وَشَهِدَتْ لَهُ «الْيَمَامَةُ» وَمَوَاقِفُهَا...

فَمَا نَبَا[3] لَهُ سَيْفٌ، وَلَا أَخْطَأَتْ لَهُ رَمْيَةٌ...

ثُمَّ إِنَّهُ هَاجَرَ الْهِجْرَتَيْنِ[4]، وَكَانَ سَابِعَ سَبْعَةٍ أَسْلَمُوا عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ...

وَلَمَّا أَصْبَحَ الصُّبْحُ، قَالَ: ادْعُوا لِي عُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ.

وَعَقَدَ لَهُ الرَّايَةَ عَلَىٰ ثَلَاثِمِائَةٍ وَبِضْعَةَ[5] عَشَرَ رَجُلًا...

وَوَعَدَهُ بِأَنْ يُمِدَّهُ تِبَاعًا بِمَا يَتَوَافَرُ لَهُ مِنَ الرِّجَالِ.

* * *

وَلَمَّا عَزَمَ الْجَيْشُ الصَّغِيرُ عَلَىٰ الرَّحِيلِ؛ وَقَفَ الْفَارُوقُ يُوَدِّعُ قَائِدَهُ عُتْبَةَ وَيُوصِيهِ فَقَالَ لَهُ: يَا عُتْبَةُ إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَىٰ أَرْضِ «الْأُبُلَّةِ»، وَهِيَ حِصْنٌ مِنْ حُصُونِ الْأَعْدَاءِ فَأَرْجُو اللَّهَ أَنْ يُعِينَكَ عَلَيْهَا.

فَإِذَا نَزَلْتَ بِهَا فَادْعُ قَوْمَهَا إِلَىٰ اللَّهِ، فَمَنْ أَجَابَكَ فَاقْبَلْ مِنْهُ، وَمَنْ أَبَىٰ فَخُذْ مِنْهُ الْجِزْيَةَ[6] عَنْ صَغَارٍ وَذِلَّةٍ...

---

(١) الْكنانة: جعبة السّهام.
(٢) يعجم عيدانهم: يختبر عيدانَهم [شبههم بالسّهام].
(٣) نبا السّيف: لم يصب.
(٤) الْهجرتان: الْهجرة إِلَىٰ بلاد الْحبشة والْهجرة إِلَىٰ الْمدينة.
(٥) بضعة عشر: الْبضع من الثّلاثة إِلَىٰ التّسعة.
(٦) الْجزية: ما يأخذه الْحاكم الْمسلم من الذّمي من الْمال.

وَإِلَّا فَضَعْ فِي رِقَابِهِمُ السَّيْفَ[1] فِي غَيْرِ هَوَادَةٍ ...

وَاتَّقِ اللَّهَ يَا عُتْبَةُ فِيمَا وُلِّيتَ عَلَيْهِ ...

وَإِيَّاكَ أَنْ تُنَازِعَكَ[2] نَفْسُكَ إِلَىٰ كِبْرٍ يُفْسِدُ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ . وَاعْلَمْ أَنَّكَ صَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأَعَزَّكَ اللَّهُ بِهِ بَعْدَ الذِّلَّةِ ، وَقَوَّاكَ بِهِ بَعْدَ الضَّعْفِ ، حَتَّىٰ صِرْتَ أَمِيرًا مُسَلَّطًا ، وَقَائِدًا مُطَاعًا ، تَقُولُ فَيُسْمَعُ مِنْكَ ، وَتَأْمُرُ فَيُطَاعُ أَمْرُكَ ... فَيَا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ إِذَا هِيَ لَمْ تُبْطِرْكَ[3] وَتَخْدَعْكَ وَتَهْوِ بِكَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أَعَاذَكَ اللَّهُ وَأَعَاذَنِي مِنْهَا .

* * *

مَضَىٰ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بِرِجَالِهِ وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ وَخَمْسُ نِسْوَةٍ أُخْرَيَاتٌ مِنْ زَوْجَاتِ الْجُنْدِ وَأَخَوَاتِهِمْ ، حَتَّىٰ نَزَلُوا فِي أَرْضٍ قَصْبَاءَ[4] لَا تَبْعُدُ كَثِيرًا عَنْ مَدِينَةِ « الْأُبُلَّةِ » .

وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ شَيْءٌ يَأْكُلُونَهُ ...

فَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْجُوعُ قَالَ عُتْبَةُ لِنَفَرٍ مِنْهُمْ : الْتَمِسُوا[5] لَنَا فِي هَٰذِهِ الْأَرْضِ شَيْئًا نَأْكُلُهُ .

فَقَامُوا يَبْحَثُونَ عَمَّا يَسُدُّ جَوْعَتَهُمْ ، فَكَانَتْ لَهُمْ مَعَ الطَّعَامِ قِصَّةٌ رَوَاهَا أَحَدُهُمْ فَقَالَ :

بَيْنَمَا كُنَا نَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ نَأْكُلُهُ ؛ دَخَلْنَا أَجَمَةً[6] فَإِذَا فِيهَا زِنْبِيلَانِ[7] فِي أَحَدِهِمَا تَمْرٌ ، وَفِي الْآخَرِ حَبٌّ أَبْيَضُ صَغِيرٌ مُغَطًّى بِقِشْرٍ أَصْفَرَ ، فَجَذَبْنَاهُمَا حَتَّىٰ أَدْنَيْنَاهُمَا مِنَ الْعَسْكَرِ ، فَنَظَرَ أَحَدُنَا إِلَىٰ الزِّنْبِيلِ الَّذِي فِيهِ الْحَبُّ وَقَالَ :

---

(١) ضع السَّيف في رقابهم : حاربهم واقتلهم .
(٢) تنازعك نَفْسُك : تدعوك نَفْسُك .
(٣) تبطرك : الْبَطَرُ سوء التصرُّف بالنّعمة .
(٤) قصباء : ذات قَصَب ، والقصب : نباتٌ مائي مُجوّفٌ .
(٥) التمسوا : ابحثوا واطلبوا .
(٦) الأجمة : الشّجر الْكثيرُ الْملتفُّ .
(٧) الزّنبيل : الْقفّة .

هَٰذَا سُمٌّ أَعَدَّهُ لَكُمُ الْعَدُوُّ، فَلَا تَقْرَبُنَّهُ.

فَمِلْنَا إِلَىٰ التَّمْرِ، وَجَعَلْنَا نَأْكُلُ مِنْهُ...

وَفِيمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ بِفَرَسٍ قَدْ قَطَعَ قِيَادَهُ[١]، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ زِنْبِيلِ الْحَبِّ وَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ هَمَمْنَا بِأَنْ نَذْبَحَهُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ لِنَنْتَفِعَ بِلَحْمِهِ.

فَقَامَ إِلَيْنَا صَاحِبُهُ وَقَالَ: دَعُوهُ، وَسَأَحْرُسُهُ اللَّيْلَةَ فَإِنْ أَحْسَسْتُ بِمَوْتِهِ ذَبَحْتُهُ... فَلَمَّا أَصْبَحْنَا وَجَدْنَا الْفَرَسَ مُعَافًى لَا ضَرَرَ فِيهِ.

فَقَالَتْ أُخْتِي:

يَا أَخِي، إِنِّي سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: إِنَّ السُّمَّ لَا يَضُرُّ إِذَا وُضِعَ عَلَىٰ النَّارِ وَأُنْضِجَ.

ثُمَّ أَخَذَتْ شَيْئًا مِنَ الْحَبِّ وَوَضَعَتْهُ فِي الْقِدْرِ، وَأَوْقَدَتْ تَحْتَهُ.

ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنْ قَالَتْ: تَعَالَوْا انْظُرُوا كَيْفَ احْمَرَّ لَوْنُهُ، ثُمَّ جَعَلَ يَتَشَقَّقُ عَنْهُ قِشْرُهُ، وَتَخْرُجُ مِنْهُ حُبُوبُهُ الْبِيضُ.

فَأَلْقَيْنَاهُ فِي الْجَفْنَةِ[٢] لِنَأْكُلَهُ، فَقَالَ لَنَا عُتْبَةُ:

اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَكُلُوهُ... فَأَكَلْنَاهُ فَإِذَا هُوَ غَايَةٌ فِي الطِّيبِ.

ثُمَّ عَرَفْنَا بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ اسْمَهُ الْأَرُزُّ.

* * *

كَانَتِ «الْأُبُلَّةُ» الَّتِي اتَّجَهَ إِلَيْهَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بِجَيْشِهِ الصَّغِيرِ مَدِينَةً حَصِينَةً قَائِمَةً عَلَىٰ شَاطِئِ «دِجْلَةَ»[٣]...

وَكَانَ الْفُرْسُ قَدِ اتَّخَذُوهَا مَخَازِنَ لِأَسْلِحَتِهِمْ.

---

(١) قطع قياده: قطع رَسَنه.
(٢) الجفنة: القصعة الكبيرة.
(٣) دِجلة: نهر ينبع من تركيا ثُمَّ يجري في العراق، ويصبُّ في شط العرب.

وَجَعَلُوا مِنْ أَبْرَاجِ حُصُونِهَا مَرَاصِدَ[1] لِمُرَاقَبَةِ أَعْدَائِهِمْ.

لَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْ عُتْبَةَ مِنْ غَزْوِهَا عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ قِلَّةِ رِجَالِهِ وَضَآلَةِ سِلَاحِهِ... إِذْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَهُ مِنَ الرِّجَالِ غَيْرُ سِتِّمِائَةِ مُقَاتِلٍ تَصْحَبُهُمْ طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ النِّسَاءِ.

وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنَ السِّلَاحِ غَيْرُ السُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ.

فَكَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْتَعْمِلَ ذَكَاءَهُ.

* * *

أَعَدَّ عُتْبَةُ لِلنِّسْوَةِ رَايَاتٍ رَفَعَهَا عَلَىٰ أَعْوَادِ الرِّمَاحِ...

وَأَمَرَهُنَّ أَنْ يَمْشِينَ بِهَا خَلْفَ الْجَيْشِ، وَقَالَ لَهُنَّ:

إِذَا نَحْنُ اقْتَرَبْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ فَأَثِرْنَ التُّرَابَ وَرَاءَنَا حَتَّىٰ تَمْلَأْنَ بِهِ الْجَوَّ.

فَلَمَّا دَنَوْا مِنَ «الْأُبُلَّةِ» خَرَجَ إِلَيْهِمْ جُنْدُ الْفُرْسِ، فَرَأَوْا إِقْدَامَهُمْ عَلَيْهِمْ.

وَنَظَرُوا إِلَىٰ الرَّايَاتِ الَّتِي تَخْفِقُ وَرَاءَهُمْ.

وَوَجَدُوا الْغُبَارَ يَمْلَأُ الْجَوَّ خَلْفَهُمْ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُمْ طَلِيعَةُ[2] الْعَسْكَرِ، وَإِنَّ وَرَاءَهُمْ جَيْشًا جَرَّارًا[3] يُثِيرُ الْغُبَارَ، وَنَحْنُ قِلَّةٌ...

ثُمَّ دَبَّ فِي قُلُوبِهِمُ الذُّعْرُ، وَسَيْطَرَ عَلَيْهِمُ الْجَزَعُ، فَطَفِقُوا يَحْمِلُونَ مَا خَفَّ وَزْنُهُ وَغَلَا ثَمَنُهُ، وَيَتَسَابَقُونَ إِلَىٰ رُكُوبِ السُّفُنِ الرَّاسِيَةِ فِي «دِجْلَةَ» وَيُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ[4].

---

(١) مراصد: جمعُ مَرْصَد، وهو مكانُ رَصْدِ العدو ومراقبته.
(٢) طليعة العسكر: مقدمة العسكر.
(٣) الجيش الجرار: الجيش الكثيف الكثير العدد والعُدد.
(٤) يولون الأدبار: ينهزمون.

فَدَخَلَ عُتْبَةُ « الْأُبُلَّةَ » دُونَ أَنْ يَفْقِدَ أَحَدًا مِنْ رِجَالِهِ ...

ثُمَّ فَتَحَ مَا حَوْلَهَا مِنَ الْمُدُنِ وَالْقُرَىٰ .

وَغَنِمَ مِنْ ذَٰلِكَ غَنَائِمَ عَزَّتْ عَلَىٰ الْحَصْرِ [1]، وَفَاقَتْ كُلَّ تَقْدِيرٍ ؛ حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَ رِجَالِهِ عَادَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، فَسَأَلَهُ النَّاسُ :

كَيْفَ الْمُسْلِمُونَ فِي « الْأُبُلَّةِ » ؟ .

فَقَالَ : عَمَّ تَتَسَاءَلُونَ ؟! ...

وَاللَّهِ لَقَدْ تَرَكْتُهُمْ وَهُمْ يَكْتَالُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ اكْتِيَالًا ... فَأَخَذَ النَّاسُ يَشُدُّونَ إِلَىٰ « الْأُبُلَّةِ » الرِّحَالَ [2].

* * *

عِنْدَ ذَٰلِكَ رَأَىٰ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ أَنَّ إِقَامَةَ جُنُودِهِ فِي الْمُدُنِ الْمَفْتُوحَةِ سَوْفَ تُعَوِّدُهُمْ عَلَىٰ لِينِ الْعَيْشِ ، وَتُخَلِّقُهُمْ بِأَخْلَاقِ أَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ ، وَتَفُلُّ [3] مِنْ حِدَّةِ عَزَائِمِهِمْ عَلَىٰ مُوَاصَلَةِ الْقِتَالِ ؛ فَكَتَبَ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَسْتَأْذِنُهُ فِي بِنَاءِ « الْبَصْرَةِ » [4] وَوَصَفَ لَهُ الْمَكَانَ الَّذِي اخْتَارَهُ لَهَا فَأَذِنَ لَهُ .

* * *

اخْتَطَّ [5] عُتْبَةُ الْمَدِينَةَ الْجَدِيدَةَ ...

وَكَانَ أَوَّلَ مَا بَنَاهُ مَسْجِدُهَا الْعَظِيمُ ...

وَلَا عَجَبَ ...

فَمِنْ أَجْلِ الْمَسْجِدِ خَرَجَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

وَبِالْمَسْجِدِ انْتَصَرَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللَّهِ ...

---

(١) عزّت علَىٰ الْحصر : يتعذّر إحصاؤها .
(٢) يشدون الرّحال إلَىٰ الأُبُلّة : يسافرون إليها .
(٣) تفلّ من حدة عزائمهم : تضعف من قوّة عزائمهم .
(٤) الْبَصْرَة : مدينة في الْعراق علَىٰ شطّ الْعرب .
(٥) اختط عُتْبَة الْمدينة : خططها .

ثُمَّ تَسَابَقَ الْجُنْدُ عَلَىٰ اقْتِطَاعِ[1] الْأَرْضِ وَبِنَاءِ الْبُيُوتِ ...

لَكِنَّ عُتْبَةَ لَمْ يَبْنِ لِنَفْسِهِ بَيْتًا ، وَإِنَّمَا ظَلَّ يَسْكُنُ خَيْمَةً مِنَ الْأَكْسِيَةِ[2] ...

ذَٰلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ أَسَرَّ فِي نَفْسِهِ أَمْرًا ...

* * *

فَلَقَدْ رَأَىٰ عُتْبَةُ أَنَّ الدُّنْيَا أَقْبَلَتْ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فِي « الْبَصْرَةِ » إِقْبَالًا يُذْهِلُ الْمَرْءَ عَنْ نَفْسِهِ ...

وَأَنَّ رِجَالَهُ الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ قَلِيلٍ لَا يَعْرِفُونَ طَعَامًا أَطْيَبَ مِنَ الْأَرُزِّ الْمَسْلُوقِ بِقِشْرِهِ قَدْ تَذَوَّقُوا مَآكِلَ الْفُرْسِ مِنَ الْفَالُوذَجِ[3] وَاللَّوْزِينَجِ[4] وَغَيْرِهِمَا وَاسْتَطَابُوهَا .

فَخَشِيَ عَلَىٰ دِينِهِ مِنْ دُنْيَاهُ ...

وَأَشْفَقَ عَلَىٰ الْآجِلَةِ مِنَ الْعَاجِلَةِ[5] ...

فَجَمَعَ النَّاسَ فِي مَسْجِدِ « الْكُوفَةِ » وَخَطَبَهُمْ فَقَالَ :

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ[6] بِالِانْقِضَاءِ ، وَأَنْتُمْ مُنْتَقِلُونَ عَنْهَا إِلَىٰ دَارٍ لَا زَوَالَ فِيهَا ، فَانْتَقِلُوا إِلَيْهَا بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ...

وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ[7] مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَمَا لَنَا طَعَامٌ غَيْرُ وَرَقِ الشَّجَرِ حَتَّىٰ قَرِحَتْ مِنْهُ أَشْدَاقُنَا[8] ...

---

(١) اقتطاع الأرض : أخذها وامتلاكها .
(٢) الأكسية : جمع كساء وهو الثوب .
(٣) الفالوذج : صنف من الحلوىٰ يصنع من الدّقيق والسّمن والعسل .
(٤) اللّوزينج : صنف من الحلوىٰ يشبه القطايف يحشىٰ باللّوز .
(٥) الآجلة : هي الآخرة ، والعاجلة : الدّنيا .
(٦) آذنت بالانقضاء : أعلنت عن أنها توشك أن تنتهي .
(٧) رأيتني سابع سبعة : رأيت نفسي بين المسلمين ولم يكن قد أسلم أحدٌ غيرنا .
(٨) قرحت منه أشداقنا : تقرّحت منه شفاهنا .

وَلَقَدِ الْتَقَطْتُ[1] بُرْدَةً ـ ذَاتَ يَوْمٍ ـ فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ[2] فَاتَّزَرْتُ[3] بِنِصْفِهَا، وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا الْآخَرِ.

فَإِذَا نَحْنُ الْيَوْمَ لَمْ يَبْقَ مِنَّا وَاحِدٌ إِلَّا وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَىٰ مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ...

وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ عَظِيمًا عِنْدَ نَفْسِي صَغِيرًا عِنْدَ اللَّهِ...

ثُمَّ اسْتَخْلَفَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ، وَوَدَّعَهُمْ وَمَضَىٰ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

فَلَمَّا قَدِمَ عَلَىٰ الْفَارُوقِ اسْتَعْفَاهُ[4] مِنَ الْوِلَايَةِ فَلَمْ يُعْفِهِ، فَأَلَحَّ عَلَيْهِ فَأَصَرَّ عَلَيْهِ الْخَلِيفَةُ، وَأَمَرَهُ بِالْعَوْدَةِ إِلَىٰ «الْبَصْرَةِ»... فَأَذْعَنَ[5] لِأَمْرِ عُمَرَ كَارِهًا، وَرَكِبَ نَاقَتَهُ وَهُوَ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّنِي إِلَيْهَا... اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّنِي إِلَيْهَا...

فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ إِذْ لَمْ يَبْعُدْ عَنِ الْمَدِينَةِ كَثِيرًا حَتَّىٰ عَثَرَتْ نَاقَتُهُ، فَخَرَّ عَنْهَا صَرِيعًا... وَفَارَقَ الْحَيَاةَ (*)...

---

(١) التقطت بردة: أخذتها من الأرض.
(٢) سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاص: انظره ص ٢٨١.
(٣) اتزرت بنصفها: جعلت نصفها إزارًا لي.
(٤) استعفاه من الولاية: طلب منه أن يعفيه منها ويعزله عنها.
(٥) أذعن لأمر عُمَر: خضع له واستجاب.

(*) للاستزادة من أخبار عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ انظر:
١ - الإصابة: ٢/٤٥٥ أو «الترجمة» ٥٤١١.
٢ - الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ٣/ ١١٣.
٣ - تاريخ الإسلام للذهبي: ٢/ ٧.
٤ - أسد الغابة: ٣/ ٣٦٣.
٥ - تاريخ خليفة بن خياط: ١/٩٥ - ٩٨.
٦ - البداية والنهاية: ٧/ ٤٨.
٧ - معجم البلدان «عند الكلام على البصرة»: ١/ ٤٣٠.
٨ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ٧/ ١.
٩ - تاريخ الطبري: «انظر الفهارس في العاشر».
١٠- سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٠٤.
١١- حياة الصحابة: «انظر الفهارس في الرابع».

نُعَيمُ بنُ مَسعُودٍ

« نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ رَجُلٌ يَعْرِفُ أَنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ »

نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ فَتًى يَقِظُ الْفُؤَادِ أَلْمَعِيُّ الذَّكَاءِ خَرَّاجٌ وَلَّاجٌ(١)، لَا تَعُوقُهُ مُعْضِلَةٌ ، وَلَا تُعْجِزُهُ مُشْكِلَةٌ .

يُمَثِّلُ ابْنَ الصَّحْرَاءِ بِكُلِّ مَا حَبَاهُ(٢) اللَّهُ مِنْ صِحَّةِ الْحَدْسِ(٣) وَسُرْعَةِ الْبَدِيهَةِ وَشِدَّةِ الدَّهَاءِ ... وَلَكِنَّهُ كَانَ صَاحِبَ صَبْوَةٍ(٤)، وَخَدِينَ(٥) مُتْعَةٍ كَانَ يَنْشُدُهُمَا أَكْثَرَ مَا يَنْشُدُهُمَا عِنْدَ يَهُودِ « يَثْرِبَ » .

فَكَانَ كُلَّمَا تَاقَتْ نَفْسُهُ لِقَيْنَةٍ(٦)، أَوْ هَفَا سَمْعُهُ لِوَتَرٍ شَدَّ رِحَالَهُ مِنْ مَنَازِلِ قَوْمِهِ فِي « نَجْدٍ » ، وَيَمَّمَ وَجْهَهُ شَطْرَ الْمَدِينَةِ حَيْثُ يَبْذُلُ الْمَالَ لِيَهُودِهَا بِسَخَاءٍ لِيَبْذُلُوا لَهُ الْمُتْعَةَ بِسَخَاءٍ أَكْثَرَ ...

وَمِنْ هُنَا فَقَدْ كَانَ نُعَيْمٌ كَثِيرَ التَّرَدُّدِ عَلَى « يَثْرِبَ » ، وَثِيقَ الصِّلَةِ بِمَنْ فِيهَا مِنَ الْيَهُودِ ، وَخَاصَّةً بَنِي « قُرَيْظَةَ » .

* * *

وَلَمَّا أَكْرَمَ اللَّهُ الْإِنْسَانِيَّةَ بِإِرْسَالِ رَسُولِهِ ﷺ بِدِينِ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَسَطَعَتْ شِعَابُ مَكَّةَ بِنُورِ الْإِسْلَامِ ؛ كَانَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ مَا يَزَالُ مُرْخِيًا لِلنَّفْسِ عِنَانَهَا(٧)...

---

(١) خرّاج ولّاج : كثير المداخل والمخارج ، وذلك علامة على ذكائه ودهائه .
(٢) حباه : أعطاه .
(٣) صحّة الحدس : صحّة التقدير والظنّ .
(٤) صاحب صَبْوَة : صاحب رغبة في المتع واللذات .
(٥) خدين : رفيق وصديق .
(٦) القينة : المغنية .
(٧) مرخيًا للنفس عنانها : تاركًا النفس على هواها .

فَأَعْرَضَ عَنِ الدِّينِ الْجَدِيدِ أَشَدَّ الْإِعْرَاضِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَحُولَ دُونَهُ وَدُونَ مُتَعِهِ وَلَذَّاتِهِ.

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ وَجَدَ نَفْسَهُ مَسُوقًا إِلَىٰ الِانْضِمَامِ إِلَىٰ خُصُومِ الْإِسْلَامِ الْأَلِدَّاءِ، مَدْفُوعًا دَفْعًا إِلَىٰ إِشْهَارِ السَّيْفِ فِي وَجْهِهِ.

* * *

لَكِنَّ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ فَتَحَ لِنَفْسِهِ يَوْمَ غَزْوَةِ «الْأَحْزَابِ»(١) صَفْحَةً جَدِيدَةً فِي تَارِيخِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَخَطَّ فِي هَٰذِهِ الصَّفْحَةِ قِصَّةً مِنْ رَوَائِعِ قِصَصِ مَكَايِدِ الْحُرُوبِ... قِصَّةً مَا يَزَالُ يَرْوِيهَا التَّارِيخُ بِكَثِيرٍ مِنَ الِانْبِهَارِ(٢) بِفُصُولِهَا الْمُحْكَمَةِ، وَالْإِعْجَابِ بِبَطَلِهَا الْأَرِيبِ اللَّبِيبِ(٣).

* * *

وَلِتَقِفَ عَلَىٰ قِصَّةِ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ لَا بُدَّ لَكَ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَىٰ الْوَرَاءِ قَلِيلًا.

فَقُبَيْلَ غَزْوَةِ «الْأَحْزَابِ» بِقَلِيلٍ هَبَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ يَهُودِ بَنِي «النَّضِيرِ» فِي «يَثْرِبَ»، وَطَفِقَ زُعَمَاؤُهُمْ يُحَزِّبُونَ الْأَحْزَابَ(٤) لِحَرْبِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالْقَضَاءِ عَلَىٰ دِينِهِ... فَقَدِمُوا عَلَىٰ قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ، وَحَرَّضُوهُمْ(٥) عَلَىٰ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَاهَدُوهُمْ عَلَىٰ الِانْضِمَامِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ وُصُولِهِمْ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَضَرَبُوا لِذَٰلِكَ مَوْعِدًا لَا يُخْلِفُونَهُ.

ثُمَّ تَرَكُوهُمْ وَانْطَلَقُوا إِلَىٰ «غَطَفَانَ» فِي «نَجْدٍ» فَأَثَارُوهُمْ ضِدَّ الْإِسْلَامِ وَنَبِيِّهِ ﷺ، وَدَعَوْهُمْ إِلَىٰ اسْتِئْصَالِ(٦) الدِّينِ الْجَدِيدِ مِنْ جُذُورِهِ، وَأَسَرُّوا إِلَيْهِمْ

(١) غزوة الأحزاب: هي غزوة الخندق وكانت سنة ٥هـ. وسميت بالخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة ليقف في وجه المشركين.
(٢) الإنبهار: الدهشة.
(٣) الأريب اللبيب: الذكي الحاذق.
(٤) يُحَزِّبون الأحزاب: يجمعون الناس في فرق وجماعات.
(٥) حرّضوهم: حثوهم وزينوا لهم.
(٦) استئصال الدين الجديد: قطعه من جذوره والقضاء عليه.

بِمَا تَمَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ ، وَعَاهَدُوهُمْ عَلَىٰ مَا عَاهَدُوهَا عَلَيْهِ ، وَآذَنُوهُمْ[١] بِالْمَوْعِدِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ .

* * *

خَرَجَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ بِقَضِّهَا وَقَضِيضِهَا[٢] ، وَخَيْلِهَا وَرَجِلِهَا[٣] بِقِيَادَةِ زَعِيمِهَا أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ مُتَّجِهَةً شَطْرَ الْمَدِينَةِ .

كَمَا خَرَجَتْ « غَطَفَانُ » مِنْ « نَجْدٍ » بِعُدَّتِهَا وَعَدِيدِهَا بِقِيَادَةِ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ الْغَطَفَانِي[٤] .

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ رِجَالِ « غَطَفَانَ » بَطَلُ قِصَّتِنَا نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ ...

فَلَمَّا بَلَغَ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ نَبَأُ خُرُوجِهِمْ ، جَمَعَ أَصْحَابَهُ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَقَرَّ قَرَارُهُمْ عَلَىٰ أَنْ يَحْفِرُوا خَنْدَقًا حَوْلَ الْمَدِينَةِ لِيَصُدُّوا عَنْهَا هَٰذَا الزَّحْفَ الْكَبِيرَ الَّذِي لَا طَاقَةَ لَهَا بِهِ ، وَلِيَقِفَ الْخَنْدَقُ فِي وَجْهِ الْجَيْشِ الْكَثِيفِ الْغَازِي .

* * *

مَا كَادَ الْجَيْشَانِ الزَّاحِفَانِ مِنْ مَكَّةَ وَنَجْدٍ يَقْتَرِبَانِ مِنْ مَشَارِفِ[٥] الْمَدِينَةِ حَتَّىٰ مَضَىٰ زُعَمَاءُ يَهُودِ بَنِي « النَّضِيرِ » إِلَىٰ زُعَمَاءِ يَهُودِ بَنِي « قُرَيْظَةَ » الْقَاطِنِينَ فِي الْمَدِينَةِ ، وَجَعَلُوا يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَىٰ الدُّخُولِ فِي حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَيَحُضُّونَهُمْ عَلَىٰ مُؤَازَرَةِ الْجَيْشَيْنِ الْقَادِمَيْنِ مِنْ مَكَّةَ وَنَجْدٍ .

فَقَالَ لَهُمْ زُعَمَاءُ بَنِي « قُرَيْظَةَ » :

---

(١) آذنوهم : أعلموهم .
(٢) بقضها وقضيضها : جميعها .
(٣) خيلها وَرَجِلِهَا : ركبانها ومشاتها .
(٤) عُيَيْنَة بن حِصْن الفزاري الغَطَفَاني : أسلم قبل الفتح وشهدها وشهد حنينًا والطائف وكان من المؤلفة قلوبهم ، وقد ارتد بعد وفاة الرسول ﷺ وانضم إلى طُلَيْحَة بن خُوَيْلِد الأسدي عندما تنبأ ، ثم رجع إلى الإسلام .
(٥) مشارف المدينة : الأماكن التي تشرف على المدينة .

لَقَدْ دَعَوْتُمُونَا إِلَىٰ مَا نُحِبُّ وَنَبْغِي ، وَلَٰكِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ مِيثَاقًا عَلَىٰ أَنْ نُسَالِمَهُ وَنُوَادِعَهُ لِقَاءَ أَنْ نَعِيشَ فِي الْمَدِينَةِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ ، وَأَنْتُمْ تَدْرُونَ أَنَّ مِدَادَ[1] مِيثَاقِنَا مَعَهُ لَمْ يَجِفَّ بَعْدُ ...

وَنَحْنُ نَخْشَىٰ إِذَا انْتَصَرَ مُحَمَّدٌ فِي هَٰذِهِ الْحَرْبِ أَنْ يَبْطِشَ بِنَا بَطْشَةً جَبَّارَةً ، وَأَنْ يَسْتَأْصِلَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ اسْتِئْصَالًا جَزَاءَ غَدْرِنَا بِهِ ...

لَكِنَّ زُعَمَاءَ بَنِي « النَّضِيرِ » مَا زَالُوا يُغْرُونَهُمْ بِنَقْضِ الْعَهْدِ وَيُزَيِّنُونَ لَهُمُ الْغَدْرَ بِمُحَمَّدٍ ، وَيُؤَكِّدُونَ لَهُمْ بِأَنَّ الدَّائِرَةَ[2] سَتَدُورُ عَلَيْهِ فِي هَٰذِهِ الْمَرَّةِ لَا مَحَالَةَ[3]... وَيَشُدُّونَ عَزْمَهُمْ بِقُدُومِ الْجَيْشَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ .

فَمَا لَبِثَ يَهُودُ بَنِي « قُرَيْظَةَ » أَنْ لَانُوا لَهُمْ وَنَقَضُوا عَهْدَهُمْ مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَمَزَّقُوا الصَّحِيفَةَ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ... وَأَعْلَنُوا انْضِمَامَهُمْ إِلَىٰ الْأَحْزَابِ فِي حَرْبِهِ ... فَوَقَعَ الْخَبَرُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وُقُوعَ الصَّاعِقَةِ ...

* * *

حَاصَرَتْ جُيُوشُ الْأَحْزَابِ الْمَدِينَةَ ، وَقَطَعَتْ عَنْ أَهْلِهَا الْمِيرَةَ[4] وَالْقُوتَ ؛ فَعَظُمَ الْكَرْبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَاشْتَدَّ .

وَشَعَرَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ وَقَعَ بَيْنَ فَكَّيِ الْعَدُوِّ ...

فَقُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ مُعَسْكِرُونَ قُبَالَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ خَارِجِ الْمَدِينَةِ ...

وَبَنُو « قُرَيْظَةَ » مُتَرَبِّصُونَ مُتَأَهِّبُونَ خَلْفَ الْمُسْلِمِينَ فِي دَاخِلِ الْمَدِينَةِ ...

ثُمَّ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَخَذُوا يَكْشِفُونَ عَنْ مُخَبَّآتِ نُفُوسِهِمْ وَيَقُولُونَ :

---

(١) مِدَاد مِيثَاقِنَا : الحبر الذي كتبت به وثيقة العهد.
(٢) الدَّائرة : النكبة والمصيبة.
(٣) لا مَحالةَ : لا شكَّ ولا ريب.
(٤) الْمِيرة : الطعام والمؤنة.

كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا بِأَنْ نَمْلِكَ كُنُوزَ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ ، وَهَا نَحْنُ الْيَوْمَ لَا يَأْمَنُ الْوَاحِدُ مِنَّا عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَىٰ بَيْتِ الْخَلَاءِ لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ !! .

ثُمَّ طَفِقُوا يَنْفَضُّونَ(١) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ جَمَاعَةً إِثْرَ جَمَاعَةٍ بِحُجَّةِ الْخَوْفِ عَلَىٰ نِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ مِنْ هَجْمَةٍ يَشُنُّهَا عَلَيْهِمْ بَنُو « قُرَيْظَةَ » إِذَا نَشِبَ الْقِتَالُ ، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ سِوَىٰ بِضْعِ(٢) مِئَاتٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ .

وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الْحِصَارِ الَّذِي دَامَ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا لَجَأَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ رَبِّهِ ، وَجَعَلَ يَدْعُوهُ دُعَاءَ الْمُضْطَرِّ(٣)، وَيُكَرِّرُ فِي دُعَائِهِ قَوْلَهُ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ(٤) عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ... اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ...) .

* * *

كَانَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ يَتَقَلَّبُ عَلَىٰ مِهَادِهِ(٥) أَرِقًا كَأَنَّمَا سُمِّرَ(٦) جَفْنَاهُ فَمَا يَنْطَبِقَانِ لِنَوْمٍ ، فَجَعَلَ يَسْرَحُ بِبَصَرِهِ وَرَاءَ النُّجُومِ السَّابِحَةِ عَلَىٰ صَفْحَةِ السَّمَاءِ الصَّافِيَةِ ... وَيُطِيلُ التَّفْكِيرَ ... وَفَجْأَةً وَجَدَ نَفْسَهُ تُسَائِلُهُ قَائِلَةً : وَيْحَكَ يَا نُعَيْمُ !! ...

مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ مِنْ تِلْكَ الْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ فِي « نَجْدٍ » لِحَرْبِ هَٰذَا الرَّجُلِ وَمَنْ مَعَهُ ؟!! ...

إِنَّكَ لَا تُحَارِبُهُ انْتِصَارًا لِحَقٍّ مَسْلُوبٍ ، أَوْ حَمِيَّةً لِعِرْضٍ مَغْصُوبٍ ، وَإِنَّمَا جِئْتَ تُحَارِبُهُ لِغَيْرِ سَبَبٍ مَعْرُوفٍ ...

---

(١) يَنْفَضُّون : يتفرقون .
(٢) بضع مئات : الْبِضع من الثلاثة إِلَىٰ التسعة .
(٣) دعاء الْمضطر : دعاء الْمحتاج الشديد الْحاجة .
(٤) أنشدك عهدَك ووعدك : أطلب منك النَّصْرَ الَّذي وعدتني به .
(٥) مِهاده : فِراشه .
(٦) سُمِّر جفناه : ثُبِّتا بالْمسامير .

أَيَلِيقُ بِرَجُلٍ لَهُ عَقْلٌ مِثْلُ عَقْلِكَ أَنْ يُقَاتِلَ فَيَقْتُلَ ، أَوْ يُقْتَلَ لِغَيْرِ سَبَبٍ ؟!! .

وَيْحَكَ يَا نُعَيْمُ !! ...

مَا الَّذِي يَجْعَلُكَ تُشْهِرُ سَيْفَكَ فِي وَجْهِ هَـٰذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَأْمُرُ أَتْبَاعَهُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ؟!! ...

وَمَا الَّذِي يَحْمِلُكَ عَلَىٰ أَنْ تَغْمِسَ رُمْحَكَ فِي دِمَاءِ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ ؟!! .

وَلَمْ يَحْسِمْ هَـٰذَا الْحِوَارَ الْعَنِيفَ بَيْنَ نُعَيْمٍ وَنَفْسِهِ إِلَّا الْقَرَارُ الْحَازِمُ الَّذِي نَهَضَ مِنْ تَوِّهِ[1] لِتَنْفِيذِهِ .

* * *

تَسَلَّلَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ مِنْ مُعَسْكَرِ قَوْمِهِ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ ، وَمَضَىٰ يَحُثُّ الْخُطَا[2] إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَاثِلًا بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ :

(نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ ؟!) .

قَالَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

قَالَ : (مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ فِي هَـٰذِهِ السَّاعَةِ ؟!!) .

قَالَ : جِئْتُ لِأَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّكَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ ... ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ :

لَقَدْ أَسْلَمْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي ...

فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ ...

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(١) من توّه : من لحظته.

(٢) يحث الخُطا : يسرع في خطاه.

(إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ... فَاذْهَبْ إِلَىٰ قَوْمِكَ وَخَذِّلْ[1] عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ ؛ فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ) ...

فَقَالَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

وَسَتَرَىٰ مَا يَسُرُّكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

مَضَىٰ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ مِنْ تَوِّهِ إِلَىٰ بَنِي « قُرَيْظَةَ » ، وَكَانَ لَهُمْ - مِنْ قَبْلُ - صَاحِبًا وَنَدِيمًا[2] ... وَقَالَ لَهُمْ :

يَا بَنِي « قُرَيْظَةَ » ، لَقَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي لَكُمْ وَصِدْقِي فِي نُصْحِكُمْ .

فَقَالُوا : نَعَمْ ، فَمَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ ...

فَقَالَ : إِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَهُمْ فِي هَٰذِهِ الْحَرْبِ شَأْنٌ[3] غَيْرُ شَأْنِكُمْ .

فَقَالُوا : وَكَيْفَ ؟! .

فَقَالَ : أَنْتُمْ هَٰذَا الْبَلَدُ بَلَدُكُمْ ، وَفِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ ، وَلَيْسَ يُوْسِعُكُمْ[4] أَنْ تَهْجُرُوهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ ...

أَمَّا قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ ؛ فَبَلَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ فِي غَيْرِ هَٰذَا الْبَلَدِ ... وَقَدْ جَاءُوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ ، وَدَعَوْكُمْ لِنَقْضِ عَهْدِهِ وَمُنَاصَرَتِهِمْ عَلَيْهِ فَأَجَبْتُمُوهُمْ .

فَإِنْ أَصَابُوا نَجَاحًا فِي قِتَالِهِ اغْتَنَمُوهُ ، وَإِنْ أَخْفَقُوا[5] فِي قَهْرِهِ عَادُوا إِلَىٰ بِلَادِهِمْ آمِنِينَ ، وَتَرَكُوكُمْ لَهُ ؛ فَيَنْتَقِمُ مِنْكُمْ شَرَّ انْتِقَامٍ ...

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ لَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ إِذَا خَلَا بِكُمْ ...

---

(١) خَذِّلْ عنا : ضعضعْ همّة عدونا وأوهن قوته .
(٢) نديمًا : رفيقًا .
(٣) شأنٌ : حالٌ .
(٤) ليس يوسعكم : ليس بطاقتكم وقدرتكم .
(٥) أخفقوا : لم ينجحوا .

فَقَالُوا : صَدَقْتَ ، فَمَا الرَّأْيُ عِنْدَكَ ؟! .

فَقَالَ : الرَّأْيُ عِنْدِي أَلَّا تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ تَأْخُذُوا طَائِفَةً مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَتَجْعَلُوهُمْ رَهَائِنَ عِنْدَكُمْ ، وَبِذَلِكَ تَحْمِلُونَهُمْ عَلَىٰ قِتَالِ مُحَمَّدٍ مَعَكُمْ إِلَىٰ أَنْ تَنْتَصِرُوا عَلَيْهِ ، أَوْ يَفْنَىٰ آخِرُ رَجُلٍ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ ...

فَقَالُوا : أَشَرْتَ ... وَنَصَحْتَ ...

ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ وَأَتَىٰ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ قَائِدَ قُرَيْشٍ وَقَالَ لَهُ وَلِمَنْ مَعَهُ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، لَقَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي لَكُمْ ، وَعَدَاوَتِي لِمُحَمَّدٍ ...

وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَمْرٌ فَرَأَيْتُ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أُفْضِيَ بِهِ[1] إِلَيْكُمْ ؛ نُصْحًا لَكُمْ عَلَىٰ أَنْ تَكْتُمُوهُ ، وَلَا تُذِيعُوهُ عَنِّي ...

فَقَالُوا : لَكَ عَلَيْنَا ذَلِكَ ...

فَقَالَ : إِنَّ بَنِي « قُرَيْظَةَ » قَدْ نَدِمُوا عَلَىٰ مُخَاصَمَتِهِمْ لِمُحَمَّدٍ ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ يَقُولُونَ : إِنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَىٰ مَا فَعَلْنَا ... وَعَزَمْنَا أَنْ نَعُودَ إِلَىٰ مُعَاهَدَتِكَ وَمُسَالَمَتِكَ ...

فَهَلْ يُرْضِيكَ أَنْ نَأْخُذَ لَكَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِجَالًا كَثِيرًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ ، وَنُسْلِمَهُمْ إِلَيْكَ لِتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ...

ثُمَّ نَنْضَمَّ إِلَيْكَ فِي مُحَارَبَتِهِمْ حَتَّىٰ تَقْضِيَ عَلَيْهِمْ .

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَقُولُ : نَعَمْ ...

فَإِنْ بَعَثَتِ الْيَهُودُ تَطْلُبُ مِنْكُمْ رَهَائِنَ مِنْ رِجَالِكُمْ فَلَا تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَحَدًا ...

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : نِعْمَ الْحَلِيفُ أَنْتَ ... وَجُزِيتَ خَيْرًا ...

(١) أُفْضِي بِهِ إِلَيْكُمْ : أطلعكم عَلَيْهِ .

ثُمَّ خَرَجَ نُعَيْمٌ مِنْ عِنْدِ أَبِي سُفْيَانَ وَمَضَىٰ حَتَّىٰ أَتَىٰ قَوْمَهُ غَطَفَانَ ، فَحَدَّثَهُمْ بِمِثْلِ مَا حَدَّثَ بِهِ أَبَا سُفْيَانَ ، وَحَذَّرَهُمْ مِمَّا حَذَّرَهُ مِنْهُ .

* * *

أَرَادَ أَبُو سُفْيَانَ أَنْ يَخْتَبِرَ بَنِي « قُرَيْظَةَ » فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ ابْنَهُ فَقَالَ لَهُمْ :

إِنَّ أَبِي يُقْرِئُكُمُ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكُمْ : إِنَّهُ قَدْ طَالَ حِصَارُنَا لِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ حَتَّىٰ مَلِلْنَا ...

وَ إِنَّنَا قَدْ عَزَمْنَا عَلَىٰ أَنْ نُقَاتِلَ مُحَمَّدًا وَنَفْرَغَ مِنْهُ ... وَقَدْ بَعَثَنِي أَبِي إِلَيْكُمْ لِيَدْعُوَكُمْ إِلَىٰ مُنَازَلَتِهِ غَدًا .

فَقَالُوا لَهُ : إِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ سَبْتٍ ، وَنَحْنُ لَا نَعْمَلُ فِيهِ شَيْئًا ، ثُمَّ إِنَّنَا لَا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُعْطُونَا سَبْعِينَ مِنْ أَشْرَافِكُمْ وَأَشْرَافِ غَطَفَانَ لِيَكُونُوا رَهَائِنَ عِنْدَنَا .

فَإِنَّنَا نَخْشَىٰ إِنِ اشْتَدَّ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَنْ تُسْرِعُوا إِلَىٰ بِلَادِكُمْ وَتَتْرُكُونَا لِمُحَمَّدٍ وَحْدَنَا ... وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ...

فَلَمَّا عَادَ ابْنُ أَبِي سُفْيَانَ إِلَىٰ قَوْمِهِ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا سَمِعَهُ مِنْ بَنِي « قُرَيْظَةَ » قَالُوا بِلِسَانٍ وَاحِدٍ : خَسِئَ أَبْنَاءُ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ ...

وَاللَّهِ لَوْ طَلَبُوا مِنَّا شَاةً رَهِينَةً مَا دَفَعْنَاهَا إِلَيْهِمْ ...

* * *

نَجَحَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ فِي تَمْزِيقِ صُفُوفِ الْأَحْزَابِ ، وَتَفْرِيقِ كَلِمَتِهِمْ ...

وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَىٰ قُرَيْشٍ وَأَحْلَافِهَا رِيحًا صَرْصَرًا عَاتِيَةً جَعَلَتْ تَقْتَلِعُ خِيَامَهُمْ ، وَتَكْفَأُ[1] قُدُورَهُمْ ، وَتُطْفِئُ نِيرَانَهُمْ ، وَتَصْفَعُ وُجُوهَهُمْ ، وَتَمْلَأُ عُيُونَهُمْ تُرَابًا ...

(١) تكفأ قدورهم : تقلب قدورهم .

فَلَمْ يَجِدُوا مَفَرًّا مِنَ الرَّحِيلِ ... فَرَحَلُوا تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ ...

وَلَمَّا أَصْبَحَ الْمُسْلِمُونَ ؛ وَوَجَدُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ قَدْ وَلَّوْا مُدْبِرِينَ جَعَلُوا يَهْتِفُونَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَصَرَ عَبْدَهُ ...

وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ...

وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ ...

* * *

ظَلَّ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَوْضِعَ ثِقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَوَلِيَ لَهُ الْأَعْمَالَ ، وَنَهَضَ لَهُ بِالْأَعْبَاءِ ، وَحَمَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ الرَّايَاتِ .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَقَفَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ يَسْتَعْرِضُ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَرَأَى رَجُلًا يَحْمِلُ رَايَةَ « غَطَفَانَ » ، فَقَالَ لِمَنْ مَعَهُ :

مَنْ هَذَا ؟! .

فَقَالُوا : نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ ...

فَقَالَ : بِئْسَ مَا صَنَعَ بِنَا يَوْمَ « الْخَنْدَقِ » ...

وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِمُحَمَّدٍ ...

وَهَا هُوَ ذَا يَحْمِلُ رَايَةَ قَوْمِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ...

وَيَمْضِي لِحَرْبِنَا تَحْتَ لِوَائِهِ (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار نُعَيْم بن مسعود انظر :
١ – السّيرة النّبوية لابن هشام : « انظر الفهارس » .
٢ – الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٣/ ٥٥٧.
٣ – أسد الغابة : ٥/٣٤٨ أو « الترجمة » ٥٢٧٤.
٤ – أنساب الأشراف : ٣٤٠، ٣٤٥.
٥ – الإصابة : ٣/٥٦٨ أو « الترجمة » ٨٧٧٩.
٦ – حياة الصّحابة : « انظر الفهارس في الرّابع » .

خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ

« رَحِمَ اللَّهُ خَبَّابًا فَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِبًا ، وَهَاجَرَ طَائِعًا ، وَعَاشَ مُجَاهِدًا »
[عَلِيُّ بن أَبِي طَالِبٍ]

مَضَتْ أُمُّ أَنْمَارٍ الْخُزَاعِيَّةُ إِلَىٰ سُوقِ النَّخَّاسِينَ[1] فِي مَكَّةَ .

فَقَدْ كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَبْتَاعَ لِنَفْسِهَا غُلَامًا تَنْتَفِعُ بِخِدْمَتِهِ ، وَتَسْتَثْمِرُ عَمَلَ يَدِهِ . وَطَفِقَتْ تَتَفَرَّسُ فِي وُجُوهِ[2] الْعَبِيدِ الْمَعْرُوضِينَ لِلْبَيْعِ ، فَوَقَعَ اخْتِيَارُهَا عَلَىٰ صَبِيٍّ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ ؛ رَأَتْ فِي صِحَّةِ جَسَدِهِ ، وَمَخَايِلِ النَّجَابَةِ[3] الْبَادِيَةِ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، مَا أَغْرَاهَا بِشِرَائِهِ ، فَدَفَعَتْ ثَمَنَهُ وَانْطَلَقَتْ بِهِ ...

وَفِيمَا هُمَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ الْتَفَتَتْ أُمُّ أَنْمَارٍ إِلَىٰ الصَّبِيِّ وَقَالَتْ :

مَا اسْمُكَ يَا غُلَامُ ؟ .

قَالَ : خَبَّابٌ .

فَقَالَتْ : وَمَا اسْمُ أَبِيكَ ؟ .

قَالَ : الأَرَتُّ .

فَقَالَتْ : وَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ ؟ .

قَالَ : مِنْ نَجْدٍ .

فَقَالَتْ : إِذَنْ أَنْتَ عَرَبِيٌّ !! .

قَالَ : نَعَمْ ، وَمِنْ بَنِي تَمِيمٍ .

---

(١) النَّخَّاسون : بائعو العبيد ، ومفردها نخّاس .
(٢) تتفرّس في وجوه العبيد : تتأمّل في وجوه العبيد .
(٣) مخايل النّجابة : علامات الذّكاء .

قَالَتْ : وَمَا الَّذِي أَوْصَلَكَ إِلَىٰ أَيْدِي النَّخَّاسِينَ فِي مَكَّةَ ؟!! .

قَالَ : أَغَارَتْ عَلَىٰ حَيِّنَا قَبِيلَةٌ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، فَاسْتَاقَتِ الْأَنْعَامَ وَسَبَتِ النِّسَاءَ ، وَأَخَذَتِ الذَّرَارِيَ ، وَكُنْتُ فِيمَنْ أُخِذَ مِنَ الْغِلْمَانِ ، ثُمَّ مَا زَالَتْ تَتَدَاوَلُنِي[١] الْأَيْدِي حَتَّىٰ جِيءَ بِي إِلَىٰ مَكَّةَ ، وَصِرْتُ فِي يَدِكِ .

* * *

دَفَعَتْ أُمُّ أَنْمَارٍ غُلَامَهَا إِلَىٰ قَيْنٍ[٢] مِنْ قُيُونِ مَكَّةَ لِيُعَلِّمَهُ صِنَاعَةَ السُّيُوفِ ، فَمَا أَسْرَعَ أَنْ حَذَقَ[٣] الْغُلَامُ الصَّنْعَةَ وَتَمَكَّنَ مِنْهَا أَحْسَنَ تَمَكُّنٍ .

وَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُ خَبَّابٍ وَصَلُبَ عُودُهُ[٤]؛ اسْتَأْجَرَتْ لَهُ أُمُّ أَنْمَارٍ دُكَّانًا ، وَاشْتَرَتْ لَهُ عُدَّةً ، وَجَعَلَتْ تَسْتَثْمِرُ مَهَارَتَهُ فِي صُنْعِ السُّيُوفِ .

* * *

لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ عَلَىٰ خَبَّابٍ حَتَّىٰ شُهِرَ فِي مَكَّةَ ، وَجَعَلَ النَّاسُ يُقْبِلُونَ عَلَىٰ شِرَاءِ سُيُوفِهِ ، لِمَا كَانَ يَتَحَلَّىٰ بِهِ مِنَ الْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ ، وَإِتْقَانِ الصَّنْعَةِ .

* * *

وَقَدْ كَانَ خَبَّابٌ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ فَتَائِهِ[٥] يَتَحَلَّىٰ بِعَقْلِ الْكَمَلَةِ[٦]، وَحِكْمَةِ الشُّيُوخِ ...

وَكَانَ إِذَا مَا فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ وَخَلَا إِلَىٰ نَفْسِهِ كَثِيرًا مَا يُفَكِّرُ فِي هَٰذَا الْمُجْتَمَعِ الْجَاهِلِيِّ الَّذِي غَرِقَ فِي الْفَسَادِ مِنْ أَخْمَصِ[٧] قَدَمَيْهِ إِلَىٰ قِمَّةِ رَأْسِهِ .

وَيَهُولُهُ مَا رَانَ[٨] عَلَىٰ حَيَاةِ الْعَرَبِ مِنْ جَهَالَةٍ جَهْلَاءَ ، وَضَلَالَةٍ عَمْيَاءَ ، كَانَ هُوَ نَفْسُهُ أَحَدَ ضَحَايَاهَا ...

---

(١) تتداولني الأيدي : أنتقل من يد إلى أخرىٰ .
(٢) القين : الحدّاد ، وجمعه قيون .
(٣) حذق الصنعة : أتقن الصنعة .
(٤) اشتد ساعده وصلب عوده : كنايتان عن قوّته .
(٥) فتائه : شبابه وحداثة سِنّه .
(٦) الكَمَلَة : الكاملون .
(٧) أخمص قدميه : أسفل قدميه .
(٨) ران : غطّىٰ .

وَكَانَ يَقُولُ : لَا بُدَّ لِهَـٰذَا اللَّيْلِ مِنْ آخِرٍ ...

وَكَانَ يَتَمَنَّىٰ أَنْ تَمْتَدَّ بِهِ الْحَيَاةُ لِيَرَىٰ بِعَيْنَيْهِ مَصْرَعَ الظَّلَامِ وَمَوْلِدَ النُّورِ .

* * *

لَمْ يَطُلِ انْتِظَارُ خَبَّابٍ كَثِيرًا ، فَقَدْ تَرَامَىٰ[1] إِلَيْهِ أَنَّ خَيْطًا مِنْ نُورٍ قَدْ تَأَلَّقَ مِنْ فَمِ فَتًى مِنْ فِتْيَانِ بَنِي « هَاشِمٍ » يُدْعَىٰ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ .

فَمَضَىٰ إِلَيْهِ ، وَسَمِعَ مِنْهُ ؛ فَبَهَرَهُ لَأْلَاؤُهُ ، وَغَمَرَهُ سَنَاهُ .

فَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهِ ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

فَكَانَ سَادِسَ سِتَّةٍ أَسْلَمُوا عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ حَتَّىٰ قِيلَ : مَضَىٰ عَلَىٰ خَبَّابٍ وَقْتٌ وَهُوَ سُدُسُ الْإِسْلَامِ ...

* * *

لَمْ يَكْتُمْ خَبَّابٌ إِسْلَامَهُ عَنْ أَحَدٍ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ بَلَغَ خَبَرُهُ أُمَّ أَنْمَارٍ ، فَاسْتَشَاطَتْ[2] غَضَبًا وَتَمَيَّزَتْ غَيْظًا ، وَصَحِبَتْ أَخَاهَا « سِبَاعَ بْنَ عَبْدِ الْعُزَّىٰ » ، وَلَحِقَ بِهِمَا جَمَاعَةٌ مِنْ فِتْيَانِ « خُزَاعَةَ » ، وَمَضَوْا جَمِيعًا إِلَىٰ خَبَّابٍ ، فَوَجَدُوهُ مُنْهَمِكًا فِي عَمَلِهِ ... فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ « سِبَاعٌ » وَقَالَ : لَقَدْ بَلَغَنَا عَنْكَ نَبَأٌ لَمْ نُصَدِّقْهُ .

فَقَالَ خَبَّابٌ : وَمَا هُوَ ؟ .

فَقَالَ « سِبَاعٌ » : يُشَاعُ أَنَّكَ صَبَأْتَ[3] وَتَبِعْتَ غُلَامَ بَنِي هَاشِمٍ .

فَقَالَ خَبَّابٌ ـ فِي هُدُوءٍ ـ : مَا صَبَأْتُ ، وَإِنَّمَا آمَنْتُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ... وَنَبَذْتُ أَصْنَامَكُمْ[4] ، وَشَهِدْتُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ...

فَمَا إِنْ لَامَسَتْ كَلِمَاتُ خَبَّابٍ مَسَامِعَ « سِبَاعٍ » وَمَنْ مَعَهُ حَتَّىٰ انْهَالُوا

---

(١) تراءى إليه : بلغه ووصل إليه.
(٢) استشاطت غضبًا : التهبتْ غضبًا.
(٣) صبأتَ : كفرت وخرجت عن دينك.
(٤) نبذتُ أصنامكم : طرحتُ أصنامكم.

عَلَيْهِ ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ ، وَيَرْكُلُونَهُ بِأَقْدَامِهِمْ ، وَيَقْذِفُونَهُ بِمَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَطَارِقِ وَقِطَعِ الْحَدِيدِ ...

حَتَّىٰ هَوَىٰ إِلَى الْأَرْضِ فَاقِدَ الْوَعْيِ وَالدِّمَاءُ تَنْزِفُ مِنْهُ ...

* * *

سَرَىٰ فِي مَكَّةَ خَبَرُ مَا جَرَىٰ بَيْنَ خَبَّابٍ وَسَيِّدَتِهِ سَرَيَانَ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ(١)!!! ...

وَذَهِلَ النَّاسُ مِنْ جَرَاءَةِ خَبَّابٍ ؛ إِذْ لَمْ يَكُونُوا قَدْ سَمِعُوا - مِنْ قَبْلُ - أَنَّ أَحَدًا اتَّبَعَ مُحَمَّدًا وَوَقَفَ بَيْنَ النَّاسِ يُعْلِنُ إِسْلَامَهُ بِمِثْلِ هَٰذِهِ الصَّرَاحَةِ وَالتَّحَدِّي .

وَاهْتَزَّ شُيُوخُ قُرَيْشٍ لِأَمْرِ خَبَّابٍ ... فَمَا كَانَ يَخْطُرُ عَلَىٰ بَالِهِمْ أَنَّ قَيْنًا كَقَيْنِ أُمِّ أَنْمَارٍ لَا عَشِيرَةَ لَهُ تَحْمِيهِ ، وَلَا عَصَبِيَّةَ عِنْدَهُ تَمْنَعُهُ وَتُؤْوِيهِ ، تَصِلُ بِهِ الْجُرْأَةُ إِلَىٰ أَنْ يَخْرُجَ عَلَىٰ سُلْطَانِهَا ، وَيَجْهَرَ بِسَبِّ آلِهَتِهَا ، وَيُسَفِّهَ دِينَ آبَائِهَا وَأَجْدَادِهَا ... وَأَيْقَنَتْ أَنَّ هَٰذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ ...

وَلَمْ تَكُنْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ خَطَإٍ فِيمَا تَوَقَّعَتْهُ ، فَلَقَدْ أَغْرَتْ جُرْأَةُ خَبَّابٍ كَثِيرًا مِنْ أَصْحَابِهِ بِأَنْ يُعْلِنُوا إِسْلَامَهُمْ ، فَطَفِقُوا يَصْدَعُونَ(٢) بِكَلِمَةِ الْحَقِّ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ ...

* * *

اجْتَمَعَ سَادَةُ قُرَيْشٍ عِنْدَ الْكَعْبَةِ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ ، وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ ، وَأَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ ، وَتَذَاكَرُوا فِي شَأْنِ مُحَمَّدٍ ؛ فَرَأَوْا أَنَّ أَمْرَهُ أَخَذَ يَزْدَادُ وَيَتَفَاقَمُ(٣) يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَسَاعَةً إِثْرَ سَاعَةٍ ...

فَعَزَمُوا عَلَىٰ أَنْ يَحْسِمُوا الدَّاءَ قَبْلَ اسْتِفْحَالِهِ(٤)، وَقَرَّرُوا أَنْ تَثِبَ كُلُّ قَبِيلَةٍ

(١) الْهَشِيم : النَّبَات الْيَابِس .
(٢) يصدعون : يجهرون ويعلنون .
(٣) يتفاقم : يتعاظم ويزداد .
(٤) يحسمون الدَّاءَ قَبْلَ استفحاله : يستأصلونه قبل اشتداده .

عَلَىٰ مَنْ فِيهَا مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَأَنْ تُنَكِّلَ[1] بِهِمْ حَتَّىٰ يَرْتَدُّوا عَنْ دِينِهِمْ أَوْ يَمُوتُوا ...

* * *

وَقَدْ وَقَعَ عَلَىٰ «سِبَاعِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ» وَقَوْمِهِ عِبْءُ تَعْذِيبِ خَبَّابٍ ...

فَكَانُوا إِذَا اشْتَدَّتِ الْهَاجِرَةُ[2]، وَغَدَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ تُلْهِبُ الْأَرْضَ إِلْهَابًا؛ أَخْرَجُوهُ إِلَىٰ بَطْحَاءِ مَكَّةَ، وَنَزَعُوا عَنْهُ ثِيَابَهُ، وَأَلْبَسُوهُ دُرُوعَ الْحَدِيدِ، وَمَنَعُوا عَنْهُ الْمَاءَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مِنْهُ الْجُهْدُ كُلَّ مَبْلَغٍ؛ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ وَقَالُوا :

مَا تَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ ؟ .

فَيَقُولُ : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، جَاءَنَا بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ، لِيُخْرِجَنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ ...

فَيُوسِعُونَهُ ضَرْبًا وَلَكْمًا، ثُمَّ يَقُولُونَ لَهُ :

وَمَا تَقُولُ فِي اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ ؟! .

فَيَقُولُ : صَنَمَانِ أَصَمَّانِ أَبْكَمَانِ لَا يَضُرَّانِ وَلَا يَنْفَعَانِ ...

فَيَأْتُونَ بِالْحِجَارَةِ الْمُحْمِيَّةِ، وَيُلْصِقُونَهَا بِظَهْرِهِ، وَيُبْقُونَهَا عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَسِيلَ دُهْنُ كَتِفَيْهِ ...

* * *

وَلَمْ تَكُنْ أُمُّ أَنْمَارٍ أَقَلَّ قَسْوَةً عَلَىٰ خَبَّابٍ مِنْ أَخِيهَا «سِبَاعٍ» فَقَدْ رَأَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَمُرُّ بِدُكَّانِهِ وَيُكَلِّمُهُ، فَجُنَّ جُنُونُهَا[3] لِمَا رَأَتْ .

وَأَخَذَتْ تَجِيءُ إِلَىٰ خَبَّابٍ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، فَتَأْخُذُ حَدِيدَةً مُحْمِيَةً مِنْ كِيرِهِ[4]، وَتَضَعُهَا عَلَىٰ رَأْسِهِ حَتَّىٰ يُدَخِّنَ رَأْسُهُ، وَيُغْمَىٰ عَلَيْهِ ...

---

(١) تُنَكِّل بهم : تذيقهم أشدَّ العذاب .
(٢) الهاجرة : شدَّة القيظ في منتصف النهار .
(٣) جُنَّ جنونُها : طار صوابُها، وثارت ثائرتُها .
(٤) الكير : منفاخ مُوقِد الحداد، ويراد بها الموقد نفسه .

وَهُوَ يَدْعُو عَلَيْهَا وَعَلَىٰ أَخِيهَا « سِبَاعٍ » .

* * *

وَلَمَّا أَذِنَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِأَصْحَابِهِ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ تَهَيَّأَ خَبَّابٌ لِلْخُرُوجِ .

غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يُبَارِحْ(١) مَكَّةَ إِلَّا بَعْدَ أَنِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ عَلَىٰ أُمِّ أَنْمَارٍ ...

فَقَدْ أُصِيبَتْ بِصُدَاعٍ لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِ آلَامِهِ قَطُّ ؛ فَكَانَتْ تَعْوِي مِنْ شِدَّةِ الْوَجَعِ كَمَا تَعْوِي الْكِلَابُ ...

وَقَامَ أَبْنَاؤُهَا يَسْتَطِبُّونَ(٢) لَهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فَقِيلَ لَهُمْ : إِنَّهُ لَا شِفَاءَ لَهَا مِنْ أَوْجَاعِهَا إِلَّا إِذَا دَأَبَتْ عَلَىٰ كَيِّ رَأْسِهَا بِالنَّارِ ...

فَجَعَلَتْ تَكْوِي رَأْسَهَا بِالْحَدِيدِ الْمَحْمِيِّ ؛ فَتَلْقَىٰ مِنْ أَوْجَاعِ الْكَيِّ مَا يُنْسِيهَا آلَامَ الصُّدَاعِ ...

* * *

ذَاقَ خَبَّابٌ فِي كَنَفِ(٣) الْأَنْصَارِ فِي الْمَدِينَةِ طَعْمَ الرَّاحَةِ الَّتِي حُرِمَ مِنْهَا دَهْرًا طَوِيلًا ، وَقَرَّتْ عَيْنُهُ بِقُرْبِ نَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يُكَدِّرَهُ مُكَدِّرٌ أَوْ يُعَكِّرَ صَفْوَهُ مُعَكِّرٌ ...

وَشَهِدَ مَعَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ « بَدْرًا » ، وَقَاتَلَ تَحْتَ رَايَتِهِ ...

وَخَرَجَ مَعَهُ إِلَىٰ « أُحُدٍ » ، فَأَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ بِرُؤْيَةِ « سِبَاعِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ » أَخِي أُمِّ أَنْمَارٍ وَهُوَ يَلْقَىٰ مَصْرَعَهُ عَلَىٰ يَدِ أَسَدِ اللَّهِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ...

---

(١) يبارح : يغادر .
(٢) يستطبون لها : يبحثون لها عن الأطباء.
(٣) في كَنَف الأنصار : في رعايتهم وضيافتهم .

وَامْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ حَتَّىٰ أَدْرَكَ خُلَفَاءَ رَسُولِ اللَّهِ الرَّاشِدِينَ الْأَرْبَعَةَ ، وَعَاشَ فِي رِعَايَتِهِمْ جَلِيلَ الْقَدْرِ نَبِيهَ الذِّكْرِ ...

* * *

دَخَلَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي خِلَافَتِهِ ، فَأَعْلَىٰ عُمَرُ مَجْلِسَهُ ، وَبَالَغَ فِي تَقْرِيبِهِ وَقَالَ لَهُ : مَا أَحَدٌ أَحَقُّ مِنْكَ بِهَٰذَا الْمَجْلِسِ غَيْرُ بِلَالٍ[1].

ثُمَّ سَأَلَهُ عَنْ أَشَدِّ مَا لَقِيَ مِنْ أَذَىٰ الْمُشْرِكِينَ ، فَاسْتَحْيَا أَنْ يُجِيبَهُ ...

فَلَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِ أَزَاحَ رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ ، فَجَفِلَ[2] عُمَرُ مِمَّا رَأَىٰ ، وَقَالَ : كَيْفَ صَارَ ذَٰلِكَ ؟! .

فَقَالَ خَبَّابٌ : أَوْقَدَ الْمُشْرِكُونَ لِي حَطَبًا حَتَّىٰ أَصْبَحَ جَمْرًا ...

ثُمَّ نَزَعُوا عَنِّي ثِيَابِي ، وَجَعَلُوا يَجُرُّونَنِي عَلَيْهِ ، حَتَّىٰ سَقَطَ لَحْمِي عَنْ عِظَامِ ظَهْرِي ، وَلَمْ يُطْفِئِ النَّارَ إِلَّا الْمَاءُ الَّذِي نَزَّ[3] مِنْ جَسَدِي ...

* * *

اغْتَنَىٰ خَبَّابٌ فِي الشَّطْرِ الْأَخِيرِ مِنْ حَيَاتِهِ بَعْدَ فَقْرٍ ، وَمَلَكَ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْلُمُ بِهِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ...

غَيْرَ أَنَّهُ تَصَرَّفَ فِي مَالِهِ عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يَخْطُرُ بِبَالِ أَحَدٍ ...

فَقَدْ وَضَعَ دَرَاهِمَهُ وَدَنَانِيرَهُ فِي مَوْضِعٍ مِنْ بَيْتِهِ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْحَاجَاتِ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ .

وَلَمْ يَشْدُدْ عَلَيْهِ رِبَاطًا[4] ، وَلَمْ يُحْكِمْ عَلَيْهِ قُفْلًا ، فَكَانُوا يَأْتُونَ دَارَهُ وَيَأْخُذُونَ مِنْهُ مَا يَشَاؤُونَ دُونَ سُؤَالٍ أَوِ اسْتِئْذَانٍ ...

---

(١) بِلَال بن رباح : انظره ص ٣٠٣.

(٢) جفِل مِمَّا رأىٰ : نَفَرَ مِمَّا رأىٰ .

(٣) نَزَّ : تَحلَّب وتقاطَر .

(٤) لم يَشْدُدْ عَلَيْهِ رباطًا : لم يُخَبِّئه .

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ يَخْشَىٰ أَنْ يُحَاسَبَ عَلَىٰ ذَلِكَ الْمَالِ، وَأَنْ يُعَذَّبَ بِسَبَبِهِ.

* * *

حَدَّثَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ قَالُوا:

دَخَلْنَا عَلَىٰ خَبَّابٍ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ فَقَالَ:

إِنَّ فِي هَٰذَا الْمَكَانِ ثَمَانِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَاللَّهِ مَا شَدَدْتُ عَلَيْهَا رِبَاطًا قَطُّ، وَلَا مَنَعْتُ مِنْهَا سَائِلًا قَطُّ، ثُمَّ بَكَىٰ...

فَقَالُوا لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟!.

فَقَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ أَصْحَابِي مَضَوْا وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ أُجُورِهِمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا شَيْئًا، وَأَنَّنِي بَقِيتُ فَنِلْتُ مِنْ هَٰذَا الْمَالِ مَا أَخَافُ أَنْ يَكُونَ ثَوَابًا لِتِلْكَ الْأَعْمَالِ...

* * *

وَلَمَّا لَحِقَ خَبَّابٌ بِجِوَارِ رَبِّهِ وَقَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَىٰ قَبْرِهِ وَقَالَ:

رَحِمَ اللَّهُ خَبَّابًا، فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِبًا، وَهَاجَرَ طَائِعًا، وَعَاشَ مُجَاهِدًا...

وَلَنْ يُضَيِّعَ اللَّهُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (*).

(*) للاستزادة من أخبار خبّاب بن الأرتّ انظر:

١ – الإصابة: ١/٤١٦ أو «الترجمة» ٢٢١٠.
٢ – أسد الغابة: ٢/٩٨ - ١٠٠.
٣ – الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ١/٤٢٣.
٤ – تهذيب التهذيب: ٣/١٣٣.
٥ – حلية الأولياء: ١/١٤٣.
٦ – صفة الصفوة: ١/١٦٨.
٧ – الجمع بين رجال الصحيحين: ١٢٤.
٨ – المعارف لابن قتيبة: ٣١٦.
٩ – حياة الصحابة: «انظر الفهارس في الجزء الرابع».
١٠ – جامع الأصول: الجزء العاشر باب فضائل الصحابة.

الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ الحَارِثِيُّ

« مَا صَدَقَنِي أَحَدٌ مُنْذُ اسْتُخْلِفْتُ كَمَا صَدَقَنِي الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ »
[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

هَٰذِهِ مَدِينَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا تَزَالُ تُكَفْكِفُ أَحْزَانَهَا[1] عَلَىٰ فَقْدِ الصِّدِّيقِ ...

وَهَا هِيَ ذِي وُفُودُ الْأَمْصَارِ تَقْدَمُ كُلَّ يَوْمٍ عَلَىٰ « يَثْرِبَ » مُبَايِعَةً خَلِيفَتَهُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ[2] ...

وَفِي ذَاتِ صَبَاحٍ قَدِمَ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَفْدُ « الْبَحْرَيْنِ » مَعَ طَائِفَةٍ أُخْرَىٰ مِنَ الْوُفُودِ .

وَكَانَ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَىٰ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَ الْوَافِدِينَ عَلَيْهِ ؛ لَعَلَّهُ يَجِدُ فِيمَا يَقُولُونَهُ مَوْعِظَةً بَالِغَةً ، أَوْ فِكْرَةً نَافِعَةً ، أَوْ نَصِيحَةً لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ .

فَنَدَبَ عَدَدًا مِنَ الْحَاضِرِينَ لِلْكَلَامِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا ذَا بَالٍ .

فَالْتَفَتَ إِلَىٰ رَجُلٍ تَوَسَّمَ[3] فِيهِ الْخَيْرَ ، وَأَوْمَأَ إِلَيْهِ وَقَالَ : هَاتِ مَا عِنْدَكَ .
فَحَمِدَ الرَّجُلُ اللَّهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

إِنَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا وُلِّيتَ أَمْرَ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا ابْتِلَاءً مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ابْتَلَاكَ بِهِ ... فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا وُلِّيتَ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ ضَلَّتْ شَاةٌ بِشَاطِئِ الْفُرَاتِ لَسُئِلْتَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

---

(١) تُكَفْكِفُ أحزانها : تهدئ أحزانها وتمنعها من الاسترسال .
(٢) في الْمَنْشَط والْمَكْرَه : في الْعُسْرِ والْيُسْر .
(٣) توسَّم فيه الخير : توقَّع فيه الخير .

فَأَجْهَشَ[1] عُمَرُ بِالْبُكَاءِ وَقَالَ :

مَا صَدَقَنِي أَحَدٌ مُنْذُ اسْتُخْلِفْتُ كَمَا صَدَقْتَنِي ، فَمَنْ أَنْتَ ؟! .

فَقَالَ : الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ الْحَارِثِيُّ .

فَقَالَ عُمَرُ : أَخُو « الْمُهَاجِرِ بْنِ زِيَادٍ » ؟ .

فَقَالَ الرَّبِيعُ : نَعَمْ .

فَلَمَّا انْفَضَّ الْمَجْلِسُ دَعَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَبَا مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيَّ وَقَالَ :

تَحَرَّ[2] أَمْرَ الرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ ، فَإِنْ يَكُ صَادِقًا فَإِنَّ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَعَوْنًا لَنَا عَلَىٰ هَٰذَا الْأَمْرِ ... وَاسْتَعْمِلْهُ وَاكْتُبْ لِي بِخَبَرِهِ .

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ ذَلِكَ الْيَوْمِ غَيْرُ قَلِيلٍ حَتَّىٰ أَعَدَّ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ جَيْشًا لِفَتْحِ « مَنَاذِرَ » مِنْ أَرْضِ « الْأَهْوَازِ » بِنَاءً عَلَىٰ أَمْرِ الْخَلِيفَةِ ، وَجَعَلَ فِي الْجَيْشِ الرَّبِيعَ بْنَ زِيَادٍ وَأَخَاهُ « الْمُهَاجِرَ » .

* * *

حَاصَرَ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ « مَنَاذِرَ » وَخَاضَ مَعَ أَهْلِهَا مَعَارِكَ طَاحِنَةً قَلَّمَا شَهِدَتْ لَهَا الْحُرُوبُ نَظِيرًا .

فَقَدْ أَبْدَىٰ الْمُشْرِكُونَ مِنْ شِدَّةِ الْبَأْسِ وَقُوَّةِ الشَّكِيمَةِ[3] مَا لَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ بَالٍ ، وَكَثُرَ الْقَتْلُ فِي الْمُسْلِمِينَ كَثْرَةً فَاقَتْ كُلَّ تَقْدِيرٍ .

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ يُقَاتِلُونَ وَهُمْ صَائِمُونَ رَمَضَانَ .

فَلَمَّا رَأَىٰ « الْمُهَاجِرُ » أَخُو الرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ أَنَّ الْقَتْلَ قَدْ كَثُرَ فِي صُفُوفِ

---

(١) أجهش بالبكاء : بكىٰ بصوت عالٍ .
(٢) تحرّ أمر الربيع : تعرّف علىٰ أحواله .
(٣) قوة الشكيمة : شِدَّة الصَّبر وقوّة الجَلَد .

الْمُسْلِمِينَ عَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يَشْرِيَ[1] نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ، فَتَحَنَّطَ[2] وَتَكَفَّنَ وَأَوْصَىٰ أَخَاهُ ...

فَمَضَىٰ الرَّبِيعُ إِلَىٰ أَبِي مُوسَىٰ وَقَالَ : إِنَّ « الْمُهَاجِرَ » قَدْ أَزْمَعَ أَنْ يَشْرِيَ نَفْسَهُ وَهُوَ صَائِمٌ ، وَالْمُسْلِمُونَ قَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ وَطْأَةِ الْحَرْبِ ، وَشِدَّةِ الصَّوْمِ مَا أَوْهَنَ[3] عَزَائِمَهُمْ ، وَهُمْ يَأْبَوْنَ الْإِفْطَارَ فَافْعَلْ مَا تَرَىٰ .

فَوَقَفَ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ ، وَنَادَىٰ فِي الْجَيْشِ :

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، عَزَمْتُ[4] عَلَىٰ كُلِّ صَائِمٍ أَنْ يُفْطِرَ ؛ أَوْ يَكُفَّ عَنِ الْقِتَالِ ... وَشَرِبَ مِنْ إِبْرِيقٍ كَانَ مَعَهُ لِيَشْرَبَ النَّاسُ بِشُرْبِهِ .

فَلَمَّا سَمِعَ « الْمُهَاجِرُ » مَقَالَتَهُ جَرَعَ جُرْعَةً مِنَ الْمَاءِ وَقَالَ :

وَاللَّهِ مَا شَرِبْتُهَا مِنْ عَطَشٍ وَلَكِنَّنِي أَبْرَرْتُ عَزْمَةَ أَمِيرِي[5]...

ثُمَّ امْتَشَقَ حُسَامَهُ وَطَفِقَ يَشُقُّ بِهِ الصُّفُوفَ ، وَيُجَنْدِلُ[6] الرِّجَالَ غَيْرَ وَجِلٍ وَلَا هَيَّابٍ ... فَلَمَّا أَوْغَلَ فِي جَيْشِ الْأَعْدَاءِ أَطْبَقُوا عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَتَعَاوَرَتْهُ[7] سُيُوفُهُمْ مِنْ أَمَامِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ حَتَّىٰ خَرَّ صَرِيعًا ...

ثُمَّ إِنَّهُمُ احْتَزُّوا رَأْسَهُ وَنَصَبُوهُ عَلَىٰ شُرْفَةٍ مُطِلَّةٍ عَلَىٰ سَاحَةِ الْقِتَالِ .

فَنَظَرَ إِلَيْهِ الرَّبِيعُ ، وَقَالَ : طُوبَىٰ[8] لَكَ ، وَحُسْنُ مَآبٍ ...

وَاللَّهِ لَأَنْتَقِمَنَّ لَكَ وَلِقَتْلَىٰ الْمُسْلِمِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَلَمَّا رَأَىٰ أَبُو مُوسَىٰ مَا نَزَلَ بِالرَّبِيعِ مِنَ الْجَزَعِ عَلَىٰ أَخِيهِ ، وَأَدْرَكَ مَا ثَارَ

---

(١) يشري نفسه : يبيع نفسه .
(٢) تحنّط : وضع علىٰ نفسه الحنوط ، وهو نوع من الطّيب يذر علىٰ جسد الميت .
(٣) أوهن : أضعف .
(٤) عزمت : أقسمت .
(٥) أبررْتُ عزْمة أميري : أمضيت قسَم أميري ونفّذته .
(٦) يجندل : يصرع .
(٧) تعاورته سيوفهم : تداولته سيوفهم .
(٨) طوبَىٰ لك : السّعادة والغبطة والعيش الطّيب لك .

مِنَ الْحَفِيظَةِ فِي صَدْرِهِ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللَّهِ ، تَخَلَّىٰ لَهُ عَنْ قِيَادَةِ الْجَيْشِ ، وَمَضَىٰ إِلَىٰ « السُّوسِ » لِفَتْحِهَا .

* * *

هَبَّ الرَّبِيعُ وَجُنْدُهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ هُبُوبَ الْإِعْصَارِ[1]، وَانْصَبُّوا عَلَىٰ مَعَاقِلِهِمُ انْصِبَابَ الصُّخُورِ إِذَا حَطَّهَا السَّيْلُ مِنْ عَلٍ ؛ فَمَزَّقُوا صُفُوفَهُمْ وَأَوْهَنُوا بَأْسَهُمْ[2]، فَفَتَحَ اللَّهُ « مَنَاذِرَ » لِلرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ عَنْوَةً ...

فَقَتَلَ الْمُقَاتِلَةَ ، وَسَبَىٰ الذُّرِّيَّةَ ، وَغَنِمَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَغْنَمَ .

* * *

لَمَعَ نَجْمُ الرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ بَعْدَ مَعْرَكَةِ « مَنَاذِرَ » وَذَاعَ اسْمُهُ عَلَىٰ كُلِّ لِسَانٍ . وَأَصْبَحَ أَحَدَ الْقَادَةِ الْمَرْمُوقِينَ[3] الَّذِينَ يُرَجَّوْنَ لِجَلَائِلِ الْأَعْمَالِ ...

فَلَمَّا عَزَمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ فَتْحِ « سِجِسْتَانَ » عَهِدُوا إِلَيْهِ بِقِيَادَةِ الْجَيْشِ ، وَأَمَّلُوا عَلَىٰ يَدَيْهِ النَّصْرَ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

مَضَىٰ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ بِجَيْشِهِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَىٰ « سِجِسْتَانَ » عَبْرَ مَفَازَةٍ طُولُهَا خَمْسَةٌ وَسَبْعُونَ فَرْسَخًا ، تَعْيَا[4] عَنْ قَطْعِهَا الْوُحُوشُ الْكَاسِرَةُ مِنْ بَنَاتِ الصَّحْرَاءِ .

فَكَانَ أَوَّلَ مَا عَرَضَ لَهُ « رُسْتَاقُ زَالِقَ »[5] عَلَىٰ حُدُودِ « سِجِسْتَانَ » وَهُوَ رُسْتَاقٌ عَامِرٌ بِالْقُصُورِ الْفَخْمَةِ ، مَحُوطٌ بِالْحُصُونِ الشَّامِخَةِ ، وَافِرُ الْخَيْرَاتِ كَثِيرُ الثِّمَارِ .

* * *

(١) الإعصار : ريح شديدة تثير التراب وتقتلع الأشجار .
(٢) أوهنوا بأسهم : أضعفوا قوتهم وضعضعوها .
(٣) المرموقين : الذين يرمقهم الناس بعيونهم إعجابًا بهم .
(٤) تعيا : تعجز .
(٥) رُستاق زالق : مدينة كبيرة حصينة في « سجستان » .

بَثَّ الْقَائِدُ الأَرِيبُ[1] عُيُونَهُ فِي « رُسْتَاقِ زَالِقَ » قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ ... فَعَلِمَ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَحْتَفِلُونَ قَرِيبًا بِمِهْرَجَانٍ لَهُمْ ، فَتَرَبَّصَ[2] بِهِمْ حَتَّىٰ بَغَتَهُمْ[3] فِي لَيْلَةِ الْمِهْرَجَانِ عَلَىٰ حِينِ غِرَّةٍ[4] وَأَعْمَلَ فِي رِقَابِهِمُ السَّيْفَ وَأَخَذَهُمْ عَنْوَةً .

فَسَبَىٰ[5] مِنْهُمْ عِشْرِينَ أَلْفًا ، وَوَقَعَ « دُهْقَانُهُمْ »[6] فِي يَدِهِ أَسِيرًا ...

وَكَانَ بَيْنَ السَّبْيِ مَمْلُوكٌ « لِلدُّهْقَانِ » ، فَوَجَدُوهُ قَدْ جَمَعَ ثَلَاثَمِائَةِ أَلْفٍ لِيَحْمِلَهَا إِلَىٰ سَيِّدِهِ .

فَقَالَ لَهُ الرَّبِيعُ : مِنْ أَيْنَ هَٰذِهِ الأَمْوَالُ ؟! .

فَقَالَ : مِنْ إِحْدَىٰ قُرَىٰ مَوْلَايَ .

فَقَالَ لَهُ : وَهَلْ تُعْطِيهِ قَرْيَةٌ وَاحِدَةٌ مِثْلَ هَٰذَا الْمَالِ كُلَّ سَنَةٍ ؟! .

قَالَ : نَعَمْ .

فَقَالَ الرَّبِيعُ : وَكَيْفَ ؟!! .

قَالَ : بِفُؤُوسِنَا ، وَمَنَاجِلِنَا ، وَعَرَقِنَا .

* * *

وَلَمَّا وَضَعَتِ الْمَعْرَكَةُ أَوْزَارَهَا[7] تَقَدَّمَ « الدُّهْقَانُ » إِلَىٰ الرَّبِيعِ يَعْرِضُ عَلَيْهِ افْتِدَاءَ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ...

فَقَالَ لَهُ الرَّبِيعُ : أَفْدِيكَ إِذَا أَجْزَلْتَ لِلْمُسْلِمِينَ الْفِدْيَةَ ...

فَقَالَ : وَكَمْ تَبْغِي ؟ .

فَقَالَ الرَّبِيعُ : أَرْكُزُ[8] هَٰذَا الرُّمْحَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهِ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ حَتَّىٰ تَغْمُرَهُ غَمْرًا .

---

(١) الأريب : الذكي النبيه .
(٢) تربّص بهم : انتظرهم .
(٣) بغتهم : نزل عليهم بغتة .
(٤) على حين غِرّة : على غفلة وهم لا يشعرون .
(٥) سَبَىٰ عشرين ألفًا : أسرهم واسترقّهم .
(٦) الدّهقان : كلمة فارسية معناها رئيس الإقليم .
(٧) وضعت المعركة أوزارها : انتهت .
(٨) أركز هذا الرمح في الأرض : أثبته في الأرض .

فَقَالَ : رَضِيتُ ، وَاسْتَخْرَجَ مَا فِي كُنُوزِهِ مِنَ الْأَصْفَرِ وَالْأَبْيَضِ وَطَفِقَ يَصُبُّهَا عَلَى الرُّمْحِ حَتَّى غَطَّاهُ ...

* * *

تَوَغَّلَ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ بِجَيْشِهِ الْمُنْتَصِرِ فِي أَرْضِ « سِجِسْتَانَ » ، فَطَفِقَتْ تَتَسَاقَطُ الْحُصُونُ تَحْتَ سَنَابِكِ[1] خَيْلِهِ كَمَا تَتَسَاقَطُ أَوْرَاقُ الشَّجَرِ تَحْتَ عَصْفِ رِيَاحِ الْخَرِيفِ .

وَهَبَّ أَهْلُ الْمُدُنِ وَالْقُرَى يَسْتَقْبِلُونَهُ مُسْتَأْمِنِينَ[2] خَاضِعِينَ قَبْلَ أَنْ يُشْهِرَ فِي وُجُوهِهِمُ السَّيْفَ ؛ حَتَّى بَلَغَ مَدِينَةَ « زَرَنْجَ » عَاصِمَةَ « سِجِسْتَانَ » .

فَإِذَا بِالْعَدُوِّ قَدْ أَعَدَّ لِحَرْبِهِ الْعُدَّةَ ، وَكَتَّبَ لِلِقَائِهِ الْكَتَائِبَ[3]، وَاسْتَقْدَمَ لِمُوَاجَهَتِهِ النَّجَدَاتِ ، وَعَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ يَذُودَهُ[4] عَنِ الْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ ، وَأَنْ يُوقِفَ زَحْفَهُ عَلَى « سِجِسْتَانَ » مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ غَالِيًا .

ثُمَّ دَارَتْ بَيْنَ الرَّبِيعِ وَأَعْدَائِهِ رَحَى حَرْبٍ طَحُونٍ[5] لَمْ يَضِنَّ عَلَيْهَا أَيٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِمَا تَطَلَّبَتْهُ مِنَ الضَّحَايَا .

فَلَمَّا بَدَرَتْ أَوَّلُ بَادِرَةٍ مِنْ بَوَادِرِ النَّصْرِ لِلْمُسْلِمِينَ رَأَى « مَرْزُبَانُ »[6] الْقَوْمِ الْمَدْعُوُّ « بَرْوِيزَ » أَنْ يَسْعَى لِمُصَالَحَةِ الرَّبِيعِ ، وَهُوَ مَا تَزَالُ فِيهِ بَقِيَّةٌ مِنْ قُوَّةٍ ، لَعَلَّهُ يَحْظَى لِنَفْسِهِ وَلِقَوْمِهِ بِشُرُوطٍ أَفْضَلَ ...

فَبَعَثَ إِلَى الرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ رَسُولًا مِنْ عِنْدِهِ يَسْأَلُهُ أَنْ يَضْرِبَ لَهُ مَوْعِدًا لِلِقَائِهِ ؛ لِيُفَاوِضَهُ عَلَى الصُّلْحِ فَأَجَابَهُ إِلَى طَلَبِهِ .

* * *

(١) سنابك خيله : حوافر خيله .

(٢) مستأمنين : طالبين الأمان .

(٣) كتّب الكتائب : أعدّ قطع الجيش ونظمها ونسّقها .

(٤) يذوده : يدفعه .

(٥) حرب طحون : حرب شديدة تطحن المحاربين طحنًا .

(٦) مرزبان القوم : رئيس القوم ، وهي كلمة فارسية .

أَمَرَ الرَّبِيعُ رِجَالَهُ أَنْ يُعِدُّوا الْمَكَانَ لِاسْتِقْبَالِ « بَرْوِيزَ » ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُكَدِّسُوا حَوْلَ الْمَجْلِسِ أَكْوَامًا مِنْ جُثَثِ قَتْلَىٰ الْفُرْسِ ...

وَأَنْ يَطْرَحُوا عَلَىٰ جَانِبَيِ الطَّرِيقِ الَّذِي سَيَمُرُّ بِهِ « بَرْوِيزُ » ، جُثَثًا أُخْرَىٰ مَنْثُورَةً فِي غَيْرِ نِظَامٍ .

وَكَانَ الرَّبِيعُ طَوِيلَ الْقَامَةِ ، عَظِيمَ الْهَامَةِ ، شَدِيدَ السُّمْرَةِ ، ضَخْمَ الْجُثَّةِ يَبْعَثُ الرَّوْعَ فِي نَفْسِ مَنْ يَرَاهُ .

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ « بَرْوِيزُ » ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ جَزَعًا مِنْهُ ، وَانْخَلَعَ فُؤَادُهُ هَلَعًا مِنْ مَنْظَرِ الْقَتْلَىٰ فَلَمْ يَجْرُؤْ عَلَىٰ الدُّنُوِّ مِنْهُ ، وَخَافَ فَلَمْ يَتَقَدَّمْ لِمُصَافَحَتِهِ ...

وَكَلَّمَهُ بِلِسَانٍ مُتَلَجْلِجٍ مُلْتَاثٍ ، وَصَالَحَهُ عَلَىٰ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُ أَلْفَ وَصِيفٍ(١) وَعَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ وَصِيفٍ جَامٌ(٢) مِنَ الذَّهَبِ ؛ فَقَبِلَ الرَّبِيعُ وَصَالَحَ « بَرْوِيزَ » عَلَىٰ ذَٰلِكَ .

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي دَخَلَ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ الْمَدِينَةَ يَحُفُّ بِهِ هَٰذَا الْمَوْكِبُ مِنَ الْوُصَفَاءِ بَيْنَ تَهْلِيلِ الْمُسْلِمِينَ وَتَكْبِيرِهِمْ ...

فَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ .

* * *

ظَلَّ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ سَيْفًا مُصْلَتًا فِي يَدِ الْمُسْلِمِينَ يَصُولُونَ بِهِ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللَّهِ ؛ فَفَتَحَ لَهُمُ الْمُدُنَ ، وَوَلِيَ لَهُمُ الْوِلَايَاتِ حَتَّىٰ آلَ الْأَمْرُ إِلَىٰ بَنِي « أُمَيَّةَ » فَوَلَّاهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ « خُرَاسَانَ » ...

بَيْدَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ لِهَٰذِهِ الْوِلَايَةِ ...

وَقَدْ زَادَهُ انْقِبَاضًا مِنْهَا وَكُرْهًا لَهَا أَنَّ « زِيَادَ بْنَ أَبِيهِ » أَحَدَ كِبَارِ وُلَاةِ بَنِي « أُمَيَّةَ » بَعَثَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَقُولُ فِيهِ :

---

(١) الوصيف : الغلام.		(٢) جام : كأس.

« إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَسْتَبْقِيَ الْأَصْفَرَ وَالْأَبْيَضَ (١) مِنْ غَنَائِمِ الْحَرْبِ لِبَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَقْسِمَ مَا سِوَىٰ ذَٰلِكَ بَيْنَ الْمُجَاهِدِينَ » ... فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

« إِنِّي وَجَدْتُ كِتَابَ اللَّهِ (٢) عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُ بِغَيْرِ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ عَلَىٰ لِسَانِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

ثُمَّ نَادَىٰ فِي النَّاسِ : أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ غَنَائِمِكُمْ فَخُذُوهَا ...

ثُمَّ أَرْسَلَ الْخُمُسَ (٣) إِلَىٰ دَارِ الْخِلَافَةِ فِي « دِمَشْقَ » ...

* * *

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ الَّذِي تَلَا وُصُولَ هَٰذَا الْكِتَابِ ؛ خَرَجَ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فِي ثِيَابٍ بِيضٍ ، وَخَطَبَ النَّاسَ خُطْبَةَ الْجُمُعَةِ ، ثُمَّ قَالَ :

أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُ الْحَيَاةَ ، وَإِنِّي دَاعٍ بِدَعْوَةٍ ، فَأَمِّنُوا عَلَىٰ دُعَائِي .

ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِي خَيْرًا فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ ...

فَأَمَّنَ النَّاسُ عَلَىٰ دُعَائِهِ ...

فَلَمْ تَغِبْ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّىٰ لَحِقَ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ بِجِوَارِ رَبِّهِ (*) .

(١) الأصفر والأبيض : كناية عن الذهب والفضة.

(٢) كتاب الله : القرآن الكريم ... انظر سورة الأنفال : آية ٤١.

(٣) أي أرسل خُمُس غنائم الحرب لبيت مال المسلمين ، والأخماس الأربعة الباقية قسمها على المقاتلين.

(*) للاستزادة من أخبار الربيع بن زياد الحارثي انظر :

١ - أسد الغابة : ٢/ ٢٠٦.

٢ - تاريخ الطبري : ٤/١٨٣ - ١٨٥ و٥/٢٢٦، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩١.

٣ - الإصابة : ١/٥٠٤ أو « الترجمة » ٢٥٧٧.

٤ - الكامل في التاريخ : « انظر الفهارس ».

٥ - جمهرة الأنساب : ٣٩١.

٦ - تهذيب التهذيب : ٣/ ٢٤٤.

٧ - حياة الصحابة : ٣/١٦٨، ٢٦٨.

٨ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ١/ ٥١٦.

عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ

« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ
فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ »

كَانَ الْحُصَيْنُ بْنُ سَلَامٍ حَبْرًا[١] مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فِي « يَثْرِبَ » .

وَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ مِلَلِهِمْ وَنِحَلِهِمْ[٢] يُجِلُّونَهُ وَيُعَظِّمُونَهُ .

فَقَدْ كَانَ مَعْرُوفًا بَيْنَ النَّاسِ بِالتُّقَىٰ وَالصَّلَاحِ مَوْصُوفًا بِالِاسْتِقَامَةِ وَالصِّدْقِ .

* * *

وَكَانَ الْحُصَيْنُ يَحْيَا حَيَاةً هَادِئَةً وَادِعَةً ؛ وَلَكِنَّهَا كَانَتْ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ جَادَّةً نَافِعَةً ... فَقَدْ قَسَّمَ وَقْتَهُ أَقْسَامًا ثَلَاثَةً :

فَشَطْرٌ فِي الْكَنِيسِ[٣] لِلْوَعْظِ وَالْعِبَادَةِ ...

وَشَطْرٌ فِي بُسْتَانٍ لَهُ يَتَعَهَّدُ نَخْلَهُ بِالتَّشْذِيبِ وَالتَّأْبِيرِ[٤] ...

وَشَطْرٌ مَعَ التَّوْرَاةِ[٥] لِلتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ ...

* * *

وَكَانَ كُلَّمَا قَرَأَ التَّوْرَاةَ وَقَفَ طَوِيلًا عِنْدَ الْأَخْبَارِ الَّتِي تُبَشِّرُ بِظُهُورِ نَبِيٍّ فِي مَكَّةَ يُتَمِّمُ رِسَالَاتِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ وَيَخْتِمُهَا .

وَكَانَ يَسْتَقْصِي أَوْصَافَ هَٰذَا النَّبِيِّ الْمُرْتَقَبِ وَعَلَامَاتِهِ ، وَيَهْتَزُّ فَرَحًا لِأَنَّهُ سَيَهْجُرُ بَلَدَهُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِ وَسَيَتَّخِذُ مِنْ « يَثْرِبَ » مُهَاجَرًا لَهُ[٦] وَمُقَامًا .

---

(١) الْحَبْرُ : رئيسُ الْكَهَنَة عِنْدَ الْيهود ، والْحَبْرُ : الْعالم الْمُتَبَحِّرُ في الْعلم أَيْضًا .
(٢) نِحلهم : أديانهم .
(٣) الْكَنِيسِ : مَعْبَدُ الْيهود .
(٤) التَّأبيرُ : تلقيح النَّخل وإصلاحهُ .
(٥) التَّوْرَاة : الْكِتَاب الَّذي أنزل عَلَىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
(٦) مُهَاجَرًا له : بفتح الْجيم مكانًا لهجرته .

وَكَانَ كُلَّمَا قَرَأَ هَٰذِهِ الْأَخْبَارَ أَوْ مَرَّتْ بِخَاطِرِهِ يَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يَفْسَحَ لَهُ فِي عُمُرِهِ حَتَّىٰ يَشْهَدَ ظُهُورَ هَٰذَا النَّبِيِّ الْمُرْتَقَبِ، وَيَسْعَدَ بِلِقَائِهِ، وَيَكُونَ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ.

* * *

وَقَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ دُعَاءَ الْحُصَيْنِ بْنِ سَلَامٍ فَنَسَأَ لَهُ[1] فِي أَجَلِهِ حَتَّىٰ بُعِثَ نَبِيُّ الْهُدَىٰ وَالرَّحْمَةِ...

وَكُتِبَ لَهُ أَنْ يَحْظَىٰ بِلِقَائِهِ وَصُحْبَتِهِ، وَأَنْ يُؤْمِنَ بِالْحَقِّ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ...

فَلْنَتْرُكْ لِلْحُصَيْنِ الْكَلَامَ لِيَسُوقَ لَنَا قِصَّةَ إِسْلَامِهِ فَهُوَ لَهَا أَرْوَىٰ[2]، وَعَلَىٰ حُسْنِ عَرْضِهَا أَقْدَرُ... قَالَ الْحُصَيْنُ بْنُ سَلَامٍ:

لَمَّا سَمِعْتُ بِظُهُورِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخَذْتُ أَتَحَرَّىٰ عَنِ اسْمِهِ وَنَسَبِهِ وَصِفَاتِهِ وَزَمَانِهِ وَمَكَانِهِ، وَأُطَابِقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا هُوَ مَسْطُورٌ[3] عِنْدَنَا فِي الْكُتُبِ حَتَّىٰ اسْتَيْقَنْتُ مِنْ نُبُوَّتِهِ، وَتَثَبَّتُّ مِنْ صِدْقِ دَعْوَتِهِ، ثُمَّ كَتَمْتُ ذَٰلِكَ عَنِ الْيَهُودِ، وَعَقَلْتُ[4] لِسَانِي عَنِ التَّكَلُّمِ فِيهِ...

إِلَىٰ أَنْ كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي خَرَجَ فِيهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ مَكَّةَ قَاصِدًا الْمَدِينَةَ.

فَلَمَّا بَلَغَ «يَثْرِبَ» وَنَزَلَ «بِقُبَاءَ»[5] أَقْبَلَ رَجُلٌ عَلَيْنَا وَجَعَلَ يُنَادِي فِي النَّاسِ مُعْلِنًا قُدُومَهُ... وَكُنْتُ سَاعَتَئِذٍ فِي رَأْسِ نَخْلَةٍ لِي أَعْمَلُ فِيهَا، وَكَانَتْ عَمَّتِي خَالِدَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ جَالِسَةً تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَمَا إِنْ سَمِعْتُ الْخَبَرَ حَتَّىٰ هَتَفْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ... اللَّهُ أَكْبَرُ.

---

(١) نَسَأَ: أَخَّرَ.

(٢) أَرْوَىٰ: أَجْوَدُ رِوَايَةً.

(٣) مسطور: مكتوب.

(٤) عقلت لساني: ربطته ومنعته.

(٥) قباء: قرية عَلَىٰ بُعد ميلين من المدينة.

فَقَالَتْ لِي عَمَّتِي حِينَ سَمِعَتْ تَكْبِيرِي : خَيَّبَكَ اللَّهُ ...

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ سَمِعْتَ بِمُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ قَادِمًا مَا فَعَلْتَ شَيْئًا فَوْقَ ذَلِكَ ...

فَقُلْتُ لَهَا : أَيْ عَمَّةِ[1]، إِنَّهُ ـ وَاللَّهِ ـ أَخُو مُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ ، وَعَلَىٰ دِينِهِ ...

وَقَدْ بُعِثَ بِمَا بُعِثَ بِهِ ...

فَسَكَتَتْ وَقَالَتْ : أَهُوَ النَّبِيُّ الَّذِي كُنْتُمْ تُخْبِرُونَنَا أَنَّهُ يُبْعَثُ مُصَدِّقًا لِمَنْ قَبْلَهُ ، وَمُتَمِّمًا لِرِسَالَاتِ رَبِّهِ ؟! .

فَقُلْتُ : نَعَمْ ...

قَالَتْ : فَذَاكَ إِذَنْ ...

ثُمَّ مَضَيْتُ مِنْ تَوِّي[2] إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَرَأَيْتُ النَّاسَ يَزْدَحِمُونَ بِبَابِهِ ، فَزَاحَمْتُهُمْ حَتَّىٰ صِرْتُ قَرِيبًا مِنْهُ .

فَكَانَ أَوَّلَ مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ قَوْلُهُ : (أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ ...

وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ...

وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ... تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ ...) .

فَجَعَلْتُ أَتَفَرَّسُ فِيهِ ، وَأَتَمَلَّىٰ[3] مِنْهُ ؛ فَأَيْقَنْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ .

ثُمَّ دَنَوْتُ مِنْهُ ، وَشَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

فَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ : (مَا اسْمُكَ ؟) .

---

(١) أي عَمَّة : يا عَمَّة . (٢) من تَوِّي : فَوْرًا من غير إبطاءٍ . (٣) أتملَّى منه : أملأ عيني بِهِ .

فَقُلْتُ : الْحُصَيْنُ بْنُ سَلَامٍ .

فَقَالَ : (بَلْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ) .

فَقُلْتُ : نَعَمْ ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ ... وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ اسْمًا آخَرَ بَعْدَ الْيَوْمِ .

ثُمَّ انْصَرَفْتُ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ بَيْتِي وَدَعَوْتُ زَوْجَتِي وَأَوْلَادِي وَأَهْلِي إِلَىٰ الْإِسْلَامِ ؛ فَأَسْلَمُوا جَمِيعًا وَأَسْلَمَتْ مَعَهُمْ عَمَّتِي خَالِدَةُ ، وَكَانَتْ شَيْخَةً كَبِيرَةً ... ثُمَّ إِنِّي قُلْتُ لَهُمْ :

اكْتُمُوا إِسْلَامِي وَإِسْلَامَكُمْ عَنِ الْيَهُودِ حَتَّىٰ آذَنَ لَكُمْ !! .

فَقَالُوا : نَعَمْ .

ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقُلْتُ لَهُ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمُ بُهْتَانٍ وَبَاطِلٍ ...

وَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَدْعُوَ وُجُوهَهُمْ(١) إِلَيْكَ .

وَأَنْ تَسْتُرَنِي عَنْهُمْ فِي حُجْرَةٍ مِنْ حُجُرَاتِكَ ثُمَّ تَسْأَلَهُمْ عَنْ مَنْزِلَتِي عِنْدَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي ثُمَّ تَدْعُوَهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ .

فَإِنَّهُمْ إِنْ عَلِمُوا أَنَّنِي أَسْلَمْتُ عَابُونِي ، وَرَمَوْنِي بِكُلِّ نَاقِصَةٍ وَبَهَتُونِي(٢) ...

فَأَدْخَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ حُجُرَاتِهِ ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَيْهِ وَأَخَذَ يَحُضُّهُمْ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ ، وَيُحَبِّبُ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ ، وَيُذَكِّرُهُمْ بِمَا عَرَفُوهُ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ أَمْرِهِ ...

---

(١) وجوههم : رؤساؤهم وسادتهم .
(٢) البُهتان : افتراء الكذب .

فَجَعَلُوا يُجَادِلُونَهُ بِالْبَاطِلِ، وَيُمَارُونَهُ[1] فِي الْحَقِّ، وَأَنَا أَسْمَعُ، فَلَمَّا يَئِسَ مِنْ إِيمَانِهِمْ قَالَ لَهُمْ: (مَا مَنْزِلَةُ الْحُصَيْنِ بْنِ سَلَامٍ فِيكُمْ؟).

فَقَالُوا: سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا وَحَبْرُنَا وَعَالِمُنَا وَابْنُ حَبْرِنَا وَعَالِمِنَا.

فَقَالَ: (أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ أَفَتُسْلِمُونَ؟).

قَالُوا: حَاشَا لِلَّهِ، مَا كَانَ لِيُسْلِمَ... أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ أَنْ يُسْلِمَ.

فَخَرَجْتُ إِلَيْهِمْ وَقُلْتُ:

يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، اتَّقُوا اللَّهَ وَاقْبَلُوا مَا جَاءَكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ...

فَوَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَتَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَاةِ بِاسْمِهِ وَصِفَتِهِ...

وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأُومِنُ بِهِ، وَأُصَدِّقُهُ، وَأَعْرِفُهُ...

فَقَالُوا: كَذَبْتَ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَشَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَجَاهِلُنَا وَابْنُ جَاهِلِنَا، وَلَمْ يَتْرُكُوا عَيْبًا إِلَّا عَابُونِي بِهِ.

فَقُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمُ بُهْتَانٍ وَبَاطِلٍ، وَإِنَّهُمْ أَهْلُ غَدْرٍ وَفُجُورٍ؟.

* * *

أَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ عَلَى الْإِسْلَامِ إِقْبَالَ الظَّامِئِ الَّذِي شَاقَهُ الْمَوْرِدُ[2]...

وَأُولِعَ بِالْقُرْآنِ؛ فَكَانَ لِسَانُهُ لَا يَفْتَأُ رَطْبًا بِآيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ...

وَتَعَلَّقَ بِالنَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ حَتَّى غَدَا أَلْزَمَ لَهُ مِنْ ظِلِّهِ...

---

(١) يمارونه: ينازعونه.

(٢) شاقه المورد: لَذَّ له المورد وطاب.

وَنَذَرَ نَفْسَهُ لِلْعَمَلِ لِلْجَنَّةِ حَتَّىٰ بَشَّرَهُ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِشَارَةً ذَاعَتْ بَيْنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ وَشَاعَتْ ...

وَكَانَ لِهَٰذِهِ الْبِشَارَةِ قِصَّةٌ رَوَاهَا قَيْسُ بْنُ عَبَّادٍ وَغَيْرُهُ .

قَالَ الرَّاوِي :

كُنْتُ جَالِسًا فِي حَلْقَةٍ مِنْ حَلَقَاتِ الْعِلْمِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ .

وَكَانَ فِي الْحَلْقَةِ شَيْخٌ تَأْنَسُ بِهِ النَّفْسُ ، وَيَسْتَرْوِحُ بِهِ الْقَلْبُ .

فَجَعَلَ يُحَدِّثُ النَّاسَ حَدِيثًا حُلْوًا مُؤَثِّرًا ...

فَلَمَّا قَامَ قَالَ الْقَوْمُ :

مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ هَٰذَا .

فَقُلْتُ : مَنْ هَٰذَا ؟! .

فَقَالُوا : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : وَاللَّهِ لَأَتْبَعَنَّهُ ؛ فَتَبِعْتُهُ ... فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ كَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ دَخَلَ مَنْزِلَهُ ... فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ ؛ فَأَذِنَ لِي .

فَقَالَ : مَا حَاجَتُكَ يَا ابْنَ أَخِي ؟ .

فَقُلْتُ لَهُ : سَمِعْتُ الْقَوْمَ يَقُولُونَ عَنْكَ ـ لَمَّا خَرَجْتَ مِنَ الْمَسْجِدِ ـ :

مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ هَٰذَا .

فَمَضَيْتُ فِي إِثْرِكَ ، لِأَقِفَ عَلَىٰ خَبَرِكَ ، وَلِأَعْلَمَ كَيْفَ عَرَفَ النَّاسُ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ .

فَقَالَ : اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا بُنَيَّ .

فَقُلْتُ : نَعَمْ ... وَلَكِنْ لَا بُدَّ لِمَا قَالُوهُ مِنْ سَبَبٍ .

فَقَالَ : سَأُحَدِّثُكَ عَنْ سَبَبِهِ .

فَقُلْتُ : هَاتِ ... وَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا .

فَقَالَ : بَيْنَا[1] أَنَا نَائِمٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَتَانِي رَجُلٌ فَقَالَ لِي : قُمْ ، فَقُمْتُ ، فَأَخَذَ بِيَدِي ، فَإِذَا أَنَا بِطَرِيقٍ عَنْ شِمَالِي فَهَمَمْتُ أَنْ أَسْلُكَ فِيهَا ...

فَقَالَ لِي : دَعْهَا فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَكَ ...

فَنَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِطَرِيقٍ وَاضِحَةٍ عَنْ يَمِينِي فَقَالَ لِي :

اسْلُكْهَا ...

فَسَلَكْتُهَا حَتَّىٰ أَتَيْتُ رَوْضَةً غَنَّاءَ وَاسِعَةَ الْأَرْجَاءِ[2]، كَثِيرَةَ الْخُضْرَةِ رَائِعَةَ النُّضْرَةِ .

وَفِي وَسَطِهَا عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ أَصْلُهُ فِي الْأَرْضِ وَنِهَايَتُهُ فِي السَّمَاءِ .

وَفِي أَعْلَاهُ حَلْقَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ...

فَقَالَ لِي : ارْقَ عَلَيْهِ .

فَقُلْتُ : لَا أَسْتَطِيعُ[3].

فَجَاءَنِي وَصِيفٌ[4] فَرَفَعَنِي ، فَرَقِيتُ[5] حَتَّىٰ صِرْتُ فِي أَعْلَىٰ الْعَمُودِ ، وَأَخَذْتُ بِالْحَلْقَةِ بِيَدَيَّ كِلْتَيْهِمَا .

---

(١) بينا : عندما.
(٢) الأرجاء : الأنحاء.
(٣) لا أستطيع : لا أقدر.
(٤) الوصيف : الخادم.
(٥) رقيتُ : صَعِدْت .

وَبَقِيتُ مُتَعَلِّقًا بِهَا حَتَّىٰ أَصْبَحْتُ.

فَلَمَّا كَانَتِ الْغَدَاةُ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ رُؤْيَايَ فَقَالَ:

(أَمَّا الطَّرِيقُ الَّتِي رَأَيْتَهَا عَنْ شِمَالِكَ ؛ فَهِيَ طَرِيقُ أَصْحَابِ الشِّمَالِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ...

وَأَمَّا الطَّرِيقُ الَّتِي رَأَيْتَهَا عَنْ يَمِينِكَ ؛ فَهِيَ طَرِيقُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ...

وَأَمَّا الرَّوْضَةُ الَّتِي شَاقَتْكَ بِخُضْرَتِهَا وَنُضْرَتِهَا ؛ فَهِيَ الْإِسْلَامُ ...

وَأَمَّا الْعَمُودُ الَّذِي فِي وَسَطِهَا ؛ فَهُوَ عَمُودُ الدِّينِ ...

وَأَمَّا الْحَلْقَةُ ؛ فَهِيَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَىٰ ...

وَلَنْ تَزَالَ مُسْتَمْسِكًا بِهَا حَتَّىٰ تَمُوتَ) ... (٥).

---

(٥) للاستزادة من أخبار عبد الله بن سلام انظر:
١ - الإصابة: ٣٢٠/٢ أو «الترجمة» ٤٧٢٥.
٢ - تاريخ الإسلام للذهبي: ٢٣٠/٢ - ٢٣١.
٣ - الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ٣٨٢/٢.
٤ - الجرح والتعديل: ج٢ ق٢: ٦٢/٢ - ٦٣.
٥ - تجريد أسماء الصحابة: ٣٣٨/١ - ٣٣٩.
٦ - تاريخ دمشق لابن عساكر: ٤٤٣/٧ - ٤٤٨.
٧ - حياة الصحابة: «انظر الفهارس في الرابع».
٨ - السيرة النبوية لابن هشام: «انظر الفهارس».
٩ - شذرات الذهب: ٥٣/١.
١٠- أسد الغابة: ١٧٦/٣ - ١٧٧.
١١- صفة الصفوة: ٣٠١/١ - ٣٠٣.
١٢- تذكرة الحفاظ: ٢٢/١ - ٢٣.
١٣- العبر: ١٥/١ - ٣٢.
١٤- البداية والنهاية: ٢١١/٣ - ٢١٢.
١٥- تاريخ خليفة بن خياط: ٨.

خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ العَاصِ

« كَانَ أَبِي خَامِسًا ... وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ »
[بِنْتُ خَالِدٍ]

فِي ذَاتِ مَسَاءٍ مِنْ أَمَاسِيِّ مَكَّةَ الْهَادِئَةِ الْهَانِئَةِ الْوَادِعَةِ ... خَرَجَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ الْمُكَنَّىٰ « بِأَبِي أُحَيْحَةَ » مِنْ دَارَتِهِ فِي أَعْلَىٰ « الْحَجُونِ »(١) يُرِيدُ الْحَرَمَ ... وَقَدِ اعْتَمَّ بِعِمَامَتِهِ الْحَمْرَاءِ الثَّمِينَةِ الزَّاهِيَةِ ...

وَخَلَعَ عَلَىٰ مَنْكِبَيْهِ بُرْدًا(٢) مِنْ حُلَلِ مُلُوكِ « الْيَمَنِ » مُوَشًّى بِخُيُوطِ الذَّهَبِ ...

وَمَشَىٰ بَيْنَ يَدَيْهِ طَائِفَةٌ مِنْ غِلْمَانِهِ الْمُقَلَّدِينَ بِالسُّيُوفِ ، وَكَانَ عَنْ يَمِينِهِ بَعْضُ أَوْلَادِهِ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ ابْنُهُ خَالِدٌ .

وَكَانَ عَنْ شِمَالِهِ طَائِفَةٌ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ بَنِي « عَبْدِ شَمْسٍ » وَهُمْ يَخْطُرُونَ(٣) فِي حُلَلِ الدِّيبَاجِ وَالسُّنْدُسِ ...

فَلَمَّا أَطَلَّ « أَبُو أُحَيْحَةَ » عَلَىٰ الْحَرَمِ قَالَ النَّاسُ :

لَقَدْ أَقْبَلَ « ذُو التَّاجِ » ... وَكَانُوا يُلَقِّبُونَهُ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا تَوَّجَ رَأْسَهُ بِعِمَامَةٍ فَلَا يَعْتَمُّ أَحَدٌ مِنْ قُرَيْشٍ بِعِمَامَةٍ مِنْ لَوْنِهَا حَتَّىٰ يَنْزِعَهَا .

فَأَوْسَعَ النَّاسُ الطَّرِيقَ لَهُ وَلِمَنْ مَعَهُ حَتَّىٰ أَخَذَ مَجْلِسَهُ تَحْتَ الْكَعْبَةِ .

وَهُنَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ ، وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَأَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ يُحَيُّونَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ :

---

(١) الْحَجُون : مكان في مكة قريب من الحرم.
(٢) الْبُرْد : ثوب يتلفع الإنسان به أو يضعه فوق كتفيه.　(٣) يخطرون : يمشون متبخترين.

مَا خَبَرٌ سَمِعْتُهُ أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ[1] تَبِعَ مُحَمَّدًا ؟! ...

وَأَنَّهُ اجْتَرَأَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ ؛ فَشَجَّ رَأْسَهُ ، وَأَسَالَ دَمَهُ ، لِأَنَّهُ نَهَاهُ عَنِ الصَّلَاةِ لِغَيْرِ آلِهَتِنَا ... ثُمَّ قَالَ : وَاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ[2] إِنْ ظَلَلْتُمْ عَلَىٰ تَهَاوُنِكُمْ هَٰذَا مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ مُدَارَاةً لِبَنِي « هَاشِمٍ » لَأَنْهَضَنَّ لَهُ وَحْدِي ...

وَلَأَمْنَعَنَّ إِلَٰهَ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ[3] أَنْ يُعْبَدَ فِي مَكَّةَ ...

ثُمَّ عَادَ فِي مِثْلِ الْمَوْكِبِ الَّذِي جَاءَ بِهِ ؛ فَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ غَيْرُ ابْنِهِ خَالِدٍ .

* * *

لَقَدْ ظَلَّ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ فِي الْحَرَمِ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ مَجَالِسِ الْقَوْمِ لِيَتَنَسَّمَ[4] أَخْبَارَ مُحَمَّدٍ ، وَيَتَسَمَّعَ لِمَا يُقَالُ عَنْ دَعْوَتِهِ .

فَلَمْ يَجِدْ فِي كُلِّ مَا سَمِعَهُ عَنِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَا يُبَرِّرُ ذَٰلِكَ الْحِقْدَ الَّذِي رَآهُ مِنْ أَبِيهِ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ... أَوْ مَا يُسَوِّغُ تِلْكَ الضَّغِينَةَ[5] الَّتِي كَانَتْ تَتَنَزَّىٰ فِي نَفْسِهِ وَنُفُوسِ سَادَةِ قُرَيْشٍ .

* * *

وَلَمَّا أَقْبَلَ اللَّيْلُ عَادَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ إِلَىٰ دَارَتِهِمْ ، وَمَضَىٰ إِلَىٰ مَخْدَعِهِ دُونَ أَنْ يَمُرَّ بِحُجْرَةِ أَبِيهِ لِيُلْقِيَ عَلَيْهِ تَحِيَّةَ الْمَسَاءِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ كُلَّ يَوْمٍ ...

ثُمَّ اسْتَلْقَىٰ عَلَىٰ فِرَاشِهِ الْوَثِيرِ[6] يُرِيدُ النَّوْمَ .

لَكِنَّ النَّوْمَ لَمْ يُوَاتِ[7] خَالِدًا وَلَمْ تَكْتَحِلْ بِهِ عَيْنَاهُ ؛ فَقَدِ اسْتَبَدَّ بِهِ أَرَقٌ أَطَارَ الرُّقَادَ مِنْ عَيْنَيْهِ .

---

(١) سَعْد بن أَبِي وَقَّاص : انظره ص ٢٨١.

(٢) اللَّات والعُزَّىٰ : صنمان كانا يعبدان في الجاهلية ... انظر هدم الأصنام في كتاب « حدث في رمضان » للمؤلف .

(٣) أبو كَبْشَةَ : هو الحارث بن عبد العزىٰ بن رفاعة السعدي زوج حليمة السعديّة أمّ الرَّسُول ﷺ من الرَّضاعة .

(٤) يَتَنَسَّم الأخبار : يتتبع الأخبار شيئًا فشيئًا .

(٥) الضَّغِينَة : الحقد والكره .

(٦) الفراش الوَثِير : اللّين المريح .

(٧) لم يُواتِ : لم يأت .

وَكَانَ الَّذِي يَشْغَلُ بَالَهُ أَمْرَ مُحَمَّدٍ ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ؛ وَخَوْفَهُ مِنْ أَنْ يَبْطِشَ أَبُوهُ بِهِ بَطْشَةَ الْجَبَّارِينَ .

* * *

وَفِي الْهَزِيعِ الْأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ نَهَكَهُ النُّعَاسُ فَأَسْلَمَ جَفْنَيْهِ لِلْكَرَىٰ[١].

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ هَبَّ مَذْعُورًا مُمْتَقِعَ[٢] الْوَجْهِ ؛ يَرْتَجِفُ مِنْ هَوْلِ مَا رَأَىٰ ... وَيَهْتَزُّ مِنْ فَرْطِ مَا عَانَىٰ وَهُوَ يَقُولُ :

أَحْلِفُ بِاللَّهِ إِنَّ هَٰذِهِ الرُّؤْيَا لَرُؤْيَا حَقٌّ ... وَإِنِّي مَا رَأَيْتُ كَذِبًا .

* * *

لَقَدْ رَأَىٰ خَالِدٌ نَفْسَهُ وَاقِفًا عَلَىٰ شَفِيرِ[٣] وَادٍ سَحِيقٍ[٤] مِنْ أَوْدِيَةِ جَهَنَّمَ لَا يُدْرِكُ الطَّرْفُ مَدَاهُ ، وَلَا يَعْرِفُ الْمَرْءُ قَرَارَهُ ...

وَكَانَتْ تَتَلَظَّىٰ[٥] فِي هَٰذَا الْوَادِي نَارٌ لَهَا شَهِيقٌ وَزَفِيرٌ يَخْلَعَانِ الْقُلُوبَ خَلْعًا ... وَيَهْصِرَانِ النُّفُوسَ هَصْرًا[٦].

فَلَمَّا هَمَّ بِالِابْتِعَادِ عَنْ شَفِيرِ الْوَادِي بَرَزَ لَهُ أَبُوهُ ، وَأَخَذَ يَشُدُّهُ إِلَىٰ النَّارِ بِعُنْفٍ ؛ فَجَعَلَ يُقَاوِمُ أَبَاهُ أَشَدَّ الْمُقَاوَمَةِ ...

وَيُصَارِعُهُ أَقْسَىٰ الْمُصَارَعَةِ حَتَّىٰ إِذَا فُلَّ[٧] عَزْمُهُ ، وَأَوْشَكَ أَنْ يَهْوِيَ إِلَىٰ شَفِيرِ جَهَنَّمَ ... فَإِذَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يُقْبِلُ عَلَيْهِ ، وَيَأْخُذُ بِحِزَامِهِ بِكِلْتَا يَدَيْهِ ، وَيَجْذِبُهُ إِلَيْهِ جَذْبًا ، وَيُنْقِذُهُ مِنَ السُّقُوطِ فِي شَفِيرِ وَادِي جَهَنَّمَ .

* * *

مَا كَادَ يَنْبَلِجُ[٨] الصُّبْحُ حَتَّىٰ مَضَىٰ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ إِلَىٰ مَنْزِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ... ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يَأْنَسُ بِهِ وَيَطْمَئِنُّ لَهُ .

---

(١) الْكَرَىٰ : النوم .
(٢) مُمْتَقِعُ الْوَجْهِ : متغير اللّون مفزوع .
(٣) شَفِير : حافة .
(٤) سَحِيق : عميق بعيد الغور .
(٥) تَتَلَظَّىٰ : تلتهب .
(٦) هَصْرًا : يعصرها عصرًا .
(٧) فُلَّ عزمه : ضعف ووهن .
(٨) يَنْبَلِج : يسفر ويضيء .

فَقَصَّ عَلَيْهِ رُؤْيَاهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ:

لَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ بِكَ خَيْرًا يَا خَالِدُ...

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ....

وَسَيُظْهِرُ هَـٰذَا الدِّينُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ...

فَاتَّبِعْهُ يَا خَالِدُ.

فَإِنِ اتَّبَعْتَهُ فُتِحَتْ لَكَ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَحِيلَ دُونَكَ وَدُونَ النَّارِ...

أَمَّا أَبُوكَ فَوَاقِعٌ فِي جَهَنَّمَ الَّتِي أَرَادَ أَنْ يُوقِعَكَ فِيهَا...

* * *

انْطَلَقَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ إِلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ...

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ يَتَعَبَّدُ اللَّهَ سِرًّا فِي «أَجْيَادَ»[1]، فَحَيَّاهُ وَقَالَ:

إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ تَدْعُونَا يَا مُحَمَّدُ؟.

فَقَالَ: (أَدْعُوكُمْ: إِلَىٰ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنِّي عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ... وَأَنْ تَخْلَعُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ حَجَرٍ لَا يَرَىٰ، وَلَا يَسْمَعُ...

وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يَنْفَعُ... وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ مَنْ عَبَدَهُ، وَبَيْنَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ).

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ[2] خَالِدٍ وَقَالَ:

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ.

فَكَانَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ خَامِسَ خَمْسَةٍ أَوْ سَادِسَ سِتَّةٍ أَسْلَمُوا عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ... إِذْ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَىٰ هَـٰذَا الْفَضْلِ الْعَظِيمِ غَيْرُ خَدِيجَةَ بِنْتِ

---

(١) أجياد أو جياد: شِعْب من شعاب مكة لا يزال موجودًا الآن بجوار الحرم الشريف.

(٢) أسارير الوجه: ملامحه وتقاسيمه.

خُوَيْلِدٍ، وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ[١]، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَسَعْدِ ابْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

* * *

تَرَكَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ قَصْرَ أَبِيهِ الْمُنِيفَ[٢] فِي أَعْلَىٰ «الْحَجُونِ» وَأَعْرَضَ عَنْ حَيَاتِهِ الْغَضَّةِ[٣] الْمُتْرَفَةِ، وَعَيْشِهِ الرَّغِيدِ[٤] النَّاعِمِ.

وَلَحِقَ بِالرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ يَتَنَقَّلُ مَعَهُ وَمَعَ أَصْحَابِهِ بَيْنَ شِعَابِ مَكَّةَ؛ فَيَتَمَلَّىٰ مِنْ مَشَاعِرِ الْإِيمَانِ...

وَيَحْفَظُ مَا يَنْزِلُ عَلَىٰ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ، وَيَعْبُدُ اللَّهَ سِرًّا خَوْفًا مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ...

فَلَمَّا طَالَتْ غَيْبَةُ خَالِدٍ عَنِ الْبَيْتِ افْتَقَدَهُ أَبُوهُ فَلَمْ يَجِدْهُ؛ فَبَعَثَ الْعُيُونَ[٥] وَرَاءَهُ... فَجَاءَتْهُ الْأَخْبَارُ تَقُولُ: إِنَّهُ أَسْلَمَ وَتَبِعَ مُحَمَّدًا.

* * *

جُنَّ جُنُونُ سَيِّدِ مَكَّةَ؛ فَمَا كَانَ يَظُنُّ ظَنًّا أَنَّ أَحَدَ أَوْلَادِهِ تَبْلُغُ بِهِ الْجُرْأَةُ أَنْ يَخْرُجَ عَلَىٰ سُلْطَانِهِ، وَيَكْفُرَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ، وَيَلْحَقَ بِمُحَمَّدٍ.

وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مَوْلَاهُ «رَافِعًا» وَأَخَوَيْهِ «أَبَانَ» وَ«عُمَرَ»؛ فَوَجَدُوهُ يُصَلِّي فِي بَعْضِ الشِّعَابِ[٦] صَلَاةً هَزَّتْ قُلُوبَهُمْ هَزًّا...

وَأَتْرَعَتْ[٧] أَفْئِدَتَهُمْ رَاحَةً وَاطْمِئْنَانًا...

وَمَلَأَتْ نُفُوسَهُمْ سَلَامًا وَأَمَانًا.

---

(١) زيد بن حارثة: انظره ص ٢١١.
(٢) الْمُنِيفَ: العالي المرتفع.
(٣) الْغَضَّةِ المترفة: اللّيّنة المرفهة.
(٤) عيشه الرَّغيد: المنعم الرّخيّ.
(٥) بَعَثَ الْعُيُونَ: بعث بعض النّاس يستطلعون أخباره.
(٦) الشِّعَابِ: الطّرق.
(٧) أَتْرَعَتْ: ملأت.

فَقَالُوا لَهُ : إِنَّ أَبَاكَ يَدْعُوكَ لِلِقَائِهِ ، وَقَدِ اسْتَشَاطَ[1] غَضَبًا لِتَرْكِكَ الْمَنْزِلَ دُونَ إِذْنٍ مِنْهُ .

فَمَضَىٰ خَالِدٌ مَعَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا صَارَ عِنْدَ أَبِيهِ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ .

فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : تَبًّا لَكَ ، أَصَبَأْتَ[2] عَنْ دِينِكَ وَدِينِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ ، وَتَبِعْتَ مُحَمَّدًا ؟! .

فَقَالَ خَالِدٌ : لَمْ أَصْبَأْ ، وَإِنَّمَا آمَنْتُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَصَدَّقْتُ بِنُبُوَّةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَنَبَذْتُ[3] هَٰذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ .

فَقَالَ أَبُوهُ : وَيْحَكَ ، أَتَقُولُ : إِنَّكَ صَدَّقْتَ هَٰذَا الْمُدَّعِيَ ؟ .

فَقَالَ خَالِدٌ : مَا هُوَ بِمُدَّعٍ ...

وَإِنَّمَا هُوَ صَادِقٌ يُبَلِّغُ رِسَالَاتِ رَبِّهِ ...

وَيَنْصَحُ لِي وَلَكَ وَلِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

فَقَالَ أَبُوهُ : لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تُعْرِضَ عَنْهُ وَتُكَذِّبَهُ .

فَقَالَ خَالِدٌ : لَا أَفْعَلُ مَا دَامَ فِيَّ عِرْقٌ يَنْبِضُ .

فَقَالَ أَبُوهُ : إِذَنْ أَحْرِمَكَ مِنْ رِزْقِي .

فَقَالَ خَالِدٌ : ذَلِكَ أَهْوَنُ مَا انْتَظَرْتُهُ مِنْكَ ، وَأَقَلُّ مَا تَوَقَّعْتُهُ ...

فَاللَّهُ الَّذِي رَزَقَكَ يَرْزُقُنِي .

فَتَمَيَّزَ[4] سَيِّدُ بَنِي « عَبْدِ شَمْسٍ » غَيْظًا مِنْهُ ... وَانْهَالَ[5] عَلَيْهِ بِعَصًا

---

(١) اسْتَشَاطَ غَضَبًا : التهب غضبًا .
(٢) صَبَأْتَ : كفرت وخرجت عن دينك .
(٣) نَبَذْتُ : تركت .
(٤) فَتَمَيَّزَ غَيْظًا : تقطع بسبب الغيظ .
(٥) انْهَالَ عَلَيْهِ : صار يضربه .

غَلِيظَةٍ أَعَدَّهَا لَهُ ؛ فَشَجَّ رَأْسَهُ ، وَأَسَالَ دَمَهُ ...

وَمَا زَالَ يَضْرِبُهُ حَتَّىٰ جَعَلَ الدَّمُ يَنْبَثِقُ مِنْ رَأْسِهِ وَجَسَدِهِ انْبِثَاقًا .

ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَشُدَّ عَلَيْهِ وِثَاقُهُ(١)، وَحُبِسَ فِي غُرْفَةٍ مُظْلِمَةٍ ...

وَمُنِعَ عَنْهُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ...

ثُمَّ جَاءَهُ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِهِ وَقَالُوا :

كَيْفَ أَنْتَ يَا خَالِدُ ؟ .

فَقَالَ : إِنِّي أَتَقَلَّبُ فِي نِعَمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

فَقَالُوا : أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تَثُوبَ إِلَىٰ رُشْدِكَ(٢)، وَتُطِيعَ أَبَاكَ ؟! .

فَقَالَ : أَمَّا رُشْدِي فَمَا فَارَقَنِي وَمَا فَارَقْتُهُ ...

وَأَمَّا أَبِي فَلَا أُطِيعُهُ فِيمَا يُعْصَىٰ بِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ...

فَقَالُوا : قُلْ لِأَبِيكَ كَلِمَةً تُرْضِيهِ فِي اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ يُفَرِّجْ عَنْكَ .

فَقَالَ : إِنَّ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ حَجَرَانِ أَصَمَّانِ أَبْكَمَانِ ...

وَإِنِّي لَا أَقُولُ فِيهِمَا إِلَّا مَا يُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... وَلْيَفْعَلْ بِي مَا يَشَاءُ .

* * *

شَدَّ « أَبُو أُحَيْحَةَ » وِثَاقَ خَالِدٍ ، وَأَمَرَ أَتْبَاعَهُ أَنْ يَخْرُجُوا بِهِ كُلَّ يَوْمٍ عِنْدَ الْهَاجِرَةِ(٣) إِلَىٰ بَطْحَاءِ مَكَّةَ ... وَأَنْ يُلْقُوهُ بَيْنَ الْحِجَارَةِ حَتَّىٰ تَصْهَرَهُ الشَّمْسُ .

فَكَانَ كُلَّمَا أَخْرَجُوهُ وَأَلْقَوْهُ فِي الْهَاجِرَةِ يَقُولُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَنِي بِالْإِيمَانِ ، وَأَعَزَّنِي بِالْإِسْلَامِ ...

---

(١) الْوِثَاق : الْقيد والحبل.

(٢) تثُوبَ إِلَىٰ رُشْدِكَ : تعود إِلَىٰ عقلك.

(٣) الْهَاجِرَة : وقت الظَّهيرة.

إِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ لَحْظَةِ عَذَابٍ فِي جَهَنَّمَ الَّتِي أَرَادَ أَنْ يُلْقِيَنِي فِيهَا «أَبُو أُحَيْحَةَ» ...

وَجَزَىٰ اللَّهُ نَبِيَّهُ وَصَفِيَّهُ عَنِّي وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ أَكْرَمَ الْجَزَاءِ .

ثُمَّ حَانَتْ لِخَالِدٍ فُرْصَةٌ ؛ فَتَفَلَّتَ مِنْ سِجْنِ أَبِيهِ ، وَمَضَىٰ إِلَىٰ نَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ لَحِقَ بِهِ أَخَوَاهُ عُمَرُ وَأَبَانُ ، وَانْضَمَّا مَعَهُ إِلَىٰ مَوْكِبِ الْخَيْرِ وَالنُّورِ ... عِنْدَ ذَلِكَ أُسْقِطَ[1] فِي يَدَيْ «أَبِي أُحَيْحَةَ» وَقَالَ :

وَاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ لَأَعْزِلَنَّ بِمَالِي بَعِيدًا عَنْ مَكَّةَ ، فَذَلِكَ خَيْرٌ لِي ...

وَلَأَهْجُرَنَّ أُولَئِكَ الصُّبَاةَ[2] الَّذِينَ يَعِيبُونَ آلِهَتِي وَأَرْبَابِي .

ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَىٰ قَرْيَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ «الطَّائِفِ» ، وَظَلَّ فِيهَا حَتَّىٰ مَاتَ كَمَدًا[3] وَهُوَ عَلَىٰ الشِّرْكِ .

* * *

وَلَمَّا أَذِنَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِأَصْحَابِهِ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ «الْحَبَشَةِ» ، نَزَحَ إِلَيْهَا خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ أَمِينَةُ بِنْتُ خَلَفٍ الْخُزَاعِيَّةُ ... وَقَدْ أَقَامَ فِيهَا بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً دَاعِيًا إِلَىٰ اللَّهِ ، وَلَمْ يُغَادِرْهَا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ «خَيْبَرَ» .

فَسُرَّ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمَقْدَمِهِ أَبْلَغَ السُّرُورِ ، وَقَسَمَ لَهُ مِنْ غَنَائِمِ «خَيْبَرَ» كَمَا قَسَمَ لِلْمُحَارِبِينَ ...

---

(١) أُسْقِطَ فِي يَدَيْ فلان : تحير فما عاد يدري ما يفعل .

(٢) الصُّبَاة : الذين تركوا دين آبائهم واتبعوا الإسلام .

(٣) مَات كَمَدًا : مات محسورًا مكمودًا .

ثُمَّ وَلَّاهُ « الْيَمَنَ » ، فَظَلَّ وَالِيًا عَلَيْهَا إِلَىٰ أَنْ لَحِقَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِجِوَارِ رَبِّهِ .

* * *

وَفِي عَهْدِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انْضَوَىٰ[1] خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ تَحْتَ لِوَاءِ الْجَيْشِ الْمُتَّجِهِ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ لِحَرْبِ الرُّومِ ، فَأَبْلَىٰ[2] فِي مَيَادِينِ الْقِتَالِ بَلَاءً يَلِيقُ بِفَارِسٍ كَمِيٍّ[3] مِثْلِهِ .

وَقُبَيْلَ مَعْرَكَةِ « مَرْجِ الصُّفَّرِ » الَّتِي وَقَعَتْ بِالْقُرْبِ مِنْ « دِمَشْقَ » ، خَطَبَ خَالِدٌ أُمَّ حَكِيمٍ بِنْتَ الْحَارِثِ[4] وَعَقَدَ عَلَيْهَا ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَعْرِسَ بِهَا قَالَتْ :

يَا خَالِدُ حَبَّذَا لَوْ أَخَّرْتَ إِلَىٰ أَنْ يَنْفَضَّ النَّاسُ مِنْ تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي أَرَانَا مُقْدِمِينَ عَلَيْهَا .

فَقَالَ لَهَا : إِنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي بِأَنِّي سَأُصَابُ فِيهَا .

ثُمَّ أَعْرَسَ بِهَا ... وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الَّذِي تَلَا زِفَافَهُ أَوْلَمَ[5] لِأَصْحَابِهِ ، فَمَا كَادُوا يَفْرَغُونَ مِنْ طَعَامِهِمْ حَتَّىٰ صَفَّتِ الرُّومُ جُنُودَهَا صَفًّا وَرَاءَ صَفٍّ ...

وَخَرَجَ وَاحِدٌ مِنْ فُرْسَانِهِمْ يَطْلُبُ مُبَارِزًا[6]، فَبَرَزَ لَهُ حَبِيبُ بْنُ سَلَمَةَ وَقَتَلَهُ ... فَخَرَجَ فَارِسٌ آخَرُ وَطَلَبَ مُبَارِزًا ، فَبَرَزَ لَهُ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ ...

وَتَصَاوَلَ[7] الْفَارِسَانِ وَتَجَاوَلَا ...

ثُمَّ سَدَّدَ[8] كُلٌّ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ ضَرْبَةً قَاتِلَةً .

---

(١) انْضَوَىٰ : انطوىٰ ، صار جنديًا تحت لوائه .
(٢) أَبْلَىٰ : أظهر من الشّجاعة والإقدام ما يعد ابتلاءً للخصم وامتحانًا .
(٣) فَارِسٍ كَمِي : شجاع .
(٤) أُم حَكِيم : كانت من قبل زوجة عكرمة بن أبي جهل .
(٥) أَوْلَم لِأَصْحَابِه : صنع لهم وليمة .
(٦) مُبَارِزًا : المبارزة هي الحرب المنفردة فارسًا لفارس .
(٧) تَصَاوَلَ الْفَارِسَان : وثب كل منهما علىٰ صاحبه .
(٨) سَدَّدَ : صوّب إلىٰ صاحبه .

فَأَصَابَ سَيْفُ الرُّومِيِّ ، وَأَخْطَأَ سَيْفُ خَالِدٍ فَخَرَّ صَرِيعًا شَهِيدًا ...

ثُمَّ الْتَحَمَ الْجَيْشَانِ ، وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا رَحَىٰ مَعْرَكَةٍ طَحُونٍ[1] كَانَ لَا يُسْمَعُ فِيهَا إِلَّا وَقْعُ السُّيُوفِ عَلَىٰ هَامِ[2] الرِّجَالِ .

عِنْدَ ذَلِكَ هَبَّتْ أُمُّ حَكِيمٍ كَاللَّبُؤَةِ[3] الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا أَشْبَالُهَا[4]...

فَشَدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابَ عُرْسِهَا ...

وَاقْتَلَعَتْ عَمُودَ الْفُسْطَاطِ[5] الَّذِي شَهِدَ لَيْلَةَ زِفَافِهَا ، وَخَاضَتِ الْمَعْرَكَةَ مَعَ الْخَائِضِينَ ...

فَأَرْدَتْ[6] سَبْعَةً مِنْ فُرْسَانِ الرُّومِ .

ثُمَّ ظَلَّتْ تُقَاتِلُ حَتَّىٰ انْجَلَتِ الْمَعْرَكَةُ عَنْ نَصْرٍ مُؤَزَّرٍ[7] لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ .

* * *

لَقَدْ كَانَ ثَمَنَ هَٰذَا النَّصْرِ أَرْوَاحٌ طَاهِرَةٌ زَكِيَّةٌ مَضَتْ إِلَىٰ رَبِّهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ...

وَكَانَتْ رُوحُ خَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ تُرَفْرِفُ بَيْنَهَا فِي حُبُورٍ[8].

وَلَقَدْ رَأَىٰ قَاتِلُهُ بِأُمِّ عَيْنَيْهِ نُورًا يَسْطَعُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يَتَلَأْلَأُ فَوْقَ خَالِدٍ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ ...

فَنَدِمَ عَلَىٰ قَتْلِهِ أَشَدَّ النَّدَمِ ...

وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي دُخُولِهِ فِي دِينِ اللَّهِ مَعَ الدَّاخِلِينَ (*) .

---

(١) طحون : طاحنة قاسية .
(٢) هام الرجال : رؤوس الرجال .
(٣) اللبؤة : أنثى الأسد .
(٤) أشبالها : الأسود الصغيرة ، يعني أولادها الصغار .
(٥) الفسطاط : الخيمة .
(٦) فأردت : قتلت .
(٧) نصر مؤزر : نصر قوي مبين .
(٨) حبور : فرح وسرور .

(*) للاستزادة من أخبار خالد بن سعيد بن العاص انظر :
١ - البداية والنهاية : ٣/ ٣٢.
٢ - الطبقات الكبرى : ٤/ ٩٤.
٣ - حياة الصحابة : ١/٩١ - ٩٤ و« انظر الفهارس » .
٤ - الإصابة : ١/٤٠٦ أو « الترجمة » ٢١٦٧.
٥ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ١/ ٣٩٩.

سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ

«كَيْفَ بِكَ يَا سُرَاقَةُ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَىٰ؟!»

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

هَبَّتْ قُرَيْشٌ ذَاتَ صَبَاحٍ وَجِلَةً مَذْعُورَةً، فَقَدْ سَرَىٰ فِي أَنْدِيَتِهَا أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ بَارَحَ مَكَّةَ مُسْتَتِرًا بِجُنْحِ الظَّلَامِ؛ فَلَمْ يُصَدِّقْ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ النَّبَأَ...

وَانْدَفَعُوا يَبْحَثُونَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي كُلِّ دَارٍ مِنْ دُورِ بَنِي «هَاشِمٍ»...

وَيَنْشُدُونَهُ فِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ أَصْحَابِهِ، حَتَّىٰ أَتَوْا مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِمُ ابْنَتُهُ أَسْمَاءُ[1].

فَقَالَ لَهَا أَبُو جَهْلٍ: أَيْنَ أَبُوكِ يَا بِنْتُ؟.

فَقَالَتْ: لَا أَدْرِي أَيْنَ هُوَ الْآنَ.

فَرَفَعَ يَدَهُ وَلَطَمَ خَدَّهَا لَطْمَةً أَهْوَتْ بِقِرْطِهَا[2] عَلَىٰ الْأَرْضِ.

* * *

جُنَّ جُنُونُ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ حِينَ أَيْقَنُوا أَنَّ مُحَمَّدًا غَادَرَ مَكَّةَ، وَجَنَّدُوا كُلَّ مَنْ لَدَيْهِمْ مِنْ قُفَاةِ الْأَثَرِ[3] لِتَحْدِيدِ الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَهُ، وَمَضَوْا مَعَهُمْ يَبْحَثُونَ عَنْهُ... فَلَمَّا بَلَغُوا غَارَ «ثَوْرٍ» قَالَ لَهُمْ قُفَاةُ الْأَثَرِ:

وَاللَّهِ مَا جَاوَزَ صَاحِبُكُمْ هَٰذَا الْغَارَ.

وَلَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ مُخْطِئِينَ فِيمَا قَالُوهُ لِقُرَيْشٍ، فَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ وَصَاحِبُهُ فِي دَاخِلِ الْغَارِ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَقِفُ فَوْقَ رَأْسَيْهِمَا، حَتَّىٰ أَنَّ الصِّدِّيقَ رَأَىٰ أَقْدَامَ

---

(١) أسماء بنت أبي بكر: انظرها في كتاب «صور من حياة الصحابيات» للمؤلف.

(٢) أهوت بقرطها: أسقطت حلقتها، وجعلتها تهوي هويًا. (٣) قفاة الأثر: متتبعو الأثر.

الْقَوْمِ تَتَحَرَّكُ فَوْقَ الْغَارِ؛ فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ...

فَنَظَرَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ نَظْرَةَ حُبٍّ وَرِفْقٍ وَعِتَابٍ.

فَهَمَسَ الصِّدِّيقُ قَائِلًا: وَاللَّهِ مَا عَلَىٰ نَفْسِي أَبْكِي...

وَلَكِنْ مَخَافَةَ أَنْ أَرَىٰ فِيكَ مَكْرُوهًا[١] يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مُطَمْئِنًا:

(لَا تَحْزَنْ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَنَا).

فَأَنْزَلَ اللَّهُ السَّكِينَةَ عَلَىٰ قَلْبِ الصِّدِّيقِ، وَرَاحَ يَنْظُرُ إِلَىٰ أَقْدَامِ الْقَوْمِ.

ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَىٰ مَوْطِئِ قَدَمَيْهِ لَرَآنَا.

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ: (مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ، اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟!!).

وَهُنَا سَمِعَا فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ يَقُولُ لِلْقَوْمِ:

هَلُمُّوا[٢] إِلَىٰ الْغَارِ نَنْظُرْ فِيهِ.

فَقَالَ لَهُ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ سَاخِرًا: أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ هَـٰذَا الْعَنْكَبُوتِ الَّذِي عَشَّشَ عَلَىٰ بَابِهِ ؟!! وَاللَّهِ إِنَّهُ أَقْدَمُ مِنْ مِيلَادِ مُحَمَّدٍ...

غَيْرَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ... إِنِّي لَأَحْسَبُهُ قَرِيبًا مِنَّا يَسْمَعُ مَا نَقُولُ، وَيَرَىٰ مَا نَصْنَعُ.

وَلَكِنَّ سِحْرَهُ رَانَ[٣] عَلَىٰ أَبْصَارِنَا...

* * *

(١) أن أرَىٰ فيك مكروهًا: أن أرىٰ فيك ما أكره.

(٢) هلمُّوا: تعالَوا، وأقبلوا.

(٣) ران: غطَّىٰ.

بَيْدَ[1] أَنَّ قُرَيْشًا لَمْ تَنْفُضْ يَدَهَا مِنْ أَمْرِ الْعُثُورِ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ، وَلَمْ يَنْثَنِ[2] عَزْمُهَا عَنْ مُلَاحَقَتِهِ ؛ فَأَعْلَنَتْ فِي الْقَبَائِلِ الْمُنْتَشِرَةِ عَلَىٰ طُولِ الطَّرِيقِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ : أَنَّ مَنْ يَأْتِهَا بِمُحَمَّدٍ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا فَلَهُ مِائَةٌ مِنْ كَرَائِمِ الْإِبِلِ .

* * *

كَانَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ الْمَدْلَجِيُّ فِي نَدِيٍّ[3] مِنْ أَنْدِيَةِ قَوْمِهِ فِي « قُدَيْدٍ » قَرِيبًا مِنْ مَكَّةَ .

فَإِذَا بِرَسُولٍ مِنْ رُسُلِ قُرَيْشٍ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ ، وَيُذِيعُ فِيهِمْ نَبَأَ الْجَائِزَةِ الْكُبْرَىٰ الَّتِي بَذَلَتْهَا قُرَيْشٌ لِمَنْ يَأْتِيهَا بِمُحَمَّدٍ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا .

فَمَا كَادَ سُرَاقَةُ يَسْمَعُ بِالنُّوقِ الْمِائَةِ حَتَّىٰ اشْرَأَبَّتْ[4] إِلَيْهَا أَطْمَاعُهُ ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهَا حِرْصُهُ ... وَلَكِنَّهُ ضَبَطَ نَفْسَهُ ، فَلَمْ يَفُهْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ حَتَّىٰ لَا تَتَحَرَّكَ أَطْمَاعُ الْآخَرِينَ .

وَقَبْلَ أَنْ يَنْهَضَ سُرَاقَةُ مِنْ مَجْلِسِهِ دَخَلَ عَلَىٰ النَّدِيِّ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ وَقَالَ :

وَاللَّهِ لَقَدْ مَرَّ بِيَ الْآنَ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُمْ مُحَمَّدًا وَأَبَا بَكْرٍ وَدَلِيلَهُمَا .

فَقَالَ سُرَاقَةُ : بَلْ هُمْ بَنُو فُلَانٍ مَضَوْا يَبْحَثُونَ عَنْ نَاقَةٍ لَهُمْ أَضَلُّوهَا[5] .

فَقَالَ الرَّجُلُ : لَعَلَّهُمْ كَذَلِكَ ، وَسَكَتَ ...

ثُمَّ مَكَثَ سُرَاقَةُ قَلِيلًا حَتَّىٰ لَا يُثِيرَ قِيَامُهُ أَحَدًا مِمَّنْ فِي النَّدِيِّ ...

فَلَمَّا دَخَلَ الْقَوْمُ فِي حَدِيثٍ آخَرَ انْسَلَّ[6] مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَمَضَىٰ خَفِيفًا

(١) بَيْدَ أن : إلَّا أنَّ .
(٢) لَمْ يَنْثَنِ : لَمْ يَتَرَاجَعْ ولَمْ يرتدَّ .
(٣) النَّدِيُّ : مكان اجتماع القوم .
(٤) اشْرَأَبَّتْ : تَطَلَّعَتْ .
(٥) أضلوها : أضاعوها .
(٦) انْسَلَّ : انْسَحَبَ برفق وخِفَّة .

مُسْرِعًا إِلَىٰ بَيْتِهِ، وَأَسَرَّ[1] لِجَارِيَتِهِ بِأَنْ تُخْرِجَ لَهُ فَرَسَهُ فِي غَفْلَةٍ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وَأَنْ تَرْتَبِطَهُ لَهُ فِي بَطْنِ الْوَادِي.

وَأَمَرَ غُلَامَهُ بِأَنْ يُعِدَّ لَهُ سِلَاحَهُ، وَأَنْ يَخْرُجَ بِهِ مِنْ خَلْفِ الْبُيُوتِ حَتَّىٰ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ... وَأَنْ يَجْعَلَهُ فِي مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنَ الْفَرَسِ...

* * *

لَبِسَ سُرَاقَةُ لَأْمَتَهُ[2]، وَتَقَلَّدَ سِلَاحَهُ، وَامْتَطَىٰ صَهْوَةَ[3] فَرَسِهِ، وَطَفِقَ يُغِذُّ[4] السَّيْرَ لِيُدْرِكَ مُحَمَّدًا قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَهُ أَحَدٌ سِوَاهُ، وَيَظْفَرَ بِجَائِزَةِ قُرَيْشٍ.

* * *

كَانَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ فَارِسًا مِنْ فُرْسَانِ قَوْمِهِ الْمَعْدُودِينَ، طَوِيلَ الْقَامَةِ، عَظِيمَ الْهَامَةِ، بَصِيرًا بِاقْتِفَاءِ الْأَثَرِ، صَبُورًا عَلَىٰ أَهْوَالِ الطُّرُقِ...

وَكَانَ إِلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ أَرِيبًا لَبِيبًا شَاعِرًا...

وَكَانَتْ فَرَسُهُ مِنْ عِتَاقِ[5] الْخَيْلِ.

* * *

مَضَىٰ سُرَاقَةُ يَطْوِي الْأَرْضَ طَيًّا، لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ عَثَرَتْ بِهِ فَرَسُهُ وَسَقَطَ عَنْ صَهْوَتِهَا؛ فَتَشَاءَمَ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: مَا هَٰذَا؟!... تَبًّا[6] لَكِ مِنْ فَرَسٍ، وَعَلَا ظَهْرَهَا غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَمْضِ بَعِيدًا حَتَّىٰ عَثَرَتْ بِهِ مَرَّةً أُخْرَىٰ فَازْدَادَ تَشَاؤُمًا، وَهَمَّ بِالرُّجُوعِ؛ فَمَا رَدَّهُ عَنْ هَمِّهِ إِلَّا طَمَعُهُ بِالنُّوقِ الْمِائَةِ.

* * *

لَمْ يَبْتَعِدْ سُرَاقَةُ كَثِيرًا عَنْ مَكَانِ عُثُورِ فَرَسِهِ حَتَّىٰ أَبْصَرَ مُحَمَّدًا وَصَاحِبَيْهِ فَمَدَّ يَدَهُ إِلَىٰ قَوْسِهِ، لَكِنَّ يَدَهُ جَمَدَتْ فِي مَكَانِهَا...

---

(1) أَسَرَّ لجاريته: أمرها سرًّا.
(2) لأمته: درعه.
(3) الصَّهْوَةُ: مكان قعود الفارس على الفرس.
(4) يغذ السير: يُسْرِع في السَّيْر.
(5) الخيل العتاق: الخيل الأصيلة الكريمة.
(6) تبًّا: هلاكًا.

ذَلِكَ لِأَنَّهُ رَأَىٰ قَوَائِمَ فَرَسِهِ تَسِيخُ[1] فِي الْأَرْضِ، وَالدُّخَانُ يَتَصَاعَدُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا، وَيُغَطِّي عَيْنَيْهِ وَعَيْنَيْهَا...

فَدَفَعَ الْفَرَسَ فَإِذَا هِيَ قَدْ رَسَخَتْ[2] فِي الْأَرْضِ كَأَنَّمَا سُمِّرَتْ فِيهَا بِمَسَامِيرَ مِنْ حَدِيدٍ.

فَالْتَفَتَ إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ وَصَاحِبِهِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ ضَارِعٍ:

يَا هَـٰذَانِ ادْعُوَا لِي رَبَّكُمَا أَنْ يُطْلِقَ قَوَائِمَ فَرَسِي...

وَلَكُمَا عَلَيَّ أَنْ أَكُفَّ عَنْكُمَا.

فَدَعَا لَهُ الرَّسُولُ ﷺ، فَأَطْلَقَ اللَّهُ لَهُ قَوَائِمَ فَرَسِهِ...

لَكِنَّ أَطْمَاعَهُ مَا لَبِثَتْ أَنْ تَحَرَّكَتْ مِنْ جَدِيدٍ، فَدَفَعَ فَرَسَهُ نَحْوَهُمَا فَسَاخَتْ قَوَائِمُهَا هَـٰذِهِ الْمَرَّةَ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ.

فَاسْتَغَاثَ بِهِمَا، وَقَالَ: إِلَيْكُمَا زَادِي وَمَتَاعِي وَسِلَاحِي فَخُذَاهُ، وَلَكُمَا عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا مَنْ وَرَائِي مِنَ النَّاسِ...

فَقَالَا لَهُ: لَا حَاجَةَ لَنَا بِزَادِكَ وَمَتَاعِكَ، وَلَكِنْ رُدَّ عَنَّا النَّاسَ...

ثُمَّ دَعَا لَهُ الرَّسُولُ ﷺ فَانْطَلَقَتْ فَرَسُهُ.

فَلَمَّا هَمَّ بِالْعَوْدَةِ، نَادَاهُمْ قَائِلًا:

تَرَيَّثُوا أُكَلِّمْكُمْ، فَوَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنِّي شَيْءٌ تَكْرَهُونَهُ.

فَقَالَا لَهُ: مَا تَبْتَغِي مِنَّا؟!.

فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَظْهَرُ دِينُكَ، وَيَعْلُو أَمْرُكَ فَعَاهِدْنِي

---

(١) تَسِيخُ فِي الْأَرْضِ: تَغُوصُ فِي الْأَرْضِ.

(٢) رَسَخَتْ فِي الْأَرْضِ: ثَبَتَتْ فِي الْأَرْضِ.

إِذَا أَتَيْتُكَ فِي مُلْكِكَ أَنْ تُكْرِمَنِي ، وَاكْتُبْ لِي بِذَلِكَ ...

فَأَمَرَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصِّدِّيقَ فَكَتَبَ لَهُ عَلَىٰ لَوْحٍ مِنْ عَظْمٍ ، وَدَفَعَهُ إِلَيْهِ ... وَلَمَّا هَمَّ بِالِانْصِرَافِ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(وَكَيْفَ بِكَ يَا سُرَاقَةُ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَىٰ ؟!) .

فَقَالَ سُرَاقَةُ فِي دَهْشَةٍ : كِسْرَىٰ بْنُ هُرْمُزَ ؟! .

فَقَالَ ﷺ : (نَعَمْ ... كِسْرَىٰ بْنُ هُرْمُزَ) .

* * *

عَادَ سُرَاقَةُ أَدْرَاجَهُ ، فَوَجَدَ النَّاسَ قَدْ أَقْبَلُوا يَنْشُدُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُمْ : ارْجِعُوا ، فَقَدْ نَفَضْتُ الْأَرْضَ نَفْضًا(١) بَحْثًا عَنْهُ ...

وَأَنْتُمْ لَا تَجْهَلُونَ مَبْلَغَ بَصَرِي بِالْأَثَرِ(٢)، فَرَجَعُوا .

ثُمَّ كَتَمَ خَبَرَهُ مَعَ مُحَمَّدٍ وَصَاحِبِهِ حَتَّىٰ أَيْقَنَ أَنَّهُمَا بَلَغَا الْمَدِينَةَ وَأَصْبَحَا فِي مَأْمَنٍ مِنْ عُدْوَانِ قُرَيْشٍ ، عِنْدَ ذَلِكَ أَذَاعَهُ ... فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو جَهْلٍ بِخَبَرِ سُرَاقَةَ مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَوْقِفِهِ مِنْهُ ؛ لَامَهُ عَلَىٰ تَخَاذُلِهِ وَجُبْنِهِ وَتَفْوِيتِهِ الْفُرْصَةَ ... فَقَالَ سُرَاقَةُ يُجِيبُهُ عَلَىٰ مَلَامَتِهِ :

أَبَا حَكَمٍ ، وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ شَاهِدًا لِأَمْرِ جَوَادِي إِذْ تَسُوخُ قَوَائِمُهْ
عَلِمْتَ وَلَمْ تَشْكُكْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولٌ بِبُرْهَانٍ ، فَمَنْ ذَا يُقَاوِمُهْ ؟!

* * *

دَارَتِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا ...

فَإِذَا بِمُحَمَّدٍ الَّذِي خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ طَرِيدًا شَرِيدًا مُسْتَتِرًا بِجُنْحِ الظَّلَامِ يَعُودُ

(١) نَفَضْتُ الْأَرْضَ نَفْضًا: نظرت فيها شبرًا شبرًا.
(٢) بَصَرِي بِالْأَثَرِ: معرفتي به.

إِلَيْهَا سَيِّدًا فَاتِحًا تَحُفُّ بِهِ الْأُلُوفُ الْمُؤَلَّفَةُ مِنْ بِيضِ السُّيُوفِ وَسُمْرِ الرِّمَاحِ ...

وَإِذَا بِزُعَمَاءِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ مَلَأُوا الْأَرْضَ عُنْجُهِيَّةً وَغَطْرَسَةً[١] يُقْبِلُونَ عَلَيْهِ خَائِفِينَ وَاجِفِينَ ؛ يَسْأَلُونَهُ الرَّأْفَةَ وَيَقُولُونَ : مَاذَا عَسَاكَ تَصْنَعُ بِنَا ؟! .

فَيَقُولُ لَهُمْ فِي سَمَاحَةِ الْأَنْبِيَاءِ : (اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ) ...

عِنْدَ ذَلِكَ أَعَدَّ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ رَاحِلَتَهُ ، وَمَضَىٰ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُعْلِنَ إِسْلَامَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ وَمَعَهُ الْعَهْدُ الَّذِي كَتَبَهُ لَهُ قَبْلَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ .

قَالَ سُرَاقَةُ :

لَقَدْ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ « بِالْجِعْرَانَةِ »[٢]، فَدَخَلْتُ فِي كَتِيبَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَجَعَلُوا يَقْرَعُونَنِي[٣] بِكُعُوبِ[٤] الرِّمَاحِ وَيَقُولُونَ :

إِلَيْكَ ، إِلَيْكَ[٥]، مَاذَا تُرِيدُ ؟! ... فَمَا زِلْتُ أَشُقُّ صُفُوفَهُمْ حَتَّىٰ غَدَوْتُ قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ عَلَىٰ نَاقَتِهِ فَرَفَعْتُ يَدِي بِالْكِتَابِ وَقُلْتُ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

أَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ ... وَهَٰذَا كِتَابُكَ لِي ...

فَقَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(أُدْنُ مِنِّي يَا سُرَاقَةُ أُدْنُ ... هَٰذَا يَوْمُ وَفَاءٍ وَبِرٍّ) .

فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَأَعْلَنْتُ إِسْلَامِي بَيْنَ يَدَيْهِ .

وَنِلْتُ مِنْ خَيْرِهِ وَبِرِّهِ ...

* * *

(١) عُنْجُهِيَّةً وغطرسةً : تكبُّرًا وتجبُّرًا وتطاولًا .
(٢) الجعرانة : مكان بين مَكَّة والطَّائف ، وهُوَ إِلَىٰ مَكَّة أقرب .
(٣) يقرعونني : يضربونني . (٤) كعب الرمح : مؤخّرته . (٥) إِلَيك إِلَيك : ابْتَعِدْ ، ابْتَعِدْ .

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ لِقَاءِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ حَتَّىٰ اخْتَارَ اللَّهُ نَبِيَّهُ إِلَىٰ جِوَارِهِ ...

فَحَزِنَ عَلَيْهِ سُرَاقَةُ أَشَدَّ الْحُزْنِ ، وَجَعَلَ يَتَرَاءَىٰ لَهُ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي هَمَّ فِيهِ بِقَتْلِهِ مِنْ أَجْلِ مِائَةِ نَاقَةٍ ، وَكَيْفَ أَنَّ نُوقَ الدُّنْيَا كُلَّهَا قَدْ أَصْبَحَتِ الْيَوْمَ لَا تُسَاوِي عِنْدَهُ قُلَامَةً(١) مِنْ ظُفْرِ النَّبِيِّ ﷺ .

وَجَعَلَ يُرَدِّدُ قَوْلَتَهُ لَهُ : (كَيفَ بِكَ يَا سُرَاقَةُ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَىٰ ؟!) دُونَ أَنْ يُخَامِرَهُ شَكٌّ فِي أَنَّهُ سَيَلْبَسُهُمَا .

* * *

ثُمَّ دَارَتِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا كَرَّةً أُخْرَىٰ وَآلَ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ الْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

وَهَبَّتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَهْدِهِ الْمُبَارَكِ عَلَىٰ مَمْلَكَةِ فَارِسَ كَمَا يَهُبُّ الْإِعْصَارُ ...

فَطَفِقَتْ تَدُكُّ الْحُصُونَ ، وَتَهْزِمُ الْجُيُوشَ ، وَتَهُزُّ الْعُرُوشَ ، وَتُحْرِزُ الْغَنَائِمَ حَتَّىٰ أَدَالَ(٢) اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهَا دَوْلَةَ الْأَكَاسِرَةِ ...

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَوَاخِرِ أَيَّامِ خِلَافَةِ عُمَرَ ، قَدِمَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ رُسُلُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ(٣) يُبَشِّرُونَ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ بِالْفَتْحِ ...

وَيَحْمِلُونَ إِلَىٰ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ خُمُسَ الْفَيْءِ الَّذِي غَنِمَهُ الْغُزَاةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فَلَمَّا وُضِعَتِ الْغَنَائِمُ بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ ؛ نَظَرَ إِلَيْهَا فِي دَهْشَةٍ ...

(١) الْقُلَامَةُ : الْقِطْعَةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي تَسْقُطُ مِنَ الظُّفْرِ .
(٢) أدال اللَّه دولة الأكاسرة : أزالها وحوّلها إلىٰ غيرهم . (٣) سَعْد بن أبي وقّاص : انظره ص ٢٨١ .

فَقَدْ كَانَ فِيهَا تَاجُ كِسْرَىٰ الْمُرَصَّعُ بِالدُّرِّ ...

وَثِيَابُهُ الْمَنْسُوجَةُ بِخُيُوطِ الذَّهَبِ ...

وَوِشَاحُهُ[1] الْمَنْظُومُ بِالْجَوْهَرِ ...

وَسِوَارَاهُ اللَّذَانِ لَمْ تَرَ الْعَيْنُ مِثْلَهُمَا قَطُّ ...

وَمَا لَا حَصْرَ لَهُ مِنَ النَّفَائِسِ الْأُخْرَىٰ ...

فَجَعَلَ عُمَرُ يُقَلِّبُ هَٰذَا الْكَنْزَ الثَّمِينَ بِقَضِيبٍ كَانَ فِي يَدِهِ ...

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ مَنْ حَوْلَهُ وَقَالَ :

إِنَّ قَوْمًا أَدَّوْا هَٰذَا لَأُمَنَاءُ ...

فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَكَانَ حِينَئِذٍ حَاضِرًا :

« إِنَّكَ عَفَفْتَ ؛ فَعَفَّتْ رَعِيَّتُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَلَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعُوا[2] ... » .

وَهُنَا دَعَا الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ سُرَاقَةَ بْنَ مَالِكٍ ، فَأَلْبَسَهُ قَمِيصَ كِسْرَىٰ وَسَرَاوِيلَهُ ، وَقِبَاءَهُ[3] وَخُفَّيْهِ ...

وَقَلَّدَهُ سَيْفَهُ وَمِنْطَقَتَهُ[4] ...

وَوَضَعَ عَلَىٰ رَأْسِهِ تَاجَهُ ...

وَأَلْبَسَهُ سِوَارَيْهِ ... نَعَمْ سِوَارَيْهِ ...

عِنْدَ ذَٰلِكَ هَتَفَ الْمُسْلِمُونَ :

---

(١) الْوِشَاحُ : قِلَادَةٌ من نسيج ثمين يُرَصَّع بالْجوهر ، ويُشَدُّ بين الْكَتِفِ وأَسْفَلِ الظَّهْرِ .

(٢) لو رَتَعْتَ لَرَتَعوا : لو أكلت لأكلوا .

(٣) الْقِبَاء : الثَّوبُ .

(٤) الْمِنطَقَةُ : حِزام يُشَدُّ عَلَىٰ الْوسطِ .

اللَّهُ أَكْبَرُ ... اللَّهُ أَكْبَرُ ... اللَّهُ أَكْبَرُ ...

ثُمَّ الْتَفَتَ عُمَرُ إِلَىٰ سُرَاقَةَ وَقَالَ : بَخٍ بَخٍ(١) ...

أُعَيْرَابِيٌّ(٢) مِنْ بَنِي « مَدْلَجٍ » عَلَىٰ رَأْسِهِ تَاجُ كِسْرَىٰ ...

وَفِي يَدَيْهِ سِوَارَاهُ !! ...

ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَقَالَ :

اللَّهُمَّ إِنَّكَ مَنَعْتَ هَـٰذَا الْمَالَ رَسُولَكَ وَكَانَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنِّي وَأَكْرَمَ عَلَيْكَ ...

وَمَنَعْتَهُ أَبَا بَكْرٍ وَكَانَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنِّي وَأَكْرَمَ عَلَيْكَ ...

وَأَعْطَيْتَنِيهِ ، فَأَعُوذُ بِكَ أَنْ تَكُونَ قَدْ أَعْطَيْتَنِيهِ لِتَمْكُرَ بِي(٣) ...

ثُمَّ لَمْ يَقُمْ مِنْ مَجْلِسِهِ حَتَّىٰ قَسَّمَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ (*) .

---

(١) بَخٍ بَخٍ : كلمة تقال عِنْد التَّعجُّب من شيءٍ أو الفخر به .

(٢) أُعَيْرابي : تصغير أعرابي .

(٣) لِتَمْكُرَ بي : لتُعاقِبَني .

(*) للاستزادة من أخبار سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ انظر :

١ - أُسْدُ الغابة : ٢/ ٣٣١.

٢ - الإصابة : ١٩/٢ أو « الترجمة » ٣١١٥.

٣ - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي : ٩٣.

٤ - الطبقات الكبرىٰ لابن سعد : ١/ ١٨٨، ٢٣٢، ٤/ ٣٦٦، ٥/ ٩٠.

٥ - السيرة النبوية لابن هشام : ١٣٣/٢ ـ ١٣٥ وانظر الفهارس .

٦ - حياة الصحابة : « انظر الفهارس في الرابع » .

٧ - تاج العروس من جواهر القاموس : ٦/ ٨٣.

٨ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٢/ ١١٩.

فَيْرُوزُ الدَّيْلَمِيُّ

« فَيْرُوزُ رَجُلٌ مُبَارَكٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ مُبَارَكِينَ »

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

لَمَّا اشْتَكَىٰ(١) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ ، وَطَارَتِ الْأَخْبَارُ فِي أَرْجَاءِ(٢) الْجَزِيرَةِ بِمَرَضِهِ ، ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ فِي « الْيَمَنِ » ، وَمُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ فِي « الْيَمَامَةِ » ، وَطُلَيْحَةُ الْأَسَدِيُّ فِي بِلَادِ بَنِي « أَسَدٍ » ، وَزَعَمَ الثَّلَاثَةُ الْكَذَّابُونَ أَنَّهُمْ أَنْبِيَاءُ أُرْسِلَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَىٰ قَوْمِهِ ؛ كَمَا أُرْسِلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَىٰ قُرَيْشٍ .

* * *

كَانَ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ كَاهِنًا مُشَعْبِذًا(٣) أَسْوَدَ النَّفْسِ مُسْتَطِيرَ الشَّرِّ ، شَدِيدَ الْقُوَّةِ ، ضَخْمَ الْهَيْكَلِ .

وَكَانَ إِلَىٰ ذَلِكَ فَصِيحًا يَخْلُبُ الْأَلْبَابَ بِبَيَانِهِ ، دَاهِيَةً قَادِرًا عَلَىٰ اللَّعِبِ بِعُقُولِ الْعَامَّةِ بِأَبَاطِيلِهِ ، وَإِغْرَاءِ الْخَاصَّةِ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْمَنَاصِبِ .

وَكَانَ لَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ إِلَّا مُقَنَّعًا(٤) لِإِحَاطَةِ نَفْسِهِ بِهَالَةٍ مِنَ الْغُمُوضِ وَالْهَيْبَةِ .

* * *

وَكَانَ النُّفُوذُ فِي « الْيَمَنِ » إِذْ ذَاكَ « لِلْأَبْنَاءِ » ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ فَيْرُوزُ الدَّيْلَمِيُّ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

---

(١) اشتكىٰ : مَرِض وتألَّم .
(٢) أرجاء الجزيرة : أنحاء الجزيرة .
(٣) المُشَعْبِذ : الَّذي يَسْتَعْمِلُ الشَّعْوَذَة ، وهي خِفَّةٌ في اليَدِ وأعمالٌ كالسِّحْرِ تُرِي الشَّيْءَ للعين بغير ما هو عَلَيْهِ .
(٤) المقنع : الَّذي يضع قناعًا عَلَىٰ وجْهه .

وَ« الْأَبْنَاءُ » اسْمٌ يُطْلَقُ عَلَىٰ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ آبَاؤُهُمْ مِنَ « الْفُرْسِ » الَّذِينَ نَزَحُوا مِنْ بِلَادِهِمْ إِلَىٰ « الْيَمَنِ » ، وَأُمَّهَاتُهُمْ مِنَ الْعَرَبِ .

وَقَدْ كَانَ كَبِيرُهُمْ « بَاذَانُ »[1] عِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ مَلِكًا عَلَىٰ « الْيَمَنِ » مِنْ قِبَلِ « كِسْرَىٰ » عَظِيمِ الْفُرْسِ ، فَلَمَّا اسْتَبَانَ لَهُ صِدْقُ الرَّسُولِ ﷺ وَسُمُوُّ دَعْوَتِهِ ؛ خَلَعَ طَاعَةَ « كِسْرَىٰ » وَدَخَلَ هُوَ وَقَوْمُهُ فِي دِينِ اللَّهِ ، فَأَقَرَّهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ مُلْكِهِ ، وَظَلَّ فِيهِ إِلَىٰ أَنْ مَاتَ قُبَيْلَ ظُهُورِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ بِزَمَنٍ يَسِيرٍ .

* * *

وَكَانَ أَوَّلَ مَنِ اسْتَجَابَ لِدَعْوَةِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ قَوْمُهُ بَنُو « مَذْحِجٍ »[2] ، فَوَثَبَ بِهِمْ عَلَىٰ « صَنْعَاءَ » ، وَقَتَلَ وَالِيَهَا « شَهْرَ بْنَ بَاذَانَ » وَتَزَوَّجَ مِنِ امْرَأَتِهِ « آذَادَ » .

ثُمَّ وَثَبَ مِنْ « صَنْعَاءَ » عَلَىٰ الْمَنَاطِقِ الْأُخْرَىٰ ، فَجَعَلَتْ تَتَهَاوَىٰ تَحْتَ ضَرَبَاتِهِ بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ حَتَّىٰ دَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ الْوَاقِعَةُ مَا بَيْنَ حَضْرَمَوْتَ إِلَىٰ الطَّائِفِ ، وَمَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ وَالْأَحْسَاءِ إِلَىٰ عَدَنَ ...

* * *

وَكَانَ مِمَّا سَاعَدَ الْأَسْوَدَ الْعَنْسِيَّ عَلَىٰ خِدَاعِ النَّاسِ وَاسْتِمَالَتِهِمْ إِلَيْهِ ؛ دَهَاؤُهُ الَّذِي لَا حُدُودَ لَهُ ، فَقَدْ زَعَمَ لِأَتْبَاعِهِ أَنَّ لَهُ مَلَكًا يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ وَيُنَبِّئُهُ بِالْمُغَيَّبَاتِ ...

وَكَانَ يُؤَكِّدُ هَـٰذَا الزَّعْمَ بِعُيُونِهِ[3] الَّذِينَ بَثَّهُمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، لِيَقِفُوا لَهُ عَلَىٰ أَخْبَارِ النَّاسِ ، وَيَنْفُذُوا إِلَىٰ أَسْرَارِهِمْ ، وَيَتَعَرَّفُوا إِلَىٰ مُشْكِلَاتِهِمْ وَيَكْشِفُوا

(١) انظر خبر إسلامه فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ : ص ٣٧.
(٢) كَانَتْ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَكْثَرِ قَبَائِلِ « الْيَمَنِ » عَدَدًا ، وَأَوْسَعِهَا نُفُوذًا ، وَأَشَدِّهَا بَأْسًا .
(٣) الْعيون : الجواسيس .

عَمَّا يَتَلَجْلَجُ[1] فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْأَمَانِيِّ وَالْآمَالِ، ثُمَّ يَأْتُوهُ بِهَا سِرًّا.

فَكَانَ يُوَاجِهُ كُلَّ ذِي حَاجَةٍ بِحَاجَتِهِ، وَيَبْدَأُ كُلَّ صَاحِبِ مُشْكِلَةٍ بِمُشْكِلَتِهِ، وَيَأْتِي لِأَتْبَاعِهِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْغَرَائِبِ مَا يُذْهِلُ عُقُولَهُمْ وَيُحَيِّرُ أَفْهَامَهُمْ... حَتَّىٰ غَلُظَ[2] أَمْرُهُ، وَاسْتَطَارَتْ[3] دَعْوَتُهُ كَمَا تَسْتَطِيرُ النَّارُ الْمُسْتَعِرَةُ فِي الْهَشِيمِ الْيَابِسِ.

* * *

مَا كَادَتْ تَبْلُغُ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْبَاءُ رِدَّةِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ وَوُثُوبِهِ عَلَىٰ «الْيَمَنِ»؛ حَتَّىٰ سَيَّرَ نَحْوَ عَشَرَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ بِرَسَائِلَ إِلَىٰ مَنْ يَتَوَسَّمُ[4] فِيهِمُ الْخَيْرَ مِنْ أَصْحَابِ السَّابِقَةِ[5] فِي «الْيَمَنِ»... يَحُضُّهُمْ فِيهَا عَلَىٰ مُوَاجَهَةِ هَٰذِهِ الْفِتْنَةِ الْعَمْيَاءِ بِالْإِيمَانِ وَالْحَزْمِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِالتَّخَلُّصِ مِنَ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ...

فَمَا مِنْ أَحَدٍ بَلَغَتْهُ رِسَالَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا لَبَّىٰ دَعْوَتَهُ، وَهَبَّ لِإِنْفَاذِ أَمْرِهِ.

وَكَانَ أَسْبَقَ النَّاسِ اسْتِجَابَةً لِنِدَائِهِ بَطَلُ قِصَّتِنَا فَيرُوزُ الدَّيْلَمِيُّ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ «الْأَبْنَاءِ».

فَلْنَتْرُكِ الْكَلَامَ لَهُ لِيَرْوِيَ لَنَا قِصَّتَهُ الْفَذَّةَ الرَّائِعَةَ... قَالَ فَيرُوزُ:

لَمْ نَرْتَبْ[6] أَنَا وَمَنْ مَعِيَ مِنَ «الْأَبْنَاءِ» لَحْظَةً فِي دِينِ اللَّهِ، وَلَا وَقَعَ فِي قَلْبِ أَيٍّ مِنَّا تَصْدِيقٌ لِعَدُوِّ اللَّهِ.

(١) يتلجلج في صدورهم: يختلج في صدورهم.
(٢) غلظ أمره: اشتدَّ أمره وقوي.
(٣) استطارت دعوته: ذاعت وعمَّت، وطارت في الآفاق.
(٤) يتوسم فيهم الخير: يأمُل فيهم الخير وَيَتَوَقَّعُه.
(٥) أصحاب السابقة: السابقون إلىٰ الإسلام وتصديق النبي ﷺ.
(٦) لم نَرْتَبْ: لم نشكَّ.

وَكُنَّا نَتَحَيَّنُ الْفُرَصَ لِلْوُثُوبِ عَلَيْهِ وَالتَّخَلُّصِ مِنْهُ بِكُلِّ سَبِيلٍ ...

فَلَمَّا وَرَدَتْ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ أَصْحَابِ السَّابِقَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كُتُبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ تَقَوَّىٰ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ، وَهَبَّ كُلٌّ مِنَّا يَعْمَلُ فِي جِهَتِهِ ...

* * *

وَكَانَ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ قَدْ دَاخَلَهُ الْغُرُورُ وَالْكِبْرُ لِمَا أَصَابَ مِنْ نَجَاحٍ ، فَتَاهَ[1] عَلَىٰ قَائِدِ جَيْشِهِ « قَيْسِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ » وَتَجَبَّرَ ، وَتَغَيَّرَ فِي مُعَامَلَتِهِ لَهُ حَتَّىٰ صَارَ « قَيْسٌ » لَا يَأْمَنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ بَطْشِهِ .

فَمَضَيْتُ إِلَيْهِ أَنَا وَابْنُ عَمِّي « دَاذَوَيْهِ » وَأَبْلَغْنَاهُ رِسَالَةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَدَعَوْنَاهُ لِأَنْ يَتَغَدَّىٰ بِالرَّجُلِ قَبْلَ أَنْ يَتَعَشَّىٰ بِهِ .

فَانْشَرَحَ لِدَعْوَتِنَا صَدْرُهُ ، وَكَشَفَ لَنَا عَنْ سِرِّهِ ، وَرَآنَا كَأَنَّنَا هَبَطْنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ .

فَتَعَاهَدْنَا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ عَلَىٰ أَنْ نَتَصَدَّىٰ[2] لِلْمُرْتَدِّ الْكَذَّابِ مِنَ الدَّاخِلِ بَيْنَمَا يَتَصَدَّىٰ لَهُ إِخْوَانُنَا الْآخَرُونَ مِنَ الْخَارِجِ .

وَاسْتَقَرَّ رَأْيُنَا عَلَىٰ أَنْ نُشْرِكَ مَعَنَا ابْنَةَ عَمِّي « آذَادَ » الَّتِي تَزَوَّجَ بِهَا الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ بَعْدَ قَتْلِ زَوْجِهَا « شَهْرَ بْنِ بَاذَانَ » .

* * *

مَضَيْتُ إِلَىٰ قَصْرِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ وَالْتَقَيْتُ بِابْنَةِ عَمِّي « آذَادَ » وَقُلْتُ لَهَا :

يَا بْنَةَ الْعَمِّ ، لَقَدْ عَرَفْتِ مَا أَنْزَلَهُ هَٰذَا الرَّجُلُ بِكِ وَبِنَا مِنَ الشَّرِّ وَالضُّرِّ ...

فَلَقَدْ قَتَلَ زَوْجَكِ ، وَفَضَحَ نِسَاءَ قَوْمِكِ ، وَأَهْلَكَ كَثِيرًا مِنْ رِجَالِهِمْ ، وَانْتَزَعَ الْأَمْرَ[3] مِنْ أَيْدِيهِمْ .

(١) تاه : تكبَّر . (٢) نتصدَّىٰ للمرتد : نوجّه أنفسنا لمقاومته . (٣) انتزع الأمر : انتزع الولاية والسلطان .

وَهَٰذَا كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْنَا خَاصَّةً وَإِلَىٰ أَهْلِ «الْيَمَنِ» عَامَّةً يَدْعُونَا فِيهِ إِلَىٰ الْقَضَاءِ عَلَىٰ هَٰذِهِ الْفِتْنَةِ.

فَهَلْ لَكِ أَنْ تُعِينِينَا عَلَيْهِ؟!.

فَقَالَتْ: أُعِينُكُمْ عَلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ؟.

فَقُلْتُ: عَلَىٰ إِخْرَاجِهِ...

فَقَالَتْ: بَلْ عَلَىٰ قَتْلِهِ...

فَقُلْتُ: وَاللَّهِ مَا قَصَدْتُ غَيْرَ ذَلِكَ؛ وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ أُوَاجِهَكِ بِهِ.

فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا مَا ارْتَبْتُ فِي دِينِي طَرْفَةَ عَيْنٍ[1]، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ رَجُلًا أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ هَٰذَا الشَّيْطَانِ...

وَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُهُ مُنْذُ رَأَيْتُهُ إِلَّا فَاجِرًا، أَثِيمًا، لَا يَرْعَىٰ حَقًّا، وَلَا يَنْتَهِي عَنْ مُنْكَرٍ.

فَقُلْتُ: وَكَيْفَ لَنَا بِقَتْلِهِ؟!.

فَقَالَتْ: إِنَّهُ مُتَحَرِّزٌ مُتَحَرِّسٌ[2] لِنَفْسِهِ، وَلَيْسَ فِي الْقَصْرِ مَكَانٌ إِلَّا وَالْحَرَسُ مُحِيطُونَ بِهِ غَيْرَ هَٰذِهِ الْحُجْرَةِ النَّائِيَةِ الْمَهْجُورَةِ؛ فَإِنَّ ظَهْرَهَا إِلَىٰ مَكَانِ كَذَا وَكَذَا عَلَىٰ الْبَرِّيَّةِ، فَإِذَا أَمْسَيْتُمْ فَانْقُبُوهَا فِي عَتَمَةِ اللَّيْلِ، وَسَتَجِدُونَ فِي دَاخِلِهَا السِّلَاحَ وَالْمِصْبَاحَ... وَسَتَجِدُونَنِي فِي انْتِظَارِكُمْ، ثُمَّ ادْخُلُوا عَلَيْهِ وَاقْتُلُوهُ...

فَقُلْتُ: وَلَكِنَّ نَقْبَ[3] حُجْرَةٍ فِي مِثْلِ هَٰذَا الْقَصْرِ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْهَيِّنِ...

---

(١) طرفة عين: لحظة.

(٢) متحرز متحرس: محتاط متيقظ.

(٣) النَّقْب: حفر فتحة في الجدار.

فَقَدْ يَمُرُّ بِنَا إِنْسَانٌ فَيَهْتِفُ وَيَسْتَصْرِخُ[1] الْحَرَسَ ... فَيَكُونُ مَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ ...

فَقَالَتْ : مَا عَدَوْتَ الْحَقَّ[2]... وَلَكُمْ عِنْدِي رَأْيٌ .

قُلْتُ : مَا هُوَ ؟! .

قَالَتْ : تُرْسِلُ غَدًا رَجُلًا تَأْتَمِنُهُ عَلَىٰ هَيْئَةِ عَامِلٍ ، فَآمُرُهُ أَنَا بِنَقْبِ الْحُجْرَةِ مِنَ الدَّاخِلِ حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ مِنَ النَّقْبِ إِلَّا شَيْءٌ يَسِيرٌ ...

ثُمَّ تُتِمُّونَهُ أَنْتُمْ فِي اللَّيْلِ مِنَ الْخَارِجِ بِأَيْسَرِ الْجُهْدِ .

فَقُلْتُ : نِعْمَ الرَّأْيُ مَا رَأَيْتِ .

ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَأَخْبَرْتُ صَاحِبَيَّ بِمَا اتَّفَقْنَا عَلَيْهِ فَبَارَكُوهُ ، وَمَضَيْنَا مِنْ سَاعَتِنَا نُعِدُّ لِلْأَمْرِ عُدَّتَهُ .

ثُمَّ أَفْضَيْنَا[3] إِلَىٰ خَاصَّةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْصَارِنَا بِكَلِمَةِ السِّرِّ ، وَدَعَوْنَاهُمْ لِلتَّأَهُّبِ ، وَجَعَلْنَا مَوْعِدَنَا مَعَهُمْ فَجْرَ الْيَوْمِ التَّالِي .

وَلَمَّا جَنَّ[4] عَلَيْنَا اللَّيْلُ ، وَأَزِفَ[5] الْوَقْتُ الْمُحَدَّدُ ؛ مَضَيْتُ مَعَ صَاحِبَيَّ إِلَىٰ مَكَانِ النَّقْبِ ؛ فَكَشَفْنَا عَنْهُ ، وَوَلَجْنَا[6] إِلَىٰ دَاخِلِ الْحُجْرَةِ وَتَنَاوَلْنَا السِّلَاحَ وَأَضَأْنَا الْمِصْبَاحَ ، وَمَضَيْنَا نَحْوَ مَقْصُورَةِ عَدُوِّ اللَّهِ ؛ فَإِذَا ابْنَةُ عَمِّي وَاقِفَةٌ بِبَابِهَا ، فَأَشَارَتْ إِلَيَّ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ؛ فَإِذَا هُوَ نَائِمٌ يَغُطُّ[7] فِي نَوْمِهِ .

فَأَهْوَيْتُ بِالشَّفْرَةِ عَلَىٰ عُنُقِهِ ؛ فَخَارَ خُوَارَ الثَّوْرِ[8]، وَاضْطَرَبَ اضْطِرَابَ الْبَعِيرِ الْمَذْبُوحِ ...

---

(١) يهتف ويستصرخ : ينادي ويصرخ .
(٢) ما عدوت الحق : ما جاوزته ولا ابتعدت عنه .
(٣) أفضينا : أعلمنا وأخبرنا .
(٤) جن الليل : أظلم وستر الكون .
(٥) أزف الوقت : حان .
(٦) ولجنا : دخلنا .
(٧) يغط في نومه : ينخر في نومه .
(٨) خار خوار الثور : صاح صياح الثور .

فَلَمَّا سَمِعَ الْحَرَسُ خُوَارَهُ ؛ أَقْبَلُوا عَلَىٰ الْمَقْصُورَةِ وَقَالُوا : مَا هَٰذَا ؟!! .

فَقَالَتْ لَهُمُ ابْنَةُ عَمِّي : انْصَرِفُوا رَاشِدِينَ ، فَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ يُوحَىٰ إِلَيْهِ ... فَانْصَرَفُوا ...

* * *

بَقِينَا فِي الْقَصْرِ حَتَّىٰ طَلَعَ الْفَجْرُ ، فَوَقَفْتُ عَلَىٰ سُورٍ مِنْ أَسْوَارِهِ وَهَتَفْتُ :

اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، وَمَضَيْتُ فِي الْأَذَانِ حَتَّىٰ قُلْتُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ الْأَسْوَدَ الْعَنْسِيَّ كَذَّابٌ ...

وَكَانَتْ هَٰذِهِ كَلِمَةَ السِّرِّ .

فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ الْقَصْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَهَبَّ الْحَرَسُ مَذْعُورِينَ لَمَّا سَمِعُوا الْأَذَانَ ، وَتَلَاحَمَ الْفَرِيقَانِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ .

فَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِمْ بِرَأْسِ الْأَسْوَدِ مِنْ فَوْقِ أَسْوَارِ الْقَصْرِ ...

فَلَمَّا رَآهُ أَنْصَارُهُ وَهَنُوا[١] وَذَهَبَتْ رِيحُهُمْ[٢]، وَلَمَّا أَبْصَرَهُ الْمُؤْمِنُونَ كَبَّرُوا وَكَرُّوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ... وَقُضِيَ الْأَمْرُ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ .

* * *

وَلَمَّا أَسْفَرَ[٣] النَّهَارُ بَعَثْنَا بِكِتَابٍ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نُبَشِّرُهُ بِمَصْرَعِ عَدُوِّ اللَّهِ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمُبَشِّرُونَ الْمَدِينَةَ وَجَدُوا النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَدْ فَارَقَ الْحَيَاةَ لِلَيْلَتِهِ[٤].

غَيْرَ أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا أَنْ عَلِمُوا أَنَّ الْوَحْيَ بَشَّرَهُ بِمَقْتَلِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا ...

---

(١) وهنوا : ضعفوا.

(٢) ذهبت ريحهم : زالت قوتهم.

(٣) أسفر النهار : طلع النهار.

(٤) لِلَيْلَتِهِ : في تلك اللَّيلة.

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ :

(قُتِلَ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ الْبَارِحَةَ ...

قَتَلَهُ رَجُلٌ مُبَارَكٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ مُبَارَكِينَ) ...

فَقِيلَ لَهُ : مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ : (فَيْرُوزُ ...

فَازَ فَيْرُوزُ) (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار فَيْرُوزَ الدَّيْلَمِيِّ ، والأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ انظر :
١ – الإصابة : ٣/ ٢١٠ أو « الترجمة » ٧٠١٠.
٢ – الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٣/ ٢٠٤.
٣ – أُسْدُ الغابة : ٤/ ٣٧١.
٤ – تهذيب التهذيب : ٨/ ٣٠٥.
٥ – الطَّبقات الكُبرىٰ لابن سعد : ٥/ ٥٣٣.
٦ – تاريخ الطَّبري : انظر الجزء الثّالث خاصّة ، والفهارس في العاشر عامّة .
٧ – الكامل لابن الأثير : في حوادث السّنة الحادية عشرة .
٨ – فتوح البلدان للبلاذري : ١١١ - ١١٣.
٩ – جمهرة الأنساب : ٣٨١.
١٠– تاريخ الخميس : ٢/ ١٥٥.
١١– دائرة المعارف الإسلامية : ٢/ ١٩٨.
١٢– تاريخ خليفة بن خياط : ٨٤.
١٣– حياة الصّحابة : ٢/ ٢٣٨ - ٢٤٠.
١٤– الأعلام للزركلي : ٥/ ٣٧١ « وفيه ترجمة للأسود العنسي واسمه عيهلة » : ٥/ ٢٩٩.

ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ الأَنْصَارِيُّ

« مَا أُجِيزَتْ وَصِيَّةُ امْرِئٍ أَوْصَىٰ بِهَا بَعْدَ مَوْتِهِ
سِوَىٰ وَصِيَّةِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ » .

ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ الْأَنْصَارِيُّ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ الْخَزْرَجِ[1] الْمَرْمُوقِينَ ، وَوَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ « يَثْرِبَ » الْمَعْدُودِينَ .

وَكَانَ إِلَىٰ ذَٰلِكَ ذَكِيَّ الْفُؤَادِ ، حَاضِرَ الْبَدِيهَةِ ، رَائِعَ الْبَيَانِ ، جَهِيرَ الصَّوْتِ ، إِذَا نَطَقَ بَزَّ[2] الْقَائِلِينَ ، وَإِذَا خَطَبَ أَسَرَ السَّامِعِينَ .

وَهُوَ أَحَدُ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ فِي « يَثْرِبَ » ؛ إِذْ مَا كَادَ يَسْتَمِعُ إِلَىٰ آيِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ يُرَتِّلُهَا الدَّاعِيَةُ الْمَكِّيُّ الشَّابُّ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ بِصَوْتِهِ الشَّجِيِّ وَجَرْسِهِ[3] النَّدِيِّ حَتَّىٰ أَسَرَ الْقُرْآنُ سَمْعَهُ بِحَلَاوَةِ وَقْعِهِ ، وَمَلَكَ قَلْبَهُ بِرَائِعِ بَيَانِهِ ، وَخَلَبَ لُبَّهُ بِمَا حَفَلَ بِهِ مِنْ هَدْيٍ وَتَشْرِيعٍ .

فَشَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ ، وَأَعْلَىٰ قَدْرَهُ وَرَفَعَ ذِكْرَهُ بِالِانْضِوَاءِ تَحْتَ لِوَاءِ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ .

* * *

وَلَمَّا قَدِمَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ مُهَاجِرًا اسْتَقْبَلَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فِي كَوْكَبَةٍ[4] كَبِيرَةٍ مِنْ فُرْسَانِ قَوْمِهِ أَكْرَمَ اسْتِقْبَالٍ ، وَرَحَّبَ بِهِ

---

(١) الْخَزْرَج : قبيلة يمانية الأصل ارتحلت إِلَىٰ الْمدينة واستقرت فيها ، وكانت هي والْأوس تكوِّنان جمهرة الأنصار .

(٢) بَزَّ الْقائلين : غلبهم وتفوّق عليهم .

(٣) الْجرْس بسكون الراء : النّبْرة والنّغمة .

(٤) كوْكَبة : جماعة .

وَبِصَاحِبِهِ الصِّدِّيقِ أَجْمَلَ تَرْحِيبٍ ، وَخَطَبَ بَيْنَ يَدَيْهِ خُطْبَةً بَلِيغَةً افْتَتَحَهَا بِحَمْدِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَىٰ نَبِيِّهِ …

وَاخْتَتَمَهَا بِقَوْلِهِ : « وَإِنَّا نُعَاهِدُكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - عَلَىٰ أَنْ نَمْنَعَكَ[1] مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَنْفُسَنَا وَأَوْلَادَنَا وَنِسَاءَنَا ؛ فَمَا لَنَا لِقَاءَ ذَلِكَ ؟ » .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(الْجَنَّةُ) …

فَمَا كَادَتْ كَلِمَةُ « الْجَنَّةِ » تُصَافِحُ آذَانَ الْقَوْمِ حَتَّىٰ أَشْرَقَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْفَرْحَةِ وَزَهَتْ قَسَمَاتُهُمْ بِالْبَهْجَةِ ، وَقَالُوا :

رَضِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ … رَضِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ …

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ جَعَلَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ خَطِيبَهُ ، كَمَا كَانَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ شَاعِرَهُ .

فَصَارَ إِذَا جَاءَتْهُ وُفُودُ الْعَرَبِ لِتُفَاخِرَهُ أَوْ تُنَاظِرَهُ بِأَلْسِنَةِ الْفُصَحَاءِ الْمَقَاوِلِ[2] مِنْ خُطَبَائِهَا وَشُعَرَائِهَا ، نَدَبَ لَهُمْ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ لِمُصَاوَلَةِ[3] الْخُطَبَاءِ ، وَحَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ لِمُفَاخَرَةِ الشُّعَرَاءِ[4].

* * *

وَلَقَدْ كَانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مُؤْمِنًا عَمِيقَ الْإِيمَانِ ، تَقِيًّا صَادِقَ التَّقْوَىٰ ، شَدِيدَ الْخَشْيَةِ مِنْ رَبِّهِ ، عَظِيمَ الْحَذَرِ مِنْ كُلِّ مَا يُغْضِبُ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ .

---

(١) نَمْنَعَكَ : نحميك .
(٢) الْمَقَاوِل : الْبُلَغَاء الَّذين يجيدون الْقَوْلَ .
(٣) الْمُصَاوَلَة : الْمنازلَة .
(٤) انظر موقف الْإِسلام من الْأَدب بعامة ومن الشعر بخاصة في كتاب « نحو مذهب إسلامي في الْأَدب والنقد » للمؤلف .

فَلَقَدْ رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ هَلِعًا جَزِعًا[1] تَرْتَعِدُ فَرَائِصُهُ[2] خَوْفًا وَخَشْيَةً فَقَالَ :

(مَا بِكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟!) .

فَقَالَ : أَخْشَىٰ أَنْ أَكُونَ قَدْ هَلَكْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

قَالَ : (وَلِمَ ؟!) .

قَالَ : لَقَدْ نَهَانَا اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ عَنْ أَنْ نُحِبَّ أَنْ نُحْمَدَ بِمَا لَمْ نَفْعَلْ ، وَأَجِدُنِي أُحِبُّ الْحَمْدَ ...

وَنَهَانَا عَنِ الْخُيَلَاءِ[3]، وَأَجِدُنِي أُحِبُّ الزَّهْوَ[4].

فَمَا زَالَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِ[5] حَتَّىٰ قَالَ :

(يَا ثَابِتُ ، أَلَا تَرْضَىٰ أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا ...

وَتُقْتَلَ شَهِيدًا ...

وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ ؟) ...

فَأَشْرَقَ وَجْهُ ثَابِتٍ بِهَٰذِهِ الْبُشْرَىٰ ، وَقَالَ :

بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ ... بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (إِنَّ لَكَ ذَلِكَ) .

* * *

---

(١) هلعًا جزعًا : خائفًا محزونًا .
(٢) الفرائص : جمع مفرده فريصة ، وهي لحمة بين الثدي والكتف ترتعد عند الفزع .
(٣) الخيلاء : التكبر .
(٤) الزهو : الإعجاب بالنفس. (٥) يهدئ من روعه : يهدئ من خوفه .

وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ[1] وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[2].

تَجَنَّبَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَجَالِسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ـ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ شِدَّةِ حُبِّهِ لَهُ ، وَفَرْطِ تَعَلُّقِهِ بِهِ ـ وَلَزِمَ بَيْتَهُ حَتَّىٰ لَا يَكَادَ يَبْرَحُهُ إِلَّا لِأَدَاءِ الْمَكْتُوبَةِ[3].

فَافْتَقَدَهُ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَقَالَ :

(مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِهِ ؟) .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

وَذَهَبَ إِلَيْهِ فَوَجَدَهُ فِي مَنْزِلِهِ مَحْزُونًا مُنَكِّسًا رَأْسَهُ ؛ فَقَالَ لَهُ :

مَا شَأْنُكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ .

قَالَ : شَرٌّ .

قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟! .

قَالَ : إِنَّكَ تَعْرِفُ أَنِّي رَجُلٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ ، وَأَنَّ صَوْتِي كَثِيرًا مَا يَعْلُو عَلَىٰ صَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا تَعْلَمُ ... وَمَا أَحْسَبُنِي إِلَّا قَدْ حَبِطَ[4] عَمَلِي وَأَنَّنِي مِنْ أَهْلِ النَّارِ ...

فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا رَأَىٰ وَمَا سَمِعَ فَقَالَ :

---

(١) أن تحبط أعمالكم : أي مخافة أن تفسد أعمالكم وتذهب سدى .
(٢) الحجرات : آية ٢ .
(٣) المكتوبة : الصلاة .
(٤) حبط عملي : ذهب سدى .

(اذْهَبْ إِلَيْهِ وَقُلْ لَهُ : لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ؛ وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) . فَكَانَتْ هَٰذِهِ بِشَارَةً عُظْمَىٰ لِثَابِتٍ ظَلَّ يَرْجُو خَيْرَهَا طَوَالَ حَيَاتِهِ .

* * *

وَقَدْ شَهِدَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا سِوَىٰ « بَدْرٍ » ، وَأَقْحَمَ نَفْسَهُ فِي غِمَارِ الْمَعَارِكِ طَلَبًا لِلشَّهَادَةِ الَّتِي بَشَّرَهُ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ ، فَكَانَ يُخْطِئُهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ ، وَهِيَ قَابَ قَوْسَيْنِ[1] مِنْهُ أَوْ أَدْنَىٰ ...

إِلَىٰ أَنْ وَقَعَتْ حُرُوبُ الرِّدَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَمُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ عَلَىٰ عَهْدِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَلَقَدْ كَانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ إِذْ ذَاكَ أَمِيرًا لِجُنْدِ الْأَنْصَارِ ، وَسَالِمٌ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ[2] أَمِيرًا لِجُنْدِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ قَائِدًا لِلْجَيْشِ كُلِّهِ :

أَنْصَارِهِ وَمُهَاجِرِيهِ ؛ وَمَنْ فِيهِ مِنْ أَبْنَاءِ الْبَوَادِي ...

وَلَقَدْ كَانَتِ الرِّيحُ وَالدَّوْلَةُ[3] فِي جُلِّ الْمَعَارِكِ لِمُسَيْلِمَةَ وَرِجَالِهِ عَلَىٰ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ ، حَتَّىٰ بَلَغَ بِهِمُ الْأَمْرُ أَنِ اقْتَحَمُوا فُسْطَاطَ[4] خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، وَهَمُّوا بِقَتْلِ زَوْجَتِهِ أُمِّ تَمِيمٍ ... وَقَطَعُوا حِبَالَ الْفُسْطَاطِ وَمَزَّقُوهُ شَرَّ مُمَزَّقٍ .

فَرَأَىٰ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ يَوْمَذَاكَ مِنْ تَضَعْضُعِ الْمُسْلِمِينَ مَا شَحَنَ[5] قَلْبَهُ أَسًى وَكَمَدًا ، وَسَمِعَ مِنْ تَنَابُزِهِمْ[6] مَا مَلَأَ صَدْرَهُ هَمًّا وَغَمًّا ...

فَأَبْنَاءُ الْمُدُنِ يَرْمُونَ أَهْلَ الْبَوَادِي بِالْجُبْنِ ، وَأَهْلُ الْبَوَادِي يَصِفُونَ أَبْنَاءَ الْمُدُنِ بِأَنَّهُمْ لَا يُحْسِنُونَ الْقِتَالَ وَلَا يَدْرُونَ مَا الْحَرْبُ ...

---

(١) قاب قوسين : مقدار قوسين ، وهي عبارة تستعمل للدلالة علىٰ شدة القرب .
(٢) سالم مولىٰ أبي حذيفة : انظره ص ٥٢٧ .
(٣) الريح : القوة ... والدولة : النصر والغلب .
(٤) فسطاط خالد : خيمة خالد .
(٥) شحن : ملأ .
(٦) التنابز : التعاير ، وتنابز القوم : عيَّر بعضهم بعضًا .

عِنْدَ ذَلِكَ تَحَنَّطَ[1] ثَابِتٌ وَتَكَفَّنَ وَوَقَفَ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ وَقَالَ :

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، مَا هَكَذَا كُنَّا نُقَاتِلُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

بِئْسَ مَا عَوَّدْتُمْ أَعْدَاءَكُمْ مِنَ الْجُرْأَةِ عَلَيْكُمْ ...

وَبِئْسَ مَا عَوَّدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مِنَ الِانْخِذَالِ لَهُمْ ...

ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَقَالَ :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ مِنَ الشِّرْكِ [يَعْنِي مُسَيْلِمَةَ وَقَوْمَهُ] .

وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ [يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ] .

ثُمَّ هَبَّ هَبَّةَ الْأَسَدِ الضَّارِي كَتِفًا لِكَتِفٍ مَعَ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ :

الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ[2] ...

وَزَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ أَخِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ...

وَسَالِمٍ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ ...

وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ السَّابِقِينَ ...

وَأَبْلَىٰ بَلَاءً عَظِيمًا مَلَأَ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ حَمِيَّةً وَعَزْمًا ، وَشَحَنَ أَفْئِدَةَ الْمُشْرِكِينَ وَهْنًا وَرُعْبًا .

وَمَا زَالَ يُجَالِدُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ ، وَيُضَارِبُ بِكُلِّ سِلَاحٍ حَتَّىٰ أَثْخَنَتْهُ[3] الْجِرَاحُ ؛ فَخَرَّ صَرِيعًا عَلَىٰ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ قَرِيرَ الْعَيْنِ[4] بِمَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنَ

---

(١) تحنط : وَضَعَ الْحَنُوطَ عَلَىٰ جَسَدِهِ ، والحنوط : نبات يذر عَلَىٰ جَسَدِ الْمَيِّتِ ، وتحنُّطه إشارة إِلَىٰ استعداده للموت .

(٢) الْبراء بن مَالِك الْأَنْصَاري : انظره ص ٥١ .

(٣) أثخنته الْجراح : أوهنته وأضعفته .

(٤) قريرُ الْعين : سعيدٌ مُغْتَبِطٌ .

الشَّهَادَةِ الَّتِي بَشَّرَهُ بِهَا حَبِيبُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مَثْلُوجَ الصَّدْرِ[1] بِمَا حَقَّقَ اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ النَّصْرِ...

* * *

وَكَانَتْ عَلَىٰ ثَابِتٍ دِرْعٌ نَفِيسَةٌ؛ فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَنَزَعَهَا عَنْهُ، وَأَخَذَهَا لِنَفْسِهِ.

وَفِي اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ لِاسْتِشْهَادِهِ رَآهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَنَامِهِ فَقَالَ لِلرَّجُلِ:

أَنَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ، فَهَلْ عَرَفْتَنِي؟.

قَالَ: نَعَمْ.

فَقَالَ: إِنِّي أُوصِيكَ بِوَصِيَّةٍ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ هَـٰذَا حُلُمٌ فَتُضَيِّعَهَا...

إِنِّي لَمَّا قُتِلْتُ بِالْأَمْسِ مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ صِفَتُهُ كَذَا وَكَذَا؛ فَأَخَذَ دِرْعِي وَمَضَىٰ بِهَا نَحْوَ خِبَائِهِ[2] فِي أَقْصَىٰ الْمُعَسْكَرِ مِنَ الْجِهَةِ الْفُلَانِيَّةِ، وَوَضَعَهَا تَحْتَ قِدْرٍ لَهُ، وَوَضَعَ فَوْقَ الْقِدْرِ رَحْلًا[3]...

فَائْتِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَقُلْ لَهُ:

أَنْ يَبْعَثَ إِلَىٰ الرَّجُلِ مَنْ يَأْخُذُ الدِّرْعَ مِنْهُ فَهِيَ مَا تَزَالُ فِي مَكَانِهَا...

وَأُوصِيكَ بِأُخْرَىٰ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ هَـٰذَا حُلُمُ نَائِمٍ فَتُضَيِّعَهَا...

قُلْ لِخَالِدٍ: إِذَا قَدِمْتَ عَلَىٰ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ فَقُلْ لَهُ:

إِنَّ عَلَىٰ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ مِنَ الدَّيْنِ كَذَا وَكَذَا...

---

(١) مَثْلُوجَ الصَّدْرِ: بِمَعْنَىٰ قَرِيرِ الْعَيْنِ.
(٢) خِبائِه: خَيمته.
(٣) الرَّحْلُ: ما يوضع فوق ظَهْر الْبعير ونحوه ويُرْحَلُ عَلَيْهِ.

وَإِنَّ فُلَانًا وَفُلَانًا مِنْ رَقِيقِهِ[1] عَتِيقَانِ[2]، فَلْيَقْضِ دَيْنِي وَلْيُحَرِّرْ غُلَامَيَّ ...

فَاسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ، فَأَتَى خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَأَخْبَرَهُ بِمَا سَمِعَ وَمَا رَأَى ...

فَبَعَثَ خَالِدٌ مَنْ يُحْضِرُ الدِّرْعَ مِنْ عِنْدِ آخِذِهَا فَوَجَدَهَا فِي مَكَانِهَا وَجَاءَ بِهَا كَمَا هِيَ.

وَلَمَّا عَادَ خَالِدٌ إِلَى الْمَدِينَةِ حَدَّثَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِخَبَرِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ وَوَصِيَّتِهِ فَأَجَازَ الصِّدِّيقُ وَصِيَّتَهُ.

وَمَا عُرِفَ أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أُجِيزَتْ وَصِيَّتُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ سِوَاهُ ...

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ وَأَرْضَاهُ، وَجَعَلَ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ مَثْوَاهُ (*).

---

(١) رقيقه: عبيده.

(٢) عتيقان: معتوقان محرران.

(*) للاستزادة من أخبار ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ الْأَنْصَارِيِّ انظر:

١ – الإصابة: ١/١٩٥ أو «الترجمة» ٩٠٤.
٢ – الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ١/١٩٢.
٣ – تهذيب التهذيب: ٢/١٢.
٤ – فتح الباري: ٦/٤٠٥.
٥ – تاريخ الإسلام للذهبي: ١/٣٧١.
٦ – حياة الصحابة: «انظر الفهارس في الجزء الرابع».
٧ – البيان والتبيين: ١/٢٠١، ٣٥٩.
٨ – سيرة ابن هشام: ٢/١٥٢ و٣/٣١٨ و٤/٢٠٧.
٩ – الصديق لحسين هيكل: ١٦٠.
١٠ – سير أعلام النبلاء.
١١ – أسد الغابة: ١/٢٧٥ أو «الترجمة»: ٥٦٩.

طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ التَّيْمِيُّ

« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ يَمْشِي عَلَىٰ الْأَرْضِ وَقَدْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ »

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

كَانَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ التَّيْمِيُّ يَمْضِي مَعَ قَافِلَةٍ مِنْ قَوَافِلِ قُرَيْشٍ فِي تِجَارَةٍ لَهُ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ ، فَلَمَّا بَلَغَتِ الْقَافِلَةُ مَدِينَةَ « بُصْرَىٰ »(١)، هَبَّ الشُّيُوخُ مِنْ تُجَّارِ قُرَيْشٍ إِلَىٰ سُوقِهَا الْعَامِرَةِ يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ .

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ طَلْحَةَ كَانَ شَابًّا حَدَثًا(٢) لَيْسَ لَهُ مِثْلُ خِبْرَتِهِمْ فِي التِّجَارَةِ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَمْلِكُ مِنْ حِدَّةِ الذَّكَاءِ وَنَفَاذِ الْبَصِيرَةِ مَا يُتِيحُ لَهُ مُنَافَسَتَهُمْ ، وَالْفَوْزَ مِنْ دُونِهِمْ بِأَفْضَلِ الصَّفَقَاتِ .

وَفِيمَا كَانَ طَلْحَةُ يَرُوحُ وَيَغْدُو فِي السُّوقِ الَّتِي تَمُوجُ بِالْوَافِدِينَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، حَدَثَ لَهُ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ سَبَبًا فِي تَغْيِيرِ مَجْرَىٰ حَيَاتِهِ كُلِّهَا فَحَسْبُ ...

وَ إِنَّمَا كَانَ بَشِيرًا بِتَغْيِيرِ سَيْرِ التَّارِيخِ كُلِّهِ ...

فَلْنَتْرُكِ الْكَلَامَ لِطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ لِيَرْوِيَ لَنَا قِصَّتَهُ الْمُثِيرَةَ .

* * *

قَالَ طَلْحَةُ :

بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سُوقِ « بُصْرَىٰ » ؛ إِذَا رَاهِبٌ(٣) يُنَادِي فِي النَّاسِ :

---

(١) بُصْرَىٰ : مدينة في بلاد الشَّام ، وهي الآن من محافظة حوران في سورية ، كانت مشهورة عند العرب بقصورها .

(٢) حدثًا : صغير السِّن .

(٣) الرَّاهِبُ : رَجُل الدِّين عند النَّصارَىٰ .

يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ ، سَلُوا أَهْلَ هَٰذَا الْمُوسِمِ[١] أَفِيهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَرَمِ[٢]؟ .

وَكُنْتُ قَرِيبًا مِنْهُ فَبَادَرْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ : نَعَمْ أَنَا مِنْ أَهْلِ الْحَرَمِ .

فَقَالَ : هَلْ ظَهَرَ فِيكُمْ أَحْمَدُ ؟ .

فَقُلْتُ : وَمَنْ أَحْمَدُ ؟! .

فَقَالَ : ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ...

هَٰذَا شَهْرُهُ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ ...

وَهُوَ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ ...

يَخْرُجُ مِنْ أَرْضِكُمْ مِنَ الْحَرَمِ ، وَيُهَاجِرُ إِلَىٰ أَرْضٍ ذَاتِ حِجَارَةٍ سُودٍ ، وَنَخِيلٍ وَسِبَاخٍ[٣] يَنِزُّ[٤] مِنْهَا الْمَاءُ ...

فَإِيَّاكَ أَنْ تُسْبَقَ إِلَيْهِ يَا فَتَىٰ ... قَالَ طَلْحَةُ :

فَوَقَعَتْ مَقَالَتُهُ فِي قَلْبِي ، فَبَادَرْتُ إِلَىٰ مَطَايَايَ[٥] فَرَحَلْتُهَا[٦]، وَخَلَّفْتُ الْقَافِلَةَ وَرَائِي ، وَمَضَيْتُ أَهْوِي هُوِيًّا[٧] إِلَىٰ مَكَّةَ .

فَلَمَّا بَلَغْتُهَا ؛ قُلْتُ لِأَهْلِي : أَكَانَ مِنْ حَدَثٍ بَعْدَنَا فِي مَكَّةَ ؟ .

قَالُوا : نَعَمْ ، قَامَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَقَدْ تَبِعَهُ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ [يُرِيدُونَ أَبَا بَكْرٍ] ... قَالَ طَلْحَةُ :

وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَبَا بَكْرٍ ؛ فَقَدْ كَانَ رَجُلًا سَهْلًا مُحَبَّبًا مُوَطَّأَ الْأَكْنَافِ[٨] لِقَوْمِهِ ...

---

(١) الموسمُ : مُجْتَمَع النَّاسِ للحج ، أو للبيع والشِّراءِ .
(٢) أَهْل الْحَرَم : أَهْل مَكَّة .
(٣) أرض ذات سِباخٍ : أَرْضٌ فِيها نَزٌّ ومِلْحٌ .
(٤) ينِزُّ : يَتَحَلَّبُ .
(٥) مطاياي : جِمالي .
(٦) رَحَلْتُهَا : وضعْتُ علَيْهَا رِحَالَها استعدادًا للسَّفَرِ .
(٧) أهوي هُوِيًّا : أندفع مُسْرِعًا .
(٨) موطَّأ الأكناف : لَيِّنُ الْجانِبِ .

وَكَانَ تَاجِرًا ذَا خُلُقٍ وَاسْتِقَامَةٍ، وَكُنَّا نَأْلَفُهُ، وَنُحِبُّ مَجَالِسَهُ، لِعِلْمِهِ بِأَخْبَارِ قُرَيْشٍ، وَحِفْظِهِ لِأَنْسَابِهَا ... فَمَضَيْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ :

أَحَقًّا مَا يُقَالُ مِنْ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَظْهَرَ النُّبُوَّةَ، وَأَنَّكَ اتَّبَعْتَهُ ؟! .

قَالَ : نَعَمْ ... وَجَعَلَ يَقُصُّ عَلَيَّ مِنْ خَبَرِهِ، وَيُرَغِّبُنِي فِي الدُّخُولِ مَعَهُ، فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَ الرَّاهِبِ، فَدَهِشَ لَهُ وَقَالَ :

هَلُمَّ[1] مَعِي إِلَىٰ مُحَمَّدٍ لِتَقُصَّ عَلَيْهِ خَبَرَكَ، وَلِتَسْمَعَ مَا يَقُولُ ... وَلِتَدْخُلَ فِي دِينِ اللَّهِ ... قَالَ طَلْحَةُ :

فَمَضَيْتُ مَعَهُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ فَعَرَضَ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ، وَقَرَأَ عَلَيَّ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ، وَبَشَّرَنِي بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَشَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي إِلَى الْإِسْلَامِ، وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّةَ رَاهِبِ « بُصْرَىٰ » ؛ فَسُرَّ بِهَا سُرُورًا بَدَا عَلَىٰ وَجْهِهِ ...

ثُمَّ أَعْلَنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ...

فَكُنْتُ رَابِعَ ثَلَاثَةٍ أَسْلَمُوا عَلَىٰ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ.

* * *

وَقَعَ إِسْلَامُ الْفَتَى الْقُرَشِيِّ عَلَىٰ أَهْلِهِ وَذَوِيهِ وُقُوعَ الصَّاعِقَةِ.

وَكَانَ أَشَدَّهُمْ جَزَعًا[2] لِإِسْلَامِهِ أُمُّهُ ؛ فَقَدْ كَانَتْ تَرْجُو أَنْ يَسُودَ قَوْمَهُ لِمَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ كَرِيمِ الشَّمَائِلِ وَجَلِيلِ الْخَصَائِلِ ...

* * *

وَقَدْ بَادَرَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ لِيَثْنُوهُ عَنْ دِينِهِ ؛ فَوَجَدُوهُ كَالطَّوْدِ[3] الرَّاسِخِ الَّذِي لَا يَتَزَعْزَعُ.

---

(١) هَلُمَّ معي : امضِ معي. (٢) جزعًا : حزنًا وهلعًا. (٣) الطود : الجبل العظيم.

فَلَمَّا يَئِسُوا مِنْ إِقْنَاعِهِ بِالْحُسْنَىٰ لَجَؤُوا إِلَىٰ تَعْذِيبِهِ وَالتَّنْكِيلِ بِهِ ...

حَدَّثَ مَسْعُودُ بْنُ خَرَاشٍ قَالَ :

بَيْنَمَا كُنْتُ أَسْعَىٰ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ(١)، إِذَا أُنَاسٌ كَثِيرٌ يَتْبَعُونَ فَتًى أُوثِقَتْ يَدَاهُ(٢) إِلَىٰ عُنُقِهِ ... وَهُمْ يُهَرْوِلُونَ وَرَاءَهُ، وَيَدْفَعُونَهُ فِي ظَهْرِهِ، وَيَضْرِبُونَهُ عَلَىٰ رَأْسِهِ ... وَخَلْفَهُ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ تَسُبُّهُ وَتَصِيحُ بِهِ ...

فَقُلْتُ : مَا شَأْنُ(٣) هَٰذَا الْفَتَىٰ ؟! .

فَقَالُوا : هَٰذَا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، صَبَأَ(٤) عَنْ دِينِهِ، وَتَبِعَ غُلَامَ بَنِي « هَاشِمٍ » ... فَقُلْتُ : وَمَنْ هَٰذِهِ الْعَجُوزُ الَّتِي وَرَاءَهُ ؟ .

فَقَالُوا : هِيَ الصَّعْبَةُ بِنْتُ الْحَضْرَمِيِّ أُمُّ الْفَتَىٰ ...

* * *

ثُمَّ إِنَّ نَوْفَلَ بْنَ خُوَيْلِدٍ الْمُلَقَّبَ بِأَسَدِ قُرَيْشٍ، قَامَ إِلَىٰ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ فَأَوْثَقَهُ فِي حَبْلٍ، وَأَوْثَقَ مَعَهُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ، وَقَرَنَهُمَا مَعًا وَأَسْلَمَهُمَا إِلَىٰ سُفَهَاءِ مَكَّةَ ؛ لِيُذِيقُوهُمَا أَشَدَّ الْعَذَابِ ...

لِذَلِكَ دُعِيَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ « بِالْقَرِينَيْنِ » .

* * *

ثُمَّ جَعَلَتِ الْأَيَّامُ تَدُورُ، وَالْأَحْدَاثُ تَتَلَاحَقُ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يَزْدَادُ مَعَ الْأَيَّامِ اكْتِمَالًا، وَبَلَاؤُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ يَكْبُرُ وَيَتَعَاظَمُ، وَبِرُّهُ بِالْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ يَنْمُو وَيَتَّسِعُ، حَتَّىٰ أَطْلَقَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ لَقَبَ « الشَّهِيدِ الْحَيِّ »، وَدَعَاهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : بِطَلْحَةِ الْخَيْرِ، وَطَلْحَةِ الْجُودِ، وَطَلْحَةِ

(١) الصفا والمروة : مشعران من مشاعر الحج يتنقل الحجاج والمعتمرون بينهما .
(٢) أوثقت يداه : كُتِّفَت يداه وربطتا .
(٣) ما شأن هذا الفتى : ما أمره وخبره ؟ .
(٤) صبأ عن دينه : رجع عن دينه .

الْفَيَّاضِ ... وَلِكُلٍّ مِنْ هَٰذِهِ الْأَلْقَابِ قِصَّةٌ لَا تَقِلُّ رَوْعَةً عَنْ أَخَوَاتِهَا .

* * *

أَمَّا قِصَّةُ تَلْقِيبِهِ بِالشَّهِيدِ الْحَيِّ فَكَانَتْ يَوْمَ « أُحُدٍ » حِينَ انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ غَيْرُ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ .

وَكَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَصْعَدُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْجَبَلِ ، فَلَحِقَتْ بِهِ عُصْبَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ تُرِيدُ قَتْلَهُ ... فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(مَنْ يَرُدُّ عَنَّا هَؤُلَاءِ ، وَهُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ ؟) .

فَقَالَ طَلْحَةُ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (لَا ، مَكَانَكَ[1]) .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ : (نَعَمْ ، أَنْتَ) .

فَقَاتَلَ الْأَنْصَارِيُّ حَتَّىٰ قُتِلَ ، ثُمَّ صَعِدَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمَنْ مَعَهُ فَلَحِقَهُ الْمُشْرِكُونَ ، فَقَالَ : (أَلَا رَجُلٌ لِهَؤُلَاءِ ؟!) .

فَقَالَ طَلْحَةُ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (لَا ، مَكَانَكَ) .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ : (نَعَمْ ، أَنْتَ) ... ثُمَّ قَاتَلَ الْأَنْصَارِيُّ حَتَّىٰ قُتِلَ أَيْضًا .

وَتَابَعَ الرَّسُولُ صُعُودَهُ ، فَلَحِقَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ ، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ مِثْلَ قَوْلِهِ ،

(١) مكانك : الزم مكانك .

وَيَقُولُ طَلْحَةُ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَيَمْنَعُهُ النَّبِيُّ ﷺ ، وَيَأْذَنُ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدُوا جَمِيعًا ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا طَلْحَةُ فَلَحِقَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ ، فَقَالَ لِطَلْحَةَ : (الْآنَ ، نَعَمْ) ...

وَكَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ[1] وَشُجَّ جَبِينُهُ ، وَجُرِحَتْ شَفَتُهُ ، وَسَالَ الدَّمُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، وَأَصَابَهُ الْإِعْيَاءُ[2] ... فَجَعَلَ طَلْحَةُ يَكُرُّ[3] عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يَدْفَعَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ يَنْقَلِبُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَيَرْقَىٰ بِهِ قَلِيلًا فِي الْجَبَلِ ، ثُمَّ يُسْنِدُهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ ، وَيَكُرُّ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَدِيدٍ ... وَمَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ صَدَّهُمْ عَنْهُ ...

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَكُنْتُ آنَئِذٍ أَنَا وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ[4] بَعِيدَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا أَقْبَلْنَا عَلَيْهِ نُرِيدُ إِسْعَافَهُ قَالَ :

(اتْرُكَانِي وَانْصَرِفَا إِلَىٰ صَاحِبِكُمَا) ، [يُرِيدُ طَلْحَةَ] .

فَإِذَا طَلْحَةُ تَنْزِفُ دِمَاؤُهُ ، وَفِيهِ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ضَرْبَةً بِسَيْفٍ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ ... وَإِذَا هُوَ قَدْ قُطِعَتْ كَفُّهُ ، وَسَقَطَ فِي حُفْرَةٍ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ...

فَكَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ :

(مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ يَمْشِي عَلَىٰ الْأَرْضِ ، وَقَدْ قَضَىٰ نَحْبَهُ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ) .

وَكَانَ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا ذُكِرَ « أُحُدٌ » يَقُولُ :

ذَلِكَ يَوْمٌ كُلُّهُ لِطَلْحَةَ ...

* * *

(١) رباعيته : سنّه الّتي بين النّاب والثّنية .
(٢) الإعياء : التّعب .
(٣) يكرّ : يهجم .
(٤) أبو عُبيدة بْن الْجرّاح : انظره ص ٨٩ .

هَٰذِهِ هِيَ قِصَّةُ نَعْتِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بِالشَّهِيدِ الْحَيِّ ، أَمَّا تَلْقِيبُهُ بِطَلْحَةِ الْخَيْرِ ، وَطَلْحَةِ الْجُودِ فَلَهُ مِائَةُ قِصَّةٍ وَقِصَّةٌ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ طَلْحَةَ كَانَ تَاجِرًا وَاسِعَ التِّجَارَةِ عَظِيمَ الثَّرَاءِ ، فَجَاءَهُ ذَاتَ يَوْمٍ مَالٌ مِنْ « حَضْرَمَوْتَ » مِقْدَارُهُ سَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَبَاتَ لَيْلَتَهُ وَجِلًا[1] جَزِعًا مَحْزُونًا .

فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَقَالَتْ :

مَا بِكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟!! ...

لَعَلَّهُ رَابَكَ[2] مِنَّا شَيْءٌ !! .

فَقَالَ : لَا ، وَلَنِعْمَ حَلِيلَةُ[3] الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ أَنْتِ ...

وَلَكِنْ تَفَكَّرْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ وَقُلْتُ :

مَا ظَنُّ رَجُلٍ بِرَبِّهِ إِذَا كَانَ يَنَامُ وَهَٰذَا الْمَالُ فِي بَيْتِهِ ؟! .

قَالَتْ : وَمَا يَغُمُّكَ[4] مِنْهُ ؟! ...

أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْمُحْتَاجِينَ مِنْ قَوْمِكَ وَأَخِلَّائِكَ ؟! ...

فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَقَسِّمْهُ بَيْنَهُمْ .

فَقَالَ : رَحِمَكِ اللَّهُ ، إِنَّكِ مُوَفَّقَةٌ بِنْتُ مُوَفَّقٍ ...

فَلَمَّا أَصْبَحَ جَعَلَ الْمَالَ فِي صُرَرٍ وَجِفَانٍ[5]، وَقَسَّمَهُ بَيْنَ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .

* * *

---

(١) وجلًا : خائفًا .
(٢) رابك : أصابك وساءك .
(٣) الحليلة : الزوجة .
(٤) يغمك : يهمك ويدخل عليك الغم .
(٥) جفان : جمع جفنة ، وهي القصعة الكبيرة .

وَرُوِيَ أَيْضًا أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَىٰ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ يَطْلُبُ رِفْدَهُ[1] وَذَكَرَ لَهُ رَحِمًا تَرْبِطُهُ بِهِ، فَقَالَ طَلْحَةُ:

هَٰذِهِ رَحِمٌ مَا ذَكَرَهَا لِي أَحَدٌ مِنْ قَبْلُ.

وَإِنَّ لِي أَرْضًا دَفَعَ لِي فِيهَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ[2] ثَلَاثَمِائَةِ أَلْفٍ...

فَإِنْ شِئْتَ خُذْهَا، وَإِنْ شِئْتَ بِعْتُهَا لَكَ مِنْهُ بِثَلَاثِمِائَةِ أَلْفٍ، وَأَعْطَيْتُكَ الثَّمَنَ، فَقَالَ الرَّجُلُ:

بَلْ آخُذُ ثَمَنَهَا...

فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ...

* * *

هَنِيئًا لِطَلْحَةِ الْخَيْرِ وَالْجُودِ هَٰذَا اللَّقَبُ الَّذِي خَلَعَهُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَنَوَّرَ لَهُ فِي قَبْرِهِ (*).

---

(١) رفده: معونته وعطاءه.

(٢) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ: انظره ص ٥٣٥.

(*) للاستزادة من أخبار طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ التَّيْمِيِّ انظر:

١ - الطبقات الكبرى: ٣/ ٢١٤.
٢ - تهذيب التهذيب: ٥/ ٢٠.
٣ - البدء والتاريخ: ٥/ ١٢.
٤ - الجمع بين رجال الصحيحين: ٢٣٠.
٥ - غاية النهاية: ١/ ٣٤٢.
٦ - الرياض النضرة: ٢/ ٢٤٩.
٧ - صفة الصفوة: ١/ ١٣٠.
٨ - حلية الأولياء: ١/ ٧.
٩ - ذيل المذيل: ١١.
١٠ - تهذيب ابن عساكر: ٧/ ٧١.
١١ - المحبر: ٣٥٥.
١٢ - رغبة الآمل: ٣/ ١٦، ٨٩.
١٣ - الإصابة: ٢/ ٢٢٩ أو «الترجمة» ٤٢٦٦.
١٤ - الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ٢/ ٢١٩.

أَبُو هُرَيْرَةَ الدَّوْسِيُّ

« حَفِظَ أَبُو هُرَيْرَةَ لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ
مَا يَزِيدُ عَلَىٰ أَلْفٍ وَسِتِّمِائَةِ حَدِيثٍ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللهِ »
[الْمُؤَرِّخُونَ]

لَا رَيْبَ فِي أَنَّكَ تَعْرِفُ هَٰذَا النَّجْمَ الْمُتَأَلِّقَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَهَلْ فِي أُمَّةِ الْإِسْلَامِ أَحَدٌ لَا يَعْرِفُ أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ .

لَقَدْ كَانَ النَّاسُ يَدْعُونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ « عَبْدَ شَمْسٍ » ، فَلَمَّا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَشَرَّفَهُ بِلِقَاءِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لَهُ : (مَا اسْمُكَ ؟) .

فَقَالَ : عَبْدُ شَمْسٍ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (بَلْ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ) .

فَقَالَ : نَعَمْ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي[1] يَا رَسُولَ اللَّهِ .

أَمَّا تَكْنِيَتُهُ بِأَبِي هُرَيْرَةَ فَسَبَبُهَا أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ فِي طُفُولَتِهِ هِرَّةٌ صَغِيرَةٌ يَلْعَبُ بِهَا ، فَجَعَلَ لِدَاتُهُ[2] يُنَادُونَهُ : أَبَا هُرَيْرَةَ .

وَشَاعَ ذَلِكَ وَذَاعَ حَتَّىٰ غَلَبَ عَلَىٰ اسْمِهِ .

فَلَمَّا اتَّصَلَتْ أَسْبَابُهُ بِأَسْبَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ جَعَلَ يُنَادِيهِ كَثِيرًا « بِأَبِي هِرٍّ » إِينَاسًا لَهُ وَتَحَبُّبًا ، فَصَارَ يُؤْثِرُ أَبَا هِرٍّ عَلَىٰ أَبِي هُرَيْرَةَ وَيَقُولُ : نَادَانِي بِهَا حَبِيبِي رَسُولُ اللَّهِ ...

(١) بأبي أنت وأمي : أي أفديك بأبي وأمي .
(٢) لداته : المماثلون له في السن ، وسموا كذلك لأنهم ولدوا في زمن واحد .

وَالْهِرُّ ذَكَرٌ، وَالْهُرَيْرَةُ أُنْثَىٰ، وَالذَّكَرُ خَيْرٌ مِنَ الْأُنْثَىٰ ...

* * *

أَسْلَمَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَلَىٰ يَدِ الطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرٍو الدَّوْسِيِّ[١]، وَظَلَّ فِي أَرْضِ قَوْمِهِ «دَوْسٍ» إِلَىٰ مَا بَعْدَ الْهِجْرَةِ بِسِتِّ سِنِينَ حَيْثُ وَفَدَ مَعَ جُمُوعٍ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ.

* * *

وَقَدِ انْقَطَعَ الْفَتَىٰ الدَّوْسِيُّ لِخِدْمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصُحْبَتِهِ، فَاتَّخَذَ الْمَسْجِدَ مَقَامًا، وَالنَّبِيَّ مُعَلِّمًا وَإِمَامًا، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ زَوْجٌ وَلَا وَلَدٌ، وَإِنَّمَا كَانَتْ لَهُ أُمٌّ عَجُوزٌ أَصَرَّتْ عَلَىٰ الشِّرْكِ؛ فَكَانَ لَا يَفْتَأُ[٢] يَدْعُوهَا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ إِشْفَاقًا عَلَيْهَا وَبِرًّا بِهَا، فَتَنْفِرُ مِنْهُ وَتَصُدُّهُ.

فَيَتْرُكُهَا وَالْحُزْنُ عَلَيْهَا يَفْرِي فُؤَادَهُ فَرْيًا.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ دَعَاهَا إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَتْ فِي النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَوْلًا أَحْزَنَهُ وَأَمَضَّهُ[٣].

فَمَضَىٰ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْكِي.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ) ؟!.

فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ لَا أَفْتُرُ عَنْ دَعْوَةِ أُمِّي إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، فَتَأْبَىٰ عَلَيَّ ...

وَقَدْ دَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ.

فَادْعُ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يُمِيلَ قَلْبَ أُمِّ أَبِي هُرَيْرَةَ لِلْإِسْلَامِ.

فَدَعَا لَهَا النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

---

(١) الطُّفَيل بن عمرو الدَّوسي: انظره في ص ٢٩.
(٢) لا يفتأ: لا يزال. (٣) أمضَّه: أوجعه.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ :

فَمَضَيْتُ إِلَىٰ الْبَيْتِ ؛ فَإِذَا الْبَابُ قَدْ رُدَّ ، وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ فَلَمَّا هَمَمْتُ بِالدُّخُولِ ، قَالَتْ أُمِّي :

مَكَانَكَ[1] يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ...

ثُمَّ لَبِسَتْ ثَوْبَهَا وَقَالَتْ : ادْخُلْ ؛ فَدَخَلْتُ فَقَالَتْ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ...

فَعُدْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ كَمَا بَكَيْتُ قَبْلَ سَاعَةٍ مِنَ الْحُزْنِ وَقُلْتُ : أَبْشِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

فَقَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَىٰ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ ...

* * *

وَقَدْ أَحَبَّ أَبُو هُرَيْرَةَ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ حُبًّا خَالَطَ لَحْمَهُ وَدَمَهُ ... فَكَانَ لَا يَشْبَعُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَيَقُولُ :

مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَمْلَحَ وَلَا أَصْبَحَ[2] مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ لَكَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ ...

وَكَانَ يَحْمَدُ اللَّهَ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ عَلَىٰ أَنْ مَنَّ عَلَيْهِ بِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ وَاتِّبَاعِ دِينِهِ فَيَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَىٰ أَبَا هُرَيْرَةَ لِلْإِسْلَامِ ...

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَّمَ أَبَا هُرَيْرَةَ الْقُرْآنَ ...

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَىٰ أَبِي هُرَيْرَةَ بِصُحْبَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ...

* * *

وَكَمَا أُولِعَ أَبُو هُرَيْرَةَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، فَقَدْ أُولِعَ

---

(١) مكانك : الزم مكانك ، أي لا تدخل.

(٢) أملح : أجمل ، وأصبح : أكثر صباحة وإشراقًا.

بِالْعِلْمِ وَجَعَلَهُ دَيْدَنَهُ[1] وَغَايَةَ مَا يَتَمَنَّاهُ.

حَدَّثَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ[2] قَالَ:

بَيْنَمَا أَنَا وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَصَاحِبٌ لِي فِي الْمَسْجِدِ نَدْعُو اللَّهَ تَعَالَىٰ وَنَذْكُرُهُ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَقْبَلَ نَحْوَنَا حَتَّىٰ جَلَسَ بَيْنَنَا، فَسَكَتْنَا...

فَقَالَ ﷺ: (عُودُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ فِيهِ).

فَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنَا وَصَاحِبِي - قَبْلَ أَبِي هُرَيْرَةَ - وَجَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ يُؤَمِّنُ عَلَىٰ دُعَائِنَا...

ثُمَّ دَعَا أَبُو هُرَيْرَةَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مَا سَأَلَكَ صَاحِبَايَ...

وَأَسْأَلُكَ عِلْمًا لَا يُنْسَىٰ...

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (آمِينَ).

فَقُلْنَا: وَنَحْنُ نَسْأَلُ اللَّهَ عِلْمًا لَا يُنْسَىٰ.

فَقَالَ ﷺ: (سَبَقَكُمْ بِهَا الْغُلَامُ الدَّوْسِيُّ).

* * *

وَكَمَا أَحَبَّ أَبُو هُرَيْرَةَ الْعِلْمَ لِنَفْسِهِ فَقَدْ أَحَبَّهُ لِغَيْرِهِ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ مَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ فَهَالَهُ انْشِغَالُ النَّاسِ بِالدُّنْيَا، وَاسْتِغْرَاقُهُمْ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ:

مَا أَعْجَزَكُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ !!.

فَقَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ مِنْ عَجْزِنَا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟!.

---

(١) دَيْدَنه: دأبه وعادته.

(٢) زيد بن ثابت: انظره ص ٣٥١.

فَقَالَ: مِيرَاثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُقَسَّمُ وَأَنْتُمْ هَا هُنَا !!...

أَلَا تَذْهَبُونَ وَتَأْخُذُونَ نَصِيبَكُمْ !!.

قَالُوا: وَأَيْنَ هُوَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟!.

قَالَ: فِي الْمَسْجِدِ.

فَخَرَجُوا سِرَاعًا، وَوَقَفَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُمْ حَتَّىٰ رَجَعُوا؛ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا:

يَا أَبَا هُرَيْرَةَ لَقَدْ أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ فَدَخَلْنَا فِيهِ فَلَمْ نَرَ شَيْئًا يُقْسَمُ.

فَقَالَ لَهُمْ: أَوَ مَا رَأَيْتُمْ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدًا ؟!.

قَالُوا: بَلَىٰ ... رَأَيْنَا قَوْمًا يُصَلُّونَ، وَقَوْمًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، وَقَوْمًا يَتَذَاكَرُونَ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ...

فَقَالَ: وَيْحَكُمْ ... ذَٰلِكَ مِيرَاثُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

* * *

وَقَدْ عَانَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ بِسَبَبِ انْصِرَافِهِ لِلْعِلْمِ، وَانْقِطَاعِهِ لِمَجَالِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَمْ يُعَانِهِ أَحَدٌ مِنَ الْجُوعِ وَخُشُونَةِ الْعَيْشِ.

رَوَىٰ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ يَشْتَدُّ بِيَ الْجُوعُ حَتَّىٰ إِنِّي كُنْتُ أَسْأَلُ الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْآيَةِ مِنَ الْقُرْآنِ - وَأَنَا أَعْلَمُهَا - كَيْ يَصْحَبَنِي مَعَهُ إِلَىٰ بَيْتِهِ؛ فَيُطْعِمَنِي ...

وَقَدِ اشْتَدَّ بِيَ الْجُوعُ ذَاتَ يَوْمٍ حَتَّىٰ شَدَدْتُ عَلَىٰ بَطْنِي حَجَرًا، فَقَعَدْتُ فِي طَرِيقِ الصَّحَابَةِ، فَمَرَّ بِي أَبُو بَكْرٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَمَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيَدْعُوَنِي ... فَمَا دَعَانِي.

ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ؛ فَلَمْ يَدْعُنِي أَيْضًا حَتَّىٰ مَرَّ بِي

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَعَرَفَ مَا بِي مِنَ الْجُوعِ فَقَالَ : (أَبُو هُرَيْرَةَ ؟!) .

قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَتَبِعْتُهُ ؛ فَدَخَلْتُ مَعَهُ الْبَيْتَ فَوَجَدَ قَدَحًا[1] فِيهِ لَبَنٌ ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ : (مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هَٰذَا ؟!) ... قَالُوا : أَرْسَلَ بِهِ فُلَانٌ إِلَيْكَ .

فَقَالَ : (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ انْطَلِقْ إِلَىٰ أَهْلِ الصُّفَّةِ[2]، فَادْعُهُمْ) .

فَسَاءَنِي إِرْسَالُهُ إِيَّايَ لِدَعْوَتِهِمْ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

مَا يَفْعَلُ هَٰذَا اللَّبَنُ مَعَ أَهْلِ الصُّفَّةِ ؟! .

وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَنَالَ مِنْهُ شَرْبَةً أَتَقَوَّىٰ بِهَا ، ثُمَّ أَذْهَبَ إِلَيْهِمْ ...

فَأَتَيْتُ أَهْلَ الصُّفَّةِ وَدَعَوْتُهُمْ ؛ فَأَقْبَلُوا ، فَلَمَّا جَلَسُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ :

(خُذْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ فَأَعْطِهِمْ) ، فَجَعَلْتُ أُعْطِي الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّىٰ يَرْوَىٰ إِلَىٰ أَنْ شَرِبُوا جَمِيعًا ؛ فَنَاوَلْتُ الْقَدَحَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ مُبْتَسِمًا وَقَالَ : (بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ) .

قُلْتُ : صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

قَالَ : (فَاشْرَبْ) ، فَشَرِبْتُ .

ثُمَّ قَالَ : (اشْرَبْ) ، فَشَرِبْتُ ...

وَمَا زَالَ يَقُولُ : اشْرَبْ ، فَأَشْرَبُ ، حَتَّىٰ قُلْتُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَجِدُ لَهُ مَسَاغًا[3]... فَأَخَذَ الْإِنَاءَ وَشَرِبَ مِنَ الْفَضْلَةِ ...

* * *

(١) الْقدح : الإناء الّذي يشرب منه .

(٢) هم ضيوف اللّه من فقراء المسلمين ممن لا أهل لهم ولا ولد ولا مال ، فكانوا يجلسون على صُفَّةٍ في مسجد الرّسول ﷺ فسُمّوا بأهل الصُّفَّة .

(٣) لا أجدُ له مَساغًا : لا أستطيع ابتلاعه .

لَمْ يَمْضِ زَمَنٌ طَوِيلٌ عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ فَاضَتِ الْخَيْرَاتُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَتَدَفَّقَتْ عَلَيْهِمْ غَنَائِمُ الْفَتْحِ ؛ فَصَارَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ مَالٌ ، وَمَنْزِلٌ وَمَتَاعٌ ، وَزَوْجٌ وَوَلَدٌ ...

غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَمْ يُغَيِّرْ مِنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ شَيْئًا ، وَلَمْ يُنْسِهِ أَيَّامَهُ الْخَالِيَةَ ؛ فَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ :

نَشَأْتُ يَتِيمًا ، وَهَاجَرْتُ مِسْكِينًا ، وَكُنْتُ أَجِيرًا « لِبُسْرَةَ بِنْتِ غَزْوَانَ » بِطَعَامِ بَطْنِي ، فَكُنْتُ أَخْدِمُ الْقَوْمَ إِذَا نَزَلُوا ، وَأَحْدُو[1] لَهُمْ إِذَا رَكِبُوا ؛ فَزَوَّجَنِيهَا اللَّهُ[2] ...

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الدِّينَ قِوَامًا[3] وَصَيَّرَ أَبَا هُرَيْرَةَ إِمَامًا[4] .

* * *

وَقَدْ وَلِيَ أَبُو هُرَيْرَةَ الْمَدِينَةَ مِنْ قِبَلِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، فَلَمْ تُبَدِّلِ الْوِلَايَةُ مِنْ سَمَاحَةِ طَبْعِهِ ، وَخِفَّةِ ظِلِّهِ[5] شَيْئًا ...

فَقَدْ مَرَّ بِأَحَدِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ ـ وَهُوَ وَالٍ عَلَيْهَا ـ وَكَانَ يَحْمِلُ الْحَطَبَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ لِأَهْلِ بَيْتِهِ ، فَمَرَّ بِثَعْلَبَةَ بْنِ مَالِكٍ ... فَقَالَ لَهُ :

أَوْسِعِ الطَّرِيقَ لِلْأَمِيرِ يَا بْنَ مَالِكٍ ... فَقَالَ لَهُ :

يَرْحَمُكَ اللَّهُ أَمَا يَكْفِيكَ هَذَا الْمَجَالُ كُلُّهُ ؟! ... فَقَالَ لَهُ :

أَوْسِعِ الطَّرِيقَ لِلْأَمِيرِ ، وَلِلْحُزْمَةِ الَّتِي عَلَىٰ ظَهْرِهِ .

* * *

(١) أحدو لهم : أسوق إبلهم .
(٢) فزوجنيها اللَّهُ : إشارةٌ إلَىٰ زواجه من بُسْرَة الَّتي كان يخدم عندها .
(٣) قِوام الأمر : نظامه وعماده .
(٤) إشارة إلَىٰ ولايته علَىٰ الْمدينة من قبل معاوية بن أبي سُفْيان رضي اللَّه عنهما .
(٥) خِفَّةِ ظِلِّه : كنايةٌ عن عذوبة روحه .

وَقَدْ جَمَعَ أَبُو هُرَيْرَةَ إِلَىٰ وَفْرَةِ عِلْمِهِ وَسَمَاحَةِ نَفْسِهِ التُّقَىٰ وَالْوَرَعَ ؛ فَكَانَ يَصُومُ النَّهَارَ ، وَيَقُومُ ثُلُثَ اللَّيْلِ ، ثُمَّ يُوقِظُ زَوْجَتَهُ فَتَقُومُ ثُلُثَهُ الثَّانِي ، ثُمَّ تُوقِظُ هَٰذِهِ ابْنَتَهَا فَتَقُومُ ثُلُثَهُ الأَخِيرَ ...

فَكَانَتِ الْعِبَادَةُ لَا تَنْقَطِعُ فِي بَيْتِهِ طَوَالَ اللَّيْلِ ...

* * *

وَقَدْ كَانَتْ لِأَبِي هُرَيْرَةَ جَارِيَةٌ زِنْجِيَّةٌ(١) فَأَسَاءَتْ إِلَيْهِ ، وَغَمَّتْ أَهْلَهُ ، فَرَفَعَ السَّوْطَ عَلَيْهَا لِيَضْرِبَهَا بِهِ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ ، وَقَالَ : لَوْلَا الْقِصَاصُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأَوْجَعْتُكِ كَمَا آذَيْتِنَا ، وَلَكِنْ سَأَبِيعُكِ مِمَّنْ يُوَفِّينِي ثَمَنَكِ وَأَنَا أَحْوَجُ مَا أَكُونُ إِلَيْهِ ... اذْهَبِي فَأَنْتِ حُرَّةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

* * *

وَكَانَتِ ابْنَتُهُ تَقُولُ لَهُ : يَا أَبَتِ إِنَّ الْبَنَاتِ يُعَيِّرْنَنِي ؛ فَيَقُلْنَ : لِمَ لَا يُحَلِّيكِ أَبُوكِ بِالذَّهَبِ ؟! فَيَقُولُ :

يَا بُنَيَّةُ ، قُولِي لَهُنَّ : إِنَّ أَبِي يَخْشَىٰ عَلَيَّ حَرَّ اللَّهَبِ(٢) .

* * *

وَلَمْ يَكُنِ امْتِنَاعُ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ تَحْلِيَةِ ابْنَتِهِ ضَنًّا(٣) بِالْمَالِ أَوْ حِرْصًا عَلَيْهِ ؛ إِذْ كَانَ جَوَادًا سَخِيَّ الْيَدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ مِائَةَ دِينَارٍ ذَهَبًا ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ يَقُولُ : إِنَّ خَادِمِي غَلِطَ فَأَعْطَاكَ الدَّنَانِيرَ ، وَأَنَا لَمْ أُرِدْكَ بِهَا ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ غَيْرَكَ ، فَسُقِطَ(٤) فِي يَدِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَقَالَ : أَخْرَجْتُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَمْ يَبِتْ عِنْدِي مِنْهَا دِينَارٌ ؛ فَإِذَا خَرَجَ عَطَائِي(٥) فَخُذْهَا مِنْهُ .

---

(١) زنجيّةٌ : من بلاد الزّنج ، وهم قوم السودان .
(٢) حَرّ اللَّهب : أي حَرّ لهب جهنم .
(٣) ضنًّا بالمال : بخلًا بالمال .
(٤) سُقِطَ في يَدِ أبي هريرة : تَحيّر وندم .
(٥) عطائي : حقّي في بيت المال .

وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ مَرْوَانُ لِيَخْتَبِرَهُ، فَلَمَّا تَحَرَّىٰ الْأَمْرَ وَجَدَهُ صَحِيحًا.

* * *

وَقَدْ ظَلَّ أَبُو هُرَيْرَةَ - مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ - بَرًّا بِأُمِّهِ، فَكَانَ كُلَّمَا أَرَادَ الْخُرُوجَ مِنَ الْبَيْتِ وَقَفَ عَلَىٰ بَابِ حُجْرَتِهَا وَقَالَ:

السَّلَامُ عَلَيْكِ يَا أُمَّتَاهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

فَتَقُولُ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا بُنَيَّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

فَيَقُولُ: رَحِمَكِ اللَّهُ كَمَا رَبَّيْتِنِي صَغِيرًا.

فَتَقُولُ: وَرَحِمَكَ اللَّهُ كَمَا بَرَرْتَ بِي كَبِيرًا.

ثُمَّ إِذَا عَادَ إِلَىٰ بَيْتِهِ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ.

* * *

وَقَدْ كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَحْرِصُ أَشَدَّ الْحِرْصِ عَلَىٰ دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَىٰ بِرِّ آبَائِهِمْ، وَصِلَةِ أَرْحَامِهِمْ.

فَقَدْ رَأَىٰ ذَاتَ يَوْمٍ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَسَنُّ[1] مِنَ الْآخَرِ يَمْشِيَانِ مَعًا، فَقَالَ لِأَصْغَرِهِمَا: مَا يَكُونُ هَٰذَا الرَّجُلُ مِنْكَ؟.

قَالَ: أَبِي.

فَقَالَ لَهُ: لَا تُسَمِّهِ بِاسْمِهِ...

وَلَا تَمْشِ أَمَامَهُ...

وَلَا تَجْلِسْ قَبْلَهُ...

* * *

(١) أَسَنُّ: أَكْبَرُ سِنًّا.

وَلَمَّا مَرِضَ أَبُو هُرَيْرَةَ مَرَضَ الْمَوْتِ بَكَىٰ ...

فَقِيلَ لَهُ : مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟! .

فَقَالَ : أَمَا إِنِّي لَا أَبْكِي عَلَىٰ دُنْيَاكُمْ هَٰذِهِ ...

وَلَٰكِنَّنِي أَبْكِي لِبُعْدِ السَّفَرِ وَقِلَّةِ الزَّادِ ...

لَقَدْ وَقَفْتُ فِي نِهَايَةِ طَرِيقٍ يُفْضِي[1] بِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ ...

وَلَا أَدْرِي ... فِي أَيِّهِمَا أَكُونُ !! .

وَقَدْ عَادَهُ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ : شَفَاكَ اللَّهُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ .

فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّ لِقَاءَكَ فَأَحِبَّ لِقَائِي وَعَجِّلْ لِي فِيهِ ...

فَمَا كَادَ يُغَادِرُ مَرْوَانُ حَتَّىٰ فَارَقَ الْحَيَاةَ ...

* * *

رَحِمَ اللَّهُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَحْمَةً وَاسِعَةً ؛ فَقَدْ حَفِظَ لِلْمُسْلِمِينَ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ أَلْفٍ وَسِتِّمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَجَزَاهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرًا (*) .

---

(١) يُفْضِي بي : ينتهي بي .

(*) للاستزادة من أخبار أَبِي هُرَيْرَةَ انظر :

١ - الإصابة : ٤/٢٠٢ أو «الترجمة» ١١٩٠.
٢ - الاستيعاب «بهامش الإصابة» : ٤/ ٢٠٢.
٣ - أسْدُ الغابة : ٥/٣١٥ - ٣١٧.
٤ - تهذيب التهذيب : ١٢/٢٦٢ - ٢٦٧.
٥ - تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/٣٣٣ - ٣٣٩.
٦ - الجمع بين رجال الصحيحين : ٢/٦٠٠ - ٦٠١.
٧ - تجريد أسماء الصحابة : ٢/ ٢٢٣.
٨ - المعارف لابن قتيبة : ١٢٠ - ١٢١.
٩ - الطبقات الكبرىٰ : ٢/٣٦٢ - ٣٦٤.
١٠- أبو هريرة من سلسلة أعلام العرب لمحمد عجاج الخطيب.
١١- حلية الأولياء : ١/٣٧٦ - ٣٨٥.
١٢- طبقات الشعراني : ٣٢ - ٣٣.
١٣- معرفة القراء الكبار : ٤٠ - ٤١.
١٤- شذرات الذهب : ١/٦٣ - ٦٤.
١٥- صفة الصفوة : ١/٢٨٥ - ٢٨٩.
١٦- تقريب التهذيب : ٢/ ٤٨٤.
١٧- البداية والنهاية : ١٠٣ - ١١٥.
١٨- تذكرة الحفاظ : ١/٢٨ - ٣١.

سَلَمَةُ بْنُ قَيْسٍ الأَشْجَعِيُّ

«فَاتِحُ الْأَهْوَازِ»

قَضَىٰ الْفَارُوقُ لَيْلَتَهُ تِلْكَ سَهْرَانَ يَعُسُّ[1] فِي أَحْيَاءِ الْمَدِينَةِ لِيَنَامَ النَّاسُ مِلْءَ جُفُونِهِمْ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ.

وَكَانَ خِلَالَ تَطْوَافِهِ بَيْنَ الدُّورِ وَالْأَسْوَاقِ يَسْتَعْرِضُ فِي ذِهْنِهِ الْأَنْجَادَ[2] الْأَمْجَادَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَعْقِدَ[3] لِوَاحِدٍ مِنْهُمُ الرَّايَةَ عَلَىٰ الْجَيْشِ الذَّاهِبِ لِفَتْحِ «الْأَهْوَازِ»[4]... ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ هَتَفَ قَائِلًا: ظَفِرْتُ بِهِ...

نَعَمْ ظَفِرْتُ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ...

وَلَمَّا طَلَعَ عَلَيْهِ الصَّبَاحُ دَعَا سَلَمَةَ بْنَ قَيْسٍ الْأَشْجَعِيَّ وَقَالَ لَهُ:

إِنِّي وَلَّيْتُكَ عَلَىٰ الْجَيْشِ الْمُتَوَجِّهِ إِلَىٰ «الْأَهْوَازِ»، فَسِرْ بِاسْمِ اللَّهِ، وَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَإِذَا لَقِيتُمْ عَدُوَّكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُوهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنْ أَسْلَمُوا: فَإِمَّا أَنْ يَخْتَارُوا الْبَقَاءَ فِي دِيَارِهِمْ وَلَا يَشْتَرِكُوا مَعَكُمْ فِي حَرْبِ غَيْرِهِمْ فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ إِلَّا الزَّكَاةُ، وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ[5] نَصِيبٌ...

وَإِمَّا أَنْ يَخْتَارُوا أَنْ يُقَاتِلُوا مَعَكُمْ فَلَهُمْ مِثْلُ الَّذِي لَكُمْ، وَعَلَيْهِمْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْكُمْ...

فَإِنْ أَبَوُا الْإِسْلَامَ فَادْعُوهُمْ إِلَىٰ إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ[6]، وَدَعُوهُمْ وَشَأْنَهُمْ،

---

(١) العسّ: السّهر في اللّيل للحراسة.

(٢) الأنجاد: أصحاب النّجدة والمروءة.

(٣) عقد الرّاية لفلان علىٰ الجيش: جعله قائدًا له.

(٤) الأهواز: منطقة تقع في غربي إيران.

(٥) الفيء: ما يغنمه المسلمون من غنائم الحرب.

(٦) الجزية: ما يفرضه المسلمون علىٰ أهل الذّمّة من المال لِقاء حمايتهم.

وَاحْمُوهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ فَوْقَ مَا يُطِيقُونَ ...

فَإِنْ أَبَوْا فَقَاتِلُوهُمْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ .

وَ إِذَا تَحَصَّنُوا بِحِصْنٍ ، ثُمَّ طَلَبُوا مِنْكُمْ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَىٰ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَلَا تَقْبَلُوا مِنْهُمْ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا حُكْمُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

وَ إِذَا طَلَبُوا مِنْكُمْ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَىٰ ذِمَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَلَا تُعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَ إِنَّمَا أَعْطُوهُمْ ذِمَمَكُمْ أَنْتُمْ ...

فَإِذَا ظَفِرْتُمْ فِي الْقِتَالِ فَلَا تُسْرِفُوا ، وَلَا تَغْدُرُوا ، وَلَا تُمَثِّلُوا[1]، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ...

فَقَالَ سَلَمَةُ : سَمْعًا وَطَاعَةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

فَوَدَّعَهُ عُمَرُ بِحَرَارَةٍ ، وَشَدَّ عَلَىٰ يَدَيْهِ بِقُوَّةٍ ، وَدَعَا لَهُ بِضَرَاعَةٍ .

فَلَقَدْ كَانَ يُقَدِّرُ ضَخَامَةَ الْمُهِمَّةِ الَّتِي أَلْقَاهَا عَلَىٰ عَاتِقِهِ وَعَاتِقِ[2] جُنُودِهِ .

ذَلِكَ لِأَنَّ « الْأَهْوَازَ » مِنْطَقَةٌ جَبَلِيَّةٌ وَعْرَةُ الْمَسَالِكِ ، حَصِينَةُ الْمَعَاقِلِ ، وَاقِعَةٌ بَيْنَ « الْبَصْرَةِ » وَتُخُومِ « فَارِسَ » ، يَسْكُنُهَا قَوْمٌ أَشِدَّاءُ مِنَ « الْأَكْرَادِ » .

وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ بُدٌّ مِنْ فَتْحِهَا أَوِ السَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا لِيَحْمُوا ظُهُورَهُمْ مِنْ هَجَمَاتِ الْفُرْسِ عَلَىٰ « الْبَصْرَةِ » ، وَيَمْنَعُوهُمْ مِنِ اتِّخَاذِهَا مَيْدَانًا لِجُنُودِهِمْ فَتَتَعَرَّضُ سَلَامَةُ « الْعِرَاقِ » وَأَمْنُهُ لِلْخَطَرِ ...

* * *

مَضَىٰ سَلَمَةُ بْنُ قَيْسٍ عَلَىٰ رَأْسِ جَيْشِهِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ غَيْرَ أَنَّهُمْ

---

(١) لا تُمثِّلوا: لا تشوهوا جثث الموتىٰ .
(٢) العاتق: الكتف .

مَا كَادُوا يَتَوَغَّلُونَ(١) قَلِيلًا فِي أَرْضِ «الْأَهْوَازِ» حَتَّىٰ دَخَلُوا فِي صِرَاعٍ مَرِيرٍ مَعَ طَبِيعَتِهَا الْقَاسِيَةِ.

فَقَدْ طَفِقَ الْجَيْشُ يُعَانِي مِنْ جِبَالِهَا النَّخِرَةِ وَهُوَ مُصْعِدٌ(٢)، وَيُكَابِدُ مِنْ مُسْتَنْقَعَاتِهَا الْمَوْبُوءَةِ وَهُوَ مُسْهِلٌ(٣).

وَيُصَارِعُ أَفَاعِيَهَا الْقَاتِلَةَ وَعَقَارِبَهَا السَّامَّةَ يَقْظَانَ نَائِمًا.

لَكِنَّ رُوحَ سَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ الْمُؤْمِنَةَ الشَّفَّافَةَ كَانَتْ تُرَفْرِفُ بِأَجْنِحَتِهَا فَوْقَ جُنْدِهِ؛ فَإِذَا الْعَذَابُ عَذْبٌ، وَإِذَا الْحَزْنُ(٤) سَهْلٌ.

فَلَقَدْ كَانَ يَتَخَوَّلُهُمْ(٥) بِالْمَوْعِظَةِ الَّتِي تَهُزُّ نُفُوسَهُمْ هَزًّا.

وَيُتْرِعُ(٦) لَيَالِيَهُمْ بِأَرَجِ الْقُرْآنِ(٧)...

فَإِذَا هُمْ مَغْمُورُونَ بِضِيَائِهِ...

سَابِحُونَ فِي لَأْلَائِهِ...

نَاسُونَ مَا مَسَّهُمْ مِنْ عَنَاءٍ وَنَصَبٍ...

* * *

امْتَثَلَ سَلَمَةُ بْنُ قَيْسٍ لِأَمْرِ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَمَا إِنِ الْتَقَىٰ بِأَهْلِ «الْأَهْوَازِ» حَتَّىٰ عَرَضَ عَلَيْهِمُ الدُّخُولَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَأَعْرَضُوا وَنَفَرُوا...

فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ، فَأَبَوْا وَاسْتَكْبَرُوا...

فَلَمْ يَبْقَ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ غَيْرُ رُكُوبِ الْأَسِنَّةِ(٨)، فَرَكِبُوهَا مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، رَاغِبِينَ بِمَا عِنْدَهُ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ...

* * *

(١) يتوغلون: يدخلون بعيدًا.
(٢) مُصْعِد: صاعد.
(٣) مسهل: سائرٌ في السَّهل.
(٤) الحَزْن بفتح الحاء: الوَعْر.
(٥) يتخوّلهم بالموعظة: يتعهّدهم بالموعظة حينًا بعد حين.
(٦) يترع: يملأ.
(٧) أرج القُرآن: عطر القُرآن وشذاه.
(٨) ركوب الأسنة: كناية عن الحرب.

دَارَتِ الْمَعَارِكُ حَامِيَةَ اللَّظَىٰ مُسْتَطِيرَةَ الشَّرَرِ ، وَأَبْدَىٰ فِيهَا الْفَرِيقَانِ مِنْ ضُرُوبِ الْبَسَالَةِ مَا لَمْ تَشْهَدْ لَهُ الْحُرُوبُ نَظِيرًا إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ .

ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنِ انْجَلَتِ الْمَعَارِكُ عَنْ نَصْرٍ مُؤَزَّرٍ[١] لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، وَهَزِيمَةٍ مُنْكَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ أَعْدَاءِ اللَّهِ .

* * *

وَلَمَّا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا[٢] ؛ بَادَرَ سَلَمَةُ بْنُ قَيْسٍ إِلَىٰ قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ بَيْنَ جُنُودِهِ .

فَوَجَدَ فِيهَا حِلْيَةً نَفِيسَةً ، فَأَحَبَّ أَنْ يُتْحِفَ[٣] بِهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَقَالَ لِجُنُودِهِ : إِنَّ هَٰذِهِ الْحِلْيَةَ لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَكُمْ لَمَا فَعَلَتْ مَعَكُمْ شَيْئًا ...

فَهَلْ تَطِيبُ أَنْفُسُكُمْ إِذَا بَعَثْنَا بِهَا إِلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالُوا : نَعَمْ ... فَجَعَلَ الْحِلْيَةَ فِي سَفَطٍ[٤] ، وَنَدَبَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ بَنِي « أَشْجَعَ » وَقَالَ لَهُ : امْضِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ أَنْتَ وَغُلَامُكَ ، وَبَشِّرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْفَتْحِ ، وَأَطْرِفْهُ[٥] بِهَٰذِهِ الْحِلْيَةِ .

فَكَانَ لِلرَّجُلِ « الْأَشْجَعِيِّ » مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ خَبَرٌ فِيهِ عِبَرٌ وَعِظَاتٌ ... فَلْنَتْرُكِ الْكَلَامَ لَهُ لِيَرْوِيَ لَنَا خَبَرَهُ بِنَفْسِهِ .

قَالَ الرَّجُلُ الْأَشْجَعِيُّ :

مَضَيْتُ أَنَا وَغُلَامِي إِلَىٰ « الْبَصْرَةِ » فَاشْتَرَيْنَا رَاحِلَتَيْنِ مِمَّا أَعْطَانَا سَلَمَةُ بْنُ قَيْسٍ ، وَأَوْقَرْنَاهُمَا زَادًا[٦] .

---

(١) نصر مؤزَّر : نصر مبين .
(٢) وضعت الحرب أوزارها : انتهت وتوقفت .
(٣) يتحف بها أمير المؤمنين : يقدّم له ما يجده بديعًا طريفًا .
(٤) السَّفط : صندوق صغير .
(٥) أطرفه : أتحفه .
(٦) أوقرناهما زادًا . حمّلناهما طعامًا وغيره مما يتزود به المسافر .

ثُمَّ يَمَّمْنَا وَجْهَيْنَا شَطْرَ[1] الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا بَلَغْنَاهَا؛ نَشَدْتُ[2] أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَجَدْتُهُ وَاقِفًا يُغَدِّي الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَىٰ عَصَاهُ كَمَا يَصْنَعُ الرَّاعِي... وَكَانَ يَدُورُ عَلَى الْقِصَاعِ وَهُوَ يَقُولُ لِغُلَامِهِ «يَرْفَأَ»:

يَا يَرْفَأُ زِدْ هَؤُلَاءِ لَحْمًا...

يَا يَرْفَأُ زِدْ هَؤُلَاءِ خُبْزًا...

يَا يَرْفَأُ زِدْ هَؤُلَاءِ مَرَقًا...

فَلَمَّا أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ؛ قَالَ: اجْلِسْ.

فَجَلَسْتُ فِي أَدْنَى النَّاسِ؛ وَقُدِّمَ لِيَ الطَّعَامُ فَأَكَلْتُ.

فَلَمَّا فَرَغَ النَّاسُ مِنْ طَعَامِهِمْ قَالَ: يَا «يَرْفَأُ» ارْفَعْ قِصَاعَكَ.

ثُمَّ مَضَىٰ فَتَبِعْتُهُ.

فَلَمَّا دَخَلَ دَارَهُ اسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لِي؛ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَىٰ رُقْعَةٍ مِنْ شَعْرٍ، مُتَّكِئٌ عَلَىٰ وِسَادَتَيْنِ مِنْ جِلْدٍ مَحْشُوَّتَيْنِ لِيفًا، فَطَرَحَ لِي إِحْدَاهُمَا فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا.

وَإِذَا خَلْفَهُ سِتْرٌ فَالْتَفَتَ نَحْوَ السِّتْرِ وَقَالَ: يَا أُمَّ كُلْثُومَ غَدَاءَنَا[3]...

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي:

مَاذَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ طَعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي خَصَّ بِهِ نَفْسَهُ؟!.

فَنَاوَلَتْهُ خُبْزَةً بِزَيْتٍ عَلَيْهَا مِلْحٌ لَمْ يُدَقَّ...

فَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: كُلْ، فَامْتَثَلْتُ وَأَكَلْتُ قَلِيلًا.

---

(١) يممنا وجهينا شطر المدينة: وجهنا وجهينا جهة المدينة.

(٢) نشدت أمير المؤمنين: طلبته وبحثت عنه.

(٣) غداءنا: أي أعطنا غداءنا.

وَأَكَلَ هُوَ ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ مِنْهُ أَكْلًا .

ثُمَّ قَالَ : اسْقُونَا ... فَجَاؤُوهُ بِقَدَحٍ فِيهِ شَرَابٌ مِنْ سَوِيقِ[1] الشَّعِيرِ فَقَالَ : أَعْطُوا الرَّجُلَ أَوَّلًا ؛ فَأَعْطَوْنِي .

فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ فَشَرِبْتُ مِنْهُ قَلِيلًا ؛ إِذْ كَانَ سَوِيقِي أَطْيَبَ مِنْهُ وَأَجْوَدَ .

ثُمَّ أَخَذَهُ فَشَرِبَ مِنْهُ حَتَّىٰ رَوِيَ ثُمَّ قَالَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا فَأَشْبَعَنَا ، وَسَقَانَا فَأَرْوَانَا .

عِنْدَ ذَلِكَ الْتَفَتُّ إِلَيْهِ وَقُلْتُ : جِئْتُكَ بِرِسَالَةٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : مِنْ أَيْنَ ؟ .

فَقُلْتُ : مِنْ عِنْدِ سَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ .

فَقَالَ : مَرْحَبًا بِسَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ ، وَمَرْحَبًا بِرَسُولِهِ ...

حَدِّثْنِي عَنْ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَقُلْتُ : كَمَا تُحِبُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ... السَّلَامَةُ ، وَالظَّفَرُ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ وَعَدُوِّ اللَّهِ .

وَبَشَّرْتُهُ بِالنَّصْرِ ، وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَ الْجَيْشِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا .

فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ... أَعْطَىٰ فَتَفَضَّلَ ، وَأَنْعَمَ فَأَجْزَلَ[2].

ثُمَّ قَالَ : هَلْ مَرَرْتَ بِالْبَصْرَةِ ؟ .

فَقُلْتُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : كَيْفَ الْمُسْلِمُونَ ؟ .

---

(١) سويق الشعير : نقيع الشعير.

(٢) أجزل : أكثر.

فَقُلْتُ : بِخَيْرٍ مِنَ اللَّهِ .

فَقَالَ : كَيْفَ الْأَسْعَارُ ؟ .

فَقُلْتُ : أَسْعَارُهُمْ أَرْخَصُ أَسْعَارٍ .

فَقَالَ : وَكَيْفَ اللَّحْمُ ؟ فَإِنَّ اللَّحْمَ شَجَرَةُ الْعَرَبِ ، وَلَا تَصْلُحُ الْعَرَبُ إِلَّا بِشَجَرَتِهَا .

فَقُلْتُ : اللَّحْمُ كَثِيرٌ وَفِيرٌ .

فَالْتَفَتَ إِلَىٰ السَّفَطِ الَّذِي مَعِي وَقَالَ : مَا هَٰذَا الَّذِي بِيَدِكَ ؟! .

فَقُلْتُ : لَمَّا نَصَرَنَا اللَّهُ عَلَىٰ عَدُوِّنَا جَمَعْنَا الْغَنَائِمَ فَرَأَىٰ سَلَمَةُ فِيهَا حِلْيَةً ، فَقَالَ لِلْجُنْدِ : إِنَّ هَٰذِهِ لَوْ قُسِمَتْ عَلَيْكُمْ لَمَا بَلَغَتْ مِنْكُمْ شَيْئًا ... فَهَلْ تَطِيبُ نُفُوسُكُمْ إِذَا بَعَثْتُ بِهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ ... فَقَالُوا : نَعَمْ .

ثُمَّ دَفَعْتُ إِلَيْهِ بِالسَّفَطِ ...

فَلَمَّا فَتَحَهُ وَنَظَرَ إِلَىٰ الْفُصُوصِ (١) الَّتِي فِيهِ مِنْ بَيْنِ أَحْمَرَ وَأَصْفَرَ وَأَخْضَرَ ، وَثَبَ مِنْ مَجْلِسِهِ ، وَجَعَلَ يَدَهُ فِي خَاصِرَتِهِ وَأَلْقَىٰ بِالسَّفَطِ عَلَىٰ الْأَرْضِ فَانْتَثَرَ مَا فِيهِ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ .

فَظَنَّ النِّسَاءُ أَنِّي أُرِيدُ اغْتِيَالَهُ ، فَأَقْبَلْنَ نَحْوَ السِّتْرِ ... ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ :

اجْمَعْهُ ... وَقَالَ لِغُلَامِهِ يَرْفَأَ :

اضْرِبْهُ وَأَوْجِعْهُ ...

فَجَعَلْتُ أَجْمَعُ مَا انْتَثَرَ مِنَ السَّفَطِ ، وَيَرْفَأُ يَضْرِبُنِي .

---

(١) الفصوص : الأحجار الكريمة الّتي توضع في الحلي.

ثُمَّ قَالَ: قُمْ غَيْرَ مَحْمُودٍ لَا أَنْتَ وَلَا صَاحِبُكَ.

فَقُلْتُ: ائْذَنْ لِي بِمَرْكَبٍ يَحْمِلُنِي أَنَا وَغُلَامِي إِلَىٰ «الْأَهْوَازِ»، فَقَدْ أَخَذَ غُلَامُكَ رَاحِلَتِي.

فَقَالَ يَا يَرْفَأُ: أَعْطِهِ رَاحِلَتَيْنِ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ لَهُ وَلِغُلَامِهِ.

ثُمَّ قَالَ لِي: إِذَا قَضَيْتَ حَاجَتَكَ مِنْهُمَا، وَوَجَدْتَ مَنْ هُوَ أَحْوَجُ لَهُمَا مِنْكَ فَادْفَعْهُمَا إِلَيْهِ.

قُلْتُ: أَفْعَلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ... نَعَمْ أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ تَفَرَّقَ الْجُنْدُ قَبْلَ أَنْ يُقْسَمَ فِيهِمْ هَٰذَا الْحُلِيُّ لَأَفْعَلَنَّ بِكَ وَبِصَاحِبِكَ الْفَاقِرَةَ(1).

فَمَضَيْتُ مِنْ تَوِّي حَتَّىٰ أَتَيْتُ سَلَمَةَ وَقُلْتُ:

مَا بَارَكَ اللَّهُ لِي فِيمَا اخْتَصَصْتَنِي بِهِ...

اقْسِمْ هَٰذَا الْحُلِيَّ فِي الْجُنْدِ قَبْلَ أَنْ تَحِلَّ بِي وَبِكَ دَاهِيَةٌ(2).

وَأَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ...

فَمَا غَادَرَ مَجْلِسَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَسَمَهُ فِيهِمْ (*).

---

(1) الْفَاقِرَة: الدَّاهية الشَّديدة كأنَّها تكسِر فقار الظَّهر.
(2) داهيةٌ: مُصيبةٌ.

(*) للاستزادة من أخبار سَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْجَعِيِّ انظر:
1 - معجم الْبلدان: ١/٢٨٤ عند الْكلام علَىٰ الأهْوَاز.
2 - الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ٢/ ٨٩.
3 - قادة فتح فارس لمحمود شيت خطَّاب.
4 - تهذيب التَّهذيب: ٤/ ١٥٤.
5 - الْإصابة: ٢/٦٧ أو «الترجمة» ٣٣٩٢.
6 - حياة الصَّحابة: ١/ ٣٤١.
7 - أُسْدُ الْغابة: ٢/ ٤٣٢.

مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ

«أَعْلَمُ أُمَّتِي بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ»

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

لَمَّا أَشْرَقَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ بِنُورِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ، كَانَ الْغُلَامُ الْيَثْرِبِيُّ(١) مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فَتًى يَافِعًا... وَكَانَ يَمْتَازُ مِنْ أَتْرَابِهِ بِحِدَّةِ الذَّكَاءِ، وَقُوَّةِ الْعَارِضَةِ(٢)، وَرَوْعَةِ الْبَيَانِ، وَعُلُوِّ الْهِمَّةِ.

وَكَانَ إِلَىٰ ذَٰلِكَ، قَسِيمًا وَسِيمًا(٣) أَكْحَلَ الْعَيْنِ جَعْدَ(٤) الشَّعْرِ بَرَّاقَ الثَّنَايَا، يَمْلَأُ عَيْنَ مُجْتَلِيهِ(٥) وَيَمْلِكُ عَلَيْهِ فُؤَادَهُ.

أَسْلَمَ الْفَتَىٰ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَلَىٰ يَدَيِ الدَّاعِيَةِ الْمَكِّيِّ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ. وَفِي لَيْلَةِ الْعَقَبَةِ امْتَدَّتْ يَدُهُ الْفَتِيَّةُ فَصَافَحَتْ يَدَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ وَبَايَعَتْهُ...

فَقَدْ كَانَ مُعَاذٌ مَعَ الرَّهْطِ الِاثْنَيْنِ وَالسَّبْعِينَ الَّذِينَ قَصَدُوا مَكَّةَ؛ لِيَسْعَدُوا بِلِقَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَشْرُفُوا بِبَيْعَتِهِ، وَلِيَخُطُّوا فِي سِفْرِ التَّارِيخِ أَرْوَعَ صَفْحَةٍ وَأَزْهَاهَا...

* * *

وَمَا إِنْ عَادَ الْفَتَىٰ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ حَتَّىٰ كَوَّنَ هُوَ وَنَفَرٌ صَغِيرٌ مِنْ لِدَاتِهِ جَمَاعَةً لِكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَانْتِزَاعِهَا مِنْ بُيُوتِ الْمُشْرِكِينَ فِي «يَثْرِبَ» فِي السِّرِّ أَوْ فِي الْعَلَنِ... وَكَانَ مِنْ أَثَرِ حَرَكَةِ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَانِ الصِّغَارِ أَنْ أَسْلَمَ رَجُلٌ كَبِيرٌ مِنْ رِجَالَاتِ «يَثْرِبَ»، هُوَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ(٦).

* * *

(١) الْيَثْرِبِيُّ: نسبة إِلَىٰ يَثْرِب، وهي الْمدينة الْمنورة.
(٢) قوّة الْعارضة: قوّة الْبديهة وروعة الْبيان.
(٣) قسيمًا وسيمًا: بهي الطّلعة جميل الْملامح.
(٤) جَعْدُ الشّعر: ذو شعر أجعد وضدُّه: سَبِطُ الشُّعر.
(٥) مجتَليه: النّاظر إليه.
(٦) عَمْرو بن الْجَمُوح: انظره ص ٧٥.

كَانَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ بَنِي « سَلَمَةَ » ، وَشَرِيفًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ .

وَكَانَ قَدِ اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ صَنَمًا مِنْ نَفِيسِ الْخَشَبِ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ الْأَشْرَافُ .

وَكَانَ شَيْخُ بَنِي « سَلَمَةَ » يُعْنَىٰ بِصَنَمِهِ هَٰذَا أَشَدَّ الْعِنَايَةِ فَيُجَلِّلُهُ بِالْحَرِيرِ ، وَيُضَمِّخُهُ[1] كُلَّ صَبَاحٍ بِالطِّيبِ .

فَقَامَ الْفِتْيَانُ الصِّغَارُ إِلَىٰ صَنَمِهِ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ وَحَمَلُوهُ مِنْ مَكَانِهِ ، وَخَرَجُوا بِهِ إِلَىٰ خَلْفِ مَنَازِلِ بَنِي « سَلَمَةَ » ، وَأَلْقَوْهُ فِي حُفْرَةٍ كَانَتْ تُجْمَعُ فِيهَا الْأَقْذَارُ ...

فَلَمَّا أَصْبَحَ الشَّيْخُ افْتَقَدَ صَنَمَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ ، وَبَحَثَ عَنْهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ حَتَّىٰ أَلْفَاهُ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي الْحُفْرَةِ غَارِقًا فِي الْأَقْذَارِ فَقَالَ : وَيْلَكُمْ مَنْ عَدَا عَلَىٰ إِلَٰهِنَا فِي هَٰذِهِ اللَّيْلَةِ ؟! .

ثُمَّ أَخْرَجَهُ وَغَسَلَهُ ، وَطَهَّرَهُ ، وَطَيَّبَهُ ، وَأَعَادَهُ إِلَىٰ مَكَانِهِ ، وَقَالَ لَهُ :

أَيْ « مَنَاةُ »[2] ، وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ مَنْ صَنَعَ بِكَ هَٰذَا لَأَخْزَيْتُهُ ...

فَلَمَّا أَمْسَىٰ الشَّيْخُ وَنَامَ تَسَلَّلَ الْفِتْيَةُ إِلَىٰ صَنَمِهِ وَفَعَلُوا بِهِ مَا فَعَلُوهُ فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ ...

فَمَا زَالَ يَبْحَثُ عَنْهُ حَتَّىٰ وَجَدَهُ فِي حُفْرَةٍ أُخْرَىٰ مِنْ تِلْكَ الْحُفَرِ ...

فَأَخْرَجَهُ وَغَسَلَهُ وَطَهَّرَهُ وَعَطَّرَهُ وَتَوَعَّدَ[3] مَنْ عَدَوْا عَلَيْهِ أَشَدَّ الْوَعِيدِ ...

فَلَمَّا تَكَرَّرَ ذَٰلِكَ مِنْهُمْ اسْتَخْرَجَهُ مِنْ حَيْثُ أَلْقَوْهُ ، وَغَسَلَهُ ...

---

(١) يُضَمِّخُه : يَدْهنه ويطيّبه . (٢) أَيْ مَنَاة : يا مناة ، وهُوَ اسم صَنَمِه . (٣) تَوَعَّدَه : أنذره بالشَّرِّ .

ثُمَّ جاءَ بِسَيْفِهِ فَعَلَّقَهُ عَلَيْهِ ، وَقالَ يُخاطِبُهُ : وَاللَّهِ إِنِّي ما أَعْلَمُ مَنْ يَفْعَلُ بِكَ هَٰذا الَّذِي تَراهُ ...

فَإِنْ كانَ فِيكَ خَيْرٌ ـ يا « مَناةُ » ـ فَادْفَعْ عَنْ نَفْسِكَ ...

وَهَٰذا السَّيْفُ مَعَكَ ...

فَلَمَّا أَمْسَىٰ الشَّيْخُ وَنامَ ، عَدا الْفِتْيَةُ عَلَى الصَّنَمِ ، وَأَخَذُوا السَّيْفَ الْمُعَلَّقَ فِي رَقَبَتِهِ ... وَرَبَطُوهُ بِعُنُقِ كَلْبٍ مَيِّتٍ وَأَلْقَوْهُما فِي حُفْرَةٍ مِنْ تِلْكَ الْحُفَرِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الشَّيْخُ جَدَّ فِي طَلَبِ صَنَمِهِ حَتَّىٰ وَجَدَهُ مُلْقًى بَيْنَ الْأَقْذارِ مَقْرُونًا بِكَلْبٍ مَيِّتٍ مُنَكَّسًا عَلَىٰ وَجْهِهِ ... عِنْدَ ذَٰلِكَ نَظَرَ إِلَيْهِ وَقالَ :

تَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ إِلَٰهًا لَمْ تَكُنْ		أَنْتَ وَكَلْبٌ وَسْطَ بِئْرٍ فِي قَرَنْ[1]

ثُمَّ أَسْلَمَ شَيْخُ بَنِي « سَلِمَةَ » وَحَسُنَ إِسْلامُهُ .

* * *

وَلَمَّا قَدِمَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَى الْمَدِينَةِ مُهاجِرًا ، لَزِمَهُ الْفَتَىٰ مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ مُلازَمَةَ الظِّلِّ لِصاحِبِهِ ، فَأَخَذَ عَنْهُ الْقُرْآنَ ، وَتَلَقَّىٰ عَلَيْهِ شَرائِعَ الْإِسْلامِ ، حَتَّىٰ غَدا مِنْ أَقْرَإِ الصَّحابَةِ لِكِتابِ اللَّهِ ، وَأَعْلَمِهِمْ بِشَرْعِهِ ...

حَدَّثَ يَزِيدُ بْنُ قُطَيْبٍ قالَ :

دَخَلْتُ مَسْجِدَ « حِمْصَ » فَإِذا أَنا بِفَتًى جَعْدِ الشَّعْرِ ، قَدِ اجْتَمَعَ حَوْلَهُ النَّاسُ ...

فَإِذا تَكَلَّمَ كَأَنَّما يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ[2] نُورٌ وَلُؤْلُؤٌ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَٰذا ؟! .

فَقالُوا : مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ .

* * *

(١) فِي قَرَن : أي مربوطًا معه في حبل واحد.		(٢) فِيهِ : فمه .

وَرَوَىٰ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ[1] قَالَ: أَتَيْتُ مَسْجِدَ «دِمَشْقَ»؛ فَإِذَا حَلْقَةٌ[2] فِيهَا كُهُولٌ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَإِذَا شَابٌّ فِيهِمْ أَكْحَلُ الْعَيْنِ بَرَّاقُ الثَّنَايَا، كُلَّمَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ رَدُّوهُ إِلَىٰ الْفَتَىٰ؛ فَقُلْتُ لِجَلِيسٍ لِي: مَنْ هَٰذَا ؟!.

فَقَالَ: مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ.

* * *

وَلَا غَرْوَ[3] فَمُعَاذٌ رُبِّيَ فِي مَدْرَسَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مُنْذُ نُعُومَةِ الْأَظْفَارِ[4] وَتَخَرَّجَ عَلَىٰ يَدَيْهِ؛ فَنَهَلَ الْعِلْمَ مِنْ يَنَابِيعِهِ الْغَزِيرَةِ...

وَأَخَذَ الْمَعْرِفَةَ مِنْ مَعِينِهَا الْأَصِيلِ، فَكَانَ خَيْرَ تِلْمِيذٍ لِخَيْرِ مُعَلِّمٍ.

وَحَسْبُ[5] مُعَاذٍ شَهَادَةً أَنْ يَقُولَ عَنْهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ:

(أَعْلَمُ أُمَّتِي بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ)...

وَحَسْبُهُ فَضْلًا عَلَىٰ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ كَانَ أَحَدَ النَّفَرِ السِّتَّةِ الَّذِينَ جَمَعُوا الْقُرْآنَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَلِذَا كَانَ أَصْحَابُ الرَّسُولِ ﷺ إِذَا تَحَدَّثُوا وَفِيهِمْ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ نَظَرُوا إِلَيْهِ هَيْبَةً لَهُ وَتَعْظِيمًا لِعِلْمِهِ.

* * *

وَقَدْ وَضَعَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ وَصَاحِبَاهُ مِنْ بَعْدِهِ؛ هَٰذِهِ الطَّاقَةَ الْعِلْمِيَّةَ الْفَرِيدَةَ فِي خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

---

(١) أبو مسلم الخولاني: أحد كبار التابعين وهو من اليمن... انظره في كتاب «صور من حياة التابعين» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي.

(٢) الحلقة: مجلس العلم، وكانوا يتحلقون في هذه المجالس حول الشيخ.

(٣) لا غرو: لا عجب.

(٤) نعومة الأظفار: كناية عن صغر السن لأن الصغير تكون أظفاره ناعمة.

(٥) حسب معاذ شهادة: يكفيه شهادة.

فَهَـٰذَا هُوَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَرَىٰ جُمُوعَ قُرَيْشٍ تَدْخُلُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ .

وَيَشْعُرُ بِحَاجَةِ الْمُسْلِمِينَ الْجُدُدِ إِلَىٰ مُعَلِّمٍ كَبِيرٍ يُعَلِّمُهُمُ الْإِسْلَامَ ، وَيُفَقِّهُهُمْ بِشَرَائِعِهِ ، فَيَعْهَدُ بِخِلَافَتِهِ عَلَىٰ مَكَّةَ لِعَتَّابِ بْنِ أُسَيْدٍ ، وَيَسْتَبْقِي مَعَهُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ الْقُرْآنَ وَيُفَقِّهَهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ .

* * *

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُ مُلُوكِ « الْيَمَنِ » إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، تُعْلِنُ إِسْلَامَهَا وَإِسْلَامَ مَنْ وَرَاءَهَا ، وَتَسْأَلُهُ أَنْ يَبْعَثَ مَعَهَا مَنْ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ ؛ انْتَدَبَ لِهَـٰذِهِ الْمُهِمَّةِ نَفَرًا مِنَ الدُّعَاةِ الْهُدَاةِ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَقَدْ خَرَجَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يُوَدِّعُ بَعْثَةَ الْهُدَىٰ وَالنُّورِ هَـٰذِهِ ... وَطَفِقَ يَمْشِي تَحْتَ رَاحِلَةِ مُعَاذٍ ... وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ ...

وَأَطَالَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مَشْيَهُ مَعَهُ ؛ حَتَّىٰ لَكَأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَتَمَلَّىٰ مِنْ مُعَاذٍ ...

ثُمَّ أَوْصَاهُ وَقَالَ لَهُ : (يَا مُعَاذُ إِنَّكَ عَسَىٰ أَلَّا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَـٰذَا ...

وَلَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي وَقَبْرِي ...) .

فَبَكَىٰ مُعَاذٌ جَزَعًا لِفِرَاقِ نَبِيِّهِ وَحَبِيبِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَبَكَىٰ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ .

* * *

وَصَدَقَتْ نُبُوءَةُ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ ، فَمَا اكْتَحَلَتْ عَيْنَا مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعْدَ تِلْكَ السَّاعَةِ ...

فَقَدْ فَارَقَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ الْحَيَاةَ قَبْلَ أَنْ يَعُودَ مُعَاذٌ مِنَ « الْيَمَنِ » .

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ مُعَاذًا بَكَىٰ لَمَّا عَادَ إِلَىٰ « يَثْرِبَ » فَأَلْفَاهَا(١) قَدْ أَقْفَرَتْ مِنْ أُنْسِ حَبِيبِهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

وَلَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ أَرْسَلَ مُعَاذًا إِلَىٰ بَنِي « كِلَابٍ » لِيَقْسِمَ فِيهِمْ أُعْطِيَاتِهِمْ ، وَيُوَزِّعَ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ صَدَقَاتِ أَغْنِيَائِهِمْ ، فَقَامَ بِمَا عُهِدَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ ، وَعَادَ إِلَىٰ زَوْجِهِ بِحِلْسِهِ(٢) الَّذِي خَرَجَ بِهِ يَلُفُّهُ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ : أَيْنَ مَا جِئْتَ بِهِ مِمَّا يَأْتِي بِهِ الْوُلَاةُ مِنْ هَدِيَّةٍ لِأَهْلِيهِمْ ؟! .

فَقَالَ : لَقَدْ كَانَ مَعِي رَقِيبٌ يَقِظٌ يُحْصِي عَلَيَّ(٣) .

فَقَالَتْ : قَدْ كُنْتَ أَمِينًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ فَبَعَثَ مَعَكَ رَقِيبًا يُحْصِي عَلَيْكَ ؟!! .

وَأَشَاعَتْ ذَلِكَ فِي نِسْوَةِ عُمَرَ ، وَاشْتَكَتْهُ لَهُنَّ ...

فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ ؛ فَدَعَا مُعَاذًا وَقَالَ :

أَأَنَا بَعَثْتُ مَعَكَ رَقِيبًا يُحْصِي عَلَيْكَ ؟! .

فَقَالَ : لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّنِي لَمْ أَجِدْ شَيْئًا أَعْتَذِرُ بِهِ إِلَيْهَا إِلَّا ذَلِكَ ... فَضَحِكَ عُمَرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَأَعْطَاهُ شَيْئًا وَقَالَ لَهُ :

أَرْضِهَا بِهِ ...

* * *

وَفِي أَيَّامِ الْفَارُوقِ أَرْسَلَ إِلَيْهِ وَالِيهِ عَلَىٰ الشَّامِ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ يَقُولُ :

---

(١) فألفاها : فوَجَدَها .

(٢) الحِلْس : ما يوضع علىٰ ظهر الدابّة تحت السَّرْج . (٣) يريد بالرقيب : اللَّه جلّ وعزّ علىٰ سبيل التورية .

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ أَهْلَ الشَّامِ قَدْ كَثُرُوا وَمَلَأُوا الْمَدَائِنَ، وَاحْتَاجُوا إِلَىٰ مَنْ يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَيُفَقِّهُهُمْ بِالدِّينِ فَأَعِنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرِجَالٍ يُعَلِّمُونَهُمْ؛ فَدَعَا عُمَرُ النَّفَرَ الْخَمْسَةَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْقُرْآنَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَهُمْ: مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَأَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ(١)، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ(٢) وَقَالَ لَهُمْ:

إِنَّ إِخْوَانَكُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ قَدِ اسْتَعَانُونِي بِمَنْ يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَيُفَقِّهُهُمْ فِي الدِّينِ فَأَعِينُونِي - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - بِثَلَاثَةٍ مِنْكُمْ؛ فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ فَاقْتَرِعُوا وَإِلَّا انْتَدَبْتُ ثَلَاثَةً مِنْكُمْ.

فَقَالُوا: وَلِمَ نَقْتَرِعُ؟...

«فَأَبُو أَيُّوبَ» شَيْخٌ كَبِيرٌ، وَ«أُبَيٌّ» رَجُلٌ مَرِيضٌ، وَبَقِينَا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ، فَقَالَ عُمَرُ:

ابْدَؤُوا «بِحِمْصَ» فَإِذَا رَضِيتُمْ حَالَ أَهْلِهَا؛ فَخَلِّفُوا أَحَدَكُمْ فِيهَا وَلْيَخْرُجْ وَاحِدٌ مِنْكُمْ إِلَىٰ «دِمَشْقَ»، وَالْآخَرُ إِلَىٰ «فِلَسْطِينَ».

فَقَامَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الثَّلَاثَةُ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ الْفَارُوقُ فِي «حِمْصَ»...

ثُمَّ تَرَكُوا فِيهَا عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، وَذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِلَىٰ «دِمَشْقَ»، وَمَضَىٰ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ إِلَىٰ «فِلَسْطِينَ».

* * *

وَهُنَاكَ أُصِيبَ مُعَاذٌ بِالْوَبَاءِ.

(١) أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ: انظره ص ٦٥. (٢) أَبُو الدَّرْدَاءِ: انظره ص ٢٠١.

فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَجَعَلَ يُرَدِّدُ هَٰذَا النَّشِيدَ :

مَرْحَبًا بِالْمَوْتِ مَرْحَبًا ...

زَائِرٌ جَاءَ بَعْدَ غِيَابٍ ...

وَحَبِيبٌ وَفَدَ عَلَىٰ شَوْقٍ ...

ثُمَّ جَعَلَ يَنْظُرُ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَيَقُولُ :

اللَّهُمَّ إِنَّكَ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ الدُّنْيَا وَطُولَ الْبَقَاءِ فِيهَا لِغَرْسِ الْأَشْجَارِ ، وَجَرْيِ الْأَنْهَارِ ...

وَلَٰكِنْ لِظَمَإِ الْهَوَاجِرِ ، وَمُكَابَدَةِ السَّاعَاتِ ، وَمُزَاحَمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكَبِ عِنْدَ حِلَقِ الذِّكْرِ ...

اللَّهُمَّ فَتَقَبَّلْ نَفْسِي بِخَيْرِ مَا تَتَقَبَّلُ بِهِ نَفْسًا مُؤْمِنَةً .

ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ الطَّاهِرَةُ بَعِيدًا عَنِ الْأَهْلِ وَالْعَشِيرِ ...

دَاعِيًا إِلَىٰ اللَّهِ ، مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِهِ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ انظر :

١ - الإصابة : ٣/٤٢٦ أو «الترجمة» ٨٠٣٧.
٢ - الاستيعاب «بهامش الإصابة» : ٣/ ٣٥٥.
٣ - أسْدُ الغابة : ٤/ ٣٧٤.
٤ - سير أعلام النبلاء : ١/ ٣١٨.
٥ - الطبقات الكبرى : ٣/ ٥٨٣.
٦ - حلية الأولياء : ١/ ٢٨٨.
٧ - صفة الصفوة : ١/ ١٩٥.
٨ - تهذيب الأسماء واللغات : ٢/ ٩٨.
٩ - تاريخ الإسلام للذهبي : ٢/ ٢٤.
١٠- الجمع بين رجال الصحيحين : ٢/ ٤٨٧.
١١- البداية والنهاية : ٧/ ٩٤.
١٢- دول الإسلام : ١/ ٥.
١٣- تهذيب التهذيب : ١٠/ ١٨٦.
١٤- وفيات الأعيان .
١٥- جمهرة الأولياء : ٢/ ٤٨.
١٦- طبقات فقهاء اليمن : ٤٤.
١٧- البدء والتاريخ : ٥/ ١١٧.
١٨- الزهد، لأحمد بن حنبل : ١٨٠.
١٩- تذكرة الحفاظ : ١/ ١٩.
٢٠- المعارف لابن قتيبة : ١/ ١١١.
٢١- أصحاب بدر «منظومة للشيخ حسين الغلامي» : ٢٠٤.
٢٢- حياة الصحابة : «انظر الفهارس في الرابع» .

الكتاب الثامن

آلُ يَاسِرٍ

يَاسِرٌ، وَسُمَيَّةُ، وَعَمَّارٌ

«صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ ... فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ»

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

فِي ذَاتِ صَبَاحٍ رَطِيبِ الأَنْدَاءِ ...

مُعَطَّرِ الأَجْوَاءِ ...

بَلَغَتْ إِحْدَىٰ الْقَوَافِلِ الْقَادِمَةِ مِنَ «الْيَمَنِ» مَشَارِفَ[1] مَكَّةَ.

فَلَمَّا أَطَلَّ يَاسِرُ بْنُ عَامِرٍ الْكِنَانِيُّ عَلَىٰ الْكَعْبَةِ الْمُعَظَّمَةِ بَهَرَهُ[2] سَنَاهَا ...

وَصَفَّقَ قَلْبُهُ فَرَحًا بِرُؤْيَاهَا ...

إِذْ لَمْ تَكُنْ عَيْنَاهُ قَدْ سَعِدَتَا بِمُشَاهَدَتِهَا مِنْ قَبْلُ.

* * *

لَمْ يَكُنْ قُدُومُ يَاسِرٍ إِلَىٰ مَكَّةَ لِلتِّجَارَةِ كَمَا كَانَ شَأْنُ رِجَالِ الْقَافِلَةِ ...

وَإِنَّمَا قَدِمَ إِلَيْهَا هُوَ وَأَخَوَاهُ الْحَارِثُ وَمَالِكٌ؛ لِيَبْحَثُوا عَنْ أَخٍ لَهُمْ فَقَدُوهُ مُنْذُ سَنَوَاتٍ وَلَمْ يَقِفُوا لَهُ عَلَىٰ أَثَرٍ[3].

* * *

انْطَلَقَ الْفِتْيَةُ الثَّلَاثَةُ يَبْحَثُونَ عَنْ أَخِيهِمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ ...

وَيَسْأَلُونَ عَنْهُ كُلَّ جَمَاعَةٍ ...

حَتَّىٰ إِذَا يَئِسُوا مِنْ لِقَائِهِ، اخْتَلَفَتْ وِجْهَاتُهُمْ ...

(١) مشارف: جمع مشرف: العالي المطل.
(٢) بهره: أعجبه وغلبه.
(٣) أثر: ما يبقى من رسم الشيء أو بقاياه.

أَمَّا الْحَارِثُ وَمَالِكٌ فَعَادَا إِلَىٰ مَرَاتِعِ الطُّفُولَةِ ، وَمَرَابِعِ الصِّبَا فِي « الْيَمَنِ » السَّعِيدِ .

وَأَمَّا يَاسِرٌ فَجَذَبَتْهُ مَكَّةُ إِلَيْهَا ، وَأَغْرَتْهُ بِأَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ مِنْهَا مَقَامًا وَوَطَنًا .

* * *

لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ يَاسِرُ بْنُ عَامِرٍ الْكِنَانِيُّ حِينَ اتَّخَذَ قَرَارَهُ هَٰذَا أَيَّ مَجْدٍ كُتِبَ لَهُ . . .

وَلَمْ يَكُنْ يَدْرِي أَنَّهُ دَخَلَ التَّارِيخَ مِنْ أَوْسَعِ أَبْوَابِهِ . . .

وَأَنَّهُ سَيَأْتِي مِنْ صُلْبِهِ فَتًى يَزْدَانُ بِهِ مَفْرِقُ الدُّنْيَا كُلَّمَا أَحَبَّتْ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِلنَّاسِ .

غَيْرَ أَنَّ يَاسِرًا لَمْ تَكُنْ لَهُ فِي مَكَّةَ عَصَبِيَّةٌ[1] تَحْمِيهِ . . .

وَلَا أُسْرَةٌ تَمْنَعُهُ[2] . . .

فَكَانَ لَا بُدَّ لِغَرِيبٍ مِثْلِهِ مِنْ أَنْ يُحَالِفَ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ الْقَوْمِ ؛ لِيَتَمَكَّنَ مِنَ الْحَيَاةِ آمِنًا مُطْمَئِنًّا فِي ذَٰلِكَ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي لَا مَكَانَ فِيهِ لِلضُّعَفَاءِ . . .

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ حَالَفَ « أَبَا حُذَيْفَةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيَّ » .

* * *

رَأَىٰ أَبُو حُذَيْفَةَ فِي يَاسِرٍ مِنْ كَرِيمِ الشَّمَائِلِ ، وَنَبِيلِ الْخَصَائِلِ ، مَا حَبَّبَهُ إِلَيْهِ ؛ فَزَوَّجَهُ مِنْ أَمَةٍ لَهُ تُدْعَىٰ « سُمَيَّةَ بِنْتَ خِبَاطٍ » .

فَكَانَ أَوَّلَ ثَمَرَاتِ هَٰذَا الزَّوَاجِ غُلَامٌ فَرِحَ بِهِ الْأَبَوَانِ أَعْظَمَ الْفَرَحِ . . .

---

(١) عصبية تحميه : من قوم أو عشيرة تتجمع حوله وتحميه .
(٢) تمنعه : تكفّ العدو عنه وتحميه .

وَدَعَوَاهُ عَمَّارًا .

وَقَدْ تَضَاعَفَتْ فَرْحَتُهُمْ بِهِ حِينَ حَرَّرَهُ أَبُو حُذَيْفَةَ وَأَعْتَقَ رَقَبَتَهُ(١).

* * *

عَاشَتِ الْأُسْرَةُ فِي كَنَفِ(٢) بَنِي « مَخْزُومٍ » عِيشَةً هَانِئَةً رَاضِيَةً ...

وَجَعَلَتِ الْأَيَّامُ تَمْضِي وَالسُّنُونُ تَمُرُّ ... فَإِذَا بِيَاسِرٍ وَسُمَيَّةَ يَغْدُوَانِ شَيْخَيْنِ مُعَمَّرَيْنِ ...

وَإِذَا بِعَمَّارٍ يُصْبِحُ شَابًّا مِلْءَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ .

* * *

ثُمَّ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ...

وَانْبَثَقَ مِنْ بِطَاحِ(٣) مَكَّةَ ضِيَاءٌ غَمَرَ الْكَوْنَ بِالْخَيْرِ وَالْبِرِّ ...

وَمَلَأَهُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ...

فَلَقَدْ قَامَ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ يَصْدَعُ(٤) بِرِسَالَةِ رَبِّهِ ...

وَيُنْذِرُ قَوْمَهُ وَيُبَشِّرُهُمْ ...

وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ مَا فِيهِ عِزُّ الدُّنْيَا وَسَعَادَةُ الْآخِرَةِ .

* * *

سَمِعَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ أَخْبَارَ الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَةِ مِنْ أَفْوَاهِ النَّاسِ فَفَتَحَ لَهَا سَمْعَهُ ، وَقَلْبَهُ ، وَعَقْلَهُ ، لَكِنَّهُ حِينَ وَجَدَ أَنَّ مَا يَصِلُهُ عَنْهَا قَلِيلٌ ضَئِيلٌ ، مُتَضَارِبٌ لَا يَرْوِي لَهُ غُلَّةً ...

(١) أعتق رقبته : حرّره من العبودية .
(٢) في كنف : في رعاية وحماية .
(٣) بطاح : جمع بطحاء ، مسيل واسع فيه رمل ورقائق الحصىٰ .
(٤) يصدع برسالة ربه : يجهر بها .

قَالَ فِي نَفْسِهِ: وَيْحَكَ[1] يَا عَمَّارُ، مَا الَّذِي يَجْعَلُكَ تَظْمَأُ[2] وَالْمَوْرِدُ[3] مِنْكَ قَرِيبٌ؟! ...

هَيَّا إِلَىٰ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ ...

هَيَّا إِلَىٰ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ؛ فَعِنْدَهُ وَعِنْدَ أَصْحَابِهِ النَّبَأُ الْيَقِينُ[4] ...

* * *

مَضَىٰ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ مِنْ سَاعَتِهِ إِلَىٰ دَارِ «الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ» ...

وَهُنَاكَ سَعِدَ بِلِقَاءِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ مَا هَزَّ فُؤَادَهُ هَزًّا ...

وَوَعَىٰ مِنْ هَدْيِهِ مَا أَتْرَعَ[5] قَلْبَهُ حِكْمَةً وَنُورًا ...

فَبَسَطَ يَدَهُ لَهُ وَقَالَ:

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

* * *

تَوَجَّهَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ إِلَىٰ أُمِّهِ سُمَيَّةَ فَدَعَاهَا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ؛ فَمَا أَسْرَعَ أَنِ اسْتَجَابَتْ لِدَعْوَتِهِ حَتَّىٰ لَكَأَنَّهَا مَعَهُ عَلَىٰ مَوْعِدٍ ...

ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَىٰ أَبِيهِ يَاسِرٍ فَدَعَاهُ إِلَىٰ مَا دَعَا إِلَيْهِ أُمَّهُ.

فَلَمْ يَكُنْ أَبُوهُ أَقَلَّ اسْتِجَابَةً مِنْ أُمِّهِ، فَانْضَمَّ إِلَىٰ مَوْكِبِ النُّورِ بِإِسْلَامِ هَٰذِهِ الْأُسْرَةِ الْمُبَارَكَةِ ثَلَاثَةُ كَوَاكِبَ مَا يَزَالُ ضِيَاؤُهَا يَغْمُرُ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَٰذَا ...

---

(١) ويحك: كلمة ترحم وتوجع وقد تأتي بمعنى المدح والتعجب.

(٢) تظمأ: تعطش عطشًا شديدًا.

(٣) المورد: مفرد موارد موضع الورود عكس الصدور وهو الطريق إلى الماء.

(٤) النبأ اليقين: الخبر الأكيد الحق. (٥) أترع قلبه: ملأ قلبه.

وَسَيَظَلُّ كَذَلِكَ - بِإِذْنِ اللَّهِ - حَتَّىٰ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .

* * *

طَارَ خَبَرُ إِسْلَامِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ إِلَىٰ بَنِي « مَخْزُومٍ » ؛ فَاسْتَشَاطُوا[1] غَضَبًا ، وَتَمَيَّزُوا[2] غَيْظًا ...

وَأَقْسَمُوا لَيَرُدُّنَّهُمْ عَنْ إِسْلَامِهِمْ أَوْ لَيُورِدُنَّهُمْ[3] مَوَارِدَ الْهَلَكَةِ ...

فَجَعَلُوا يَأْخُذُونَ الْأَبَوَيْنِ وَفَتَاهُمَا إِلَىٰ بَطْحَاءِ مَكَّةَ ، وَيُلْبِسُونَهُمْ دُرُوعَ[4] الْحَدِيدِ ، وَيَصْهَرُونَهُمْ بِأَشِعَّةِ الشَّمْسِ ...

وَيَمْنَعُونَ عَنْهُمُ الْمَاءَ ، وَيَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهِمْ بِالضَّرْبِ ...

حَتَّىٰ إِذَا جَفَّتْ مِنْهُمُ الْحُلُوقُ ، وَيَبِسَتِ الْعُرُوقُ ، وَتَشَقَّقَتِ الْجُلُودُ ، وَسَالَتِ الدِّمَاءُ ...

تَرَكُوهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِيُعِيدُوا مَعَهُمُ الْكَرَّةَ فِي غَدَاةِ الْيَوْمِ التَّالِي ، وَلَقَدْ مَرَّ بِهِمُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُمْ يُعَذِّبُونَهُمْ ذَلِكَ الْعَذَابَ ...

فَحَزَّ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ قُوَّةً وَلَا نَصْرًا ، وَوَقَفَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ :

(صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ ؛ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ ...) .

فَهَدَأَتِ النُّفُوسُ الْمُعَذَّبَةُ ...

وَقَرَّتِ[5] الْعُيُونُ الشَّاخِصَةُ[6] ...

(١) استشاطوا غضبًا : التهبوا غضبًا .
(٢) تميزوا غيظًا : تقطعوا وتفرقوا عن بعضهم البعض من شدته .
(٣) ليوردنهم موارد الهلكة : ليحضرونهم إِلَىٰ المهلكة .
(٤) دروع : جمع درع وهو قميص من زرد الحديد يلبس وقاية من سلاح العدو .
(٥) قرت : بردت العين سرورًا وفرحًا وجفت دموعها ورأت ما كانت متشوقة إليه .
(٦) الشاخصة : عين مفتوحة لم تطرف لدهشتها أو نحو ذلك .

وَعَلَتِ الْوُجُوهَ الْمَكْدُودَةَ[1] ابْتِسَامَةٌ رَاضِيَةٌ .

* * *

لَمْ يَطُلِ الْأَمْرُ بِالشَّيْخَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ ...

أَمَّا سُمَيَّةُ فَمَرَّ بِهَا أَبُو جَهْلٍ[2] وَهِيَ تُعَذَّبُ ، فَشَتَمَهَا أَقْذَعَ[3] الشَّتْمِ ، وَأَسْمَعَهَا قَوَارِصَ[4] الْكَلَامِ ، فَلَمْ تَأْبَهْ[5] لَهُ ...

فَجَرَّدَ رُمْحَهُ[6] ، وَطَعَنَهَا بِهِ فِي أَسْفَلِ بَطْنِهَا ، فَخَرَجَتْ حَرْبَةُ الرُّمْحِ مِنْ ظَهْرِهَا ...

فَكَانَتْ أَوَّلَ مَنِ اسْتُشْهِدَ فِي الْإِسْلَامِ ...

وَحَسْبُهَا بِذَلِكَ رِفْعَةً وَمَجْدًا .

وَأَمَّا يَاسِرٌ فَمَاتَ تَحْتَ التَّعْذِيبِ ، وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

* * *

اشْتَدَّ الْأَذَىٰ عَلَىٰ عَمَّارٍ بَعْدَ اسْتِشْهَادِ أَبَوَيْهِ ، وَلَقَدْ جَاوَزَ جَلَّادُوهُ فِي تَعْذِيبِهِ كُلَّ حَدٍّ .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ أَقْبَلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَاسِفًا[7] حَزِينًا خَجِلًا ...

وَقَدْ حَاوَلَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَمْلَأَ عَيْنَهُ مِنْهُ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرْفَعَ بَصَرَهُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (مَا وَرَاءَكَ يَا عَمَّارُ ؟!) .

---

(١) المكدودة : المتعبة .
(٢) أبو جهل : انظر مصرع أبي جهل من كتاب « حدث في رمضان » للمؤلف .
(٣) أقذع الشتم : رماها بأفحش القول وأسوئه .
(٤) قوارص الكلام : منغصات الكلام وآلمه .
(٥) فلم تأبه له : فلم تلتفت له .
(٦) فجرّد رُمحه : استله وسحبه .
(٧) كاسفًا : سيء الحال حزينًا مهمومًا متغير الوجه عابسًا .

فَقَالَ عَمَّارٌ: شَرٌّ مُسْتَطِيرٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَقَالَ: (وَمَا ذَاكَ ؟!).

فَقَالَ: عُذِّبْتُ أَمْسِ حَتَّىٰ نَالَنِي مِنَ الْجَهْدِ وَالضُّرِّ مَا لَوْ نَزَلَ بِجَبَلٍ لَصَدَّعَهُ[1]... ثُمَّ إِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ لَمْ يَكْتَفُوا بِمَا عَرَّضُونِي لَهُ مِنْ حَرِّ الْهَوَاجِرِ[2]؛ فَأَحْرَقُوا جَسَدِي بِالنَّارِ...

وَمَا زَالُوا يُرْغِمُونَنِي عَلَىٰ النَّيْلِ مِنْكَ، وَذِكْرِ آلِهَتِهِمْ بِخَيْرٍ حَتَّىٰ فَعَلْتُ...

ثُمَّ أَخَذَ يَنْشِجُ نَشِيجًا[3] يُقَطِّعُ الْقُلُوبَ...

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ:

(وَكَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ يَا عَمَّارُ؟).

فَقَالَ: أَجِدُهُ مُطْمَئِنًّا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَقَالَ: (لَا عَلَيْكَ وَإِنْ عَادُوا إِلَىٰ مِثْلِهَا؛ فَعُدْ إِلَىٰ مِثْلِ مَا قُلْتَ).

ثُمَّ أَكْرَمَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ عَمَّارًا، وَأَنْزَلَ فِيهِ قُرْآنًا، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[4].

* * *

وَلَمَّا أَذِنَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِأَصْحَابِهِ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ

(١) صدَّعه: شقَّقه.
(٢) الهواجر: جمع الهاجرة وهي شدة الحر وتكون في نصف النهار أو بعد زوال الشمس إلى العصر لأن الناس يستكنُّون في بيوتهم كأنهم تهاجروا.
(٣) ينشج نشيجًا: الباكي الذي يغص في البكاء بدون انتحاب.
(٤) سورة النحل: آية ١٠٦.

الْمَدِينَةِ ، كَانَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فِي طَلِيعَةِ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهَا فِرَارًا بِدِينِهِ .

فَمَا إِنْ بَلَغَ « قُبَاءَ » حَيْثُ يَنْزِلُ الْمُهَاجِرُونَ حَتَّىٰ دَعَاهُمْ إِلَىٰ بِنَاءِ مَسْجِدٍ يُقِيمُونَ فِيهِ الصَّلَاةَ ، فَاسْتَجَابُوا لِطَلَبِهِ ...

فَكَانَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أَقَامَهُ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ أَوَّلَ مَسْجِدٍ بُنِيَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَحَسْبُهُ[1] بِذَلِكَ سَابِقَةً وَفَضْلًا .

* * *

وَلَمَّا هَاجَرَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ قَرَّتْ بِهِ عَيْنُ عَمَّارٍ ، وَفَرِحَ بِهِ فَرَحَ الْحَبِيبِ بِحَبِيبِهِ ، وَلَازَمَهُ مُلَازَمَةَ الْخَدِينِ لِخَدِينِهِ[2]، حَتَّىٰ كَادَ لَا يُفَارِقُهُ فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ...

وَكَانَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ يُبَادِلُهُ حُبًّا بِحُبٍّ ؛ فَكَانَ إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ قَالَ :

(جَاءَ الطَّيِّبُ الْمُطَيَّبُ) .

* * *

وَفِي يَوْمِ « بَدْرٍ » قَاتَلَ عَمَّارٌ تَحْتَ رَايَةِ الرَّسُولِ ﷺ قِتَالَ الشُّجْعَانِ ...

وَكَانَ الْمُسْلِمَ الْوَحِيدَ الَّذِي خَاضَ هَٰذِهِ الْمَعْرَكَةَ وَأَبَوَاهُ مُؤْمِنَانِ شَهِيدَانِ .

* * *

وَلَمَّا لَحِقَ الرَّسُولُ ﷺ بِجِوَارِ رَبِّهِ ، وَارْتَدَّ أَكْثَرُ الْعَرَبِ عَنِ الْإِسْلَامِ كَانَ لَهُ فِي يَوْمِ « الْيَمَامَةِ » مَوْقِفٌ مَشْهُورٌ مَبْرُورٌ ...

ذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ اسْتَحَرَّ[3] الْقَتْلُ فِي صَحَابَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

---

(١) حسبه : يكفيه .

(٢) الخدين لخدينه : الخدن الحبيب والصاحب ، والخدين : من يصاحب الناس كثيرًا .

(٣) استحر القتل : اشتدّ وعظم .

وَجَعَلَتِ الْمَنُونُ[١] تَتَخَطَّفُ حَفَظَةَ الْقُرْآنِ ...

وَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْمُسْلِمِينَ .

عِنْدَ ذَلِكَ وَقَفَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ عَلَىٰ صَخْرَةٍ مُشْرِفَةٍ ، وَقَدْ قُطِعَتْ أُذُنُهُ ، وَبَقِيَتْ عَالِقَةً بِرَأْسِهِ وَقَالَ :

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَمِنَ الْجَنَّةِ تَفِرُّونَ ...

إِلَيَّ ... إِلَيَّ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

ثُمَّ مَضَىٰ أَمَامَهُمْ وَأُذُنُهُ تَتَذَبْذَبُ[٢] عَلَىٰ صَفْحَةِ خَدِّهِ .

فَحَمَلُوا بِحَمْلَتِهِ حَتَّىٰ قُتِلَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ ، وَطَفِقَ النَّاسُ يَعُودُونَ إِلَىٰ دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا بَعْدَ أَنْ خَرَجُوا مِنْهُ أَفْوَاجًا .

* * *

وَلَمَّا آلَتِ[٣] الْخِلَافَةُ إِلَىٰ الْفَارُوقِ وَلَّاهُ « الْكُوفَةَ » ، وَجَعَلَ مَعَهُ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ مَسْعُودٍ[٤]، وَكَتَبَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَقُولُ :

أَمَّا بَعْدُ ...

فَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَمَّارًا أَمِيرًا ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ مُعَلِّمًا وَوَزِيرًا ...

وَهُمَا مِنْ نُجَبَاءِ[٥] أَصْحَابِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَاسْمَعُوا لَهُمَا ، وَاقْتَدُوا بِهِمَا .

ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ بَدَا لَهُ فَأَقْصَاهُ[٦] عَنِ الْإِمَارَةِ ، فَلَمَّا لَقِيَهُ قَالَ لَهُ :

---

(١) المنون : الموت .

(٢) تتذبذب : تتردّد وتهتز .

(٣) آلت الخلافة : رجعت إليه الخلافة وصارت له .

(٤) عبد الله بن مسعود : انظره ص ٩٧.

(٥) نجباء : جمع نجيب : الفاضل النفيس من نوعه .

(٦) أقصاه : أبعده .

أَسَاءَكَ مَا فَعَلْتُهُ مَعَكَ يَا عَمَّارُ ؟ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ سَاءَتْنِي الْإِمَارَةُ أَكْثَرَ مِمَّا سَاءَنِي الْإِقْصَاءُ عَنْهَا .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ...

فَقَدِ امْتَلَأَ إِيمَانًا مِنْ قِمَّةِ رَأْسِهِ إِلَىٰ أَخْمَصِ[1] قَدَمَيْهِ ...

وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ أَبِيهِ يَاسِرٍ ...

وَأُمِّهِ سُمَيَّةَ ...

فَقَدْ كَانَ بَيْتُهُمْ بَيْتَ إِيمَانٍ (*) ...

(١) أخمص قدميه : مفرد أخامص مما لا يصيب الأرض من باطنها ، وربما يراد بها القدم كلها .

(*) للاستزادة من أخبار ياسر ، وَسُمَيَّةَ ، وَعَمَّارٍ انظر :

١ – أسْدُ الغابة : ٤/ ٤٦.

٢ – الإصابة : ٣/٦٤٧ أو « الترجمة » ٩٢٠٨، وسُمَيّة : ٤/٣٣٤ أو « الترجمة » ٥٨٥، وعمّار ٢/٥١٢ أو « الترجمة » ٥٧٠٤.

٣ – الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٢/٤٧٦ و٤/٣٣٠ سمية .

٤ – صفة الصّفوة : ١/ ١٧٥.

٥ – السّيرة النّبوية لابن هشام : ١/٣٤٢ وما بعدها .

سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو

«مَنْ لَقِيَ مِنكُمْ سُهَيْلًا فَلَا يُسِئْ لِقَاءَهُ فَلَعَمْرِي إِنَّ سُهَيْلًا لَهُ عَقْلٌ وَشَرَفٌ، وَمَا مِثْلُ سُهَيْلٍ يَجْهَلُ الْإِسْلَامَ»

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ]

سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو؛ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ الْمَرْمُوقِينَ[1]، وَخَطِيبٌ مِنْ خُطَبَاءِ الْعَرَبِ الْمُفَوَّهِينَ[2]، وَوَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ الَّذِينَ لَا يُقْطَعُ دُونَهُمْ أَمْرٌ.

كَانَ سُهَيْلٌ حِينَ صَدَعَ[3] الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ قَدِ اكْتَمَلَ وَاكْتَهَلَ، وَقَدْ كَانَ جَدِيرًا بِعَقْلِهِ الرَّاجِحِ وَنَظَرِهِ الثَّاقِبِ[4]، أَنْ يَجْعَلَاهُ أَوَّلَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةِ نَبِيِّ الْهُدَىٰ وَالرَّحْمَةِ...

وَلَكِنَّ سُهَيْلًا لَمْ يُعْرِضْ عَنِ الْإِسْلَامِ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا طَفِقَ يَصُدُّ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ، وَيَصُبُّ عَلَىٰ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ سَوْطَ عَذَابِهِ، لِيَفْتِنَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَيَرُدَّهُمْ إِلَىٰ الشِّرْكِ.

لَكِنَّ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو مَا لَبِثَ أَنْ فُوجِئَ بِخَبَرٍ وَقَعَ عَلَيْهِ وَقْعَ الصَّاعِقَةِ، وَذَلِكَ حِينَ نُمِيَ[5] إِلَيْهِ، أَنَّ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَابْنَتَهُ أُمَّ كُلْثُومٍ قَدْ تَبِعَا مُحَمَّدًا، وَفَرَّا بِدِينِهِمَا إِلَىٰ أَرْضِ «الْحَبَشَةِ»؛ تَخَلُّصًا مِنْ أَذَاهُ وَأَذَىٰ قُرَيْشٍ.

* * *

ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَصِلَ الْأَخْبَارُ كَاذِبَةً إِلَىٰ مُهَاجِرِي «الْحَبَشَةِ»، بِأَنَّ قُرَيْشًا

---

(١) المرموقين: الذين ينظر الناس إليهم إعجابًا بهم.

(٢) المفوه: البليغ الكلام.

(٣) صدع: أعلن وجهر.

(٤) نظره الثاقب: النظر النافذ الذي لا يغيب عنه شيء.

(٥) نُمِيَ إليه: وصل إليه.

قَدْ أَسْلَمَتْ ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ بَاتُوا يَعِيشُونَ بَيْنَ أَهْلِيهِمْ بِسَلَامٍ ؛ فَعَادَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ إِلَىٰ مَكَّةَ ، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْعَائِدِينَ ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُهَيْلٍ .

* * *

لَمْ تَكَدْ أَقْدَامُ عَبْدِ اللَّهِ تَطَأُ أَرْضَ مَكَّةَ ؛ حَتَّىٰ أَخَذَهُ أَبُوهُ ، وَكَبَّلَهُ[١] بِالْقُيُودِ ؛ وَأَلْقَىٰ بِهِ فِي مَكَانٍ مُظْلِمٍ مِنْ بَيْتِهِ ...

وَجَعَلَ يَفْتَنُّ[٢] فِي تَعْذِيبِهِ ، وَيَلِجُّ فِي إِيذَائِهِ ، حَتَّىٰ أَظْهَرَ الْفَتَىٰ ارْتِدَادَهُ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ ، وَأَعْلَنَ رُجُوعَهُ إِلَىٰ مِلَّةِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ ...

فَسُرِّيَ[٣] عَنْ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو ، وَقَرَّتْ عَيْنُهُ ، وَشَعَرَ بِنَشْوَةِ[٤] النَّصْرِ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ .

* * *

ثُمَّ مَا لَبِثَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ عَزَمُوا عَلَىٰ مُنَازَلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي « بَدْرٍ » ؛ فَخَرَجَ مَعَهُمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو مَصْحُوبًا بِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ ، مُتَشَوِّقًا لِأَنْ يَرَىٰ فَتَاهُ يُشْهِرُ[٥] السَّيْفَ فِي وَجْهِ مُحَمَّدٍ ؛ بَعْدَ أَنْ كَانَ إِلَىٰ عَهْدٍ قَرِيبٍ وَاحِدًا مِنْ أَتْبَاعِهِ .

* * *

وَلَكِنَّ الْأَقْدَارَ كَانَتْ تُخَبِّئُ لِسُهَيْلٍ مَا لَمْ يَكُنْ يَقَعُ لَهُ فِي حِسَابٍ ...

إِذْ مَا كَادَ يَلْتَقِي الْجَمْعَانِ عَلَىٰ أَرْضِ « بَدْرٍ » حَتَّىٰ فَرَّ الْفَتَىٰ الْمُسْلِمُ الْمُؤْمِنُ إِلَىٰ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ، وَوَضَعَ نَفْسَهُ تَحْتَ رَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَامْتَشَقَ حُسَامَهُ لِيُقَاتِلَ بِهِ أَبَاهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ .

* * *

وَلَمَّا انْتَهَتْ « بَدْرٌ » بِذَلِكَ النَّصْرِ الْمُؤَزَّرِ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ،

---

(١) كَبَّلَه : قيده .

(٢) يَفْتَنّ : يجعل تعذيبه أنواعًا من الفنون .

(٣) فُسُرِّي عنه : انكشف همه وانشرح صدره .

(٤) النَّشوة : هزة الطرب .

(٥) يشهر سيفه : سله ورفعه .

وَوَقَفَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ وَصَحْبُهُ الْأَخْيَارُ يَسْتَعْرِضُونَ أَسْرَىٰ الْمُشْرِكِينَ إِذَا هُمْ يَجِدُونَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو أَسِيرًا فِي أَيْدِيهِمْ .

فَلَمَّا مَثُلَ سُهَيْلٌ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرِيدُ الْمُفَادَاةَ[1]، نَظَرَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَقَالَ :

دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْزَعُ ثَنِيَّتَيْهِ[2] حَتَّىٰ لَا يَقُومَ بَعْدَ الْيَوْمِ ، خَطِيبًا فِي مَحَافِلِ[3] مَكَّةَ ، يَنَالُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَنَبِيِّهِ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(دَعْهُمَا يَا عُمَرُ ، فَلَعَلَّكَ تَرَىٰ مِنْهُمَا مَا يَسُرُّكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ) .

* * *

ثُمَّ دَارَتِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا ، وَكَانَ صُلْحُ « الْحُدَيْبِيَةِ » ؛ فَبَعَثَتْ قُرَيْشٌ سُهَيْلَ ابْنَ عَمْرٍو لِيَنُوبَ عَنْهَا فِي إِبْرَامِ الصُّلْحِ ، فَتَلَقَّاهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ صَحْبِهِ فِيهِمُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُهَيْلٍ .

ثُمَّ دَعَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ لِكِتَابَةِ الْعَقْدِ ، وَشَرَعَ يُمْلِي عَلَيْهِ فَقَالَ :

(اكْتُبْ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) ...

فَقَالَ سُهَيْلٌ : نَحْنُ لَا نَعْرِفُ هَٰذَا ، وَلَٰكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ : (اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ) .

ثُمَّ قَالَ : (اكْتُبْ هَٰذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) .

---

(١) يريد المفاداة : يريد أن يفدي نفسه بالمال .

(٢) الثنية : سن في مقدم الفم إذا خلعت عجز المرء عن الكلام .

(٣) المحافل : مجامع القوم .

فَقَالَ سُهَيْلٌ : لَوْ كُنَّا نَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ نُقَاتِلْكَ ، وَلَكِنِ اكْتُبِ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي ... اُكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ) .

ثُمَّ أَتَمَّ الْعَقْدَ وَعَادَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو مَزْهُوًّا بِمَا كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ حَقَّقَهُ مِنْ نَصْرٍ لِقَوْمِهِ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ .

* * *

ثُمَّ دَارَتِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا كَرَّةً أُخْرَىٰ ؛ وَإِذَا بِقُرَيْشٍ تُهْزَمُ هَزِيمَتَهَا السَّاحِقَةَ مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ ...

وَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُ مَكَّةَ فَاتِحًا ...

وَإِذَا الْمُنَادِي يُنَادِي :

يَا أَهْلَ مَكَّةَ ، مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ بَيْتَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ...

فَمَا إِنْ سَمِعَ سُهَيْلٌ النِّدَاءَ حَتَّىٰ دَبَّ فِي قَلْبِهِ الذُّعْرُ(١)، وَأَغْلَقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَابَ بَيْتِهِ ، وَسُقِطَ(٢) فِي يَدِهِ .

فَلْنَتْرُكِ الْكَلَامَ لِسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو لِيُحَدِّثَنَا عَنْ هَٰذِهِ اللَّحَظَاتِ الْحَاسِمَاتِ فِي حَيَاتِهِ ... قَالَ سُهَيْلٌ :

لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ ، اقْتَحَمْتُ(٣) بَيْتِي ، وَأَغْلَقْتُ عَلَيَّ بَابِي ، وَأَرْسَلْتُ فِي طَلَبِ ابْنِي عَبْدِ اللَّهِ ؛ وَأَنَا أَسْتَحِي أَنْ تَقَعَ عَيْنِي عَلَىٰ عَيْنِهِ ؛

---

(١) الذُّعْر : الخوف الشديد .

(٢) سُقِطَ في يده : عجز وقلت حيلته .

(٣) اقتحمت بيتي : دخلت بيتي ، وسجنت نفسي فيه .

لِمَا كُنْتُ قَدْ أَسْرَفْتُ فِي تَعْذِيبِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيَّ ... قُلْتُ لَهُ: اطْلُبْ لِي جِوَارًا مِنْ مُحَمَّدٍ، فَإِنِّي لَا آمَنُ أَنْ أُقْتَلَ... فَذَهَبَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ:

أَبِي ... أَتُؤَمِّنُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ جُعِلْتُ فِدَاكَ ؟!.

قَالَ: (نَعَمْ ... هُوَ آمِنٌ بِأَمَانِ اللَّهِ، فَلْيَظْهَرْ)، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ:

(مَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ سُهَيْلًا فَلَا يُسِئْ لِقَاءَهُ فَلَعَمْرِي إِنَّ سُهَيْلًا لَهُ عَقْلٌ وَشَرَفٌ، وَمَا مِثْلُ سُهَيْلٍ يَجْهَلُ الْإِسْلَامَ، وَلَكِنْ قُدِّرَ فَكَانَ).

* * *

أَسْلَمَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو بَعْدَ ذَلِكَ إِسْلَامًا مَلَكَ عَلَيْهِ قَلْبَهُ وَلُبَّهُ، وَأَحَبَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ﷺ حُبًّا أَحَلَّهُ فِي السُّوَيْدَاءِ[1] مِنْ فُؤَادِهِ.

قَالَ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ:

لَقَدْ نَظَرْتُ إِلَى سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يُقَدِّمُ لَهُ الْبُدْنَ[2]، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْحَرُهَا[3] بِيَدِهِ الْكَرِيمَةِ، ثُمَّ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْحَلَّاقَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ... فَنَظَرْتُ إِلَى سُهَيْلٍ، وَهُوَ يَلْتَقِطُ الشَّعْرَةَ مِنْ شَعْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَضَعُهَا عَلَى عَيْنَيْهِ...

فَتَذَكَّرْتُ يَوْمَ «الْحُدَيْبِيَةِ»، وَكَيْفَ أَبَى أَنْ يَكْتُبَ «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» فَحَمِدْتُ اللَّهَ عَلَى أَنْ هَدَاهُ.

* * *

---

(١) السُّوَيْداء: حبة القلب.

(٢) البُدْن: جمع بدنة وهي الناقة تقدم للهدي في الحج والعمرة.

(٣) يَنْحَر: يذبح.

عَكَفَ[1] سُهَيْلٌ مُنْذُ أَسْلَمَ عَلَىٰ مَا يُقَرِّبُهُ مِنَ اللَّهِ، وَيَنْفَعُهُ فِي أُخْرَاهُ.

فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ مَنْ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْفَتْحِ؛ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ صَلَاةً، وَلَا صَوْمًا وَلَا صَدَقَةً، وَلَا رِقَّةَ قَلْبٍ، وَلَا كَثْرَةَ بُكَاءٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.

ثُمَّ إِنَّهُ جَعَلَ كُلَّ يَوْمٍ يَمْضِي إِلَىٰ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ[2] حَتَّىٰ يُقْرِئَهُ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ لَهُ ضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ:

يَا أَبَا زَيْدٍ، إِنَّكَ تَأْتِي هَٰذَا «الْخَزْرَجِيَّ» لِيُقْرِئَكَ الْقُرْآنَ؛ أَفَلَا جِئْتَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ قَوْمِكَ مِنْ قُرَيْشٍ؟!!.

فَقَالَ: يَا ضِرَارُ، إِنَّ هَٰذَا الَّذِي تَقُولُهُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ الْجَاهِلِيَّةِ وَهُوَ الَّذِي صَنَعَ بِنَا مَا صَنَعَ حَتَّىٰ سُبِقْنَا إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ، وَإِنَّ الْإِسْلَامَ أَذْهَبَ عَنَّا عَصَبِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَرَفَعَ أَقْوَامًا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ذِكْرٌ... لَيْتَنَا كُنَّا مَعَهُمْ فَتَقَدَّمْنَا كَمَا تَقَدَّمُوا.

* * *

وَقَدْ ظَلَّ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو يَشْعُرُ بِفَضْلِ السَّابِقِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أَمْثَالِهِ، وَيُدْرِكُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنْ فَرْقٍ...

فَقَدْ حَضَرَ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَىٰ بَابِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ هُوَ وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَحَضَرَ مَعَهُمْ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ[3]، وَصُهَيْبٌ الرُّومِيُّ[4]، وَرِجَالٌ مِنَ الْمَوَالِي مِنْ أَصْحَابِ السَّابِقَةِ فَخَرَجَ آذِنُ عُمَرَ وَقَالَ:

لِيَدْخُلْ عَمَّارٌ، لِيَدْخُلْ صُهَيْبٌ... فَجَعَلَ الْقَوْمُ مِنْ قُرَيْشٍ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، مُغْضَبِينَ، ثُمَّ قَالَ قَائِلُهُمْ:

---

(١) عكف علىٰ الأمر: لزمه وواظب عليه.
(٢) مُعَاذ بْن جَبَل: انظره ص ٤٩٣.
(٣) عَمَّار بْن يَاسِر: انظر آل ياسر ص ٥٠١.
(٤) صهيب الرومي: انظره ص ١٩٣.

لَمْ نَرَ كَيَوْمِنَا هَـٰذَا قَطُّ ، يَأْذَنُ عُمَرُ لِهَؤُلَاءِ ؛ وَنَحْنُ عَلَىٰ بَابِهِ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْنَا ؟!! ...

فَقَالَ سُهَيْلٌ : إِنْ كُنْتُمْ غِضَابًا فَاغْضَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ :

دُعِيَ الْقَوْمُ وَدُعِينَا ؛ فَأَسْرَعُوا وَأَبْطَأْنَا ... فَكَيْفَ بِنَا إِذَا دُعُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَتُرِكْنَا ؟! ...

أَمَا وَاللَّهِ ، إِنَّ مَا سَبَقُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْفَضْلِ مِمَّا لَا تَرَوْنَهُ أَعْظَمُ مِنْ هَـٰذَا الْبَابِ الَّذِي تَتَنَافَسُونَ عَلَيْهِ .

ثُمَّ قَالَ : إِنَّ هَؤُلَاءِ سَبَقُوكُمْ إِلَىٰ مَا سَبَقُوكُمْ إِلَيْهِ ، وَلَا سَبِيلَ لَكُمْ ـ وَاللَّهِ ـ إِلَىٰ اسْتِدْرَاكِ[1] مَا فَاتَ إِلَّا بِالْجِهَادِ وَالِاسْتِشْهَادِ ...

ثُمَّ نَفَضَ ثَوْبَهُ وَقَامَ .

* * *

كَانَتْ رَحَىٰ الْحُرُوبِ دَائِرَةً إِذْ ذَاكَ عَلَىٰ تُخُومِ الشَّامِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالرُّومِ ، فَجَمَعَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو أَبْنَاءَهُ وَأَزْوَاجَهُ وَحَفَدَتَهُ ، وَتَوَجَّهَ بِهِمْ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ لِيُرَابِطَ[2] مَعَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَالَ لِمَنْ مَعَهُ :

وَاللَّهِ لَا أَدَعُ مَوْقِفًا وَقَفْتُهُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا وَقَفْتُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَهُ ، وَلَا نَفَقَةً أَنْفَقْتُهَا مَعَ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا أَنْفَقْتُ مِثْلَهَا ...

وَوَاللَّهِ لَأَبْقَيَنَّ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّىٰ أُقْتَلَ شَهِيدًا ، أَوْ أَمُوتَ غَرِيبًا عَنْ مَكَّةَ .

* * *

(١) الاستدراك : العمل على تعويض ما فات ، واللحاق به .
(٢) ليرابط معهم : ليلازم تخوم العدو .

بَرَّ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو بِقَسَمِهِ ؛ فَشَهِدَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ « الْيَرْمُوكَ » وَأَبْلَىٰ فِيهَا بَلَاءَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ...

ثُمَّ مَا زَالَ يَنْتَقِلُ مِنْ مَعْرَكَةٍ إِلَىٰ أُخْرَىٰ ، حَتَّىٰ حَلَّ بِدِيَارِ الشَّامِ طَاعُونُ « عَمْوَاسَ »[1]، فَمَاتَ فِيهِ سُهَيْلٌ ، وَكُلُّ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَوْلَادِهِ وَذَوِيهِ .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو ، وَكَتَبَهُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٥) .

---

(١) عَمْوَاس : بلدة بالشّام؛ منها كان ابتداءُ الطّاعون ثم فشا في أرض الشّام؛ فمات فيه خلق كثير، وسمي الطّاعون باسمها.

(٥) للاستزادة من أخبار سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو انظر :
١ – الإصابة : ٢/٩٣ أو «الترجمة» ٣٥٧٣.
٢ – أسْدُ الغابة : ٥/ ٤٧٩.
٣ – صفة الصّفوة : ١/ ٧٣١.
٤ – السّيرة لابن هشام : انظر الفهارس.
٥ – حياة الصّحابة : انظر الفهارس في الرّابع.

جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيُّ

« رَوَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ عَنْ نَبِيِّهِمُ الأَعْظَمِ ﷺ أَلْفًا وَخَمْسَمِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ حَدِيثًا »

مَضَىٰ الرَّكْبُ يَحُثُّ[١] الْخُطَىٰ مِنْ « يَثْرِبَ » إِلَىٰ مَكَّةَ تَحْدُوهُ[٢] الْأَشْوَاقُ وَيَدْفَعُهُ الْحَنِينُ ...

فَلَقَدْ كَانَ عَلَىٰ مَوْعِدٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ فِي الرَّكْبِ يَتَلَهَّفُ شَوْقًا إِلَىٰ تِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتِي يَسْعَدُ فِيهَا بِلِقَاءِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

وَوَضْعِ يَدِهِ فِي يَدِهِ لِيُبَايِعَهُ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ...

وَيُعَاهِدَهُ عَلَىٰ التَّأْيِيدِ وَالنَّصْرِ ...

وَكَانَ فِي الرَّكْبِ شَيْخٌ مِنْ وُجُوهِ الْقَوْمِ أَرْدَفَ وَرَاءَهُ[٣] غُلَامَهُ الصَّغِيرَ الْوَحِيدَ ، وَخَلَّفَ فِي « يَثْرِبَ » تِسْعَ بَنَاتٍ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ صَبِيٌّ غَيْرُهُ ...

وَلَقَدْ كَانَ الشَّيْخُ حَرِيصًا أَشَدَّ الْحِرْصِ عَلَىٰ أَنْ يَشْهَدَ غُلَامُهُ الصَّغِيرُ الْبَيْعَةَ ...

وَأَلَّا يَفُوتَهُ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْعَظِيمُ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ ...

أَمَّا ذَلِكَ الشَّيْخُ فَهُوَ « عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو الْخَزْرَجِيُّ الْأَنْصَارِيُّ » ...

وَأَمَّا غُلَامُهُ فَهُوَ « جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ » .

* * *

---

(١) يحث الخطى : يسرع الخطى .

(٢) تحدوه الأشواق : تسوقه .

(٣) أردف وراءه : أركبه خلفه .

أَشْرَقَ الْإِيمَانُ فِي فُؤَادِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ صَغِيرٌ غَضٌّ[1] فَأَضَاءَ كُلَّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِهِ...

وَمَسَّ الْإِسْلَامُ قَلْبَهُ الصَّغِيرَ كَمَا تَمَسُّ قَطَرَاتُ النَّدَىٰ أَكْمَامَ الزَّهْرِ[2] فَتُفَتِّحُهَا، وَتُفْعِمُهَا[3] بِالشَّذَىٰ وَالْعِطْرِ... وَتَوَثَّقَتْ[4] صِلَاتُهُ بِالرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ[5].

* * *

وَلَمَّا وَفَدَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ مُهَاجِرًا؛ تَتَلْمَذَ الصَّبِيُّ الْمُؤْمِنُ عَلَىٰ يَدَيْ نَبِيِّ الْهُدَىٰ وَالرَّحْمَةِ، فَكَانَ مِنْ أَنْجَبِ[6] مَنْ أَخْرَجَتْهُمُ الْمَدْرَسَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ لِلنَّاسِ حِفْظًا لِكِتَابِ اللَّهِ...

وَفِقْهًا[7] فِي دِينِ اللَّهِ...

وَرِوَايَةً لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَحَسْبُكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ «مُسْنَدَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ» يَضُمُّ بَيْنَ دَفَّتَيْهِ أَلْفًا وَخَمْسَمِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ حَدِيثًا...

حَفِظَهَا التِّلْمِيذُ النَّجِيبُ، وَرَوَاهَا لِلْمُسْلِمِينَ عَنْ نَبِيِّهِمُ الْأَعْظَمِ ﷺ.

وَأَنَّ الْبُخَارِيَّ وَمُسْلِمًا أَثْبَتَا فِي صَحِيحَيْهِمَا مَا يَنُوفُ عَلَىٰ مِائَتَيْنِ مِنْ أَحَادِيثِهِ تِلْكَ...

وَأَنَّهُ ظَلَّ مَصْدَرَ إِشْعَاعٍ وَهِدَايَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ دَهْرًا طَوِيلًا؛ فَلَقَدْ مَدَّ اللَّهُ فِي حَيَاتِهِ حَتَّىٰ أَوْشَكَ أَنْ يَبْلُغَ مِنَ الْعُمُرِ قَرْنًا مِنَ الزَّمَانِ.

* * *

(١) غض: نضر طري.
(٢) أكمام الزّهر: الأغلفة الّتي تحيط بالزّهر.
(٣) تفعمها: تملؤها.
(٤) توثقت: تَمكّنتْ وتَقوّتْ.
(٥) منذ نعومة أظفاره: منذ طفولته.
(٦) أنجب: أكرم وأنفس وأفضل.
(٧) وَفِقْهًا: الفقه، الفهم والوعي بما يلقىٰ عليه.

لَمْ يَشْهَدْ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ «بَدْرًا» وَلَا «أُحُدًا» مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... لِأَنَّهُ كَانَ صَغِيرًا مِنْ جِهَةٍ ... وَلِأَنَّ أَبَاهُ كَانَ يَأْمُرُهُ بِالْبَقَاءِ مَعَ أَخَوَاتِهِ التِّسْعِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ أَحَدٌ سِوَاهُ يَقُومُ عَلَىٰ أَمْرِهِنَّ.

حَدَّثَ جَابِرٌ قَالَ:

لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي سَبَقَتْ «أُحُدًا» دَعَانِي أَبِي وَقَالَ:

إِنِّي لَا أَرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا مَعَ أَوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنِّي ـ وَاللَّهِ ـ مَا أَدَعُ أَحَدًا أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَإِنَّ عَلَيَّ دَيْنًا، فَاقْضِ دَيْنِي ...

وَارْحَمْ أَخَوَاتِكَ ... وَاسْتَوْصِ بِهِنَّ خَيْرًا.

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا كَانَ أَبِي أَوَّلَ قَتِيلٍ قُتِلَ فِي «أُحُدٍ».

فَلَمَّا دَفَنْتُهُ أَتَيْتُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقُلْتُ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبِي تَرَكَ دَيْنًا عَلَيْهِ ...

وَلَيْسَ عِنْدِي مَا أَفِيهِ[1] بِهِ إِلَّا مَا يُخْرِجُهُ ثَمَرُ نَخِيلِهِ، وَلَوْ عَمَدْتُ إِلَىٰ وَفَاءِ دَيْنِهِ مِنْ ذَلِكَ الثَّمَرِ لَمَا أَدَّيْتُهُ فِي سِنِينَ ...

وَلَا مَالَ لِأَخَوَاتِي أُنْفِقُ عَلَيْهِنَّ مِنْهُ غَيْرَ هَٰذَا.

فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمَضَىٰ مَعِي إِلَىٰ بَيْدَرِ[2] تَمْرِنَا وَقَالَ لِي:

(أُدْعُ غُرَمَاءَ[3] أَبِيكَ)، فَدَعَوْتُهُمْ.

فَمَا زَالَ يَكِيلُ لَهُمْ مِنْهُ حَتَّىٰ أَدَّىٰ[4] اللَّهُ عَنْ أَبِي دَيْنَهُ كُلَّهُ مِنْ تَمْرِ تِلْكَ السَّنَةِ.

---

(١) أفيه: أؤديه.

(٢) البيدر: الموضع الذي يُكوم ويجمع فيه التمر.

(٣) غرماء: مفرده غريم: الدائن.

(٤) أدَّىٰ: قضىٰ ما عليه ووفاه.

ثُمَّ إِنِّي نَظَرْتُ إِلَىٰ الْبَيْدَرِ فَوَجَدْتُهُ كَمَا هُوَ ...

كَأَنَّهُ لَمْ تَنْقُصْ مِنْهُ تَمْرَةٌ وَاحِدَةٌ ...

* * *

وَمُنْذُ تُوُفِّيَ وَالِدُ جَابِرٍ لَمْ تَفُتْهُ غَزْوَةٌ وَاحِدَةٌ مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَلَقَدْ كَانَتْ لَهُ فِي كُلِّ غَزْوَةٍ حَادِثَةٌ تُرْوَىٰ وَتُحْفَظُ.

فَلْنَتْرُكْ لَهُ الْكَلَامَ لِيَرْوِيَ لَنَا إِحْدَىٰ حَوَادِثِهِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. قَالَ جَابِرٌ:

كُنَّا يَوْمَ «الْخَنْدَقِ» نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ لَنَا صَخْرَةٌ شَدِيدَةٌ عَجَزْنَا عَنْ تَحْطِيمِهَا، فَجِئْنَا إِلَىٰ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقُلْنَا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَقَدْ وَقَفَتْ فِي سَبِيلِنَا صَخْرَةٌ صَلْدَةٌ، وَلَمْ تَفْعَلْ مَعَاوِلُنَا[1] فِيهَا شَيْئًا.

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (دَعُوهَا فَإِنِّي نَازِلٌ إِلَيْهَا).

ثُمَّ قَامَ، وَكَانَ بَطْنُهُ مَعْصُوبًا بِحَجَرٍ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّنَا كُنَّا أَمْضَيْنَا أَيَّامًا ثَلَاثَةً لَمْ نَذُقْ خِلَالَهَا طَعَامًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْمِعْوَلَ، وَضَرَبَ الصَّخْرَةَ فَغَدَتْ كَثِيبًا[2] مَهِيلًا[3].

عِنْدَ ذَلِكَ ازْدَادَ أَسَايَ عَلَىٰ مَا أَصَابَ الرَّسُولَ الْأَعْظَمَ ﷺ مِنَ الْجُوعِ، فَاتَّجَهْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ بِالْمُضِيِّ إِلَىٰ بَيْتِي؟.

فَقَالَ: (امْضِ).

فَلَمَّا بَلَغْتُ الْبَيْتَ قُلْتُ لِامْرَأَتِي: لَقَدْ رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ مِنْ مَرَارَةِ الْجُوعِ مَا لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ، فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟.

---

(١) معاولنا: مفرده معول وهي أداة لحفر الأرض.
(٢) كثيبا: تلًا من الرمل. (٣) مهيلًا: ينهال فيتساقط ولا يتماسك.

قَالَتْ : عِنْدِي قَلِيلٌ مِنَ الشَّعِيرِ ، وَشَاةٌ صَغِيرَةٌ ، فَقُمْتُ إِلَىٰ الشَّاةِ فَذَبَحْتُهَا وَقَطَّعْتُهَا ، وَجَعَلْتُهَا فِي الْقِدْرِ ، وَأَخَذْتُ الشَّعِيرَ فَطَحَنْتُهُ وَدَفَعْتُهُ إِلَىٰ امْرَأَتِي ، فَعَجَنَتْهُ فَلَمَّا وَجَدْتُ أَنَّ اللَّحْمَ كَادَ يَنْضُجُ ...

وَأَنَّ الْعَجِينَ قَدْ لَانَ ؛ وَأَوْشَكَ[1] أَنْ يَخْتَمِرَ .

مَضَيْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقُلْتُ لَهُ :

طُعَيِّمٌ[2] صَنَعْنَاهُ لَكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؛ فَقُمْ أَنْتَ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ مَعَكَ .

فَقَالَ : (كَمْ هُوَ) ؟ .

فَوَصَفْتُهُ لَهُ ... فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمِقْدَارِ الطَّعَامِ قَالَ :

(يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ لَكُمْ طَعَامًا فَهَلُمُّوا[3] إِلَيْهِ) ...

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ : (امْضِ إِلَىٰ زَوْجَتِكَ وَقُلْ لَهَا :

لَا تُنْزِلِي قِدْرَكِ ، وَلَا تَخْبِزِي عَجِينَكِ حَتَّىٰ أَجِيءَ) .

فَمَضَيْتُ إِلَىٰ الْبَيْتِ ؛ وَقَدْ رَكِبَنِي مِنَ الْهَمِّ وَالْحَيَاءِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ .

وَجَعَلْتُ أَقُولُ : أَيَجِيئُنَا أَهْلُ الْخَنْدَقِ عَلَىٰ صَاعٍ مِنْ شَعِيرٍ ...

وَشَاةٍ صَغِيرَةٍ ؟! .

ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَىٰ امْرَأَتِي وَقُلْتُ : وَيْحَكِ[4]؛ لَقَدِ افْتَضَحْتُ[5]...

فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَيَأْتِينَا بِأَهْلِ الْخَنْدَقِ أَجْمَعِينَ .

فَقَالَتْ : هَلْ سَأَلَكَ : كَمْ طَعَامُكَ ؟ .

قُلْتُ : نَعَمْ .

---

(١) أوشك : دنا وقارب .
(٢) طُعيِّم : القليل من الطعام .
(٣) هلموا : تعالوا ، وتكون لازمة ومتعدية وهي من أسماء الأفعال .
(٤) ويحك : كلمة ترحم وتوجع .
(٥) افتضحت : انكشفت واشتهر حالي .

فَقَالَتْ : سَرِّ[1] عَنْ نَفْسِكَ ، فَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَكَشَفَتْ عَنِّي غَمًّا[2] شَدِيدًا بِمَقَالَتِهَا تِلْكَ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ...

وَمَعَهُ الْأَنْصَارُ وَالْمُهَاجِرُونَ ، فَقَالَ لَهُمْ :

(ادْخُلُوا ، وَلَا تَزْدَحِمُوا) .

ثُمَّ قَالَ لِامْرَأَتِي : (هَاتِ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعَكِ ...

وَاغْرِفِي مِنْ قِدْرِكِ ...

وَلَا تُنْزِلِيهَا عَنِ الْمَوْقِدِ) .

ثُمَّ طَفِقَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ ، وَيُقَرِّبُهُ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ ...

وَهُمْ يَأْكُلُونَ . حَتَّىٰ شَبِعُوا جَمِيعًا .

ثُمَّ أَرْدَفَ[3] جَابِرٌ قَائِلًا :

أُقْسِمُ بِاللَّهِ إِنَّهُمُ انْفَضُّوا عَنِ الطَّعَامِ وَإِنَّ قِدْرَنَا لَتَفُورُ مُمْتَلِئَةً كَمَا هِيَ ...

وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ ...

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِامْرَأَتِي :

(كُلِي ...

وَاهْدِي) ...

فَأَكَلَتْ ، وَجَعَلَتْ تَهْدِي سَحَابَةَ[4] ذَلِكَ الْيَوْمِ كُلِّهِ .

* * *

(١) سرّ : ألقِ الهمّ وأزِحْهُ .
(٢) غمًّا : حزنًا .
(٣) أردف : تابع وأكمل .
(٤) سحابة ذلك اليوم : طوال ذلك اليوم .

هَٰذَا وَلَقَدْ ظَلَّ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ مَصْدَرَ إِشْعَاعٍ وَهِدَايَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ دَهْرًا طَوِيلًا ، حَيْثُ مَدَّ اللَّهُ فِي أَجَلِهِ حَتَّىٰ أَوْشَكَ أَنْ يَبْلُغَ مِنَ الْعُمُرِ قَرْنًا مِنَ الزَّمَانِ .

وَلَقَدْ خَرَجَ ذَاتَ سَنَةٍ إِلَىٰ بِلَادِ الرُّومِ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَكَانَ الْجَيْشُ بِقِيَادَةِ مَالِكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْخَثْعَمِيِّ .

وَكَانَ مَالِكٌ يَطُوفُ بِجُنُودِهِ وَهُمْ مُنْطَلِقُونَ لِيَقِفَ عَلَىٰ أَحْوَالِهِمْ ، وَيَشُدَّ مِنْ أَزْرِهِمْ[1]، وَيُولِي كِبَارَهُمْ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ عِنَايَةٍ وَرِعَايَةٍ .

فَمَرَّ بِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَوَجَدَهُ مَاشِيًا ...

وَمَعَهُ بَغْلٌ لَهُ يُمْسِكُ بِزِمَامِهِ[2]، وَيَقُودُهُ .

فَقَالَ لَهُ : مَا بِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ ...

لِمَ لَا تَرْكَبُ ؟! ، وَقَدْ يَسَّرَ اللَّهُ لَكَ ظَهْرًا يَحْمِلُكَ عَلَيْهِ .

فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ النَّارِ) .

فَتَرَكَهُ « مَالِكٌ » وَمَضَىٰ حَتَّىٰ غَدَا فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ ، وَنَادَاهُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ ، وَقَالَ :

يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، مَا لَكَ لَا تَرْكَبُ بَغْلَكَ ، وَهُوَ فِي حَوْزَتِكَ[3]؟! .

فَعَرَفَ جَابِرٌ قَصْدَهُ ، وَأَجَابَهُ بِصَوْتٍ عَالٍ وَقَالَ :

---

(١) شد أزرهم : قواهم .

(٢) الزمام : حبل تشد به الدّابة وتقاد .

(٣) حوزتك : ملكك .

لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ النَّارِ).

فَتَوَاثَبَ[1] النَّاسُ عَنْ دَوَابِّهِمْ...

وَكُلٌّ مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفُوزَ بِهَٰذَا الْأَجْرِ.

فَمَا رُئِيَ جَيْشٌ أَكْثَرَ مُشَاةً مِنْ ذَٰلِكَ الْجَيْشِ.

* * *

هَنِيئًا لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ:

فَقَدْ بَايَعَ الرَّسُولَ الْأَعْظَمَ ﷺ وَهُوَ طُفَيْلٌ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ...

وَتَتَلْمَذَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ...

وَرَوَىٰ حَدِيثَهُ فَتَنَاقَلَتْهُ عَنْهُ الرُّوَاةُ...

وَجَاهَدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ شَابٌّ مَوْفُورُ الشَّبَابِ...

وَغَبَّرَ قَدَمَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ شَيْخٌ طَاعِنٌ فِي السِّنِّ (*).

---

(١) تواثب النّاس: قفزوا من فوقها.

(*) للاستزادة من أخبار جَابِر بْن عَبْد اللَّهِ الْأَنْصَارِيّ انظر:
١ - أسْدُ الْغابة: ١/ ٣٠٧.
٢ - سِيَرُ أعلام النّبلاء: انظر الْفهارس.
٣ - تاريخ الْإسلام للذهبي: ٣/ ١٤٣.
٤ - الْإصابة: ١/ ٢١٢ أو «التّرجمة» ١٠٢٦.
٥ - الاستيعاب «بهامش الْإصابة»: ١/ ٢٢١.
٦ - صفة الصّفوة: ١/ ٦٤٨.
٧ - الجمع بين رجال الصّحيحين: ١/ ٧٢.
٨ - الطّبري: «انظر الْفهارس».
٩ - جامع الأصول لابن لأثير: ١/ ٤٢٧ وما بعدها.
١٠- الْبداية والنّهاية: ٤/ ٨٦ و ٩٧.
١١- سيرة ابن هشام: ٣/ ٢١٧ - ٢١٨.
١٢- مجمع الزّوائد: ٩/ ١١.

سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَة

« لَوْ كَانَ سَالِمٌ حَيًّا لَوَلَّيْتُهُ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِي »

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

أَعْتَقَتْ « ثُبَيْتَةُ بِنْتُ يَعَارٍ » غُلَامَهَا سَالِمًا وَهُوَ يَوْمَئِذٍ فَتًى يَافِعٌ[1] يَقْتَرِبُ مِنَ الْحُلُمِ[2]، وَقَدْ دَعَاهَا إِلَىٰ تَحْرِيرِهِ مَا كَانَتْ تَرَىٰ فِيهِ مِنْ رِقَّةِ الشَّمَائِلِ[3]، وَنَبَالَةِ الْخَصَائِلِ[4]، وَآيَاتِ النَّجَابَةِ ...

وَمَا تَلْمَحُ فِي سُلُوكِهِ مِنْ أَمَارَاتِ[5] الْخَيْرِ وَالْبِرِّ.

فَشَقَّ عَلَىٰ زَوْجِهَا الشَّابِّ « أَبِي حُذَيْفَةَ بْنِ عُتْبَةَ » أَحَدِ سَرَاةِ[6] بَنِي « عَبْدِ شَمْسٍ » أَنْ يُسَرَّحَ سَالِمٌ فِي هَٰذِهِ السِّنِّ الْمُبَكِّرَةِ ، وَأَنْ يُوكَلَ أَمْرُهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ ، فَأَخَذَهُ بِيَدِهِ وَمَضَىٰ بِهِ إِلَىٰ الْحَرَمِ ، وَانْتَصَبَ قَائِمًا فِي جُمُوعِ قُرَيْشٍ الْمُنْتَثِرَةِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ وَقَالَ :

اشْهَدُوا يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَنِّي قَدْ تَبَنَّيْتُ[7] سَالِمًا هَٰذَا ؛ بَعْدَ أَنْ أَعْتَقَتْهُ زَوْجَتِي « ثُبَيْتَةُ » ...

وَأَنَّهُ غَدَا مِنِّي بِمَنْزِلَةِ الِابْنِ مِنْ أَبِيهِ ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ :

نِعْمَ مَا صَنَعْتَ يَا بْنَ عُتْبَةَ .

وَمُنْذُ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ أَصْبَحَ الْفَتَىٰ يُدْعَىٰ : سَالِمَ بْنَ أَبِي حُذَيْفَةَ .

* * *

---

(١) الْيافع : الَّذي قارب الْبلوغ .

(٢) الْحُلُم : بلوغ سن الشَّباب .

(٣) رِقَّة الشَّمائِل : رِقَّة طِبَاعه .

(٤) الْخصَائِل : الخلال والصّفات .

(٥) أَمَارَات : علامات .

(٦) سَرَاة بفتح السّين : الْأَشراف .

(٧) التَّبني : نسبة الْولد الْغريب إِلَىٰ الْإِنسان .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ انْبَثَقَ[1] مِنْ بَطْحَاءِ مَكَّةَ قَبَسٌ[2] مِنَ النُّورِ الْإِلَٰهِيِّ، وَبَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ؛ فَكَانَ أَبُو حُذَيْفَةَ وَابْنُهُ سَالِمٌ مِنْ أَوَائِلِ مَنْ أَشْرَقَتْ نُفُوسُهُمْ بِهَٰذَا الضِّيَاءِ الْقُدْسِيِّ[3]...

وَاسْتَنَارَتْ قُلُوبُهُمْ بِنُورِهِ.

فَمَضَىٰ الْأَبُ وَابْنُهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَعْلَنَا إِسْلَامَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...

وَشَهِدَا مَعًا أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَخَاتَمُ رُسُلِهِ.

* * *

لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ عَلَىٰ دُخُولِ أَبِي حُذَيْفَةَ وَابْنِهِ سَالِمٍ فِي دِينِ اللَّهِ حَتَّىٰ أَبْطَلَ الْإِسْلَامُ طَرِيقَةَ التَّبَنِّي...

وَأَمَرَ النَّاسَ بِرَدِّ الْأَبْنَاءِ إِلَىٰ آبَائِهِمْ حِفْظًا لِلْأَنْسَابِ، وَإِقْلَاعًا عَنْ مَسْلَكٍ مِنْ مَسَالِكِ الْجَاهِلِيَّةِ... وَنَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي شَأْنِ الْمُتَبَنَّيْنَ:

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾[4].

فَاسْتَجَابَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ أَمْرِ رَبِّهِمْ... وَهَبُّوا يَبْحَثُونَ عَنْ أَنْسَابِ مَنْ تَبَنَّوْهُمْ، وَيَتَعَرَّفُونَ عَلَىٰ آبَائِهِمْ، وَيَرُدُّونَهُمْ إِلَيْهِمْ.

لَكِنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ لَمْ يَهْتَدِ إِلَىٰ وَالِدِ سَالِمٍ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ الْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ، ذَٰلِكَ لِأَنَّ سَالِمًا سُبِيَ[5] صَغِيرًا، وَجُلِبَ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَبِيعَ فِي سُوقِ النَّخَّاسِينَ[6] وَهُوَ فِي سِنٍّ لَا تُمَكِّنُهُ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ لِنَفْسِهِ أَبًا أَوْ أُمًّا.

---

(١) انبثق: انفجر وفاض.
(٢) قبس: شعلة النّار تؤخذ من معظم النّار.
(٣) القدسي: الطّاهر المبارك.
(٤) سورة الأحزاب: آية ٥.
(٥) سُبي: أُسر واسْتُرِق.
(٦) النّخاسون: بائعو العبيد، والمفرد نخاس.

فَأَطْلَقَ عَلَيْهِ النَّاسُ اسْمَ « سَالِمٍ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ » .

وَظَلَّ يُعْرَفُ بِذَلِكَ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ .

* * *

غَيْرَ أَنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ أَبِي حُذَيْفَةَ وَسَالِمٍ لَمْ تَكُنْ عَلَاقَةَ مَوْلًى[1] بِمَوْلَاهُ ...

وَإِنَّمَا هِيَ عَلَاقَةُ أَخٍ بِأَخِيهِ بَعْدَ أَنْ وَحَّدَ الْإِسْلَامُ بَيْنَ قَلْبَيْهِمَا ، وَآخَىٰ الْإِيمَانُ بَيْنَ نَفْسَيْهِمَا ...

وَغَمَرَ فُؤَادَيْهِمَا[2] حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

وَقَدْ أَرَادَ أَبُو حُذَيْفَةَ أَنْ يَزِيدَ صِلَتَهُ بِسَالِمٍ رُسُوخًا[3] وَعُمْقًا ، وَأَنْ يَقْضِيَ عَلَىٰ كُلِّ أَثَرٍ مِنْ آثَارِ الْعَصَبِيَّاتِ[4] الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي وَأَدَهَا الْإِسْلَامُ ...

فَزَوَّجَ سَالِمًا مِنِ ابْنَةِ أَخِيهِ الْقُرَشِيَّةِ « الْعَبْشَمِيَّةِ »[5] ذَاتِ الْحَسَبِ وَالنَّسَبِ ...

فَأَصْبَحَ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ ، وَوَاحِدًا مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُ ...

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ ذَلِكَ طَوِيلُ وَقْتٍ حَتَّىٰ فَرَّقَتْ بَيْنَ الْأَخَوَيْنِ الْأَحْدَاثُ الْجِسَامُ الَّتِي كَابَدَ[6] مِنْهَا الْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُونَ مَا كَابَدُوا ، وَعَانُوا مِنْ قَسْوَتِهَا مَا عَانُوا ...

فَمَضَىٰ أَبُو حُذَيْفَةَ إِلَىٰ « الْحَبَشَةِ » مُهَاجِرًا إِلَىٰ اللَّهِ بِدِينِهِ وَإِيمَانِهِ ، فَارًّا بِعَقِيدَتِهِ مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ ...

أَمَّا سَالِمٌ فَقَدْ آثَرَ[7] أَنْ يَبْقَىٰ فِي مَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ

---

(١) علاقة مَوْلًىٰ بمولاه : علاقة العبد بسيده .

(٢) غمر فؤاديهما : ملأ فؤاديهما .

(٣) رسوخًا : ثباتًا .

(٤) العصبيات : شدة ارتباط المرء بجماعته وانحيازه لها .

(٥) العبشمية : المنسوبة إلىٰ عبد شمس .

(٦) كَابَدَ : عانىٰ وذاق الآلام .

(٧) آثر : فَضَّلَ .

عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَكُبَّ[1] عَلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ؛ لِيَأْخُذَهُ غَضًّا طَرِيًّا كُلَّمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ، فَطَفِقَ يَتْلُو آيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ فِي خُشُوعٍ ...

وَيَسْتَظْهِرُ سُوَرَهُ الْمُنْزَلَةَ فِي فَهْمٍ وَتَدَبُّرٍ ، حَتَّىٰ غَدَا وَاحِدًا مِنْ كِبَارِ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَأَصْبَحَ رَابِعَ أَرْبَعَةٍ أَوْصَىٰ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِأَنْ يُؤْخَذَ عَنْهُمُ الْقُرْآنُ فَقَالَ :

(اسْتَقْرِئُوا[2] الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ : مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ[3]... وَسَالِمٍ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ ... وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ... وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ[4]...) .

* * *

وَقَدْ عَرَفَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ لِسَالِمٍ فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ فِي حِفْظِهِ لِكِتَابِ اللَّهِ وَإِتْقَانِهِ لَهُ ، وَتَدَبُّرِهِ لِمَعَانِيهِ ، وَإِدْرَاكِهِ لِمَرَامِيهِ .

فَلَمَّا هَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ...

دَعَوْا سَالِمًا لِيَؤُمَّهُمْ فِي الصَّلَاةِ .

فَمَا زَالَ يُصَلِّي بِهِمْ حَتَّىٰ قَدِمَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَطَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ[5].

* * *

ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ سَالِمٍ وَأَخِيهِ فِي اللَّهِ أَبِي حُذَيْفَةَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ ...

وَأَنْ يَمْضِيَا إِلَىٰ « بَدْرٍ » جَنْبًا إِلَىٰ جَنْبٍ ، مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

---

(١) أَكَبَّ عَلَىٰ الأمر : عكف عليه وانقطع له.
(٢) استقرئوا القرآن : اطلبوا قراءة القرآن.
(٣) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : انظره ص ٩٧.
(٤) مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : انظره ص ٤٩٣.
(٥) من جِلَّة الصَّحابة : سادة الصَّحابة وعظمائهم.

وَفِيمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسْتَعِدُّونَ لِنِزَالِ الْمُشْرِكِينَ قَالَ سَالِمٌ لِأَخِيهِ أَبِي حُذَيْفَةَ :

انْظُرْ يَا أَبَا حُذَيْفَةَ ، هَٰذَا أَبُوكَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ يَتَقَدَّمُ الصُّفُوفَ ، وَيَتَأَهَّبُ لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ .

فَقَالَ أَبُو حُذَيْفَةَ : نَعَمْ ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ ... وَهَٰذَانِ عَدُوَّا اللَّهِ عَمِّي شَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَأَخِي الْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ ؛ يُحِيطَانِ بِهِ ...

وَلَوْ أَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ لَبَارَزْتُهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ وَأَوْرَدْتُهُمْ مَوَارِدَ الرَّدَىٰ[1]، أَوْ أَمْضِيَ إِلَىٰ جِوَارِ رَبِّي رَاضِيًا مَرْضِيًّا .

* * *

وَلَمَّا انْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ وَقَفَ سَالِمٌ وَأَبُو حُذَيْفَةَ يَنْظُرَانِ إِلَىٰ الْقَتْلَىٰ ، فَإِذَا عُتْبَةُ وَالِدُ أَبِي حُذَيْفَةَ ، وَشَيْبَةُ عَمُّهُ ، وَالْوَلِيدُ أَخُوهُ ...

قَدْ لَقَوْا مَصَارِعَهُمْ[2]، فَقَالَ أَبُو حُذَيْفَةَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقَرَّ عَيْنَ نَبِيِّهِ بِمَقْتَلِهِمْ جَمِيعًا .

* * *

ثُمَّ مَا فَتِئَ الْأَخَوَانِ فِي اللَّهِ يُجَاهِدَانِ تَحْتَ رَايَةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ مَعًا فِي كُلِّ غَزْوَةٍ غَزَاهَا فِي حَيَاتِهِ ، وَيُؤَدِّيَانِ حَقَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَيْهِمَا إِلَىٰ أَنْ كَانَ يَوْمُ « الْيَمَامَةِ » فِي عَهْدِ الصِّدِّيقِ ...

فَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ هَبَّ أَبُو بَكْرٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِقِتَالِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ ...

---

(١) موارد الرَّدَىٰ : موارد الموت والهلاك .

(٢) مصارعهم : حتفهم .

وَاسْتَنْفَرَ(١) الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ فِتْنَتِهِ الْعَمْيَاءِ الَّتِي أَوْشَكَتْ أَنْ تُودِيَ(٢) بِالْإِسْلَامِ، وَتُدَمِّرَ أَهْلَهُ.

فَبَادَرَ سَالِمٌ وَأَبُو حُذَيْفَةَ لِلذَّوْدِ عَنْ دِينِ اللَّهِ، وَنَفَرَا لِقِتَالِ مُسَيْلِمَةَ عَدُوِّ اللَّهِ.

* * *

الْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ عَلَىٰ أَرْضِ الْيَمَامَةِ وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا مَعْرَكَتَانِ طَاحِنَتَانِ قَلَّمَا شَهِدَ تَارِيخُ الْحُرُوبِ لَهُمَا نَظِيرًا...

فَقَدْ أَبْدَىٰ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ بِقِيَادَةِ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ(٣) وَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مِنْ ضُرُوبِ الشَّجَاعَةِ مَا يَعْجَزُ عَنْ وَصْفِهِ الْوَاصِفُونَ...

كَمَا أَبْدَىٰ فِيهَا الْمُرْتَدُّونَ بِقِيَادَةِ مُسَيْلِمَةَ مَا لَا يَقِلُّ عَنْ ذَٰلِكَ شَجَاعَةً وَإِقْدَامًا وَبَذْلًا.

لَكِنَّ النَّصْرَ فِي هَاتَيْنِ الْمَعْرَكَتَيْنِ كَانَ حَلِيفَ(٤) مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ...

حَتَّىٰ إِنَّ رِجَالَهُ اقْتَحَمُوا فُسْطَاطَ(٥) خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَكَادُوا أَنْ يَسْبُوا(٦) زَوْجَتَهُ لَوْلَا أَنْ أَجَارَهَا رَجُلٌ مِنْهُمْ.

* * *

عِنْدَ ذَٰلِكَ دَبَّتِ الْحَمِيَّةُ فِي صُدُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَبَرَزَ بَيْنَهُمْ أَبْطَالٌ غُرٌّ مَيَامِينُ(٧)...

بَاعُوا لِلَّهِ نُفُوسًا تَمُوتُ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا، بِنُفُوسٍ لَا تَمُوتُ أَبَدًا...

---

(١) استنفر الْمُسلِمين: استحثهم علىٰ الجهاد.
(٢) أوشكت أن تودي: كادت أن تُهلك.
(٣) عكرمة بن أبي جهل: انظره ص ١١٥.
(٤) حليف مُسَيلمة: الحليف الَّذي بينه وبين غيره عهد علَىٰ النّصرة.
(٥) فسطاط خالد: خيمة خالد.
(٦) يَسْبوا زوجته: يأسرونها.
(٧) غُرّ ميامين: ذوو النّجدة والمروءة.

وَأَعَادَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ تَعْبِئَةَ(١) جَيْشِهِ، فَأَسْلَمَ لِوَاءَ(٢) الْمُهَاجِرِينَ لِسَالِمٍ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ...

وَأَسْلَمَ لِوَاءَ الْأَنْصَارِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ(٣)...

وَوَقَفَ زَيْدُ بْنُ الْخَطَّابِ يُحَرِّضُ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الْقِتَالِ فَقَالَ :

أَيُّهَا النَّاسُ، عَضُّوا عَلَىٰ أَضْرَاسِكُمْ(٤)، وَاضْرِبُوا فِي عَدُوِّكُمْ، وَامْضُوا قُدُمًا...

أَيُّهَا النَّاسُ، وَاللَّهِ لَا أَتَكَلَّمُ بَعْدَ هَٰذِهِ الْكَلِمَةِ أَبَدًا حَتَّىٰ يَهْزِمَ اللَّهُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ وَمَنْ مَعَهُ أَوْ أُقْتَلَ؛ فَأَلْقَىٰ اللَّهَ بِحُجَّتِي...

ثُمَّ انْطَلَقَ يَشُقُّ الصُّفُوفَ، وَظَلَّ يُقَاتِلُ حَتَّىٰ قُتِلَ.

ثُمَّ تَلَاهُ أَبُو حُذَيْفَةَ وَهُوَ يُنَادِي :

يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِفِعَالِكُمْ...

ثُمَّ هَبَّ يُجَاهِدُ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدَ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ.

وَأَمَّا سَالِمٌ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ فَتَوَجَّهَ إِلَىٰ الْمُهَاجِرِينَ وَقَالَ :

بِئْسَ حَامِلُ الْقُرْآنِ أَنَا إِنْ أُتِيَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قِبَلِي(٥)...

ثُمَّ انْدَفَعَ يُجَالِدُ عَنْ رَايَةِ بَنِي قَوْمِهِ حَتَّىٰ قُطِعَتْ يَمِينُهُ...

فَأَخَذَ الرَّايَةَ بِشِمَالِهِ، وَنَاضَلَ عَنْهَا حَتَّىٰ قُطِعَتْ شِمَالُهُ فَأَخَذَ الرَّايَةَ بِعَضُدَيْهِ...

---

(١) تعبئة جيشه: تجميع جيشه وترتيبه.

(٢) لواء المهاجرين: راية المهاجرين.

(٣) ثابت بن قيس: انظره ص ٤٥٩.

(٤) عضوا علىٰ أضراسكم: تمسكوا بما أنتم فيه.

(٥) من قِبَلي: من ناحيتي.

وَثَبَتَ بِهَا حَتَّىٰ أَثْخَنَتْهُ[1] الْجِرَاحُ ، وَسَقَطَ عَلَىٰ الْأَرْضِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ .

* * *

وَلَمَّا وَضَعَتِ الْمَعْرَكَةُ أَوْزَارَهَا[2] وَقَفَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَىٰ سَالِمٍ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ ، وَكَانَ مَا يَزَالُ بِهِ رَمَقٌ[3] ؛ فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ :

مَا صَنَعَ الْمُسْلِمُونَ يَا خَالِدُ ؟ .

فَقَالَ : كَتَبَ اللَّهُ لَهُمُ النَّصْرَ ... وَقَتَلَ لَهُمْ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ ... وَهَزَمَ لَهُمْ جُنْدَهُ ، وَأَتْبَاعَهُ .

فَقَالَ : وَمَا فَعَلَ أَخِي أَبُو حُذَيْفَةَ ؟ .

فَقَالَ : مَضَىٰ إِلَىٰ رَبِّهِ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ ، وَقُتِلَ شَهِيدًا ...

فَقَالَ : أَضْجِعُونِي إِلَىٰ جَانِبِهِ ...

فَقَالَ : هَا هُوَ ذَا مُوَسَّدٌ عِنْدَ قَدَمَيْكَ .

فَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ :

مَعًا هُنَا يَا أَبَا حُذَيْفَةَ ، وَمَعًا هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ...

وَلَفَظَ آخِرَ أَنْفَاسِهِ (*) .

---

(١) أثخنته الجراح : كثرت عليه وأضعفته .

(٢) وضعت المعركة أوزارها : توقفت وانتهت .

(٣) رمَقٌ : بقية الحياة .

(*) للاستزادة من أخبار سالِم مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ انظر :
١ - الإصابة : ٦/٢ أو « الترجمة » ٣٠٥٢.
٢ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٢/ ٧٠.
٣ - أسْدُ الغابة : ٢/ ٣٠٧.
٤ - حلية الأولياء : ١/ ١٧٦.
٥ - حياة الصّحابة : « انظر الفهارس » .
٦ - السّيرة لابن هشام : ٢/ ١٢٣، ٣٣٤ و« انظر الفهارس » .

عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ

« إِنَّ تَارِيخَ النُّبُوَّاتِ لَمْ يَعْرِفْ أَحَدًا أَصْهَرَ إِلَىٰ نَبِيٍّ مَرَّتَيْنِ سِوَىٰ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ »

إِنَّهُ ذُو النُّورَيْنِ ...

وَصَاحِبُ الْهِجْرَتَيْنِ ...

وَزَوْجُ الِابْنَتَيْنِ ...

عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

* * *

كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الذُّرْوَةِ[1] مِنْ قَوْمِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ عَرِيضُ[2] الْجَاهِ ...

وَافِرُ الثَّرَاءِ[3] ... سَابِغُ[4] النِّعْمَةِ ...

جَمُّ[5] التَّوَاضُعِ ... شَدِيدُ الْحَيَاءِ ...

فَأَحَبَّهُ قَوْمُهُ أَشَدَّ الْحُبِّ وَأَصْدَقَهُ ، حَتَّىٰ إِنَّ الْمَرْأَةَ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تُرَقِّصُ صَبِيَّهَا الصَّغِيرَ وَتَقُولُ :

أُحِبُّكَ وَالرَّحْمَانْ
حُبَّ قُرَيْشٍ لِعُثْمَانْ

---

(١) الذّروة : المقام الرّفيع في قومه .
(٢) عريض الْجاه : ذو قدر عظيم .
(٣) وافر الثّراء : كثير المال .
(٤) سابغ النّعمة : تام النّعمة كاملها .
(٥) جَمٌّ : كثير التّواضع .

وَلَمَّا أَهَلَّ[١] الْإِسْلَامُ بِنُورِهِ عَلَىٰ مَكَّةَ كَانَ عُثْمَانُ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الِاسْتِضَاءَةِ بِمِشْكَاتِهِ[٢]...

* * *

وَلِإِسْلَامِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قِصَّةٌ مَا زَالَ يَرْوِيهَا الرُّوَاةُ.

ذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ بَلَغَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ زَوَّجَ ابْنَتَهُ رُقَيَّةَ مِنَ ابْنِ عَمِّهَا عُتْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ...

نَدِمَ أَشَدَّ النَّدَمِ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهَا...

وَلَمْ يَحْظَ بِخُلُقِهَا الرَّفِيعِ وَبَيْتِهَا الْعَرِيقِ[٣]...

فَدَخَلَ عَلَىٰ أَهْلِهِ مَهْمُومًا.

فَوَجَدَ عِنْدَهُمْ خَالَتَهُ «سُعْدَىٰ بِنْتَ كُرَيْزٍ»، وَكَانَتْ هَٰذِهِ امْرَأَةً حَازِمَةً، عَاقِلَةً، طَاعِنَةً[٤] فِي السِّنِّ؛ فَسَرَّتْ[٥] عَنْهُ...

وَبَشَّرَتْهُ بِظُهُورِ نَبِيٍّ يُبْطِلُ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ[٦]...

وَيَدْعُو إِلَىٰ عِبَادَةِ الْوَاحِدِ الدَّيَّانِ[٧]...

وَرَغَّبَتْهُ فِي دِينِ ذَلِكَ النَّبِيِّ، وَبَشَّرَتْهُ بِأَنَّهُ سَيَنَالُ عِنْدَهُ مَا يَبْتَغِيهِ.

قَالَ عُثْمَانُ: فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا أُفَكِّرُ فِيمَا قَالَتْهُ خَالَتِي...

فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ، وَحَدَّثْتُهُ بِمَا أَخْبَرَتْنِي بِهِ، فَقَالَ:

وَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقَتْ خَالَتُكَ، فِيمَا أَخْبَرَتْكَ، وَبَشَّرَتْكَ بِالْخَيْرِ يَا عُثْمَانُ...

---

(١) أَهَلَّ: ابتدأ كما يبدأ الشهر بظهور الهلال.
(٢) المشكاة: ما يوضع عليه المصباح.
(٣) بيتها العريق: أي كريمة الآباء والأجداد.
(٤) طاعنة في السن: متقدمة في السن.
(٥) سرّت عنه: كشفت عنه الهم.
(٦) الأوثان: الأصنام.
(٧) الدَّيَّان: اسم من أسماء الله عزّ وجلّ، وهو المحاسب والمجازي.

وَ إِنَّكَ لَرَجُلٌ عَاقِلٌ حَازِمٌ[1] مَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ الْحَقُّ ، وَلَا يَشْتَبِهُ عِنْدَكَ مَعَ الْبَاطِلِ ... ثُمَّ قَالَ لِي :

مَا هَٰذِهِ الْأَصْنَامُ الَّتِي يَعْبُدُهَا قَوْمُنَا ؟! ...

أَلَيْسَتْ مِنْ حِجَارَةٍ صُمٍّ[2] لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ ؟ .

فَقُلْتُ : بَلَىٰ .

فَقَالَ : وَ إِنَّ مَا قَالَتْهُ خَالَتُكَ ـ يَا عُثْمَانُ ـ قَدْ تَحَقَّقَ ...

فَلَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْمُرْتَقَبَ[3] ، وَبَعَثَهُ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً بِدِينِ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ .

فَقُلْتُ : وَمَنْ هُوَ ؟! .

فَقَالَ : إِنَّهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .

فَقُلْتُ : الصَّادِقُ الْأَمِينُ[4] ؟ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : نَعَمْ ... إِنَّهُ هُوَ ...

فَقُلْتُ : فَهَلْ لَكَ أَنْ تَصْحَبَنِي إِلَيْهِ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ ... وَمَضَيْنَا إِلَىٰ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَلَمَّا رَآنِي قَالَ : (أَجِبْ يَا عُثْمَانُ دَاعِيَ اللَّهِ ...

فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً ، وَ إِلَىٰ خَلْقِ اللَّهِ عَامَّةً ...) .

قَالَ عُثْمَانُ : فَوَاللَّهِ مَا إِنْ مَلَأْتُ عَيْنَيَّ مِنْهُ ، وَسَمِعْتُ مَقَالَتَهُ ؛ حَتَّىٰ اسْتَرَحْتُ لَهُ ، وَصَدَّقْتُ رِسَالَتَهُ ...

---

(١) حازم : حكيم قاطع في الرأي صائب.
(٢) صُم : لا تسمع من يدعوها.
(٣) الْمُرْتَقَب : المنتظر.
(٤) الصادق الأمين : لقب شُهر به محمد ﷺ قبل أن يبعث.

ثُمَّ شَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ... وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

* * *

لَمْ يُؤْمِنْ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ بَنِي « هَاشِمٍ » حَتَّىٰ ذَلِكَ الْيَوْمِ ...

غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ يُنَاصِبُهُ[١] الْعَدَاءَ غَيْرُ عَمِّهِ « أَبِي لَهَبٍ »[٢].

فَقَدْ كَانَ هُوَ وَزَوْجُهُ « أُمُّ جَمِيلٍ » مِنْ أَشَدِّ قُرَيْشٍ قَسْوَةً عَلَيْهِ ، وَأَعْنَفِهِمْ إِيذَاءً لَهُ ، وَتَنْكِيلًا[٣] بِهِ ... فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَفِي امْرَأَتِهِ :

﴿ تَبَّتْ[٤] يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ[٥] ﴾[٦].

فَازْدَادَ أَبُو لَهَبٍ ضَغِينَةً[٧] عَلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَاشْتَدَّ حِقْدُهُ وَحِقْدُ زَوْجَتِهِ أُمِّ جَمِيلٍ عَلَيْهِ ؛ وَعَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ مَعَهُ ، فَأَمَرَا ابْنَهُمَا « عُتْبَةَ » بِأَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَتَهُ رُقَيَّةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَطَلَّقَهَا نِكَايَةً[٨] بِأَبِيهَا .

* * *

مَا كَادَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَسْمَعُ بِخَبَرِ طَلَاقِ رُقَيَّةَ حَتَّىٰ اسْتَطَارَ[٩] فَرَحًا ... وَبَادَرَ فَخَطَبَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ فَزَوَّجَهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مِنْهُ .

وَزَفَّتْهَا[١٠] أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ...

---

(١) يناصبه الْعَدَاء : يعلن الْعدواة ضده .
(٢) أبو لهب : هو عبد الْعزىٰ بن عبد المطلب مات عَلَىٰ الْكفر بعد غزوة بَدْر .
(٣) تنكيلًا به : يجعله عظة لغيره .
(٤) تَبَّتْ : هلكت وخسرت .
(٥) مَسَد : الْقوي من الحبال .
(٦) سورة المسد .
(٧) الضَّغينة : الحقد والحسد وإضمار الْكراهية في الصدور .
(٨) نكاية : إغاظةً له وقهرًا .
(٩) استطار فرحًا : كاد يطير من شدَّة الْفرح .
(١٠) زفَّتْهَا : قدمتها إلىٰ زوجها .

وَقَدْ كَانَ عُثْمَانُ مِنْ أَبْهَىٰ قُرَيْشٍ طَلْعَةً(١)، وَكَانَتْ هِيَ تُضَاهِيهِ قَسَامَةً(٢) وَصَبَاحَةً، فَكَانَ يُقَالُ لَهَا حِينَ زُفَّتْ إِلَيْهِ:

أَحْسَنُ زَوْجَيْنِ رَآهُمَا إِنْسَانْ
رُقَيَّةٌ، وَزَوْجُهَا عُثْمَانْ

* * *

لَمْ يَسْلَمْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ - عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ سَابِقِ فَضْلِهِ، وَسَابِغِ(٣) مَعْرُوفِهِ - مِنْ أَذَىٰ قَوْمِهِ حِينَ أَسْلَمَ.

فَلَقَدْ عَزَّ عَلَىٰ عَمِّهِ «الْحَكَمِ» أَنْ يَصْبَأَ(٤) فَتَىٰ بَنِي «عَبْدِ شَمْسٍ» عَنْ دِينِ قُرَيْشٍ ... وَكَبُرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ ...

فَتَصَدَّىٰ(٥) لَهُ هُوَ وَأَتْبَاعُهُ أَعْنَفَ التَّصَدِّي وَأَقْسَاهُ ...

وَأَخَذَهُ، وَشَدَّ عَلَيْهِ الْوِثَاقَ(٦) وَقَالَ:

أَوَ تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ، وَتَدْخُلُ فِي دِينٍ مُحْدَثٍ(٧)؟!.

وَاللَّهِ لَا أَدَعُكَ حَتَّىٰ تَنْبِذَ(٨) مَا أَنْتَ عَلَيْهِ ...

فَقَالَ عُثْمَانُ: وَاللَّهِ لَا أَدَعُ دِينِي أَبَدًا، وَلَا أُفَارِقُ نَبِيِّي مَا امْتَدَّتْ بِيَ الْحَيَاةُ ...

فَمَا زَالَ عَمُّهُ «الْحَكَمُ» يُنَكِّلُ بِهِ ...

وَمَا زَالَ هُوَ يَشْتَدُّ صَلَابَةً فِي دِينِهِ، وَاسْتِمْسَاكًا بِعَقِيدَتِهِ حَتَّىٰ يَئِسَ عَمُّهُ مِنْهُ، وَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ، وَكَفَّ عَنْهُ.

---

(١) الطَّلْعَة: ملامح الْوجه.
(٢) تضاهيه قَسَامَةً: تشبهه في حُسن تقاسيم الْوجه وملامحه.
(٣) السَّابِغ: الْكثير.
(٤) يَصْبَأُ: يترك دينه إلىٰ دين آخر.
(٥) تَصَدَّىٰ له: توجه له لمقاومته.
(٦) الْوثاق: الْقيد والحبل.
(٧) دِين مُحْدَث: دين جديد حديث.
(٨) تَنْبِذ: تترك.

لَكِنَّ قُرَيْشًا ظَلَّتْ تُضْمِرُ لَهُ الْعَدَاوَةَ ، وَتُلْحِقُ بِهِ الْأَذَىٰ ؛ حَتَّىٰ حَمَلَتْهُ[١] عَلَىٰ الْفِرَارِ بِدِينِهِ ، وَمُفَارَقَةِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَكَانَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ هِجْرَةً إِلَىٰ « الْحَبَشَةِ » هُوَ وَزَوْجُهُ رُقَيَّةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا ... وَلَمَّا أَزِفَ[٢] رَحِيلُهُمَا وَدَّعَهُمَا الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ يَقُولُ :

(صَحِبَ اللَّهُ عُثْمَانَ وَزَوْجَهُ رُقَيَّةَ ...

صَحِبَ اللَّهُ عُثْمَانَ وَزَوْجَهُ رُقَيَّةَ ...

إِنَّ عُثْمَانَ لَأَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ بِأَهْلِهِ بَعْدَ نَبِيِّ اللَّهِ لُوطٍ) .

* * *

لَمْ يُطِلْ عُثْمَانُ وَزَوْجُهُ الْمُكْثَ[٣] فِي « الْحَبَشَةِ » كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُمَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، فَقَدِ اشْتَدَّ بِهِ وَبِرُقَيَّةَ الشَّوْقُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَالْحَنِينُ إِلَىٰ مَكَّةَ ...

فَعَادَا إِلَيْهَا ، وَلَبِثَا[٤] فِيهَا إِلَىٰ أَنْ أَذِنَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ ، فَانْطَلَقَا مَعَ الْمُهَاجِرِينَ .

* * *

شَهِدَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ مَعَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَشَاهِدَهُ[٥] كُلَّهَا ، وَحَضَرَ مَعَهُ غَزَوَاتِهِ جَمِيعَهَا ...

وَلَمْ يُحْرَمْ مِنْ غَزْوَةٍ غَيْرِ غَزْوَةِ « بَدْرٍ » ...

فَقَدْ شُغِلَ عَنْهَا بِتَمْرِيضِ[٦] زَوْجَتِهِ رُقَيَّةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا .

(١) حَمَلته عَلَىٰ الفرار : دفعته علىٰ الهروب .
(٢) أزِف : حان .
(٣) المُكْث : البقاء .
(٤) لَبِثا : استقرا .
(٥) مشاهده : غزواته وحروبه .
(٦) تمريض زوجته : رعايتها أثناء المرض .

وَلَمَّا عَادَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مِنْ « بَدْرٍ » ؛ وَجَدَ رُقَيَّةَ قَدْ لَحِقَتْ بِجِوَارِ رَبِّهَا فَحَزِنَ عَلَيْهَا أَشَدَّ الْحُزْنِ ...

وَوَاسَىٰ[1] عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ عَلَىٰ مُصَابِهِ بِهَا أَكْرَمَ الْمُوَاسَاةِ ؛ فَعَدَّهُ مِنْ أَهْلِ « بَدْرٍ » ...

وَأَسْهَمَ[2] لَهُ فِي غَنِيمَتِهَا ، وَزَوَّجَهُ مِنِ ابْنَتِهِ الثَّانِيَةِ أُمِّ كُلْثُومٍ ...

فَدَعَاهُ النَّاسُ « ذَا النُّورَيْنِ » .

وَكَانَ زَوَاجُهُ الثَّانِي مِنِ ابْنَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، مَنْقَبَةً[3] لَمْ يَظْفَرْ بِهَا زَوْجٌ سِوَاهُ .

ذَلِكَ أَنَّ تَارِيخَ النُّبُوَّاتِ لَمْ يَعْرِفْ أَحَدًا أَصْهَرَ[4] إِلَىٰ نَبِيٍّ مَرَّتَيْنِ سِوَىٰ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ إِسْلَامُ عُثْمَانَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ ... وَأَجْزَلِ[5] الْخَيْرِ الَّذِي أَمَدَّ بِهِ الْإِسْلَامَ .

فَمَا مَسَّ الْمُسْلِمِينَ ضُرٌّ إِلَّا كَانَ عُثْمَانُ أَوَّلَ مَنْ وَاسَاهُمْ[6] فِيهِ ...

وَلَا نَزَلَ بِالْإِسْلَامِ خَطْبٌ[7] إِلَّا كَانَ ابْنُ عَفَّانَ طَلِيعَةَ كَاشِفِيهِ[8]...

* * *

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا عَزَمَ عَلَىٰ غَزْوَةِ « تَبُوكَ »[9] كَانَتْ حَاجَتُهُ إِلَىٰ الْمَالِ ، لَا تَقِلُّ عَنْ حَاجَتِهِ إِلَىٰ الرِّجَالِ .

---

(١) واسَىٰ : عزّاه .
(٢) وأسْهم له : جعل له نصيبًا من غنائم بدر .
(٣) مَنْقَبَة : فضيلة .
(٤) أَصْهَر إليه : تزوج ابنته .
(٥) أجْزل : أكثر .
(٦) واساهم : أعانهم وساعدهم .
(٧) الْخَطْب : المصيبة .
(٨) طَلِيعَة كَاشِفيه : في أول من يكشف هذه المصيبة .
(٩) غَزْوَة تَبُوك : غزوة النبي ضد الروم ، وكانت تسمىٰ « غزوة العسرة » .

فَجَيْشُ الرُّومِ كَثِيرُ الْعَدَدِ ، وَافِرُ الْعُدَدِ وَهُوَ يُقَاتِلُ عَلَىٰ أَرْضِهِ .

أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَكَانَتْ رِحْلَتُهُمْ طَوِيلَةً ...

وَمَئُونَتُهُمْ قَلِيلَةً ...

وَرَوَاحِلُهُمْ[١] أَقَلَّ ...

وَكَانُوا يُعَانُونَ مِنْ جَدْبٍ[٢] قَلَّمَا أُصِيبَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ بِمِثْلِهِ .

فَاضْطُرَّ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ رَدِّ نَفَرٍ كَبِيرٍ مِنْهُمْ عَنِ الْجِهَادِ ... وَحِرْمَانِهِمْ مِنَ الِاسْتِشْهَادِ ...

لِأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ رَاحِلَةً تَحْمِلُهُمْ .

فَتَوَلَّوْا[٣]، وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ...

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ صَعِدَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْمِنْبَرَ ، وَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَىٰ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ... ثُمَّ طَفِقَ يَحُضُّ[٤] الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الْبَذْلِ ... وَيُمَنِّيهِمْ[٥] بِعَظِيمِ الْأَجْرِ .

فَوَقَفَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَقَالَ :

عَلَيَّ مِائَةُ بَعِيرٍ بِأَحْلَاسِهَا[٦] وَأَقْتَابِهَا[٧] يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

فَنَزَلَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ عَنِ الْمِنْبَرِ دَرَجَةً ؛ غَيْرَ أَنَّهُ وَقَفَ يَحُضُّ النَّاسَ عَلَىٰ الْبَذْلِ مِنْ جَدِيدٍ ؛ فَنَهَضَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ثَانِيَةً وَقَالَ :

(١) الرَّواحل: الرَّكائب الَّتي يحتاج إليها المسافرون والرَّاحلة واحدة الرَّواحل.
(٢) جَدْب : قلة الزَّرع ، وعدم المطر .
(٣) تَوَلَّوا : عادوا من حيث جاءوا .
(٤) طَفِقَ يحضّ : أخذ يحث .
(٥) يُمَنِّيهِمْ : يجعلهم يؤملون ويتمنون الْأجر الْعظيم .
(٦) الْأَحلاس : كُلُّ مَا يوضَعُ عَلَىٰ ظهر الدَّابَّة تحت الرِّحال والسُّروج .
(٧) الأقتاب : هي الرَّحل الَّذي يوضع علىٰ الدَّابة .

عَلَيَّ مِائَةُ بَعِيرٍ أُخْرَىٰ بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

فَتَهَلَّلَ[1] وَجْهُ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ سُرُورًا وَنَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ دَرَجَةً .

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ وَقَفَ وَجَعَلَ يَحُضُّ النَّاسَ عَلَىٰ الْبَذْلِ كَرَّةً[2] أُخْرَىٰ ، فَنَهَضَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ثَالِثَةً وَقَالَ :

عَلَيَّ مِائَةُ بَعِيرٍ أُخْرَىٰ بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

عِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُشِيرُ بِيَدِهِ الْكَرِيمَةِ رِضًا عَمَّا صَنَعَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، وَيَقُولُ :

(مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ الْيَوْمِ ...

مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ الْيَوْمِ ...) .

* * *

ثُمَّ إِنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَا كَادَ يَنْزِلُ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّىٰ انْطَلَقَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِلَىٰ بَيْتِهِ .

وَبَعَثَ إِلَيْهِ مَعَ النُّوقِ أَلْفَ دِينَارٍ ذَهَبًا ...

فَلَمَّا صُبَّتِ الدَّنَانِيرُ فِي حِجْرِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيمِ ... جَعَلَ يُقَلِّبُهَا بِيَدَيْهِ الطَّاهِرَتَيْنِ ظَهْرًا لِبَطْنٍ ، وَبَطْنًا لِظَهْرٍ[3] ، وَهُوَ يَقُولُ :

(غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا عُثْمَانُ مَا أَسْرَرْتَ ، وَمَا أَعْلَنْتَ ...

وَمَا كَانَ مِنْكَ ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ ...

---

(١) تَهَلَّلَ : استبشر فرحًا .

(٢) كرّة أخرىٰ : مرة أخرىٰ .

(٣) ظَهْرًا لبطن ، وبطنًا لظهر : يعني علىٰ كل الوجوه .

إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ) .

* * *

وَفِي خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ مُجْدِبَةٌ أَهْلَكَتِ الزَّرْعَ وَالضَّرْعَ[1] حَتَّىٰ دُعِيَ عَامُهَا لِشِدَّةِ قَحْطِهِ بِعَامِ الرَّمَادَةِ[2] .

ثُمَّ إِنَّ الْكَرْبَ مَا فَتِئَ يَشْتَدُّ عَلَىٰ النَّاسِ حَتَّىٰ بَلَغَتِ الْأَرْوَاحُ الْحَنَاجِرَ[3]... فَأَقْبَلُوا ذَاتَ صَبَاحٍ عَلَىٰ عُمَرَ وَقَالُوا :

يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ، إِنَّ السَّمَاءَ لَمْ تُمْطِرْ ، وَإِنَّ الْأَرْضَ لَمْ تُنْبِتْ ...

وَقَدْ أَشْفَىٰ[4] النَّاسُ عَلَىٰ الْهَلَاكِ ...

فَمَا نَصْنَعُ ؟! .

فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ عُمَرُ بِوَجْهٍ عَصَرَهُ الْهَمُّ عَصْرًا وَقَالَ :

اصْبِرُوا ، وَاحْتَسِبُوا[5]...

فَإِنِّي أَرْجُو أَلَّا تُمْسُوا حَتَّىٰ يُفَرِّجَ اللَّهُ عَنْكُمْ .

فَلَمَّا كَانَ آخِرُ النَّهَارِ ؛ وَرَدَتِ الْأَخْبَارُ بِأَنَّ عِيرًا[6] لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ جَاءَتْ مِنَ الشَّامِ ، وَأَنَّهَا سَتَصِلُ الْمَدِينَةَ عِنْدَ الصَّبَاحِ .

فَمَا إِنْ قُضِيَتْ صَلَاةُ الْفَجْرِ حَتَّىٰ هَبَّ[7] النَّاسُ يَسْتَقْبِلُونَ الْعِيرَ جَمَاعَةً إِثْرَ جَمَاعَةٍ ...

(١) الضَّرع : كناية عن الماشية .
(٢) عام الرَّمادة : عام أجدبت فيه الأرض حتىٰ صار لونها كالرَّماد ، وجاع النَّاس ، فسمي عام الرمادة .
(٣) بلغت الأرواح الحناجر : كناية عن شدة الضِّيق .
(٤) أشفىٰ النَّاس علىٰ الهلاك : قاربوا علىٰ الهلاك .
(٥) احتسب الشيء : نوىٰ به وجه الله .
(٦) العير : القافلة .
(٧) هبَّ النَّاس : نهضوا وبادروا .

وَانْطَلَقَ التُّجَّارُ يَتَلَقَّوْنَهَا ؛ فَإِذَا هِيَ أَلْفُ بَعِيرٍ قَدْ وُسِقَتْ[١] بُرًّا ... وَزَيْتًا ... وَزَبِيبًا ...

* * *

أَنَاخَتِ الْعِيرُ[٢] بِبَابِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَطَفِقَ الْغِلْمَانُ يُنْزِلُونَ عَنْهَا أَحْمَالَهَا ...

فَدَخَلَ التُّجَّارُ عَلَىٰ عُثْمَانَ وَقَالُوا :

بِعْنَا مَا وَصَلَ إِلَيْكَ يَا أَبَا عَمْرٍو .

فَقَالَ : حُبًّا وَكَرَامَةً[٣] وَلَكِنْ كَمْ تُرْبِحُونَنِي عَلَىٰ شِرَائِي ؟ .

فَقَالُوا : نُعْطِيكَ بِالدِّرْهَمِ دِرْهَمَيْنِ .

فَقَالَ : أُعْطِيتُ أَكْثَرَ مِنْ هَٰذَا ... فَزَادُوا لَهُ ...

فَقَالَ : أُعْطِيتُ أَكْثَرَ مِمَّا زِدْتُمُوهُ ... فَزَادُوا لَهُ ...

فَقَالَ : أُعْطِيتُ أَكْثَرَ مِنْ هَٰذَا ...

فَقَالُوا : يَا أَبَا عَمْرٍو ، لَيْسَ فِي الْمَدِينَةِ تُجَّارٌ غَيْرُنَا ...

وَمَا سَبَقَنَا إِلَيْكَ أَحَدٌ ... فَمَنِ الَّذِي أَعْطَاكَ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَيْنَا ؟! .

فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي بِكُلِّ دِرْهَمٍ عَشَرَةً[٤] ...

فَهَلْ عِنْدَكُمْ زِيَادَةٌ ؟ .

قَالُوا : لَا يَا أَبَا عَمْرٍو ...

---

(١) وُسِقَت : حُمِّلت .
(٢) أناخَتْ العِير : بركت الجمال .
(٣) حُبًّا وكرامة : قبلت قولكم بكل الحب والتكريم .
(٤) أعطاني بكل درهم عشرة : أي ضاعف الله ربحي عشر مرات .

فَقَالَ : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَنِّي جَعَلْتُ مَا حَمَلَتْ هَٰذِهِ الْعِيرُ صَدَقَةً عَلَىٰ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ... لَا أَبْتَغِي مِنْ أَحَدٍ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا ...

وَ إِنَّمَا أَبْتَغِي ثَوَابَ اللَّهِ وَرِضَاهُ .

* * *

وَلَمَّا آلَتِ[1] الْخِلَافَةُ إِلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَتَحَ اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ « أَرْمِينِيَّةَ » وَ« الْقُوقَازَ » ...

وَنَصَرَ الْمُسْلِمِينَ وَسَوَّدَهُمْ عَلَىٰ « خُرَاسَانَ » ، وَ« كَرْمَانَ » ، وَ« سِجِسْتَانَ » ، وَ« قُبْرُسَ »[2] وَطَرَفٍ غَيْرِ قَلِيلٍ مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ .

وَلَقِيَ النَّاسُ فِي عَهْدِهِ مِنَ الثَّرَاءِ[3] مَا لَمْ يَحْظَ[4] بِهِ شَعْبٌ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ .

* * *

حَدَّثَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ[5] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَمَّا نَعِمَ بِهِ النَّاسُ فِي عَهْدِ ذِي النُّورَيْنِ مِنَ الرَّخَاءِ وَبُلَهْنِيَةِ[6] الْعَيْشِ ...

وَمَا غُمِرُوا[7] بِهِ مِنَ الْهَنَاءَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَقَالَ :

رَأَيْتُ مُنَادِيَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُنَادِي قَائِلًا :

أَيُّهَا النَّاسُ اغْدُوا عَلَىٰ أُعْطِيَاتِكُمْ[8].

فَكَانَ النَّاسُ يَغْدُونَ عَلَيْهَا ، وَيَأْخُذُونَهَا وَافِيَةً ...

---

(١) آلت الخلافة إِلَىٰ فلان : صارت إليه وتولاها .
(٢) قُبرس : جزيرة في البحر المتوسط .
(٣) الثَّراء : الغنىٰ .
(٤) يحظ به : يفز به .
(٥) الحسن البصري : انظره في كتاب « صور من حياة التابعين » للمؤلف .
(٦) بُلَهْنِيَة العَيْش : الرفاهية والرخاء .
(٧) غُمِروا : فازوا به .
(٨) اغدوا عَلَىٰ أعطياتكم : هلموا إِلىٰ العطايا الّتي تستحقونها .

أَيُّهَا النَّاسُ أَقْبِلُوا عَلَىٰ أَرْزَاقِكُمْ(١).

فَكَانُوا يُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، فَيُعْطَوْنَهَا غَزِيرَةً وَفِيرَةً(٢).

وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ ـ وَاللَّهِ ـ أُذُنَايَ وَهُوَ يَقُولُ:

اغْدُوا عَلَىٰ كِسْوَتِكُمْ.

فَكَانُوا يَأْخُذُونَ الْحُلَلَ السَّابِغَةَ(٣)، وَكَانَ يَقُولُ:

هَلُمُّوا عَلَىٰ السَّمْنِ وَالْعَسَلِ أَيْضًا.

وَلَا غَرْوَ فَلَقَدْ كَانَتِ الْأَرْزَاقُ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ دَارَّةً(٤)...

وَكَانَ الْخَيْرُ كَثِيرًا...

وَذَاتُ الْبَيْنِ(٥) سَعِيدَةً، وَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ يَخَافُ مُؤْمِنًا، وَإِنَّمَا كَانَ الْمُسْلِمُ يَأْلَفُ الْمُسْلِمَ، وَيَوَادُّهُ، وَيَنْصُرُهُ.

* * *

لَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا شَبِعُوا بَطِرُوا(٦)...

وَإِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كَفَرُوا...

فَعَتَبَ هَؤُلَاءِ عَلَىٰ عُثْمَانَ أُمُورًا؛ لَوْ فَعَلَهَا غَيْرُهُ مَا عَتَبُوهَا عَلَيْهِ...

ولَمْ يَكْتَفِ هَؤُلَاءِ بِالْعَتْبِ، وَلَوْ أَنَّهُمُ اكْتَفَوْا بِهِ لَهَانَ الْأَمْرُ.

فَلَقَدْ ظَلَّ الشَّيْطَانُ يَنْفُخُ فِي أَرْوَاحِهِمْ مِنْ رُوحِهِ، وَيَبُثُّ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ شَرِّهِ.

---

(١) أرزاقكم: رواتبكم.
(٢) غزيرة وفيرة: كثيرة.
(٣) الْحُلَل السَّابِغَة: الحلل الطويلة الواسعة.
(٤) دارَّة: أي مستمرة.
(٥) ذات الْبَيْن: المراد الأحوال بين النَّاس.
(٦) الْبطر: سوء التَّصرف بالنعمة.

حَتَّىٰ تَأَلَّبَتْ[1] عَلَيْهِ طَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ أَوْبَاشِ[2] الْأَمْصَارِ ؛ فَحَصَرُوهُ فِي دَارِهِ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَمَنَعُوا عَنْهُ الْمَاءَ الْعَذْبَ .

وَقَدْ تَنَاسَىٰ هَؤُلَاءِ الظَّلَمَةُ الطَّغَمَةُ[3] أَنَّهُ هُوَ الَّذِي اشْتَرَىٰ « بِئْرَ رُومَةَ »[4] مِنْ مَالِهِ الْخَاصِّ ؛ لِيَرْتَوِيَ مِنْهُ سُكَّانُ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، وَرُوَّادُهَا[5] ...

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ مَاءٌ عَذْبٌ يَرْتَوُونَ مِنْهُ .

ثُمَّ إِنَّهُمْ حَالُوا دُونَهُ وَدُونَ الصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَقَدْ تَعَامَىٰ هَؤُلَاءِ عَنْ أَنَّ ذَا النُّورَيْنِ هُوَ الَّذِي وَسَّعَ ثَانِيَ الْحَرَمَيْنِ مِنْ خَالِصِ مَالِهِ ؛ لِيَتَّسِعَ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَنْ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا[6] ...

وَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَىٰ عُثْمَانَ الْكَرْبُ ، وَتَفَاقَمَ[7] عَلَيْهِ الشَّرُّ نَفَرَ[8] إِلَىٰ حِمَايَتِهِ نَحْوٌ مِنْ سَبْعِمِائَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَبْنَائِهِمْ .

فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ ، وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ابْنَا عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ ، وَغَيْرُهُمْ ... وَغَيْرُهُمْ ...

* * *

لَكِنَّ عُثْمَانَ ذَا النُّورَيْنِ ، وَصَاحِبَ الْهِجْرَتَيْنِ ، وَبَاذِلَ الْمَعْرُوفِ ؛ آثَرَ[9] أَنْ يُرَاقَ دَمُهُ عَلَىٰ أَنْ تُرَاقَ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ دِفَاعًا عَنْهُ ...

---

(١) تألبت عليه : اجتمعوا على عداوته .
(٢) الأوباش : جموع من قبائل شتى .
(٣) الطغمة : الفئة القليلة .
(٤) بئر رومة : بئر في المدينة اشتراها عثمان من أحد اليهود .
(٥) رُوادها : زائروها .
(٦) ضاق ذرعًا : أي أصابه الضيق .
(٧) تفاقم : اشتد وانتشر .
(٨) نفر : بادر بسرعة .
(٩) آثر : فضّل .

وَفَضَّلَ أَنْ تُزْهَقَ رُوحُهُ[1] عَلَىٰ أَنْ يَقْتَتِلَ الْمُسْلِمُونَ دُونَهُ .

فَعَزَمَ[2] عَلَىٰ الَّذِينَ نَفَرُوا إِلَىٰ حِمَايَتِهِ أَنْ يَتْرُكُوهُ لِقَضَاءِ اللَّهِ ...

وَقَالَ لَهُمْ : أُقْسِمُ عَلَىٰ مَنْ لِي عَلَيْهِ حَقٌّ أَنْ يَكُفَّ يَدَهُ .

وَقَالَ لِأَرِقَّائِهِ[3]: مَنْ أَغْمَدَ مِنْكُمْ سَيْفَهُ[4]؛ فَهُوَ حُرٌّ ...

* * *

وَلَقَدْ غَفَتْ عَيْنُ[5] خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَحَظَاتٍ قُبَيْلَ مَصْرَعِهِ فَرَأَىٰ النَّبِيَّ الْكَرِيمَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيمِ ...

وَمَعَهُ صَاحِبَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ .

وَسَمِعَ الرَّسُولَ ﷺ يَقُولُ لَهُ : (أَفْطِرْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ يَا عُثْمَانُ) ؛ فَأَيْقَنَ[6] عُثْمَانُ أَنَّهُ لَاحِقٌ بِرَبِّهِ ... مُقْبِلٌ عَلَىٰ لِقَاءِ نَبِيِّهِ ...

* * *

أَصْبَحَ عُثْمَانُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ صَائِمًا ...

وَدَعَا بِسَرَاوِيلَ طَوِيلَةٍ فَلَبِسَهَا خَشْيَةَ أَنْ تُكْشَفَ عَوْرَتُهُ ؛ إِذَا قَتَلَهُ الْأَثَمَةُ[7] السَّفَّاحُونَ .

وَفِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ لِثَمَانِي عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ؛ قُتِلَ الْعَبَّادُ الزَّهَّادُ ...

الصَّوَّامُ الْقَوَّامُ ...

---

(١) تزهق روحه : يموت .
(٢) عزم عليهم : أقسم عليهم .
(٣) أرقائه : عبيده .
(٤) أغمد سيفه : وضع سيفه في غمده وترك القتال .
(٥) غفت عينه : نام نومًا خفيفًا .
(٦) أيقن : تأكد .
(٧) الأثمة : الآثمون .

جَمَّاعُ[1] الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ...

صِهْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

فَلَحِقَ بِجِوَارِ رَبِّهِ وَهُوَ ظَمْآنُ صَائِمٌ ، وَكِتَابُ اللَّهِ مَنْشُورٌ[2] بَيْنَ يَدَيْهِ .

* * *

وَحَسْبُ الْمُسْلِمِينَ عَزَاءً أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي قَتَلَةِ عُثْمَانَ رِضْوَانُ اللَّهِ وَرَحَمَاتُهُ عَلَيْهِ صَحَابِيٌّ ...

وَلَا وَلَدُ صَحَابِيٍّ ...

إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا شَارَكَ الْبُغَاةَ الطُّغَاةَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ثُمَّ اسْتَحْيَا ، وَارْتَدَعَ (*) ...

---

(١) جَمَّاع القرآن : جامع القرآن ... كتب في عهده المصحف الأول طبقًا للنسخة المحفوظة لدى حفصة بنت عمر ابن الخطاب - والذي كان قد جمعه زيد بن ثابت بتكليف من أبي بكر الصّديق - وقد راعى في كتابته اختلاف القراءات حسمًا للخلاف ، وكلف بذلك : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزّبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام .

(٢) مَنْشور : مفتوح .

(*) للاستزادة من أخبار عُثمانَ بْنِ عَفَّانَ انظر :

١ - الإصابة : ٢/٤٦٢ أو « الترجمة » ٥٤٤٨.

٢ - أسْدُ الغابة : ٣/ ٣٧٦.

٣ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٣/ ٦٩.

٤ - تهذيب التهذيب : ٧/ ١٣٩.

٥ - حلية الأولياء : ١/ ٥٥.

٦ - الطّبقات الكبرىٰ : ٣/٥٣ - ٨٤.

٧ - المعارف : ٨٢.

٨ العبر : ١٤.

٩ - صفة الصّفوة : ١/ ١١٢.

١٠- ابن كثير : ٧/ ١٤٤.

عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ

« أَسْلَمَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بَعْدَ تَفْكِيرٍ طَوِيلٍ وَتَدَبُّرٍ كَبِيرٍ ،
وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ عَنْهُ : أَسْلَمَ النَّاسُ ، وَآمَنَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ » (☆)

« اللَّهُمَّ أَمَرْتَنَا فَعَصَيْنَا ...

وَنَهَيْتَنَا فَمَا انْتَهَيْنَا ...

وَلَا يَسَعُنَا إِلَّا عَفْوُكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ » .

بِهَذَا الدُّعَاءِ الضَّارِعِ الرَّاجِي وَدَّعَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ الْحَيَاةَ ، وَاسْتَقْبَلَ الْمَوْتَ .

* * *

وَقِصَّةُ حَيَاةِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ غَنِيَّةٌ حَافِلَةٌ ...

كَسَبَ خِلَالَهَا لِلْإِسْلَامِ قُطْرَيْنِ كَبِيرَيْنِ مِنْ أَقْطَارِ الْمَعْمُورَةِ هُمَا :

« فِلَسْطِينُ » وَ« مِصْرُ » ...

وَتَرَكَ لِلْمُسْلِمِينَ سِيرَةً ضَخْمَةً مَلَأَتِ الدُّنْيَا ، وَشَغَلَتِ النَّاسَ دَهْرًا طَوِيلًا .

* * *

تَبْدَأُ هَذِهِ الْقِصَّةُ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِنَحْوِ نِصْفِ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ ، حَيْثُ وُلِدَ عَمْرٌو ... وَتَنْتَهِي فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ حَيْثُ وَافَاهُ الْيَقِينُ[1] .

أَمَّا أَبُوهُ فَهُوَ « الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ » أَحَدُ حُكَّامِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَسَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِهِمُ الْمَرْمُوقِينَ ...

(☆) رواه الإمام أحمد والترمذي ، ولعل المقصود بالناس : المتأخرون في إسلامهم من الناس .

(١) وافاه اليقين : جاءه الموت .

وَوَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ يَرْتَفِعُ نَسَبُهُمْ إِلَىٰ الذُّؤَابَةِ[1] مِنْ قُرَيْشٍ ...

وَأَمَّا أُمُّهُ فَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ أَمَةً سَبِيَّةً .

لِذَا كَانَ حُسَّادُهُ يُلَاحِقُونَهُ بِذِكْرِهَا وَهُوَ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيِّ الْإِمَارَةِ ، أَوْ مُرْتَقٍ فَوْقَ مَنَابِرِ الْخَطَابَةِ .

حَتَّىٰ أَنَّ أَحَدَهُمْ قَدْ أَغْرَىٰ رَجُلًا عَلَىٰ أَنْ يَقُومَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُرْتَقٍ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ ، وَأَنْ يَسْأَلَهُ عَنْ أُمِّهِ ، وَذَلِكَ لِقَاءَ مَبْلَغٍ جَزْلٍ[2] مِنَ الْمَالِ أَغْدَقَهُ عَلَيْهِ .

فَقَامَ الرَّجُلُ وَقَالَ : مَنْ أُمُّ الْأَمِيرِ ؟ .

فَضَغَطَ عَمْرٌو عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَتَذَرَّعَ بِحِلْمِهِ[3]، ثُمَّ قَالَ :

هِيَ النَّابِغَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ ...

أَصَابَتْهَا رِمَاحُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَبِيعَتْ بِسُوقِ « عُكَاظَ » ...

فَاشْتَرَاهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُدْعَانَ ...

ثُمَّ وَهَبَهَا لِلْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ [يَعْنِي أَبَاهُ] .

فَوَلَدَتْ لَهُ فَأَنْجَبَتْ ...

فَإِنْ كَانَ بَعْضُ مَنْ مَزَّقَ الْحَسَدُ قَلْبَهُ قَدْ جَعَلَ لَكَ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ فَخُذْهُ .

* * *

وَحِينَ أَخَذَ الْمُعَذَّبُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُهَاجِرُونَ إِلَىٰ « الْحَبَشَةِ » لِلتَّخَلُّصِ مِنْ بَطْشِ قُرَيْشٍ وَنَكَالِهَا[4]، وَيَسْتَقِرُّونَ فِي رِحَابِهَا فِرَارًا مِنْ بَنِي قَوْمِهِمْ عَزَمَتْ

(١) الذُّؤَابَةِ من قُرَيْش : في المرتبة العليا من قريش .
(٢) مبلغ جَزْل : مبلغ كبير .
(٣) تَذَرَّع بِحِلْمِه : احتمى بعقله وحكمته .
(٤) النَّكَال : الانتقام الشّديد الّذي يكون عبرة للآخرين .

قُرَيْشٌ عَلَىٰ اسْتِعَادَتِهِمْ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَإِذَاقَتِهِمْ أَلْوَانًا مِنَ الْعَذَابِ.

وَقَدِ اخْتَارَتْ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ لِلْقِيَامِ بِهَٰذِهِ الْمُهِمَّةِ؛ لِمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ «النَّجَاشِيِّ»(١) مِنْ أَوَاصِرِ وُدٍّ قَدِيمٍ.

وَزَوَّدَتْهُ بِمَا كَانَ يُؤْثِرُهُ «النَّجَاشِيُّ» وَبَطَارِقَتُهُ مِنَ الْهَدَايَا.

فَلَمَّا وَفَدَ عَلَىٰ «النَّجَاشِيِّ» حَيَّاهُ وَبَيَّاهُ(٢) وَقَالَ لَهُ:

إِنَّ نَفَرًا مِنْ قَوْمِنَا قَدْ كَفَرُوا بِدِينِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ، وَاسْتَحْدَثُوا لِأَنْفُسِهِمْ دِينًا جَدِيدًا... وَقَدْ أَرْسَلَتْنِي قُرَيْشٌ لِاسْتِئْذَانِكَ بِاسْتِعَادَتِهِمْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ؛ لِيَرُدُّوهُمْ إِلَىٰ دِينِهِمْ، وَيُعِيدُوهُمْ إِلَىٰ مِلَّتِهِمْ.

فَاسْتَدْعَىٰ «النَّجَاشِيُّ» نَفَرًا مِنَ الصَّحَابَةِ، سَأَلَهُمْ عَنْ دِينِهِمُ الَّذِي يَدِينُونَ، وَإِلَٰهِهِمُ الَّذِي بِهِ يُؤْمِنُونَ، وَنَبِيِّهِمُ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهَٰذَا الدِّينِ.

فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِمْ مَا مَلَأَ قَلْبَهُ يَقِينًا وَاطْمِئْنَانًا، وَوَعَىٰ مِنْ عَقِيدَتِهِمْ مَا أَفْعَمَ فُؤَادَهُ تَعَلُّقًا بِهِمْ وَإِيمَانًا بِدِينِهِمْ.

فَأَبَىٰ أَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَىٰ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَشَدَّ الْإِبَاءِ، وَأَعَادَ لَهُ مَا أَتْحَفَهُ بِهِ مِنَ الْهَدَايَا.

* * *

وَلَمَّا عَزَمَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى الرَّحِيلِ إِلَىٰ مَكَّةَ قَالَ لَهُ «النَّجَاشِيُّ»:

كَيْفَ يَعْزُبُ(٣) عَنْكَ أَمْرُ «مُحَمَّدٍ» يَا عَمْرُو عَلَىٰ مَا أَعْرِفُهُ مِنْ رَجَاحَةِ عَقْلِكَ وَبُعْدِ نَظَرِكَ؟!...

(١) النَّجَاشِيّ: انظره في كتاب «صور من حياة التابعين» للمؤلف، النّاشر دار الأدب الإسلامي.
(٢) حيّاه وبيّاه: قال له حياك الله، وبياك أي رفع مقامك.
(٣) يَعْزُبُ: يبعد.

فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً ، وَإِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً .

فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو : أَأَنْتَ تَقُولُ ذَلِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ؟! .

فَقَالَ « النَّجَاشِيُّ » : إِي وَاللَّهِ ... فَأَطِعْنِي يَا عَمْرُو وَآمِنْ بِمُحَمَّدٍ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ .

* * *

وَدَّعَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ « الْحَبَشَةَ » ، وَمَضَىٰ عَلَىٰ وَجْهِهِ لَا يَدْرِي مَا يَفْعَلُ . فَقَدْ أَخَذَتْ كَلِمَاتُ « النَّجَاشِيِّ » تَهُزُّ فُؤَادَهُ هَزًّا ...

وَظَلَّ حَدِيثُهُ عَنْ مُحَمَّدٍ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ يَدْفَعُهُ إِلَىٰ لِقَائِهِ دَفْعًا .

لَكِنَّهُ لَمْ يُكْتَبْ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ .

حَيْثُ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلدِّينِ الْجَدِيدِ ؛ فَمَضَىٰ يَحُثُّ الْخُطَا نَحْوَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ لِلِقَاءِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ وَإِعْلَانِ إِسْلَامِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ .

وَفِيمَا هُوَ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ الْتَقَىٰ بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، وَعُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ وَهُمَا يَمْضِيَانِ إِلَىٰ حَيْثُ يَمْضِي ، وَيَقْصِدَانِ مَا يَقْصِدُ .

فَانْضَمَّ إِلَيْهِمَا وَمَضَىٰ مَعَهُمَا ...

فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ بَايَعَهُ كُلٌّ مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، وَعُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ .

ثُمَّ بَسَطَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ يَدَهُ لِعَمْرٍو ؛ فَقَبَضَ عَمْرٌو يَدَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ...

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (مَا لَكَ يَا عَمْرُو) ؟! .

فَقَالَ : أُبَايِعُكَ عَلَىٰ أَنْ يُغْفَرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي .

فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (إِنَّ الْإِسْلَامَ وَالْهِجْرَةَ يَجُبَّانِ[1] مَا قَبْلَهُمَا) ... فَبَايَعَهُ عِنْدَ ذَلِكَ.

لَكِنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ تَرَكَتْ أَثَرَهَا فِي نَفْسِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَكَانَ يَقُولُ:

وَاللَّهِ مَا مَلَأْتُ عَيْنَيَّ مِنَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَا تَمَلَّيْتُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ حَتَّى لَحِقَ بِرَبِّهِ.

* * *

وَقَدْ نَظَرَ الرَّسُولُ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِنُورِ النُّبُوَّةِ، وَعَرَفَ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ طَاقَاتٍ فَذَّةٍ، فَأَمَّرَهُ عَلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ «ذَاتِ السَّلَاسِلِ» عَلَى الرَّغْمِ مِمَّنْ كَانَ فِي الْجَيْشِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَصْحَابِ السَّابِقَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ.

* * *

وَلَمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِنَبِيِّهِ ﷺ، وَآلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الصِّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَبْلَى عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي حُرُوبِ الرِّدَّةِ أَعْظَمَ الْبَلَاءِ ...

وَبَادَرَ الْفِتْنَةَ بِحَزْمٍ يُذَكِّرُ بِحَزْمِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ...

فَقَدْ نَزَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِبَنِي «عَامِرٍ»، فَإِذَا بِزَعِيمِهِمْ «قُرَّةَ بْنِ هُبَيْرَةَ» يَهِمُّ بِالرِّدَّةِ وَيَقُولُ لَهُ:

يَا عَمْرُو، إِنَّ الْعَرَبَ لَا تَطِيبُ لَهُمْ نَفْسًا بِهَذِهِ الْإِتَاوَةِ الَّتِي فَرَضْتُمُوهَا عَلَى النَّاسِ [يَعْنِي بِهَا الزَّكَاةَ].

فَإِنْ أَعْفَيْتُمُوهَا مِنْ ذَلِكَ سَمِعَتْ لَكُمْ وَأَطَاعَتْ ...

وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَا تَجْتَمِعُ عَلَيْكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ ...

(١) يَجُبُّ: يقطع ويمحو.

فَصَاحَ عَمْرٌو بِزَعِيمِ بَنِي «عَامِرٍ»، وَقَالَ:

وَيْحَكَ[1]!! أَكَفَرْتَ يَا «قُرَّةُ»؟! ... وَهَلْ تُخَوِّفُنَا بِرِدَّةِ الْعَرَبِ؟! ...

فَوَاللَّهِ لَأُوَطِّئَنَّ عَلَيْكَ الْخَيْلَ فِي خِبَاءِ أُمِّكَ.

* * *

وَلَمَّا لَبَّى الصِّدِّيقُ نِدَاءَ رَبِّهِ، وَأَسْلَمَ الزِّمَامَ[2] إِلَىٰ يَدِ الْفَارُوقِ - خَيْرِ يَدٍ تُلْقَىٰ إِلَيْهَا الْأَزِمَّةُ - اسْتَعَانَ الْفَارُوقُ بِقُدُرَاتِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَخِبْرَاتِهِ، وَوَضَعَهَا فِي خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ...

فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ سَوَاحِلَ «فِلَسْطِينَ» بَلَدًا بَعْدَ بَلَدٍ...

وَهَزَمَ جُيُوشَ الرُّومِ جَيْشًا بَعْدَ جَيْشٍ، ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَىٰ حِصَارِ «بَيْتِ الْمَقْدِسِ».

وَقَدْ شَدَّدَ عَمْرٌو الْحِصَارَ عَلَىٰ أُولَى الْقِبْلَتَيْنِ وَثَالِثِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ حَتَّىٰ زَرَعَ الْيَأْسَ فِي نَفْسِ «أَرْيَطُونَ» قَائِدِ جَيْشِ «الرُّومِ».

وَحَمَلَهُ عَلَىٰ التَّخَلِّي عَنِ الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَاللِّوَاذِ[3] بِالْفِرَارِ فَاسْتَسْلَمَتِ «الْقُدْسُ» لِلْمُسْلِمِينَ.

عِنْدَ ذَلِكَ رَغِبَ بِطْرِيقُهَا[4] أَنْ يَتِمَّ التَّسْلِيمُ بِحُضُورِ الْخَلِيفَةِ نَفْسِهِ.

فَكَتَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِلْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ؛ يَسْتَدْعِيهِ لِاسْتِلَامِ «بَيْتِ الْمَقْدِسِ»... فَحَضَرَ وَوَقَّعَ وَثِيقَةَ[5] الِاسْتِلَامِ.

---

(١) وَيْحَكَ: كلمة يراد به الترحم، أو الدعاء عليه بمعنى ويلك.
(٢) أسلم الزِّمَام: أسلم القيادة ليد الفاروق.
(٣) اللِّوَاذ بالفِرار: الاحتماء عن طريق الهروب.
(٤) البِطْرِيق: رجل الدين وكبيرهم عند النصارى.
(٥) وَثِيقَةَ الاستِلَام: الوثيقة، الصك المكتوب باستلام بيت المقدس.

وَآلَتِ «الْقُدْسُ» إِلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ عَلَىٰ يَدَيْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَانَ الْفَارُوقُ إِذَا ذُكِرَ أَمَامَهُ حِصَارُ «بَيْتِ الْمَقْدِسِ»، وَمَا أَبْدَىٰ فِيهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِنْ بَرَاعَةٍ يَقُولُ:

لَقَدْ رَمَيْنَا «أَرْيَطُونَ» الرُّومِ «بِأَرْيَطُونِ» الْعَرَبِ.

ثُمَّ تَوَّجَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ انْتِصَارَاتِهِ الْكُبْرَىٰ بِفَتْحِ «مِصْرَ»، وَضَمَّ هَٰذِهِ الدُّرَّةِ الثَّمِينَةِ إِلَىٰ عِقْدِ الْإِسْلَامِ.

وَبِذَلِكَ فَتَحَ أَمَامَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ أَبْوَابَ إِفْرِيقِيَّةَ، وَبِلَادِ «الْمَغْرِبِ»، ثُمَّ «إِسْبَانْيَا» بَعْدَ ذَلِكَ[١].

وَقَدْ تَمَّ لَهُمْ هَٰذَا كُلُّهُ فِي نَحْوِ نِصْفِ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ.

* * *

وَلَيْسَتْ هَٰذِهِ هِيَ كُلُّ مَزَايَا عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا كَانَ عَمْرٌو أَحَدَ دُهَاةِ[٢] الْعَرَبِ الْمَعْدُودِينَ، وَوَاحِدًا مِنْ عَبَاقِرَتِهِمُ الْأَفْذَاذِ النَّادِرِينَ.

وَلَعَلَّ مِنْ أَطْرَفِ صُوَرِ دَهَائِهِ وَذَكَائِهِ مَا سَلَكَهُ فِي فَتْحِ «مِصْرَ»؛ فَقَدْ ظَلَّ يُغْرِي الْفَارُوقَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِفَتْحِهَا حَتَّىٰ أَذِنَ لَهُ...

وَعَقَدَ لَهُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ.

فَمَضَىٰ عَمْرٌو بِجُنْدِهِ لَا يَلْوِي عَلَىٰ شَيْءٍ[٣]؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ رَحِيلِهِ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ دَخَلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ[٤] عَلَىٰ عُمَرَ وَقَالَ لَهُ:

---

(١) انظر كتاب الطريق إلىٰ الأندلس لجهات وتطوف للمؤلف.

(٢) الدُّهَاة: الماكرين المخادعين.

(٣) لَا يَلْوِي عَلَىٰ شَيْءٍ: لا يلتفت إلىٰ ما وراءه، ولا يتردد في فعله. (٤) عُثْمَان بْنُ عَفَّان: انظره ص ٥٣٥.

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ عَمْرًا لَمِقْدَامٌ[1] جَرِيءٌ ...

وَإِنَّ فِيهِ حُبًّا لِلْإِمَارَةِ ...

فَأَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَرَجَ إِلَىٰ « مِصْرَ » فِي غَيْرِ عُدَّةٍ وَلَا عَدَدٍ ، فَيُعَرِّضُ الْمُسْلِمِينَ لِلْهَلَكَةِ .

فَنَدِمَ الْفَارُوقُ عَلَىٰ إِذْنِهِ لِعَمْرٍو بِفَتْحِ « مِصْرَ » ، وَبَعَثَ خَلْفَهُ رَسُولًا يَحْمِلُ إِلَيْهِ كِتَابًا مِنْهُ بِهَٰذَا الشَّأْنِ .

* * *

أَدْرَكَ الرَّسُولُ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ فِي « رَفَحَ » مِنْ أَرْضِ « فِلَسْطِينَ » ؛ فَلَمَّا عَلِمَ عَمْرٌو بِقُدُومِ الرَّسُولِ مِنْ عِنْدِ الْفَارُوقِ ، وَأَنَّهُ يَحْمِلُ إِلَيْهِ كِتَابًا مِنْهُ ، تَوَجَّسَ[2] خِيفَةً مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي مَعَهُ .

فَمَا زَالَ يَتَشَاغَلُ عَنِ اسْتِقْبَالِهِ وَيُغِذُّ[3] السَّيْرَ حَتَّىٰ بَلَغَ قَرْيَةً مِنْ عَرِيشِ « مِصْرَ » ...

عِنْدَ ذَلِكَ اسْتَقْبَلَهُ وَأَخَذَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ وَفَضَّهُ ؛ فَإِذَا فِيهِ :

« إِنْ أَدْرَكَكَ كِتَابِي هَٰذَا قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ أَرْضَ « مِصْرَ » فَارْجِعْ إِلَىٰ مَوْضِعِكَ ...

وَإِنْ كُنْتَ دَخَلْتَ أَرْضَهَا فَامْضِ لِوَجْهِكَ » .

فَدَعَا بِالْمُسْلِمِينَ وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ الْفَارُوقِ ، وَقَالَ :

أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّنَا فِي أَرْضِ « مِصْرَ » ؟ .

---

(١) الْمِقْدَام : الجريء في التقدم على الأخطار واقتحامها .
(٢) تَوَجَّسَ خِيفَةً : شك في الأمر وتملكه الوسواس .
(٣) يُغِذُّ السَّيْرَ : يحث السير ويشتد فيه .

فَقَالُوا : بَلَىٰ .

فَقَالَ : فَلْنَمْضِ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

وَكَانَ أَنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ « مِصْرَ » .

* * *

وَمِنْ طَرَائِفِ ذَكَائِهِ وَدَهَائِهِ أَيْضًا ، أَنَّهُ حِينَ كَانَ يُحَاصِرُ أَحَدَ حُصُونِ « مِصْرَ » الْمُمَنَّعَةِ[1] ، بَعَثَ بِطْرِيقُ الرُّومِ يَطْلُبُ مِنْ قَائِدِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِرَجُلٍ مِنْ عِنْدِهِ ؛ لِيُنَاظِرَهُ ، وَيُفَاوِضَهُ .

فَنَدَبَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسَهُمْ لِذَلِكَ .

لَكِنَّ عَمْرًا قَالَ : إِنِّي سَأَكُونُ رَسُولَ قَوْمِي إِلَيْهِ .

ثُمَّ مَضَىٰ إِلَىٰ الْبِطْرِيقِ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ الْحِصْنَ عَلَىٰ أَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنْ لَدُنْ[2] قَائِدِ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

الْتَقَىٰ بِطْرِيقُ الرُّومِ بِعَمْرٍو وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ ...

وَدَارَ بَيْنَهُمَا حِوَارٌ نَمَّ عَنْ[3] عَبْقَرِيَّةِ عَمْرٍو ، وَحِنْكَتِهِ[4] ، وَذَكَائِهِ فَعَزَمَ بِطْرِيقُ الرُّومِ عَلَىٰ الْغَدْرِ بِهِ ، وَزَوَّدَهُ بِعَطِيَّةٍ سَنِيَّةٍ[5] ، وَأَمَرَ حُرَّاسَ الْحِصْنِ بِأَنْ يَقْتُلُوهُ قَبْلَ مُغَادَرَتِهِ الْخَنْدَقَ .

لَكِنَّ عَمْرًا رَأَىٰ فِي عُيُونِ الْحُرَّاسِ مَا أَثَارَ رِيبَتَهُ ؛ فَعَادَ أَدْرَاجَهُ وَقَالَ لِلْبِطْرِيقِ :

(١) الْمُمَنَّعَةِ : المنيعة الحصينة .
(٢) من لَدُن : من عند .
(٣) نَمَّ عَن : أظهر .
(٤) الْحِنْكَة : الخبرة والتجربة .
(٥) عطيّة سَنِيّة : جائزة كبيرة .

إِنَّ الْهِبَةَ الَّتِي وَهَبْتَنِيهَا ـ أَيُّهَا السَّيِّدُ ـ لَا تَكْفِي أَبْنَاءَ عَمِّي جَمِيعًا، فَهَلَّا أَذِنْتَ لِي بِأَنْ آتِيَكَ بِعَشَرَةٍ مِنْهُمْ لِيَنَالُوا مِنْ كَرِيمِ عَطَائِكَ مَا نِلْتُ ؟.

فَسُرَّ الْبِطْرِيقُ بِذَلِكَ، وَمَنَّىٰ نَفْسَهُ بِقَتْلِ عَشَرَةٍ مِنْهُمْ بَدَلًا مِنْ وَاحِدٍ ...

فَأَشَارَ إِلَىٰ حُرَّاسِ الْحِصْنِ بِأَنْ يُخَلُّوا سَبِيلَهُ.

وَكُتِبَتْ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ النَّجَاةُ.

وَلَمَّا فُتِحَتْ «مِصْرُ»، وَتَمَّ اسْتِسْلَامُهَا لِلْمُسْلِمِينَ الْتَقَىٰ بِطْرِيقُ الرُّومِ بِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ؛ فَقَالَ لَهُ فِي دَهْشَةٍ:

أَهَٰذَا أَنْتَ ؟.

فَقَالَ: نَعَمْ ... عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْ غَدْرِكَ.

* * *

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ بَيَانًا، وَأَفْصَحِهِمْ لِسَانًا ...

حَتَّىٰ إِنَّ الْفَارُوقَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَانَ يَرَىٰ فِي فَصَاحَتِهِ آيَةً عَلَىٰ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

فَكَانَ إِذَا رَأَىٰ رَجُلًا يَتَلَجْلَجُ قَالَ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ...

إِنَّ خَالِقَ هَٰذَا وَخَالِقَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَاحِدٌ.

وَمِنْ بَلِيغِ كَلَامِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَوْلُهُ: الرِّجَالُ ثَلَاثَةٌ:

رَجُلٌ تَامٌّ، وَنِصْفُ رَجُلٍ، وَلَا شَيْءَ.

أَمَّا الرَّجُلُ التَّامُّ، فَهُوَ الَّذِي كَمُلَ دِينُهُ وَعَقْلُهُ ...

فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ أَمْرًا اسْتَشَارَ أَهْلَ الرَّأْيِ؛ فَلَا يَزَالُ مُوَفَّقًا.

وَأَمَّا نِصْفُ الرَّجُلِ، فَهُوَ الَّذِي يُكَمِّلُ اللَّهُ لَهُ دِينَهُ وَعَقْلَهُ ...

فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ أَمْرًا لَمْ يَسْتَشِرْ فِيهِ أَحَدًا، وَقَالَ: أَيُّ النَّاسِ أَتْبَعُهُ وَأَتْرُكُ رَأْيِي لِرَأْيِهِ؟ فَيُصِيبُ وَيُخْطِئُ.

وَأَمَّا الَّذِي لَا شَيْءَ، فَهُوَ مَنْ لَا دِينَ لَهُ وَلَا عَقْلَ؛ فَلَا يَزَالُ مُخْطِئًا مُدْبِرًا ...

وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَشِيرُ فِي الْأَمْرِ حَتَّىٰ خَدَمِي.

* * *

وَلَمَّا مَرِضَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مَرَضَ الْمَوْتِ وَأَحَسَّ بِدُنُوِّ الْأَجَلِ[1] غَلَبَتْهُ الْعَبْرَةُ[2]، وَقَالَ لِابْنِهِ:

كُنْتُ عَلَىٰ ثَلَاثِ حَالَاتٍ عَرَفْتُ نَفْسِي فِيهَا ...

كُنْتُ أَوَّلَ شَيْءٍ كَافِرًا؛ فَلَوْ مِتُّ حِينَئِذٍ لَوَجَبَتْ لِيَ النَّارُ ...

فَلَمَّا بَايَعْتُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ كُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً مِنْهُ حَتَّىٰ إِنِّي مَا مَلَأْتُ عَيْنَيَّ مِنْهُ قَطُّ؛ فَلَوْ مِتُّ حِينَئِذٍ لَقَالَ النَّاسُ:

هَنِيئًا لِعَمْرٍو أَسْلَمَ عَلَىٰ خَيْرٍ، وَمَاتَ عَلَىٰ خَيْرٍ ...

ثُمَّ تَلَبَّسْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَشْيَاءَ؛ فَلَا أَدْرِي أَعَلَيَّ أَمْ لِي؟.

ثُمَّ أَدَارَ وَجْهَهُ إِلَىٰ الْجِدَارِ وَهُوَ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ أَمَرْتَنَا فَعَصَيْنَا ...

وَنَهَيْتَنَا فَمَا انْتَهَيْنَا ...

---

(١) الْأَجَل: الْوَفَاة.
(٢) الْعَبْرَةُ: الدَّمعة.

وَلَا يَسَعُنَا إِلَّا عَفْوُكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي مَوْضِعِ الْغُلِّ مِنْ عُنُقِهِ ، وَرَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ :

اللَّهُمَّ لَا قَوِيٌّ فَأَنْتَصِرُ ...

وَلَا بَرِيءٌ فَأَعْتَذِرُ ...

وَمَا أَنَا بِمُسْتَكْبِرٍ ...

وَ إِنَّمَا مُسْتَغْفِرٌ ...

فَاغْفِرْ لِي يَا غَفَّارُ .

وَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا حَتَّى فَاضَتْ رُوحُهُ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار عمرو بن العاص انظر :

١ - الإصابة : ٣/٢ أو «الترجمة» ٥٨٨٢.

٢ - الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ٢/٥٠٨.

٣ - أسد الغابة: ٤/٢٤٤.

٤ - تهذيب التهذيب: ٨/٥٦.

٥ - العبر: ١/٥١.

٦ - قادة فتح بلاد الشام ومصر: ١٢٣.

٧ - تاريخ الإسلام للذهبي: ٢/٢٣٥.

٨ - الأعلام: ٥/٢٤٨.

فهرس ألفبائي للصحابة

(أ)

(ب)

(ط)

(ع)

محتوىٰ الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الكتاب الثّالث

الكتاب الرّابع

الموضوع	الصفحة

الكتاب الخامس

الكتاب السّادس

الموضوع	الصفحة

الكتاب السّابع

الكتاب الثّامن